Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



أمين الريحاني

المغرب الأقصى

رحلة في منطقة الحماية الأسبانية

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

964
R44

45246D

توطئة

بعد أن قام أمين الريحانى برحلته إلى جزيرة العرب ، ووضع لها كتابه « ملوك العرب » ، رأى لزاماً عليه أن يتبع تلك الرحلة برحلات إلى كل قطر من الأقطار العربية ، وأن يكون كتاب « ملوك العرب » حلقة من سلسلة كتب عن تلك الأقطار ، « فالتنافر بينها مصدره الجهل والتباعد ، ولا يزيله سوى التقارب فالتفاهم فالحب . فسلسلة من الكتب تعنى بأحوالها كلها وتعرض لجميع مناحى الخير والضعف فيها تكون خير سفير لتعاطف هذه الأقطار وتقاربها ووحدتها ».

بهذه العقيدة خرج أمين الريحانى من رحلته فى الجزيرة العربية ، فصمّم على القيام برحلات تماثلها إلى إيران والعراق وسوريا وفلسطين وشرقى الأردن ومصر ولبنان فالمغرب . وما إن باشر هذه السلسلة من الرحلات ووضع فيها كتبه : « ملوك العرب » ، و« قلب العراق » ، و« قلب لبنان » ، وهذا الكتاب الأخير عن « المغرب الأقصى » ، حتى عاجله الأجل وحال دون تحقيق حلمه الذهبى فى وسط الطريق .

وما توخاه الريحانى ورمى إليه من وراء هذا العمل إنما هو — كما سبق وذكرت — التعارف فالتقارب فالتحابّ . وما تكاد تطالع أيها القارئ كتاب « المغرب الأقصى » حتى يدب الحب فى صدرك إلى هذا القطر العزيز فتشعر ، وإن كنت غير مغربى ، بأنك تعرفه وأنك قريب منه ولك فيه خلان وأقارب وأصحاب .

وعسى أن يُلهَم أديب من أدبائنا العرب فيكمّل ما بدأه الريحانى وتخلف عنه قهراً .

ألبرت الريحانى

مقدمة

بعد رحلاتى العربية المتعددة ، التى استأثرت بى بضع سنوات ، نشأت الرغبة فى رحلة إلى بلاد عربية أخرى ، أسماها العرب الأقدمون المغرب الأقصى .

وما كانت هذه الرغبة بأقل إلحاحاً واستبداداً من الرغبات فى الرحلات التى تقدمتها ، بل كانت أشدّ وأحدّ فنفذت إلى أقصى نواحى النفس ، وصارت تحنّ كالقلب الفتىّ ، قلب العاشق ، إلى ذلك البلد العربى فى أفريقيا الغربية الشمالية .

وما كنت أقصر فى المحاولات الحكيمة للتخفيف عن النفس حمل الشوق والحنين . فكنت أتفلسف تفلسفاً بارعاً فى التأويل والتحليل لما كان يحول دون تخفيف الرغبة من المقادير .

أما المقادير فليست كلها من النوع الذى لا يد للإنسان فيه . نعم إن بعض التبعة فيها علىّ . فقد نشأت عن إرادة معقودة بشؤون الحياة المادية والأدبية والوطنية . ومع أنى كنت أستطيع أن أغيّر أو أعطف بعض مجاريها ، فأطلب رزقى فى وطنى الأول أو فى ما جاوره من الأوطان — كمصر مثلا — وأحصر أدبى فى لغة الأجداد ، ولا أحمل وطنيتى تبعة الجهاديّين فى وطنى وعبر البحار — كنت أستطيع ذلك ، وما فعلت . فما السبب ؟

هناك أسباب : أولها أنى هجرت بلادى وأنا فى العاشرة من سنى ، فكانت نيويورك مسرح ألعابى ومغامراتى ، وطبعت نفسى بطابعها الخاص ، فصرت من أبنائها . وعندما حاولت الانطلاق من قيود تلك العبودية فى ما كان من رحلاتى

العربية ، لم أتوفق كل التوفيق لأن تلك الرحلات جددت ، فى بعض نتائجها ، حق نيويورك ، بل حق أميركا علىّ .

والبيان كله فى السبب الثانى ، وهو أن لغة شكسبير سبقت لغة أبى العلاء المعرّى إلى لسانى وقلمى — كدت أقول أيضاً وقلبى — فوقعت فى فخ التأليف هناك قبل أن وقعت فيه هاهنا فى وطنى الأول .

بقى السبب الثالث ، أو قل القيد الثالث ، وهو أشد القيود وأثقلها . ولا بدّ ، وأنا ذاكره ، من العودة إلى الرحلات العربية ، تلك الرحلات التى فرضت علىّ الجهاد فى سبيل قضية وطنية قومية هى قضيتى — وأنا من سلالة قحطان — كما هى قضية ابن صنعاء أو العارض أو الرافدين .

ومن عجيب ما حدث فى ارتقائى الفكرى وتطورى الوطنى — إذ كان من الواجب علىّ أن أكون أميركيًّا قلباً وقالباً ، لبًّا وقشراً ، مائة بالمائة كما يقال — من عجيب ما حدث ليفسد ذلك الواجب هو أنى نهضت ذات ليلة من نومى ، عند صياح الديك ، وأنا أتصور نفسى أكبر من أميركا !

أنا اللبنانى العربى المفكر الوحيد — لله درّى — بين مائة وعشرين مليوناً من الناس غير المفكرين ممتزجين امتزاجاً مقدوراً معتكراً ، وهم جميعاً يفاخرون بأمريكيتهم ، بلسان صحافتهم وحكومتهم و(هليوودهم) ، ولا يهمهم من العالم سواها . إنما العالم أميركا . وكل ما سوى أميركا لا يساوى فستقة من فستق العبيد !

هذه النزعة التى امتاز بها الرومان ، فى قديم الزمان ، ثم هلكوا بها ، ولّدت فىّ أنا اللبنانى ، العربى ، الأميركى ، الوحيد المفكر ، بعض العطف على الشعب المزدحم فى غابات المدن هناك بين جبال من ناطحات السحاب ، فى غابات وبين جبال من الجهل . وولدت مع العطف واجباً فى إنقاذ أولئك الآدميين من ذلك الجهل . كيف لا وقد تيقنت أنهم يجهلون كل ما أعلم أنا ،

ولا أجهل أنا كل ما يعلمون وإن قلّ واعتلّ .

هو الغرور — غرور العبقرية وبعض الأساتذة فى الجامعات الكبرى ! علموا الشعب ، أنيروا ذهن الأمة ، علموه فلا يشقى ، أنيروا ذهنها فلا تهلك كما هلكت روما ، وكما هلكت بابل قبلها فى قديم الزمان . فيا إخوان ضون كيخوته (دون كيشوت) أيها الجالسون فى كراسى الأستاذية ، المتشعثون فى بوادى العبقرية ، لا معلم للأمم والشعوب غير الفقر والعذاب . وبكلمة أصح لا معلم للأمم والشعوب غير الزمان وبيديه السوطان : الفقر والمذلة .

لكنى أنا اللبنانى العربى أريد أن أعلم الأمة الأميركية شيئاً يسيراً من العلم الذى لا يجرح كبرياءها ولا يمس بضرّ غناها . أريد أن أعلمها أوليات العلم بالأمة التى أنا منها — كنت ولا أزال منها ، اليوم وغداً ، وعلى الدوام — أى الأمة العربية .

ورأيتنى أعيد الـ (كيخوتية) — عفواً يا سيدى سرفنتس — إلى أصلها العربى ، وإن تغرب لسانها . رأيتنى أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية ، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنجليزية ، وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية ، الإنكليزية ، لأفهم العالم الجديد ، رومان هذا الزمان ، أن فى العالم غير أميركا والأميركان ، وأنهم هالكون حتماً إذا استمروا فى جهلهم أو استقووا . والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة فى الطهر والسذاجة ، قلباً ووجهاً ، كانوا يصفقون للخطيب ، ويرحبون به وبعلمه . فازدادت الرغبتان : رغبتهم فى التعلم ورغبتى فى التعليم — بارك الله فىّ وفيهم .

وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية .

على أن النكبة الكبرى فى قطر من الأقطار العربية ، أى نكبة فلسطين بالصهيونية ، نقلتنى من التعميم إلى التخصيص ، دفاعاً عن إخوانى العرب فى وطنهم الذى يريده اليهود وطناً قومياً لهم . واليهود فى أميركا ، مثل الرومان فى

رومة قديماً ، ومثل طبقة البورجوازيين فى فرنسا اليوم ، يملكون قسطاً وافراً من ثروة البلاد ، ويسيطرون بعبقريتهم المالية والقومية على العوامل السياسية .

وإن عاصمة تلك السيطرة اليهودية نيويورك .

عُرضت على مسارح المدينة فى أحد مواسم التمثيل روايتان فى مسرحين متقابلين فى شارع واحد ، عنوان إحدى الروايتين : «من هو صاحب نيويورك؟» وعنوان الأخرى : «اليهودى» ! فهاك السؤال والجواب كانا ينشران بالأنوار الكهربية الفضية والذهبية : نيويورك لليهود .

وهذا اللبنانى العربى يحمل الترس والرمح ، كما حملهما ضون كيخوته ده لامنشا حقبة من الدهر ، فى سبيل الحق والعدل والفضيلة ، على معاقل إسرائيل ، على حصون يهوذا . ويلك يانيويورك ! ويلك ، اكتبى الحجة ليهودك بماء الذهب ، وسجليها فى سجل الصيارفة والكهان ، ومثّلى روايتها ، بالأفلام والكلام ، على ألفى مسرح وشاشة . وبعد ذلك ؟ ماذا بعد ذلك ؟ ستستفيقين ذات يوم ، قبل صياح الديك ، وستصفرين صفير الهول والهلع ، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربى البارّ ، الحق أصدق أنباء من الدولار !

وتكررت الرحلات من الفريكة إلى نيويورك — وتكررت الصولات الضون كيخوتية ، فانكسرت رماح ، وتجددت رماح . ورفعت للعرب فوق معاقل الجهل والظلم ، وفوق حصون الصيارفة ، وفوق منابر الجامعات والأندية السياسية والثقافية ، أعلامٌ ورايات قد دبجت بأشرف الآيات . فقال بعضهم مستهزئين : كلام وأوهام . وقال بعضهم الآخر : كلام فيه سلام . وقال الكبراء فيهم ، أى الأغنياء : هذا العربى ابن عمنا ، وهو يجهل حقائق الحياة . فعلينا أن ننير ذهنه بنوريها الفضى والذهبى . فراح الأعوان يبحثون عنه — راحوا ينشدونه بصوت فيه رنات وغنات . وما كان الله صديق العرب ليظفرهم به !

فقال أحد السحرة من خطبائهم : هذه شظية من رمحه . أحرقوها يحضر . . .

حرقوها ، ويا لهول الساعة ! حرقوها فظهر فى البلاد الأميركية ألف ضون كيخوته ، شاهرين الرماح ، وحاملين أعلام العروبة ينشرونها فى الأسواق ، وأمام دور الحكومة الروزفلتية فى العاصمة الأميركية . ارعووا ، يا بنى العم . وتوبوا إلى الله إلهنا وإلهكم . أما فلسطين فهى لأصحاب الحق لا لأصحاب الدولار .

كلام ، وأوهام ، كلام وسلام . وغَلَب المتمردون المسالمين . ثم رجحت كفة المسالمين ، وكدنا نقول : آمين . ولكن بنى العم عتاة قساة ، يحاسبون أتقياءهم منذ أيام الآدون الأكبر ، ويرجمون الأنبياء ، ولا يعرفون من أبجد الكرام ، غير الميم والألف واللام . . .

تكررت الرحلات ، وتعدّدت بيننا وبينهم المناورات والغزوات والوقعات الحربية . فعلمتهم ولا بدّ شيئاً ، وعلمتنا أشياء ، منها أن فى العالم يهوداً غير اليهود العبرانيين ، أسماؤهم إنكليزية مثلا أو أميركية . وهم مثل إخوانهم العبرانيين ، لا يعرفون من أبجد الكرام غير الميم والألف واللام ! فهل يصح وهل يليق أن نستعين بهم على إخوانهم الأصليين ؟ وقد عرف الأخوان العبرانى والأميركى ، كما عرف الأخوان العبرانى والإنكليزى ، أنه قد ينكسر رمح ضون كيخوته ، ولا تنكسر الروح الضون كيخوتية . فالحرب لا تزال قائمة بيننا ، وضون كيخوته لايزال ممتطياً جواده حاملا رمحه ، رائحاً جائياً من الفريكة إلى نيويورك ، ومن نيويورك إلى الفريكة .

هى رحلة طويلة وخصوصاً فى فصل الشتاء حيث اليوم الواحد فى الأوقيانوس يمسى ليلا كله ، ويطول ، والله ، يطول . اثنان وعشرون من هذه الأيام السود الطوال ، قبل أن نصل إلى ساحة القتال . اثنان وعشرون يوماً من الاستجمام ، نستجم ونستعد ونشحذ السلاح ونصقله ، ونتعب من الشحذ والصقل والتأهب .

ولكننا عندما نشاهد ناطحات السحاب ، وهى تبدو لنا كما بدت لضون

كيخوته دواليب الهواء ، نشتعل حماسة ونشاطاً واستبسالا . دواليب الهواء قد سحرت ومُسخت يهوداً . مسخها سحرة الديمقراطية لينجوا من شرها — وما هم بناجين !

دواليب الهواء ، جبابرة إسرائيل ، صيارفة الصهيونية فى فلسطين وفى عاصمة البريطانيين — عليهم يا ضون كيخوته ، عليهم !

أسهبت فى شرح الأسباب التى حالت دون تحقيق الأمنية القصوى بزيارة المغرب الأقصى . وما كنت لأسهب لولا أنى متخذ ، فى تأليف هذا الكتاب السبيل الشريف فى التأليف ، سبيل العباقرة الأقدمين ، سادة زمانهم وفنونهم . فلا طابع يستعجل ، ولاحاجة تستحث ، ولا همّ يحمل على إرهاق القريحة فى الميدان ، أو على انتهاك حرمة الفكر فى البستان . وفى الإسهاب تعريج ، وفى التعريج مرح وتفريج . هى الحسنة الجامعة فى التأليف والمطالعة .

إذن سأسوقها إليك سوق الهون . لا رغبة فى راحتى فقط بل رغبة كذلك فى راحتك ، أيها القارئ ، فلا تتعب ولا تسأم ولا تُظلم ولاتهان . أما إذا كنت ممن يطالعون الكتب على الطريقة السينمائية ، فتعدو فى صفحاتها عَدْوَ الفارّ من النار ، ثم تثب من صفحة إلى أخرى وثب السعدان على الأفنان ، فلا دواء لك عندى .

بيد أنى أتمنى لك شيئاً من النعمة التى تلزمنى فى التأليف ، نعمة الصبر والتؤدة ، فلا تستعجلنى إن وقفت حائراً أو مفكراً ، ولا تستوقفنى إن سرت منذراً أو مذكراً . فلعل صورة من صور الجمال تستحيل شرًّا مستطيراً . ولعل بعض الشر فى الناس — سياسيين كانوا أم تجاراً — ينقلب خيراً شاملا . والسر فى التفكير الهادئ ، والتعريج المطمئن .

قلت إن الرحلة الكيخوتية من الفريكة إلى نيويورك رحلة طويلة مملة وخصوصاً فى فصل الشتاء . وهى فوق ذلك ، عند ملتقى البحرين ، مؤلمة لصاحب القلب

المتنقل بالشوق والحنين . هناك ، فى ذلك المضيق ، حيث يتصل البحر الأبيض بالأوقيانوس وتدنو الشواطىء الأوربية والأفريقية بعضها من بعض ، يتلفّت ذلك القلب إلى الجبال الأفريقية المكلّلة بالضباب الشفاف والضياء . تلفّت العاشق المشتاق . هناك الغصّات والحنين تذهب بها فى اليوم التالى ظلمات الأوقيانوس وأنواؤه . ثم نعود من الرحلة المباركة ، فنصل إلى ذلك المضيق . فتعود هى — تعود الغصات ، ويعود الحنين .

فهذا جبل طارق بن زياد ، لم يبق من عروبته غير اسمه وبعض الآثار فى أعاليه . ومن ذلك الجبل — من شاطئه الهادئ — يقلّنا مركب تجارى صغير إلى الرأس الغربى الجنوبى من الشاطىء الأفريقى حيث تتمطّى المدينة العربية الجميلة : طنجة . تتمطّى فى ظلال الفردوس الدولى ، مطمئنة آمنة ، راضية مرضية — أو شبه ذلك — شهدت القلوب أم لم تشهد . ومن طنجة — مسقط رأس رحالتنا ابن بطوطة — إلى أول ميناء فى أفريقيا الأطلنطيقية ، إلى أصيلة . ومنها إلى العرائش فالدار البيضاء . أسماء عربية شريفة ، ما تغيرت منذ وطئت أقدامُ العرب البلاد .

وهاهنا ، قبالة صخرة طارق ، البلدة الإسبانية الوجه اليوم ، العربية الاسم أبداً : الجزيرة . ومن الجزيرة فى مركب بخارى أصغر من المركب الأول — مركب إسبانى — إلى أقرب بلدة أفريقية من الصخرة الشهيرة : من الجزيرة إلى سبتة — سبتم الرومان ، سبتة العرب ، سوتا الإسبان . وما أقرب تلك المدينة الرومانية العربية الإسبانية ، من الأمنية القصوى . ساعة فى ذلك المضيق . . . ولكننا لا نزال على ظهر الباخرة المشرقة .

تختفى القلاع ، ويختفى المضيق ، وتذوب الشواطىء الأفريقية فى بحيرات من الضباب والضياء ، ثم تتكون عند أول بلدة فى الجزائر — أو آخر بلدة حسب اتجاهك — فتقف أنت أمام وهران ، أو تقف وهران أمامك ترحب بك .

عرّج على وهران وسلّم على تلمسان – (اتلمسان المغاربة) عاصمة الزناتيين – وهناك غرباً بجنوبٍ : فاس ، حيث تمرّن ابن خلدون على خدمة الملوك المرينيين (بنى مرين) وأقام سنتين ، جزاء ذلك ، فى السجن .

هى اتلمسان جارة وهران ، وعاصمة الدولة الزناتية فى قديم الزمان . ومن اتلمسان غرباً بجنوبٍ نصل إلى وادى ملويه ، إيوان الجبل العظيم ، فى قلب المغرب الأقصى ، ذلك الجبل المعروف اليوم بالأطلس ، وهو فى لغة العرب (عن ابن خلدون) جبل دَرَن (١).

سر فى ذلك الوادى تصل إلى الممر الشهير بين الجزائر والمغرب ، ممر تاز ، ثم إلى تلك العاصمة المغربية القديمة المسماة بهذا الاسم ، ومنها إلى مراكش ، إلى مكناس ، إلى فاس ، مدينة إدريس الكبير .

المغرب الأقصى ! ما كان أشد الحنين إليه ! ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن . والأصح أن أقول : تجرى السفينة بما لا يشتهيه واحد فى الأقل من المسافرين . تجرى فى بحر من الشوق ولا تستقر .

رحلة تلو الرحلة وشمس الحبيب تشرق بعيداً وتغيب .

وما كانت الأيام لتغيّر ما أمسى كفصل من فصول السنة . وها هى ذى السنة قد دنت من الغروب . وهاك زينات العيد تبشر بقدومه . والصبيان

---

(١) «ابن خلدون» (١٣٣٢–١٤٠٦) ولد فى تونس ، ونقل وهو فى العشرين من سنه إلى فاس ، فدخل فى خدمة السلطان ابن عنان ، وبعد أربع سنوات (نقل) إلى السجن فقضى فيه سنتين (بيان أسباب هذا الحادث فى آخر تاريخه غير مقنع) ثم نقل إلى غرناطة وما طالت أيامه هناك فى خدمة الملك ابن الأحمر ، فعاد إلى أفريقية فعينه فى تلمسان سلطانها ، وما طال أمره حتى خرج من الخدمة ودخل معهداً دينياً ، فراراً من السلاطين ودسائس قصورهم . وقيل إن تلك القصور ارتاحت منه . ثم عاد إلى تونس حيث باشر تأليف تاريخه . ثم شرق يحج فشمله الملك الظاهر بنظره فعينه قاضى المذهب المالكى بالقاهرة . وكانت آخر مغامراته والملوك مقابلته فى دمشق مع ونه علمائها للفاتح المغول تيمورلنك الذى أحب ابن خلدون بغلته فأهداها إليه ، وخاب أمله بكرمه .

والبنات فى الأسواق والحوانيت زينة الزينات . وأنت أيها الراحل : أتعيّد فى البحر؟ أتستقبل العام الجديد فى ظلمات الأوقيانوس ؟ أقول : نعم . وأقول : لا .

ليس فى الظلمات حدود للزمان والمكان . إنما نحن نصطنع الحدود ، ونسميها فى مثل هذه الحال العيدَ . فنلبس له الثياب الرسمية — سوداء أو بيضاء للرجال ، ومن ألوان الشفق السورى والمغيب اللبنانى للنساء — ونكلل رؤوسنا بأكاليل من الورق ، حمراء وخضراء وزرقاء ، ونرقص على نغمات الراديو ، التى ترقص على صدر الرياح ، فوق جبين الأنواء ، وننفخ فى الأبواق كالصبيان عند دنو الساعة ونرفع الأصوات منشدين :

تدور تدور . . .

دوماً تدور . . .

وهذه الأشباح — أشباح السنين ، والليالى والأيام ، أشباح الشموس والأقمار ، أشباح الدول البائدة والمدن المدفونة ، أشباح الآمال والأشواق ، أشباح الشباب والحب ، والثراء والسعادة — كلها تدور . . . تدور وهذه الدنيا . كرة من التراب فى جو من الأشباح ، ترى ولا ترى . ترى بعين الخيال إن لم تكن رمداء ، ولا ترى بالعيون التى تتغازل فى حلقة الرقص والاهتزاز ، على ألحان الـ (جاز) ، أو فوق الكؤوس والقنانى ، أمام الـ (بار) الأميركانى !

تعددت الاحتفالات ساعة دنوّ العامين الواحد من الآخر فى بحر الظلمات قبيل الدنو من المضيق أو بعد اجتيازه ، وأنا ، شريك الناس فى عيدهم ، أسمع القلب يطالبنى بطنجة والعرائش ، وبفاس ومكناس وبجبال الأطلس ، وواحات سجلماسة .

وفى ذات يوم من السنة الثانية من الحرب الإسبانية الأهلية جاءنى صديق يقول : فى جيش فرنكو مائة وثمانون ألفاً من عرب المغرب ، كانوا بالأمس يحاربون الإسبان ، واليوم يحاربون مع فرنكو مستبسلين ، ولا أحد يعرف السبب فى

ذلك . وأنت الراغب فى زيارة المغرب — هاك الفرصة السانحة للسياحة والدرس .

لا ، ياصديقى . ليست الفرصة سانحة لا للدرس ولا للسياحة فالمثل الإسبانى يقول : فى الحرب يمسى الكذب كالتراب ! فأين الفرصة ، وأين المجال الحر للدرس ؟ وليست أخطار الأسفار مستحبة فى أيام الحرب لأنها تعزى إليها ، فتذهب فى عين السائح المجرّب محاسنها ومغرياتها . إلى أميركا إذن ، إلى نيويورك . اجترت المضيق للمرة العاشرة أو الخامسة عشرة ، والقلب رفيق العين يتلفت إلى الشمال وإلى الجنوب . متى تنتهى هذه الحرب الإسبانية الأهلية ؟ متى يعود الخير والهناء إلى هذه البلاد الجميلة ، الزاهية فى أيام السلم بكل زواهى الحياة ؟ !

قطعت الأوقيانوس وأنا أسأل هذا السؤال ، وأعد النفس إذا ما انتهت تلك الحرب بعد انتهاء رحلتى الخطابية أو خلالها — أعدها بالنزهة الكبرى . أعدها بالتعريج البهيج على صخرة طارق ، ومنها إلى فردوس أفريقية — إلى المغرب الذى هو اليوم فى حماية إسبانيا ، إلى المغرب الذى جنّد لفرنكو مائة وستين ألفاً من أبنائه الأشداء البسّل ، إلى المغرب المقيم فيه اليوم مقيم إسبانى عام ولد فى قرطاجنة من مقاطعة مُرْسِيَة ، مسقط رأس شاعرنا الصوفى ابن العربى . وهو — أى المقيم — كما يظهر مما بلغنى من أخباره ، على شىء من التصوف وأشياء سياسية استعمارية غريبة جديرة بالدرس . جديرة بالدرس ؟ ما لنا والدرس .

سأعود من أميركا تعباً ضجراً ، كليلَ قوى العقل والروح . سأعود وبى الرغبة الكبرى فى النزهة الكبرى . أوَلا أستحقها بعد محاربة اليهود فى عقر دارهم أربعة أشهر ؟

وجرت السيارة ، ودرجت دواليب القطار ، وتحركت أجنحة طير

السير الحديث ، هناك فى الولايات المتحدة ، وأنا أتنقل عليها من مدينة إلى أخرى ، ومن منبر فى جامع إلى آخر فى جمعية ثقافية أو ناد سياسى .

وجاءت صحف الأخبار أثناء الرحلة تنبئ بفوز فرنكو ، وتبشر بقرب انتهاء الحرب فى البلاد الإسبانية المحبوبة .

ثم انتهت الحرب وانتهت الرحلة ، فسافرت من نيويورك يوم افتتاح المعرض الكبير ، وسمعت وأنا فى الباخرة أمام الراديو أحد الخطباء يمجد الزمان والتاريخ — وقد تجسدا اليوم فى هذا المعرض العظيم — ضجات استحسان فظيعة !

فيا أيها الضاجّون — أراحنا الله من ضجيجكم — ما المعارض الكبرى والصغرى غير أحابيل من أصناف اللعب والشعوذة للتفريج عن القلوب ، ولصيد ما فى الجيوب ، يتخللها أشياء من ثمار العلوم والفنون والاختراعات .

المعرض العظيم ؟ الجزء الأكبر منه ألاعيب وشعوذات ، والجزء الأصغر علم وفن وثقافة . وهذا الجزء الصغير من الفوائد تجده ، بعد انتهاء المعرض ، فى متاحف المدينة وفى معروضات صناعاتها الدائمة . فلا بأس عليك إن أنت سافرت من نيويورك فى اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان (أبريل) من السنة التاسعة والثلاثين والتسعمائة والألف ، فى الساعة التى افتتح فيها المعرض الأميركى الكبير ، هناك فى قلب الجزيرة الطويلة المجاورة لأختها الصغيرة منهاتان ، التى هى نيويورك بعينها ، والتى تباهى اليوم الجزائر الخالدات فى بحر الظلمات .

وقد اجتزنا ذلك البحر على ظهر ذلك الجبل السارى الحافل بالقصور — كل درجة من درجات السفر فيه قصر فخم قائم بذاته — ذلك الجبل الذى يدعى سفينة اسمها الخاص الكونتى دى ساڤوى . اجتزنا الأوقيانوس بسرعة السيارات فى المسافات البعيدة : ثلاثة آلاف ميل قطعناها فى خمسة أيام

ونصف يوم — فرسَوْنا فى مساء اليوم السادس فى مياه جبل طارق . ثم نزلنا فى الليل ، من باب صغير فى الطابق الأسفل من السفينة إلى مركب بخارى صغير ربط إلى جنبها فبدا كالحبة إلى جنب القبة !

وما كنا نحن القلائل المعرجون على جبل طارق ، لنختلف كثيراً تحت جناح الظلام ، عن اللصوص ، أو ما يشبههم من أبناء الحرام — الجواسيس مثلا — فى نظر الموظف البريطانى الذى فحص جوازات السفر واستنطق كلاً منا استنطاقاً إنكليزيًّا وجيزاً لطيفاً لا إزعاج فيه ولا اطمئنان ! — ما هى مدة إقامتكم فى جبل طارق ؟ وما الغرض منها ؟ وفى أى نُزُل ستنزلون ؟ هاكم الجواز ، « ثنك يو » !

ركبت السيارة إلى النزل الذى سُجِّل اسمه فى سجل الشرطة . وفى اليوم التالى اتصلت برقيًّا بسعادة المقيم العام الكولونيل خوان بايبدر فى تطوان العامرة عاصمة المغرب الشمالى القانع اليوم بالحماية الإسبانية .

أيها القارئ العزيز ، إن كنت فهمت مما تقدم أننا سنسيح فى المغرب الأقصى فنجوب عواصمه كلها ونقطع جبله الأكبر إلى آخر واحة فيه — إلى سجلماسة — فقد أخطأت الفهم . أو أنى أنا المخطىء فى التعبير والتصوير لمنعكسات الشوق . انفسح الخيال فى جو ذلك المغرب الشاسع ، وليس للخيال من رادع فرنسى أو سجلماسى .

وإن كنت فهمت أن هذه السياحة نزهة من النزهات تنشرح لها القلوب وتتجدّد فيها القوى النفسية والبدنية ، الروحية والمادية ، فقد أخطأت الفهم . أو أنى أنا المخطىء فى ما بينت أو فى ما حاولت من التبيين .

وأنا وحدى المسؤول عن ذلك ، الحامل كل ما خبأته الأيام والليالى لنفسى الكليلة المتخومة ، وقد شبعت من مشقات الأسفار الكشفية والاستقصائية ، من متاعب الإكرام والوطنية والسياسة ، فإما أن هذه الرحلة أشدّ الرحلات

فى ما يفرضه الرحالة الصادق الأمين على نفسه ، وأكثرها صعوبات وعقبات ، وإما أنى — وقد تجاوزت الستين — فقدت الكثير من العزم والنشاط لتذليل العقبات والتغلب على المشقات . أما الباقى ، بعدما فقدت ، فهو ذلك النشاط الروحى فى المقاصد الكبيرة ، الذى كنت أتمتع به مع قواى الأخرى فى رحلتى العربية الأولى .

لله من السنين ! ولله من ذلك المقيم الإسبانى الكريم ! فقد كان فى إمكانه أن يقول ، جواباً على برقيتى : ليست البلاد مفتوحة اليوم للزائرين ، وخصوصاً إذا كانوا من المستكشفين ، ولكنه قال ما هو عكس ذلك فى معناه . وانتدب فوق ذلك صديقاً له فى جبل طارق ، معروفاً لدى السلطتين الإنكليزية والإسبانية ، ليرافقنى فى اجتياز الحدود من الصخرة العربية الاسم إلى المدينة الشبيهة اسماً بها المقابلة لها — هناك فى الطرف الغربى من الهلال الأخضر ، إلى الجزيرة .

فإن شئت ، أيها القارئ ، أن ترافقنى فأهلا وسهلا بك . أما مشقات الرحلة فأنت منها بعيد . وقد لا تشعر ، وأنت جالس على كرسّيك — أو مستلق فى فراشك ، تدخن السيكارة أو السيكار أو الأركيلة أو الغليون ، وهذا الكتاب بيدك — أقول قد لا تشعر بغير الملل الذى يلزم كل كتاب فى بعض صفحاته . وقد يكثر مثلها فى هذا الكتاب . فما عليك إذ ذاك غير أن تضعه جانباً — برفق أرجوك لا بعنف — وتستمر فى التدخين ، أو فى النوم ، أو فى ما قد يكون أثار فيك من فكر أو غيظ أو كراهية .

فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم ، يقول كلمته ويمشى ، مشيت أنت معه أم وقفت وتخلفت . فهو لا ينتظر ، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء — القراء — أن يماشيه حتى النهاية . على أنه يقول ، فى ختام هذه المقدمة : إن فى المغرب طبخة يسمونها الحريرة ، هى شبيهة بالحساء ، ولكنها تشتمل

على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير ، فيرسب الأكبر فى قعرها . فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل فى احتسائك إلى القعر — إلى النهاية . فإلى قعر الحريرة — إلى النهاية . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أمين ريحانى

الفريكة — لبنان — فى ٢٥ جمادى الثانية ١٣٥٨
الموافق ١١ آب (أغسطس) سنة ١٩٣٩

الفهرس

الجزء الأول

		صفحة
الفصل الأول	— من الاستقلال إلى الحماية	٢٧
الفصل الثانى	— جبل طارق	٦٢
الفصل الثالث	— طنجة	٧٧
الفصل الرابع	— مثلث الأخطار	٩٩
الفصل الخامس	— من الجزيرة إلى القصر الصغير	١٠٥
الفصل السادس	— معضلة قديمة العهد	١١٨
الفصل السابع	— المدينة البيضاء	١٢٣
الفصل الثامن	— المنطقة الخليفية	١٤٣
الفصل التاسع	— ميزانيات خليفية	١٥٣
الفصل العاشر	— البيت العلوى	١٦٢
الفصل الحادى عشر	— المخزن والمخزنية	١٧٥
الفصل الثانى عشر	— نهضة التعليم	١٨٢
الفصل الثالث عشر	— الأحزاب السياسية	٢٠٢
الفصل الرابع عشر	— الفضل للمتقدم	٢٣٨

الجزء الثانى

		صفحة
الفصل الأول	— الخليفة الحسن	٢٤٥
الفصل الثانى	— أحاديث وأخبار وزيرية	٢٥٣
الفصل الثالث	— الكولونيل خوان بايبدر	٢٧٠
الفصل الرابع	— أعوان وأنصار	٢٩١
الفصل الخامس	— شيفشاون	٣٠٠
الفصل السادس	— العرائش	٣١٦
الفصل السابع	— عمارة الخضر غيلان	٣٣٨
الفصل الثامن	— الشريف الريسونى	٣٥٨

الفصل التاسع — من القصر الكبير إلى القصر بأصيلة . ٣٩٧
الفصل العاشر — جحيم السجون ونعيمها . . . ٤١٠
الفصل الحادى عشر — فى جبال الريف ٤٢٣
الفصل الثانى عشر — مليلية وجبل الحديد . . . ٤٣٩
الفصل الثالث عشر — العرب والبربر ٤٥٢
الفصل الرابع عشر — المراقبون ٤٧٠
الفصل الخامس عشر — فوق جبال الريف ٤٧٧

الجزء الثالث

صفحة

الفصل الأول — فوق الجزيرة الخضراء ٤٨٥
الفصل الثانى — إشبيلية ٤٩٠
الفصل الثالث — الفاتحون العرب والإسبان . . . ٥٣٢
الفصل الرابع — مدريد ٥٥٠
الفصل الخامس — بلد السيد ٥٦١
الفصل السادس — الجنرال فرنكو ٥٧٩
الفصل السابع — معرض فنى فى دير ٥٩٦
الفصل الثامن — بطولة الأولين ٦٠٣
الفصل التاسع — طبائع الأرض وأهلها ٦١٢
الفصل العاشر — قرطبة ٦٢١
الفصل الحادى عشر — الأندلس ٦٣٨
الفصل الثانى عشر — الشريف الطوباوى ٦٤٥
الفصل الثالث عشر — الحذاء والبلغة ٦٤٩
الفصل الرابع عشر — فى القصر الخليفى ٦٥٣
الفصل الخامس عشر — الأكياس والذى يوسوس فى صدور الناس ٦٥٦
ملحق ٦٦٣
خطبة المقيم العام ٦٦٤
خطبة أمين الريحانى ٦٧١
كتاب الكليات ٦٧٨

الجزء الأول



سمو الخليفة الحسن

الفصل الأول

من الاستقلال إلى الحماية

قبل أن نباشر السياحة فى المغرب الأقصى سنجول جولة قصيرة فى تاريخه الحديث لنحيط علماً بما كان عليه فى العقد الأخير من القرن الماضى ، وبما آلت إليه أحواله فى العقد الأول من هذا القرن . وفى هذا العلم أو بعضه تدنو من فهم السائح غوامض الأمور ، الظاهرة والخفية ، فتتم محاسن السياحة ، وتزداد فوائدها .

فى أواخر القرن التاسع عشر كانت الدول الأوربية العظمى — وشبهها فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا — تتنافس وتتشاكس حول بسط نفوذها وتوطيده فى المغرب الأقصى ، فتتخذ لذلك شتى الأساليب ، السلمية الدبلوماسية ، والدبلوماسية المقرونة بقرقعة السلاح . كل دولة ترقب الأخرى ، فترمقها بنظر دائرة اختباراتها ! وكل تلك الدول تترقب الفرص لتنفذ سياساتها المختلفة صورةً ، المتفقة هدفاً ، فى المغرب الشمالى والغربى : تؤلف الشركات المتاجرة فى البلاد ، وتسعى لتعزيزها تارة بالامتيازات ، وطوراً بالمؤامرات . تدس بعضها الدسائس لبعض بواسطة قناصلها وأعوانهم فى البلاد . تجامل الحكومة الشريفية حيناً ، وتجبهها حيناً آخر . تنتفع بالاضطرابات الداخلية ، وتغض النظر عن قرصان البحر المتوسط لتضعف بهم السلطات الأهلية المحلية . ترسل بواخرها الحربية للنزهة على الشواطىء الأفريقية ، غرباً وشمالا ، فتحتل ميناء هاهنا ، وآخر هناك ، باسم التجارة ، والمحافظة على رعاياها

ومصالحهم . وترسل من هم أفعل من البواخر الحربية فى تنفيذ سياستها الاستعمارية ، أى التجار والقناصل المتاجرين . وما كان أولئك القناصل والتجار ليتورعوا فى ما يفعلون ، أو يخجلون . فيتجسسون ويفسدون ويثيرون الفتن تحقيقاً لمآربهم الخاصة ، ولمآرب دولهم العامة ، وكلها استعمارية استثمارية .

قال أحد المؤرخين الفرنسيين(١) : « كان القناصل والتجار المسيحيون غالباً من المغامرين المنتفعين ، يستثمرون أبناء دينهم وأبناء البلاد على السواء » .

وكانت فرنسا أبغد الدول هدفاً ، وأكثرها نفوذاً ، وأشدها صولة وطمعاً فى ذلك المغرب . تستحثها وتنصرها عصبة من التجار والماليين والسياسيين الفرنسيين فى الجزائر ، وخصوصاً فى وهران القائمة عند الحدود الجزائرية المغربية . وهران — الجبهة الشرقية للحرب وللسياسة فى استعمارها المغرب واحتلاله .

وقد كانت فرنسا من أسبق الدول كذلك إلى عقد المعاهدات مع سلاطين المغرب ، تتذرع بها فى تحقيق مآربها فى بلادهم ، بل كان بين الغرب وفرنسا ، فى العهد الذهبى الفرنسى والشبيه به المغربى العربى ، أى فى عهد لويس الرابع عشر ومولاى إسماعيل من التقرب والتودد ما لا يظن به غير الخير للبلادين . فقد أرسل إسماعيل وزيره الأول الحاج محمد التين رسول ولاء وإجلال — وتجارة — إلى الملك لويس ، وأرسل لويس أحد رجال بلاطه السيد بيدو دى سنتولان (Sr. Pidou de Saint-Alan) يردّ الزيارة (١٦٩٣) وقد سر الرسولان جداً بما شاهدا فى العاصمتين باريس ومكناس ، فكتب السيد سنتولان إلى مليكه يصف أبهة بلاط السلطان ، ويخص بالذكر والإعجاب الحرس السلطانى المؤلف من أربعمائة عبد أسود عملاق ، فدقق فى وصف هيئتهم حتى جواربهم . وقد كتب الحاج محمد مذكرات رحلته(٢)

---

(١) Ch-André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord P. 500.

(٢) سينشر قريباً معهد الدروس الغربية بتطوان تلك المذكرات من النسخة الخطية الأولى .

على طريقة ابن جبير ، فمدح الكثير مما عرف وشاهد من أمور « الكفار » وبلادهم .

ما سوى ذلك عقيم . فالزيارات السفيرية لم تسفر عن شيء سياسي أو تجاري في تلك الأيام . ولا بعد خمسين سنة ، لأن أقدم المعاهدات بين الحكومتين الفرنسية والمغربية هي — على ما نعلم — المعاهدة التي عقدت سنة ١٧٦٧ . وهي سياسية أكثر منها تجارية . فإن كانت تضمن للأجانب حق المتاجرة ، فهي تضمن لهم كذلك حق امتلاك الأراضي في المغرب وتضمن للدول حق التمثيل القنصلي ، وللقناصل الحق بأن يستخدموا في القنصليات كتاباً ومترجمين من الأهالي .

هاهنا — في حق الأجانب بامتلاك الأراضي ، وحق القناصل بأن يوظفوا من يستأمنون من الأهالي في قنصلياتهم — هاهنا بابان للدخول إلى البلاد ، وللتغلغل السلمي ، فالاستيلاء التدرجي عليها . فالأجانب ، في امتلاكهم الأراضي ، يخلقون المشاكل لدولهم فتتدخل بشؤون الحكومة ؛ والقناصل ، في استخدامهم كتاباً ومترجمين من الأهالي يتمكنون من الحصول بوساطتهم على المعلومات اللازمة لتمهيد سبل السياسة الاستعمارية .

على أن هذه المعاهدة أخفقت في مقاصدها ، أو كادت ، لأسباب كثيرة ، منها المنافسات الدولية ، ومقاومة السلاطين لكل المساعي والمحاولات في تنفيذها . فما كان لفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر غير قنصليتين ، واحدة في سالي والأخرى في الرباط ولم يكن لبقية الدول قنصليات في غير طنجة . أما الرعايا الأجانب فلم يتجاوز عدد الفرنسيين منهم الألف ، وعدد الإسبان المئتين في كل البلاد .

ماتت تلك المعاهدة وما ماتت روحها بالرغم من مرور مائة سنة ونيف على عقدها . فقد تجددت في الربع الثالث من القرن الماضي المساعي

والمحاولات للتغلغل فى الغرب والاستيلاء عليه ، وتجددت معها المنافسات والمشاكسات الدولية ، كما تجددت المشادات بينها وبين الحكومة المغربية .

قاومت فاس قوى الاستعمار وسياسته بكل ما لديها من أسباب المقاومة حتى الدينية منها . وكان مولاى الحسن[1] من أشد سلاطين المغرب فكراً وروحاً وعملا فى المحافظة على استقلال البلاد .

هذا ، على ما كان فى البلاد ، يوم جلوسه على العرش ، من الاضطرابات ، ومن عوامل التفسخ والانحطاط . فقد باشر أعماله فى تنظيم الجيش ، وراح يؤدب القبائل الثائرة ، والمدن المتمردة . فضرب فاس ، وأعاد إليها الطاعة والأمن والنظام . وحمل على قبائل الريف فدفعوا الضرائب صاغرين ، ومثّل بسكان مراكش فعلّق رؤوس أبنائها المتمردين فوق أبواب المدينة .

قضى الحسن معظم مدة ملكه فى الحروب ، وهو يتنقل فى مملكته المترامية الأطراف ، المفككة الأوشاج ، من واحاتها الجنوبية إلى جبالها الشرقية الشمالية ، ومن مدينة إلى أخرى . وما استتب فيها الأمن والسلام بالرغم من قساوة حكمه وقلبه ، وبالرغم من دهاء وذكاء « سى » أحمد وزيره الأول ، وشريكه فى تلك القساوة .

فقد كان الفرنجة يمدون المتمردين بعتاد الحرب وبالمال . وجاءت فوق ذلك سفنهم الحربية إلى طنجة ، مهددة منذرة بعد أن شاع — كذباً — خبر موت السلطان ، مولاى الحسن . ومع ذلك استمر الفرنسيون يعدون العدة لاحتلال قسم من البلاد على شاطىء الأوقيانوس ، ووقف الإسبان متأهبين فى أبواب الريف .

---

(١) هو الحسن (١٨٧٣ – ١٨٩٤) بن محمد (١٨٥٩ – ١٨٧٣) بن عبد الرحمن (١٨٢٢ – ١٨٥٩) بن سليمان (١٧٩٢ – ١٨٢٢) بن محمد (١٧٥٧ – ١٧٩٢) .... بن إسماعيل (١٦٧٢ – ١٧٢٧) العلوى . والعلويون من أشراف الحجاز رحلوا من ينبع إلى المغرب فى القرن الخامس عشر وأقاموا فى الجنوب ، فى واحة تفيلات إلى أن نهض الرشيد أخو مولاى إسماعيل فأسس الدولة العلوية على أنقاض الدولة السعدية سنة ١٦٦٨ .

هذا فى ميادين الحرب أو فى أبوابها ، أما فى ميدان السياسة فقد اغتنم الحسن الفرصة عند انهزام فرنسا فى حربها مع بروسيا سنة ١٨٧٠ فأراد أن يقصر نفوذها فى بلاده ، وقد سعى من أجل ذلك لعقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى شؤون المغرب وعلاقاته الأوربية ، فعقد المؤتمر فى مدريد سنة ١٨٨٠ ، وكان الأول من نوعه لاشتراك ممثل عربى فى مباحثاته .

ممثل واحد عربى ، بين ممثلى فرنسا وإسبانيا وإنكلترا وإيطاليا ، ينكر عليهم حق التدخل فى شؤون المغرب . فماذا ينفع الإنكار ، وإن سجل فى وقائع المؤتمر ؟ وماذا تنفع وطنية ذلك الممثل المغربى العربى ؟ وماذا تنفع حنكته السياسية ، وفصاحته العربية ؟ لقد كان مغلوباً على أمره — وما الغالب غير العدو ، وإن تعودنا أن نقول لا غالب إلا الله .

فقد قررت الدول الأربع فأثبتت ، فى ذلك المؤتمر ، حق رعاياها فى امتلاك الأراضى فى المغرب ، وحق قناصلها فى استخدام من يرون فيه « الذكاء » من أهل البلاد . ثم أضافت ما هو أهم من ذلك وهو أن يمنح القناصل من يريدون من الأهالى — تجاراً كانوا أم أكارين — حماية دولتهم ، وأن يكون لهؤلاء المحميين ولأولئك الموظفين « الأذكياء » الحق بأن يحاكموا فى قضاياهم المدنية والجزائية ، فى محاكم قنصلية .

أقف بك هاهنا لأعرض وجهاً آخر من وجوه القضية . فقد كان الأهالى ولا سيما التجار منهم ، يطلبون الحماية الأجنبية ليتخلصوا من جور الحكومة الشريفية وإرهاقها . فاتفقت مصالحهم ومصالح الدول الحامية . وكان الأجنبى فوق ذلك يشارك الوطنى فى تجارته أو فى ملكه لقاء حماية يظفر له بها من قنصل بلاده . فيصبح الوطنىُّ شريكُ الأجنبى حمايةً أجنبية فيشرك الأجنبى فى أرباحه دون أن يكون للأجنبى فلس واحد فى رأس المال .

زادت هذه الحال الطين بلة . فالمحميون شركاء الأجانب أمسوا بيد القناصل

أدوات استعمار ، يستخدمونها فى ما يبتغون تنفيذاً لسياسة حكومتهم ، وتعزيزاً لها .

وقد استمرت الحماية فى الانتشار بالرغم من مساعى الإنكليز لوقف طغيانها ، فامتدت من المدن إلى الأرياف ، وصار الأوربيون ولا سيما الفرنسيون المشاركون للأهالى ، أصحاب أملاك واسعة فى البلاد .

زد على ذلك أن أولئك الفلاحين الذين أشركوا الأجانب فى أملاكهم أمسوا ذوى امتيازات يتمتعون بها مثل إخوانهم التجار ويزيدون فى التمتع فلا يدفعون الضرائب ، ولا يجندون ، ويشمخون بأنوفهم على أبناء البلاد ، والبلاد بلادهم ، وعلى موظفى الحكومة وهى حكومتهم .

وإن شكا أحدهم إلى الحاكم المحلى — إلى الباشا أو القائد — صُمّت الآذان خشية التدخل فى أمور هؤلاء الذين يتمتعون بحماية النصارى !

هذه بعض ثمار معاهدة مدريد . يذكرها المؤرخون ، ويقول المتفائلون منهم ، فى دائرة المعارف الإنكليزية ، وفى غيرها من الكتب المشرقة صفحاتها بأهلة الحقائق ، إن المغرب نجا فى ذلك المؤتمر من براثن الحماية ، وإن الفضل فى الأمر عائد لما كان بين إنكلترا وفرنسا من المنافسات السياسية والاستعمارية .

هب ذلك هو الصواب . . وهب الإنكليز كانوا يدافعون فى المغرب ، كما يقول مؤرخهم ، عن كيان الدولة الشريفية كما كانوا يدافعون فى المشرق عن كيان الدولة العثمانية . فهل أفلح الإنكليز ؟ اسأل التاريخ فى المشرق . وسأسأله عنك فى المغرب غداً .

كان « سى » أحمد بن موسى حاجب مولاى الحسن ، فصار وزيره الأول ، فسيفه البتار ، فـ« حجاج » المغرب ، قبيل وفاة سلطانه وبعدها . فقد توفى الحسن فى الطريق (١٨٩٤) وهو عائد إلى فاس من الجنوب ، فكتم « سى » أحمد الخبر بضعة أيام اتقاء الفتن .

وكان قد قرر البيعة لعبد العزيز أصغر أولاد الحسن ، فخلفه وهو فى الثالثة عشرة من سنه ، وتولى « سى » أحمد الحكم إلى أن بلغ السلطان الولد سن الرشد ، وبلغ — لله من الأقدار ! — فى السنة نفسها ذلك الوزير الطاغية سنّ الرحيل من هذه الفانية !

حكم ابن موسى حكم الحجاج بن يوسف بضع سنوات ، فقطع الرؤوس ، وملأ السجون بالنفوس ، وبنى القصور للجوارى والعبيد فضجت البلاد ، وحشرجت العباد ، وكلهم إلى الله يشكون ، وفى قلوبهم يلعنون .

وكان « سى » أحمد متوقد الذهن ذكىّ الفؤاد ، حكيما فى أمور الدنيا عليما ، لا يحكم القلب فى شىء منها ، ولا يرى فى بعد النظر غير زيادة الأخطار المحدقة بالبلاد . أما ما كان منها أمام ناظريه ، فقد كان يتجسم كل يوم تجسّما منكراً مخيفاً . فهاك مدرعات الفرنسيين على الشواطىء الغربية . وهاك الإسبان يحومون حول الشواطىء الشمالية . وهاك ساسة الفرنجة ، فى طنجة ، متجمعين متألبين حيناً ، ومتخاذلين حيناً آخر . وكلهم فى كل حال ينظرون إلى المغرب نظرة الذئاب الكاسرة .

ضبط « سى » أحمد الأمر بالسيف « الحجاجىّ » فى المغرب الأقصى أجمع برهة من الزمن . ووقف وقفةً يحمد عليها فى وجه زبانية الفرنجة بطنجة . ولكنه ضاق ذرعاً بأمر أخويه : وزير الحربية ، ورئيس التشريفات فى البلاط . فشكاهما إلى الله فسمعت على ما يظهر شكواه ، وسمع غيرها من الشكاوى ، فمات الأخوان فجأة ، وبعد أسبوع لحق هو بهما ! فإن كنت تشك فى الحكمة الإلهية ، فلا أظنك تشك فى حكمة الدنيا الفانية . والفتى لا يستقصى شؤون الدولة الخفية ، فى أزماتها الدكتاتورية .

وكان مولاى عبد العزيز قد بلغ سن الرشد عند ما أراحه الله من بنى موسى الثلاثة فى فجر هذا القرن العشرين .

ولكنه بعد سنتين من حكمه (١٩٠٢) مُنّى بمن جعله يترحم على بنى موسى . فقد شبت فى البلاد نيران ثورة الشريف الكاذب « بوحماره » ، وتلتها بعد نحو ثلاث سنوات ثورة الشريف الصادق أحمد الريسونى . وسنقص عليك قصة الريسونى فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب .

أما « بوحماره » — ولست أدرى مصدر الكنية إلا أن يكون من مطيته — فهو الجيلانى الزرهونى ، نسبة إلى زرهون بالقرب من مكناس ، وفيها مدفن إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية فى المغرب . فلا عجب — وهى مهد القداسة ، وقبلة المؤمنين فى تلك الديار — إذا كانت لا تزال خصبة مثمرة . فلا تكذب بشائرها ، ولا تكذب رسل غيرها !

وهذا رسول الخير الزرهونى ، كان حمّالا ، فصار مرابطاً ، ثم صاحب دعوة دينية ، ما لبثت أن صارت دعوة سياسية .

— أتقولون : السلطان عبد العزيز؟ ! إنه لعبد الأجانب ، إنه لعبد المستعمرين ، أعداء المسلمين وأعداء الله !

سمعت القبائل ، ولبّت الدعوة . فانتشرت الفتنة انتشار النار فى الهشيم .

وجلس « ولىّ الله » فى تاز إحدى عواصم المغرب فى قديم الزمان يصدر الأوامر ، ويرسل الجباة لجمع الخراج .

— من والى الكفار كافر ، وليس له فى أعناق المسلمين عهدٌ ، من والى الكفار من السلاطين هو عدو المسلمين ! استفيقوا ، استفيقوا أيها المسلمون .

وبينا كانت القبائل تردّد هذه الكلمات وتدفع الخراج لجباة « ولىّ الله » كان هذا « الولىّ » — فعل الله ما شاء به — يستقبل رسل الفرنجة من أهل البلاد ، ويتعهد بالولاء لمن يعرض منهم الولاء ، وما يليه أو يصحبه من عتاد أو مال . جلس ولىّ الله فى تاز ، فرقصت له شياطين السياسة فى طنجة والجزائر .

وهناك بالقرب من الحدود ، بين الجزائر والمغرب كان بين رسل الاستعمار طلاب امتيازات من الإسبان ، وفى ضواحى مليلة جبال محشوة بالمعادن ولا سيما الحديد .

– فيا « بوحماره » ، يا أيها الطامع بالعرش الشريف . . . إن المال عصب الحرب . ونحن ننشد الامتيازات .

فقال « بوحماره » هاتوا المال وخذوا امتيازات . وكان ما كان مما لست أذكره . على أننا سنزور شركة المناجم الإسبانية ، فى جبالها الحديدية فى ضواحى مليلة . ولك يومذاك أن تظن شراً أو خيراً .

أما الآن فموضوع اهتمامنا الأكبر هو السلطان الشاب عبد العزيز(١) والفرنجة الطامعون ببلاده .

وكان الفرنسيون أشدهم طمعاً ، وأمهرهم لعباً ، على الحبلين ، بالرغم مما للإنكليز من الشهرة فى هذه اللعبة السياسية المزدوجة . فقد أشرت إلى ما كان من أمرهم ، أى الفرنسيين مع « ولى الله » بوحماره . وها هم أولاء الآن يحثون السلطان الشاب على العزم فى الحكم ، ويعدونه بالمساعدة ، ويغرونه بالهدايا الثمينة والتافهة – بالسجاجيد والسيارات ، بالتحف والأعلاق ، بالدراجات والألاعيب – ليمكنهم مما يريدون .

لان لهم عبد العزيز ووالاهم ، وفتح للسياسيين منهم باب المفاوضات

---

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ عهده فمنهم من أرخه ١٨٩٤ – ١٩١١ ، ومنهم ١٩٠٠ – ١٩٠٩ ، ومنهم ١٩٠٠ – ١٩٠٨ ؛ والسبب فى هذا الاختلاف هو السلطان نفسه وما فتح وختم به عهده من الاضطرابات والفتن . فقد خلف والده الحسن قانونياً قبيل موته (١٨٩٤) ولم يحكم فعلا إلى أن بلغ سن الرشد – وفيه مجال للظنون – وما انتهى حكمه فعلا بعد أن انتصر عليه فى الحرب أخوه عبد الحفيظ (١٩٠٨) مع أن علماء مراكش نادوا بعبد الحفيظ سلطاناً فى السنة السابقة . فالصواب إذن فى واقع أمره هو أنه تزحلق إلى العرش فى أواخر العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم تزحلق منه فى أواخر العقد الأول من القرن العشرين . . . والسر فى التزحلق !

وللتجار أبواب الكسب والإثراء . فتمادى هؤلاء فى الطمع ، وأولئك فى الطغيان . كيف لا وهذه جنودهم تتأهب للزحف على البلاد من الجبهة الشرقية ، من الجزائر ، وهذه مدافع مدرعاتهم ترمق بنظرها القتّال الشواطىء الغربية .

— نريد أن نؤمن الطرق للسياح والمدن للتجارة .

آمنّا . ولكننا مع ذلك غير مطمئنين . فقد أرسل مولاى عبد العزيز رسوله المنبّهى إلى لندن يحتج على ذلك التأمين فى مختلف أشكاله . فجامله ساسة الإنكليز ، وزودوه بالنصح السديد غير المفيد .

— ليحكم سيد المغرب بلاده كما نحن نحكم بلادنا . ليفتح الموانئ للتجارة . ليجمع الخراج بالطرق المشروعة . ليطلق سراح الأبرياء من المساجين ، وليطعم الآخرين .

عاد المنبّهى يحمل هذه النصائح إلى مولاه . فاهتم عبد العزيز بإصلاح بعض الشؤون على الطريقة الإنكليزية ، فاصطدم بطريقة أوربية مناوئة . غاظ الفرنسيين قبوله نصائح الإنكليز .

قال عبد العزيز : على كل فرد من الرعية أن يدفع مبلغاً معيناً من الضرائب . فقال الفرنسيون : إن الذين فى حماية أجنبية — فرنسية أو إسبانية أو إنكليزية أو غيرها — لا يدفعون . وهذه معاهدة مدريد تؤيد قولنا .

وهناك غيرهم — من والوا « بوحماره » مثلا — لا يدفعون الضريبة للسلطان . بل سرت روح العصيان من الثائرين والمحتمين بالحماية الأجنبية إلى سواهم من الرعية . فساءت الأحوال فى كل مكان . وصار الجباة يمشون فى البلاد كأنهم سياح راغبون فى النزهة . لا يحملون سيفاً أو كرباجاً ، فلا يطاعون ولا يخشون . فلماذا يدفع عبد السلام الفاسى الضرائب وأخوه عبد السلام الفرنجى لا يدفع درهماً ؟ ! . . .

سُدت على خزينة الدولة الموارد من كل جانب . وكان بلاط مولاى

عبد العزيز يكتظ بالتحف والألاعيب الأوربية . فأصبح كجناح من مخزن اللوفر بباريس . إلا أنه يختلف عن سائر المخازن فى أنه يقوم بالهدايا وبالشراء ، لا بالبيع . يؤمه التجار فتشحن إليه البضائع . يؤمه السياسيون وهم يحملون الهدايا ، ومنها ألاعيب بلوالب تدار فترقص وتغنى ، فتضحك الثكالى والسلاطين المفلسين !

وكان فى البلاط هناك غير ذلك من عوامل البهجة واللهو والتفريج ، ومن التجار والسياسيين الأوربيين من يزورون غبًّا ، ولا يزدادون حبًّا . ومن العبيد والحجاب والجوارى والفتيان من كانوا وكنّ جزءاً من الأثاث والألاعيب .

وفوق ذلك كله كان فى البلاط أوربيان ، من جزائر البريطان ، لينيروا عرش مولاى عبد العزيز بأنوار الحكمة فيهتدى فى سياسته الداخلية والخارجية إلى كل ما فيه مجد المغرب ، وعز الدولة الشريفية العلوية . أحدهما ذلك المغامر الإنكليزى الأول فى المغرب ، معلم الجيش الشريفى ، ونديم مولاى المعظم ، القائد « السر هنرى ماكلين » (Sir Maclean) ، والآخر الذى كان يعرف المغرب لإقامته فيه عشرين سنة معرفته لأسرار مهنته ، هو صاحب المجادة العلامة المفضال السيد « ولتر هاريس » (Walter Harris) مراسل جريدة التيمس الكبرى .

وكان « هاريس » و « ماكلين » ترسى مولاى عبد العزيز وسيفيه ، يتقى بهما الأخطار ، ويضرب بهما رقاب الكبار غير الأبرار من ساسة الفرنسيين والإسبان . ولذينك الترس والسيف مزيتان إنكليزيتان دقيقتا الحد والمعنى ، يشترك فيهما السحر والحرام ، ولا يخزل خيرهما فى الحالين . « ماكلين » و « هاريس » شوكتان فى ثريدة الفرنسيين ، وذبابتان فى كأس الإسبان . وهما فى ذلك البلاط بفاس معصومان محصنان ، معصومان فى ما يوحَى به إليهما من الرقم العاشر فى دوننج إستريت بلندن ، ومحصنان بما

يحسنانه من التهريج والتفريج فى حضرة صاحب الجلالة !

وما خلا ذلك البلاط — بعد أن قبض الله روح ابن موسى الطاهرة — ممن كانوا شبيهين به ، إلا فى ذكائه ، فكان الفرنسيون والإسبان يستعينون بهم على داهيتى البريطان .

أما السلطان عبد العزيز — على كل ما قيل فى تبذيره وسفهه ، واسترساله إلى اللذات — فقد كان صادق العزم فى محافظته على كرامة الدولة بالرغم من ولائه لمن كانوا يتودّدون له ، ويتآمرون عليها وعليه .

وأما بليته الكبرى فلم تكن فى هؤلاء الأجانب ولا فى أولئك المرابطين — لا فى المؤامرات الخارجية ولا فى الفتن الداخلية بل فى الخزانة الفارغة .

المال — المال يصلح الشؤون كلها . ومن أين يجىء بالمال ؟

سمع الإنكليز صيحة صاحب الجلالة كما سمعها الفرنسيون ، ولكنهم لم يسرعوا فى العمل كما كانوا يسرعون فى النصح . ما حققوا آمال خادميهم الطائعين « هاريس » و « ماكلين » .

وكانت الجمهورية الفرنسية قد استعادت الكثير من قواها وكرامتها ، ومن نفوذها المالى السياسى ، فجاء رجالها مسرعين يقدمون لمولاى عبد العزيز غير النصائح . ذى هى الفرصة السانحة . فقبضوا على ناصيتها .

— رعيتكم يا صاحب الجلالة لا تدفع الخراج . وأنتم فى حاجة إلى المال . فالمال عندنا يجيئكم على ما تشتهون ، وبقدر ما تشتهون . وما عليكم غير أن توقعوا هذه الأوراق ضماناً واطمئناناً — ضماناً لأصحاب المال ، واطمئناناً لكم .

ختم السلطان بختمه « أوراق الضمان » — ورهن جمارك الدولة لحكومة الدائنين فهتفت الخزينة مع ذلك للستين مليوناً من الفرنكات ، وهتف ساسة الفرنسيين وصيارفتهم فى الجزائر لهذا النصر المبين .

— لتفتح أبواب المغرب على شواطىء الأوقيانوس كما انفتحت على شواطىء

المتوسط . لتفتح للتجارة ، وللمشاريع المالية والعمران . لتفتح للتمدن الفرنسى .

كانت السياسة الدولية المغربية تتراوح فى أساليبها بين العنف والرفق ، وقل بين المصارحة والمخادعة . بحسب تلوّن السياسة الدولية الأوربية وتطوّرها . وكان يدبر هذه السياسة فى تلك الأيام التى نسرد الآن حوادثها ، ثلاثة من ساسة أوربا الاستعماريين المتطرفين ، هم «تيوفيل دلكاسة» (Théophile Delcassé) فى باريس ، «واللورد سالسبورى» (Salisbury) فى لندن «والإمبراطور غليوم الثانى» فى برلين .

وكان أولئك الثلاثة ، على اختلاف بينهم فى الخلق والمزاج ، من طينة سياسية واحدة . فقد كان «دلكاسة» ديمقراطيًّا حرًّا فى سياسته الوطنية ، واستعماريًّا مرًّا فى سياسته الدولية . وكان «سالسبورى» ، الذى خلف «غلادستون» من أشد المحافظين الأرستقراطيين فى البلاد الإنكليزية وخارجها . أما «الإمبراطور غليوم» ، فقد كان ، بعد أن انطلق من ظل «بسمارك» ، الدكتاتور الأوحد فى بلاده ، وهو يحاول أن يسيطر كذلك على السياسة الدولية فى العالم .

وما كان «دلكاسة» من عشاق الألمان ، ولا ممن يتغنون بعبقرية «غليوم» . بل أراد أن يذل من كان يظنه مجنوناً ، ويعزل أمته وحكومته فى سعيه لتأليف الحلف الثلاثى الفرنسى الإنكليزى الروسى . وقد خالف فى ذلك سياسة سلفه فى وزارة الخارجية «غبريال هانوطو» (Gabriel Hanotaux) الذى كان يريد أن يعزل إنكلترا فى حلف يؤلفه من فرنسا وألمانيا وروسيا .

على أن الأحوال والمقادير كانت موالية لسياسة «دلكاسة» ، وخصوصاً منها سياسته المغربية ، فقد أفلح فى عقده الاتفاق الأول مع سلطان المغرب (٢٠ يوليو ١٩٠١) ، يوم كانت حرب البوير تشغل إنكلترا ، فحدد فيه

الحدود بين المغرب والجزائر . ثم ألحقه فى السنة التالية (٢٠ أبريل ١٩٠٢) باتفاق آخر قبل فيه مولاى عبد العزيز التعاون مع الفرنسيين .

واستمر « دلكاسة » فى سياسته هذه الموفقة ، فحاول أن يكللها بحسن التفاهم أو التفاهم الودى (Ententecordiale) بين فرنسا وإنكلترا ودولتى البحر المتوسط : إسبانيا وإيطاليا ، ليقيم به سداً حائلا دون امتداد نفوذ ألمانيا إلى المغرب . فتعهد لإيطاليا فى كتاب سرى (١ نوفمبر ١٩٠٢) بأن تكون لها حرية العمل فى طرابلس الغرب . فقبلت . ووعد إسبانيا بمنطقتين فى المغرب ، الواحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، فرفضت .

وكانت إسبانيا تعتمد على إنكلترا فى مقاومتها مطامع الفرنسيين ، وتذهب مذهبها فى وجوب المحافظة على كيان الدولة الشريفية .

على أن إنكلترا ، وقد أضعفتها حرب البوير ماليًا ، وأضعفها سياسيًا تعاظم شأن حزبى الأحرار والعمال ، خفضت صوتها فى الدفاع عن المغرب ، والاحتجاج على تغيير الوضع الراهن فيه .

وما كانت مطمئنة فى ما تضمره لمصر من « خير » الاستعمار ، وفى ما تمخضت به مصر من العداء لذلك الخير . فسعت سعياً جديًا لتحديد الوضع البريطانى فى وادى النيل ، ولتسوية المشاكل المتعلقة ولا سيما مشاكل الديون العامة والامتيازات . ذلك ما شغلها فى سنة ١٩٠٤ عن المغرب الأقصى ، كما شغلتها عنه فى السنوات السابقة حرب البوير .

وما أفادت مساعيها ، بالرغم من دهاء المقيم العام « الاورد كرومر » وبالرغم من توسط الملك « إدوار » السابع نفسه ، لأن فرنسا كانت تطالب ملحة بما لها من حقوق سياسية ومالية واقتصادية فى وادى النيل .

فقال غلاة السياسة الوطنية الاستعمارية : فرنسا تعرقل مساعينا فى مصر . فلنعاملها بالمثل فى المغرب . يجب أن نعود إلى سياسة المحافظة على كيان الدولة الشريفية .

ولكن « آرثر بلفور » (بعدئذ اللورد بلفور صاحب وعد اليهود بوطن قومى فى فلسطين) الذى خلف اللورد « سالسبورى » فى رياسة الوزارة ، لم يكن من هذا الرأى . بل كان هو ووزير الخارجية « اللورد لانزدون » (Lansdown) من دعاة المساومة : لتطلقْ فرنسا يدنا فى مصر ، نطلق يدها فى أفريقيا الغربية .

وكانت الصحافة الإنكليزية ، على الإجمال ، تردد صدى كلمات الوزارة : نحن فى مصر ، وفرنسا فى المغرب .

وشاء إبليس صديق « دلكاسة » و« بلفور » و« لانزدون » ، أن تتم الصفقة فى ٨ أبريل ١٩٠٤ . فكانت فرنسا منتصرة للمرة الرابعة فى سياستها المغربية خلال ثلاث سنوات : فمن القرض المالى للسلطان عبد العزيز ، إلى اتفاق الحدود ، إلى اتفاق التعاون ، إلى الاتفاق الفرنسى الإنكليزى . ذى هى أربع مراحل بأربعة انتصارات .

وبعد ستة أشهر من هذا الاتفاق الاستعمارى تمكّن « دلكاسة » ، وقد أسكت الإنكليز ، من إرضاء إسبانيا . فعقد وإياها اتفاقاً سريًّا (٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤) على أن تكون فى حمايتها المنطقة الشمالية من نهر مروى شرقاً إلى ضواحى فاس غرباً بجنوب . . .

ومولاى عبد العزيز فى قصره بفاس يستقبل صديقه المخلص « ماكلين » منظم جيشه ، وصديقه الآخر المخلص « هاريس » مبيّض وجهه فى الجريدة الإنكليزية الكبرى . فيقص الأول عليه الأقاصيص ، ويتبسط الثانى فى العلوم السياسية والاقتصادية التى تعمّر هذه الدنيا الفانية على حساب الآخرة الخالدة . فيهز عبد العزيز رأسه ، ويعود إلى ألاعيبه . . .

ـ لماذا لا ترقص هذه الدمية ؟ ولماذا لا تغنى ؟

ـ لأن لولبها انكسر ، يا مولاى .

ولولب الدولة ؟! من يضمنه لمولاى عبد العزيز ؟

هل تضمنه المعاهدات السرية ، فتظل الدمى الشريفية ترقص وتغنى أبد الدهر ؟!

المعاهدات السرية الفرنسية الإنكليزية الإسبانية ، أتضمن لأصحابها سلامة اللولب المركّب — لولب الاستعمار — أبد الدهر ؟

وما محل ألمانيا من هذا الإعراب الفرنسى الإنكليزى الإسبانى المغربى ؟ أتنسون ألمانيا ؟ أو يستطيع « دلكاسة » أن يعزلها ؟ وهل ينسى إيطاليا ، وهى من الدول التى اشتركت فى مؤتمر مدريد ؟

لقد كانت ألمانيا ترقب يومئذ الحرب الروسية اليابانية وترجو النصر لليابان . فتحقق ما كانت ترجوه . انكسرت روسيا ، وليّة « دلكاسه » ، فاطمأن قلب « غليوم » . واطمأن باله . لا خوف من دبّ الشمال . إذن . . . سنصدر بياناً يزلزل أوربا : إذا احتلت فرنسا شبراً من المغرب فالحرب حتما واقعة . قالها سفير ألمانيا على مسمع من ال « كاى دورساى » بباريس .

ركب « غليوم » مدرعة من مدرعاته الحربية إلى طنجة (٣١ مارس سنة ١٩٠٥) وخطب هناك خطبة « هتلرية » — إن جاز تشبيه الماضى بالحاضر — فقال إنه جاء يزور سيد البلاد المطلق ، وإنه « غليوم » ، وإنه سيدافع بكل ما لألمانيا من القوة عن استقلال الدولة الشريفية العلوية .

فهم سيد البلاد السلطان عبد العزيز ، معنى تلك الزيارة ومغزاها . خسرنا الإنكليز فأنعم الله علينا بغليوم !

واشتد ساعد عبد العزيز ، فقلب ظهر المجن للفرنسيين ، وراح يدعو لعقد مؤتمر دولى لإعادة النظر فى شؤون المغرب .

مؤتمر دولى ؟ وهل تذهب جهود « دلكاسه » كلها سدًى ؟ كلا . هو التهويل تلجأ ألمانيا إليه . وبالرغم من انكسار الروس فى منشوريا ، وبالرغم

من تقلقل موقف إنكلترا ، ظل السياسى الفرنسى متمسكاً بظنه أن ألمانيا تهول تهويلا . فتناقش فى الموضوع ممثلو البلاد فى مجلس النواب والشيوخ ، ثم اقترعوا ، فكانت الغلبة للمعارضة .

سقطت وزارة « دلكاسه » (٢ يونيو ١٩٠٥) فرجحت كفة ألمانيا فى ميزان السياسة المغربية .

* * *

وأعود إلى سنة ١٩٠٤ لأصل بالموضوع الحاضر حادثاً خطيراً من حوادث المغرب . فى شهر مايو من تلك السنة قصد الشريف الريسونى ، الذى كان خارجاً على الحكومة والأجانب ، إلى طنجة ، مغامراً مغامرته الخطيرة . وما تلك المغامرة ؟ أراد الريسونى أن يلفت إليه وإلى دعوته نظر الدول الأوربية ، فمشى وزمرة من رجاله ، فى ليلة مقمرة فاح عبير أزاهيرها ، إلى رابية من روابى المدينة ، حيث كان يسكن قنصل الولايات الأميركية المتحدة «إيون برديكاريس» (Ion Perdicaris) فألفوه وأسرته فى سمر فخطفوه والأسرة جميعاً .

وكان يرأس الحكومة الأميركية يومئذ ذلك الغليوم الآخر « تيودور روزفلت » (Théodore Roosvelt) فكشر عن أسنانه غضباً عندما وصل إليه الخبر ، وبعث بسبع مدرعات حربية إلى طنجة ، يطلب من سلطان المغرب الاعتذار ، وسبعين ألف دولار .

دفع السلطان المال . وصارت الصحف والدول منذ ذلك الحين تهتم للريسونى وأخباره . ومنها ما رواه القنصل « برديكاريس » نفسه بعد أن أطلق سراحه ، وهو أن الريسونى عربى شريف كريم الأخلاق . وسنزيدك نحن من أخباره فى الفصل الذى وعدناك به .

هذا الحادث — عوداً إلى بدء — حدا الحكومة الأميركية إلى المشاركة فى بحث شؤون المغرب . وما كان الرئيس « روزفلت » ممن يجمجمون الكلام .

فقد قال فى سياسة « دلكاسه » إنها خطر دولى ، وحبّذ عقد المؤتمر الذى تقدم ذكره . فتقرر أن يعقد فى الجزيرة ، فى ذلك المنزل الجميل القائم على الطرف الغربى من الهلال الأخضر ، المنتصب على طرفه الشرقى جبل طارق .

عقد المؤتمر فى الشهر الأول من سنة ١٩٠٦ واستمر إلى شهر أبريل . فماذا فعل أصحاب السعادة ممثلو الدول العظمى فى خلال ستة أشهر ؟ لست أدرى ، إلا أنهم كانوا شرقيين فى المناقشات ، وغربيين فى التنزّه . ومما لا شك فيه أن الإقامة طابت لهم ، فقضوا فصل الشتاء الدافئ كله فى ذلك النعيم الأرضى . وما رموا فى ما صنعوا نعيم المغرب أو شيئاً منه .

بل قرروا أن تكون الشرطة المغربية فرنسية الإدارة فى الرباط وصبرة ، وإسبانية فى تطوان والعرائش ، ودولية فى طنجة والدار البيضاء . وقرروا كذلك أن يؤسس بنك دولى مغربى له امتياز الإصدار ، وأن تكون أكثر أسهمه لفرنسا لأنها دائنة الحكومة الشريفية . ما سوى ذلك ينحصر فى أمرين : الأول أن تشترك الدول على السواء فى المشاريع الاقتصادية والعمرانية فى المغرب ، والثانى أن تعترف للسلطان بالسيادة والاستقلال .

أرادت ألمانيا أن تحل محل فرنسا فى النفوذ والامتيازات ، فحالت دون إرادتها إنكلترا وأميركا .

وأرادت فرنسا أن يكون لهذا النفوذ الأول والامتياز الأكبر ، فحالت دون ذلك إسبانيا وإيطاليا وألمانيا والنمسا .

وما حل المؤتمر مشاكل المغرب ، أو مشكلا من مشاكله ، حلاً تامًّا ثابتاً دائماً .

ستة أشهر من المناقشات — والتنزه — انتهت بقرار لتنظيم إدارة الشرطة المغربية ، وبإجماع الآراء على أن المغرب — لنا كلنا ، يا ناس ، على شريطة أن لا يمس استقلال سلطان المغرب !

فلا عجب إذا هزأ الأمن من هذه المناقضات والمساومات والحمجمات . ولا عجب إذا ازداد الاضطراب فى البلاد . فقد قتل فى أيار (مايو) فرنسى فى طنجة ، وآخر فى أيلول (سبتمبر) فى الدار البيضاء . وقد اشتدت حركة الريسونى فى آخر هذه السنة فحاولت الدولتان الفرنسية والإسبانية أن تروّعه بمناورة بحرية مشتركة ، فما أفلحت المناورة . وقد قام فى مطلع سنة ١٩٠٧ عرب الشاوية على الحكومة الشريفية فذبحوا قوادها ، وهاج الرعاع فى الدار البيضاء على العمال الفرنسيين فى المرفأ فقتلوا سبعة منهم . وكان العلامة « الدكتور موشان » (Emile Mauchamp) [1] قد قتل فى بيته بمراكش فى ١٧ مارس من هذه السنة .

وفى السنة التالية كان بمراكش بعض السياح الفرنسيين فسمعوا الناس فى الشارع يقولون : « ها هم أولاء الفرنسيون — جاءوا يأخذون بلاد المغرب » .

ليس من الصواب أن تعزى هذه الحوادث كلها إلى مؤتمر الجزيرة . فهى تتعداه فى أسبابها إلى ما تقدمه من الأعمال الاستعمارية . لقد نفخ المؤتمر فى نار تحت رماد . وكان جمرها من ذلك القرض المالى ومما تبعه من تكالب المستثمرين . هى هى السياسة المالية[2] (La diplomatie à la Financière)

---

(١) هاج الرعاع على الدكتور « موشان » لأنه كان — كما توهموا — يتجسس لحكومته ويجمع أخبار المغاربة فى السحر والتنجيم ليكتب كتاباً يحط من قدرهم فى عيون الأجانب . وقد نشر كتابه هذا بعد موته وكتب مقدمته صديق الدكتور « موشان » السيد « جول بوا » (Jule Bois) فقال يتهم أحد الألمان هناك بتهييج الرعاع على الدكتور الفرنسى .

Déja un étrange aventurier tenton, avais depuis longtemps excité L'opinion contre le docteur français, son concurent cet individu, se nomment Holtzmann et se disant médecin, n'était en réalité qu'un espion secret doublé d'un marchand des pastilles du serail il doit porter une large part de responsibilité dans l'assassinat de notre compatriote

La Sorcellerie au Maroc, P. 21

Il Joua un role décisif dans l'emeute de Marakech, au cour de laquelle Manchamp succomba ibid P. 22.

(٢) Histoire de l'Afrique du Nord, P. 734

أو سياسة التعجيل ، وقد سبق فقلت الكلمة الحق وهى التكالب فى الاستثمار .

وما اتعظ سلطان المغرب مولاى عبد العزيز بما كان من محنة ابن عمه فى تونس الباى محمد الصديق ، تلك المحنة التى نجمت عن التبذير الشرقى ، والجشع الأوربى . وما كان خازنداره الداهية الشركسى ليخفف بدهائه من ويلاتها . فالخزانة فارغة ، والإفلاس يخيم على الملك . الإفلاس ! ومن يداويه غير صيارفة الفرنجة ؟

وجاء الصيارفة ناصحين لخير الدين ، عارضين عليه المال الذى تحتاج إليه الدولة . تحتاج إليه الدولة ؟ ! يحتاج إليه الباى ليظل قصره عامراً بالجوارى والعبيد !

— لا ينقذنا غير القرض — يا مولاى — وهؤلاء الأوربيون يقدمونه لنا بفائدة صغيرة تافهة .

سلم الباى محمد الصديق ، وقبل من يد الاستعمار التى يحركها الصيارفة خمسة وثلاثين مليوناً من الفرنكات . قال المؤرخ جوليان : « عند ما وقّع الباى وثيقة ذلك القرض حكم على تونس بالموت »(١) .

وما اتعظ سلطان المغرب مولاى عبد العزيز . ولا فكر فى نتائج القروض المالية السياسية — وفى جشع الممولين .

نقلت لك قول الخازندار خير الدين لمولاه الباى بخصوص الدين وفائدته « القليلة التافهة » .

وهاك الحقيقة فى أرقام بنفقاته ، فقد تقاضى الصيارفة الباى محمد ستة ملايين فرنك عمولة (Commission) ثم ٢٧٧٢٠٠٠ فرنك لقاء إصدار أسهم لذلك القرض ، ثم مليوناً آخر لخدمات سرية . ومما تبقى أى ٢٥ مليوناً ، لم يصل ليد الباى غير ٥,٦٤٠,٩١٤ فرنكاً ووجب عليه أن يدفع الدين ،

(١) Il signa l'arret de mort de la Tunisie ibid. P. 698

بعد خمس عشرة سنة ، مع فائدته « لأولئك الصيارفة المتواطئين ورجال السياسة الاستعمارية » .

فهل يتعظ سلاطين المغرب ؟ وهل يتعظ أمراء الشرق وملوك العرب ؟ وهل تتنبه الشعوب العربية ؟ !

* * *

استمرت فرنسا فى سياستها الهدّامة لاستقلال المغرب ، من الناحيتين الشرقية والغربية ، بالرغم من قرارات مؤتمر الجزيرة ، فكانت تمهد خصوصاً فى الشرق ، من وهران وتلمسان ، سبيل التقدم الاستعمارى إلى الأوقيانوس . وذلك بعد أن وقفت برهة موقف الحائر فى أى الخطتين أضمن للنجاح السريع : الشرقية أم الغربية ؟

وقد كانت المعارضة فى تلك الأيام عالية الصوت ، فصيحة اللسان ، شديدة اللهجة ، وعلى شىء من المبادئ الإنسانية . يتزعمها الخطيب الاشتراكى الشهير « جوريس » (Jean Jaurés) فطلب من الحكومة أن تعقد اتفاقاً نزيهاً مع حكومة المغرب وتمد الأهالى ، وخصوصاً القبائل المجاورة للجزائر ، بالمساعدات ، فتبنى لهم المدارس والمستشفيات ، وتعبد الطرق . . . إلخ . كل ذلك بدون احتلال ، وبدون تدخل الجيش . فعدّها الاستعماريون بلاهة أو سذاجة ، واستمروا فى سياستهم العسكرية الاحتلالية التجارية .

— اضمنوا لنا سبل التجارة . وطّدوا الأمن للتملك والاحتلال . افتحوا البلاد للتمدن الفرنسى !

وبعد مذبحة العمال الفرنسيين فى الدار البيضاء ، وثورة الشاوية على قواد الحكومة الشريفية ، احتل الفرنسيون أولا وجدة ، على الحدود المغربية الجزائرية ، احتلالا « مؤقتاً » — كما قالت حكومة باريس . ثم فى حزيران (يونيو) ، أى بعد سنة من مؤتمر الجزيرة ، ثأرت لأبنائها ، ضحايا الاضطرابات

فى الدار البيضاء ، فأطلقت المدافع من مدرعتها « الجليل » على المدينة فدمرتها وقتلت من أهلها أضعاف عدد أولئك الضحايا .

ثم احتل الجنرال « داماد » (D'Amade) بجيشه بلاد الشاوية ، بعد محاربة القبائل نحو سنة ، فصفا الجو — إلى حين . وهل يصفو على الدوام فى ذلك المغرب ، وهو كالبركان الهائج ، تخمد ناره يوماً ، ويوماً تشتعل ؟

صفا الجو للجيش ، وما صفا للسياسيين فى باريس وبرلين . فقد عكره الأجانب فى الدار البيضاء ، إذ فرّ ستة من جنودها هاربين فى أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨ منهم ثلاثة ألمان . فاتهم القنصل الألمانى هناك بتشجيع أولئك الجنود على الفرار . مما لا ريب فيه أنه أعطاهم تذاكر الطريق . ولكن القنصل الفرنسى أدركهم بثلة من الحرس ، فألقوا القبض عليهم .

هذا الحادث أثار الخواطر فى الصحافة والدوائر السياسية فى العاصمتين ، فطلبت حكومة برلين من الحكومة الفرنسية الاعتذار قبل التحقيق . فرُفض الطلب وما كُرّر ولا عجب ، وفيه تحكمٌ عارٍ من الكياسة . وقد أحجمت حكومة برلين عن تكراره لأنها شغلت فى ذلك الحين بحادث آخر خطير ، فى شرقى أوربة ، وهو ضم النمسا لمقاطعتى البُسنة والهرسك فى أكتوبر من هذه السنة . فقبلت ألمانيا أن ترفع قضية الجنود الفارّين إلى محكمة لاهاى . وقد حكمت تلك المحكمة فى القضية لفرنسا (مايو ١٩٠٩) .

وكانت المفاوضات فى أثناء ذلك جارية بين الحكومتين فى معضلة المغرب . فعقد بينهما اتفاق اقتصادى (٨ فبراير ١٩٠٩) مبنى على قاعدة « للضرورة أحكام » ومادة المساواة الدولية فى ميثاق الجزيرة . فتقرر فيه تأليف شركات اقتصادية وتجارية ، رأسمالها ألمانى وفرنسى لاستغلال المناجم وللأشغال العامة . وقد خُصت بالذكر شركتا « شنيدر » و « كروزو » وشركة « كروب » ،

فتعين للأوليين ٥٠٪ من الأسهم، وللثانية الألمانية ٢٠٪ ، وما تبقى فلشركات من الدول الأخرى .

هذا الاتفاق ، وإن كانت ألمانيا قد اطمأنت فى البدء إليه ، ظل حبراً على ورق ، ومكن فرنسا خلال فترة التنفيذ والتسويف ، من تتبع سياستها العسكرية الاحتلالية . فاستأنف الجنرال « داماد » زحفه ، واحتل القسم الأكبر من بلاد الشاوية . ثم جاء الجنرال « مونيار » (Monier) صائلا فاحتل تادلة (١٩٠٩) وهى على نحو مائتى كيلو متر من ساحل الأطلنتيق .

أما فى الشرق فقد كان الجنرال « ليوتى » (Lyoutey) يسير ، بعد خروجه من وجدة ، غرباً بجنوب ، متغلغلا فى البلاد ، فوصل بجيشه إلى « دبدو » ، فالعيون . ثم مشى إلى « تاوريرت » حيث تلتقى الطرق بين المغرب والجزائر . فدنا من تاز .

فى هذه المدة (١٩٠٨ — ١٩١٠) قطعت الجيوش الفرنسية نحو ثلثمائة كيلومتر من الشرق غرباً بجنوب ، وثلثمائة كيلومتر أخرى من الغرب جنوباً بشرق ، واحتلت البلدان فى طريقها ، فدنت من العاصمتين مراكش وفاس .

أما الإسبان فقد كان احتلالهم بطيئاً للمنطقة التى غنموها فى اتفاق سنة ١٩٠٤ ، بطيئاً ومحفوفاً بالمصاعب والأخطار . هذه إسبانيا المستعمرة تخبط خبط عشواء بين الكنيسة والاشتراكية . هذه إسبانيا المضطربة شؤونها اضطراباً يدنو من الفوضى ، بل هى الفوضى بعينها — الحمراء ! — تصيح صيحاتها الاشتراكية اليوم ، الإكليركية غداً — والحكومة تحمل تشريعها لتحليل الزواج المدنى ، ولتقييد الجمعيات الدينية — كما حمل المسيح الصليب — من مرحلة إلى أخرى ، من وزارة إلى أختها ، فتسقط الوزارات وتتجدد ، وتظل الفوضى قائمة ، نافخة فى الصورَين : صور الحرية الحمراء ، وصور الرجعية الفاتيكانية . وها هوذا السنيور « مورا » يعود إلى رياسة الوزارة (١٩٠٩) ليخفق

فى محاولاته الائتلافية . فلا الاشتراكية تهتدى ، ولا الكنيسة تلين ، ولا الحكومة تستطيع أن تكبح جماح إحداهما .

وهناك فى الريف تقوم القبائل على عمال شركة المناجم وهم يقومون بعمل استعمارى ، يمدون خطًّا حديديًّا من مدينة مليلة إلى الجبال المعدنية المجاورة لها . شبت نيران الثورة فى تموز (يوليو) من هذه السنة ، فعجزت الجنود الإسبانية هناك عن إخمادها ، النجدة ، النجدة !

فهل من يسمع فى الحكومة بمدريد ؟ سمع الجنرال « لينارس » (Linares) وزير الحربية ، وقام يدعو لتجنيد القوات الاحتياطية ، فأثار نقمة البلاد على الحملات التى يستخدمها دعاة الاستعمار لأغراضهم ، وتجددت النغمة القديمة ببطلانها .

وما لبثت أن تجسمت النقمة والنغمة فى الإضراب العام الذى أعلن فى برشلونة ، فانتشر سريعاً فى الولايات كلها . وما لبثت أن انقلبت الفتنة ، فأمست المقاومة للتجنيد والاستعمار حملة اشتراكية على الدولة والكنيسة معاً .

استمر الإضراب ثلاثة أيام ، سادت فيها الفوضى . فهاج هائج الرعاع على الكنائس والأديرة ، يهدمون ويحرقون . فأعلنت الأحكام العرفية فى إسبانيا جمعاء واستمرت شهرين .

لا عجب إذا عجزت الحكومة — والحال هذه — عن نجدة جيشها ، واستعادة كرامتها فى بلاد الريف .

ومما زاد فى ضعفها وتبلبلها حادث « فرّير » (Fransisco Ferrer) الاشتراكى الشهيد صاحب الدعوة العلمانية فى التعليم ، وقد كان لمدرسته الحديثة (Escuela Moderna) فى برشلونة شهرة واسعة طيبة . اتهم « فرير » بتحريض الشعب على العصيان وباستخدام القوة فى العصيان . وما كان من مبدئه استخدام القوة ولا التحريض على استخدامها . فسجن

بالرغم عن ذلك ، وحوكم أمام محكمة عسكرية ، فحكمت عليه بالإعدام فى ١٢ سبتمبر ، فأعدم فى اليوم التالى .

أحدثت هذه الجريمة الحكومية — أقول الجريمة لأن المحكمة بعد سنتين أعادت النظر فى قضية « فرير » فحكمت ببراءته — أحدثت هذه الجريمة ضجة استياء واحتجاج فى العالمين الأوربى والأميركى ، بل فى العالم المتمدن أجمع . وإنى أذكر الحفلة التى أقيمت لذكرى « فرير » فى بيروت ، فاعترض عليها الجزويت وحاولوا وقفها .

كل هذه الاضطرابات الداخلية أثرت شرّ تأثير فى معنويات الجيش فى المغرب . ويصح كذلك أن نقول إن اندحار الماريشال « مارينا » (Marina) هناك ، فى ٣ أيلول (سبتمبر) ، أثر شر تأثير فى الحكومة ، فبطشت بأعدائها ، وسقطت بعد ذلك وزارتها ، أى وزارة السنيور « مورا » فى أكتوبر ١٩٠٩ .

وما كان المغرب الأقصى ليختلف كثيراً فى أحواله عن إسبانيا . فقد كانت الحرب فى هذه الأثناء قائمة بين الأخوين الشريفين العلويين عبد العزيز وعبد الحفيظ . ولا تسل عمّن أثارها فى ذلك البيت العلوى ، فإن للسياسة الدولية إشارات وهمسات لا يجوز فى مثل هذه الأحوال ، ولا يليق ، التقصّى فيها .

استمرت الحرب بين الأخوين نحو سنتين ، وانتهت باندحار عبد العزيز ، فلجأ فى ١٩ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٨ إلى الجيش الفرنسى . وكان علماء مراكش قد بايعوا فى السنة السابقة مولاى عبد الحفيظ .

أما الدول فلم تعترف به إلا بعد أن لجأ أخوه إلى الفرنسيين . وقد قيدوا اعترافهم بشروط ، منها أن يدفع ديون أخيه .

وكان عبد الحفيظ (١٩٠٨ — ١٩١٢) شديد الشكيمة ، عصبى

المزاج ، صادق النزعة الخليفية ، واللهجة الوطنية المغربية ، فسعى لإخماد نيران الفتن فى بلاده ، فأخمد بعضها . وكانت فتنة « بوحماره » منها . فمثل بالمتزعمين من القبائل الثائرة ، وجاء بالزعيم الأكبر « ولىّ الله » إلى فاس فجعله فرجة للمتفرجين ، ثم عبرة للثائرين .

« بوحماره » فى قفص يرمى إلى السباع فى ساحة المدينة ! عيد رومانى ! بل عيد بابلى ! أفلا تذكر قصة دانيال فى جب السباع هناك ببابل ، كما قصّها بنو إسرائيل فى التوراة ؟ وكان الرب يهْوه حفيظ دانيال ، فما دنت السباع منه فى ذلك العهد القديم .

أما فى فاس ، فى هذا العهد الحديث . فقد ذاق أحد السباع قطعة من ذراع الولى ، فما استمرأها . أو أنه ندم فأحجم عنه ، لوجه الله . ولكن العبيد نفذوا ببندقياتهم الأمر السلطانى .

ولو أعان الله مولاى عبد الحفيظ لجاء بأقفاص أخرى إلى ساحة فاس ، فيها من الأجانب من لا يحجم عنهم السباع . لله من أولئك المتواطئين والصيارفة ! ما دان لهم عبد الحفيظ ولا لان . مع أنه كان فى حاجة شديدة إلى المال .

حدث أحد السياسيين الثقات فى تطوان قال : بعد أن تم الصلح بين مولاى عبد الحفيظ والشريف الريسونى أسرّ عبد الحفيظ إلى الشريف بحاجته إلى المال . فجمع الشريف من القبائل مائة ألف دورو (نحو نصف مليون فرنك) وأرسلها إليه .

نصف مليون فرنك لا تسدّ ثقباً صغيراً فى الخزينة الكثيرة الثقوب .

— فى الباب صيرفى يا مولاى .

— ليدخل . لُعنه الله .

ولأولئك الصيارفة أساليب عجيبة فى تأمين ديونهم وفوائدها . القرض ثم

القرض ، وشفعه بالكلام المعروف ، هاكم ، يا صاحب الجلالة ، ما هو واجب علينا فى تفريج الأزمات الشريفية . هاكم قرضاً آخر تستطيعون أن تدفعوا منه فى الأقل فوائد القروض السابقة . وقيل إن الكلام قرن بشىء من الإنذار والتهديد .

قبل عبد الحفيظ القرض الجديد — مائة مليون فرنك . ودفع منها بعض ديون أخيه . ثم دفع نفقات الجيش الذى احتل الشاوية ، ودمّر الدار البيضاء ، ودفع كذلك التعويضات لرعايا الفرنسيين فى تلك المدينة .

ذهبت المائة المليون . جاءت من الفرنسيين[1] ، وعادت — يا سبحان الله ! — إلى الفرنسيين .

وقد وعد أولئك السياسيون المتواطئون والصيارفة ، عندما عقد ذلك القرض ، أنهم سيجلون عن بلاد الشاوية قريباً ، وعن الدار البيضاء ، فلا يكون ثم هناك غير معلمين للشرطة الشريفية . وعود عرقوب ! وعود أوربية ! ومما زاد فى طين مولاى عبد الحفيظ بلة ، أنه بعد أن أمست خزينته كما كانت قبل ذلك القرض ، زاد هو فى الضرائب على رعاياه ، فتمردت القبائل ، وثارت عليه . ثم اقتدت بالجيش الفرنسى المرابط عند أبواب العواصم المغربية ، فرابطت هى ثم شرعت فى الزحف .

وا أسفاه . ما مرّت السنة الثالثة من عهده ، الشبيه فى خزينته بعهد أخيه ، حتى اضطر ، ونار الثورة تشتعل فى فاس ، إلى الاستغاثة بالفرنسيين أنفسهم . فأغاثوه مسرعين فرحين .

صدرت الأوامر إلى الجنرال « مونيار » بأن يمشى إلى فاس فمشى ، ودخلها بجيشه فى ٢١ أيار (مايو) سنة ١٩١١ .

---

(١) ما جاءت كلها من الفرنسيين . فقد كان هذا القرض دولياً اشتركت فيه فرنسا وألمانيا وإنكلترا وإسبانيا بنسب مئوية مختلفة ، وكان لفرنسا فيها ٤٠ ٪ .

ثم زحف إلى مكناس فاحتلها فى ٨ حزيران (يونيو) ، وتلتها الرباط فى ٩ تموز (يوليو) .

— سنجلو قريباً عن الشاوية . . .

أما فى المغرب الشرقى ، فبعد أن انفرجت أزمات ١٩٠٩ فى إسبانيا أرسلت الحكومة نجدة إلى الريف ، فأخمدت الثورة هناك . ثم عقدت والحكومة الشريفية اتفاقاً (نوفمبر ١٩١٠) شبيهاً بالاتفاق الفرنسى الشريفى ، المزين بالوعود الخلابة — الوعود العرقوبية !

وبعد ذلك (يونيو ١٩١١) احتلت جيوشها المدينتين المغربيتين : العرائش والقصر الكبير .

* * *

هى سياسة المِطرَق والحديد الحامى . اضربْ ، وعجلْ بالضرب . وعجل كذلك بالبيان ، اطمئناناً للمضروب ، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب . عجلْ بالبيان ، فى الأقل ، للتاريخ : قد احتلالنا وجدة احتلالا موقتاً . وقد خرج الجنرال « ليوتى » من وجدة للتنزه فى ضواحى تاز . صدِّقْ ، أيها التاريخ !

ولكن التاريخ بعون الزمان ، يفضح السياسيين الفضيحة الشائنة . يسجل لهم اليوم الأكاذيب ، ويسجل الوقائع عليهم غداً ! وهم مع ذلك ، وبالرغم من فضائحه كلها ، من بداية السياسة الاعتذارية إلى اليوم ، يكذبون ويتفننون فى الكذب ، وفقاً للأحوال ، ولطبائع المصالح والرجال . يكذبون الأكاذيب الدقيقة والغليظة ، الملونة والقاتمة ، الطرية والجافة ، الناعمة والخشنة . يكذبون الأكاذيب المعززة بالوثائق الرسمية ، المكللة بخنفشار الشرف الدولى ! الأكاذيب العسكرية ، الأكاذيب الاستعمارية ، الأكاذيب المضمخة بطيب التعاليم المكيافلية !

رويدك مكيافلى ! لقد فاقك تلاميذك براعة واختراعاً ، وحذقاً وخداعاً . فلو عدت اليوم إلى هذه الدنيا الدنية ، وسمعت التلاميذ يقلدون « الأمير »(١) ورأيتهم يتنافسون فى التقليد والتفوق ، لقلت — لو كنت تحسن اللغة العربية — هم السبّاقون فى المضمار ، فلا يشقّ لهم غبار !

ولكنت تقف ، يا مكيافلى ، مكشوف الرأس إعجاباً وإجلالا ، أمام أولئك المجلّين فى ميدان سياستك وأدبك .

أما أولئك العرب المغلوبون اليوم على أمرهم ، فى المغرب والمشرق ، فإنهم ليقفون أمامك ، يا مكيافلى ، فى المجلّين من كتّابهم النوابغ — ولا يعدّون — وكلٌّ منهم يحمل كتاباً فى مكارم الأخلاق ، وفى رأس مكارم الأخلاق الصدق والأمانة ، ليذكّروك ، ويذكروا تلاميذك ، ساسة أوربة ، أن الغلبة فى النهاية للصادقين ، ولذوى المروءة والأمانة والشرف ! يقولون ذلك بمئة لسان ، ويعتصمون بالإيمان ، والصبر والاطمئنان ، ويضعون كتابك وكتبهم فى كفتى الميزان ، ليحكم فيها الزمان حكمه . وإننا إلى حكمه لمطمئنون ، وإن تأجل عشرين أو خمسين أو مئة سنة . فإن الحكم ، ولا ريب ، لنا !

ومما لا ريب فيه أيضاً أن النزاع بين الناس والأمم ، عندكم وعندنا ، يؤدى إلى الفساد والفناء .

فهاهم أولاء يكررون القول والتصريح والتعهد ، ويوقعون المواثيق والمعاهدات ، فى المحافظة على كيان الدولة الشريفية واستقلال سلطانها ، وفى المساواة بينهم فى استعمار بلاده واستثمارها .

إن فى ذلك من النزاع العقلى الوجدانى ما فيه . وإن فيه كذلك من النزاع الدولى ما هو أشد من النزاع بين الأقوال والأعمال ، وقل بين العقل والضمير .

---

(١) « الأمير » هو عنوان الكتاب المشهور وبطله ، كتبه مكيافلى هدياً للسياسيين ، ولطفاً بهم وبأحوالهم .

فقد نسيت إحدى تلك الدول العهود قبل أن يجف حبرها — ونسيت فى الأعمال أقوالها ، وفى الاستثمار الزملاء والجيران . كيف لا والاتفاق الاقتصادى الألمانى الفرنسى ما كان — كما أسلفت القول — غير حبر على ورق . فعندما أدركت حكومة برلين ذلك ضربت به عرض الحائط ، وراحت تتعامل مباشرة والسلطان .

وعندما زحف الجيش الفرنسى على فاس ، وسارعت حكومة باريس إلى البيان ، اطمئناناً للقلوب والضمائر ، فى وزارات الخارجية ، والبيوتات المالية ، كانت حكومة برلين — وقد أبت أن تشترك يومئذ فى المهزلات الاعتذارية — أصرح من سواها من الدول وأسرع منها فى سياسة المطرق والحديد الحامى .

أبحرت « اللبؤة » (Panther) إحدى سفن ألمانيا الحربية إلى أجادير فى أول يوليو من سنة ١٩١١ ، وهى تشق الأمواج وتطويها بالسرعة التى لا تجيزها غير الأخطار الدولية . سارعت اللبؤة إلى أجادير لتحمى المشاريع الألمانية هنالك كما سارعت فرنسا إلى حماية رعاياها فى فاس .

قنبلة سياسية انفجرت فى ذلك المرفأ الأطلنتيقى ، فكادت نارها تتصل بمخزن البارود الدولى . والله سلّم ولطف ، وكان من لطفه أن إنكلترا — وقد نسيت ذلك التفاهم الودى : المغرب لفرنسا ومصر للإنكليز — انبرت للمصارحة فدافعت عن ميثاق الجزيرة لتحول دون مطامع ألمانيا الأفريقية . كذلك قيل وفى القول باب للظنون !

على أن موقفها لم يكن مجرداً من الخير . فقد عادت الدولتان — مصيبتا العالم فى سلمه المنشود — إلى المفاوضات التى استمرت أربعة أشهر ، وكانت كثيرة المشادات والمناورات ، فسمعت خلالها قرقعة السلاح . ثم دخلت الرواية فى فصل المساومات التجارية . هاتى يا فرنسا مستعمرة أفريقية ، وسكة حديدية ، وخذى ما تريدين .

كان السياسى المالى المغامر المسيو « كايُّو » (Caillaux) يدير يومئذ المفاوضات . وله فى بورصتى برلين وباريس أصابع غزّالة ، وأسهم نقالة ، فتمتّع فى أمر سكة الحديد — لإشراكه ألمانيا فيها ، وحاول أن يخفف « الجزية » فى تجزئة مستعمرة الكنغو ، فأبى « غليوم » ، وهو يريد المستعمرة كلها ، وثبت « كايُّو » فى موقفه .

أزمة فى المفاوضات — عقدت فى المساومة . فمن يحلُّها ؟ هى السياسة فى تلونها وتطورها ، وحوادث يومها . تجلس اليوم فى حجر هذا الوزير ، وتركب غداً على كتفيه ، أو تقف كالكابوس على صدره .

وقد جلست يومذاك فى حجر « كايُّو » إذ شغلت ألمانيا بالحرب الطرابلسية بين الطليان وأصحابها الأتراك ، كما شغلت بالأمس فى قضية البوسنة والهرسك . أضف إلى ذلك الأزمات المتوالية فى بورصة برلين ، ولـ « كايُّو » — كما أسلفت القول — يد فيها . فخفض « غليوم » من صوته ، وقبل بقسمته . فتم التفاهم ، وعقد الاتفاق فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ .

إن فى هذا الاتفاق وملاحقه السرية الحكم المبرم على استقلال المغرب .

فقد اعترفت ألمانيا لفرنسا بحق احتلال بعض المرافىء البحرية — بموافقة السلطان . وقبلت بأن تعين — إذا اقتضى الأمر — مقيماً عاماً فى فاس ، وأن تشرف على مالية الدولة الشريفية ضماناً للديون الأجنبية .

واعترفت فرنسا لألمانيا — للمرة الثالثة أو الرابعة — بالمساواة الدولية فى الاستثمار ، وخصوصاً فى امتيازات المناجم . ثم أعطتها ، بموجب ملحق سرى ، قسماً من مستعمرة الكنغو الفرنسية .

أرْضِيَت أمس إنكلترا بأن تُرِكت وشأنها فى مصر ، فسكتت ، فكان سكوتها ذهباً لها ولشريكتها فى الاغتصاب .

وأرضيت اليوم ألمانيا بمستعمرة أفريقية وامتيازات ، فسكتت كذلك .

إن السكوت حقاً من ذهب . وإن الذهب لباب الاستعمار والحماية !

لم تذكر الحماية فى المعاهدة ، ولكنها كامنة بين سطورها . وقد عبر عنها تعبيراً صريحاً كتاب آخر ، هو الملحق الثانى السرى ، من برلين إلى باريس ، تعهدت فيه ألمانيا بألا تقاوم وألا تعترض إن مسّت الحاجة إلى الحماية .

وما عتمت فرنسا أن خطت إليها الخطوة الأولى . فبعد أن صدّق المجلسان النيابيان فى باريس وبرلين هذه المعاهدة ، أرسلت المسيو « رنيول » (Regnault) إلى فاس مقيماً — موقتاً .

ثم عقدت ومولاى عبد الحفيظ فى ٣٠ مارس ١٩١٢ المعاهدة التى قضت على استقلال المغرب — أو يجوز أن نقول نحن كذلك : موقتاً ! !

لقد سلم عبد الحفيظ بكل الإنشاءات الاقتصادية ، والإصلاحات الإدارية والمالية التى تقرر القيام بها ، والتى لا تلفظ فى مجموعها بغير لفظة الحماية . وقد قبلت بها الدول .

على أن إسبانيا لم تقبل إلا بعد المفاوضات والمشادات والمناورات الشبيهة بما كان منها بين فرنسا وألمانيا .

نعود إذن إلى الناحية الإسبانية من الموضوع لنتقصّى الحوادث التى أدت إلى التفاهم .

* * *

وقفنا فى الكلمة السابقة عند سقوط وزارة « مورا » (Maura) المتلونة . فقد خلفتها وزارة « مورى » (Moret) المائعة ، فما غيّرت شيئاً لخير أو شرّ فى الأحوال الداخلية والشؤون الخارجية . ثم نشطت الحكومة فى وزارة حرة جامعة لأحزاب الشمال يرأسها السنيور « كاناليخاس » (Canalejas) فشحذت أدوات العمل الحازم فى جميع الأمور ، وما كادت تباشره حتى سقطت فى أواخر سنة ١٩١١ . سقطت بسبب مناقشة الـ « كورتيس » — مجلس النواب —

فى قضية « فرّير » الشهيد . فأعاد « كاناليخاس » تأليفها ، وكانت المعضلتان الكبريان — الكنيسة والمغرب ، الإرثُ الخبيث لكل وزارة — موضوعَ اهتمامه الأول .

فى ذلك الحين كان الفرنسيون يتأهبون للزحف على فاس فرأت حكومة « كاناليخاس » أن تزيد سياستها المغربية حزماً ونشاطاً ، فاحتلت العرائش ، كما أسلفت القول ، بعد ثلاثة أسابيع من احتلال الفرنسيين فاس ، وضاعفت قواتها العسكرية لإخضاع القبائل التى عادت إلى الثورة والعصيان والتوثب للقتال .

ما راق ذلك الفرنسيين ، فحملت صحافتهم على حكومة مدريد العسكرية ، الاحتلالية ، الاستعمارية . فتمثلت فى حملتها حقيقة من حقائق الإنجيل الرائعة ، هى مثَل : أن لا ترى الخشبة فى عينك وترى القذى فى عين أخيك !

وكان الإسبان قد علموا أن القبائل التى يحاربونها مسلحة بسلاح فرنسى ، فهاج هائجهم على المعتدين والمحرضين ، وامتلأت الصحف فى مدريد ، كما فى باريس بلواذع الكلم والتهم . ومما زاد فى اكفهرار جو السياسة الدولية حادثة أجادير ، المنبهة للأحلام ، المبددة للأوهام . أدركت باريس ومدريد الخطر الحقيقى ، فسكنت العاصفة الصحفية ، وما سكنت الخواطر .

فى ذلك الجو المكفهر ، فى صيف سنة ١٩١١ ، جرت المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية ، وهما تنشدان التفاهم للمرة الثانية أو الثانية عشرة ، فتوصلتا فى ربيع السنة التالية (مايو) إلى اتفاق معدل لاتفاق سنة ١٩٠٤ . فتنفست الأمتان الصعداء ، فزار الملك « الفونسو » باريس ، وزار رئيس الجمهورية المسيو « بوانكاره » بعدئذ مدريد .

على أن الشؤون الداخلية لم تتأثر بشىء من الزيارات الرسمية أو المعاهدات الدولية . فبعد أن غادر الرئيس « بوانكاره » إسبانيا شبت نيران الأهواء الحزبية ينفخ فيها الإكليروس من جهة ، والاشتراكيون وأنصارهم من الجهة الأخرى ،

فاضطرب حبل الأمن فى البلاد . وفى خلال ذلك الاضطراب أطلق فوضوى رصاصة فى ١٢ نوفمبر ١٩١٢ على رئيس الوزارة فأرداه قتيلا .

كانت المعاهدة قد تمت فى شهر مايو . ولكنها لم تصدق إلا بعد ستة أشهر (٢٧ نوفمبر) أى بعد وفاة « كاناليخاس » بثلاثة أسابيع .

إن لتلك الحوادث فى أوربا والمغرب أسباباً ونتائج يتصل بعضها ببعض ، فالمعاهدات الثلاث : الفرنسية الألمانية ، والفرنسية الشريفية ، والفرنسية الإسبانية متداخلة متفاعلة . وإن اختلفت فى ما كان يطمع فيه المتنافسون وما ظفروا به ، أما التقسيم فقد قامت القوة مقام العدل فيه . فلا عجب إذا كان نصيب الأسد لفرنسا ، وقسمة الحَفْل للإسبان !

عد إلى خريطة المغرب الأقصى تجد فى شماله بقعة صفراء صغيرة مستطيلة وبقعة أخرى فى الجنوب ، عند الخط التاسع والعشرين من خطوط العرض ، هى نحو ثُمْن مساحته الأولى . هذه قسمة الحَفْل !

تمتد البقعة الشمالية من نهر مروى فى الشرق ، وهو يصب فى البحر المتوسط ، إلى نهر لوكس فى الغرب ، وهو يصب فى المحيط الأطلنتيق . وقد تعدّل خط الحدود الجنوبية لهذه المنطقة ، بين النهرين ، تعديلا يثير ثائر المحقق حتى اليوم من الإسبان ، إذا ما نظروا إليه ، وإلى ما كان قبل معاهدة ١٩١٢ .

أما البقعة الصغيرة فى الجنوب ، على شاطئ الأطلنتيق ، التى تدعى إفنى ، فهى محاطة من الجهات الأخرى الثلاث ، بالمغرب الفرنسىّ المحمىّ . لقمة صغيرة من قسمة الأسد !

هذا من الوجهتين الفرنسية ، والإسبانية . أما من وجهة الحق الأعلى فإن صاحب المغرب ، الذى تقاسمت الدولتان ملكه لا يزال حيًّا يرزق — وقد كان فى شخص مولاى عبد الحفيظ حيًّا يرزق ويُخشى . فبالرغم من تلك المعاهدات التى وقعها استمر فى سياسته المزعجة المغضبة لفرنسا .

وقد شبّت نار الفتنة فى قلب مدينة فاس بعد عقد المعاهدة بأسبوعين (٧ أبريل) فقتل فيها بضعة عشر ضابطاً فرنسيًّا وأربعون من الجنود ، واثنا عشر من الأهالى. فغضبت باريس غضبة استعمارية ، وعينت الحكومة الجنرال « ليوته » مقيما عامًّا غير موقت!

عامل الجنرال صاحب العرش بالحسنى ، وبغير الحسنى ، فألفاه فى الحالين شريفاً علويًّا عنيداً ، وعلى شىء من الحذق فى التهكم والازدراء .

ـ أتريدون أن أستقيل؟ أتفضلون أخى يوسف على ؟ لكم ما تشاؤون بشرط واحد . إنى أعلم أن الغاية الأولى والأخيرة ، الدنيا والقصوى ، من سياستكم كلها هى المال . المال ربكم المعبود . وهو عندى كالخادم . المال عبد من عبيدى . ولا بد للسلطان ، وإن اعتزل العرش ، من عبيد . هاتوا المال وخذوا العرش .

وما كانت القيمة التى تقاضاها كثيرة . إنها أربعون ألف ليرة إنكليزية فقط[1] دفعها الفرنسيون . فهنأ الأخ الراحل أخاه يوسف الجالس على العرش . ثم كسر شارة الملك لأنه هو عبد الحفيظ[2] « آخر سلاطين الغرب المستقلين » !

وكان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر أغسطس من السنة الثانية عشرة والتسعمائة والألف مسيحية ، واليوم السابع والعشرين من شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف وثلاثمائة هجرية .

على شمس المغرب وقمره السلام ! . . .

---

(١) بذل منها قسما وافراً فى حجه بعد ذلك . فأعجب الملك حسين يومئذ شريف مكة ، بكرمه ، وأدهش ذلك الكرم بيروت يوم عرج عليها فى عودته من الحجاز . فالمال كان حقاً عبداً من عبيده .

(٢) شيد له قصراً جميلا فى طنجة حيث كان قد سبقه المولى عبد العزيز . وكان يزور مصايف فرنسا فتوفى هناك فى سنة ١٩٣٧ .

الفصل الثانى

جبل طارق

من طنف غرفتى فى فندق الصخرة ، اللاصق ظهره بصدر الجبل ، تحت هوله الخالد ، أطللت على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعى ، والعظمة الدولية . فمن الصنوبر الساحق النازعة أغصانه القديمة إلى الفوضى ، إلى الأزاهير تحته فى جنائن تتغنى بالوفر والنظام ، إلى ساحات معبدة مسيّجة ، للعب الـ «تينس» ، إلى طريق أسهم أملس بين البلدة وطرف الصخرة الشرقى ، مظلّل بالأشجار ، مزدانة جوانبه بالأزاهير المتدلية من الجدران العالية — كل ذلك فى انحدارٍ غير انحدار الجبل إلى الفندق ، فى انحدار خفيف لطيف إلى البحر .

وهناك على شاطئ البحر — الطبيعى والاصطناعى — فى الأرض التى هى من الجبل والأرض الردم — مظهر من مظاهر العمران المدفعى ، والعظمة الصناعية البحرية ، المجردة كلها من جمال الطبيعة أو الفن . هناك رمز العلم والقوة ، هناك الأرصفة الممتدة إلى البحر ، المكعبة والمثلثة فيه كأنها قضايا هندسية . وهناك أبراج وجسور وعمد من حديد للبرق والنور ، ولرفع الأثقال ونقلها . وهناك المخازن والمستودعات والمرافئ والأحواض ، والمكاتب والمختبرات . وهناك المصانع لترميم السفن ، ولتنظيف والتجديد . وهناك المدرعات والغواصات والطرادات ، وقد عادت من نزهة فى البحر المتوسط ، وهى متأهبة لدرء أخطار الحرب أو لخوض غمارها .

هى بلدة قائمة بنفسها . وهى دوماً فى عمل ، نار محركاتها لا تخمد ،

وأنوارها تصل الشفق بالفجر . هى صخرة الدولة البريطانية وعظمتها البحرية . هى هى جبل طارق !

أما البلدة الأخرى ، جبل طارق السوقة ، فهى فى الناحية الغربية ، بين الباب الشرقى والمرفأ التجارى . وهى سوقها الكبير الأوحد ، وجاداتها القصيرة الضيقة المتفرعة منه ، لاصقة هاهنا بسفح الجبل ، آوية هناك تحت صخوره ، ومستلقية على الساحل وعلى الردم الذى أضافه إليه الإنكليز . فى هذه البقعة المنقبضة المنبسطة معاً يقيم سبعة عشر ألفاً من الناس[1] ، من السوقة ، وفيهم التجار والصيارفة وأصحاب المقاهى والملاهى والحانات من الأمم الغربية والشرقية ، وهم يتراطنون بالإسبانية والإنكليزية ، ولا يحسنون إحداهما . لا يحسنون غير اللغة التى فيها رزق يومهم ، ولذات الليالى .

أهل جبل طارق ناس من جنسٍ خاص بالصخرة . لا هم إسبان ، ولا هم إنكليز . لا وطنية لهم تحملهم على المشاغب والفتن ، ولا قومية تورثهم داءى الكد والاستعمار . هم حقاً بريئون من اليقظات القومية ، والنهضات الوطنية . فلا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها فى عمل من أعمال الحياة ، ولا يُكلَّفون إلا اليسير اليسير من الضرائب .

يسميهم الإنكليز « عقارب الصخرة » . وإنهم ، فى هذا الزمان المثقلة فيه كواهل الأمم بالضرائب ، لأسعد « عقارب » الدنيا شرقاً وغرباً . فلا عجب إذا كانوا لا يكترثون ، مثل صنف من الفلاسفة ، بخزعبلات السياسة وأباطيل السيادة والمجد . إذا سألت أحدهم : أإسبانى أنت ؟ قال : لا . أإنكليزى أنت ؟ أجاب : كلا . وما أنت ؟ أنا جبل طارقى (Gibraltarian) . يقول هذا وهو

---

(١) عدد جميع السكان بموجب إحصاء سنة ١٩٢٤ هو ٢٠٦٣٨ ، منهم « عقارب الصخرة » ١٧١٦٠ ، أكثرهم من المذهب الكاثوليكى ، وأقلهم من البروتستنت واليهود . والباقى « ذئاب الصخرة » ٢٩٣٢ من الضباط والجنود البرية و ٥٤٦ من البحرية .

لا يعلم لماذا سُمِّى الجبل باسم طارق ، ولا هو على شىء من مزايا طارق وجبله .

فإن كنا نرثى لحال من لا وطن لهم ولا قومية ، فالجبلطارقيون يرثون لحال من يجاهدون فى سبيل الأوطان !

ومن أين جاء الجبلطارقى ؟ إنه ما جاء من مكان عبر البحر . فهل نشأ إذن فى ظل هذه الصخرة مثل الحيوانات القديمة ؟ أهو من نسل الرينو سود أو القردة المنقرضة ؟ ليس فى تاريخ الحيوان ما يثبت حقيقة هذا الافتراض أو ينفيها . أما تاريخ الإنسان — تاريخه الحديث — فهو ينير ويعين . هو يقول إن الإسبان ، سكان هذا الجبل قبل أن احتله الإنكليز فى القرن الثامن عشر ، هجروه بعد ذلك الاحتلال ، ووقفوا فى هجرتهم فى منتصف الطريق ، بينه وبين الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك البلدة التى تدعى اليوم « سان روكيه » (San Roque) .

ولا تزال سان روكيه ، مثل شقيقتها « لالينا » (La lina) التى هى على الحدود الإنكليزية الإسبانية — وراء الصخرة — لا تزال مأوى لبعض أولئك النازحين من جبل طارق ، أولئك الذين لا ترغب فيهم السلطة المحلية . وأعنى المتشردين والفقراء اللاحقين بهم

ولنذكرها هنا أن السلطة الإنكليزية لا تريد أن يكثر سكان الصخرة ، وهى حصن وقاعدة بحرية فتعسر سبُل العيش ، بالأساليب القانونية والخفية ، على أولئك الذين تتجهّمهم الحياة فيتجهمونها ، فيمسون على هامشها المتردم ، ولا عمل ولا أمل ، ويستمرون فى التنقل ، فيصلون إلى لالينا ، إلى سان روكيه ، إلى الجزيرة . على أن أكثرهم يبقون فى البلدة القريبة من الصخرة لتوافر الأعمال فيها ولاسيما المحرَّمات . لذلك يقول الجبلطارقى ، ولا يكذِّبه الإسبانى ، ولا يقطع لسانه ، إن سكان لالينا أكثر أبناء آدم خبرة وعملا فى كل ما هو محرم من التجارات والمهن .

ولكن فى القول غلواً بانّ لنا بعد البحث . فيجب أن نقول إذن ، دفاعاً عن اللالينيين : إن كل ما هو محرّم ينحصر فى تهريب الدخان والخمر ، وفى الشقاوة التى تنطق بلسان الخنجر فى بعض الأحايين . أما فى ما سوى ذلك فإنهم ، مثل كل الناس ، يدفعون الضرائب ، ويجنّدون ، ويؤمون الكنيسة للصلاة ، لا لسرقة الأوانى المقدسة ، ويحسنون معاملة النساء والقطط !

كاد الكلام على سان روكيه ولالينا ينسينا النصف الثانى من جواب التاريخ على سؤالنا . فبعد أن نزح الإسبان من جبل طارق حل محلهم قوم من الطليان . جاؤوا على الأخص من جنوا . فرحب الإنكليز بهم ، فأقاموا فى ظل الصخرة آمنين ، وتاجروا مطمئنين ، وتناسلوا فرحين . فكانوا الأجداد لسكان اليوم .

قلت إن فى جبل طارق بلدتين . بلدة هؤلاء المتمردين من الطليان ، وبلدة الدفاع البحرى البريطانى ، وليس بينهما خيط صلة من الحرير أو الشعر . بل إن البلدتين تختلفان فى مزية أولية جوهرية . هى النطق الذى يميز الإنسان عن الحيوان . فالنطق كله ، بعجره وبجره ، عند الجبلطارقيين ، والصمت كله ، بذهبه ونحاسه ، عند الجندية والبحرية ومن يلوذ بهما من الإنكليز . فإن كنت طالب علم ، يهمك مقدار ما فيه من الصحة ، فدونك الشارع الكبير الواحد تحدث التجار فيه وأصحاب الحانات . وإن كنت تبتغى التحقيق والتدقيق فى ما تسمع ، أو فى موضوع يصله ، ولو خيط من العنكبوت ، بالصخرة الإمبراطورية وأسرارها العسكرية ، فلا تدنو من أحد العاملين فى تحصينها وإدارتها ، فإنهم ومن يلوذ بهم لا يحسنون على الإجمال غير لفظتين اثنتين : لا أعلم !

خرجت صباح يوم أمشى ، ولا هدف غير ما تكشفه الطريق . فرأيت شجرة بين الأشجار لا أعرف اسمها . وأنا فى هذه الحال على شىء من شذوذ الطبع فأغتاظ لجهلى . ولا أقف عند حد فى فضولى . قلت : أغتاظ ففرّطت . فإن شجرة أجهل اسمها بين أشجار أعرفها حيثما أشاهدها ، لشجرة مكربة

مضنية . إنها لتضنينى . أقول ذلك بلسانى الشرقى وإحساسى الموروث . وأما بلسانى الغربى الذى تمرن على التدقيق فى التعبير ، وأحسن شيئاً منه ، فأقول : إنها تفسد النزهة علىّ . ولست فى ذلك مفرطاً أو مفرِّطاً .

وها كها متحدّية بين أشجار الصنوبر والسنديان . هى شبيهة بالسنديان وليست منه . وما هى كشجرة من عوامل الدفاع أو من أسرار الحصون والقلاع . فلأسأل هذا الضابط يساعد فى كشف غمى . صحبته واعتذرت ثم سألته قائلا . ما اسم هذه الشجرة ؟ فقال بلهجة مزنّقة : لاعلم لى بالأشجار . ثم سألت رجلا فى ثوب مدنى أنيق فتأسف وأجاب جواب الضابط !

بعد ذلك بان لى فى أعالى الجبل شىء غريب من البناء أنسانى الشجرة . وكانت امرأة تدنو إذ ذاك منى ، وفى وجهها الدميم نبأ التقوى والصلاح ، فسألتها عن ذلك البناء ، فأجابت بلهجة الضابط : لا أدرى ! ... وهؤلاء الجنود الأربعة قد خرجوا على ما يظهر متنزهين . لابد أن يكون واحد منهم ، ذاك الرقيق لإهاب الضارب إلى الاصفرار ، عالماً بعلم النبات . فسألته عن اسم الشجرة . وكنت وأسفاه مخطئاً فى ظنى .

ثم سألت رفيقه عن اليوم الذى وصل فيه الأسطول إلى جبل طارق ، فسمعت للمرة الرابعة أو الخامسة كلمة السر : لا أعلم

إننا لفى جبل الصمت والتكتم . ولكن الحياة تأبى الإطلاق ، وتنفر من القياس الواحد . فلا بد أن نلقى حتى فى المقابر لساناً ناطقاً . وها هو ذا تحت الشجرة التى كادت تفسد علىّ نزهة ذلك الصباح .

كان الرجل يحرق بعض الأوراق . فسلمت ، فرد السلام بإنكليزية سليمة ، ولهجة كريمة . وقد أجاب عن سؤالى الأول جواباً استبشرت به . فما هو من الجندية ولا من البحرية ولا ممن يلوذون بهما . إنما هو صاحب مغسل الجنود . وقد كان فى تلك الساعة يلهو بحرق الجرائد التى تجيئه من بلاده .

فقال وهو يزيد فى نارها : تجيئنا جرائد لندن مرة واحدة فى الأسبوع ونحن نقنع بذلك . لا نريدها أكثر من مرة كل سبعة أيام(١) . أهلنا هناك – فى إنكلترا – يشقون كل يوم بطيخة من الخوف والذعر : الحرب على الأبواب – تطبخها لهم الصحافة صباح مساء . ونحن هاهنا يجيئنا الخوف والذعر دفعة واحدة مرة كل أسبوع فهل تصلح هذه الجرائد لغير النار . أحرقها ، وبردّ نفسك !

وعند ما سألته عن اسم الشجرة أدهشنى بثقافة عالية . فقد أعطانى الاسم وشفعه بنادرة تاريخية ، ومثل لاتينى رواه باللغة الأصلية . عجيب أمر هؤلاء الإنكليز ، فإنه يبلبل الباحثين الراغبين فى الحقيقة نقداً وتقديراً .

وقفت معجباً بذلك الرجل كل الإعجاب . أمثقف فى جامعة أكسفورد وصاحب مغسل للجنود بجبل طارق سعدت دفعة واحدة بعلمه كما يشقى هو بجرائد لندن . وقانا الله الخير إذا طمى !

قال صاحبى – زاده الله علماً وفضلا – اسم هذه الشجرة اللاتينى هو « مُلْتا » (Multa) . ولتسميتها قصة قديمة هى أن بعض الجنود الرومانيين فى عهد يوليوس قيصر ، عصوا ضابطهم فقاصّهم قصاصاً قرنه بالتجويع . فاعتقلهم فى معتقل بُنِىَ بين أشجار مثل هذه الشجرة . وحرمهم الأكل أياماً . وكانت أغصان الأشجار تتدلى فى المعتقل بينهم وهى تحمل ثمرتها ، وهى شبيهة بثمر الدوم . فتناول منه أحد الجنود وأكل مجازفاً بحياته ، ففرح بمجازفته ، فاقتدى به إخوانه ، فأكلوا من تلك الثمار واستمرؤوها جميعاً ، وهم يضحكون من الضابط الذى حاول تجويعهم . إذ ذاك نطق الحكم فيهم بالكلمة التى ذهبت مثلا :

---

(١) فى كلامه شىء من المبالغة . فجرائد لندن تصل إلى جبل طارق إما بالبريد البرى بطريق أوربا ، وإما بالبريد البحرى . وهو – أى البريد – فى الحالين لا يتنى القول المأثور : العجلة من الشيطان . وقد طلبت الجرائد يوم وصلت إلى جبل طارق فكان تاريخ العدد الأخير الذى وصل من لندن تاريخ يوم سفرى من نيويورك . ستة أيام جعلها محدثى سبعة وهو الفيلسوف الغسال !

« نيمو مُلْتا ريوم . . . » أى ليس بين الناس حكيم هو حكيم دائماً . وسميت الشجرة مُلتا .

ومن مدهشات ما شاهدت فى ذلك الصباح راعياً ولا كالرعاة ، شاباً فى ثوب إفرنجى نظيف ، يتأبط كتاباً ، بدل أن يحمل القصب أو الناى ، ويسوق قطيعاً من المعز . هو ذا الراعى العصرى المتمدن ! كتاب يذهب بالناى — علمٌ يذبح الغناء والهناء !

وهناك من الأشجار ما يذكر بالغابات والبساتين اللبنانية — بصنوبر المتن ، بزيتون الشويفات ، بسنديان الأديرة ، بتين عمشيت — رموز وإشارات ، لابساتين وغابات . على أن الرمز وجماله السائغ يجتمعان فى العرائش المنورة بشتى الألوان الأرجوانية والبنفسجية والحمراء والبيضاء . هى ذى عرائس الـ « بورغنفيلى » ومجد الصباح (Morning Glory) والدُفلى والياسمين ، تحمل لى طيب بيروت فى ليالى صيفها ومجد الربيع منعشاً فوق أسوار بيوتها والبساتين .

أمعنت فى الطريق المعبّد المفروش بالزفت المصعد فى الجبل ، فمررت ببيوت وضيعة جميلة تحاول الاختباء بين شجار الـ « مُلتا » والصنوبر . هى بيوت للضباط البريين والبحريين . وهذه أكواخ لاصقة بالصخور الشاهقة يقيم فيها بعض الفلاحين وهم يكتفون من المهنة — فلا أرض تُفلح فى الصخرة — بتربية الدجاج وبيع البيض للجنود . وهناك ديراً بمدرسة للراهبات فوق الطريق ، ومجموعة تحته من البنايات الكبيرة ، تصل بعضها ببعضٍ الجسورُ والأروقة ، هو المستشفى العسكرى .

دنوت من المكان العالى أمامى ، القائم فوقه بناء ينشر علماً سرّىً الخبر لمثلى . هو مركز الأنباء والإشارات البحرية ، يتبادلها والسفن الحربية والتجارية ، المستأذنة — وهى فى المضيق — بالدخول إلى الميناء .

وصلت إلى الثكنة العسكرية عند منتهى الطريق فى طرف الصخرة الجنوبى

الغربى ، المشرف على الناحية الشرقية منها — على جون « كاتالان » وقرية صيادى السمك هناك . ما كان لى أنا أن أشرف على ذلك الجون الجميل الذى رأيته بعدئذ من الباخرة المشرّقة . أوقفنى الحرس . لامرور عند هذا الحد بدون إذن من الحكومة .

عدت أدراجى بشىء من التعريج ، فوصلت إلى نفق فى صخرة ضخمة ، ووقفت عند كتابة محفورة إلى جانب المدخل ، فإذا هى تقول إن هذا النفق فتحه وأتمّه تبرعاً جنود جلالة الملكة فى سنة ١٨٤٢ ، ثم ، بلهجة شعرية تندر فى الأنصاب والآثار الإنكليزية :

كذلك كان وكذلك سيكون . . .

هو الجندى البريطانى . . .

الشجاع فى الحرب . . .

المحب فى أيام السلم للعمل والنظام ! . . .

دخلت النفق المؤدى إلى أرض وراء الصخرة ، مهدَّدها كذلك أولئك الجنود ، فبُنيت فيها الثكنات . هناك فى تلك الساحة ، تحت جفن الجبل وفوق عين البحر تعصف الرياح على الدوام — الرياح الشديدة الباردة حتى فى الصيف . وقد كانت فى أشدها ، على ما أظن ، صباح ذلك اليوم ، فوليتها ظهرى . رحت معها كما يفعل صاحب الشراع إبان العاصفة ، فإذا بى عند الرأس الذى يسرع فى انحداره إلى البحر من نواحيه الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية . وإذا بى أمام صف من الخنادق المبنية بالأسفلت ، وأروقة وراءها وبينها ، وأبواب إلى داخلها حيث تكمن المدافع التى تبرز خياشيمها من نوافذ ترى البحر ولا يراها .

وبين هذه الخنادق ، فوق سطوحها ، مصاطب مصونة لمدافع كبيرة أخرى ، دهنت باللون الأزرق لتتجانس ومحيطها شكلا ولوناً فتخفى حقيقتها على العدو .

أما ما يرى فى تلك المنحدرات الحادة الزوايا من البقع البيضاء الكبيرة ، فهى

موضوع حدس وتكهن للمسافرين فى السفن التى تعبر المضيق . فيقولون : هى جدران للطريق المؤدى إلى رأس الجبل . ويقولون : هى فسحات ، قطعت أشجارها ، وجُزَّ نباتها ، لغرض من أغراض الدفاع . ويقولون : هى بقع صخرية جرداء تظهر فى بياض سابغ ، فتخفى ظلالها على الناظر إليها من عرض البحر .

أما الحقيقة فهى غير ذلك . جبل طارق صخرة تقل فيها الينابيع . ومياه البلدة والحصون — قديماً وحديثاً — تجمع من الأمطار فى الآبار . أما آبار اليوم فهى أحواض عمومية كبيرة تتوزع منها المياه إلى البلدتين ، التجارية والعسكرية . ومن أين تتسرب إليها مياه الأمطار ؟ هذا هو السر فى تلك الجدران المبنية من الحجر الكلسى المنحوت بناء محكماً على صدر الجبل ، فتتلقى الأمطار ، وتحملها إلى القنوات المتصلة بالأحواض فى أسفلها .

رأيت العمال فى إحدى الساحات الصغيرة بالبلدة يحفرون خنادق أو أكواخاً يلجأ إليها الأهالى من الغزوات الجوية ، إذا وقعت الحرب ، وبينما هم يحفرون عثروا على آثار القنوات القديمة التى بناها العرب للغرض نفسه فما تغير فى جمع المياه وتوزيعها غير الطريقة شكلا واتساعاً (١) .

ولكن التغير الكبير الطارئ على هذا الحصن إنما هو فى مجمله لا فى جزئياته . إن للإنكليز فى سياستهم المتعلقة بالبحر الأبيض ثلاثة أغراض أولية ، هى : السيادة ، والتجارة ، وصون طريق المواصلات الإمبراطورية . فالبحث فى الغرضين الأول والثانى ليس من موضوعى . وليس ما يسترعى له النظر الآن من الاستحكامات والقواعد البحرية فى طريق الهند ، غير جبل طارق هذا ، باب رحلتنا المغربية .

---

(١) مساحة الجدران التى تتلقى المياه مليون وخمسمائة وسبعة وسبعون ألف قدم مربع . ومقدار ما تسعه الأحواض تسعة ملايين جالون .

كان جبل طارق الحصن الأمنع فى التاريخ ، وحدّ الدنيا الأقصى فى الأساطير . فذهبت الاكتشافات بالأساطير والحدود ، كما تذهب الاختراعات الحربية بأهمية القلاع والحصون . لقد ذكرت التحصينات القديمة المهملة ، وأشرت إلى الحديث منها ، الظاهر والخفى ، فى أعالى الصخرة . بيد أن ذلك كله بالنسبة إلى ارتقاء السلاح الجوى ، أمسى كالحصون فى القرون الوسطى . فالعدو يستطيع أن يحطم من الجو مدينة الدفاع بكل ما فيها من مرافئ الاستحكامات ومدافعها .

ومما ينقص من قيمة هذه الاستحكامات والحصون هو أن لألمانيا اليوم مراكز حربية ، بحرية وجوية ، جنوبى المضيق ، فى جزائر كاناري بإجازة الإسبان وعلى شاطئ الأطلنتيق فى الأرض الإسبانية الأخرى التى تدعى ريو ده أورو .

لذلك باشر الإنكليز بناء مطار وراء الصخرة فى الناحية الشمالية ، وهى ساحة رحبة تكاد تصل إلى الحدود الإسبانية . فإن شريط سكة الحديد — الحدود — على نحو مئة متر منها .

عندما باشروا تمهيد تلك الساحة لهذا العمل تنبه « الجنرال فرنكو » فزاد فى حاميتى لالينيا وسان روكيه ، وهو يفكر فى غير ذلك من أساليب الدفاع والهجوم !

إن بين إنكلترا وإسبانيا اتفاقاً قديماً على أن لاتُحصَّن الجبال القائمة فى ذلك الهلال بين جبل طارق والجزيرة ، وأن لاتُستخدم لغرض من الأغراض الحربية . على أن حكومة « الجنرال فرنكو » لا تميل إلى التقيّد بذلك الاتفاق . وإنى أظن أن هناك ، فى الجبال الغربية ، حصوناً واستحكامات بُنيت حديثاً .

جبل طارق ! لا يزال الإسبان يعلقون النفس بضمه إلى أمه ، إلى الأرض الإسبانية . فإن كانت حكومة « فرنكو » لا ترى الوقت مناسباً للعمل الخطير ، الذى يحرضها عليه الألمان والطليان ، فهى لا تمنع الجرائد والكتاب من البحث فى الموضوع .

أضف إلى ذلك عودتهم إلى فكرة قديمة فى حفر نفق تحت البحر ، فى المضيق ، بين طريفة وطنجة يصل الأرض الإسبانية بالأرض الأفريقية ، ويمكن بواسطة نقل الجنود من المغرب إلى إسبانيا ومن إسبانيا إلى المغرب يوم يعزمون على الحرب .

على أن بعض الإسبان لا يرون وجوب الحرب استرجاعاً لجبل طارق ، وقد كان « الجنرال بريمو ده ريڤيرا » ، (Primo de Rivera) أول من دعا لحل القضية بالمفاوضة والمقايضة . فتنزل إسبانيا لإنكلترا عن سبتة ، وهى بميناها الرحب تصلح أن تكون قاعدة بحرية كبيرة ، نظير أن تنزل إنكلترا لها عن جبل طارق . ولا يزال لهذه الفكرة أنصار هناك ، وخصوصاً فى الكتائب التى أسسها « أنطونيو » ابن « بريمو ده ريڤيرا » والتى ترأس شقيقته « بيلار » فرعها النسائى . فلا يبعد — وقد نقصت قيمة جبل طارق الحربية والبحرية ، بل كادت تذهب بأجمعها ، أن تصل الحكومتان فى المستقبل غير البعيد إلى مثل هذا الاتفاق .

جبل طارق ! كم قامت حوله ولأجله الحروب والحصارات ، منذ وطئته أقدام العرب بقيادة طارق بن زياد (٧١١ م) إلى يوم استيلاء الإنكليز عليه فى المرة الأخيرة (١٧٨٣) . كان يدعى قبل الفتح العربى جبل ألِيبة — والاسم فينيقى — ويوم احتله طارق باثنى عشر ألفاً من رجاله العرب والبربر كان فى حوزة الغوثيين[1] فدارت بينهم وبين المحتلين رحى الحرب .

وفى يوليو من سنة الفتح ، على شاطئ النهر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة شريش (Jerez) كانت الوقعة الفاصلة التى دامت ثلاثة أيام ، وانتهت باندحار الغوثيين ، وتقدم العرب شمالا وغرباً .

وقد حصن طارق الصخرة بما بنى من القلاع والأبراج على الشاطئ الغربى

---

(١) فى الكلام على سبتة ، فى الفصل الخامس ذكر ما أهله مؤرخو العرب من الأسباب لهذه الغزوة .

وفى أعالى الجبل ، منها البرج المربَّع الذى لا يزال قائماً هناك . تلك الجدران الدكناء ، بين فسحات من الاخضرار وتحت أطناف من الصخور ، وإن تحدَّت الروامى والسنين ، وظلت سليمة بعد كل ما شهدت من حرب ، إن هى إلا شهيدة الزمان ، وقديسة التخاذل والنسيان !

استمر حكم العرب فى جبل طارق ، على اختلاف عهودهم ودولهم سبعمائة وخمسين سنة . فانتزعه منهم الإسبان سنة ١٣٠٩ ثم فقدوه . وفى سنة ١٤٦٢ كان الفوز لهم ، فأخرجوا العرب منه ، وزادوا فى تحصينه ، نظل فى حوزتهم ، بشىء من التقطع ، أكثر من مائتى سنة .

أما استيلاء الإنكليز عليه فقد كان للمرة الأولى فى الحرب الأوربية (١٧٠١ — ١٧١٤) التى أثارها ملك فرنسا الكبير « لويس » الرابع عشر .

ما أتفه الأمور الظاهرة التى كانت تقام من أجلها الحروب فى الماضى ! ولكنها كانت تنطوى على غيرها ، وهى الجوهرية . هى هى المطامع الاقتصادية والاستعمارية بعينها ، أراد لويس الرابع عشر أن يبسط نفوذه على إسبانيا بإقامة حفيده الأمير « فيليب » ملكاً عليها خلفاً « لشارلس » الثانى ، فقامت إنكلترا تنادى بالويل لاختلال التوازن الدولى الأوربى فألَّفت حلفاً منها ومن النمسا وهولندا والدنيمرك والبرتغال لمحاربة الفرنسيين والإسبانيين . دارت رحى الحرب فى أوربا بضع سنوات ، ثم امتدت إلى إسبانيا ، فاحتل الأحلاف قادس ، وقررت القيادة العامة أن تحتل كذلك جبل طارق . فأطلقت القنابل عليه فى ٢٣ يوليو سنة ١٧٠٤ ، واستمر الحصار ستة أشهر ، فتكلل بالنصر فى ١٠ مارس سنة ١٧٠٥ للمحاصرين .

كانت الجنود الهولندية والإنكليزية مشتركة فى ذلك الحصار . ولكن الأميرال الإنكليزى « روك » (Rooke) ضرب الضربة الأخيرة الفاصلة ، وأمر — بدون أمر من لندن — بأن يرفع فوق الصخرة العلم الإنكليزى فقبلت لندن بالأمر الواقع !

بيد أن ذلك الاحتلال لم يدم طويلا ، فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، لا للإنكليز ولا للإسبان ، الذين حاصروا الصخرة فاستعادوها ، ثم فقدوها . وظل الاحتلال الإنكليزى متقلقلا حتى حصار عام ١٧٧٩ — ١٧٨٣ برًّا وبحراً ، والذى يعد من أعظم حصارات التاريخ . ذاق الإنكليز أشد ويلات الحرب وأمرَّها . ومع ذلك ، وبالرغم من مساعدة فرنسا ، ما استطاع الإسبان أن يزحزحوهم من مراكزهم المنيعة . كانوا هم والصخرة صنوين . فرفع المحاصرون الحصار وعقدوا مع المحاصرين معاهدة الصلح فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ .

منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا استمرت سيادة الإنكليز فى جبل طارق دون انقطاع ، وهى تزداد قوة وتمكيناً بما بنوا فيه من الحصون ، وبما حفروا من الأنفاق ، وبما أسسوا من المرافئ وردموا من البحر ، وبما حسَّنوا إجمالا فى أسباب الحياة المدنية والعسكرية ، وفى أسباب المناعة البحرية ، فغدت الصخرة أحصن الحصون وأعزها فى العالم . وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوى الذى نحن فيه..

فهل تذهب يا ترى كما ذهبت أمثالها العربية والإسبانية قبلها ، هل تمسى حصون الإنكليز كما أمست حصون ملوك قشتالة وملوك غرناطة ؟ ! . . .

إن فى هذه الصخرة كهوفاً حفر تاريخها الزمان — كهوفاً عريقة فى القدم الجيولوجى — أوت إليها الطيور والحيوانات الجبارة البائدة وبليت فيها أجنحة النسور التى كانت تحلق فوق ألف قدم(١) حول القنن الشامخة عليها . ولا يزال فى هذه الكهوف من آثار تلك الأيام ما يسترعى الأنظار ، ويدخل على القلوب الورع والاتضاع . إن فى هذه الكهوف عظام العبرة والذكرى ! . . .

ليقف القارئ عند كهوف الاستعمار — عند ختادقه — وليذكر تلك المدافع والاستحكامات التى كشف الصدأ سرها ، وطوت العفونة أخبارها !

---

(١) فالصخرة التى تمتد ميلين ونصف ميل ، من السهل شمالا إلى البحر جنوباً ، بضع قنن عالية تتراوح بين الألف والمائتين ، والألف والأربعمائة من الأقدام .



الجنرال فرنكو

الفصل الثالث

طنجة

« يجب أن تكون هذه البقعة الأفريقية الجميلة جنينة أوربا » ! ...

قالها السياسى الإنكليزى « لويد جورج » عند ما زار طنجة ، ويقولها غيره من الأوربيين فى الجرائد أو لصحبهم أو لأنفسهم — زائرين كانوا أم مقيمين : طنجة ، جنينة الفرنجة .

— أولئك الأربعون ألفاً من أبنائها العرب ، المزدحمون فيها ، المنتشرون فى ضواحيها ، ماذا يحل بهم إذا تهافت الأوربيون على هذه الجنينة الأفريقية المغربية وامتلك كل منهم شبر أرض فيها ، أو كرسيًّا فى دور أحكامها ؟ !

— يحل بهم ، يا سيدى ، ما حل بمن تقدمهم من المستكشفين والغازين والفاتحين والمستعمرين . يحل بهم ما حل بالفينيقيين والڤنداليين والرومانيين — والعرب أنفسهم .

— وأبناؤهم اليوم ، أبناء أولئك الفاتحين العرب ، أيذهبون ضحية فتح جديد؟

— وما ضرهم ؟ إنها الضحية المثمرة أطيب الثمار وأبقاها . إن لهم جنة الخلد . فهم الرابحون ، وإن كانوا فى جنينة الفناء حمالين وسقائين وبياعى حطب . . .

طنجة ، جنينة الفرنجة !

وهاك بابها على الشاطئ الذهبى فى آخر المضيق ، حيث تتواصل أمواج البحرين ، المتوسط والأطلنتيق ، ذلك الشاطئ المغمور بشمس أفريقيا الحنون ، الدافئة المنعشة المنشطة فى كل فصول العام على الدوام . هاك بابها البحرى وقد صفت على رماله أكواخ الخشب المقببة ، والمظلات الواسعة الزاهية الألوان ،

يتكاسل فيها ويسترسل تحتها أبناء آدم وحواء وقد اعتاضوا عن ورق التين ذراعاً من حرير أو « بُبلين » فاستحالوا حوراً وولداناً . وراحوا يلعبون ويمرحون، ويتغازلون ويتواعدون .

وهناك تحت زبد الأمواج ترى السابحين والسابحات فى البهجة الكبرى ، بين الوله والدله ، والشمس ترميهم وترميهن بسهام غرامها ، فتعلو صوتَ البحر أصواتُ المطاردين ، أخوات دون جوان وقايين .

حورٌ غير مقصوراتٍ فى الخيام أو فى الأكواخ . حور يرقصن على الـ « بلاج » ويركضن أمام الغلمان إلى الأمواج ، حيث يتواصل المتوسط والأطلنتيق فيقع ما فى القلوب محجوب ، وتغتفر الذنوب ، ولا حبيب يقيَّد ولا محبوب .

لك الساعة التى أنت فيها !

هذا المشهد الأول من مشاهد طنجة لا يختلف عما فى مصايف أوربا من أمثاله : دوفيل ، بيارِتز ، بريطون ، سان سِبَستيان ، طنجة — لسنا ها هنا فى أوربا ، ولا فى أفريقيا . إنما نحن على شواطئ الجنان الأرضية ، فى صيف اللذات أو فى شتائها ، ينادينا القوّاد الأكبر ، وتتقاذفنا أمواجه الصاخبة ، فى نور الشمس ، وفى ضوء القمر ، فنتغازل ونتواعد ونتواصل ونغنى !

وها نحن أولاء فى أكبر فندق من فنادق طنجة الفخمة ساعة يسكت الناى وتهدأ الأوتار ، فيحتل منصةَ أبناء الفن الموسيقى إخوانُ برابرة أفريقيا ، أولئك النافخون فى النحاس ، الضاربون على الطبول . نحن فى سهرة عَرِصَة ، نحن فى حفلة راقصة !

وهؤلاء الأوربيون فى أثوابهم السوداء المذنَّبة ، وفى قمصانهم البيضاء المكوية يخاصرون ويباطنون بنات طنجة الأوربيات والإسرائيليات ، الرافلات بالحرير من خصورهن إلى أخامصهن ، وما فوق الخصور غير مكنون ، مكشوف للأنوار والعيون !

حميت آلات الموسيقى الأفريقية ، موسيقى الـ « جاز » فالموسيقيون يتدلهون ويتحوون ، والراقصون والراقصات فى ما يشبه البلّه أو الجنون — الصدور على الصدور ، والخدود على الخدود ، والسكرات فى العيون !

وإن هذا المشهد الثانى من مشاهد طنجة لا يختلف عما فى فنادق أوربا ، ليالى الرقص ، من أمثاله . لسنا إذن فى أوربا ، ولا فى أفريقيا . إنما نحن فى العرصات الأرضية نقطف زهور اللذات ولا نهوى ، ونأكل ثمارها فننتهم ونُتخَم ونفنى .

على أن لطنجة شهرة فريدة ، غير حميدة . فإن كانت نابولى مدينة القبلات الملتهبة ، ولندن مدينة اللذات المحجبة ، وباريس مدينة الأفانين فى كل محجوب أو مكشوف ، فإن طنجة مدينة الشهوات العارية ، والمنكرات السارية .

قيل هذا فيها ، والقول لا يخلو من غلو وتحامل . فهل هى فى الفحش والفجور أكثر استرسالا وتجارة من غيرها من مدن أفريقيا الشمالية ، ولا أقول مدن أوربا؟ هل تفوق طنجة وهران والجزائر فى تجارة الرقيق الأبيض ، وفى الأمراض الزهرية ؟ وهل تفوق تونس وفاس فى المخزيات والموبقات ؟

لو كانت طنجة أكبر مما هى لصغرت سمعتها المخزية — فهى تختلف عن المدن الكبرى بأنها تضيع فى سمعتها ، فى حين أن مخزيات المدينة الكبيرة وموبقاتها تتضاءل وتضيع فى أرحابها . فلو نقل إلى طنجة ما فى باريس مثلا ، بل نصف ما فى باريس من مرابع اللذات ، وبيوت الدعارة والحانات ، لضاقت بها المدينة وضواحيها .

بيد أن فى طنجة ، على قسمتها من الجمال الطبيعى ، والحسن الهندسى ، والعز التاريخى ، ما يثبت بعض سمعتها . فالمدافع عن المدينة ، وهى تستحق الدفاع ، لا يتغاضى عن تلك السمعة .

جلست فى قهوة من مقاهيها ، فى ساحة السوق الصغيرة المشهورة ، المنحدرة

من السوق الكبيرة إلى البحر ، أسرح النظر فى جمع من الناس متلوّن متحرك على الدوام . متلون بألوان الشرق والغرب ، متحرك بما هو أبرز سجاياهما .

رأيت الرجال يسيرون إلى أغراضهم فى السبيل الواحد بخطوات متباينة ، فالأوربيون يجدون ويتزاحمون ، والمغاربة يمشون الهوينا وهم يجرون أذيال المجد الغابر ، والفجر الدابر ، ولا يأبهون لما فى يومهم ، من نتائج نومهم .

ورأيت النساء الأوربيات فى تبرّج صيّاح ، وزىٍّ فضّاح ، الشقراء منهن أكثر اشقراراً من أخواتها فى باريس ومدريد ، والحمراء الخدين والشفتين أبلغ احمراراً من أوانس « الجادة البيضاء » بنيويورك ، والألوان — دام اتئادك — من معملَى الكيمياء والعطور لا من الأبوَين الطاهرَين .

ورأيتهن فى الأثواب اللاصقة بأجسامهن ، وقد بالغن فى شد الخصور ، كالساعات الرملية . هى القباب من فوق ومن تحت ، من أمام ومن وراء !

فنساء طنجة الأوربيات ، وأخواتهن البلديات المباح لهن السفور ، أى الإسرائيليات ، هن منقطعات النظير فى المدن الكبرى المتصفة نساؤها بحسن الذوق والأناقة ، إن كان فى اللباس أو التبرج .

وقلما يُرى فى المدن الأفريقية الأخرى ، على البحر المتوسط ، ذلك الغلو القبيح فى « مهيجات » الجنس اللطيف للجنس الخشن . وقلما يروق هذا الزى أحداً من الجنس الخشن « المذكور » إلا إذا كان من أبناء ما وراء الصحراء والواحات — من السودان أو السنغال .

إن المرأة الطنجية ، إن كانت على ساحل البحر عارية ، أو فى حفلات الرقص ، وقد ساومت فى العرى ، هى على شىء من الحسن الفتان . أما المرأة الطنجية فى السوق فقد تكون للعبد السودانى نعيمه وبلواه . وللشيخ المغربى دواء للباه !

فهل النساء فى السوق من بنات السوق ؟ يستحيل أن يكنّ كلهن كذلك ،

إن فى جوانب الساحة ووراءها جادات ضيقة متعرجة ، تسمى فى المغرب زنقات تكثر فيها بيوت الدعارة . ولكنى لم أر خلال ساعة ، غير نسوة ثلاث خرجن من جوانب الساحة .

وقد قيل لى إن أكثر البنات فى تلك البيوت هن إسرائيليات — راحيل ، إستير ، يهوديت ! — وإن بينهن ، أو فى بيوت خاصة بينهن بعض الهندات والفواطم . وإن فى أحياء أخرى من المدينة زنقات تكثر فيها أوكار الرواحل المرفهات الخصوصيات !

ها هو ذا السر فى شهرة طنجة : راحيل ، إستير ، يهوديت ! فإذا كان الفسق الطنجىّ معرضاً فى النهار ، ومعملا فى الليل ، ومرمة ساعة الفجر ، فهو فى أوقاته كلها إسرائيلى الطابع والمبدأ .

عندنا — من أجلك يا سيدى — تحت الطلب — الشقراء والبيضاء والسمراء والسوداء ، حتى العذارى منهن . أوَ تريدها من « الأوكار » ، محصنة أوربية أم طنجية عذراء ، سودانية أم مغربية ؟ إننا لفى خدمتك . لك الأمر ، أيها السيد الكريم ، ولك من تريد ، ومعها — حبة — مسك ! . . .

* * *

طنجة جنة الفرنجة . . .

وإن فيها غير ما ذكرت من أسباب المرح والسرور والراحة والحبور — فيها الملاهى والملاعب والقصور . سر شرقاً على ذلك الشاطئ البهيج تصل ، بعد أن تجتاز ثلاثة كيلو مترات ، إلى قصر جميل ، عربى الهندسة ، غربى الترف والتنسيق ، عربى بنقشه وألوانه ، غربى بعرصاته ذات الظلال العاطرة ، والزوايا الساترة ، وبمرابعه الحافلة بكل ما تشتهيه الأنفس النهمة والمتخمة ، وبحوض للسباحة ، وردهة للرقص ، وغيرها متوارية للارتياح والاعتكاف .

هذا القصر يدعى فيلاّ « هاريس » (Villa Harris) نسبة إلى ذلك

الأديب الإنكليزى الذى أحب المغرب وأقام فيه طويلا فأثمر حبه كتاباً واحداً فيه أهلّةٌ من الحقائق والإخلاص — وأنصافٌ إنكليزية وأنصافٌ مغربية بشيء من الإنصاف من الاثنين وفيهما . فلئن أخطأ سهم أدبه كبد الشهرة ، فقد أصابها سهم حبه فى هذا القصر الحامل اسمه الكريم .

وإن واصلت السير شرقاً بشمال تصل إلى جسر قديم وضيع فى وادى الصوانى ، قبالة الـ « بلاج » العامر بالحياة هناك فى الناحية الغربية ، فتقطع الجسر ، فإذا أنت عند خرائب طنجة (Tingis) القديمة ، تلك التى أسسها الفينيقيون ، حنو القرطجنى ورفقاء رحلته الأفريقية فى القرن السابع الوثنى . هناك خرائب المدينة التى كانت فى عهد الرومان عاصمة مقاطعة موريتانيا . ولا شك فى أن أولئك الرومان — عهد استعمارهم لها — أقاموا فيها دوراً وساحات للألعاب الرياضية التى اشتهروا بها . وما تلك الألعاب الوحشية إذا قيست بألعاب هؤلاء الفرنجة القائمة على علمى الرياضة والغرام ؟ !

فى الدليل الفرنسى للمغرب الأقصى صفحة عن طنجة جاء فيها ذكر أماكن الرياضة والتنزه ، كلعب الـ « تنيس » و الـ « غولف » والصولجان (Polo) والمتنزهات البرية فى ضواحيها ، والبحرية فى المضيق على ظهر يخت أو فى ظل شراع .

وفى طنجة — فى هذا البلد العربى — مدرسة لتعليم — الأوربيين ولا ريب — ركوب الخيل . فماذا يبتغى بعد ذلك السائح والمقيم ؟ وماذا يشتهى بعد ذلك طالب العلوم الرياضية والصحية والاصطيافية والشتوية ؟ !

هى المدنية الأوربية السابغة النعم . ومن نعمها النادرة فى مثل هذه المدينة . نعمة كبرى لا تُنْسَخ ولا تُمسَخ ، هى معهد من معاهد العلم ، معهد باستور (Pasteur) عزّ وعلا . هو فى أجمل أحياء طنجة . على الهضبة التى تدعى المرشان (Le Marshan) المزدانة بالقصور والبساتين التى يملك أكثرها اليهود .

على أن هناك كذلك قصر المنبهى ، وزير السلطان عبد العزيز — فى ماضى الزمان وسالف العصر والأوان — ودار المندوب الشريفى ، باشا طنجة ، ومستشفيان إنكليزى وفرنسى ، ومقبرة للأهالى .

أما قصر مولاى عبد العزيز وقصر أخيه مولاى عبد الحفيظ — مما عوّضه الله بعد قصور المُلْك المفقود — فهما هناك على صدر ذلك الجبل ورأسه فى عزلة نعيمها منغّص ، والطريق إليهما يمر بمقبرة أخرى هى مقبرة سيدى محمد الحاج ، ولىّ طنجة ، وبوادٍ يدعى وادى اليهود . اليهود ! المقابر ! المال ! الديون ! ذهاب الملك — موت العز والسادة ! سبحان الشاعر الرمزى الأكبر !

وقد يعوض ، سبحانه وتعالى ، على طنجة الأهالى ، الذاهبة ذهاب ملك المعتزلين فى جبالها ، بطنجة جديدة عزها ممدود ، وعمرانها غير محدود ، طنجة أوربية حافلة بالصروح الفخمة ، الحديثة الهندسة والفن ، وبالشوارع والساحات الرحبة ، الحاملة أسماء الأمم حبًّا وكرامة . فهذه ساحة إسبانيا ، وذاك شارع پستور ، وهاهنا جادة إيطاليا ، وهناك شارع الإنكليز . وفيها كلها المقاهى والحانات البهيجة ، خدامها فى أثواب الخدم لا أثواب البقالين والسقائين ، كما فى المقاهى البلدية ، فتطلب منهم ، بلغة الإسبان أو الفرنسيين أو الإنكليز ، وأنت جالس إلى مائدة من القش الملون ، فى كرسى بجانبها ، تطلب كأسك المعتاد : أبسنت ، وسكى ، شرى ، سنزانو ؛ كأنك فى باريس أو مدريد .

وطنجة الأهالى ، طنجة المغربية الشرقية ، أين هى ؟

أعود بك إلى السوق الصغيرة ، الكبيرة بشهرتها ، الصاعدة من الساحل إلى رأس الرابية ، الضيقة المتعرجة بحوانيتها ومصارفها وحاناتها ومقاهيها ، الواسعة بأسباب العيش الغامضة ، يلجأ إليها من لا حوانيت ولا مكاتب لهم من التجار ، تجار السياسة وأخبارها ، وتجار الأوراق المالية وأسرارها ، وتجار الحياة المحجبة بحجب المدنية ، تجار القلوب والأخلاق . هم ذوو المهن « الحرة » التى تقوم بدهاء

العقول الملتوية ، حول فنجان من القهوة فى أحد المقاهى أو كأس من الجعة فى حانة من الحانات .

إن تلك السوق المزدحمة على الدوام بالناس من جميع الطبقات والأمم تنتهى عند الساحة الكبرى التى تدعى السوق الكبيرة ، وفيها مظهر من مظاهر الحياة الشرقية المغربية ، الوادعة الشريفة . ها هنا يجتمع فى يومين من الأسبوع : الثلاثاء والأحد ، أبناء القبائل المجاورة لطنجة ، القبائل المزارعة ، وقد جاؤوا من الضواحى نسوة ورجالا ، يحملون الأحمال ، أو يسوقون الحمير المحملة من خيرات الأرض ، البقول والثمار ، والحبوب والأبازير والدجاج والبيض ، والزهور والرياحين والحطب والفحم ، حتى الحشيش الأخضر للدواب .

هاك فى ظلال الأشجار الوارفة عجوزاً تبيع طاقات من البقدونس والصعتر أو قليلا من الفول الأخضر والتين . وهاك فتاة مغربية سافرة على رأسها برنيطة كالمظلة وقد تربعت على الأرض وراء صف من طاقات البنفسج ، وآخر من الزنابق والورود . وهاك أحمال الحطب ، وأكياس الفحم ، تباع لمن يحرقونها ، لا لمن يتاجرون بها . لا وسطاء فى هذه الساحة ، ولا سماسرة !

من الحقول والبساتين إلى المطابخ والبيوت .

ها هو ذا المغرب بفقره واتضاعه ، بقناعته وصبره ، ببساطته وكرامته ، بأسماله وأوساخه ، وبإحساسه الشعرى !

وفى كل يوم من الأسبوع ، بعد الظهر ، يؤم هذا المكان الحاوى والراوى والمبصّر والمحبّان والراقص والزمار ، فتعقد حولهم الحلقات ، فتعمر فيها أسباب الطرب والتفكهة والسلوان ، فيغدو الناس ، بما يشاهدون ويسمعون ، حيارى سكارى .

وها هو ذا المغرب فى مرحه وفرحه ، فى ألاعيبه وشعوذاته ، المغرب الروائى الشعرى ، المغرب اليائس الضحوك ، المغرب العجيب !

إن فى هذه الساحة كذلك ، إلى جانبى سوق الفحم وسوق المواشى ، رمز المغرب السلطانى ، المنفصلة عنها المتصلة بها مدينة طنجة . هى منفصلة فعلا ، متصلة اسماً وشرعاً . وها هو ذا البرهان على ذلك : ذى هى المندوبية ، دار المندوب ، وفيها مدافع الدولة الشريفية ، بضعة وثلاثون مدفعاً من الصَفْر فى أشكال شتى ومن عهود مختلفة . وهى كلها اليوم للأنظار والازدكار .

وهناك فى القصبة ، على هضبة من الهضاب ، طنجة الأهلية ، بسورها وبابيه : باب الراحة ، وباب الحناء — وأشياء أخرى للأنظار والازدكار ، هناك بيت المال وصناديقه الطويلة الضخمة الفارغة . وهناك « المشور » أو دار الحكم حيث كان يجلس الباشا مندوب السلطان ، ليقضى بين الناس . وهناك دار السلطان نفسه ، حيث كان يقيم عند ما يزور طنجة ، ، هى ولا غرو دار فخمة — أو كانت — بأوانيها وردهاتها وحدائقها التى لا تزال زاهرة .

صعدنا إلى سطح الدار السلطانية فأشرفنا على المدينة الجديدة التى تنحدر مدينة القصبة إليها . وهى ، أى المدينة الجديدة ، ذات هضبتين وواد بينهما تنساب فيه السوق الصغيرة . وهناك الشاطئ الذهبى وأكواخ الـ « بلاج » والمظلات حيث تاهو الحسان . وإلى الجانب الشمالى الغربى رصيف نحو كيلو متر واحد يمتد إلى البحر ، ولا باخرة من البواخر إلى جانبه ، إنما فى الميناء مراكب حربية فرنسية وإسبانية وإنكليزية آمنة فى مرساها مطمئنة متحابة . وهناك فى الطرف الشرقى الشمالى من المضيق ، على الأفق اللازوردى ، غيمة سوداء هى جبل طارق .

إن أجمل ما فى القصبة مئذنة جامعها المثمنة الأضلاع . وإن أروع ما فى القصبة باب العصا ، حيث كان يحاكم صغار المجرمين .

بيت المال ، قصر السلطان ، باب العصا ، بابا الراحة والحناء — والجامع : هو ذا المغرب فى عزه ومجده وقساوته وتقواه . أما المجد والعز والقساوة فقد أمست

أثراً للعين والذكرى . وأما التقوى فهى وأخواتها الفقر والصبر والقناعة من البركات الباقيات !

وقفنا فى الساحة تحت تينة كبيرة ، أمام بناية كانت ثكنة عسكرية للإسبان . فحيينا امرأ هناك ، فرد التحية بلهجة مغربية فهمناها .

قال جواباً عن سؤالى الأول : إن البناية هى مدرسة للصبيان . وقال جواباً عن السؤال الثانى : لا يا سيدى ، ليست وطنية بل هى أوربية يتعلم فيها أولادنا اللغتين الفرنسية والإسبانية .

— ولا يتعلمون العربية ؟ ! ولماذا ؟

— الله أعلم ، سبحانه وتعالى ، إنه على كل شىء قدير .

قالها بلهفة كلها ورع وحنين ثم أنّ أنّة سمعتها السماء .

وهذه جنازة أحد المسلمين تمر أمامنا . نعش محمول وثلاثة أمامه يرتلون أو يحاولون الترتيل ، والناس وراءه يتمتمون ، لست أدرى بأية لغة من لغات العالم . جنازة إسلامية فى الشكل الظاهر ، والتقوى الباطنة . أما اللغة والتجويد فهما أقرب شىء إلى الرومانية أو البربرية أو الفينيقية منهما إلى العربية والإسلام .

عدنا من القصبة إلى السوق الكبيرة فالسوق الصغيرة فالتقينا هناك بلبنانى أقام فى طنجة أربعين سنة فأمسى من أبنائها لساناً ، وقد يجوز أن نقول كذلك : قلباً وخلقاً . دعوناه للقهوة والحديث فقال : عندى واحد ميعاد والذاكرة ذيالى (ذاكرتى) ضعيفة ، ضعيفة بالزّفّ (أى جدًّا أو كثيراً) .

ثم وعدنا بأن يوافينا إلى القهوة — إذا تذكر اسمها . فسألناه ، ونحن لا نأمل بذاكرته أن تحقق الاجتماع فى القهوة : وكيف أحوال طنجة ؟

فأجاب قائلا : موحّلة .

فقلنا : موحّلة تجاريًّا أم اجتماعيًّا أم سياسيًّا ؟

فقال : موحّلة فى كل شىء — موحلة بالزّفّ .

وقالها كما يقول : الصحة جيدة والحمد لله .

* * *

ما كذب أخونا اللبنانى ولا غالى .

فما السبب فى توحيل جميع أحوال طنجة ؟ أحديث العهد هذا التوحيل أم قديمه ؟ سنجاوب دون أن نعود إلى العهود القديمة مستكشفين أحوالها — وأوحالها .

فلقد ذكرنا الفينيقيين مؤسسى طنجة ، والرومانيين مستعمريها ، ثم جاء القنداليون غازين ناهبين مخربين ، والبيزنطيون مصلحين مستثمرين . فكانت طنجة فى عهدهم على شىء من العمران . ثم فتحها واستعمرها العرب . ويوم مَرَّ بها إدريس الأول (٧٨٨ م) قادماً من تلمسان ، فى طريقه إلى فاس ، كانت طنجة أجمل مدينة فى المغرب .

وما ذهب شىء من جمالها وعمرانها فى عهد البرتغاليين الذين انتزعوها من العرب فى سنة ١٤٧١ ، ولا فى عهد الإسبان الذين خلفوهم بعد نيف ومائة سنة (١٥٨٠) ، خسر البرتغاليون طنجة مرة أثناء ذلك ثم استعادوها فى سنة ١٥٥٦ .

وبعد ست سنوات من احتلالهم الثانى عقد لملك الإنكليز شارلس الثانى على الأميرة ده براغَنْزا البرتغالية ، فراحت طنجة مع الجهاز ، انتقلت بزواج كاترين إلى حوزة الإنكليز ، فحكموها ثمانى عشرة سنة فقط . ذلك لأن مولاى إسماعيل الكبير قام يطالب برد « الجهاز » إلى أصحابه ، فشهر الحرب على أقارب كاترين الجدد وأخرجهم من طنجة فى سنة ١٦٨٠ .

منذ ذلك اليوم إلى آخر القرن التاسع عشر بقيت هذه المدينة فى حوزة سلاطين المغرب ، وهى تنعم بشىء من العمران المادى ، وبأشياء من الأمن والنظام . ساد فيها السلم على الأقل والاطمئنان . أما تجاريًّا فقد كانت أول مدن المغرب ، وما زالت . ولا غرو فهى باب المغرب الأقصى من أوربا والشرق وإليهما .

ولا تزال ذلك الباب . إلا أن مفتاحه وقع من يد السلطان عبد العزيز يوم وقع المعاهدة الأولى والفرنسيين ، فتسابقت الدول إلى التقاطه ، فضاع فى الهرج والمرج ، وساءت — وحالت — أحوال طنجة . أجل ، لقد ساءت أحوالها عند ما رمقها الأوربيون فى أواخر القرن الماضى ، بأنظارهم الاستعمارية . فصارت كل دولة من الدول الكبرى ، وخصوصاً فرنسا وإسبانيا وإنكلترا ، تدّعى وصل ليلى ، وتنظم لها القصائد باللغة — السياسية !

طمحت فرنسا ببصرها — وبصر جندها — إلى المغرب أجمع ، وطنجة طبعاً منه . وطمعت إسبانيا بضم مدينة المضيق الكبرى إلى ما كان قسمتها من الساحل الإفريقى . فتحصن مركزها تجاه الإنكليز فى جبل طارق . وكان الإنكليز يذكرون ، ويتخذون قاعدة لسياستهم ، كلمة قالها أميرالهم «نلسون» (Nelson) : إن لم تكن طنجة إنكليزية فيجب أن تكون دولية . مسكينة طنجة . فقد عظم خطبها فى تعدد خطبائها — الفرنسيين والإسبان والإنكليز والألمان . وبينما كان الإسبان والفرنسيون يتنافسون ويتوثبون ، كان الإنكليز يقفون موقف المدافع عن شرف طنجة ، وكرامة الدولة الشريفية أمّها .

هذا فى آخر القرن التاسع عشر . وفى السنة الثانية من القرن الحاضر اعتزمت الدولتان فرنسا وإسبانيا ، التخلص من المنافسات فقررتا المفاوضة فى الأمر .

كان « دلكاسة » يومئذ يدير سياسة فرنسا الخارجية ، فأزعجه تدخل الإنكليز فى شؤون المغرب ، وراح يجامل إسبانيا ليتآزر وإياها عليهم . فاتفق وسفيرها فى باريس « السنيور ليون إى كستيو » (Leon Y Castillo) على أمرين . وبالأحرى أنهما اعترفا بأمر ، وقررا الأمر الآخر ، وكلا الأمرين غامض ، أو أن معناه معقود بالنيات الكامنة فى الكلمات السياسية .

قال « دلكاسة » ، ووافق السفير الإسبانى ، إن لطنجة أهمية كبرى فى تأييد حرية المضيق ، مضيق جبل طارق . ثم قالا معاً : وبناء على ذلك لا تمانع

الحكومتان المتعاهدتان فى أن تكون طنجة مدينة حيادية .

وما معنى حرية المضيق ، وحياد المدينة ؟ فقد كان كل من المتفاوضين يريد أن يقيد بتأييد حرية المضيق سلطة الإنكليز فيه ، وأن يتدرج بتقرير حياد طنجة إلى الاستيلاء عليها . كلٌّ يدعى وصلا بليلى ! . . .

وقد ظهر من نية « دلكاسة » نصفها أو بعضها فى المؤتمر الإسبانى الفرنسى سنة ١٩٠٤ الذى تحددت فيه حدود المنطقة الشمالية الإسبانية إذ قال ، وأقنع بقوله السفير الذى كان يتجامل وإياه منذ سنتين : إنه يجب أن تبقى طنجة فى وضعها الإدارى المعروف يومذاك . أى فى حكم « الهيئة الدبلوماسية والمؤسسات البلدية والصحية » . ومعنى ذلك أن طنجة ليست للفرنسيين ولا للإسبان ولا لسلطان المغرب .

فهل تُستغرَب الفوضى ، وما تجره من الشرور السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى بلد لا حكم فيه لغير الأغراض والأهواء . وكل واحد من الهيئة الدبلوماسية ، أى قناصل الدول ، يقدم غرضه ومصلحة حكومته ومواطنيه على أغراض زملائه ومصالح حكوماتهم ومواطنيهم ؟ وهل يستغرب وقوف التجارة والعمل فى المدينة ، واضطراب حبل الأمن فيها وفى ضواحيها ؟ فى تلك الأيام كان الريسونى قائماً على الأجانب ، وخصوصاً القناصل منهم « زبانية طنجة » ! . . .

فعُقد مؤتمر الجزيرة للنظر فى شؤون المغرب ، ورأى المؤتمرون أن يشملوا طنجة باليسير من نظرهم المالى فقرروا أن تكون لها شرطة مغربية بإدارة أوربية ، وأن يستولى الفرنسيون والإسبان والإنكليز على جماركها . حىّ على الفلاح ! . . .

وهل أعادت تلك الشرطة الأمن إلى المدينة ؟ وهل نجح استيلاء الدول على جماركها فيما اعتلّ واختلّ من شؤونها السياسية والتجارية والاجتماعية ؟

كان أهل المدينة الوطنيون أكثر الناس شكاوة وأشدهم احتجاجاً . فضلا عن أنهم كانوا يشعرون أن المدينة ذاهبة من يد السلطان ، ويأملون مع ذلك أن تعود

– إذا استمروا فى الشكوى والاحتجاج – إلى حالها الطبيعى ، ووضعها الشريف السابق . هيهات !

فقد كانت فرنسا فى تلك الأيام مهتمة كل الاهتمام للمغرب لا لطنجة ، وهى تهيئ الأحوال للاحتلال والحماية . وكانت إسبانيا تريق دماء بنيها فى احتلال الناحية الشرقية من منطقتها . فشغلت الدولتان عن طنجة ، وما اطمأنت الواحدة إلى الأخرى فى المغرب . بل كانت المنافسات مستمرة والمشادات تتجدد عاماً بعد عام . فهلا تنتهى ؟ وهلاّ تُسمع أصوات طنجة الشاكية ؟ وإسبانيا ومطالبها ؟ . . . وفرنسا ومتاعبها ؟ . . . . تعالوا إذن نتفاهم – تعالوا نعقد مؤتمراً .

عقد المؤتمر الفرنسى الإسبانى الثالث أو الرابع أو الخامس (١٩١٢) – ما أكثر تلك المؤتمرات وما أقل خيرها ! – فتقرر فيه أن تكون طنجة دولية الحكم وأن يكون لها نظام خاص بها .

وكانت شكاوى الأوربيين من فوضى الأيام ، وفساد الأحكام ، وشكاوى الوطنيين من الفوضى والفساد والتدخل الأجنبى ، تزداد يوماً فيوماً .

لنشرع إذن فى العمل المصلح للأحوال . اجتمع ممثلو الدول الثلاث – إسبانيا وفرنسا وإنكلترا – فى آخر سنة ١٩١٣ ليضعوا للمدينة النكداء النظام الذى وُعدت به . فاستمرت المباحثات والمناقشات بضعة أشهر ، حتى صيف سنة ١٩١٤ – حتى الشهر السابق للحرب العالمية الأولى – حتى يوم الكارثة – فتأجّل ذلك المؤتمر .

وما اهتم أحد لطنجة فى أيام الحرب . فغدت وكراً للدسائس الدولية والمفاسد السياسية ، وخصوصاً ما كان منها لرعايا الدول الوسطى وجواسيسها . فاضطرت دول الأحلاف أن تطرد – بموافقة سلطان المغرب – قنصلى النمسا وألمانيا وأعوانهما من المدينة .

ما اهتمت أثناء الحرب لغير ذلك ، وما استؤنفت أعمال المؤتمر المؤجل إلا

بعد خمس سنوات من يوم الهدنة . فقد شغلت الدول عن طنجة بنتائج الحرب ، وخصوصاً منها مسألتى الترميم والتعويض . ثم ذكرت ، فى صيف ١٩٢٣ . أنها وعدت طنجة بنظام خاص بها ، وأن المدينة تنتظر ذلك النظام .

ولكن فرنسا — وقد تعاظم نفوذها فى المغرب بعد استقرار الحماية فيه — حاولت أن تستقل فى إدارة طنجة ، فاعترض الإسبان أشد الاعتراض ، واستمر الإنكليز يقاومون كل ما فى سياستها من نزعات الاستقلال أو الاستئثار .

فإن لم تكن طنجة إنكليزية ، يجب أن تكون دولية .

وإن لم تكن طنجة للفرنسيين ، فلا بأس أن تكون للجميع على السواء ، ولو إلى حين .

وإن لم تكن طنجة للإسبان اليوم ، فلا بد أن تكون لهم غداً . . .

اجتمع ممثلو الدول ، وهذه عقليتهم الطنجية ، اجتماعاً تمهيدياً فى لندن ، فى صيف سنة ١٩٢٣ ، ثم نقلوا إلى باريس فى أكتوبر ، حيث تمت المؤامرة على عروس المغرب . فوقعت فرنسا فى ٨ ديسمبر ١٩٢٣ المعاهدة التى قضت بأن تكون طنجة دولية ، ووقعتها إسبانيا فى ٧ فبراير من السنة التالية . حى على الفلاح !

ولكن سكان طنجة ، الوطنيين والأجانب على السواء ، وخصوصاً الفرنسيين والإسبان الأجانب ، استمروا يشكون ويحتجون . أما الفرنسيون فلأنهم كانوا يأملون أن تستقل فرنسا فى حكم المدينة . وأما الإسبان فلأنهم خدعوا كما يقولون فحرموا الوظائف التى وعدوا بها فى المعاهدات السابقة .

وأما الوطنيون فلا لشىء غير الاغتصاب . إنهم أبناء المدينة المغتصبة !

* * *

أتم المتآمرون تلك المعاهدة ، وبعد سنة أنجزوا النظام الخاص بمنطقة طنجة ، فأعلن وبوشر تنفيذه فى يوليو سنة ١٩٢٥ ، ولكن الاحتجاج لم يكن

هذه المرة من السكان فقط ، بل من بعض الدول أيضاً ، ولا سيما أمريكا وإيطاليا اللتان اشتركتا فى مؤتمر الجزيرة ولم تدعيا للاشتراك فى مؤتمر باريس . لذلك لم تقبل إحداهما اتفاق ذلك المؤتمر ، ولاخضعت رعاياهما فى طنجة للنظام الجديد .

استمر ممثلو الدول المتعاقدة — أى قناصلها فى طنجة — ثلاث سنوات يحاولون تنفيذ نظامهم ، فكادوا يخفقون لما لقوه من الصعوبات : نحن الطليان لا نخضع لنظام فرنسى أو إسبانى . نحن الإسبان لا نقبل نظاماً مجحفاً بحقوقنا . نحن الأميركان خارج الحظيرة لأن حكومتنا لم تشترك فى مؤتمركم .

ونحن أبناء طنجة ،نحن العرب المغاربة ، لا نعرف غير سلطاننا، سلطان المغرب ، حاكماً ومشترعاً .

قلق القناصل فى طنجة وأطرق السياسيون فى باريس . ثم أعملوا فكرتهم الثاقبة فى المشكل الجديد ، وهم يحللون بوادر العصيان ، ويخففون من شرها . لا خوف من الأميركان وأبناء طنجة ، فهؤلاء يخضعون للنظام عند ما يعلمون أنه وضع بموجب ظهير (١) سلطانى شريفى ؛ وأولئك مخلدون ، فى كل أحوالهم إلى السكينة .

أما الطليان والإسبان فيجب علينا أن نرضيهم لأنهم مشاغبون مقلقون . وكيف نرضيهم ؟ ما الرأى ، وما التدبير ؟ تعالوا نتشاور جميعاً . هيا بنا — وأنتم أيها الطليان فى مقدمة من نخاطب — هيا بنا إلى مؤتمر آخر !

اجتمع ممثلو الحكومات الثلاث فى وزارة الخارجية بباريس فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٨ ، ومعهم هذه المرة ممثلو « حكومة جلالة ملك إيطاليا » — اجتمعوا، فتشاوروا ، فتناقشوا ، فعدلوا نظام سنة ١٩٢٣ ، ووقعوا البروتوكول الجديد —

---

(١) ليس فى مادة ظهر ، لا فى محيط المحيط ولا فى الفيروزبادى المعنى المغربى للظهير ، أى الأمر السلطانى أو ما كان يعرف عند العثمانيين بالفرمان أو الإرادة السنية . ولكن لإخواننا المغاربة اختراعات غريبة فى استكمال مواد اللغة .

البروتوكول الأخير لنظام طنجة ، فى ١٦ يوليو سنة ١٩٢٨[١].

ولهذا البروتوكول ملحقات تشتمل على الظهراء (جمع ظهير !) الشريفية التى تأمر بالتعديلات ، أو قل تقبل بها ، كما هو الواقع . وهى تشتمل كذلك على الرسائل من سفير إيطاليا إلى سفيرى إسبانيا وإنكلترا ووزير خارجية فرنسا ، ومنهم إليه ، فى ما يتعلق بأمرين مهمين — لا لطنجة الدولية ، بل لدولة إيطاليا — الأول أمر المرفأ ، وهو مورد رزق جزيل ، فيقول سعادة السفير الإيطالى : نبغى المشاركة فى استثمار المرفأ وغيره من المشاريع الاقتصادية . فيجيب السفيران ووزير الخارجية الفرنسية بالصوت الواحد والعبارة الواحدة : سنكون سعيدين للاشتراك معكم فى استثمار المرفأ وغيره من المشاريع الاقتصادية .

والأمر الثانى يتعلق بالوظائف ، فيقول سفير إيطاليا : نبغى قسطنا العادل من الوظائف فى دوائر الحكومة كلها الإدارية والتشريعية والقضائية . فيجيب أصحاب السعادة زملاؤه بالصوت الواحد واللهجة الواحدة : سنكون سعيدين فى العمل بقاعدة المساواة ليكون لكم قسطكم العادل من الوظائف فى دوائر الحكومة كلها الإدارية والتشريعية والقضائية .

أما النظام نفسه والبروتوكول المعدِّل لبعض مواده ، فالنظر فيهما لغير القانونيين هو من باب الفضول . ولكن فيهما أبواباً ونوافذ لغير القانونى ، وعليهما كما يظهر لنا ظلال جليلة من المنطق . فلا حرج على من يتظللها باحثاً مستقصياً .

لا تزال منطقة طنجة ، بموجب هذا النظام ، جزءاً من السلطنة المغربية الشريفية ، ولا يزال للسلطان مندوب فيها . ولكن السلطنة المغربية الشريفية هى

---

(١) اسمه الطويل الشريف هو بالتحقيق البروتوكول النهائى (الذى أقره) المؤتمر (الذى عقد) لتعديل معاهدة ديسمبر سنة ١٩٢٣ المختصة بنظام منطقة طنجة .

Protocole Final de la conférence pour la Révision de la Convention du 18 Décembre, 1923, Relative à l'argan izatron du statut de la zone de Tanger.

اليوم مشمولة فى جزئها الأكبر بالحماية الفرنسية ، وفى جزئها الأصغر بالحماية الإسبانية ؛ فإن لم تكن طنجة تابعة لإحدى الدولتين ، يجب أن تكون فى حمايتهما المشتركة . وبالتالى لا يحق لغير إسبانيا وفرنسا أن تحكما طنجة .

ولكنها أمست بموجب هذا النظام مدينة دولية حيادية بسيادة سلطان المغرب ، الذى يحكم رعاياها الوطنيين المغاربة واليهود ، بواسطة مندوب له فيها .

وبما أن الرعايا الوطنيين هم نصف سكانها ، والرعايا الأجانب أقليات بالنسبة إلى الوطنيين ، فالمندوب إذن هو الحاكم الأول فى المدينة ، أو أنه يجب أن يكون كذلك قانوناً ومنطقاً وعدلا ، ويجب أن يكون نائبه الأول ، عملا بهذا القياس ، المندوب أو السفير الإسبانى ، ونائبه الثانى السفير الفرنسى .

وإذا قيس حق الحكم بمدة الاحتلال ، كما ينبغى ، فالحق الأول هو للمغاربة العرب ، والحق الثانى للبرتغاليين والثالث للإسبان . والرابع للإنكليز ، ولا حق البتة لفرنسا لأنها لم تحتل هذه المدينة يوماً واحداً فى الماضى . أما إذا كان يحق لهؤلاء الأجانب أن يشتركوا فى الحكم ، كل بالنسبة لما كان لدولته من السلطة فى المدينة ، ولما لا يزال لأمته فيها من أثر وتقليد ، فالقسط الأكبر هو للإسبان ، والقسط الأصغر للفرنسيين . هذا هو المنطق وهذا هو العدل !

ولكن الدول المتعاهدة لا تؤمن بالمنطق ، ولا ترى العدل بغير المساواة . لذلك قلدت الحكم لجنة من القناصل [1] هى اللجنة العليا ، التى يحق لها أن تثبت أو ترفض ، بأكثرية الأصوات ، ما يقرره المجلس التشريعى أو يسنه من القوانين .

والمجلس التشريعى يؤلف من سبعة وعشرين عضواً [2] ، ثمانية عشر منهم

---

(١) وهى مؤلفة من قناصل الدول (La Comité de Contrôle) التى اشتركت فى مؤتمر الجزيرة الأمريكية لرغبتها عن الاشتراك ، والدول الوسطى فى الحرب العظمى ، أى النمسا وألمانيا ، وعددها اليوم سبعة هم قناصل فرنسا وإسبانيا . وإنكلترا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال .

(٢) هم كما يلى. إسبانيا ٤ فرنسا ٤ إنكلترا ٣ إيطاليا ٣ أمريكا ١ بلجيكا ١ هولندا ١ =

أوربيون وتسعة و[illegible] ويرأس جلساته المندوب مع أربعة من الأعوان: إسبانى وفرنسى وإنكليزى و[illegible]انى .

فأين المساواة فى هذا المجلس ؟ إن للوطنيين ، المسلمين والإسرائيليين ، وهم نحو خمسة وخمسين ألفاً ، تسعة أعضاء فيه ، وللأوربيين ، وهم نحو ثلاثين ألفاً ، ثمانية عشر عضواً (١) .

دع المساواة تتوارى مع المنطق والعدل والقانون . إنما النظام فوق كل شىء . وبموجب هذا النظام — تكملة لأسباب الحكم المدنى الديمقراطى الحر — يعين المجلس التشريعى حاكماً لمنطقة طنجة ، من الفرنسيين غالباً أو الإسبان وثلاثة معاونين له : إنكليزياً وإسبانياً وفرنسياً . وهذا التعيين تثبته أو ترفضه اللجنة العليا — لجنة القناصل — بأكثرية الأصوات ، كما تثبت أو ترفض القوانين والمقررات .

ها هى ذى هيئات الحكم الثلاث : المجلس التشريعى ، والحاكم ومعاونوه الثلاثة ، واللجنة العليا . وإذا ما دققنا فى التمحيص والتحليل نجد السلطة كلها بيد هذه اللجنة ، أى بيد القناصل السبعة ، فهم ينتخبون المجلس ، كما بينا ، والمجلس يعين الحاكم ومعاونيه الحائزين على رضى اللجنة العليا .

هذا هو النظام الذى يخول قناصل الدول السبع الحكم المطلق فى مدينة لا يتجاوز عدد سكانها الثمانين ألف نفس (٢) وفى منطقة لا تتجاوز مساحتها

= البرتغال ١ ينتخبهم قناصلهم . أما الستة المسلمون فينتخبهم المندوب . وأما الثلاثة اليهود فتنتخبهم الجالية الإسرائيلية . أو بالحرى تقدم لائحة بتسعة أسماء إلى لجنة القناصل فتنتخب اللجنة منهم الثلاثة الأعضاء .

(١) وقد تتغير هذه النسبة فينقص عدد الوطنيين فى المجلس ، لأنها معقودة بأهمية كل جالية من الجاليات ، بأهميتها التجارية والاجتماعية والسياسية . فبازدياد أهمية الجاليات الأوربية — كما هو الحال — تقل أهمية الجاليتين الإسلامية والإسرائيلية ، والحكم فى هذا التطور للقناصل . فلا عجب إذا أصبح المجلس فى المستقبل أوربياً محضاً .

(٢) إحصاء السكان هو اليوم بالتقريب : مغاربة ٤٠ ألفاً ، إسرائيليون ١٤ ألفاً ، إسبان ١٤ ألفاً ، فرنسيون ٨ آلاف ، ومن الأمم الأخرى ٨ آلاف . فالمجموع نحو ٨٥ ألفاً .

المائتين من الكيلومترات المربعة [١] .

أما البروتوكول المعدل لهذا النظام فقد خُص مجمله بالمساواة والاسترضاء — بالوظائف والمشاريع الاقتصادية .

لقد مرَّ بك ما دار بين سفير إيطاليا وزملائه المتهدين بخصوص المرفأ والوظائف . نبغى الوظائف . نبغى المشاركة فى الاستثمار . أبشروا . ولكم فوق ذلك المساواة والإنكليز فى عضوية المجلس .

وقد استُرضى الإسبان بقيادة الجندرمة ، وبرياسة دائرة الأمن العام .

وقبل البلجيكيون بما مُنحوا . أى بالحق فى تعيين قاض منهم للمحكمة المختلطة ، بدل حقهم فى قيادة الجندرمة .

هذه أمثلة من البروتوكول الشريف ، الطويل الاسم ، القصير الغاية فى مصالح المنطقة ، وخير أهلها .

قال أحد الكتاب الإنجليز : « كان من الواجب على الدول المتعاهدة ، بعد أن أوجدوا المدينة الدولية ، أن يرعوا مصالحها الحيوية ، فيهيئوا الأسباب لغذائها ، وإنعاش تجارتها [٢] ، ويمنحوها شيئاً من الحكم الذاتى . ولكن المحرك الواحد للسياسة الأوربية فى طنجة هو حب الذات ، فلولا مطامع المتنافسين وحسدهم لما كان هذا النظام ، ولما كانت مصالح طنجة آخر ما يهتمون له » .

والكل مجمعون — ودائرة المعارف توافق — على أن سوء حال طنجة ، فى ربع القرن الماضى ناتج عن اضطراب شؤونها السياسية ، وما أثارته من منافسات الدول وحسدها مما أدى إلى هذا النظام الدولى العجيب . وهو عجيب بغير ما

---

(١) منطقة طنجة تدعى الفحص بفتح فتسكين (فحص : كل موضع يسكن) ومساحتها هى والمدينة نحو مائتى كيلو متر مربع . أما حدود الفحص فهى مثبتة فى الفقرة الثانية من المادة السابعة من المعاهدة الفرنسية الإسبانية التى عقدت فى سنة ١٩١٢ .

(٢) بلغت تجارة طنجة من الوارد والصادر سنة ١٩٢٥ مائة وثلاثة وتسعين مليوناً من الفرنكات . وفى سنة ١٩٣٧ لم تتجاوز الأربعين مليوناً ، أى أنها ما بلغت ربع قيمتها فى الماضى .

قدمت . فقد قلنيون طنجة لا تزال شرعاً من أملاك السلطنة المغربية الشريفية . لذلك لا يجوز أن تسطلها النظم والقوانين مهما تكن أهميتها أو سخافتها ، بدون أمر — ظهير — من السلطان .

ولكن الحقيقة في هذا الأمر عجيبة . فهي حق في شكلها ، باطل في معناها . هي مُرضية ظاهراً ، هي باطناً مضحكة مبكية .

خذ هذا النظام مثلا . فهو ينبغي أن يكون مستمداً من الظهير الشريف أو مبنياً عليه . أما الحقيقة فهي أنه هو نفسه مصدر ذلك الظهير ، يشتمل على كل المواد فيه ، كلها بحذافيرها . أما « إننا نأمر » فيجب أن تكون : إننا نقبل أو إننا نذعن . . .

كيف لا وقد كتب النظام في باريس ، وكتب أيضاً في باريس ، أو في دار المقيم بالرباط ، الظهير المردد لكلماته — ما عدا جملة « إننا نأمر » — ترداد الببغاء ، ثم أرسل أو أعيد إلى الرباط ليوقعه عن السلطان المقيم العام الفرنسي ووزير خارجية جلالته ، الجنرال ليوته .

هي اللولبات السياسية — هي المهزلات القانونية — هي . . .

عند الكلمة الأخيرة سمعت صوتاً معترضاً يقول : إنك مبالغ في التشاؤم . فإن للأمر ناحية مشرقة ، يجب أن لا تخفى عليك .

فقلت : وما هي . رعاك ورعاني رب الفلسفة ؟

فقال : أفلا ترى أن سلطان المغرب ، الجالس على العرش في فاس ، هو الوحيد بين السلاطين والملوك ورؤساء الدول ، شرقاً وغرباً ، الذي يختار عمّاله من سياسيي الدول الأوربية المحنكين ، كوزير خارجيته المقيم العام في الرباط ، والقناصل الدهاقين في طنجة ، وينتدب أحدهم بإرشاداته ليشرف على أعمالهم ، ويمدهم برأيه الصائب ، وفكره الثاقب ، فيسلكون الصراط المستقيم إلى كل ما فيه خير الدولة الشريفية العلوية وعزها ، وخير الرعية ، و . . .

فصحت به : كفى ، كفى ، حرام عليك هذا !

فقال مستمرًّا : وهل تريد أن أغضب غضبة مضرية ؟ وما الفائدة ؟ فلا السلطان يسعد بها ، ولا الدول تشقى .

فضلا عن ذلك إن تلك الدول لا تخلو من فضل . إنها على شيء من الكرم . البرهان ؟ هو فى المادة ٥٣ من البرتوكول . عد إليها ، وخفف عنك .

عدت إلى البرتوكول ، إلى المادة ٥٣ منه[1] فأدهشنى ما جاء فيها . إن تلك الدول كريمة حقًّا . فهى لم تأخذ منطقة طنجة بأجمعها ، بل تركت للسلطان منها منارة سبارتل !

---

(١) المادة ٥٣ تقول : إن الدول المتعاقدة تعترف للحكومة الشريفية بحق الاحتفاظ بملكية المنارة فى رأس سبارتل (Cap Spartel) .

حاشية الحواشى لهذا الفصل

فى الشهر التاسع من الحرب العظمى الثانية (١٨ حزيران – يونيو – ١٩٤٠) أعلن الجنرال فرنكو استيلاء الحكومة الإسبانية على طنجة ، فانتهى فيها النظام الدولى . على أن حكومتى بريطانيا وفرنسا اشترطت على الحكومة الإسبانية ، فى موافقتها على الانفراد بالحكم ، أن تحافظ على حياد طنجة ، فلا تحصنها ولا تقوم فيها بأى عمل من الأعمال العسكرية .

الفصل الرابع

مثلث الأخطار

مضيق جبل طارق[1] هو الصلة بين البحرين المتوسط والأطلنتيق ، تلك الصلة التى تبدأ من رأس سبارتل غرباً ، فى الجانب الأفريقى ، لأن طنجة تعد من مدن المضيق ، وتنتهى شرقاً عند رأس الميناء (Almina) أو فى الجبل الذى تتظلل به مدينة سبتة . وهى — أى الصلة — تمتد فى الجانب الأوربى الإسبانى من شاطئ طريفة (Tarifa) غرباً إلى جون كاتالان (Catalan) أى الشاطئ الشرقى من صخرة طارق .

نصف هذه الصلة عنق البحر المتوسط ، ونصفها عنق الأطلنتيق . والجانب الأفريقى نحو ستين كيلومتراً ، والجانب الإسبانى نحو ثلاثين ، لأن المضيق ينفرج فى دنوه من الأطلنتيق ، ويضيق قبالة طريفة ، ثم ينفرج أيضاً بعض الانفراج بين جبل طارق ورأس الميناء الأفريقى . وله جبيان ، الصغير فى الجنوب الغربى ، وهو مرفأ طنجة ، والكبير فى الشمال الشرقى ، وهو الجون الكائن بين جبل طارق والجزيرة .

أما المسافة بين الشاطئين فهى تتراوح بين الأربعين كيلومتراً فى ناحية الأطلنتيق ، والعشرين فى ناحية المتوسط ، ولا تبلغ فى الوسط أكثر من خمسة عشر كيلومتراً . وأما المسافة بين المرافئ فأبعدها التى بين جبل طارق وطنجة (٦٠ كيلومتراً) وأقربها التى بين سبتة وجبل طارق (٢٠ كيلومتراً) .

---

(١) كان العرب يسمونه بحر الزقاق .

قد يستغرب هذا التدقيق فى وصف مضيق هو جغرافيًّا كغيره من مضايق العالم . ولكنه ليس كغيره سياسيًّا وحربيًّا. إن فى هذا المضيق ثلاث مدن مهمة ، أهميتها فى مراكزها لا فى عدد سكانها ، هى جبل طارق وطنجة وسبتة . هى مثلث الأخطار الدولية . بل هى ثلاثة مخازن من البارود ، إذا اشتعل الواحد منها اتصلت ناره بالمخزنين الآخرين . وليس بين الثلاثة من المسافات الواقية ، كما بينت ، ما يمكن الانتفاع بها فى سياسة التوفيق « التطبيق » الدولية . ثم هناك بين المدن الثلاث صلة جنسية وتاريخية ، وجغرافية وثقافية ، تتغلب على مناورات السياسيين ومحاولاتهم إذا ما دنت ساعة الخطر .

فإذا تمكنوا اليوم من تأمين وضع طنجة الحيادى الدولى ، بعد أن انتزعوها من ملك سلطان المغرب ، وجردوها من الحصون والاستحكامات ، فإنهم فى نظامهم لها يسجلون على أنفسهم العجز فى حل المشاكل السياسية حلا حكيما ثابتاً عادلا ، ويسجلون على أنفسهم الجهل أو التجاهل لأحداث الزمان . مثل هذا النظام لا يدوم طويلا لأنه غير عادل وغير حكيم ، وغير عملى ، وغير مفيد لغير الموظفين والمديرين والمستثمرين لهذه المدينة وحكومتها .

وهو لا يدوم طويلا ولا يستقيم لأن الدول أنفسها القائمة بتنفيذه غير راضية به . فنفوذ الدول الصغيرة منها يضيع كما يضيع صوتها فى منافسات ومؤامرات الدول الكبيرة . والدول الكبيرة غير مطمئنة إليه لأن كل واحدة منها تبتغى الاستئثار بالحكم والاستقلال فى الاستيلاء . فالنظام الذى ليس له نصير مخلص واحد ، لا فى السائدين بواسطته ، ولا فى المسودين فى ظله ، ليس من الأنظمة الطويلة العمر (١) .

وإذا ما استقلت بحكم طنجة غداً إحدى الدول الكبيرة المشاركة اليوم فيه ،

---

(١) ولقد تمت النبوءة بعد سنة من كتابتها ، أى يوم استقلت الحكومة الإسبانية بالحكم فى طنجة فمات ذلك النظام المعتوه . راجع « حاشية الحواشى » فى نهاية الفصل السابق ، (ص ٩٨) .

أى إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا ، فهى ولا شك تحصن المدينة ، أو تتخذ من وضعها الجغرافى والطبيعى أسباباً للحصون والاستحكامات ، فقد أرادت إنكلترا حياة طنجة وحكماً دولياً لها لأنها لم تستطع أن تستولى عليها ، لتحصنها كما حصنت جبل طارق ، أو لتمنع تحصينها صوناً لمراكزها هنالك . وإنه ليصعب على العالم بشىء من ماضى الدول وحاضرها أن يعتقد بأن إنكلترا هى الدولة التى ستستولى غداً على طنجة ، لتجعلها جبل طارق آخر . أو حائلا فى الأقل دون التحصينات التى تضعف من حصونه . وإذا استولت عليها دولة أخرى قامت إنكلترا تؤلف حلفاً من الدول عليها ، فيضطرب جو السياسة الدولية ، وقد يعصف بعواصف حرب كبرى .

هو ذا مثلث الممكنات فى مثلث الأخطار . نظام طنجة الدولى لايدوم طويلا ، استيلاء إحدى الدول الكبرى على طنجة لا بد منه . والتحصين ملازم للاستيلاء ومثير للحروب .

أما جبل طارق فما هو من الممتلكات الخالدة لإحدى الدول . وإن فى تاريخه الماضى ما فيه من الأحداث التى تنفى خلوده البريطانى . إذن لا بد أن تستعيده صاحبة الحق الأول وهى إسبانيا . فإذا زادت فى تحصينه أو اكتفت بما فيه من الحصون والاستحكامات ، تغير إنكلترا سياستها الدولية الطنجية وتساعد فى إعادة المدينة إلى حكم فردى فيها — إلى حكمها البريطانى إذا كان ذلك ممكناً لتقيم فيها التحصينات وتجعلها كجبل طارق . أو أنها ، إذا عصت التقادير والأحوال السياسية إرادتها ، تساعد الدولة المغربية لتستعيد المدينة بشرط أن يكون لها ، أى لإنكلترا . ولو جبل واحد هناك تتحصن فيه ، فتزيد بأخطار المضيق .

أما سبتة فهى أصلح من جبل طارق لميناء حربى ، وأصلح من طنجة للحصون والاستحكامات . فإذا عجزت إسبانيا عن استعادة جبل طارق ، فهى

محصنة سبتة لا محالة . وليس بين سبتة والصخرة ، كما أسلفت القول ، أكثر من عشرين كيلومتراً . فهل تقبل الحكومة البريطانية بذلك التحصين ، وإن احتجت ، كما هو الأرجح ، وعارضت ، أفلا تسعى لأن تكون كلمتها نافذة — نافذة بأى وسيلة كانت ، نافذة ولو بالقوة ، ولو بحرب تهيئ لها الأسباب ؟

وهو ذا مثلث الممكنات الأخرى فى مثلث الأخطار . إسبانيا تطمح إلى استرجاع جبل طارق . فإذا حالت القوة أو السياسة دون فوزها فهى تحصن سبتة . وفى تحصين سبتة تهديد للإنكليز فى الصخرة المقابلة لها ، ونقصان فى قيمة حصونها . والنتيجة ؟ اضطراب جو السياسة الدولية اضطراباً مؤدياً إلى الحرب .

على أن بين أبواب الخطر باباً واحداً مفتوحاً كذلك هو باب الفرج . من الحقائق المبتذلة فى السياسة — وفى مقامات الحريرى — أن الدهر فى الناس قلب ، فالبس لكل حال لبوسها . وللحكومة البريطانية فى هذا الفن حذق العباقرة . فلا يستغرب قطعاً تغيير لبوسها — تغيير سياستها — عند تغير الأحوال ، وبمقتضى عوامل الحرب والدفاع — أكتفى من الأمثلة وهى كثيرة ، بمثل واحد قريب جداً من موضوعنا الآن ، هو مثل الدردنيل . فماذا كانت سياسة الدول قبل الحرب العظمى فى ما يتعلق بذلك المضيق ؟

كانت روسيا تطالب دائماً بفتح الدردنيل والبسفور وبحرية المرور فيهما ، لتتمكن من الوصول بأسطولها إلى البحر المتوسط . وكانت إنكلترا ، محافظة على قناة السويس ، وعلى مصالحها فى البحر المتوسط ، تقاوم روسيا فى سياستها . ليُفتح الدردنيل ! — ليبق الدردنيل مقفلا . هذى هى سياسة روسيا وإنكلترا قبل الحرب العظمى .

أما بعد الحرب فقد انقلبت الآية ، فصارت إنكلترا تقول : ليفتح الدردنيل ، وروسيا تصر على بقائه مقفلا . ولماذا هذا الانقلاب ؟ لأن روسيا بعد الحرب أمست عاجزة عن تهديد إنكلترا فى البحر المتوسط ، وصارت إنكلترا ترغب فى فتح

المضيق لتصل بأسطولها ، إذا اقتضى الأمر ، إلى البحر الأسود . فالذى كانت تخشاه إنكلترا من روسيا صارت تخشاه روسيا من إنكلترا . تغيرت الأحوال ، فتغيرت السياسة والدهر فى الناس قلّب ! . . .

وقد كان لإنكلترا ما تريد فى تغيير لبوسها ، بالرغم من مقاومة روسيا . فالاتفاق الدولى بخصوص المضايق الذى عقد سنة ١٩٢٣ فى مؤتمر لوزان ، يمنح تركيا الجديدة استرضاءً لها حق إقامة حامية فى إستنبول ، وإنشاء أسطول حربى على أن تفتح المضايق من البحر الأسود إلى بحر إيجة فالمتوسط ، وتبقى المناطق إلى جانبها مجردة من الحصون والاستحكامات .

هذا ما أريد أن أنبه الآن إليه . ليس من المستحيل الاتفاق الدولى فى تجريد جوانب المضايق من الاستحكامات والحصون ، فإذا كانت طنجة والصخرة وسبتة مثلث الأخطار الدولية ، كما بينت ؛ إذا كانت ، حتى فى حالها الحاضرة ، مخازن بارود يتصل بعضها ببعض ، فماذا عسى أن تكون إذا أخفيت فى رؤوس جبالها المدافع ، وأقيمت فيها الحصون ؟

أفتستمر الدول فى هذه السياسة المؤدية إلى الحروب ؟ أيستحيل تجريد جوانب المضيق من أسبابها ، وقد جردت جوانب الدردنيل ؟

إنه لصوت بعيد هذا الذى يُرفع الآن فى مسألة دولية خطيرة ، بعيدة الأسباب ، موصدة الأبواب . توحدها المصالح الاستعمارية والوطنية ، توحدها الأطماع القديمة — توحدها أهواء السياسيين ومخاوف الوزراء . فلا يصل إليها غير القليل من النور . ولكن هذا القليل ثاقب ثابت فى إشعاعه ، وهو يزداد يوماً فيوماً . هو نور الحق الخالد . هو نور الإنسانية الجديدة ، المسلحة بالحق الخالد .

وهذا الصوت الذى يرفع فى سبيل الحق الخالد والإنسانية الجديدة هو ، على بعده ووحشته ، من الأصوات الكثيرة اليوم فى العالم . تلك الأصوات المرددة للكلمة الذهبية الواحدة ، وإن تنوعت ألفاظها : السلام على الأرض

والرجاء الصالح لبنى البشر . الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره .

هو صوت بعيد قريب ، بعيد فى لسانه ، قريب فى روحه ومعناه . لا يؤخذ صاحبه بالأوهام . ولكنه على يقين أن أولى الأمر فى كراسى الدول العالية سيسمعونه ، وإن خفى فلا يضيع فى مجموع أصوات إخوانه أنصار الإنسانية الجديدة فى العالم ، وحاملى أعلامها .

وهذا الصوت الآن يقول : إذا عاد جبل طارق إلى الإسبان فيجب أن تنزع الحصون والاستحكامات كلها . وإذا عادت طنجة إلى حالتها الطبيعية فى الحكم يجب أن تبقى كما هى الآن مجردة من الحصون والسلاح . وكذلك قل فى سبتة والجزيرة وجبالها . لا سلام بحصون . ولا حصون بدون حروب تثيرها .

رعياً ليوم تصبح فيه مضايق العالم كلها مجردة من الحصون والسلاح ، عامرة بأسباب السلام والعلم والاطمئنان .

رعياً وسقياً ليوم يصبح فيه هذا المضيق ، مضيق جبل طارق ، باباً واسعاً حرًّا ، ومفتوحاً على الدوام لكل ما فيه خير الأمم المتواصلة المتآخية .

هذا المضيق الذى يصل البحر الأبيض ، العظيم بتاريخه وآثر شعوبه ، بالبحر الأطلنتيق ، العظيم بما وراءه من عزم جديد ، وفكر جديد ، ومن الأعمال الجبارة فى نظامها الصناعى ، وأهدافها الإنسانية .

هذا المضيق بين البحرين العظيمين بما كان من تاريخ الواحد ، وبما سيكون من تاريخ الآخر ، بل بين العالمين القديم الماشى إلى الفناء ، والجديد الوثاب الناظر إلى العلياء ، هو طريق التجارة اليوم . هو طريق التفاهم غداً . نعم . وفوق ذلك هو طريق الثقافة الجديدة ، ثقافة الجماعات ، لا ثقافة الأفراد .

والجماعات فى العالم القديم صائرة إلى العبودية والفناء ، إن لم تتواصل والعالم الجديد تواصلاً حرًّا مستمرًّا ، فتستمد من آفاقه الواسعة نوراً وأملا ، ومن مآثره الصناعية والاكتشافية غذاء للعقول والقلوب .

الفصل الخامس

من الجزيرة إلى ...

لا نزال فى الباب من رحلتنا المغربية ، فى ذلك الباب ، مضيق جبل طارق ، العظيم بمدنه العربية والإسبانية واللاجنسية — الجبلطارقية والدولية . فقد عرفناك باثنتين منها ، وها نحن أولاء فى الطريق إلى الثالثة وأخواتها . نسير من الصخرة غرباً ، فنجتاز فى السيارة ، بعد بضع دقائق ، الحدود الإنكليزية الإسبانية .

ها نحن أولاء عند لالينيا البلدة التى أسسها النازحون من جبل طارق بعد احتلال الإنكليز فى القرن الثامن عشر ، وهناك على خمسة كيلومترات من لالينيا تتربع فوق هضبة خضراء البلدة الأخرى سان روكيه ، حيث كان الضباط الألمان يعلّمون متطوعى الإسبان فى الحرب الأهلية . نسير حول الجون ، بين البساتين والكروم ، فنصل بعد خمسة كيلو مترات أخرى إلى الأرض المقابلة لجبل طارق ، وفيها المدينة التى تدعى الجزيرة .

أسماها العرب الجزيرة فأخطأوا ، شأنهم فى غيرها من أمثالها فى الشرق والغرب . فهم لا يدققون فى هذا الوضع الجغرافى . ولا يكلفون أنفسهم الإحاطة بالمكان الذى يصح أن يسمى جزيرة . فهل هو موضع تكتنفه المياه من الجهات الأربع ، أو من جهات ثلاث ، أو من جهتين ، أو من جهة واحدة فقط ؟ هو « موضع ينجزر عنه المد » وكفى . هو إذن جزيرة .

أما شبه الجزيرة فهو كذلك وضع حر مطلق الحرية . لا يتقيد بالجهات الثلاث التى يكتنفها الماء . أو « ينجزر عنها المد » . وهذا الفيروزابادى يزيدنا

من علمه تشويشاً : « الجزيرة أرض بالبصرة ». هل البصرة فيها أو هى فى البصرة ؟ و « جزيرة ابن عمر بلد شمالى الموصل يحيط به دجلة كالهلال ». هو شبه جزيرة إذن، لا بلد . وقد يكون فيه بلدان . «... وجزيرة الذهب موضعان بأرض مصر . . . » أنعم بهذا العلم الجغرافى وأكرم ! « وجزيرة شكر » يصفها « شيخنا » الهورينى فى الشرح فيقول إنها شقر بالقاف ، وإنما يقولها بالكاف من به لثغة . بورك به ، وبدقيق علمه !

وقد أسمى العرب بلاد الأندلس الجزيرة الخضراء ، وهى جزء من الـ « پننسولا » الإسبانية . فما هى الـ « پننسولا » بلغة قحطان ؟ يقول صاحب محيط المحيط ، الناقل عن الفيروزابادى والمكمل لأغلاطه ، يقول بعد أن يحدد الجزيرة تحديداً صحيحاً : « وإذا أحاط (الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيثجزيرة » . فمن أين جاء المعلم بطرس رحمه الله بهذه البحيثجزيرة ! ؟ هل نقلها عن ياقوت أو عن غيره من أساطين علم الجغرافية الأقدمين ؟ وهل كان للعرب الفاتحين علم بها ، فعملوا به ؟

إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها ، فهو يستحق أن يذكر فى صلوات الأب أنسطاس الكرملى المحترم ، بحيثجزيرة — إن استطعت أن تكتبها دون أن تعود إلى صورتها فى القاموس — دع عنك لفظها — فإنى أبارك لك فيها . الوداع ، يا بحيـ . . . . ولكنى أخشى ، إن ذكرتها ثلاثاً ، أن يعد ذلك من ذنوبى الكبيرة يوم القيامة !

أعود بك إذن إلى مدينة الجزيرة ، القائمة على ساحل الجون ؛ فينجزر عنها المد من الجهة الواحدة فقط . وإن وراءها وإلى جانبها جبلا يمتد طرفه الجنوبى فى انحدار معتدل إلى البحر ، إلى باب المضيق الغربى . ولها مرفأ برصيف تُشد إليه السفن الصغيرة فى مرساها . وفى ذلك المرفأ جزيرة صخرية صغيرة — جزيرة كاملة — قد تكون عذر العرب فى تسمية البلدة باسمها يوم دخلوها فى السنة

الثالثة عشرة والسبعمائة للميلاد .

بقيت الجزيرة فى حوزة أولئك العرب ستمائة وثلاثين سنة . فحاصرها فى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الفونس الحادى عشر ، ملك قشتالة حصاراً دام عشرين شهراً ، واشترك فيه كثير من الأوربيين الذين حاربوا فى الشرق ، فى الحملة الصليبية الأخيرة ، فجاءوا يثأرون من عرب المغرب ، بعد أن هزمهم عرب المشرق الهزمة الأخيرة .

قيل إن عرب الأندلس استعملوا البارود لأول مرة فى ذلك الحصار . ولكنه ذهب سدى . فقد انتصر الفونس عليهم ، وبعد أن دخل المدينة دمرها تدميراً .

ثم جاء الإسبان النازحون من جبل طارق فتوطنوا المكان ، وشرعوا يبنون مدينة جديدة ، على أنقاض الجزيرة العربية . فى بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

هذه المدينة الحديثة كانت فى حصار كجبل طارق الأخير (١٧٨٠ — ١٧٨٣) مركز الأسطول الإسبانى . وهى اليوم مركز أسطول صيادى السمك . فهم يقلعون أو يبحرون من هذا الميناء غازين الأسماك الإسبانية فى بحرها ، والأفريقية كذلك ، حتى الدولية عند شواطئ طنجة . ويعودون بالغنائم إلى معمل الأسماك القائم فى مياه الجزيرة بالقرب من المرفأ ، وهو معمل مبنى كالسفينة فينقل من مكان إلى مكان ، أو يهرب إذا ما طارده أسطول الصيادين الآخرين أصحاب الأسماك الشرعيين . فى ذلك المعمل تهيأ الغنائم البحرية وتعبأ للبيع فى البلدان الدانية والقاصية الأفريقية والإسبانية .

وفى الجزيرة فوق ذلك — وفوق ذلك المعمل — سماء صافية الأديم فى كل فصول السنة ، وشمس محبوبة حتى فى الصيف ، وهى كلها — الشمس والسماء ومعمل الأسماك — تشفع بالمدينة ، وبالثلاثين ألف نفس ، سكانها .

أما شهرة الجزيرة الكبرى ، شهرتها التاريخية الحديثة ، فهى ناشئة من

المؤتمر الدولى الذى عقد فيها سنة ١٩٠٦ ويسمى باسمها . ذلك المؤتمر الذى بدأت به المؤامرات على المغرب وشعبه وسلطانه . الجزيرة — مؤتمر الجزيرة — مؤامرة الجزيرة ! . . .

قطعنا الجسر فوق نهرها المسمى نهر العسل . هو ولا ريب من مسميات العرب لأنهم أول من أسموا بعض الأشياء بضدها . نهر العسل ! إنه يسوّد وجه ساحة المدينة ، وبُعيد ذلك يسود وجه البحر .

قطعنا ذلك الجسر ، وبعدنا عن تلك الساحة ونهرها ، فدخلنا بعد أن اجتزنا هامش المدينة الجنوبى ، أرضاً عامرة بالأشجار ، زاهرة زاهية فأفضت بنا الطريق إلى ساحة أخرى اصطفت إلى جوانبها السيارات .

ها هوذا فندق الجزيرة المشهور ، فندق كريستينا ، الذى يؤمه المقعدون والقوامون ، وخصوصاً الإنكليز منهم . يؤمه المقعدون بشتى الأمراض : الثروة ، الشهرة ، السيادة ، الشيخوخة — يؤمونه فى فصل الشتاء جميعاً ليستمتعوا بهواء الجزيرة الطيب وبشمسها المدفئة المنعشة ، والمجددة ، حسب الوهم الشائع ، للقوى الجسدية والعقلية . أما الآخرون الذين يؤمون هذا النزل من كل نواحى أوربا وفى كل فصل من فصول السنة ، فهم من أبناء ڤنيس وكيوبيد — من أبناء الحقيقة لا الخيال .

وفى هذا النزل ، فى الشهر الأول من سنة ١٩٢٢ ، فى الأسبوع الثانى من الشهر ، وفى اليوم الأخير من الأسبوع — أذكر ذلك جيداً — تناولت الغداء والكاتب الشهير المستر ولز (H. G. Wells) واثنتين من عالم الحقيقة لا الخيال . فودعت أنا وداعاً له شهرة فى أدب الإنكليز عالية — فى صفحة من صفحات عبقريهم الأكبر — فى رواية روميو وجولييت — إلا أن افتراقنا لم يكن له غد .

كنا قد شهدنا ، أنا والمستر ولز — تأبى على العربية الاصطلاح الغربى القريب من التواضع ، فلا تجيز المستر ولز وأنا — كنا قد شهدنا مع مراسلى

صحف العالم ، المؤتمر الدولى لتخفيض السلاح الذى عقد فى واشنطون ، عاصمة الولايات المتحدة فى الشهر السابق . شهدنا ذلك المؤتمر ، وسئمنا السياسة وأخبارها فجاء ولز إلى الجزيرة ليجتمع بصديقة له وافته إليها من لندن ، وكانت صديقتى رفيقة نصف الرحلة أى من نيويورك إلى الجزيرة .

فاجتمعنا فى هذا الفندق ، وكان عشاؤنا العشاء السِّرى — والأخير ! واليوم بعد سبع عشرة سنة أجلس إلى المائدة وحدى فلا تذهِّب الذكرى حواشى الحياة ، ولا تذهَّب بشىء من تكاليفها .

ولكنى وأنا أروّح القلب فى حديقة الفندق ساعة الغروب ، بين جمال ممدود منظم من الأزاهير المتضوعة الأريج فاجأنى القدر بأبهج المفاجآت . . جمعنى بصديق من لبنان . التقينا تحت شجرة من الصنوبر ، بين أغصان الورد وعرائش الياسمين . رأيته واقفاً هناك ، قبل أن يرانى ، وقد فتح ذراعيه فتضوّع المكان بشذى عجيب ضاعت فيه نفحات الحديقة كلها .

وإذ نسمت ريح المشرق ، فتمايلت الأغصان وحنّت الورود رؤوسها ، رآنى صديقى فاهتز مبتهجاً ، فهتفت وأنا أسارع إليه : إنك لكريم ، يا لبنان . وإنك لوفىّ . فقد جمعتنى فى الجزيرة ، فى حديقة الفندق الجميل ، بأعز أصدقائى اللبنانيين — بالوزّال .

ومن أزاهير الوزال العنبرية ، أبعث بنفحات طيبات كئيبات ، تحملها سبع عشرة من حسان الخيال إلى من ودعت فى ذلك اليوم ، منذ سبع عشرة سنة ، إلى من ودعت هاهنا ، فى هذا المكان ، فى هذا النعيم الدائم للمستمتعين والمستمتعات ، السخية بهم وبهن الأيام .

عساك أن تكون منهم أيها القارئ الكريم ، وعساك أن تكونى منهن أيتها القارئة اللطيفة . وعسى أن يكون حظك وحظّه ، من لطف الأيام وكرمها ، حظ المقربين . فيجمعكما ويحملكما إلى الجزيرة ، إلى هذه الجنّة الصغيرة ، لتتمتعا

بنعيمها ، وفى قلبه وزّال لبنان .

واذكرا ، أطال الله أيام نعيمكما ، أن فى جوار الجزيرة بلدة أخرى تستحق الزيارة ، بلدة وراء الجبل ، فى الناحية الغربية الجنوبية منه ، هى طريفة طريف [١] شريك طارق فى فتحه وخلود ذكره .

وهى على عشرين كيلو متراً من الجزيرة . طريقها يتثنّى فى الجبل ، فيصعد ويهوى بين أضلعه ، وبين غابات من الدلم [٢] وبساتين من اللوز والزيتون إلى أن تشرف ، فى الجانب الغربى ، على الأقيانوس فتدنو من المدينة العربية الوحيدة الباقية فى إسبانيا منذ عهد الاستيلاء . هى عربية ببيوتها المربعة ، وأسواقها الضيقة المتعرجة ، وبسورها الذى لا يزال كما كان فى قديم الزمان .

وفى ذلك الزمان ، فى سنة ١٢٩٢ ، جاء الملك سنكو الرابع (Sancho) «شانجه» يقول للعرب : قد أطلتم الإقامة . فحمل عليهم وانتزع المدينة منهم . إلا أنه لم يدمرها كما دمر ألفونس بعده الجزيرة .

وقد حاول الفرنسيون فى سنة ١٨١٢ ، فى حروب نابليون ، أن يستولوا على طريفة فأخفقوا ، وما ألحقوا بها كثيراً من الضرر ، فهى لا تزال حتى يومنا ، بسورها القديم ، وصورتها العربية ، تذكاراً حيّاً سليما للعرب فى إسبانيا .

* * *

ودّعت الوزّال لأستقبل صديقاً آخر لبنانيّاً ، من بساتين العلم والأدب فى لبنان ، هو ألفريد البستانى أستاذ اللغة العربية فى معهد الدروس المغربية بتطوان .

---

(١) أبو ذرعة طريف بن مالك النخعى عبر بحر الزقاق ، أى المضيق من طنجة ، فى السنة السابقة لغزوة طارق ، فنزل ورجاله البربر فى الشاطىء الإسبانى المقابل لطنجة ، وغزوا هذه البلدة التى سميت بعد ذلك باسمه . ومؤرخو العرب يكتبونها طريف .

(٢) الدلم (واحدتها دلمة يلفظها المغاربة أدلمة) شجر من فصيلة السنديان لحاؤه لين ، تصنع منه سدادات القنانى . أو هو شجر الفلين . أما اسمه دلم فهو من المسميات المغربية التى تستعصى على المتقصين فى أصول اللغة . فقد جاء فى مادة دلم : «وهو شجر السلم» . ولكن وجه الشبه لا يتعدى اللفظ . لا صلة بين السلم والسنديان ، على ما أعلم . وفوق علمى علوم !

جاء والسنيور خوسيه أراغون رئيس المستشارية المخزنية من قبل المقيم العام للاقائى فى الجزيرة ، ومرافقتى إلى عاصمة المغرب الشمالى .

وفى اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٩٣٩ ركبنا الباخرة الصغيرة التى تبحر يوميًا إلى سبتة (Ceuta) ومنها ، فبلغنا بعد ساعة ونصف ساعة الشاطئ الأفريقى ، فخفى عنا الساحل الإسبانى المقابل له ، وما خفى شبح الصخرة الجبارة هناك .

أول ما يستوقف النظر ولا يؤنس فى شاطئ أفريقيا تلك القنن والسنام الحادة لجباله الجرداء الموحشة . ولكنها تنخفض فى المكان الذى هو قبالة جبل طارق وتلين حروفها ، وتنعم وتخضر منحدراتها ، فيتكون منها أرجوحة لمدينة سبتة ، على رأس إحدى هضبتيها ، الطرف الغربى ، قلعة قديمة من قلاع سلطنة المغرب ، هى الحبس اليوم ، وفى أطراف الهضبة الشرقية بيوت موزعة وبساتين تتصل بالأرض القاحلة من الجبال العالية .

فى هذه الأرجوحة وعلى الهضبتين تتمدد سبتة . وقد كانت جزيرة فى الماضى . أى أن الهضبة الشرقية الشمالية وبها المدينة ، كانت منفصلة عن البر ، ولكنها قريبة منه ، فعَدَت الحد المائى فى نشأتها ، فوُصلت بجسر واطئ قلما يرى ، وأصبحت كلها شبه جزيرة يكتنفها البحر من الجهات الثلاث : الشمالية والشرقية والجنوبية .

أما المرفأ فهو فى الجهة الشمالية ، فى هلال من الأرض ، مُدَّ من طرفيه رصيفان طويلان هما حاجزان ، فصار المرفأ فى حلقة غير كاملة ولكنها حصينة — حلقة ذات باب للسفن . ومن وسطها البرِّى يمتد الرصيف الثالث ، وهو أقصر وأوسع من الرصيفين الآخرين ، وفيه بناية فى شكل بارجة حربية لدائرة الجمرك ودوائر الميناء الأخرى .

عندما دنونا من هذا الرصيف أشار السنيور أراغون إلى الناس المجتمعين هناك ، وقد جاؤوا يلاقون الباخرة ، وقال باللسان العربى الفصيح : هذه هى الجالية

اللبنانية فى تطوان جاءت ترحب بكم .

فقلت وبى دهشة وإعجاب : كل هؤلاء من لبنان ؟ فضحك الرفيقان ، وقال السنيور أراغون مميزاً موضحاً وهو يشير بيده إلى بضعة شبان انتحوا فى جانب من الرصيف : الجالية اللبنانية هى هناك .

فأبصرت فى وجوه أولئك الشبان وعيونهم وحركاتهم إشارات ترحيب لبنانى ، إشارات عنيفة لطيفة . ورأيت بينهم شاباً يلبس الطربوش ، وآخر البرنيطة ، وآخر القبعة الإسبانية ، وواحداً مكشوف الرأس . فقلت فى نفسى : هو لبنان فى أزيائه المتعددة — الكاثوليكية — أى الجامعة الشاملة . ولكن مهنتهم فى هذا المغرب واحدة هى التعليم . يحملون المشعل من مدارس لبنان إلى مدارس تطوان[1] .

سلمنا سلاماً لبنانياً جبلياً ، بضمات وقبلات وواهات ، يتخللها السؤالات والتأهيلات .

ثم ركبنا السيارات ، فطفنا فى المدينة ، وجلسنا فى أحد مقاهيها الإفرنجية نبرّد الأكباد — برّد ياعطشان ، قالها الصيداوى فينا — بكأس من عصير الرمان ، لا من السوس .

وبعد ذلك صعدنا إلى إحدى الهضبات نشرف على المدينة ، فلقينا هناك أول مغربى عربى بالبرنس والعمامة ، وهو يمشى والسبحة بيده ، مشية الأمراء أو المتعبدين ، بخطوات الرفق والسكينة . فحييته أنا بالسلام عليكم ، فردّ التحية بأحسن منها ، وحدثناه فما استنكف ولا أقصر . فعلمنا أنه شريف من الشرفاء العلويين . وأنه مستخدم فى الحكومة المخزنية ، أى الخليفية ، أى العربية المغربية ، وسنزيدك علماً بها — وأنه بالتدقيق فى الجندرمة أى الدرك .

---

(١) هم موسى عبود من جاج ، ونجيب ملهم من بهريه ، وحسن عسيران من صيدا وأنطون عيد البستانى من دير القمر . وكان معهم التاجر السورى فى جزائر كنارى جورج بهمهن من حمص .

هذا الشريف الدركى كان يسبح الله ساعة الغروب بسبحة وقعت من نفسى موقع الإعجاب والطمع . فمددت إليها يدى ، فقدمها لى ، فقلت : أحب أن احتفظ بها ذكراً منكم ، لأنكم أول من شاهدت فى أرض المغرب من أهل المغرب. وأظن أن هذا الشعور وقع فى نفسه وقع السبحة فى نفسى. فقال : هى لكم .

أعجب السنيور آراغون أيما إعجاب بهذا الكرم وهذا التساهل . فقد علم الرجل أنى ، مثل رفقائى ، نصرانى ، ووهبنى مع ذلك السبحة التى كان ساعتئذ يعدد بها أسماء الجلالة .

وودعنا الشريف الدركى والدركى الشريف ، والسنيور أراغون يقول مخاطباً نفسه : كيف هذا ؟ كيف هذا ؟ !

فقلت أخاطبه : إن للعرب فى كل مكان لغة يتفاهمون بها ويتآخون . فقال وأعادها مراراً : كرم عجيب . . . تساهل عجيب !

عدت وأنا أكتب هذا الفصل إلى مذكراتى فإذا فى الصفحة الأولى من الدفتر الأول ما يلى :

الشريف أحمد بن البشير يعقوب العلوى . سبتة . مخزنى . متوظف فى الجندرمة . صاحب السبحة .

وهذه السبحة هى الآن فى لبنان ، فى أعز مكان من هذا البيت فيه ، أمام صورة الوالد رحمه الله .

فيا أيها الشريف أحمد إن لبنان يسلم عليك . ويا أيها العربى الكريم ، إن العروبة تحييك . ويا أيها الأخ العلوى ، إن للأنفس التقية المتضعة التائقة إلى العلا ، مذهباً واحداً قوامه مكارم الأخلاق . « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (حديث شريف) .

• • •

إن سبتة ، مثل طنجة فينيقية الأصل ، استوطنها القرطاجيون ، فاستعمرها بعدهم الرومانيون مرتين ، غزاها خلالها القندواليون المخرّبون ، ثم دخلت فى أواخر القرن السابع للميلاد فى حوزة الغوطيين ، أو كان لملوكهم شبه سيادة فيها .

جاء فى تواريخ العرب ذكر إليان أو يليان ، حاكم سبتة [١] وجبال الغمارة ، وهو فى الأقل رومانى الاسم — جوليان . فمن ولّى جوليان الحكم ؟ وممن كان يتلقى الأوامر العالية ؟

يقول بعض المؤرخين إنه كان يحكم سبتة وما إليها من قبل ملوك الغوط . ويقول بعضهم الآخر إن سبتة فى أيام الفتح العربى ، كانت آخر معقل للرومانيين — للروم بلغة العرب — فى أفريقية .

فلمن أخلص جوليان ؟ لا أظنه أخلص لأحد حتى ولا لنفسه ، فقد كان على ما يبدو لى ، مثل حكام هذا الزمان المحميين أو الحاكمين فى البلدان المشمولة بالانتداب . همه الأكبر أن يظل متربعاً على ديوان الحكم . وما كان ذلك بالأمر اللين ، وخصوصاً عندما دنا العرب من بلاده . فازداد موقفه حرجاً . فما كان بين نارين فقط : الغوط والروم ، بل بين ثلاثة نيران : الغوط والروم والعرب ، فكيف يستقيم له الأمر ؟ وكيف يستقيم هو فى تصريف الأمور ؟

يوم وصل عقبة بن نافع إليه بالغ فى إكرامه ورده بهدية [٢] عن سبتة وعندما زحف موسى بن نصير غرباً ووصل إلى أبواب سبتة ، سارع جوليان إليه بالهدايا والرهائن [٣] فأقره موسى ، واستمر فى زحفه إلى المغرب الجنوبى .

---

(١) هى فى الخرائط الأوربية (Ceuta) وكانت تدعى (Septem) فى عهد الرومانيين .

(٢) « فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه » — (الفتوحات الإسلامية ، للسيد أحمد بن دينى دحلون) .

(٣) « وكانت (سبتة) يومئذ منزل يليان ملك غمارة . ولما زحف إليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا ، وأذعن للجزية فأقره عليها واسرهن ابنه وأبناء قومه » — (ابن خلدون) .

وعندما قامت الفتنة فى عهد آخر ملوك القوط الملك وتزا (Witiza) (٦٩٧ — ٧١٠) فنازعه رودريق (Roderic) الملك وجلس بعد وفاته على العرش ، أرسل أهل الملك المتوفى إلى جوليان يستنجدونه على رودريق ، وكان طارق بن زياد حاكماً يومئذ فى المغرب الأقصى من قبل موسى بن نصير ، ومزعجاً لجوليان فى ولايته ، فرأى هذا الرومانى الفرصة سانحة للتخلص منه ، فساعده فى إعداد الأسطول ليجتاز المضيق إلى إسبانيا ويحارب رودريق . . . ساعده ليبعده .

فراح طارق فاتحاً — عبر بحر الزقاق من سبتة لا من طنجة[1] — وكان منتصراً كما تقدم .

أما سبتة فلم يدخلها العرب فى عهد جوليان . ولكنهم بعد موته استولوا عليها صلحاً ، كما يقول ابن خلدون .

ثم تداولها ملوك المغرب فدخلت فى حكم الأدارسة (٨٢٥ م) ثم فى حكم الأمويين (٩٤٨ م) ثم استولى عليها يوسف بن تاشفين (١١١٤ م) ، فالموحدى عبد المؤمن (١١٨١ م) . وقد خلف الموحدين بنو مرين ، وانتزعها من بنى مرين البرتغاليون .

قد اختلفت رواية المؤرخين العرب والإسبان فى تاريخ هذا الاستيلاء الأخير ، فقال العرب إن سبتة خرجت من أيدى ملوك المغرب يوم الأربعاء فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٨١٨ هـ (١٤٦٦ م) وبقيت فى ملكهم حتى سنة ١٠٨٠ هـ (١٧٣٥ م) فانتزعها منهم الإسبانيون .

وجاء فى دائرة المعارف الإسبانية أن احتلال البرتغاليين لسبتة كان فى سنة ١٤١٥ ، وأنها ضمت إلى الممتلكات الإسبانية سنة ١٥٨٠ .

---

(١) كانت سبتة فى تلك الأيام ولا تزال « فرضة الحجاز » .

ولا خلاف فى أنها خرجت من أيدى ملوك المغرب فى القرن الخامس العشر ، بين ربعيه الأول والثالث ، وما استطاعوا استخلاصها لا من البرتغاليين ولا من الإسبان بعدهم . فهى لا تزال من ممتلكات إسبانيا ، مدينة إسبانية مثل الجزيرة وتابعة مثلها لمقاطعة قادس .

كانت سبتة فى عز الدول المغربية من أكبر المدن وأشهرها ، فى العمران وفى العلم والأدب . فنبغ فيها العلماء والمؤرخون ، من اشتهروا فى أيامهم ، ولم يبق من مآثارهم غير بعض التآليف الخطية ، منها « العيون الستة فى أخبار سبتة » للقاضى أبى الفضل عياض اليحصبى . و « مغازى العرب » للحافظ أبى الربيع سليمان بن سالم . و « اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنىّ الآثار » لمحمد بن القاسم السبتى .

وفى هذه المخطوطة الأخيرة إحصاءات للمدينة مدهشة ، وغير مستغربة . فلمؤرخى العرب فى الشرق والغرب شغف بالإحصاءات لايوازيه شىء من التدقيق.

قال المؤرخ محمد بن القاسم إنه كان فى سبتة يوم احتلها البرتغاليون ألف مسجد ، ومائتان وخمسون شارعاً واثنان وعشرون حماماً عموميًّا . سبحان الله الموزع الخير فى مدن عباده ! فلو فرضنا أن عدد سكان سبتة كان خمسين ألفاً ، لكان لكل خمسين نفساً مسجد ، ولكل ٢٢٧١ شخصاً حمام .

أما اليوم فقد تغيرت النسبة فى تغير السكان . فقد زاد الله فى سكان سبتة النصارى ، وأنقص من عدد المعابد — الكنائس — فيها ، فلا تبلغ الخمسين كنيسة . ويربى عدد السكان على السبعين ألفاً ، ليس فيهم من غير الإسبان أكثر من اثنين أو ثلاثة فى المئة .

سبحانه وتعالى المضيِّق على النصارى فى كنائسهم ، المعوض عليهم بالملاعب والمقاهى والحانات !

وسبحانه ثم سبحانه المعسِّر على المسلمين فى الملاعب والحانات ، الموسع

عليهم فى المساجد !

ولكن لم يبق لهم اليوم فى سبتة غير مسجد واحد ، بنته الحكومة الإسبانية حديثاً لأولئك الأقلاء الموحدين ، المقيمين فى ربض من أرباض المدينة ، وأكثرهم معسكرون فى المعسكر الإسبانى . . . لله الأمر من قبل ومن بعد !

الشريف أحمد أخونا فى العلويات من أولئك المسلمين . فبعد أن ودعناه خرجنا من سبتة فى طريق تتعرج بين الربى ، وقد غُرست جوانبها هاهنا بشجر الكينا ، وفُرشت هناك بالكروم ، فوصلنا بعد قليل إلى « كستياخو » أى القصر الصغير ، وفيه الجمرك الغربى الخليفى .

ولكننا لا نزال فى أرض إسبانيا الأفريقية ، التابعة لمدينة سبتة . فمن المدينة إلى القصر الصغير نحو خمسة كيلومترات . وبعد القصر الصغير بكيلومتر واحد يظهر إلى اليمين على رأس الرابية صرح مكتنف بالبساتين ، هو المدرسة الحربية الإسبانية الداخلة فى منطقة المدينة . فنعدّ بعد ذلك الأمتار إلى الحدود ، وندخل أرض المغرب العربى .

الفصل السادس

معضلة قديمة العهد

لا يزال التملك من الحقوق المشروعة اليوم فى العالم . لا ينفيه تعليم من التعاليم الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية . ولا تنفيه حتى الشيوعية . فالتملك الجزئى الفردى يستحيل فيها تملكاً كليًّا — حكوميًّا وطنيًّا .

ولا يزال هذا الحق المشروع الفردى أو الكلى يُثبت ويؤيَّد بالقوة . ولا ينفى ذلك وضع من أوضاع الحكم ، ديمقراطيًّا كان أم دكتاتوريًّا . ولا تنفيه فلسفة من الفلسفات العقلية ، النظرية والعملية ، لأنها تقوم كذلك بنوع من القوة ، أى بقوة البرهان والمنطق .

على أن المنطق والبرهان مقيدان فى هذا الزمان بشتى العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية — بالدعاية ، بالمال ، بالتقاليد ، بالتعليم الجامد الرسمى . وبكلمة أخص وأوضح هما مقيدان بالصحافة وأساليب النشر كلها ، وبالمصالح المالية والسياسية ، والعقائد الموروثة ، والسيادة التقليدية الجامدة ، سواء فى السياسة أم فى الدين أم فى الاجتماع .

وليس من فصل فيها بعد الجدل والنزاع ، غير القوة ، القوة المادية أو القوة السياسية التى للسلطة بالاقتراع ، بيد أن للاقتراع فى الحكومات الديمقراطية أساليب شاذة ، كما نعلم ، قوامها الدعاية والمال .

أما القوة الروحية فهى الهدامة لكل ما سواها من القوى ، إذا ما وضعت هذه القوة موضع العمل . تثبت حق الإنسان فى تقرير مصيره الدنيوى ، ولا

تثبت حق التملّك . لا أقول : الملك لله . وإن قلتها متصوفاً، أصلح بها ظناً ، أو أضمد أملا فلا أكملها . لست مردداً ما يردده أتقياء المسلمين ، لأن الكثيرين من الذين يأخذون الملك بالسيف ، وأولئك الذين يأخذونه بالمدافع والقنابل والغازات السامة ، يزعزعون عقيدتنا بحكمة الله وعدله .

ولكنى أقول : الأرض لله . وليس للإنسان غير ثمرة عمله ضمن نظام مبنى على الحق الإلهى فى التملك ، ومؤيد له .

فهل بلغ الإنسان فى ارتقائه العقلى والروحى هذه الدرجة العالية ؟ لا أظن أن أحداً من المفكرين و « الفردوسيين » يدعى ذلك . أما أن الإنسان سائر إلى تلك الحجة ، مصعِّد دائماً فى تطوره وإن وقف أحياناً أو عاد نازلا درجة أو درجات ، فما لا ريب فيه . وليس من روّاد الفكر المغامر ، أو من أعلام الرقى المستمر ، أو الدائم وإن تقطّع ، من ينكر ذلك .

أعود إذن إلى كلمتى الأولى : التملك من الحقوق المشروعة اليوم فى العالم ، ولا يزال الحق المشروع يثبت ويؤيَّد بالقوة .

على أن فى زماننا نزعة رجعية فى حق التملك ، لا يثبتها البرهان والمنطق وقد تثبتها القوة . وإن نفى البرهان والعقل عوامل تلك النزعة كلها ، العوامل القومية الدينية والسياسية والاقتصادية ، فإن القوة بيد النازعين تلك النزعة تتغلب على العقل والبرهان . تتغلب فى فلسطين مثلا أو فى أرلندا أو فى ألمانيا أو فى أفريقيا الشمالية .

وقلما يقع الاستشهاد بالتاريخ فى دحضها ومقاومتها . بل قد يؤيد فى مناقضاته الوجهين . فإذا أنا قلت مثلا : لا حق للإسبان فى أفريقيا . تقول أنت : ولا حق للعرب . إن أهل البلاد الأصليين ، بموجب ما هو معروف من التاريخ ، هم البربر ، والبربر أحياء يرزقون أو لا يرزقون .

نعم إن البرهان يؤيد حقهم ، ولكن القوة تتغلب على البرهان .

وإن قال لى العربى المسلم : ولكن البربر مسلمون، وإخوان ـ عملا بالقاعدة الإسلامية ـ للعرب المسلمين، قلت له: وقد كانوا قبل إسلامهم نصارى ويهوداً ووثنيين ! فيحق لهم ، والحال هذه ، أن ينزعوا النزعة الأرلندية أو الألمانية أو الصهيونية ، ويخرجوا ـ إن استطاعوا ـ الإسبان والعرب من البلاد .

أما أنهم عاجزون ، فالعجز لا يفسد البرهان . وأما أنهم لا يستطيعون أن يؤيدوا البرهان بالقوة فذلك من سوء ـ لا ، ذلك من حسن ـ حظهم . فما زال الجهل متفشياً بينهم ، والبداوة سائدة فى معظم أحوالهم ، وهى تولّدُ مع الجهل كل عوامل التفرقة والتخاذل والانحطاط ، وما لهم ، والحال هذه إلا أن يقبلوا بالواقع ويذعنوا لإمرته .

وأما العرب المتغلبون عليهم فشأنهم فى مجمله غير ذلك . العرب مثل الإسبان فاتحون ، وقل ـ ولا حرج ـ دخلاء ، ولكنهم ، على تفرقهم اليوم وتخاذلهم ، غير عاجزين . إنهم لمن الشعوب العريقة فى الحضارة المثبتة حقوقها القومية بما لها من المآثر المجيدة فى نشر أعلام التمدن ، وفى تعزيز أسبابه علماً وعملا .

ذلك يصح أيضاً فى الإسبان . فالأمر بين العرب والإسبان ليس كالأمر بينهم وبين البربر . يحق للعرب أن يقولوا للإسبان إننا وإياكم فى الحضارة ، فى ماضيها على الأقل ، أقران وشركاء، ولا يحق للبربر أن يقولوا هذا القول، لا للإسبان ولا للعرب . على أنهم فى تقاليدهم وعاداتهم ، فى مجمل أحوالهم ، أقرب إلى العرب منهم إلى الإسبان . وهم للعرب إخوان فى الدين . من المقدور إذن أن يكونوا والعرب أمة واحدة ، فيضاف حق البربر فى البلاد إلى حق العرب ، وترجح كفتهم فى ميزان الاستيلاء . أفيحق لهم ، وهذا حالهم ، أو مصيرهم ، أن يخرجوا الإسبان من البلاد ؟ أجيب : نعم . إذا شاءوا ذلك جميعاً ، واستطاعوا .

هذه الملاحظات نشأت عن شعور ملكنى عندما دخلت سبتة وعلمت شيئاً من ظاهرها . فقد كنت أتوقع أن أرى على شاطىء أفريقيا مدينة أفريقية

عربية ، فرأيت مدينة أوربية إسبانية فى كل أحوالها ومظاهرها . فنبا القلب وخاب الأمل .

ولكنى بعد أن عرفت شيئاً من تاريخها ، وعرفت أن الإسبان تملكوها كما تملك العرب أفريقيا ، وقفت متبصراً متأملا . فإن كان شعورى لم يتغير ، فقد تغير نظرى . أول من تغلب على صاحب البلاد المغربى العربى البرتغاليون . كما أسلفت القول ، فانتزعوا سبتة من ملكه . ثم تغلب الإسبان على البرتغاليين فضموها إلى ملكهم ، كما تغلب عرب الفتح على البربر والقُوط واحتلوا بلادهم فى قديم الزمان . إذن الحق فى الأحوال الثلاثة واحد ولا استثناء .

هذا فى الماضى . أما اليوم فقد دخل فى الأمر عامل جديد فغيَّر بعض صورته . فإن قلنا إن الإسبان هم فى سبتة ، مثل العرب فى باقى المغرب ، أصحاب حق مشروع ، ما دامت القوة هى التى تثبت الحق وتؤيده ، فإننا نقول كذلك إن احتلال الإسبان لقسم من المغرب هو للعرب يوجب عليهم التنزل ، تلقاء ذلك ، عن بعض حقوقهم فى سبتة .

ونقول أيضاً إن حقيقة الفتح فالاحتلال لا تغيِّر الحقائق الجغرافية والاقتصادية ولا تلبس الحقيقة السياسية ثوب الحق الدائم والعصمة . إن سبتة جزء من الأرض المحتلة ، وليس بينها وبين العاصمة تطوان غير بضعة وثلاثين كيلومتراً — ولا جبال ولا أنهر تفصل بين المدينتين ، كما تفصل الجبال اللبنانية والشرقية مثلا بين بيروت ودمشق . فهل تدوم سيادة الإسبان المطلقة فى مدينة الساحل إذا كان حقهم المشروع لا يصطبغ بشىء من العدل الاستعمارى ، أو بشىء فى الأقل من الكياسة والحكمة ؟ إن تقسيمهم لبلد أفريقى هو مضر بمصالحهم ومصالح المغاربة العرب . فلماذا ، وهم الحامون لجزء من المغرب لا تُضم المدينة ومنطقتها إلى الأرض المحمية ، فتشترك فى ما لها وما عليها من حقوق وواجبات ؟ لماذا بكلمة أخص لا ينقل الجمرك المغربى الخليفى من كستيلاخو إلى سبتة فتصير هذه المدينة

الميناء السياسى والاقتصادى للمغرب الشمالى ، كما هى ميناؤه الطبيعى ؟ !

أسأل هذه السؤالات وأنا أشعر أن هناك معضلة أخرى قديمة العهد تكمن فى الجواب مهما كان من حقيقته السياسية أو الشرعية . فالإسبان من الفرنجة ، ومن صميم النصرانية ، والنصارى الفرنج السائدون فى البلدان الإسلامية لا يزالون يشكّون فى استطاعة الحاكم الإسلامى أن يقيم العدل فى رعاياه جميعاً : الأهالى والأجانب ، المسلمين وغير المسلمين ، على السواء . وهم يتذرعون بالنصارى المسودين ، أو بالأقليات الأجنبية ، ليثبتوا ملكهم أو حمايتهم أو انتدابهم فى البلاد التى يحتلون ويستعمرون .

على أن فى إسبانيا اليوم عقلية سياسية جديدة ، يتوقع من أصحابها المسيطرين أن لا يعيدوا أخطاء الماضى ، ولا يستمروا فيها . فإن السياسة الاستعمارية القديمة أمست فى أيامنا عقيمة ذميمة . وهم مدركون ذلك ، ومباشرون فى المغرب سياسة جديدة كما سنرى . فهل يصح معها التجزئة فى البلاد التى يسيطرون على مقدراتها ؟ وهل يجوز ، وهم أقرب الأوربيين إلى العرب ، وأميلهم إلى التعاون النزيه المثمر خيراً للشعبين ، أن يتشبثوا بتقاليد سياسية قديمة لا خير فيها لأحدهما ؟

ستعرض هذه المسألة لنا فى مواقف أخرى من هذه الرحلة ، فنعود إلى بحثها متقصين ما تغير منها ، وما تطور ، وما كان جامداً لا يتغير ولا يتطور .

الفصل السابع

المدينة البيضاء

الشاطئ الأقصى للمغرب الأقصى يبرز برأس ضخم من البر ، عرضه من سبتة إلى سبارتل نحو خمسين كيلومتراً ، وطوله من كلا الجانبين الغربى والشرقى ، أى من طنجة إلى أصيلة ومن سبتة إلى واد مرتين ، نحو أربعين من الكيلومترات ، فتكون المدن الثلاث : طنجة وتطوان وأصيلة ، فى مربّع من الأرض هو شبه جزيرة ، ويكون لجوها ومجرى الرياح فيها مزية خاصة كما سنذكر فيما بعد .

وهذا الشاطئ الذى نزلنا عند طرفه الشمالى الشرقى فى سبتة ، بعد أن يصل جنوباً إلى واد مرتين ، يمتد شرقاً نحو مائتى كيلومتر إلى مدينة مليلة الكائنة فى الناحية الشرقية من رأس برٍّ آخر ، ضيق طويل ، تقطنه قبيلة بنى سيغار ، وهو فى صورته على الخارطة شبيه بالا « سيكار » .

هذا هو الشاطئ الشمالى لمنطقة الحماية الإسبانية ، وقد أكل البحر منه عشرة آلاف كيلومتر مربعة فبعدت أفريقيا من أوربا ، بعد أن حاولت أن تعانقها فى إسبانيا عند بحر الزقاق ، أى مضيق جبل طارق .

وقد بعدنا نحن من إسبانيا التى تعانق اليوم أفريقيا فى سبتة وتبثها لواعج الغرام ، فبلغنا بعد أن اجتزنا الحدود ، قرية رنكون (Rincon) أى الزاوية ، لأنها قائمة بل نائمة عند منعطف من الشاطئ . يظهر أنها نائمة ولكن أكثر أهلها ، وهم من الإسبان ، يخرجون فى النهار إلى البحر لصيد السمك . هى مهنة أهل رنكون ، وساحة السمك فى تطوان تشهد لهم بالمهارة والنشاط ، كما يشهد البحر

عليهم بالغزوات المهلكة لرعاياه .

بدا لنا ونحن نمر بالقرية ، بيت أبيض جميل ، بل قصر صغير هندسته أندلسية عربية ، فظننته قصر الرئيس لنقابة الصيادين ، وما هو غير محطة لسكة الحديد[1] !

ومن رنكون نستمر فى السير متجهين اتجاه الشاطىء . وإن بعدنا نحن قليلا عنه ، أو غاب هو عن الأنظار . فندنو ، بعد نحو عشرين كيلومتراً ، من واد مرتين ، بلدة الاصطياف والسياحة لأهل تطوان — هى منا إلى اليسار — ونمر بمروج منقطة بالبيوت الصغيرة البيضاء القريبة من العاصمة .

وهاك أهل العاصمة ، من رجال ونساء ، وصبيان وبنات ، هاكهم فى الطريق وفى تلك المروج زرافات زرافات . فهل خرجوا يا ترى لملاقاتنا ، كما كان يفعل أهل اليمن عندما تدنو قافلتنا من مساكنهم ؟

سألت السنيور آراغون هذا السؤال ، فظننى مازحاً أو متهكماً . وما ساءنى مع ذلك ما علمت ، بل كنت مسروراً به ومتيمناً .

فلقد اتفق أن وصلنا إلى تطوان فى اليوم الثانى من عيد المولد النبوى . . . وهذه الجموع من أتقياء المسلمين ، فى الأثواب البيضاء الناصعة البياض ، خرجت من المدينة للاحتفال بالعيد فى المروج والبساتين .

رأيت بين النساء من هن محجبات ، ومن هن سافرات . وقد حملت السافرات على رؤوسهن قبعات (برانيط) القش فضفاضة كالمظلات . فالمحجبات هن من المدينة ، وأخواتهن السافرات المبرنطات ، من القبائل .

هو الشعب المغربى ، وقد اختلط بدوه بحضره ، وكلهم فى بهجة العيد ، ولا أثر للبهجة فى الوجوه . يمشون ساكنين قانتين ، كأن على رؤوسهم طيور الجنة . أو كأنهم ، مثل الإنكليز ، يستقبلون المسرات بوجوه ألفت الكآبة !

---

(١) فى المنطقة ثلاثة خطوط حديدية صغيرة . هذا بين سبتة وتطوان (٤٥ كيلومتراً) وآخر بين العرائش والقصر الكبير (٢٥ كيلومتراً) وأقصرها بين الناضور وتستوتين .

أما أنهم فى تجمهرهم متمدنون أكثر ممن يظنون أنهم شعب المدنية المختار ، كالأمريكيين مثلا أو الأرلنديين المتدافعين المتصاخبين فى الاجتماعات ، فهذه السكينة السائدة فى سيرهم أو تلك التؤدة المرافقة لصفوفهم ، تشهد بذلك شهادة صادقة عادلة .

انقسمت الجموع فى الطريق شطرين ليفسحوا لسيارتنا ، فأدركتنا بركة الرسول من الجانبين . وكشفت عن مشهد عند منعطف الوادى فيه دهشات وبركات .

جئت المغرب وفى الذهن صورة لمدنه وقراه لا تختلف عما كنت أشاهده فى اليمن وفى نجد . هى صورة بسيطة ذات خطوط قليلة ، وأشعة تخفى ما فى الظلال من إشارات لكرامة وادعة ، وآيات بالفقر صادعة . فلما أطللت على تطوان المنبسطة فى عرض الجبل ، المشرفة على واد مرتين [1] ونهره عرتنى دهشة سرور وإعجاب .

هى مدينة ؛ مدينة كبيرة . مدينة عامرة . هى مدينة مغربية تلبس بيوتها البرانس البيض مثل أهلها — هى المدينة البيضاء .

وها هو ذا إلى اليسار صرح آخر أبيض جميل ، صرح منمنم أندلسى عربى ، هو المحطة الكبرى لخُطُيطات سكة الحديد .

وها هى ذى إلى اليمين الحديقة العامة ، وقد تدلت من جدرانها العرائش الزاهرة بما يزرى بألوان الشمس الغاربة .

دخلنا المدينة ساعة الغروب . فرحب بى فى الفندق مستشار سمو الخليفة مولاى الحسن بلغة عربية مفخَّمة . ليس حضرة المستشار من المغرب أو من المشرق . بل هو من إسبانيا ، من أقحاح الإسبان . وقد هداه الله فى شبابه إلى مدينة العلم اللبنانية ، إلى بيروت ، فشرب من مناهل العربية فى مدرسة الحكمة ،

---

(١) الواد (بتسكين الدال) هو اختصار الإسبان والمغاربة للوادى . وهو يطلق كذلك على النهر فيقولون : واد مرتين (مرتيل Martil بالإسبانية) أى نهر مرتين ووادية .

وهو لايزال يذكر الموارد الأخرى التى يرِدُها طلبة المدارس فى تلك المدينة . أكتفى الآن بهذه الكلمة تعريفاً بالسنيور إميليو الفارس (إميل فارس) طوباو . فقد رحب بى كما قلت باسم الخليفة الحسن كما رحب السيدان آراغون والبستانى باسم المقيم العام .

انتهت الرسميات أو كادت ، فكنت شاكراً مسروراً . وقد أكد لى سعادة المقيم ، أو كما يقول المغاربة مجادة المقيم ، السنيور دون خوان بايبدر[1] ، الذى تفضل فاستقبلنى فى صباح اليوم التالى ، أنه يرفع ستار الرسميات بينه وبينى . قالها باللغة الإنكليزية التى يحسنها (No protocol between us) .

ثم اشترط علىّ شرطاً واحداً ، وهو أن أكون صريحاً كل الصراحة فى ما أبديه له من رأى أو ملاحظة أو انتقاد بعد المشاهدات والدرس .

وقال : إنى صريح الكلمة فأحب الصراحة ولا أزدرى النصيحة . فلك أن تزور أى مكان ، وأية بلدة ، وأية قبيلة تشاء . فتشاهد ما نحن قائمون به من الأعمال الإنشائية ، العمرانية والثقافية والصحية ، وتنبهنا إلى ما قد يكون فيها من نقص أو خلل . وهذا الأستاذ البستانى يرافقك حيث تشاء . هو رفيقك ودليلك فى المدينة وخارج المدينة — فى المنطقة كلها — ومكتبى هذا مفتوح لك تجىء فى أى وقت تريد ، للحديث إن لم أكن مشغولا ، أو للاستراحة ومطالعة الجرائد .

أما الاستراحة فقد علمت بعدئذ أنه عندما يبغيها هو ويكون فى حاجة شديدة إليها ، يفرّ هارباً من مكتبه إلى بيت بناه لهذه الغاية فى العرائش ، خارج المدينة . فهل كانت دعوته هذه من باب المجاملة ؟ أو أنه أراد أن يشركنى فى الفرار من ذلك المكتب إلى العرائش ؟ ما تسنى لى أن أتأكد أحد الأمرين ، لأنى خلال الأسابيع الستة التى شُغلت فيها بالمغرب — وأحواله ما عرفت إلى الراحة سبيلا أو زنقة ، أو منفذاً سريًّا !

---

(١) يكتب بالإسبانية (Beigbederg) ويلفظ بايبدر لا بيكبدر .

فمن رحلة إلى رحلة ، ومن زيارة معهد إلى زيارة قبيلة ، ومن مقابلات فى الفندق إلى مقابلات فى المآدب وحفلات الشاى ، ومن ساعات الدرس والاستقصاء إلى ساعات الكتابة والتمحيص . . .

فكيف السبيل إليك ، يا ربة الفراغ والسكينة ، يا طبيبة الأجساد المكدودة بحوافر الليل والنهار ، يا حبيبة العقول المشدودة الأوتار ، يا مريحة الأعصاب ، ومزيلة الأوصاب ، أين أنت ؟

يا برج العاج المسحور ، يا باب الفرح والحبور ، يا مضمخة الأرواح بطيب الجنان ، يا ربة اللاشىء واللازمان ، كيف السبيل إليك ؟

نشدتك فى المغرب فقامت العقبات كالأطلس بينى وبينك . العقبات التى ذكرت قليلا منها ، وما ذكرت عادات القوم ، فى الأكل والنوم ، فى ما يحسبونه الوقت اليقين للصالحين . فالغداء فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، والعشاء فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الغروب ، والنوم بعد نصف الليل . . . هو المغرب . هى السياحة فى المغرب !

ونحن لا نزال فى أولها — فى عاصمة البلاد — كتب الله لنا ولك الخير والسلامة .

تطوان (وتطاون — وتطاوين) هى مدينة حديثة العهد ، لا صلة لها بجلال العتق والعدم — ليست بفينيقية أو بيزنطية كسبتة وطنجة . فقد تخططت فى أواخر القرن الخامس عشر عندما بدأ العرب ينزحون من الأندلس ، وأشرف على بنائها ، والأصح على بناء السور وبيوت المهاجرين الأول ، القائد على المنظرى من شفشاون [1]

---

(١) وجاء فى تاريخ ابن خلدون ، المجلد السابع صفحة ٢٣٧ ما يلى : لما استقر الأمر للسلطان أبى ثابت المرينى بعد أن قضى على أبى العلاء بطنجة ، أمر باختطاط بلدة تيطاون (٧٠٧ هـ = ١٣٠٨ م) لنزول معسكره فيها والأخذ بمخنق سبتة . . . وفى خلال ذلك اعتل السلطان فرض وقضى أياماً قلائل وهلك فى ثامن صفر من سنة ٧٠٧ — فالمنظرى إذن كل العمل الذى باشره عمال السلطان أبى ثابت المرينى .

هذه المدينة قائمة فى عرض الجبل الشمالى فوق الوادى الذى يجرى فيه نهر مرتيل أو مرتين . وبما أنها فى شبه جزيرة ، كما تقدم ، وفى مركز تكثر حوله مضايق الجبال ، فهى عرضة للرياح الغربية والشمالية والشرقية ، تعصف فى واديها من الأقيانوس ، ومن البحر المتوسط ، فى كل فصول السنة فيسوء جوها ، ويكثف هواؤها فيشتد بردها فى الشتاء ولا ينكشف فى الليل حرّ نهار الصيف .

ومع أن الحر شديد ، ويبدأ غالباً قبل شهر يوليو . فقد جئتها فى أوائل مايو ، وأقمت فيها حتى آخر الشهر التالى وما اضطررت إلى تغيير أثوابى الشتوية . ويوم غادرتها كان الجو معتدلا ، فما شعرت بالحر قبل وصولى إلى الجزيرة وقد بلغ أشده فى جبل طارق ، مما يدل على أن الحرارة الجوية لا تتقيد بدرجات الأرض من خط الاستواء شمالا أو جنوباً فقط ، بل هى تتصل بعوامل أخرى — بمجارى الرياح بالأنجاد من الأرض والأغوار ، بالمنفرجات منها والمضايق ، برقة الهواء وكثافته ، وخصوصاً بما فيه من رطوبة أو جفاف .

وعلى ذكر الجفاف أدوّن هاهنا الحقيقة الجغرافية الأخرى ، وهى أن تطوان ، بل هذه المنطقة من المغرب الأقصى ، هى ومصر وسوريا فى إقليم واحد ، فيسود فيها القيظ خمسة أشهر أو ستة فى السنة ، وتنقطع الأمطار فى شهر أبريل ولا يعود خيرها حتى أكتوبر . أما مناخ تطوان فهو جيد على الإجمال ، وبالرغم من اشتداد البرد فى فصل الشتاء قلما يسقط فيها الثلج إلا كل فترة من الزمن . قيل لى إنه فى فبراير سنة ١٩٤٣ سقط الثلج فى المدينة بغزارة ما شاهد التطاونة الطاعنون فى السن مثلها منذ أربعين سنة .

لا أظن أن الرياح تؤثر كثيراً أو قليلا فى المناخ . ولكنها حقاً مزعجة . وليس لها وقت أو قاعدة ، إن عصفت من الغرب أو من الشمال الشرقى — وحيناً تتفق الريحان ، فتعصفان معاً فى تطوان — فقل العياذ بالله . فلو خطّط المنظرى ورجاله المدينة فى الناحية الشمالية الشرقية ، أى فى السهل المواجه للبحر

المتوسط ، لحال الجبل بينها وبين الرياح الغربية أو خفف فى الأقل أثر عواصفها. ولكنهم اختاروا مركزها الحاضر لكونه على ما يظهر شبه حصن فى منعطف الجبل وما همهم مهب الرياح . أو أنهم لم يدركوا مصادرها ومجاريها حتى يتجنبوها .

تمتد تطوان فى وسط الجبل شرقاً بغرب ، وتُشطر شطرين : الجنوبى الأوربى ، والشمالى الشرقى الإسلامى . كان يحميها ويضمن الطاعة فيها ، حصن قديم فوقها على رأس الجبل ، تقوم إلى جنبه اليوم الثكنة الجديدة للجيش النظامى .

من ذلك الحصن أشرفنا على المدينة والجبال والسهول أمامها وحولها . هو مشهد مألوف فى محاسنه يتسع ولا يتعالى ، يتلون بألوان تسر ولا تبهر ، يدخل على القلب السكينة غير مقرونة بشىء من الروعة أو الهول . فهو أقرب إلى جبال فلسطين منه إلى لبنان . ولكنه فى الأسماء شبيه بالبلدين ، تتعدد اللغات فيه كما تتعدد عندنا . وهى فى الجبال مثلها فى القرى والقبائل ، عربية وبربرية ولاتينية وفينيقية .

هاك الجبال الجنوبية مثلا وفيها جبل جرجس (Gorgues) ووراءه عند الأفق جبل بوزيتون . علو الأول ثمانمئة متر ، وعلو الثانى مائتان وألف من الأمتار .

وفى سفح جبل جرجس الأخضر بضعة مشادر[1] ، منها بوسملان وبنو صالح وسافارين . يتخللها بيوت مبيَّضة منتثرة فى البساتين . هى القوافى البيضاء الغناء للقصيدة الزمردية ، وهى أجمل ما فى المشهد أمامنا .

وإن بين الجبلين وادٌ مرتين . فينساب النهر بين سهول مزروعة ، وبساتين من التين واللوز والزيتون ، تمتد حتى المستنقعات الغربية من البحر ، ومن مصب النهر عند البلدة المشاركة له فى الاسم التى كانت ميناء تطوان فى الماضى .

---

(١) المشدر ، بلغة الأولين هناك والمتأخرين : القرية .

قلت إن المشهد مجرد من الروعة . ولكن فى الجبال الجنوبية أضداد تدنو فى مجموعها من ذلك الجمال الهيّاب . فمن البساتين المحيطة بالبيوت ، إلى المروج المنبسطة بينها ، المنحدرة إلى الوادى ، إلى الصخور فوقها المزينة صدورها بالنباتات الطيبة الأريج ، إلى القنن المسننة المشمخرة فوق الأعالى الجرداء الموحشة — هاك سُلَّمًا موسيقيًّا جبليًّا .

تدعى هذه الناحية الجناح الأخضر . وإن لتطوان فى الطرف الجنوبى منتزهاً و « كرنيشاً » يشرف على ذلك الجناح ، ويزيد جماله للمتنزهين والمتنزهات فى ساعة الغروب .

أما الجبال فى الناحية الغربية فهى على شىء من البعد يذهب بمحاسنها الجزئية ، فيتجلى فى مجموعها ذلك الجمال الشعرى الغنائى ، البعيد القرار والصدى . وأما أسماؤها فلك فيها الرأى والترجيح . ذاك جبل بنى قرّش قد تردُّه إلى ما تظنه الأصل العربى — قريش — وقد تكون مخطئاً . وذلك ضهر القيطون ، نصفه عربى ، لا أناقشك فيه ، والنصف الآخر « القيطون » أتون لعلمك وعلمى . أما السهل الذى يتسع فى امتداده إليهما فهو فى نظرى — ولا خطأ ولا خداع — صورة مصغرة لسهل البقاع .

ليس فى أبنية تطوان ، ولا فى مآذن مساجدها ، شىء من الشموخ والعظمة . فالبيوت ، مثل المساجد تتسم بميسم البساطة والاتضاع . وهى لا تتجاوز الطابقين ، سطوحها بيضاء مثل جدرانها وتكاد تكون متواصلة .

أما البيوت فى الناحية الإسبانية فهى أوربية ذات أربع طبقات أو خمس ، فيها أمثلة حسنة الظاهر للفن الحديث فى الهندسة المعمارية ، خصوصاً ما بُنى فى السنوات العشر الأخيرة ، وهو من طراز ما يقام ببيروت فى هذا الزمان من الصروح الفخمة المخططة للكراء ، المجهزة بالردىء من المرافق ، والركيك من أسباب الراحة والرفاه .

وفى أسواق المدينة القديمة لا تشذ القاعدة الشرقية . تلك الأسواق تدعى بحق زنقات . لأنها سكك ضيقة متعرجة متقطعة ، تقف عند جدار ، وتنفذ تحت آخر ، درج هنا ، وجورة هناك ، تتسع فى أماكن لثلاثة يمشون فى صف واحد ، ثم تضيق وتضيق فتختفى كاللص فى زقاق مظلم . ولكنها فى النظافة تشذ عن القاعدة . لا أوساخ ولا فضلات أمام الأبواب ، ولا روائح فى تلك الزنقات . إنها حقاً لعلى جانب بهيج من النظافة .

أما الشوارع فهى فى الناحية الأوربية الإسبانية . وهى كلها مخططة بتصميم ، لها بداية ونهاية ، ولها اتجاهات معروفة ، وأرصفة مفروشة كلها بالأسمنت . لا أنصاف فيها كما فى بعض الأرصفة ببيروت . وهى تمتاز أيضاً عن الناحية الأهلية بما فيها من الساحات والحدائق العمومية . أكبرها وأشهرها ساحة الفدان ، التى كانت سوقاً للمواشى . وهى اليوم تدعى ساحة إسبانيا ، ولا ثيران ، ولا حرب ، ولا سفك دماء .

هاهنا فى هذه الساحة يريد المقيم العام أن يحقق حلماً من أحلامه العمرانية . إن فى الجهة الشرقية الشمالية منها اليوم بيت المقيم ، وإلى جنبه المقيمية ، تصلها بالبيت حديقة غناء . وهناك القصر الجديد لسمو الخليفة تتفيأ ظله دور الوزارات . ثم معهد الدروس المغربية فى الجهة الجنوبية ويجاوره فى منعطف الشارع المعهد الخليفى .

— كانت هذه البناية للدرك . فنقلناها ، وأقمنا فيها هذا المعهد (معهد الدروس المغربية) وهذه المكتبة العمومية . وستذهب المقاهى كلها ، وتلك البنايات ، فيشيد مكانها صروح للثقافة ، وللأحكام ، وللصحة العامة ، أريد أن تتمثل فى هذه الساحة سياستنا العمرانية الثقافية بجميع مظاهرها . فتشع منها أنوار العلم والعدل والارتقاء الاجتماعى والمدنى .

فقلت : والسياسى ؟

فقال : العدل ! . . . كل السياسات تستقيم بالعدل .

ووقف هنيهة عندها ثم أردف قائلا : والمحبة . بالعدل والمحبة يستقيم كل شيء . وبدون العدل والمحبة لا يستقيم شيء . وستشهد هذه الساحة غداً على ما أقول .

هى اليوم مفخرة أهل تطوان ، فلا عجب إذا غدت كذلك مفخرة الإسبان . إن أحدث ما فيها اليوم ، غير المعهدين والمكتبة العمومية مسمعة الراديو بمكبرها تحمل إلى المجتمعين فى الحديقة ما تذيعة محطة المدينة من الخطب والأغانى والأخبار .

هذه الحديقة المشعثة المدهامّة تذكرنى بمنشية بيروت فى عهدها القديم ، قبل أن شذبتها يد الفن الفرنسية ، وخططتها ، فكشفتها للنور ، وفرشت جوانبها بالزهور ، منها المنظوم والمنثور ، حول المياه الجارية ، إلى الحوض الزمردى فغدت حديقة صادقة الاسم والوجه ، كاملة .

وإن فى تطوان حديقة مثلها صادقة الاسم والوجه . بل ساحة بحديقة هى فى نظرى أجمل ساحات المدينة . اسمها ساحة مولاى المهدى (والد الخليفة الحسن) ووجهها يمثل الإتقان والأناقة فى الهندسة والتجميل . فى وسطها جنينة زاهرة ، مفروشة مماشيها بالأسمنت ، وبالمجالس المصنوعة منه على الطراز الرومانى القديم — لا ظهر لها ولا جوانب . وحول الجنينة عمد عالية من حديد ، فى رأسها مصابيح كهربية ضمن زجاجات كبيرة مستديرة . بيضاء غبراء ، فى كل عمود مصباحان . وفى وسطها العمود الأكبر يحمل حلقة من المصابيح فتبدو فى الليل بهجة للناظرين .

من هذه الساحة تتشعب الأسواق فى كل جانب كأنها فى الشكل المصغر ساحة الأوپرا بباريس . ستة أسواق تمتد منها غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالا وما بينها . أما البنايات حولها فهى كلها حديثة البناء والهندسة ، من الطراز الذى تقدم ذكره ، ذات طبقات متعددة للسكن . فالواقف فى

الساحة ليلا يرى أمامه كيفما اتجه بنظره صفوفاً من الأنوار تنير الشوارع المكمِّلة لجمالها وبهجتها .

كانت هذه الساحة ساحتى أيام إقامتى بتطوان . وإنى مطريها ، لا طمعاً بأن تدعى باسمى (من كرم المهدى) بل لأنها تمتاز بغير ما وصفت من جمال . فهى فى النهار جميلة بمشاهدها ، كما هى جميلة فى الليل بأنوارها . هى — ولا مبالغة — منقطعة النظير ، ليس فى تطوان فقط ، بل فى المغرب والمشرق . فإنك إذا ما وقفت تحت دائرة مصابيحها ، ونظرت شمالا تستقبل الرابية القائمة فوقها الثكنة العسكرية ، وما يحيط بها من اخضرار وازدهار . وإذا وليت وجهك شطر الجنوب الشرقى تشاهد هناك رابية أخرى فى آخر السوق ، كأنها جزء منه ، وما هى قريبة من آخر بناية فيه .

وهنالك فى الجهة الجنوبية ، المشهد الأجمل ، ذو الروعة والجلال . هنالك ؟ قل : هاهنا ولا تخطئ . هاهنا بالقرب من البناية الجديدة ، ذات الطبقات الخمس ، جبل كامل هو بوزيتون بقننه الشبيهة بالمنشار ، المذكرة اللبنانى بلبنان فى بعض روابيه . هاك بوزيتون لاصقاً بالشارع — كأنه نقل من مكانه لساحة مولاى المهدى ليزين الأفق . أقول إنه لاصق بالشارع طوعاً للخداع البصرى ، ولكننى مدقق مع ذلك . فهو على بضعة أمتار من البناية الزاحف إليها . فأين الحقيقة فى المسافة بينه فى مكانه وبين الشارع الممتد من الساحة ؟ سبحانه وتعالى الزارع بيده بذور الشعر فى الحقيقة ، وبذور الخيال فى الشعر ، وبذور الحقائق الصغيرة المختبئة فى الخيال . إن المسافة بين بوزيتون وآخر الشارع الممتد من ساحة مولاى المهدى لتزيد على الثلاثين كيلومتراً ، وهى كلها ساعة تنظر من الساحة إلى ذلك الأفق مختبئة فى الوادى — واد مرتين — الممتد بينه وبين الطرف المرتفع من المدينة حيث ينتهى الشارع .

ما فرغت من وصف هذه الساحة – ومن التطويف بذكر مولاى المهدى . فإن أجمل ما فيها غير ما وصفت . بل هو أجمل أنواع الجمال . ولكنه لا يدوم أكثر من ساعة أو ساعتين كل يوم ، مثل لؤلؤ الشمس الشارقة ، أو مثل ذهب الغاربة . وساعته فى النهار قبل الغروب هى الساعة الذهبية وقد اختلط فيها اللؤلؤ والمرجان . هى ساعة فى ساحة المهدى لمشهد فريد عجيب من مشاهد الإنسانية ، مشهد ينسيك كل ما فى المشاهد البشرية الأخرى من الأحزان والآلام ومن المنكرات والآثام . فى ساحة المهدى – وفى الله اسمها – تشاهد الطهارة فى مرحها وفرحها ، فى لهوها ولعبها ، فى بهجتها البريئة . هاهنا ساعة الغروب تشاهد الصغار يلعبون ويرقصون ، يركضون ويمرحون ، وتسمعهم يزقزقون كالطيور ويغنون ، الصغار من مغاربة وإسبان ، الصغار من ذوى الفاقة واليسار ، الصغار سادة الحياة ، تجيئهم طائعة وتطيعهم صاغرة . الصغار فى الساحة ال . . . . . وفى الله « مولاى المهدى » ، وقاه الله ، إن الصغار فى هذه الساحة لأصحاب الفردوس الأرضى ولا فردوس بعدهم فى هذه الدنيا .

قلت إن تطوان ممتازة بنظافة أسواقها وزنقاتها وحدائقها ، وأهل تطوان ، إن كانوا من ذوى الفقر أو اليسار ، هم أبناء مدينتهم . لا يرددون الكلمة : النظافة من الإيمان ، إلا ليعملوا بها . خذ المثال من صغارهم . فقلما رأيت بين أولئك الصغار ما ينفى العقيدة الشائعة . قلّ من رأيت من الولدان الوسخ الثوب أو الوجه ، ومن البنات المهملة أمهاتهن لهن فيجئن الساحة فى أثواب زرية ، أو شعور مشعّثة .

ومن ساحة مولاى . . . أقف لأسجل الأعجوبة ، أعجوبتها . فقبل أن أنطق بالاسم ساعة الوداع سمعت صوتاً ولا كالأصوات . صوت كصوت الأجراس فى ما وراء الجبال ، صوتاً من الساحة نفسها وقد تجسدت بكل

ما فيها ونطقت بمئة من الألسنة ، ألسنة الزهور والمصابيح ، ألسنة الجبال ، ألسنة الصغار أنفسهم ، وكلها باللسان الواحد ، والصوت الواحد تقول : ساحة الريحانى — ساحة من أحبنا حبًّا صافياً ، حبًّا شعريًّا خالداً .

ونزلت روح مولاى المهدى من نعيمها الأعلى تبارك الساحة وجبالها وصغارها — تباركهم جميعاً — وتحمد الله على ما أوحى به إليهم من حسن التسمية !

إذن ، من ساحة الريحانى[1] — أقول مستأنفاً الكلام — يمتد شارع الجنرال فرنكو ، الذى يستحيل ساعة الغروب ، أو بين ساعتى الغروب والعشاء ، متنزهاً للكبار من أهل المدينة ، وخصوصاً الفتيان ، من مغاربة وإسبان ، والفتيات من أهل الجنان !

فى تلك الساعة تمنع العربات والسيارات من المرور فى ذلك الشارع ، فيمسى بأجمعه من الرصيف إلى الرصيف ، متنزهاً يغص بالناس . بل يمسى معرضاً للفتيان والفتيات . فيمشى الكهول بينهم والكهلات ، مستعرضين متفرجين . صفًّا صفًّا يمشون خطوة خطوة . وكثيراً ما ترى الصبيات ، الثلاث أو الأربع أو الخمس منهن فى الصف الواحد ، يتعقبه صف مثله من الشبان .

هى عادة إسبانية قديمة ، لا تزال شائعة فى بلاد الإسبان ، وفى كل بلد يستوطنونه . فالحديقة العمومية فى المدينة والساحة أو الجادّة فى القرية ، هى كلها منظر واحد فى تلك الساعة ، ساعة النزهة والاستعراض . وإن الشارع القصير . مثل شارع الجنرال فرنكو بتطوان ، لأفضل من الطويل . بل

---

(١) لست أول أديب سائح أغل مثل هذا الإخلال فى البلاد التى زارها فجازف باسمه تذكاراً وإكراماً . ولست معدداً فى هذه الحاشية الأمثال فاكتفى بمثل واحد لبنانى فرنسى . عندما زار لامارتين لبنان وقصد إلى الأرز حاجاً فى فصل الشتاء حالت الثلوج بينه وبين حجته ، فأثبت بواسطة أحد أصدقائه ملكيته لإحدى الأرزات الكبيرة فسميت باسمه . وهى لا تزال تدعى : أرزة لامارتين . إنما الفرق بينى وبين الشاعر الفرنسى هو أنه ملك بالنيابة ، وأنا المستملك بوضع اليد والرجل ، فضلا عن القلب والقرطاس والقلم !

هو المختار المستحب ، لأن الغرض من الموكب هو العرض والاستعراض . فيسير العارضون والعارضات والمستعرضون والمستعرضات من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر ، ثم يعودون ، ويستمرون غادين فى ذلك الشارع رائحين ، والعيون منهم تتراشق بالزهور — بالنبال — بالزبيب ، حتى ساعة العشاء ، فيتفرق العشاق .

عندما كنت فى أشبيلية ، فى السنة الثانية من الحرب العظمى ، كنت أخرج ساعة النزهة إلى حديقة « مارى تيريز » لأشاهد هناك موكب المتنزهين والمتنزهات ، كانت المركبات الفخمة تقودها الخيول المطهمة ، لا تزال يومئذ فى مجدها ، فتغص جادة الحديقة بها ، وأكثرها مكشوفة تجلس فيها الجميلات من الإسبانيات والمتجملات الـ « دونيات » (Donna) والـ « دوانات » (Duenna) فى زينتهن وتبرجهن ، والمراوح بأيديهن يعبثن بها ، وإلى جنب بعض السائقين خدم ، بالأثواب الرسمية ، والبرانيط السوداء العالية المزدانة بالريش . هو الزهو المكلل بالرسميات ، هى الأبهة بكامل صفاتها .

ما تغير هذا المشهد الإسبانى فى انتقاله إلى المكسيك وأميركا الجنوبية ، إلا بالمركبات فى هذا الزمان . فقد كنت أشاهده فى مريدا عاصمة اليوكاتان ، وقد حل البنزين محل الخيول المطهمة ، فذهب بالكثير من أبهته وجماله . وما تغير فى تطوان إلا بخلو الشارع من الخيول والسيارات جمعاء . وكان الموكب ماشياً أجمل منه راكباً ، ولا غرو فالغرض الأسمى منه لا يتم بالعجلة ، وقد يزداد بالتمهل والتكرار سموًّا . فإن اكتظت الأرض بالأرجل ، فالجو يتسع للعيون والقلوب !

* * *

هذى هى تطوان فى نزهاتها . وأما تطوان فى العمل فإنك تشاهد زحماتها فى أسواقها القديمة ، وقلما تروقك ، على ما فيها من صناعات مغربية . فمن

الحوانيت التى تباع فيها التحف والمواعين ، والبرانس والأحذية والزرابى والوسائد والجلود المنقوشة والمذهبة ، تسير إلى مطلع أنوارها ودائرة علومها وفنونها : إلى مدرسة الصناعات .

استقبلنا فى البـــاب رئيس المدرسة السنيـــور موريانو برتوشى (Mariano Bertuchi) الفنان الإسبانى الغرناطى ، الممثل الحياة المغربية فى لوحاته الزيتية تمثيلا بليغاً صادقاً ، وعرفنا بالمدير السنيور يواكيم ڤنيرو (Joaquim Venero) فطوفنا بالمكان ، وكان فخوراً بما يجدد فيه من صناعات المغرب التى تكاد تضمحل .

فإن كانت صناعة البُسُط (السجاد) من تلك الصناعات فهى إما مضمحلة ، وإما مجدَّدة للأصل الخشن الزرى . وقفنا عند سجادة كبيرة ، والأصح أن تدعى بساطاً أوربياً ، طولها ثلاثة أمتار ، وقد جلست على الأرض أمام النول ثلاث بنات ، تعمل كل منهن فى قسم منها ، فتعقد العقدة تلو العقدة ، وتقطع أطرافها بالسكين ، وهى تلزم الرسم المرسوم لها . إنه لعمل بطىء وغير دقيق . ولا عجب فالناسجات طالبات ولا تنجز الواحدة منهن فى اليوم الواحد ، أى فى سبع ساعات ، أكثر من خمسة عشر سنتيمتراً.

ولكنها تتعلم وترتزق معاً . فتكسب فوق الصناعة « بسيطتين » أو ثلاث « بسيطات » (٢٠ أو ٣٠ قرشاً) كل يوم . وعندما تتزوج تقدم لها المدرسة المواد اللازمة للعمل فى بيتها .

هذه الصناعة حديثة فى تطوان ، وهى أهلية محض . فالصوف المفتول السدى ، المنفوش اللحمة ، من البلاد . وكذلك الأصباغ ، فكلها نباتية ، إلا النيلة فتجلب من إسبانيا أو إنكلترا .

انتقلنا من دار الأنوال إلى دار الفارات والأزاميل — من روائح الأصباغ إلى الرائحة العطرية المنتشرة من بين الخشب والمنشار . نحن فى دار النجارين

حيث يتعلم الطلبة هذه الصناعة التى امتاز بها المغاربة والعرب قديماً فنطقت آثارهم فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية بآيات من الفن حفراً ونقشاً خصوصاً ما كان منه فى الأبواب والجدران ورواقد السقوف .

وها هم أولاء أبناؤهم من الجيل العاشر ، وقد ذهبت من بين أيديهم ، صناعة الأجداد أو كادت . فجاءوا يستعيدونها فى هذه المدرسة ، فيتمرنون بخشب بلادهم ، بالجوز والبقس[1] والسنديان ، على جرّة الفارة ، وسياق الإزميل ، ويقلدون فى ما يصنعون ، من موائد وأطُر وأبواب ، الصناعة الأندلسية العربية ، شكلا وحفراً ونقشاً . ثم يتعلمون الفن الأعلى فى التزيين ، تزيين القباب والأقواس ، أى فن التقرنص .

أجرة المعلمين فى هذه المدرسة تتراوح بين الخمس عشرة بسيطة والعشرين (ليرة ونصف لبنانية وليرتين) والتلاميذ يُهدون مع أجرتهم اليومية (١ — ٣ بسيطات) الهدايا من صنع أيديهم . والمبرزون منهم يرسلون إلى إسبانيا ليتعلموا فنًّا من الفنون الجميلة .

أما صناعة البلاط الأندلسى العربى فلا تزال شائعة زاهرة . وفى مدرسة الصناعات فرع لها يتعلم الطلبة فيه الأوليات فى جبل التراب وسنّه وصبغه بالأصباغ . ثم تقطيعه مربعات ومثلثات ومخمسمات لصناعة الفسيفساء . أما الألوان والرسوم فأكثرها مأخوذ مما يُشاهد اليوم فى دور الحمراء .

سألت المدير عن ذلك اللون النادر فى البلاط العربى القديم ، أى السماوى الضارب إلى الاصفرار ، فقال إنهم اهتدوا إلى ما يشبهه فى ماء يستخرج من بعض الأعشاب .

وقال الشيخ الأستاذ ، الذى كان يؤلف قطعة من الفسيفساء ، قال ،

---

(١) البقس : « واحدته بقسة ، هو كالآس ورقاً وحباً » — القاموس — وهو شبيه فى لبه بالسنديان وفى قشره بالجوز . ولكنه أصلب من الاثنين .

بعد أن رفع النظارات عن عينيه : الصباغ العتيق النادر هو ابن الأيام .

فقلت مشيراً إلى الرسوم أمامه : وهذه ؟ فأجاب فوراً : منها القديم المقلَّد ، ومنها الجديد المولَّد . قالها بالعربية الفصحى ، بلهجة تندر فى غير المتعلمين من أهل المغرب . ولكن الأستاذ الجليل من المتعلمين ، وإن لعب بالطين .

وهناك فروع للحدادة والصياغة وآنية النحاس ، ذكرتنى بالشام والبلاد العربية الأخرى ، فما كان المغرب فى المقارنة من المجلّين . فصناعة النحاس هى أولية بالنسبة إلى ما تمتاز به دمشق ، وصناعة التخريم فى قبضات الخناجر وغيرها هى دون ما رأيت منها فى صنعاء وفى الأحساء .

أما أولى الصناعات المغربية التى اشتهر المغرب بها ، فهى صناعة الجلد وما يتصل بها من فن التجميل نقشاً وتذهيباً . إنها الصناعة التى لا يزال المغرب يحمل علمها ، ويحرز جوائز معارضها ، فلا يُبزُّ فيها ولا يُبارى . وإن محفظة للأوراق من الجلد المغربى اللين كالدمقس ، المذهب أو المفضض فى نقشه البارز ، لتحفة من التحف التى يفاخر بها حتى فى عواصم الفن والجمال بأوربة .

ومن الصناعات المغربية القديمة المتسمة بميسم الفن المغربى ، صناعة الخناجر والبنادق (البواريد) ، وخصوصاً تلك البارودة الطويلة الرفيعة العنق ، الواسعة القبضة . التى تدعى أم كحلة ، المشهورة بهذا الاسم فى المغرب ، وقد أمست للزينة بعد عزّها فى ساحات الوغى . وليس لها فى مدرسة الصناعات غير غرفة صغيرة وأستاذ واحد وطالبان اثنان ، أو معاونان له فى المحافظة على مجدها وكيانها .

تناول الأستاذ الشيخ بارودة من الزاوية وراءه وقال وهو يرنو إليها : هذه مكْحِلة . هذى أم كحلة . وفهمت الباقى من كلامه بواسطة الأستاذ البستانى الذى يحسن التحدث « بالهدرة » المغربية . فقد كانت تُصنع هذه

البواريد فى تطوان لسلاطين المغرب . يصنع منها العدد الكثير فى مصنع كبير كان يعمل فيه خمسمائة من العمال والمعلمين . قال، « هذِ مُكْحِلة » . ثم أعادها إلى مكانها فى الزاوية وهو يكرر اسمها بصوت فيه حب وحنين . كأنه يقول: من الغزو والقتال إلى غزل العنكبوت — من ساحات المجد إلى زاوية النسيان !

— ولا أمل بأن يجدد معملها فى تطوان .

قال المدير : ما يصنع منها اليوم يباع للسياح أو المتاحف . وهو قليل .

أما الصناعات الأخرى فهى المعول عليها فى ازدهار الصناعة والتجارة وفى تحسين أحوال العمال .

قد تأسست هذه المدرسة سنة ١٩٣٠ ، وفى شتى فروعها اليوم أكثر من مائة طالب ومعلم .

سألت السنيور ڤنيرو : وهل كلهم مغاربة ؟ فأجاب : نعم .

— وهل كلهم مسلمون ؟ فقال : المسلم وغير المسلم سواء . عندنا من اليهود بضعة صبيان . ولكن اليهود لا يقبلون على الصناعات .

اليهود فى تطوان مثلهم فى كل مكان . وإن تغيرت القيافات ، فالمهن — التجارة والصرافة وما إليهما — لا تتغير .

رأيت ونحن عائدون إلى الفندق ، رجلا فى قيافة ألفتُ رؤيتها فى لبنان — ألفتها وما كلفت بها . أرهبان فى تطوان ؟ فأجاب البستانى بالسلب المطلق .

— وهذا الذى رأيناه فى القفطان الأسود والطاقية السوداء واللحية الكثة المشعثة؟

— هذا يهودى . وأكثر اليهود فى المغرب يلبسون لباس أجدادهم الأندلسيين والبرتغاليين .

— وهل هم كثيرون فى تطوان ؟

ـ ستة أو سبعة آلاف[١] .

وقد علمت بعدئذ ، بمحادثتى المراقب المحلى فى الموضوع ، أنهم لا ينقصون ولا يزيدون .

أما المسلمون والإسبان فإنهم فى ازدياد مستمر . الدليل الأول : المواليد . فهى فى المدن وفى بعض القبائل أكثر جداً من الوفيات . الدليل الثانى : أسواق المدينة .

فما رأيت فى كل المدن التى زرتها وأقمت فيها مدينة تكثر الأولاد فى أسواقها وحدائقها مثل تطوان[٢] .

---

(١) هم بموجب إحصاء الحكومة الأخير ١٢٨٩١ فى مدن المنطقة كلها ، منهم ٦٣٧٩ فى تطوان والباقى فى القصر الكبير وسان ضرخو والعرائش ، وهناك فى القبائل سبعة وثمانون يهودياً لا غير .

(٢) عدد سكان المدينة بموجب الإحصاء الأخير ٨٧٣٧٩ منهم ستون ألفاً من المسلمين وواحد وعشرون ألفاً من الإسبان ، فيهم قليل من شعوب أوربية أخرى ، والباقى من اليهود .

الفصل الثامن

المنطقة الخليفية

هذه المنطقة هى جزء طبيعى جغرافى تاريخى أثنولوجى من المغرب الأقصى ، بل من سائر المغرب الذى يشتمل على تونس والجزائر وطرابلس الغرب ، وليس لها حدود طبيعية غير البحرية : ذكرت منها ، فى فصل سابق ، الحد الشمالى ، الذى يمتد من بحر الأطلنتيق إلى النهر الفاصل بينها وبين الجزائر ، أى نهر ملُويه ، وعلى هذا الشاطئ الأفريقى من البحر المتوسط المدن الثلاث بمرافئها ومراكزها المهمة ، أى طنجة وسبتة ومليلة (Malilla — وتلفظ بالإسبانية مليًا) وهى كلها خارجة من حكم المنطقة الخليفية الإسبانية اليوم.

وليس للمنطقة على البحر المتوسط من البلدان غير بلدة واد مرتين التى تقدم ذكرها وواد لَو (Uad Lou) على خمسة وعشرين كيلو متراً منها ، وبورتوكباص (١) (Puerto Capaz) أو الجبهة على أربعين كيلومتراً من واد لو . وسنْخُرخُو البلدة الجديدة التى أسست عند رأس جون الحُسيماس (Al hucimas) بين ميناء كباص ومليلة ، وسميت باسم القائد سنخرخو (Sanjurjo) الذى نزل بعساكره هناك فى ثورة عبد الكريم على الحكومة الإسبانية المحتلة البلاد . هذه البلدة هى الوحيدة التى تصلح أن تكون مرفأ للسفن التجارية . أما واد لَو وواد مرتين وبورتوكباص فيتعسر الوصول إليها فى غير المراكب الشراعية أو التجارية التى ترسو بعيداً من الشاطئ .

---

(١) نسبة إلى الجنرال كباص ، وسيذكر فى ما بعد .

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر الأسماء لهذه الأماكن — الرؤوس البرية والخلجان والفِراض — هى إسبانية أطلقها عليها الإسبان الذين احتلوها أو نزلوا فيها صائلين أو محتلين فى الماضى ، كما فعلوا حديثاً فى بورتوكباص وسنخرخو ،وليس بينها اسم عربى غير اسم واحد بربرى هو « لوْ » (واد لوْ) اسم قبيلة من قبائل البربر القديمة . هذا فى حد المنطقة الشمالى . أما حدها البحرى الغربى فهو يمتد من طنجة ، والأصح من رأس سبارتِل فى خط مستقيم جنوباً إلى أصيلة فالعرائش ، فنحو خمسة عشركيلو متراً دونها . ليس على هذا الشاطئ من الفِراض المهمة غير هاتين الفرضتين وقد تغلَّب اسماهما العربيان على الأسماء القديمة ، وما تغير فى الحروب والغزوات والاحتلالات المختلفة التى تخللت السيادة العربية فيهما(١) .

هذان الحدان الشمالى والغربى ثابتان ما ثبتت البحار ، ولا خلاف ولا جدال فيهما ، وهناك الحد الشرقى بين هذه المنطقة والجزائر . من مصب نهر ملُويه ، وراء جبل كِبْدانة ، إلى نحو سبعين كيلومتراً غرباً بجنوب ، وفى الناحية الشمالية منه الجسر الدولى الواصل إلى الطريق بين مليلة ووَجْدة . هذا الحد الشرقى ، أى سبعون كيلومتراً من مصب ملُويه إلى أمشيرا كليلة (Mexera Kalila) ، مثل الحدين الآخرين ، ثابت ما ثبت النهر ، ولا خلاف فيه ولا جـــدال . ولا يخشى عليه ، حتى لو كان اصطناعيًّا سياسيًّا ، من تغيير أو تعديل إلا إذا استفحل فى هذا الصقع الأفريقى أمر المستعمرين ، المخلدين اليوم إلى السكينة ، أو اشتد ساعد الحكومة السلطانية الناهضة من كبوتها ، فتحاول إحدى السلطات الثلاثة أن تحقق — إذا استطاعت — حلمها بتوحيد البلاد ، توحيداً استعماريًّا ، أو توحيداً

---

(٢) هى فى الخارطات الأوربية (Larache, Arcila)

سلطانيًّا مغربيًّا علويًّا . عندئذ تشرب السياسة الوطنية – أو الاستعمارية – النهر ، وتأكل الجبل !

بقيت الحدود الجنوبية بين المنطقتين الخليفية والسلطانية ، وقل بين الحكومتين الإسبانية والفرنسية ، وهى حدود اصطناعية دولية سياسية بكل ما فى هذه الكلمات الثلاث من معانى الاستيلاء والاستعمار ، والطمع والنزاع ، والمناورات والمشادات ، هى حدود متعقدة متعوّجة متغيرة متنكرة متراجعة متقدمة ، عملا بما يطرأ من طوارئ الزمان على سياسة الدولتين المتجاورتين – المتحابتين ! – من الإقدام والإحجام ، لحفظ مصلحة ، أو لتعزيز مرام .

ومما يجب ذكره هو أن الحكومتين الفرنسية والإسبانية غير متساويتين فى القسمة ، وما كانت المساواة فى الماضى – القريب لا البعيد – تستقيم بينهما ، لا فى قوة الأساطيل البحرية والجيوش ، ولا فى أسباب الاستعمار الأخرى ، السياسية والاقتصادية . لذلك كانت هذه الحدود تتغير كل مرة يُعاد النظر فيها . تغيرت ثلاث مرات بموجب المعاهدات الثلاث المعقودة بين الدولتين فى سنوات ١٩٠٤ و ١٩١٢ و ١٩٢٥ التى تقدم ذكرها .

فقد كانت الحدود الأولى تمتد من نهر ملُويه إلى المهديّة على شاطئ الأطلنتيق عند مصب نهر الصبُو ، أى مائة كيلومتر من العرائش . ثم تغيرت فى المعاهدة الثانية فنقلت غرباً إلى قرب العرائش – شربت جنيّة الاستعمار النهر ! – فالتقت بالنهر الآخر لوكوس شرقى القصر الكبير ، وماشته شرقاً إلى مكان فى الأخماس يبعد نحو خمسة وعشرين كيلومتراً من شفشاون . ثم جنحت جنوباً إلى باب زيتونة ، فجنوباً بشرق إلى نهر الوطا على نحو أربعين كيلومتراً من كِتامة ، فشرقاً بشمال إلى جزناية ، فأكلت نصف الجبل ، وراحت تتعرج وتتبختر إلى أمشيرا على نهر ملويه .

وفى معاهدة سنة ١٩٢٥ انتقلت الحدود للمرة الثانية والثالثة من المنطقة

السلطانية إلى المنطقة الخليفية نحو كيلومترين من الناحيتين الغربية والشرقية ، ومن خمسة إلى عشرة كيلومترات فى الوسط . فدنت من كتامة وجاورت ترغوستْ .

أما الحدود الحاضرة فقد راحت تغزو المنطقة الخليفية ، فتقدمت من العشرة إلى العشرين كيلو متراً فى الوسط ، بين قبائل بنى أحمد وبنى خالد ، وعشرة كيلومترات فى جزناية ، وعشرة أخرَ فى الناحية الشرقية ، فى أراضى بنى بويحيى .

هذا ما ربحه الفرنسيون فى تعديل الحدود وما خسره الإسبان . ولولا الاثنان الموكلان بحماية المغرب لما كان أهل المنطقة الصغيرة يشكون تجاوز أهل المنطقة الكبيرة ، ولما كان هناك من كسب أو خسارة ، ولما كان هناك من حدود ، ولما انقسمت بسبب هذه الحدود بعض القبائل ، فأمسى نصفها فى المنطقة الشمالية والنصف الآخر فى المنطقة الجنوبية وفى ذلك ما فيه من حوافز النزاع والتعدى والقتال على الحدود ، كما نعلم من عرب البادية على حدود العراق ونجد . واتصال أسباب النزاع والقتال بالدولتين المسئولتين عن الأمن والسلام فى المنطقتين .

لست أدرى ، ولا رغبة لى فى كشف الستار — لو كان ذلك ممكناً — ما كان يتلوَّن بين المتفاوضين الفرنسيين والإسبان بشأن هذه الحدود . فبأى شىء وبأية مصلحة كان يتذرع الفرنسيون فيطلبون التغيير والتعديل ، وأى شىء ، أو أى خوف ، أو أية سياسة داخلية أوخارجية كانت تحمل الإسبان على القبول ؟ قد تكون المسألة محض شخصية فى المتفاوضين — أصحاب السعادة الفرنسية والإسبانية — فيتغلب الفرنسيون بذكائهم أو بكياستهم أو بالاثنين معاً على الإسبان ، أو تكون ناشئة عن تفاوت فى قوى الحكومتين ونشاط سياستهما ، فتفرض الواحدة إرادتها على الأخرى .

لا علم لى بأسرار سياسة المفاوضات . إنما أنقل كلمة لموظف إسبانى كبير فى المغرب – قالها وهو يطلعنى على الخارطة الشاهدة فى خطوطها على التعديلات الثلاثة : مثلنا مع الفرنسيين مثل الجبنة والقط ، ففى كل معاهدة يأكل القط قطعة من الجبنة . فصرنا نخشى المعاهدات . ولكننا اليوم – وإن تأخرنا – على حذر .

سألت : كيف يحمون الحدود الجنوبية ؟ فقال إنهم بنوا الحصون على طول الخط ، وإذا الجيش المرابط هناك لا يقل عن الأربعين ألف جندى . وللفرنسيين ولا ريب ، مثل هذا الخط على حدودهم ، وأكثر من هذا العدد من الجنود .

خط ماجينو ، وخط سيغفريد ، فى المغرب الأقصى .

ومن ذا الذى يقوم بدفع النفقات ؟ المغرب ، يا بنى ، المغرب ! ! !

هذه المنطقة ، فى خطها البحرى وبعض جبالها وسهولها ، كما فى مساحتها وعدد سكانها ، هى شبيهة بلبنان ، طولها ثلاثمائة وعشرون كيلومتراً ومعدل عرضها سبعون[١] فتبلغ مساحتها اثنين وعشرين ألف كيلو متر مربع ، يتوطنها نحو تسعمائة ألف نفس[٢] ربعهم من الحضر بما فيهم من الإسبان[٣] ، وغيرهم من الأجانب والباقى من القبائل غير الرحّل – القبائل المزارعة .

وفى هذه المنطقة من الأنهر الكبيرة ستة هى نهر مرتيل المجاور لتطوان ،

---

(١) فى طرفها الغربى ١٢٥ كيلومتراً ، وفى طرفها الشرقى ٢٥ وفى الوسط يتراوح بين الخمسين والسبعين .

(٢) بموجب إحصاء الحكومة الأخير (سنة ١٩٣٨) مجموع سكان المدن ١٥٠٠٩٧ ومجموع القبائل ٦٦٠٣٢١ .

(٣) الإسبان المقيمون ، غير الجنود ، هم بموجب إحصاء سنة ١٩٣٥ : فى القبائل ٤١٤٠ وفى المدن ٤٠٢٣٨ ، يضاف إليهم زيادة السنوات الأربع أى من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ نحو ٥٠٠٠ فيكون المجموع ٥٠ ألفاً .

ونهر لوْ النابع من جبل شفشاون ، الجارى بين جبال بنى حسن وبنى سعيد إلى واد لوْ فالبحر ، ونهرا النكُور والغيس إلى شرق وغرب بنى وِرْياغِلْ إلى جون الحُسيماس شرقاً من سنخُرخُو ، ونهر إيجان الذى يجتمع بنهر الكِرْت فى الناحية الشرقية ويجرى فى أرض بوغفر إلى المتوسط ، ثم أكبرها وأطولها نهر ملويه . وهو ينبع من جبال الأطلس على نحو أربعمائة كيلومتر من البحر .

أما فى الناحية الغربية فأكبر الأنهر نهر لوكوس النابع من الجبال جنوبى شفشاون ، الجارى غرباً إلى القصر الكبير ، فالعرائش ، فالأقيانوس . وهناك أنهر صغيرة تجف فى الصيف مثل أنهر لبنان الشتوية .

فى الوجهة البحرية إذن مصب الأنهار الكبيرة ، وفيها حول تلك الأنهار أرض طيبة التربة ، يزرع أكثرها ، ويمكن زرعها كلها بعمليات هندسية لرفع المياه للرى . إن قلب المنطقة المثمر لفى هذه الأودية والسهول — فى واد مرتين وواد لوْ وفى الساحل الذى تقطنه قبائل مسطاسة وبنى بو فراخ وبنى يطْفِت وبقُوية شرقى الجبهة . ثم فى وادى النكور فى وسط المنطقة ، وأراضى بنى سعيد بين هذا الوادى ورأس البر الذى تقطنه بنو شِيكر . ثم السهل الكبير بين مليلة ونهر ملويه . على أن أخصب أراضى المنطقة هى فى الناحية الغربية بين أصيلة والقصر الكبير ، من شاطئ الأقيانوس إلى الجبال التى تتراجع عنه نحو خمسين كيلومتراً . وتوازيها فى الخصب سهول فى جبال الريف فى الناحية الشرقية ، هى كسهل البقاع فى علوها عن البحر وفى شمول زرعها .

ولكنها كلها لا تبلغ ربع مساحة المنطقة . والثلاثة الأرباع الأخرى جبلية تتنوع تربتها ، فتصلح فى الروابى والأودية للزرع والغرس وتتباين جدباً وخصباً فى أعالى الجبال ، حيث تكثر الأحراج فى أماكن منها — سنمر بها — وتقل فى غيرها لأسباب غير مجهولة ، ستذكر فى محلها .

تلك الجبال تبلغ فى علوها الألفين والألفين والخمسمائة متر . رأينا الثلج على رأس جبل كتامة فى يوليو واجتزنا قبل أن نصل إلى البلدة المسماة باسمه ، غابة من الأرز الشبيه بأرز لبنان ، إلا فى قدمه وضخامه أشجاره .

وهذه الجبال تتصل جنوباً بسلسلة الأطلس الشهيرة الممتدة بفروعها الثلاثة من المغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى . فتدخل فى أرض الجزائر عند وهران . إن أعلى القنن هى فى السلسلة الوسطى ، وإلى جنوبها وشمالها السلسلتان الأخريان المنخفضتان عنها . تفصل بينها جميعاً سهول وأودية وأنهار . وهى تدفع عن المنطقة الشمالية رياح الصحراء الجافة الحارة ، أى السموم التى تسمى خطأ فى المغرب « سيروكو » وهى تحريف شرقى « الشرقيات » فى لبنان ، وما هى فى المغرب كذلك لأنها تهب من صحراء الجنوب الكبرى وتصل فى جبهة الجزائر إلى البحر . أما فى لبنان فالاسم ينطبق على حقيقتها لأنها تهب من الصحراء السورية الشرقية .

ولا تشبه سلسلات الأطلس الثلاثة لبنان الشرقى والغربى إلا إذا افترضنا سلسلة ثالثة فى البحر قبالة صنين وضهر القضيب . فيكون لبنان من جبل الريحان إلى عكار شبيهاً بالأطلس الأعلى ، وإلى جانبيه الغربى والشرقى السلسلتان الشبيهتان بالأطلس الجنوبى وصنوه الشمالى .

وفى هذه المنطقة سهول مرتفعة ، كما قدمت ، شبيهة بسهل البقاع أهمها وادى ملويه الكائنة فى زاوية من الأطلس الأوسط وصنوه الشمالى ، فى امتدادهما إلى الجزائر واتصالهما بسهول وهران العالية . أما سهل ملويه فهو يرتفع من ألف وخمسمائة إلى ألف وسبعمائة متر عن البحر فيكون أعلى من سهل البقاع ، وفى خصبه إن لم يكن أخصب منه .

تقسم هذه المنطقة إدارياً ، حذواً لتقسيمها الجغرافى ، إلى خمس إيالات ، الجبلية (جبالا) حول تطوان ، والغربية على البحر الأطلنتيق ، والغمارية فى الوسط ،

والريفية فى الريف الغربى ، والشرقية ، أى الناحية الشرقية من جبال الريف .

وهى تختلف فى تربتها كما تختلف فى شكلها الجغرافى . فيكثر زرع الحبوب فى الإيالتين الغربية والشرقية وتكثر الأغراس وتختلف المزروعات فى الإيالات الأخرى .

قد أسهبت فى الوصف الجغرافى الذى تجف عنده صفحات الكتاب . ولكنه واجب لإتمام البحث والفائدة . وسأقدم الآن بعض الأمثلة لغلات المنطقة فى إيالاتها الخمس ، إثباتاً لما قلت فى الأراضى التى تصلح ، والتى لا تصلح للزرع . فالقمح والشعير — الحبوب على أنواعها — تكثر فى الإيالة الغربية ، مثلا ، ويقل فيها غرس الأشجار المثمرة .

أمامى الآن تقرير الحكومة لسنة ١٩٣٤ ، وفيه أن الأشجار المغروسة فى هذه الإيالة تبلغ مائتين وأربعة وثلاثين ألف شجرة . والأرض المزروعة قمحاً وشعيراً تبلغ ثلاثة وستين ألف هكتار ، أكثرها لقبائل بنى عروس وبنى غُرفُط وأهل شريف . ومما هو جدير بالذكر أن بنى غرفط ، القبيلة الجبلية فى هذه الإيالة ، تكثر من زرع الحبوب ، وخصوصاً الحمص والجلبان (البسلّة) ، فقد زرعت منها ، بموجب إحصاء هذه السنة ، ألفين وخمسمائة هكتار .

أما إيالة غمارة ، فهى جبلية فى مجملها ، وتزيد فيها القرى على الزرع . وقد بلغ عدد أشجارها مليوناً ونصف مليون شجرة . وما تجاوز زرعها الثمانية عشر ألف هكتار .

هذا التباين فى القرى والزرع كائن أيضاً فى إيالة الريف . فالأرض المزروعة فيها أربعون ألف هكتار ، وتدنو الغراس فى عددها من غراس الغمارة . أضف إلى ذلك أن فيها من القبائل الواسعة الأملاك أكثر من سواها ، منها بوفراخ ووريا غل ، وبنو جميل ، ويطفت ، وبقُوية .

وفى هذه الولاية يزرع الحشيش ، وهو غير محظور ، الحشيش الذى يسمى عندهم الكيف . تزرعه قبيلة واحدة فقط هى بنو سدّات . فقد جاء فى تقرير

الحكومة أن بنى سدّات زرعوا فى تلك السنة سبعة هكتارات من الكيف . قيل لى إن هذا الكيف المغربى لا يكف مثل الأفيون عند الهنود أو القنب عندنا ، لضعف فى مادته السحرية .

أعود إلى الإيالات وغلاتها . فالشرقية فى بلاد الريف كثيرة الزرع أو الغرس ، بلغت أرضها المزروعة تسعين ألف هكتار ، وغراسها مائة وعشرين ألفاً . أكثرها لقبائل كِبْدانة وبنى بويحيى وأولاد ستُّوت وبنى سِيدَل .

وأما إيالة جبالا (تطوان والساحل والجبال المجاورة) فهى الوسط بين الإيالات فى المزروع والمغروس من أرضها . إنما يكثر فيها التين والعنب . وأغنى قبائلها بنو حسان وبنو حرم وأنْجره والحوْز .

قد يستنتج القارئ من هذه الإحصاءات أن المنطقة غنية . وذلك خطأ . فهى زراعية ، نعم ، وأكثر سكانها من القبائل المزارعة . ولكن مجموع ما يزرع من الأرض ٢٢٥ ألف هكتار منها ٢٠٠ ألف تزرع قمحاً وذرة وشعيراً . والباقى يزرع بقولا — الفول والحمص والجلبان والعدس . أما غلة المائتى ألف هكتار فهى ٢٠٠ ألف قنطار من القمح ، و ٦٠٠ ألف من الشعير ، و ٢٧٠ ألفاً من الذرة .

يمكننى أن أقارن — وكتاب الأستاذ حمادة فى اقتصاديات سوريا أمامى — بين غلة القمح فى هذه المنطقة وفى سوريا مثلا . ففى سنة ١٩٣٣ زرع من الأرض فى سوريا ٤٨٥ ألف هكتار كانت غلتها ٣٢٧ ألف طن ، أى أقل من ثلاثة أرباع الطن لكل هكتار[١] .

وقد بلغت غلة الخمسة والأربعين ألف هكتار من القمح فى المغرب سنة ١٩٣٤ مائتين وستة عشر ألف قنطار ، أى أربعة قناطير وثلاثة أرباع القنطار لكل هكتار . ولكن المساحة فى سوريا تزيد كثيراً على المساحة

(١) الطن أربعة قناطير . وأقل محصول الهكتار من القمح ١٤٠٠ كيلو أى نحو ثلاثة قناطير .

المزروعة فى المغرب فضلا عن أن الأرض التى تصلح للزرع فى سوريا تبلغ أربعة ملايين هكتار لا يزرع منها اليوم أكثر من نصفها .

أما الأشجار فأكثر ما يغرس منها فى المغرب الخليفى التين والكرم . ثم الزيتون واللوز . ثم المشمش والسفرجل والرمان والليمون والبرقوق والتفاح والقراصية التى يسمونها حب الملوك .

وأما عدد الأكثرية ، أى التين والعنب ، فهو ١٠,١٣٥,٠٠٠ شجرة ، و ٣,٢٥٠,٠٠٠ عريشة . يجىء بعدها الزيتون ، وفى المنطقة منه مائتا ألف شجرة ، ثم اللوز أربع وثمانون ألفاً ، ثم الرمان والليمون وليس من كلاهما أكثر من أربعين ألف شجرة .

فأين هذه كلها مما فى لبنان منها ؟ أو من الزيتون فى الأقل والليمون . فإن كانت تحلو لك المقارنة ، فهذه الأرقام ، مع كتاب الأستاذ حمادة ، تمكنك منها . أكتفى أنا بالإشارة إلى الزيتون . فإن عندنا فى لبنان من أشجاره ثلاثة ملايين ، معدل غلتها السنوية ستة عشر ألف طن ، أى أربعة وستين ألف قنطار . وفى هذه الإشارة تنتهى المقارنات والإحصاءات ، إلا واحداً منها .

فسأختم هذا الفصل بالشمع والعسل ، أو بما يدعونه تقرير الحكومة الخليفية الإسبانية للصناعة العسلية . وهذه الصناعة قائمة عامرة فى الإيالات الخمس كلها . فتبلغ فى الإيالة الغربية الرقم الأعلى فى الإنتاج ، أى أن عدد خلاياها ستة عشر ألفاً . وتجىء الإيالة الشرقية أخيراً بخلاياها الأربعة الآلاف .

أما مجموع ما تنتجه الإيالات كلها من العسل فتبلغ قيمته ٣٨٠,٧٨٤ بسيطة ، وقيمة ما تنتجه من الشمع ٨٥,٠٠٠ بسيطة . فإذا حولناها إلى ليرات سورية لبنانية ، بحسب قيمة البسيطة التى يريد أن يجمدها الجنرال فرنكو على الخمسين بالليرة الإنكليزية ، والست بالليرات الفرنسية ، تبلغ ٩٢,٦٣٠ ليرة من ليراتنا الجديدة التى تشبه المرأة الجميلة الوجه المتقلبة الطباع .

الفصل التاسع

ميزانيات خليفية

ثمانمئة ألف من الأنفس ، ثلاثة أرباعهم من البوادى ، يقطنون منطقة مساحتها اثنان وعشرون ألف كيلومتر مربع ، أكثرها أرض جبلية ، يصلح منها للزرع مليون هكتار ، يزرع ويغرس منهـا اليوم نحو نصفها .

لهذه البلاد وأهلها حكومة خليفية إسبانية بلغت ميزانيتها فى سنة ١٩٣٨ مئة واثنى عشر مليوناً من البسيطات ، أى ١٨,٦٦٦,٦٦٦ ليرة لبنانية .

ها هى ذى حكومة فضفاضة الثوب ، كثيرة الدوائر والدواوين ، والموظفين والمستشارين ، والجنود والأعوان ، والنوافل الديمقراطية الإدارية .

إن حكومات ما بعد الحرب العظمى ، الحكومات الانتدابية والإقامية والاستعمارية — وإن كانت الضرائب فيها أقل مما هى فى حكومات الدول العظمى ، ذات الجيوش الجرارة والأساطيل البحرية والجوية — هى كذلك كثيرة النفقات والتبذير ، ولا نسبة بينها وبين ثروة البلاد ، بخلاف الأمم الغنية التى تستهلك معدات الحرب نصف ميزانية حكوماتها ، ولا تذهب حصانتها المالية .

على أنها كلها ، الكبيرة والصغيرة ، الفقيرة والغنية ، هى أعباء ثقيلة ، أعباء منكرة ، على عواتق الشعوب . ولا أمل بأنها ستخف فى المستقبل . بل قد تكون أشد وأنكر فى الحكومات الاشتراكية والشيوعية والدكتاتورية إطلاقاً ، وفى الحكومات الديمقراطية كذلك . تلك الحكومات التى يعسل

وزراؤها كلام الحرية والإخاء ، ويتاجر أرباب المال فى بلدانهم بسياسة السلم — وبالأسلحة .

مالنا والمستقبل ، وهذا الحاضر تكفينا شروره . أعود إلى الشعب المغربى ، المكلف بنفقات باهظة مرهقة تنفقها الحكومة . وأعيد الأرقام — فقد تكون نسيتها — الأرقام التى تتعلق بالميزانية المغربية ، فهى ثمانية عشر مليوناً ونيف من الليرات اللبنانية . ثم أذكرك بأن عدد سكان المغرب الأسبانى هو ثمانمئة وخمسون ألف نفس ، نقصت أو زادت قليلا . فكم يجب أن يدفع كل فرد من الرعية لتدفع الحكومة عنه اللصوص ، وتؤمّن ماله وحياته ما أمكن الأمن فى هذه الدنيا ، وتسهل له بعد ذلك ، إن كانت على شىء من الصلاح ، سبل المواصلات ، وسبل العلم ، فلا يموت ميتة وحوش الغاب .

قد كان المغربى يدفع لسلطان المغرب قبل الحماية ، مبلغاً يتجاوز أحياناً عشر ليرات لبنانية . على أن ميزانيته الحاضرة لا تستقيم إن لم يدفع كل شخص فى المنطقة ستاً وعشرين ليرة ، أى مئة وثلاثين بسيطة . كل شخص أقول . أى أن البيت ذا الخمسة الأنفس ، فى المدن أو فى البوادى ، مكلف بمئة وثلاثين ليرة ، أى سبعمائة وثمانين بسيطة .

ولكن هناك أسباباً أخرى لهذا التبذير فى ميزانية المغرب . فما هذه الأسباب ؟ إنى باذل الجهد فى توضيح كل ما يتعلق بهذه المسألة فإن بقى بعد ذلك ما يغمض أو يلبس عليك ، فالحق فيه على فهمك لا على بيانى .

هذه المنطقة هى جزء من بلاد المغرب ، كما قدمت . وقد كان أهلها ، قبل عهد الحماية ، يدفعون الزكاة والضرائب لسلطان البلاد ، فتبلغ فى بعض السنين أكثر مما تبلغ اليوم ، وتنقص أو تزيد فى بعضها ، عملا بخصب الأرض أو محلها ، وبقوة الحكومة السلطانية أو ضعفها فى جباية الخراج . وهناك عوامل أخرى كالفتن والحروب ، فكان السلطان يزيد فى الخراج ليستطيع أن يحافظ

على كيان الدولة وسيادتها السلطانية . والحروب — اغفر لى هذه المتبذلة — لا تقوم بالآمال . والفتن والحروب — ما كان أكثرها فى المغرب — تشغل الناس عن الزراعة — حقيقة أخرى متبذلة أستغفرك عنها — فتهمل الأرض ويذهب خيرها ، فتفتقر البلاد .

وما السلاطين والملوك ، دام عزك ، بغير القصور والجنود والعبيد والجوارى ، والخدم والأعوان ؟ والسيارات والطيارات واليخوت فى هذا الزمان ؟ وما الفرق بين العائلة المالكة وعائلة عبد الرحمن بن عبد السلام إن لم تكثر لديها الأموال لبناء القصور واقتناء كل ما تقوم به — وقل كل من تقوم بهم وبهن — من الأثاث الفاخر والتحف والجوارى والعبيد .

فالضرائب الباهظة المرهقة تحمل الناس على التمرد والعصيان ، وتسبب الفتن والحروب . الفتن والحروب تفقر البلاد ، فيضطر السلطان أن يستدين المال ليظل سلطاناً على عرشه فى قصره وأمته ، ويضطر ، ليتمكن من دفع فوائد الديون — الفوائد على الأقل — أن يزيد الضرائب على الرعية . هى حلقة مفرغة خبيثة ، شرها الأول يتصل بشرها الأخير ، فتدور الدوائر على الشعب ، وعلى الأمة ، وعلى الحكومة ، وعلى السلطنة نفسها ، وفى الفصل الأول من هذا الكتاب الشاهد والبرهان . ذى هى صورة صادقة لحقيقة عارية مخجلة .

وهناك صورة أخرى لحقيقة عارية ولكنها غير مخجلة . بل هى معزّة مشرّفة . فقد كانت أكثرية الأمة راضية بهذه الحكومة السلطانية الشريفية فى الماضى ، بل كانت مؤيدة لها ، معتزة بها ، محافظة عليها . وقد أصبحت الأكثرية بعد الحمايات أجمعية تشمل الأمة المغربية فى المنطقتين الكبرى والصغرى الجنوبية والشمالية . أجل إن هذه الأمة بأجمعها لأشد تمسكاً اليوم بأهداب العائلة العلوية المالكة ، وأعظم غيرة على العرش العلوى ، وإخلاصاً له ، فتؤيده وتحافظ عليه ، وتعتز به قلباً وقالباً ، وتبذل فى سبيله كل ما لديها من القوى الروحية والمادية .

ما السبب فى ذلك ؟ السبب الأول والأهم أنها أمة إسلامية مغربية تأبى أن تحكمها دولة أجنبية ، مسيحية كانت أم غير مسيحية . وبما أنها فى المغرب أقرب إلى ذلك الصراع التاريخى بين المسيحية والإسلام فى إسبانيا فهى تقول الأجانب وتعنى بهم النصارى . فإذا قضت الأيام بحكم الأجنبى النصرانى فهى لا تقبل به ، ولا تخضع له ، إلا بشرط أساسى جوهرى تفرضه معنوياتها وروحياتها قبل كل شرط اقتصادى أو سياسى . ذلك الشرط هو أن تحافظ الحكومة الأجنبية الحامية على البيت المالك ، وعلى العرش العلوى . ذى هى الحقيقـــة الأخرى المجردة من التزويق والتنميق . ولا تستطيع الدولة الحامية أن تبقى يوماً فى المغرب إن لم تقبل بهذا الشرط وتقوم به دون خلل أو تعديل .

لا بد إذن من وجود حكومتين مزدوجتين فى هذا المغرب الحاضر . ولكن الحكومة المزدوجة الخليفية مثلا فى وضعها الأساسى غير الحكومة المزدوجة فى مناطق الانتداب !

فالسلطان ، دام عزك ، سلطان . ورئيس الجمهورية ، دامت ديمقراطيتك ، رئيس جمهورية . والعرش هو غير كرسى من الخيزران أو الجوز . والقصور للمالك سعيداً وللعائلة المالكة هى غير البيوت المشيدة بالأسمنت المسلح تستأجر لرئيس أو مدير . والحرس المغربى بقيافته الطاووسية هو غير الدرك المزمّل بأذرع معدودة من القماش الأصفر .

أبهة الملك لا نتنازل عنها مهما كلفت من المال . وإننا لنحمل أعباء الضرائب ، نحملها فرحين ، ليبقى العرش العلوى محفوفاً بالكرامة والإجلال وبالأبهة والمجد . هو لسان حال الأمة المغربية العربية الإسلامية . والحكومة الحامية تفهمه جيداً وتحسن العمل به . بل هى تسرف فيه لغرض من أغراضها السياسية ، وتقتبس منه ليكون لمندوبها السامى بعض تلك الأبهة والمجد ، ولسان

حالها يقول : الشرقيون مشغوفون بهذه المظاهر الباهرة خاضعون لأحكامها . فمن الحكمة إذن أن نتشفع نحن أيضاً بها .

على أن المقيم العام فى تطوان يؤم الكنيسة أو يزور الخليفة فى ثوب من الجوخ مصحوباً بياورين فقط ، إسبانى ومغربى ، فى الثوب الأصفر العسكرى . فللخليفة وحده أبهة الملك ، بحرسها الكامل قيافةً وعدةً وعدداً .

وللخليفة القصر الأكبر ، والعبيد والجنود والأعوان — كل مظاهر الفخامة والجلال . وتلك الحكومة الثانية ، أو الأولى ، الحكومة الخليفية ، بوزرائها وقضاتها ومديريها ومخزنها وجندها النظامى — تتمثل فيها كرامة الأمة ، وحقوقها الموروثة ، وتقاليدها ، وآمالها الوطنية الكبرى . فلولا هذه الآمال باستعادة السيادة القومية والشريفية — السلطانية والخليفية — واستقلال البلاد المغربية استقلالا حقيقيًّا كاملا ، لما كانت هذه الحكومة غير صورة جميلة من صور التقاليد ، بل من صور الباطل والمحال . أمّا أنها من ألزم ما يلزم لإحياء هذه الآمال وتحقيقها فما لا ريب فيه . وذلك ما يبرر فى نظر الأمة المغربية ، وجودها ونفقاتها .

وما هى هذه النفقات بالإضافة إلى نفقات الحماية ؟ لا بد من التفصيل إنصافاً للحكومتين ، الحامية والمحمية . ولكنى موجز فيه .

إن أصغر الرواتب بالنسبة إلى مقام صاحبها ، راتب الخليفة وراتب المندوب السامى والمقيم العام . فالأول يبلغ مائة وأربعين ألف بسيطة ، أى ثمانية آلاف ليرة بما فيها رواتب العائلة الشريفية . والثانى خمسون ألفاً ، أى ثلاثة آلاف ليرة .

ولكن نفقات القصر الخليفى ، بمخزنيته وكتابه وخدامه ، هى ثلاثمئة وسبعة وثمانون ألف بسيطة . يضاف إليها نفقات الحراسة الخليفية ، بعساكرها

وفرسانها ومخزنيتها[١] وموظفيها ، وهى تبلغ المليونين . وتظل الأرقام سبعة فى مجموعها — سبعة صغيرة ، تكبر وتصير ثمانية أرقام فى القسم المختص بالجند الخليفى أو الأهلى . فهذا الجند مؤلف من أحد عشر ألفاً من المشاة وثمانمئة من الخيالة ، بمصحاته وإدارته وكتابه ، يكلف البلاد سبعة وأربعين مليوناً من البسيطات . فيكون مجموع هذه الأبواب الثلاثة خمسين مليوناً .

بعد الخليفة وقصره وحرسه وجنده تجىء الصدارة العظمى بكتابها ونوابها فى الإيالات الخمس (١,٨٠٠,٠٠٠) فالعدلية الإسلامية ، (٧٧٠,٠٠٠) فإدارة أملاك المخزن ووزارة الحبوس — الأوقاف — (٣٠٠,٠٠٠) هى نفقات الحكومة الخليفية الأهلية ، تضاف إلى ما تقدم ، فتبلغ كلها ثلاثة وخمسين مليوناً من البسيطات ، أى نحو نصف الميزانية العامة .

أما الحكومة الإسبانية فقد حذت على الإجمال فى هذه المنطقة حذو الحكومة الفرنسية فى المنطقة الجنوبية . فالسلطان هناك لا يزال المشترع الوحيد — اسما وصورة — فى السلطنة . فتُعلن الشرائع والقوانين والقرارات بخط سلطانى شريف يدعى ظهيراً ، فيحترمه ، يطيعه فى الأقل ، كل من فى السلطنة ، حتى الأجانب ، من أعلاهم أى المقيم العام إلى آخر اللائحة . ولكن ممن يجىء هذا الظهير — من ذا الذى يكتبه ؟ من ذا الذى يمليه ؟ قال لى أحد السياسيين فى طنجة ، وهو يرينى ظهيراً شريفيًّا ، ويشير إلى البسملة فيه والخاتمة والتاريخ الهجرى . هذا وهذا وهذا من فاس ، والباقى كله من باريس !

وبعد الظهير تجىء الحكومة الشريفية السلطانية ، وهى مؤلفة من وزير أول ، ووزراء العدلية والأحباس والمعارف ، ومن محتسبين وباشاوات (محافظى المدن) وقواد (المحافظين فى القبائل) وقضاة الشرع والشرطة والجند السلطانى .

---

(١) المخزنيون — الدرك — فى القصر ثلاثون ، وفى الحراسة أربعة وعشرون . أما الحراسة نفسها فهى مؤلفة من ثمانين جندياً وعشرين فارساً .

ولكن هذه الوظائف كلها أمست اليوم إدارات مدنية أو عسكرية يديرها المراقبون أى المستشارون الفرنسيون . لكل وزير ، ولكل قائد ولكل باشا مراقب ، ولمدير الشرطة ، ولمجالس البلدية كذلك مراقبون .

أما الحكومة الانتدابية فهى مؤلفة من مقيم عام ومندوب من قبله لدى السلطان وكتابة السر . إدارتها المركزية فى الرباط ، تشتمل على دوائر شتى مدنية ، شخصية ، شريفية ، قضائية ، اقتصادية مالية ، صحية ، عسكرية .

هذا فى الرباط مركز الإقامة العامة . وهناك داخل البلاد ، فى كل منطقة أو ولاية موظفون مدنيون بنوابهم وأعوانهم وكتابهم والمترجمين يقومون بالأعمال المدنية والعسكرية والإدارية ، والاجتماعية والسياسية . هؤلاء الموظفون ، الشبيهون بالوكلاء السياسيين فى الاصطلاح الإنكليزى ، يقدمون للمقيمية التقارير المشتملة على أخبار كل منطقة وأعمالها — الظاهرة والخفية — ومن فيها من سياسيين ومشاغبين . وعليهم أن يراقبوا أعمال الباشاوات والقواد والقضاة ، ويؤانسوا الوجهاء والزعماء مستطلعين أخبارهم — وأسرارهم — وأن يساعدوا الفرنسيين المقيمين فى منطقتهم ، ويشرفوا على جباية الأموال المفروضة على الرعية ، هؤلاء المراقبون هم دائرة المعارف للمقيمية العامة .

ومما هو جدير بالذكر أن قضاة الشرع هناك كذلك يحكمون فى القضايا التى تتعلق بامتلاك الأجانب للأراضى ، وذلك بموجب مادة فى ميثاق مؤتمر الجزيرة . أما بعد ذلك ، أى بعد أن تصبح الأرض ملك الأجنبى ، فالحكم فى ما يتعلق بها من خصائص قضاة الفرنسيين ، وذلك بموجب قوانين التملك الجديدة .

هذا النظام متبع على الإجمال فى المنطقة الخليفية . ولكن الإدارات التى تختص بالحكومة الإسبانية الإقامية تنحصر فى كتابة السر العامة ونيابة الأمور الوطنية ، التى تشتمل على دوائر الصحة والتعليم ، ثم المحاكم العدلية الإسبانية .

فيبلغ مجموع نفقاتها خمسة وثلاثين مليون بسيطة[١] .

أما قيمة ما تنفقه البلاد على الدولة الحامية فتتعسر معرفتها بالتدقيق ، لأن هذه الدوائر لا تنحصر منافعها بالإسبان الحاكمين ، بل تتجاوزهم إلى أهل البلاد . فلو قلنا إن دوائر الإقامية والمحاكم الإسبانية زيادات قضت بها الحماية ، كما هي الحقيقة ، فنيابة الأمور الوطنية ليست فى كل نفقاتها من هذه الزيادات. ذلك لأنها تشتمل على دائرتى الصحة والمخزن ، وهما من دوائر الحكومة الأهلية . أما دائرة التعليم فنفقاتها تتناول المدارس المغربية والإسبانية . وسنحاول مع كل ذلك الغربلة فنسقط من الثلاثين مليون بسيطة نفقات نيابة الأمور الوطنية (١٢,٠٠٠,٠٠٠) ونفقات المخزنية المغربية والصحة والتعليم[٢] (٥,٠٠٠,٠٠٠) فيبقى ثلاثة عشر مليون بسيطة ، هى نفقات الحماية .

أما الباقى من الميزانية ، أى دوائر الأشغال العامة والمالية والبحرية فهى من الدوائر التى لا تستغنى الحكومة الخليفية عنها — هى من المنافع العامة . كل ما تنفقه البلاد إذن على الحكومة الحامية ، بمقيميتها ومراقبيها العسكريين والمدنيين ، والملحقين بالمراقبين ، والمساعدين الإداريين ، والمترجمين والكتاب والفنيين والأطباء وقضاة المحاكم الإسبانية . كل هذه النفقات لا تتجاوز العشرين مليون بسيطة ، أى أقل من خمس ميزانية البلاد .

لقد بينت الأسباب فى زيادة ميزانية الحكومة المغربية زيادة لا تبررها

---

(١) هى بالتفصيل :

المقيمية العامة	:	١٤٦,١٠٠
الكتابة العامة أى مكتب كتابة السر العامة	:	٤,٠٢٥,٩٢٠
نيابة الأمور الوطنية	:	٣٥,٥٣٥,٢٥١
المحاكم الإسبانية	:	٦٨٠,١٨٠
		٣٥,٣٨٧,٤٥١

(٢) ميزانية المعارف هى ٣,٣٠٠,٠٠٠ بسيطة ، فأسقطت منها للمدارس الإسبانية ١,٣٠٠,٠٠٠ وهى على ما أرى فوق الحقيقة لا دونها .

طبيعة البلاد واقتصادياتها ، بل تبررها طبيعة الملك وتقاليده . وقد بينت كذلك أن الزيادة ليست كلها من الوضع السياسى المزدوج ، الخليفى الإسبانى فى حكم المنطقة وأن كل ما تدفعه البلاد ثمن الحماية لا يتجاوز خمس الميزانية العامة .

وإذا ما قارنا بينها وبين ميزانية المنطقة السلطانية تبيّن من الفرق فى بعض فروعها ما يدهش حقاً ولا يسر . فميزانية الدولة المغربية (الفرنسية) لسنة ١٩٣٦ هى ثمانمئة واثنان وسبعون مليوناً وثلاثمئة وثمانية عشر ألفاً من الفرنكات (٨٧٢,٣١٨,٠٠٠) أى نحو أربعة وأربعين مليون ليرة لبنانية . وما هى بالكثير لأن المنطقة السلطانية هى أربعة أو خمسة أضعاف المنطقة الخليفية مساحة وسكاناً وأكثر منها ثروة .

إنما المدهش المحزن هو أن أكثر من ثلث هذه الميزانية ، أى ثلاثمئة وخمسون مليوناً من الفرنكات مخصص لدفع فوائد الديون العامة وما يستحق من أصلها[1] وهى أضعاف أضعاف ما يخصص للسلطان والعائلة المالكة . وهناك مائة وتسعة ملايين نفقات للمراقبة السياسية والدوائر العامة ، ثم ثلاثة ملايين لما يدعى صندوق السيادة ، وهو ما يسميه المغاربة الصندوق الأسود ، لأن أكثر هذه القيمة تبذل للجواسيس .

أما المعارف — وهاهنا الفرق الأكبر — فالمخصص لها خمسة وسبعون مليون فرنك ، منها اثنان وخمسون مليوناً للتعليم الفرنسى الإسرائيلى ، وثلاثة وعشرون مليوناً لتعليم المغاربة المسلمين . أى أن مليونين ونصف مليون ليرة تخصص لأبناء الأقلية ، ومليون ليرة لأبناء الأكثرية الساحقة فى البلاد .

---

(١) لو فرضنا أن المنطقة السلطانية هى خمسة أضعاف المنطقة الخليفية ، وعليها قسمتها من الدين ، فالقسمة تبلغ سبعين مليوناً أى ثلاثة ملايين وخمسمئة ألف ليرة . وليس على المنطقة الخليفية اليوم ثلثها . فالالتزامات العامة ، كما تسمى فى الميزانية ، هى دون الخمسة الملايين بسيطة (٤,٦٧٦,٢٨٤) أى نحو تسعمئة ألف ليرة لبنانية .

فإن غضضنا الطرف عن مجموع المخصص بالتعليم ، وهو قليل جداً بالنسبة إلى عدد سكان البلاد ، فأى عذر نلتمس للسلطة الفرنسية هناك فى هذه القسمة الضئزى بين أبناء الأقلية وأبناء الأكثرية من السكان ؟ ألأن اليهود أصدقاء الفرنسيين وأعوانهم فى سياستهم الاستعمارية يتساوون وأبناء المستعمرين فيخصون مدارسهم بمليونين ونصف مليون ليرة ، ولا يخصون مدارس المسلمين أهل البلاد بغير مليون واحد ؟

إن نفقات المدارس الإسبانية ، فى المنطقة الخليفية ، لا تتجاوز المليون بسيطة ، ويجب أن يسقط منها النصف فى الأقل ، أى رواتب المعلمين الإسبان والمعلمات فى المدارس الأهلية ، ويضاف إلى نفقات التعليم الأهلى ، فتكون النتيجة أن أكثر من أربعة أخماس ميزانية المعارف تصرف على أبناء الأهالى وأقل من خمس واحد على تعليم أبناء الإسبان .

ها هو ذا أحد وجوه التفاوت بين الحكمين الفرنسى والإسبانى فى المغرب . وسنذكر غيره فى فصول أخرى ، ونزيدك علماً بما يبذله الإسبان فى سبيل التعليم فى المنطقة الخليفية .

الفصل العاشر

البيت العلوى

فى أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر كانت سيادة البربر فى المغرب الأقصى على وشك الزوال . ويوم تغلب محمد المهدى السعدى على باحسّون آخر ملوكهم انهار صرح تلك السيادة ، فقامت على أنقاضها الدولة السعدية .

وكان محمد المهدى مؤسس هذه الدولة شديد البأس شجاعاً طموحاً ، وعلى شىء من الحكمة . فوالى الإنكليز لتحسين تجارة البلاد ، ووطد صلته بالإسبان تعزيزاً لسياسته ولكنه حمل على البرتغاليين حملات موفقة وهو يطمع بالاستيلاء على ثغور المغرب كلها .

وكان الأتراك يومئذ يتقدمون فى أفريقيا الشمالية فتحاً واحتلالا ، فزاد المهدى جنوده ، واضطر للقيام بنفقاتها وتعزيزها إلى أن يزيد فى الخراج على رعاياه . الخراج ! عقبة سلاطين المغرب الكأداء .

فلما زاد فى الخراج تمردت بعض القبائل وذرّ فيها قرن الفتنة . وبما أنه والى النصارى ثار عليه ثائر الدين كذلك ، فقام الغُيُّر المرابطون يدعون المؤمنين للجهاد . فحمل المهدى عليهم حملة شعواء بددت شملهم قتلا وطرداً ، بعد أن هدّمت زواياهم . بددت تلك الحملة شملهم ، وما أخمدت نارهم . فراح الناجون والمطرودون يناصرون الأتراك على سلطان البلاد ، فكثر عليه الأعداء . ولكنهم لم يتمكنوا منه إلا غدراً . ومن تهكم الأقدار أن تكون اليد الغادرة من جنده !

بعد وفاة المهدى (٩٦٣ هـ — ١٥٥٧ م) خلفه ابنه الملقب بالغالب . فتمشى على سياسة أبيه فى موالاة الإسبان وتوطيد صلاته بهم ، كما أنه واصل الحملات على غلاة الدين وما كان فيها موفقاً توفيق أبيه . وقد حاول محمد الغالب أن يجدد بعض مجد المغرب ، أو يعوض بالبناء عن إخفاق سياسته الداخلية ، فشيد قصراً فخما فى عاصمته وبنى مدرسة وجامعاً . على أنه ظل موالياً للإسبان « الكفار » فى نظر أولئك الغُيُر على الدين ، فقضى نحبه بين حبَّين تجاذبا قلبه : حب الجزيرة الخضراء وحب الجنة !

وما كان ابنه محمد المتوكل بالخلف السعيد للسلف الحميد . ما صح على ما يظهر توكله ! ويل للسلاطين من العمومة وأبناء العم ! فقد نازع المتوكلَ الملكَ اثنان من عمومته اسم أحدهما عبد الملك ، فعاد المغرب إلى سالف عهده من الفتن والحروب ، وكان عبد الملك منتصراً على ابن أخيه الذى فر هارباً إلى بلاد البرتغال . راح يتوكل على « الكفار » !

ولكن مليك تلك البلاد البرتغالية يوحنا الثالث (١٥٢١ — ١٥٥٧) كان زاهداً فى الأساكل الأفريقية ، والثغور المغربية ، مؤثراً عليها البرازيل . وفَتْحٌ واحد فى العالم الجديد ينسيك الفتوحات والاندحارات المغربية كلها . ليأخذها السلطان المهدى ! وهو المعاصر ليوحنا ، الموفق فى حملاته على البرتغاليين فى الثغور التى احتلوها على شاطئ الأطلنتيق والمتوسط . فأخرجهم من سبتة ، وما بالى يوحنا بما حلّ بهم فى الثغور الأخرى ، وما كان معارضاً فى تقدمة طنجة هدية إلى الأميرة كاترين — بعض مهرها — يوم زواجها بالملك شارلس الثانى . خذوا طنجة ، يا أبناء العم الإنكليز ، وخلصوها من يد « الكفار » .

أما الملك سبستيان الذى خلف أباه (١٥٥٧ — ١٥٧٨) فلم يكن زاهداً زهده فى المغرب . بل كان ينزع نزعة أجداده الفاتحين ، ويطمع فى استعادة

ما خسرته البرتغال فى عهد أبيه . كان سبستيان شديد النعرة الدينية ، مثل أولئك المرابطين فى المغرب . سبستيان المرابط البرتغالى حامى ذمار الدين ! ثار ثائره على « الكفار » ، فعبّأ الجيوش لفتح بلادهم وتنظيف الأرض منهم .

وكان محمد المتوكل لا يزال فى بلاد البرتغال ، فقال فى . . . ، كدت أخط الكلمة فوقفت عندها متورعاً . سبحان العالم بذات الصدور ! ولكنى أتصور المتوكل قائلا : أنا وابن عمى على الغريب ، وأنا والغريب على عمّى !

أبحر الملك سبستيان بجنوده ، ومعه محمد المتوكل ، فنزلوا فى أصيلة ، ومشوا جنوباً إلى العرائش . فخرج لهم السلطان عبد الملك بجيش من القبائل ونازلهم فى وادى المخازن بالقرب من القصر الكبير .

وفى ٤ أغسطس ١٥٧٨ م (٩٤٨ هـ) كانت الوقعة الكبرى التى تعرف فى تاريخ المغرب بوقعة الثلاثة الملوك . فقتل فيها سبستيان ، وهلك المتوكل ، ومات بعيد ذلك عبد الملك ؛ إنما النصر كان للقبائل التى حاربت يومئذ مع عبد الملك وكانت متحدة مستبسلة ، فنصرها الله على « الكفار » ، كما يقول مؤرخ تلك الأيام !

بعد وفاة عبد الملك تولى أخوه أحمد ، فبايعته القبائل التى حاربت فى وقعة وادى المخازن ، وراح يؤدب بها الخارجين عليه ، ويخضع المتمردين فى شمال البلاد وشرقها . فكان منتصراً فى حملاته كلها ، فسُمّى « المنصور » .

ثم غزا المنصور السودان ، فوصل إلى تمبكتو ، وعاد منها ظافراً غانماً الغنائم الكثيرة ، منها ألف عبد عمليق ، وثمانية آلاف قطعة من الذهب ، فسُمّى « الذهبى » ، « وفاتح السودان » .

كان ذلك السعدى المنصور على جانب يذكر من صفات الفاتح والسياسى ، فقرن الشجاعة بالحكمة ، وكلهما بالعلم وبحبه لأهل العلم ، يتخذ منهم الكتاب والأعوان فقالوا « هو عالم الخلفاء وخليفة العلماء » .

ازدهر المغرب فى عهد الخليفة الكثير الألقاب والكثير الأعمال الجليلة . فتوطدت أركان الملك والأمن والسلام فى البلاد . ثم سعى لتوطيدها كذلك فى الخارج ، بعقد معاهدات حسن الجوار والتجارة مع دولتى إنكلترا وإسبانيا ، فحال القدر دون إتمام مشاريعه الدولية هذه ، يوم فتح باب القصر للوباء الذى غزا المغرب سنة ١٦٠٥ ، فكان المنصور الذهبى غنيمته الكبرى . لقد نُكب المغرب فى فقده نكبتين ، نكبة البنّاء الصريع فى وسط عمله ، والنكبة التى تلتها .

خلف المنصور ابنه زيدان ، فقام أخواه فارس والمأمون ينازعانه الملك ، فاحترب الإخوة الثلاثة احتراباً دام بضع سنوات ، استولى المأمون خلالها على العرائش ، فباعها للبرتغاليين[1] سنة ١٦١٠ ، لحاجته إلى المال فى محاربة أخيه . وفى هذه الحرب « الأخوية » احتل الإسبان ، سنة ١٦١٤ ، ثغر المعمورة — المهدية اليوم — عند مصب نهر الصَّبُو .

أما زيدان ، فبالرغم عن أنه أريح أخيراً من أخويه — إذ قتل فارس فى إحدى المعارك ، وقتل المأمون غدراً فى ضواحى طنجة — لم يستتب الحكم له ، وما امتاز بغير أنه آخر السلاطين السعديين !

فالمهدى جده أخرج الفرنجة من بعض ثغور المغرب . وعمه عبد الملك ردهم عنها مدحورين خاسرين ، وها هم أولاء ، بفضل هذه الحرب « الأخوية » ، يعودون . فلا عجب إذا ثارت فى البلاد ثوائر الدين والقومية العربية . ولا سيما أن العرب المتخلفين فى إسبانيا طردوا منها بعد فتنة سنة ١٦٠٩ هناك ، فتخلل تلك الثوائر الدينية القومية ثائر الانتقام : أخرجتمونا من إسبانيا ، فسنخرجكم من المغرب ، ولن تعودوا إذاً أبداً !

---

(١) باعها بنصف مليون دوقة ، أى ربع مليون ليرة إنكليزية .

دعا الداعون للجهاد ، جهاد الفرنجة والموالين لهم من أولى الأمر فى البلاد . وكان فى مقدمة الدعاة رجل اسمه أبو حسن على الشريف ، من أشراف الحجاز . هاجر أهله من ينبع إلى المغرب الأقصى ، فتوطنوا سجلماسة فى الجنوب . راح على الشريف يدعو للجهاد بلهجة ملتهبة فصاحة وإيماناً ، فلبى دعوته الناس من بدو وحضر ، وانضم إليه أولئك الذين طردوا من إسبانيا . فعظم أمره ، وانتشرت دعوته ، فاستحالت ثورة على السلطان السعدى زيدان ، ويوم استولى الثائرون على سلجماسة نادوا بمحمد بن على (١٠٥٠ هـ ١٦٤١ م) ملكاً على تفيلالت ، أى المقاطعة الجنوبية من المغرب .

قضى السلطان زيدان نصف مدة ملكه فى محاربة أخويه ، والنصف الآخر فى محاربة أولئك الثائرين ، الطالبين الملك ، الممهدين لدولة جديدة — دولة عربية شريفية علوية . وما كان انتصاره على أخويه ، ولا كانت حملاته على الثائرين لتمحو ما خطته يد القدر فى البداية وفى النهاية من تاريخه ، وهو أنه آخر السلاطين السعديين .

كان الرشيد أخو محمد بن على حامل العلم الأول فى الجهاد ، ومنتصراً فى أكثر مواقعه فعلا نجمه ، وتردد بين القبائل اسمه . هؤلاء الثلاثة العرب : على الشريف صاحب الدعوة ، وابنه محمد زعيم الثورة ، وابنه الرشيد ناشر أعلامها شرقاً وشمالا ، هم الأركان الثلاثة للدولة الجديدة . ويصح أن يقال إن عليا وابنه محمداً مهدا لها ، وإن الرشيد مؤسسها وأول ملوكها . فقد بويع بالخلافة فى ٦ يونيو سنة ١٦٦٦ (١٠٧٥ هـ) ونودى به « ملك تفيلالت وفاس ومراكش وترودنت وسائر المغرب » .

ولكنه كان قصير العمر . فبعد ست سنوات من جلوسه على العرش بفاس ، يوم كان عائداً من ساحة القتال ، وقد أخمد فتنة أضرمها ابن عم له ، جفل جواده فى حديقة القصر ، فاصطدم الملك بشجرة ، فشج

رأسه شجة قضت عليه ، وهو فى الأربعين من سنه .

أما أخوه إسماعيل ، الذى تبوأ العرش بعده ، فقد عاش طويلا ، وملك سعيداً خمسة وخمسين سنة (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وهو أحد الثلاثة السلاطين العظام فى تاريخ المغرب .

ذكرت — وأنا أقرأ أخباره — الملك عبد العزيز بن سعود ، فقد كان إسماعيل فى زمانه مثل عبد العزيز فى زماننا ، موحّد البلاد ، مؤدب البادية ، معزّز الأمن ، ضابط الأمور بيد من حديد ، وبقلب — غير قلب عبد العزيز بن سعود — بقلب لا يعرف الشفقة والحنان ، حتى فى أخص أهله — فى الحريم .

فقد كان إسماعيل مزواجاً عجيباً ، لزم الحد فى الشرعيات ، وما عرف حداً لما جاء فى الآية : « وما ملكت أيمانكم » . وكان فخوراً بذريته التى تجاوزت المئتين عداً ذكوراً وإناثاً .

تحدث العارفون من الفرنجة الذين زاروا المغرب وأقاموا فيها ، عن حريم إسماعيل فقالوا إنه مثل حريم النبى سليمان ، فيه ما لا يقل عن الخمسمائة من النساء البيض والسود ، وبينهن شقراء إنكليزية .

وقد أراد إسماعيل أن يضيف إلى ما ملكت يمينه فرنسية من فرنسا ، من باريس ، من الذرية الملكية . فطلب من لويس الرابع عشر ابنته المدموازيل ده كونتى من محظيته لويزا ده ڤاليار ، وكان قد وصف له محاسنها سفيره إلى ملك الفرنسيين العظيم ، وقال إنها تقبل أن تتغرب — وتتجرب — وتعتنق فوق ذلك الإسلام . ولكنها لم توافق إلى ما كان يشتهيه قلبها المجنح — فتغربت وتجربت فى باريس . قال المؤرخ : عندما طلبها السفير المغربى كان الجواب ابتسامة ناعمة — فرنسية الذوق والمعنى ، ولكن أحد رجال البلاط قال للسفير ، ولماذا لا يصير مليككم مسيحياً ؟

كان لويس الرابع عشر فى الرابعة والثلاثين من سنه والتاسعة والعشرين من ملكه ، يوم بويع إسماعيل بالخلافة وهو فى السادسة والعشرين فتعاصر الملكان ثلاثاً وأربعين سنة ، وتشابها فى طول عهديهما . فقد ملك لويس اثنتين وسبعين سنة منها ست عشرة سنة بوصى ، فيكون حكمه الشخصى الفردى ستًّا وخمسين سنة . وملك إسماعيل خمساً وخمسين سنة كاملة .

ولو كان لويس ملك المغرب ومنه لكان حريمه كحريم إسماعيل وأعظم . ولو كان إسماعيل ملك فرنسا لكان فى تسريه كلويس الأكبر .

وقد تشابه الملكان بالاستقلال والاستبداد فى الحكم فما كان يطيقان المعارضة ، ولا يأذنان برأى مخالف للرأى الملكى . كلمة لويس : (L'Etat c'est moi) كان يقولها إسماعيل بلهجات شتى ، أو بالحرى فى شتى أعماله كل يوم . وقد تشابه الملكان فى أن الفرنسى كان يحسب نفسه ظل الله على الأرض والعربى المغربى يُدعَى خليفة الرسول . إلا أن العقلاء من رجال « ظل الله » كانوا يبتسمون ويتهامسون . وأهل المغرب يبايعون على الخلافة ولا تهامس ولا ابتسام . وقد تشابه الملكان فى مطامعهما السياسية ، فشاء لويس أن يبسط نفوذه فى كل مملكة من ممالك أوربا . وشاء إسماعيل أن يكون سيد المغرب بل سيد أفريقيا الشمالية جمعاء . شعر لويس بشىء من عظمة سيد المغرب فواصله ليدنيه من ظل سيادته ونفوذه ، وأدرك إسماعيل عظمة لويس فأرسل سفيره إليه متوددًا متقربًا .

ويوم عاد السفير من باريس وصف لمولاه محاسن قصر ڤرساى ومفاخره ، فعول إسماعيل على أن ينقل ذلك القصر إلى مكناسة ، ويزيد عليه ، لا لشغفه بالبناء فقط ، بل حبًّا بالمنافسة والمفاخرة . ومما شيده قصر القصبة ، فكان مدينة بذاته ، والحصون الثلاثة المحدقة به ، ومدينة الرياض لكبار الموظفين ،

فبلغ عدد العمال فيها ثلاثين ألفاً عدا ألفين معهم من أسرى النصارى[١] .

كان لإسماعيل حبان يسيطران على قلبه وعقله وروحه : ذكرت أحدهما وهو حبه للنساء . وأما الثانى فهو حبه للمال ، كان يبتزه خصوصاً من اليهود .

وكان فخوراً بذريته ، كما قدمت ، وبعبيده السود العماليق . لهؤلاء العبيد شأن فى القصر وفى المملكة . استجلبهم إسماعيل من السودان ، وأسكنهم دوراً فى ضواحى العاصمة . فكان يحسن إليهم ، ويعتنى حتى بزواجهم ، ويجيز الأذكياء بأن يعلمهم الصناعات .

كان حرس القصر الخمسمائة من هؤلاء العبيد . وكان منهم العمال فى سائر الأنحاء ينفذون أوامر المولى ، ويوطدون أركان الأمن والملك فى البلاد .

قال المؤرخ : كان إسماعيل يستحلف أولئك العبيد على كتاب البخارى بالإخلاص له ولملكه فسموا « البخاريين » .

أضف إليهم الجنود ، وبينهم كتيبة من الأجانب ، أنشأها من شتات الأوربيين اللاجئين إلى المغرب — أمخترعون الفرنسيون فى كتائبهم الأجنبية أم مقلدون ؟ — ومن الأسرى الذين كان يجىء بهم القرصان . ذى هى القوى المسلحة التى كانت تمثل مشيئة المولى الرهيبة ، وإرادته العالية وغير العالية . فأصبحت بلاد المغرب فى عهده بلاداً واحدة ، طائعة خاشعة ، آمنة مطمئنة . كانت البوادى حتى أعالى الأطلس تخشى إسماعيل وتقول : فى البلاد اليوم سيد جبار !

كان إسماعيل طويل القامة شديد البنية ، مخروط الوجه ، مقرون اللحية ، براق العين ، ناعم النظرات . وما فقد فى شيخوخته نشاطه الوثاب ، وروح

---

(١) كان القرصان المسلمون يأتون بالأسرى والسبايا من النصارى إلى المغرب فيبيعونهم بيع الرقيق ويبقون مسترقين إلى أن تفديهم حكوماتهم أو أهلهم . وكذلك كان يفعل القرصان المسيحيون بالأسرى المسلمين .

المرح والشباب . قال أحد الفرنجة الذين زاروا المغرب إنه رأى السلطان الشيخ راكباً ذات يوم حصانه ، وقد حمل أحد أبنائه الصغار بيد والرمح بالأخرى . وإنه كان يمتطى جواده من الأرض فى وثبة واحدة كالفارس المغوار .

وكان إسماعيل ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر . كما أنه كان قاسى القلب ، سريع الغضب . بل كان فى غضبه رهيباً . فلا يجرؤ أن يدنو منه ساعتئذ أحب الناس إليه . لقبه الفرنجة بالدموى ، لأن الدم كان يجرى من مركز سيافه بمكناسة كل يوم . وإنه ليصفه عرب البادية بشىء من الهيبة والإعجاب قائلين : هذا ملك يقطّ الرؤوس .

هو المولى إسماعيل الذى جدد فى المغرب مجد يوسف بن تاشفين ، وقدم من الحسنات ما قد يشفع لدى الحكم الأعلى .

ومن ذنوبه ما جناه أبناؤه على المغرب . مسكين هذا المغرب . فهل هو غير نسمة من روح العرب ، وقطعة من عقلية العرب وفلذة من كبد العرب ؟ !

فإن مات منا سيد قام سيد . . . ! لا وربك الأعلى . فإن مات منا سيد قام سادة يتقاسمون ملكه — يتحاربون ويتطاحنون ، فيهلكون ولا يملكون ، ولا يخسر الخسارة الكبرى غير الشعب المغربى .

شيد إسماعيل للسيادة العربية المغربية صرحاً عظيماً ، فانهار ذلك الصرح بعد موته ، وقامت عليه بوم الخراب . انتقضت القبائل على كل ذى أمر ودعوة . أضرب الأسرى عن العمل فى تشييد القصور . قام العبيد « البخاريون » يدعون السيادة العليا فى الأحكام . حاول الأتراك من الخارج ورجال الدين من الداخل أن يقتسموا الإرث العظيم . . .

وأبناء إسماعيل فى هذه الغمرة من الفوضى يتنازعون الملك ويتحاربون . فقد جلس المولى عبد الله على العرش وسقط منه ست مرات فى خلال عشرين

سنة من الفتن والحروب .

وكان الأوربيون يسعون لتخليص أبناء بلادهم من الأسر . بل من ذلك المغرب الهائج ، المتلاطمة فيه أمواج الفوضى ، فباع عبدالله الإسبان والإنكليز والفرنسيين أسراهم لاحتياجه إلى المال .

أما المولى محمد ، خلف المولى عبدالله ، فقد حاول أن يجدد سياسة أجداده الداخلية فى حملاته على غلاة الدين ، وعلى القبائل المتمردة ، فكان توفيقه كنور الشمس الغاربة بين أكداس من الغيوم . وقد حمل على البرتغاليين والإسبان ليخرجهم من ثغور المغرب ، فتوفق فى إخراج البرتغاليين من معقلهم الأخير — مازغان — وأخفق فى مليلية فثبت بها الإسبان .

وكان خلفه المولى سليمان أكثر توفيقاً منه فى ترميم أركان الملك وتوطيدها ، وفى تعزيز شئون المغرب الخارجية ، لولا السياسة الأوربية الأفريقية الجديدة التى بدأت تقرن الغزوات الاقتصادية والمالية بالغزوات الحربية فى عهد هذا السلطان ، وقد توفقت التوفيق الأكبر يوم احتل الفرنسيون الجزائر (٥ يوليو ١٨٣٠) أى فى عهد ابنه المولى عبد الرحمن .

وفى احتلال الجزائر بداية احتلالها لجميع أنحاء أفريقيا الشمالية الغربية[1] .

---

(١) راجع الفصل الأول .

البيت العلوى

فى المغرب

على الشريف	(١٦٣٠ م)
محمد بن على	(١٦٤١م)
الرشيد بن على	(١٦٦٦ – ١٦٧٢)
إسماعيل بن على	(١٦٧٢–١٧٢٧)
محمد بن إسماعيل	
عبد الملك بن إسماعيل	(١٧٢٧–١٧٥٧)
عبد الله بن إسماعيل	
محمد بن عبدالله بن إسماعيل	(١٧٥٧–١٧٩٠)
يزيد بن محمد بن عبدالله	(١٧٩٠–١٧٩٢)
سليمان بن محمد بن عبد الله	(١٧٩٢–١٨٢٢)
عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبدالله بن إسماعيل	(١٨٢٢–١٨٥٩)
محمد بن عبد الرحمن	(١٨٥٩–١٨٧٣)

البيت العلوى

فى المنطقتين الجنوبية والشمالية من المغرب

محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبد الله
ابن إسماعيل بن على الشريف (١٨٥٩ – ١٨٧٣)

فى المنطقة الجنوبية		فى المنطقة الشمالية
السلطان الحسن بن محمد	(١٨٧٣–١٨٩٤)	المولى إسماعيل بن محمد
السلطان عبد العزيز بن الحسن	(١٩٠٠–١٩٠٧)	الخليفة المهدى بن إسماعيل بن محمد
السلطان عبد الحفيظ بن الحسن	(١٩٠٧–١٩١٢)	(١٩١٣–١٩٢٣)
السلطان يوسف بن الحسن	(١٩١٢–١٩٢٧)	الخليفة الحالى الحسن بن المهدى
السلطان الحالى محمد بن يوسف	١٨ نوفمبر ١٩٢٧ : ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٦ وعمره إذ ذاك ١٧ سنة	ربيع عام ١٣٤٤ – نوفمبر ١٩٢٥

الفصل الحادى عشر

المخزن والمخزنية

من الألفاظ الشائعة فى المغرب ، دون سواه من الأقطار العربية ، ألفاظ ذكرت فى القاموس ، وما ذكر أصلها ولا ذكر فى الأقل أنها مغربية الاصطلاح ، كالحبس والبرنس والمخزن .

فقد جاء فى القاموس المحيط للفيروزابادى ، فى أول فصل من باب السين ، الحبْس المنْع . حبسه منعه . والحبَّس كركع كل شىء وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غلة يحبّس أصله ، وتسبل غلته .

وليس فى المغرب اليوم من يقول المحبس والمحبسات ، إذا أراد الأوقاف أو الأحباس .

أما صاحب محيط المحيط ، المكمل للفيروزابادى ، والناقل أغلاطه ، القليلة أو الكثيرة — القليلة بموجب علمى ، وهو قليل — فهو يقول : الحبس جمعها أحباس ، أى ما وقف فى سبيل الله .

هذا صحيح فصيح . ولكن القاموسين الكريمين لا ينصفان اسميهما فى هذه اللفظة ، لأنهما لا يحيطان بمعانيها واصطلاحاتها كافة . فلا ينبئان طالب العلم الحديث أن الحبس والأحباس ينحصران فى المغرب ، ولا يقال فى الأقطار العربية الأخرى غير وقف وأوقاف .

أما البرنس ، بالضم (العفو ، إنى الناقل لهذا التدقيق) ، فهو — كما يذكر صاحب « القاموس المحيط » وصاحب « محيط المحيط » — : قلنسوة

طويلة كان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام ، أو كل ثوبٍ رأسُه منه ، دراعةً كان أو جبَّةً أو ممطراً .

فهل أحاط المحيط ومحيط المحيط علماً بالموضوع ؟ هل نزعا القلنسوة عن رأس هذه المادة فنتعرف أصلها ؟ أوَجاءت من المشرق إلى المغرب ، أم انتقلت من المغرب إلى المشرق ؟

أستأذن أئمة اللغة بأن أكمل ما جاء ناقصاً فى قاموسى العلامتين الفيروزابادى والبستانى ، فأقول : البرنس لفظة بربرية مشتقة من اسم قبيلة قديمة من قبائل البربر اسمها البرانس . وقد تقول أنت إن هذه القبيلة جاءت من الشرق ، من البلاد العربية ، تلبس البرانس ، فسميت بهذا الاسم ، وقد يصح قولك ، ولا ينفى قولى . وفى كل حال فإن البرانس اليوم لبس المغاربة دون سواهم من الشعوب .

بقيت الثالثة من الألفاظ التى ذكرت ، وهى المخزن ، عنوان هذا الفصل : فاللفظة ظاهراً عربية ، بشهادة الفارسى الفيروزابادى واللبنانى البستانى . فالأول يقول : خزن المال أحرزه . والمخزن كالمقعد مكان الخزن . والثانى يزيد على عادته : خزن المال . . . أحرزه واذخره وضعه فى الخزانة . ثم يستطرد قائلا : خازن الأمير الأمين الذى يتولى حفظ ماله وإنفاقه . وخزين الملك خازنه . والمخزن المكان الذى تخزن فيه الأشياء . فيوصلنا فى النهاية إلى المعنى المقصود . أما المعانى الأخرى فلا دخل لها فى ما يراد من اللفظة اليوم فى المغرب الأقصى . ولا دخل للمال لغويًّا — فى المخزن .

هذه اللفظة فى وضعها واصطلاحها مغربية محض . وضعت قبل صاحب محيط المحيط بمئتى سنة ، وقبل آخر من كتبوا على القاموس المحيط ، وهو من المغرب ، أى العلامة الفاسى المعروف بابن الطيب بمئة ونيف من السنين . ومع ذلك فلا هو ولا البستانى أضاف إلى المادة ، فى الشرح أو فى

الصلب ، اصطلاحها المغربى . واللوم الأشد على ابن الطيب ، ابن البلاد ، بلاد المخزن .

على أنا إذن ، أنا الفقير إلى رحمة أئمة اللغة قديماً وحديثاً ، أن أكمّل شرح العلامة الهورينى ، الذى رأى شرح الإمام ابن الطيب الفاسى ، الذى دلق على كتاب القاموس « دويات » من علمه ، وكان عمدة الهورينى فى هذا الفن[1] .

باسم الله وعليه توكلت .

كانت قبائل المغرب فى الماضى على عداء دائم وأهل المدن ، فتروعهم وتغزوهم ، وتقطع عليهم الطرق — تسلب وتنهب وتأسر وتسبى متى تشاء ، وكما تشاء ، ولا غالب غير الله .

وكان الحكم الشرعى القانونى ينحصر فى السلطان ووزيره — إذا كان السلطان موفقاً به — وبعض الكتاب والحجاب . فيجلس صاحب الجلالة للناس ، أو يجلس نائبه ، وإلى جانبه رجل يحمل الكرباج أو العصا[2] فينفذ أحكامه فى الحال إن كانت دون قط الرؤوس ، وإلا فالسياف ينفذها بعون الله .

استمرت هذه الحال حتى عهد السلطان السعدى ، الذى حدثتك عنه فى الفصل السابق ، وذلك السلطان المنصور الكثير الألقاب — الذهبى ، فاتح السودان ، عالم الخلفاء وخليفة العلماء — واضع النظام الذى هو الآن موضوعنا .

فقد أراد المنصور الذهبى أن يضبط القبائل بالسياسة والمصانعة ،

---

(١) « ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوى أبى عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسى المولود بفاس سنة ١١١٠هـ (١٦٩٨م) والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ (١٧٥٦م) وهو عمدتى فى هذا الفن » (شرح ديباجة القاموس) للعلامة نصر الهورينى .

(٢) كان مندوب السلطان فى طنجة يجلس للناس عند البوابة التى لا تزال تدعى بوابة العصا .

فيقربها منه ويشركها فى الحكم ليأمن شرها . أويتخذ له حزباً منها ، إذا استحال توحيدها فى طاعته ، فيشقها ويضعف شوكتها . لذلك أنشأ النظام المخزنى نسبة إلى المخزن الذى يخزن فيه السلاح ، ليكون سيفه فى البلاد ، وترسه فى القبائل .

إنه إذن لذو صفتين سياسية وعسكرية . فالسياسية تنحصر فى القبائل ، كما قدمت . وقد منح المنصور الموالية منها الامتيازات ، وأعفاها من بعض الضرائب ، وولى زعماءها القيادة المخزنية ، فنصرته على المناوئة المعادية منها .

أما صفة المخزن الأساسية — العسكرية — فهى حفظ الأمن فى البلاد بواسطة باشاوات فى المدن وقواد فى القبائل ، يعينهم السلطان ، ويكون لهم من المخزن قوة مسلحة تنفذ أحكامهم وأوامرهم .

هذه القوة شبيهة بالدرك . ولكنها توسعت فى اختصاصها ، فشملت فرعاً من القضاء واختلطت سلطتها ، حيناً بعد حين ، بسلطة الشرطة . ثم استمرت فى مدارج التطور ، طرداً وعكساً ، تفاقماً وتضاؤلا ، حتى عهد السلطان إسماعيل ، فكادت تضمحل . ولا عجب ، فقد كان إسماعيل ، كما ذكرت فى الفصل السابق ، الكل فى الكل .

ولكن المخزنية هذه عادت بعده تشارك فى حكومة البلاد ، فتجدد سالف عهدها فى حالتى القوة والضعف ، بحسب ما كان من صفات السلاطين الشخصية فى سياسة الملك . واستمرت كذلك حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فتطورت فى عهد السلطان حسن بن محمد (١٨٧٤ — ١٨٩٤) تطوراً متشعباً جسيما .

فقد كان للصدارة العظمى كتاب أو نواب فى المناطق كلها . فانحصرت السلطة فيها أو كادت . فأعاد الحسن تنظيم الحكومة المخزنية لتشاطر الصدارة السلطة ، فيحول التوازن دون التجاوز ، وتبقى السلطة العليا فى البلاد — السلطة

الشريفية العلوية — محترمة معززة .

اشتمل التنظيم المخزنى الجديد على ما يصح أن نسميه وزارة كاملة ، مؤلفة من رئيس الوزراء وأمير البحر ، ووزير الحربية ، وأمين الأمناء (وزير المالية) وكاتب الشكايات الذى انتحل بعدئذ وظيفة قاضى القضاة ثم صار وزير العدلية

وكان « المشور » فى القصر شبه مجلس سلطانى ، يتلوه مكتب الحاجب ، وهو الحجاب والصلة بين السلطان ورعاياه . بل كثيراً ما كان الحاجب صاحب النفوذ الأكبر فى القصر . فيسيطر حتى على الحكومة المخزنية .

وقد كانت السلطة المخزنية ، فى المدن وفى البوادى ، تؤثر فى السلطة المحلية وتسيطر فى بعض الأحايين عليها ، بواسطة القواد والباشاوات الذين يعينهم رئيس الوزراء ليشرفوا على المحتسبين ، ويجبوا الخراج ، ويقضوا فى الدعاوى الصغيرة المدنية والتجارية والجزائية . ولكنهم كقضاة صلح كانوا يعدون صلاحيتهم إلى ما هو من صلاحية قضاة الشرع فقط . أو أن وظيفتهم لم تكن واضحة الحدود ، فتختلط بحدود قضايا الإرث والأحوال الشخصية .

هذه الحكومة المخزنية ، التى تدعى أيضاً « المخزن »[1] ، قائمة اليوم فى أصولها وفروعها فى المنطقتين السلطانية والخليفية[2] ، ولا تزال فى تطور إيجابى وسلبى ، وإن اختلف عما تقدمه بعض الاختلاف . فالحوافز اليوم غير ما كانت . والسلطة الواسعة التى تمتد بنفوذها وأحكامها إلى ما هو خارج عن صلاحيتها أمست عرضة للاحتجاج والشكوى بدعوى الصحافة الحرة والمنبر الحر ، وعلى الأخص فى المنطقة الخليفية .

---

(١) ويقال كذلك « المخزن الشريف » وهو فى اصطلاح المغاربة اليوم الحكومة المغربية الوطنية التى على رأسها جلالة السلطان .

(٢) أى منطقة الحماية الفرنسية والأخرى الإسبانية .

لنعد إذن إلى هذه المنطقة ، منطقة رحلتنا ، نواصل فيها البحث . على أنه من الواجب ، قبل استكشاف وجوه الشكوى وأسباب الاحتجاج ، أن أصف موجزاً نظام المنطقة القضائى . فالمحاكم فيها تقسم قسمين : محاكم شرعية تنظر فى قضايا الأحوال الشخصية والعقارية والإرث ، بموجب الشرع الإسلامى ومعاهدتى مدريد والجزيرة ، ومحاكم مخزنية تنظر فى القضايا الأخرى التجارية والمدنية والجزائية . هذه المحاكم يرأسها الباشاوات فى المدن والقواد فى القبائل . وقد يكون الباشا أو القائد القاضى الوحيد فى بعض الأحايين .

وفى هذه المنطقة محكمة استئناف شرعية ، رئيسها وزير العدلية ، لها فروع فى الإيالات الخمس ونواحيها . ففى الإيالة الغربية مثلا قاض للاستئناف فى كل من المدن الثلاث ، أى العرائش والقصر الكبير وأصيلة ، وفى كل محكمة شرعية من محاكم القبائل الست وهى : بنو غرفط وبنو عروس وأهل سْريف وسوماته وبنو يسف وبنو زكار . وكذلك فى الإيالات الأخرى .

أضف إليها المحاكم اليهودية : محكمة عليا فى تطوان مؤلفة من حاخام رئيس وحاخامين قاضيين ، وثلاث محاكم عدلية فى تطوان والعرائش والناضور .

أما المحاكم العدلية الإسبانية فهى إحدى عشرة : محكمة عليا فى تطوان ، وثلاث محاكم ابتدائية فى تطوان والعرائش والناضور ، وست محاكم صلحية فى المدن الثلاثة المذكورة وفى القصر الكبير وسنخرخو وأصيلة .

ولكن القضايا الجزائية كلها ، ما عدا الإسبانية منها ، يقضى فيها باشاوات وقواد المخزن ، ومرجعهم واحد فى صفتهم المزدوجة ، القضائية والتنفيذية ، هو مرجع المحاكم الشرعية ، أى الوزارة العدلية . فلو جرد هؤلاء الموظفون من صفتهم القضائية لكان ينبغى أن تكون الصدارة العظمى مرجعهم مباشرة . وفى ذلك ما فيه من الاقتصاد فى الأعمال الإدارية .

قلت إن لقواد وباشاوات المخزن صفتين : قضائية وتنفيذية . فيجب

أن يضاف إليهما صفة ثالثة تتعلق بالإدارة المدنية العسكرية الدركية والقضائية معاً . فهى حقاً وظيفة خطيرة ولو رددتها إلى أجزائها الثلاثة لكان كل جزء منها وظيفة مهمة تستوجب فى صاحبها الاختبار والعلم والمقدرة ، فضلا عن الأخلاق العالية .

وها قد وصلنا إلى مواطن الخلل والتجاوز . إن لكل وظيفة من هذه الوظائف الثلاثة : الإدارية والمخزنية والقضائية — شروطاً خاصة فى العلم والممارسة كما قدمت ، وشروطاً عامة فى الأخلاق . وهى غير متوافرة فى موظفى الحكومة المخزنية الحاضرة . بل إن الكفاية نادرة ، إما لضعف فى أخلاق الموظف ، وإما لنقص فى علمه وأختباره .

لذلك يطلب المصلحون إصلاح المخزن ، ويقترحون ويحددون ، فمن اقتراحاتهم أن تنشأ مدرسة خاصة ، ذات برنامج حديث الطراز ، مناسب لتطور الشعب المغربى ، لتخريج طبقة من الموظفين صالحة ، وأن تحصر الوظائف العليا ، الباشاوات والقيادات ، فى المتخرجين من هذه المدرسة .

وبكلمة أخرى هم يطلبون أن تحل الكفاية ، علماً وخلقاً ، محل العصبية العائلية أو القبلية . وإذا عدمت البوادى هذه الكفاية ، فيجب أن يعين لها قواد من غير أهلها . هو عين الصواب نظرياً ، ولكنه عملياً كثير الصعوبات.

وعندى ، وقد خبرت شؤون البوادى فى شبه جزيرة العرب ، أنه يستحيل، لأن سياسة البدو ، وضبط أمورهم وإقامة العدل فيهم ، قلما يحسنها عامل ، من غير أهلها المدربين . فالعصبية القبلية شديدة النزعة ، صعبة المراس ، متأصلة فى طبائع البدو وتقاليدهم ، فيصعب التغلب عليها . وقد لا يجوز فى بلد أكثر سكانه من البوادى ، قبل أن يعم فيه التعليم الابتدائى والثانوى .

أما الفصل بين الوظيفتين التنفيذية والقضائية فهو ممكن ومفيد . بل هو الواجب أصلا ووضعاً . ولا شك فى أن الحكومة الخليفية الإسبانية مدركة

هذا الواجب ، وستقوم به ، إن شاء الله ، فتعين قضاة صلح فى مراكز القيادات ، ذوى كفاية علماً وخلقاً وخبرة ، مرجعهم الوزارة العدلية ، وتحصر القيادة والباشاوية فى صلاحيتهما الأصلية ، فتصلهما مباشرة بالصدارة العظمى فتتوزع إذ ذاك المسؤولية ، وتقل الإساءات .

هذا فى المخزن ، إلى أن تنشأ المدرسة المنشودة لتخريج الموظفين .

وهناك إصلاح فى المحاكم نفسها يطلبه المصلحون . وهو أن يكون لمحكمة الشرع قسمان : ابتدائى وثانوى ، وأن تكون المحاكم الثانوية ثابتة فى المدن ، والابتدائية ثابتة فى المدن متنقلة فى البوادى . بل يجب أن تقسم محكمة الصلح كذلك إلى قسمين : ابتدائى وثانوى ، ثابت ومتنقل . فتنظر المحاكم الابتدائية فى المخالفات والقضايا الصغيرة ، وتقضى الثانوية فى الدعاوى الكبيرة التجارية والمدنية والجزائية . هذا إلى أن يتم الفصل بينها فيستقل بعضها عن بعض ، كما هو الأصل المتبع فى البلدان الراقية الإسلامية وغير الإسلامية .

على أن الإصلاح المنشود لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى محكمة الاستئناف التى يجب أن تكون اليوم محكمتين : جزائية ومدنية عملا بسنة الارتقاء الاجتماعى فى المغرب وفى المشرق .

إنى أذكر هذا الإصلاح المطلوب فى المخزن وفى القضاء لا لأنه واجب وعادل فقط ، بل لأنه أيضاً مظهر من مظاهر التطور فى الشعب المغربى وفى أعمال زعمائه ومصلحيه .

بقى أن أقول ، بعد انتقاد النظام المخزنى الحاضر ، وتحبيذ إصلاحه إن وظيفة « المخازنى » ، كما يدعى هناك ، ليست بالوظيفة المعسلة فى بلاد جبلية مثل المغرب الأقصى ، وأن فى السلك المخزنى غير واحد من طراز ذلك « المخازنى » الشريف ، أول مغربى اجتمعت به يوم وطئت أرض المغرب ، صاحب السبحة أكرمه الله .

ويجب أن أقول كذلك إن فى الباشاوات والقواد من يدركون وجوب الإصلاح ويطلبونه ، وهم يشعرون بخطورة المسؤولية التى يلقيها النظام المخزنى على عواتقهم .

قال لى أحدهم : مهنة المخازنى مهنة مهلكة . ولا جزاء ولا شكر .

قلت : ولا رشوة ؟ ...

قال : الجزاء حلال والرشوة حرام . وسبحان من لا يخلط الحرام بالحلال !

فقلت: وهل مثلك كثير .

فأجاب على الفور : القليل كثير !

أعود إلى اللغويات التى افتتحت بها هذا الفصل ، إلى مادة خزن . فإن من اشتقاقاتها أخزن الرجل : استغنى بعد فقر !

ولكن الإخزان لا يصح فى « المخازنيين » أكثر مما يصح فى الرهبان عندنا فى لبنان . وكما أن فى الأديرة بعض الصالحين ، فكذلك فى المخزن ، فإن أخزن الرؤساء فالمرؤوسون هم هم الذين قال فيهم المسيح : إنهم معنا على الدوام !

بل يجب أن أقول كذلك إن بعض القواد والباشوات تصح فيهم عكس كلمة القاموس ، وقل كلمة المسيح ، ذلك لأن بيوتهم مفتوحة دوماً للضيوف ، وللمستضيفين .

إذن يجب أن نضيف إلى مادة خزن : تمخزن الرجل أى افتقر بعد استغناء !

قال مخزنى عزب ظريف : من تزوج هلك ، ومن توظف مات ، ومن تمخزن مات وهلك !

وقال الشارح : من تزوج هلك وهو حى ، ومن توظف عاش وهو ميت ، ومن تمخزن أى توظف فى حكومة المخزن ، مات و...

دام فهمُك ودامت نعمتُك !

الفصل الثانى عشر

نهضة التعليم

إن عرب المشرق ليجهلون ما فى المغرب الأقصى ، وخصوصاً ما فى هذه المنطقة منه . وقد كان المغاربة لبضع عشرة سنة مضت ، يجهلون ما فى الشرق العربى ، إلا الأفراد منهم ، الذين زاروا مصر وسوريا وفلسطين ، واعتادوا مطالعة جرائدها . على أن علمهم يكاد ينحصر فى الشؤون السياسية ، والنهضات الوطنية ، وقد لا ينفذ دون السطحيات .

أما جهلنا فى سوريا مثلا ، أو فى العراق وشبه الجزيرة ، لشؤون المغرب ، فهو أكثر من جهل المغاربة لشؤوننا . وليس بيننا وبينهم من الصلات التجارية أو الأدبية غير المعنوية ما يزيل شيئاً من الجهل . فإذا أسهبت فى بعض المباحث ، وأفسحت فى صفحاتى للأرقام والإحصاءات ، ولما يعد عندنا من الأوليات وعند المغاربة من المعروف المألوف ، فإن عذرى فى ذلك ما ذكرت من الجهل العام لما عندنا وعندهم على الإجمال ، وما بى من رغبة فى إزالة بعض هذا الجهل . الأوليات إذن مبررة بل واجبة لأن الذى نعلمه نحن يجهله المغربى والذى يعلمه المغربى نحن نجهله .

ولست مستغرباً تجهم بعض القراء فى هذه المواقف الأبجدية . فالواجب فى استعراض الحقائق ، وتقصى الأسباب ، لموضوع مجهول ، وإن كانت تلك الأسباب والحقائق أولية — أبجدية — يوازى فى فوائده ما يُفادَى به من الإيجاز . لا أقول غير ذلك إيضاحاً واعتذاراً !

إن فى المغرب اليوم ، وعلى الأخص فى هذه المنطقة منه ، نهضة وطنية عامة ، تشمل التعليم فى أصوله وفروعه ، وفى شعبه الأدبية والعلمية والدينية والصناعية والزراعية .

بل هى تتجاوز التعليم ، كما سترى ، والفضل فيها لا يُحصر فيُحدَّد . فمنه ما هو منبثق من روح الزمان المتشرب الأشواق البشرية إلى العلم والاكتشاف المنتشر انتشار الأثير فى الأمم ، فيحمل من شعب إلى شعب ، ومن قطر إلى قطر ، الحوافز والمنبهات . ومنه ما هو ناشئ من اليقظة العربية القومية العامة ، ومن تحفز العرب للعلاء الذى أدركه أجدادهم فى قديم الزمان . ومنه ما هو كامن فى تطور الهيئة الاجتماعية تطوراً ماديًّا ، يقرن اقتصادياتها بسياستها ، فيجاهد الناس فى سبيل أوطانهم ، لاستقلالها إذا كانت غير مستقلة ، أو لتوطيد أركانها إذا كانت متزعزعة الأركان ، أو رغبة فى إنماء ثروتها وازدياد قواها لا حبًّا بالثروة والقوة فقط ، بل حبًّا كذلك فى تعميم الرقى والرفاه فى أهلها .

ومن الأسباب المباشرة لتلك النهضة الوطنية ما تبذله فى سبيلها الحكومة الإسبانية الخليفية ، وخصوصاً الإسبانية الحاضرة لا الماضية ، أى حكومة الجنرال فرنكو ، التى يمثلها فى المنطقة إسبانى كريم ، محب للمغرب وأهله حبًّا خالصاً لا تشينه المصلحة ؛ ولا يشوبه الغرض . بل المحب للعرب إطلاقا حبًّا يندر فى العرب أنفسهم ، لأنه حب مقرون بالعلم ، وبالمقدرة على وضع الاثنين موضع العمل . هذا الرجل هو الكولونل ضون خوان بابيسْبَدر المقيم العام ، أذكره حيث لا يتم البحث بدون ذكره ، وأذكره الآن هاهنا ، لما له من الفضل فى النهضة المغربية الوطنية نهضة التعليم . ولست مبالغاً إن قلت هو قطبها ، وروحها ، ومشعل مصابيحها . إنه كل ذلك لا لأنه حاكم عادل فقط ، ولا لأنه رجل مثقف ومحب للثقافة ، ولا لأنه إسبانى جديد يريد أن يحيى روح المودة والتعاون بين العرب والإسبان ، بل لأنه ذو مثل أعلى كحاكم ورجل

مثقف وإسبانى جديد . وإنه ليدهشك ما يستطيع الحاكم أن يعمل فى سنة واحدة من الأعمال الإنشائية متى كان على شىء من مزايا بايبدر . وكانت له الإرادة ، والحب رائدها .

لقد ذكرت فى فصل سابق ما تنفقه الدولة الفرنسية فى المنطقة السلطانية وقارنته بما يُنفق فى هذه المنطقة ، أو بالحرى ما أنفق فى السنة الماضية (١٩٣٨) . لِتُقَمْ الأرقام إذن بالدليل والبرهان على أعمال بايبدر فى حقل واحد من بلاد المغرب هو حقل التعليم .

لقد كانت النفقات فى هذه المنطقة قبل سنة ١٩٣٧ كما كانت نسبةً هناك فى المنطقة السلطانية . بل أقل . أى أن الحكومة الإسبانية الماضية ، فى عهديها الجمهورى والملكى ، لم تكن تختلف فى سياستها الاستعمارية عن الحكومة الفرنسية اللهم إلا بالضعف . فهناك فى الجنوب قوة جبارة تفعل ماتشاء ، وتأخذ ما تريد ، وها هنا فى الشمال قوة خائرة مقطعة الأنفاس تنذر يوماً ويوماً تلين ، فتبطش ولا تبالى ، ثم تندم ولا تهتدى .

نسيت ما وعدتك به . أنستنيه الحكومة المغضوب عليها فى حالى الضعف والقوة ، إن كان اسمها إسبانيا أو فرنسا . لِنَعُدْ إليها فى المواقف التى تأذن بالعودة ، بل تستوجبها .

أما الآن فإليك الأرقام التى تختص بالمدارس ونفقاتها فى المنطقة الخليفية :

سنة ١٩٣٦ : عدد المدارس الابتدائية فى المدن والبوادى (بعضها غير تام التجهيز والبناء) ٣٥ مدرسة .

سنة ١٩٣٨ : عدد المدارس الابتدائية المجهزة كل التجهيز ٥٢ مدرسة . ما عدا المدارس الثانوية فى المدن .

سنة ١٩٣٦ : عدد المعلمين والمعلمات — ٤٨

سنة ١٩٣٨ : » » » — ١٦٠

سنة ١٩٣٦ : ميزانية المعارف — ٥٧١,٥٨٥ بسيطة

سنة ١٩٣٨ : « « « — ٢,٥٢٢,٢٩٠ بسيطة

وهناك مدارس أخرى خاصة وأجنبية — إسبانية — تزيد نفقاتها على نصف المليون بسيطة . فتكون ميزانية التعليم ثلاثة ملايين بسيطة ، أى خمسة أمثال ما كانت فى الماضى .

أما المدارس الأهلية فسبع منها للبنات يدرس فيها ألف ومئة تلميذة ، وأربع صناعية يتعلم اليوم بإحداها مئة وخمسون طالباً ، والثلاث الأخرى فى طريق الإنشاء . كما أنه سيتم قريباً إنشاء مدرستين للزراعة .

وأما عدد الطلاب فى المدارس كلها فقد بلغ ٤,٧٩٠ طالباً وطالبة فى سنة ١٩٣٨ . وهو عدد قليل إذا اعتبرنا عدد السكان فى المنطقة وهو ثمانمائة ألف نفس وافترضنا أن خمسهم ، أى مائة وستين ألفاً هم دون الخمس عشرة سنة ، وأن نصف هؤلاء من بنين وبنات ، يجب أن يكونوا بالمدارس . فالخمسة الآلاف الذين يتلقون العلم اليوم هو عدد قليل جداً . ولكنه كثير بالنسبة إلى ما كان منهم بالمدارس فى الماضى .

ولا يفوتنك أن الحكومة فى مستهل أعمالها ، وأن الزيادة التى تقدم ذكرها فى عدد المدارس والمعلمين والتلاميذ وفى قيمة الميزانية ، إنما هى نتيجة ما بذلت من الجهود فى السنة الواحدة أو السنتين ، والعمل مستمر على ما يعترضه من الصعوبات . فالمشكل الأهم الذى يستحيل حله بظهير أو بالأوامر العالية هو مشكل المعلمين .

فهمت أن الحكومة تستطيع أن تبنى من المدارس فى بضع سنوات ما يكفى الثمانين ألف طالب وطالبة . فمن أين تجىء بالمعلمين والمعلمات ؟ إنها تحتاج إلى ألف وستمائة معلم ومعلمة لتعليم ثمانين ألفاً من البنين والبنات . ولا يتيسر وجود العشر من هذا العدد فى المنطقة اليوم . هذا المشكل لا يحل إلا تدريجاً ،

بعد أن تنشئ الحكومة داراً للمعلمين . وعندئذ لا تحل فى أقل من خمس عشرة سنة . فالحكومة العراقية التى باشرت منذ عشرين سنة التعليم الثانوى وأسست بعد ذلك دار المعلمين ، لا تزال تحتاج ، فى مواصلتها العمل المعمم للتعليم الثانوى ، إلى أساتذة تستجلبهم من مصر ولبنان وسوريا .

لقد أدركت حكومة المنطقة وجوب الاستعانة بمن تقدم المغرب من الأقطار العربية فى مدارج التعليم . فباشرت قبل مجىء الكولونل بايبدر ، العمل المبشر بحل مشكل المعلمين حلا طبيعيًا وطنيًا ، وذلك ببعثتين من الطلبة المغاربة إلى مدرسة النجاح بنابلس ، الأولى فى سنة ١٩٣٠ ، والثانية بعدها بثلاث سنوات . هى الخطوة الأولى فى حل القضية ، تلتها فى سنة ١٩٣٨ خطوة أخرى أكبر منها ، يوم فتح « بيت المغرب » بمصر ، حيث يقيم أربعون من الطلبة ويتلقون شتى العلوم فى المعاهد المصرية .

فهل اكتفى الكولونل بايبدر بذلك ؟ وهل يقوم المشروع الذى باشره ، وهو أن يزيد عدد المدارس ونفقات التعليم ، إذا انتظر ثمار البعثات المغربية ؟ تلك البعثات مفيدة ولا نكران . ولكنها بطيئة النتيجة العملية ، فيجب أن تلحق ببعثات أخرى من المشرق إلى المغرب . يجب أن تعكس الآية . وما لبث المقيم العام الجديد أن فعل ذلك . فأرسل إلى مصر ولبنان يجتلب المعلمين العصريين فى الثقافة وأصول التعليم . اجتلب ستة من مصر[١] . وخمسة من لبنان[٢] .

هؤلاء الأساتذة هم الخميرة التى ستخمر التدريس المغربى ، بل هم

---

(١) الأساتذة حسين الأبيارى وعبد الله الجليل خليفة وحافظ متولى ويونس مهران وحسين أمين ومحمد وهبى .

(٢) الأساتذة ألفريد البستانى وأنطون عيد البستانى وموسى عبود ونجيب ملهم وحسن عسيران .

والبعثات المغربية إلى الشرق العربي مشتركون فى الرسالة الواحدة التى تقوم بواجبين مهمين ، واجب التعليم فى المنطقة ، وواجب التعارف والتعاون بينها وبين الأقطار العربية الأخرى . هم الطليعة لنهضة التعليم . هم الحاملون المصابيح المنيرة اليوم لزاوية صغيرة من المغرب ، المشتعلة غداً فى جميع أنحائه الشمالية والجنوبية .

وعملا بالكلمة المأثورة : « الفضل للمتقدم » ، علىّ أن أنوه باسم اثنين من روّاد التعارف والتعاون بين المغرب والشرق العربى ، اللذين ساعدا المقيم العام فى تحقيق رغبته فى جلب الأساتذة من لبنان ومصر ، هما السيد حبيب سعادة والأستاذ المكى الناصرى .

وللسيد حبيب فى هذا الصدد حبة المسك . فهو من أولئك اللبنانيين المتغربين الرافعين اسم لبنان عالياً بما أوتوا من المواهب العقلية والخلقية ، وبما لهم من همة وإقدام ، كسلفه فى المنطقة الشيخ عبد الله الدحداح رحمه الله ، وكزميليه فى القنصلية الأميركية بطنجة وفى الحكومة الإيطالية بطرابلس المغرب ، الشيخ ميشال الخازن والأستاذ عبود أبى راشد .

هؤلاء اللبنانيون المتغربون ، والأساتذة إخوانهم القائمون بمهنة التعليم اليوم — البستانى وعبود وعسيران — هم من المهاجرين بمعنى الكلمة الوضعى ، ومن غير المهاجرين بمعنى المهمة الشريفة التى يقومون بها . هم من أزاهر الأدب ، وصنوبر الأخلاق ، من قلب لبنان وروحه ، بل هم المصابيح التى تحرق أنوارُها أصحابَها . وهى تنير الأصقاع القصية من البلاد العربية . فقبيح بلبنان نسيانهم . وواجب على هذا القلم الذى يطيب له الدفاع عن لبنان الأدب والعلم ، ويدفع عنه كل قبيح وأذى ، أن يشيد هنا بذكرهم .

أجل إن الفضل للمتقدمين ، لحاملى المشاعل فى البوادى والجبال والسواحل والسهول . وسيزداد عددهم غداً لأن كبير المتقدمين ، الكولونل بايبدر يواصل

استجلاب الأساتذة من مصر ولبنان وسوريا — من المسلمين والمسيحيين — لتتم الرسالة التى باشر نشرها ، فيعم خيرها المنطقة كلها بل المغرب أجمع . فليحفظ المتأخرون ، وإن كثروا وعظم شأنهم ، طيب الذكرى لمن تقدمهم من إخوان الصفاء .

وعلىّ أن أقول كذلك إن الحكومة تتحرى الكفاية فى اختيار المعلمين . الكفاية العصرية ، العلمية والخلقية ، وخصوصاً لأنهم العاملون فى أسس النهضة ، فلا يقوم البناء على السخف والفساد ، أو على التقاليد البالية .

من هذه التقاليد مثلا فى التعليم القديم أن أذن الصبى فى ظهره لا يسمع بغير العصا . وليس بين المعلمين اليوم ، المغاربة وإخوانهم المشارقة ، غير بعض الشيوخ — معلمى القرآن ويعرفون بالمدرّرين — من يرى هذا الرأى أو يقبل أن يعمل به . ومع ذلك فإن فى قانون نظام المدارس مادة تحرم العقاب البدنى .

وقد أدخل حديثاً فى برامج التعليم ، الابتدائى والثانوى والعالى ، ما هو من أهم الإضافات العصرية فى التثقيف العقلى والجسدى ، وفى التمرين على التنظيم والاجتماع أى الجمعيات المدرسية الأدبية والرياضية والكشفية . نعم لقد وصلت الكشافة وكرة القدم إلى المغرب . ووصلت معها روح إمام التربية الحديثة پستالوزى . فعلى المعلمين عملا بالمبادئ الپستالوزية أن يشتركوا فى هذه الجمعيات لتنشأ بينهم وبين التلاميذ صلات المودة وأصول المعاملة الأخوية فى التعليم والتربية . أما أن أكثر أساتذة اليوم مصريين كانوا أم لبنانيين أم مغاربة متشربون هذه المبادئ فما لا ريب فيه . وحسبى أن أنقل كلمة من خطبة الأستاذ حافظ المتولى ، فى «المدرّس» ألقاها من محطة الإذاعة العربية بتطوان ، قال بعد أن نوه باسم المربى السويسرى الشهير پستالوزى : « المدرس شخصية قبل كل شىء . فنفوذه الشخصى المبنى على العطف والحكمة والاستقامة

والانتصار للحق ، يفسح له السبيل إلى قلوب تلاميذه ، فيمتلكها بحبهم واحترامهم له ، فيؤدون واجباتهم بسرور ، ويقبلون على التعليم بلهفة ورغبة » .

ومما يبشر بزيادة الخير للمغرب الطالب العلم هو أن إخواننا هؤلاء الرواد ، المصريين واللبنانيين ، قد جابوا أقطار التعليم الحديث ، روحاً وفنّاً وعملا ، وآلوا على أنفسهم أن يؤدوا خير ما جنوه من ثماره إلى أبناء الأمة الذين انتدبوا لتعليمهم .

وإني أنقل كلمة أخرى قالها زميل المتولى الأستاذ الأبيارى فى الخطبة التى أذاعها راديو تطوان ، فى الأغراض من التعليم ، ثم أيدها بقرارين للمؤتمر الدولى السادس عشر للتعليم الثانوى المنعقد فى رومة سنة ١٩٣٤ ، أحدهما أن الغرض الأساسى من المدرسة هو تكوين شعور « خُلقى وطنى » ، والآخر هو أن « الطرق الواجب اتباعها فى التربية يجب أن تستمد من النظم القائمة ، ومن التقاليد الحية لكل شعب ، يضاف إليها تلك التى يسلكها كل مدرس مسوقاً بمواهبه الخاصة واتجاهه الشخصى » .

ثم يقول : إن مجرد حشو العقول بالعلوم ، وشحن الحافظة بالدروس ، وإثقال عاتق الطلبة ، بالواجبات ، كل ذلك يقتل الذكاء ويقبر المواهب ، ويقضى على النبوغ . وإن أفضل التعليم وأفيده هو ما يستعان فيه بالعلوم على فهم شؤون الحياة وإدراك أسرار المجتمع ، وما يرمى دائماً إلى إعداد إنسان قادر على التفكير ، جدير بأن يعتمد على نفسه فى تأدية رسالة خاصة فى الهيئة الاجتماعية .

هو ذا أبعد مدى التعليم والتربية حتى يومنا . وهو معلوم لدى الاختصاصيين ومَن مارسوا مهنة التعليم . إنما الغرض من ذكره هاهنا واجب لأنه خاص بنا نحن العرب ، وفيه التنبيه والبشرى — التنبيه للأقطار العربية التى لا تزال مقيدة بالتقاليد القديمة البالية فى التعليم والتربية ، كاليمن والحجاز ونجد ،

وحضرموت ومسقط وعمان ، والبشرى للناهضة المتقدمة كالعراق وسوريا ومصر . فإن هذا القطر المغربى الصغير ليسلك اليوم المسلك الحديث القويم المناسب لتطور الهيئة الاجتماعية ورقيها ، ولأشواقها فى مواصلة هذا الرقى وذلك التطور .

وإن له فوق ذلك ميزة خاصة ، امتاز بها التعليم فى اليمن والحجاز ونجد ، على عقمه التقليدى ، وهى أنه خالص من التعليم الأجنبى الدينى أو الاستعمارى. لا أثر فيه للرسالات التبشيرية ، ولا لأعمال المرسلين رواد المستعمرين . فالمدارس الإسبانية فى المنطقة هى لأبناء الإسبان المقيمين فيها ، والمعلمون والمعلمات من الإسبان فى المدارس المغربية هم من السلك المدنى المنحصرة مهنته فى التعليم .

وإن من يطالع تقرير مديرية المعارف يعجب لما فى البرامج من الدروس القرآنية والإسلامية ، وليس فيها شىء من الدروس الدينية المسيحية ، ولا من التعليم الأجنبى الاستعمارى . اللهم إذا استثنينا اللغة الإسبانية وجغرافية إسبانيا .

أما فى المنطقة السلطانية فالمعاهد الدينية ومراكز التبشير كثيرة[1] . أنشأتها الإرساليات الكاثوليكية ، بمساعدة الحكومة الحامية . أضف إليها المدارس غير الإسلامية التى يُصبغ فيها التعليم بصبغة الدعاية الفرنسية .

وأما فى المنطقة الخليفية ، فلا تبشير هناك ظاهراً أو خفيًّا ، ولا مبشرين فى أثواب إكليريكية أو مدنية ، ولا دعاية تذكر للدولة الحامية . هو شىء جديد فى المغرب . ذكرته مرة فى محادثتى المقيم العام ، وأكدت له أن أمتن روابط الثقة والولاء بينهم وبين المغاربة تنحل وتضمحل إذا هم أقدموا على عمل

---

(١) بلغ عدد الكنائس ومراكز التبشير سنة ١٩٣١ ، بموجب إحصاء نشرته مجلة « المغرب الكاثوليكى » أربعين كنيسة وثمانين مركزاً ، موزعة فى أنحاء البلاد ، فى المدن والبوادى والجبال ، من الرباط إلى تروودنت ومن الدار البيضاء إلى وجدة وما وراء الأطلس .

فى التعليم يشتم منه روح التبشير فقال : غرضنا الأول والأعلى فى هذه المنطقة ثقافى لا دينى . والثقافة العربية الإسبانية التى نريد إحياءها لا تحيا وتتعزز بغير التعليم المجرد من التبشير . لنا ديننا نحافظ عليه فى بلادنا وفى أهلنا بالمغرب. وللمسلمين دينهم يحافظون عليه فى بلادهم . ونحن نساعدهم فى ذلك . هذا القول، بمعناه لا بحرفه، قاله غير مرة فى محادثاتنا الكثيرة . أجل ، هو شىء جديد فى المغرب . وقل بالتخصيص هو شىء جديد فى السياسة الإسبانية الأفريقية .

هذه السياسة الجديدة الرشيدة تحسِّن الصلات المضطربة ، وتوطد الصلات الطيبة ، بين حكومة البلاد والحكومة الحامية . وهى تمكن من تعاون الحكومتين على التعليم مثلا فى هذه المنطقة . فينظَّم وينشر ويُتقن بالوسائل الفنية والإدارية الحديثة .

والتعاون مثل التجنيد ، إما تطوعاً وإما إجباراً . أعنى أن التئام الإدارتين الشريفية والمقيمية واتحاد الحكومتين الشرعية والحامية ، هما من الممكنات والواجبات — الممكنات بالحسنى ، الواجبات بالقوة . فالحكومة الحامية ، إن كانت فى الجنوب أو فى الشمال ، تعترف بالحكومة الشرعية الشريفية ، وتحترم الظهير ، بل تستوجبه وتحافظ عليه . لا قرار يقرَّر ، ولا قانون يسن ، فى أية دائرة من دوائر الحكم ، بغير ظهير سلطانى أو خليفى .

أما الظهير السلطانى فقد قلت لك ما قاله فى وصفه أحد السياسيين الكبار بطنجة . هو التجنيد الإجبارى . وأما الظهير الخليفى فهو الشبيه بالتطوع . على أن الأمر قد يصاغ بصيغة الاقتراح . لانكران . وقد يعمل به حبًّا وكرامة ، أو بناء على فعل من أفعال المطاوعة ، كجذبته مثلا فانجذب . لا أدعى المعرفة لما يجرى ويحدث وراء أستار المخزن الشريف والمقيمية المجيدة .

ولكنى أعلم أن الإرادتين ، الخليفية والمقيمية ، تجتمعان وتتحدان فى مشاريع التعليم بتطوان . فعندما يقول المقيم العام للخليفة الحسن أو للصدر

الأعظم إن مديرية المعارف تحتاج إلى زيادة مليون أو مليونين من البسيطات فى ميزانيتها ، فالحسن ، دامت حكمته ، لا يتردد فى كتابة الظهير . بل قد يكون أسرع بالأمر من المقيم العام بالاقتراح . فهو المحب ، مثل المقيم ، للعلم . وله فى سبيل التعليم مبرّات منها المعهد الخليفى الذى تأسس بتطوان سنة ١٩٣٧ .

فى هذا المعهد مئة طالب من المدينة ، وستون من الخارج ، يسكنون ويطعمون ويعلمون مجاناً . رئيسه الأستاذ المكى الناصرى ، المثقف ثقافة عالية فى مختلف المعاهد العلمية ، بمصر وفرنسا وإسبانيا . وبرنامجه يشتمل على شعب ثلاث ، هى : (١) التاريخ والجغرافية . (٢) اللغة العربية . (٣) العلوم الطبيعية والرياضية . وللمعهد مكتبة تدعى بيت الحكمة ، ومكتب التبادل الثقافى .

قال الخليفة الحسن فى حفلة الإقناع (يناير ١٩٣٧) إنه يأمل أن يكون أبناء أمته « مغاربة جديرون بإعجاب العالم الإسلامى ، بل العالم المتمدن أجمع ، بديانتهم المتينة ، وآدابهم العالية ، وتقاليدهم القومية ، وبعزائمهم الماضية ، وبغيرتهم الحارة ، وبتربيتهم الصحيحة ، وبإنتاجهم الباهر ، وباستعدادهم الكافى للتفوق فى جميع المرافق الحيوية » .

هى آمال كبيرة ، إن حقق المعهد نصفها فى خريجيه كان موفقاً توفيقاً باهراً .

ومن مآثر الخليفة الحسن فى سبيل التعليم أنه اقترح على الحكومة مشروعاً ، وقد يكون الخطوة الأولى فى تأسيس دار المعلمين ، وتبرع بالخاص من ماله مساعدة له ، هذا المشروع هو إنشاء قسم دراسى فى الصيف يتلقى فيه المدرسون دروساً نظامية فى شتى العلوم ، وفى قواعد التربية وأصول التعليم .

لايصح أن يدعى المعهد الخليفى مدرسة عالية ، فهو شبيه بالثانوية ، وهو فى روحه ومدى أعماله بين الاثنتين ، وكذلك معهد الدروس المغربية الذى يدرّس فيه العربية الأستاذان البستانى وعبود . ولكن البستانى ألفريد هو الحركة الدائمة فى تطوان الموكل بمكتبة المعهد التى تحتوى اليوم على خمسة آلاف من الكتب العربية والإسبانية والفرنسية ، والموكل بالمخطوطات يفتش عنها فى بيوت الحضر ، وعشائر البوادى ، وصوامع الرهبان ، وقد جمع منها حتى اليوم مئة مخطوطة ، ينتخب منها للطبع . والموكل — وكله الله — بشؤون إخوانه اللبنانيين يقيل العاثر ، ويرشد الخاطئين ، وهو لا يزال بين الثلاثين من سنه والأربعين ، وبين ابن رشد من الفلاسفة وسان أوغسطين . وستجتمع فيما بعد بألفريد اجتماعات لا تستكثرها ، لأنه المختار — من لطف الله والمقيم العام — لمرافقتنا فى الرحلات المغربية والإسبانية .

سنواصل الآن الطواف بمعاهد تطوان . فالمعهد الحر لمؤسسه ومديره الزعيم الكبير عبد الخالق طريس ، يبارى المعهدين ، الخليفى والإسبانى ، فى أساليب التعليم الحديثة ، وإن قصر عنهما فى المعدات والأسباب . وهو يمتاز عنهما بأن أساتذته جميعاً ، إلا الإسبانى الذى يعلم اللغة الإسبانية ساعة واحدة فى النهار ، هم شبان مغاربة وبعضهم متطوعون لا يتقاضون راتباً . هذا المعهد هو ابن البعثة الشرقية الأولى ، التى تلقى أعضاؤها دروسهم ، وتشربوا روح العروبة ، فى مدرسة النجاح بنابلس . طلابه نحو مئة ، يدفعون رواتب زهيدة ، لا تقوم بنفقاته ، فتساعده الحكومة ، وذوو الأريحية من أهل المدينة .

لقد أُسِّست هذه المعاهد الثلاثة فى السنوات الثلاث الماضية . على أن هناك معهداً سابقاً لها كلها . والفضل — أعيد الكلمة — للمتقدم . فكما أن للتعليم فى لبنان أباه وإمامه وهو صاحب محيط المحيط ، ومجلة الجنان والمدرسة الوطنية ، المعلم بطرس البستانى رحمه الله . وكما أن للعراق قطبه فى التعليم



مبنى المعهد الخليفي

الحديث وثقته فى فن التربية ، هو الأستاذ ساطع الحصرى ، فإن لهذه المنطقة من المغرب صنواً لمن ذكرت ، هو الأستاذ الحاج محمد بن أحمد داود ، مؤسس أول مدرسة أهلية[١] ومنشئ أول مجلة عربية فى المغرب الخليفى [٢] .

أما المدرسة الخليفية – كذلك تدعى – فهى ، على صبغتها الإسلامية ، وطنية حرّة عامة حديثة أساليب التعليم ، كانت ولا تزال تقسم إلى قسمين ، قسم يختص بالقرآن والتوحيد والفقه ، وقسم بالعلوم التى تُعرف فى الجامع الأزهر بالكونية . وهى ستة صفوف وأقسام ليست سنوات . كان طلابها سنة ١٩٣٩ يربون على المائتين ، منهم صف الصغار وهم يتعلمون قراءة القرآن بالألواح مثل سائر الكتاتيب القرآنية فى المنطقة . أما كتب التعليم فى الصفوف الأخرى فهى كلها حديثة التصنيف والطبع مجلوبة من مصر وبيروت . هذه المدرسة تقوم بنفقاتها دون إعانات من الحكومة أو من المحسنين . ولها فروع فى شفشاون والعرائش والقصر الكبير .

ليس فى الشباب المغربى المثقف من لا يذكر حبًّا واحتراماً الأستاذ محمد داود . وإن أكثر القائمين اليوم بالنهضتين الوطنية والأدبية من خريجى مدرسته ، كالأديب الحاج محمد ينون المتبرع بالتدريس فى المعهد الحر ، والزعيم الأستاذ عبد الخالق طريس ، والتهامى الوزانى رئيس جمعية الطالب .

الأستاذ داود هو رائد المنطقة الأول فى التعليم الحديث والتربية الوطنية العالية . ومن علمنى حرفاً . . . ومن عَلَّم من علمنى حرفاً . . . لنبدل العبد بالابن ولنقلْ : كنت له ابناً . إن الأستاذ داود هو لآباء الأولاد المغاربة أبوهم الحكيم الرؤوف .

---

(١) أسست سنة ١٩٢٥ .

(٢) هى مجلة السلام المصورة صدر منها عشرة أعداد فقط ، الأول فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، والأخير (العاشر) فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ .

والولد المغربي هو مثل أخيه العربي ، ذكي الفؤاد ، سريع الفهم ، شديد التحمس واليقين ، فصيح اللسان ، وسيصبح بفضل المدارس فصيح اللهجة العربية . فقد تحققتُ ما قاله أحد الأساتذة المصريين في شيوع التعليم المبني على الفهم لا على الحفظ والإظهار . تحققته في ما سمعت من إلقاء التلاميذ ، فقد كان الولد يقف طوعاً لإشارة معلمه ليقرأ نبذة من كتابه ، نثراً أو شعراً ، فيلقيها إلقاء حسناً ، فصيح الوصل والوقف والتبليغ ، إلقاء الفاهم لما يقرأ ، المتأثر به .

وليس لطريقة الإظهار من آثار في المنطقة الخليفية ، غير تلك الكتاتيب القرآنية ، حيث يجلس الصبيان على الأرض وبأيديهم الألواح ، كما في اليمن ، مكتوبة عليها السورة ، يظهرونها ويرددونها بالصوت العالي ، كل على هواه ، وبعزلة عن سواه ، وإن اصطك الجنب بالجنب والصدر بالظهر ، في حين أن الشيخ « المدرِّ » متربع مثلهم وهو يهز برأسه استحساناً أو نعاساً لست أدري !

أما في هذه المدارس ، وقل المعاهد ، كما يريدها المغربي ، فإن المعلم جالس على كرسي الكرامة ، وراء منضدة النظام ، منبسط اليد والعقل ، فيقرأ أبناؤه للفهم والاستيعاب ، لا للإظهار والافتخار . يقرءون ليفهموا وليفكروا في ما يفهمون .

كنت أحدثهم بما يوحي به الموقف ، فأكرر كلمة في وجوب تثقيف الأخلاق قبل تثقيف العقول . وأن العلم بلا أخلاق كالنور بلا دفء ، أو كالحرارة بلا نور ، أو كالزيت الكدر ، أو كالسيف بيد الحاكم الظالم ، وأقف لأسألهم هل فهمتموني ؟ هل فهمتم لهجتي العربية الشرقية ؟ فيجيبون بالصوت الواحد : نعم ، فهمنا .

وعندما انتهيت من كلامي في أحد صفوف الصغار وقف أصغرهم ، على ما ظهر لي ، بدون إشارة من معلمه ، وقف مندفعاً بالحماسة المغربية العربية

وهتف قائلا : عاش الريحانى . فردد الصف هتافه ، دون أن يخشى تأنيب المعلم . هى الحماسة العربية . والمعلمون لا يتجهمونها فى تلاميذهم ، بل يشجعونهم عليها .

سأجمل الآن ما قدمت ، فالتعليم فى المنطقة على ثلاثة أنواع :

(١) المدارس المغربية ، الابتدائية والثانوية ، وهى تعلم اللغتين العربية والإسبانية ، ومعلموها عرب وإسبان . (٢) الكتاتيب التى مر ذكرها وأكثر معلميها من الشيوخ . (٣) المعاهد الدينية أو بالحرى المساجد ، التى تلقى فيها الدروس الدينية والفقهية مع بعض الدروس الأخرى كاللغة والحساب والجغرافيا والتاريخ . أضف إليها المعاهد الخاصة ، أى تلك التى زرناها .

وهناك جمعية منبثقة من روح التعليم فى هذه المدارس كلها ، ومتصلة به اتصالا معنويًّا وطنيًّا ، فتسعى لتغذية المدارس بالدعاية والتشويق ، هى جمعية الطالب[١] التى تأسست سنة ١٩٣٢ ، رئيسها الأول عبد الخالق طريس ورئيسها الحالى التهامى الوزانى .

وهناك مؤتمر الطلبة الذى يعقد من حين إلى حين للبحث فى شؤون التعليم والمدارس والمعلمين ، فالمؤتمر الثالث لطلبة شمال أفريقيا ، الذى عُقد فى باريس فى الشهر الأخير من سنة ١٩٣٣ ، بعد أن منعت الحكومة الفرنسية المغربية عقده فى فاس ، بحث وقرر القرارات فى المسائل التالية :

(١) تحضير المعلمين بشمال أفريقيا . (٢) تحسين حال طلبة التعليم العالى بأفريقيا الشمالية وبالخارج . (٣) تنظيم البعثات العلمية بأوربا وبالشرق . (٤) النظام الجديد لجامع الزيتونة وجامع القرويين[٢] . (٥) التعليم الابتدائى

---

(١) من غاياتها محاربة الأمية والمطالبة بإنشاء المدارس المنظمة ، لا سيما الابتدائية والقرآنية . تلق من منبرها الحر الخطب السياسية والمحاضرات العلمية والأدبية .

(٢) يقول أهل المغرب إن فى العالم الإسلامى ثلاثة معاهد دينية عظمى هى : الأزهر بمصر ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس .

فى المغرب الأقصى . (٦) تعليم اللغة العربية فى الجزائر .

هذه المؤتمرات وتلك الجمعية هى من أركان النهضة الثقافية فى المغرب ، وهى للمدارس الرسمية والأهلية الخاصة العلمية والدينية ، الرائد والرقيب معاً ، تشق الطريق لمواصلة الجهود ، وإتقان الأساليب والقواعد الحديثة ، وتراقب إدارة التعليم فتنبه إلى ما فيها من نقص أو خلل ، وتطلب الإصلاح والتحسين .

لا شك فى أن هناك نقصاً وخللا ومجالا واسعاً للتحسين . فالنهضة لا تزال فى المرحلة الأولى ، والبلاد — كما أشرت مراراً — فيها يقظة وفيها أشواق ، وليس فيها اليوم من عوامل التحقيق غير القليل ، أعنى العوامل الوطنية التى تستطيع الحكومة الحامية أن تستخدمها فى مشاريعها الثقافية والاقتصادية . كان المقيم الكلونل بايبدر يذكر مديرية التعليم مثلا بشىء من التحسر ، ثم يقول : سأفاجئهم ذات يوم بمدير من دمشق أو من القاهرة .

أما مفتشو المعارف فأكثرهم ، إما لعجز أو لكسل أو لغرض من الأغراض الخاصة ، لا يدققون فى التفتيش .

كان الأستاذ محمد داود المفتش العام للتعليم الإسلامى ، فما كمّل السنة فى وظيفته . والأستاذ داود صلب العود ، متين الأخلاق . سألته : لماذا استعفيت ؟ فكتب إلى يقول : « أرادت السلطة أن أكون مثل جل الموظفين . . . ولم نجد وسيلة للتقريب بين وجهتى نظرنا ، فاستعفيت واسترحت وأرحت » .

هو مثل صديقى الأستاذ الحصرى فى العراق ، يتكسر ولا يلين . وهل يجب أن يلين المثل الأعلى فى اصطدامه والمثل العملية؟ إن فى الاثنين مجالا لوجهتى نظر المصلح والسياسى ، ولما بينهما أى وجهة نظر السياسى المصلح . هذا إذا كان الثلاثة من أهل العلم الراقى والوطنية الصادقة . فالسياسى المصلح يستطيع أن يضع موضع العمل بالتدريج ، دفعة دفعة ، آراء واقتراحات المصلح ذى المثل الأعلى .

مما لا ريب فيه أن المجال واسع للتنظيم والإصلاح ، للتحسين الدائم إن كان فى مديرية التعليم المغربى ، أو فى المجلس الأعلى للتعليم الإسلامى ودوائرهما الرئيسية والفرعية .

ومما لا ريب فيه أيضاً أن النهضة الشعبية التى تتمثل فى جمعية الطالب ، وفى الأحزاب الوطنية وصحافتها ، وفى المؤتمرات العامة للطلبة تعقد من حين إلى حين — أن هذه النهضة كفيلة بالإصلاح التدريجى وبالتحسين المستمر .

الفصل الثالث عشر

الأحزاب السياسية

أعود بالقارئ إلى آخر الفصل الأول من هذا الكتاب ، حيث تركنا الحكومة الإسبانية فى وميض من الأمل بتحسين حالها فى المغرب ، بعد إعلان الحماية الفرنسية (١٩١٢) فى الجنوب ، والإسبانية فى الشمال ، فنمر بالحوادث التى أدت إلى تأليف الأحزاب السياسية والمطالبة بالإصلاح فى المنطقة الخليفية . وسنقتصر على ما يتعلق مباشرة بالموضوع .

منذ إعلان الحماية حتى بداية الحرب العظمى كان الشريف الريسونى لا يزال قائماً بحركاته على السلطات الأجنبية فى المنطقة الشمالية .

أما فى خلال الحرب العظمى فالمغرب الأقصى ، شمالا وجنوباً ، كان راكناً إلى السلام . بل كان على ولاء للحلفاء بالرغم من الدعاية الألمانية الملحفة المسرفة المستهترة ، وخصوصاً ما كان منها فى المنطقة الشمالية من طنجة ، مركزها وعش جواسيسها ، إلى مليلية .

وحسب مغاربة الجنوب أن ألوفاً من جنودهم البسلاء حاربوا مع الحلفاء واستشهدوا فى مختلف الجبهات الفرنسية .

وما كان فى أحوال المغرب ، خلال تلك الحرب ، ما يقلق إسبانيا المحايدة ، وإن كانت فى ذلك الحياد غير متحدة إلا على الوجه الظاهر منه . هذه الحقيقة تمثلت فى شخص رئيس الوزراء يومئذ الكونت رومانونس (Romanones) الذى كان مخالفاً لسياسة الحياد ومكرَهاً فى تنفيذها ، لسان حاله ولسان الأمة

واحد : نصفى مع الحلفاء ، ونصفى الآخر مع حكومتى ! فلا تستغرب نتيجة هذا التناقض فى الأمة والحكومة — الأمة الرابحة من الحياد والحكومة الخاسرة .

وقد كانت الخسارة بادية ، بعد الحرب ، فى كل مظهر من مظاهر الحكم ، بادية فى الضعف والتخاذل والفساد . وقد انتشرت فى سائر البلاد وجازت البحر إلى المغرب ، فتغلغلت فى صميم الجيش هناك .

كان الجنرال سلفستر (Silvestre) متولياً القيادة يومئذ فى مليلية . وكان عبد الكريم الخطابى ، بطل الريف المشهور ، على صلة طيبة به فحدث ما أفسدها ، فخرج عبد الكريم من مليلية غاضباً على الجنرال سلفستر ، مصمماً فى الانتقام منه ، أإهانة شخصية تحمله على الثـورة ؟ قيل ذلك . ولكن الحقيقة المستترة فيهـا تتصل بحوادث الريف السابقة للحرب العظمى .

وما غيّر تقلب الوزارات شيئاً فى أحوال الدولة الداخلية التى تفاقمت فى عهد السنيور داتو (Dato) الذى لا يختلف عن الكونت رومانونس فى تشعب عقليته ، بل فى ضعفها المتشعب ، تعثر داتو فى مسالك الأحزاب المعوجة ، وفى مزالق الميزانية المضخّمة ، وما استطاع أن يستر عن المغرب فى الأقل ما اعترى حكومته من التنابذ والتخاذل بل من الضعف والفساد . سعى السنيور داتو للتوفيق بين الأحزاب ، أو لتأليف كتلة من الجمهوريين والكارليين أو العسكريين والاشتراكيين تؤازر فى استعادة قوة الحكومة وكرامتها . ولكن يد القدر حالت دون إتمام مسعاه ، فقد أطلق عليه فوضوى رصاصة (١٨ مارس ١٩٢١) أودت بحياته .

وبعد أربعة أشهر نكبت إسبانيا النكبة القاسية فى الريف حيث أعلن عبد الكريم الثورة ، وأغار ببضع مئات من رجاله على مقدمة الجيش الإسبانى إغارة خطيرة مبيدة . فذبح الريفيون بضعة آلاف من أولئك الإسبان وشردوا

الباقين وغنموا الغنائم الكثيرة . هذه النكبة (يوليو ١٩٢١) عجلت بأجل الجنرال سلفستر الذى اختلفت الرواية فى موته ، فقيل إنه قتل ، وقيل إنه انتحر .

وهى النكبة التى ولدت فى حكومة مدريد « الأزمة المغربية » — مهواة الوزارات — فقد سقطت فيها وزارة السنيور ألنديسالازار (Allendesalazer) الذى خلف السنيور داتو ، فعاد السنيور مورا (Moura) إلى الحكم ، وسارع فى إنجاد جيش المغرب بمئة وأربعين ألف جندى . ومع ذلك ما استطاع أن يسكت المعارضة التى بلغت أشدها فى « نقابات الدفاع » (Juntas de defense).

سقطت وزارة مورا ، وخلفتها وزارة سنكيز غرا (Sanchez Guerra) المتزعزعة الأركان من يومها الأول ، فما لبثت أن انهارت تحت عاصفة هوجاء من عواصف المعارضة ، هبت من الأمة والبرلمان معاً . العقاب لمن تولوا إدارة الشؤون فى المغرب ، نطلب معاقبة المسؤولين ، الجبناء والخونة ، وما كان العقاب يلحق بغير الوزارات ، التى تلت الواحدة الأخرى فى مهواة أزمة المغرب . ثلاث وزارات فى سنة واحدة .

فقام إذ ذاك من الجيش أحد قواده ، الجنرال بريمو دى ريڤيرا (١) (Primo de Rivera) يعلن الدكتاتورية فى البلاد . فأسكت الأحزاب كلها ، وشرع يعمل لإنقاذ الحكومة والأمة من أولئك السياسيين النفعيين والعاجزين ، والمسؤولين عما انتاب إسبانيا من البلاء منذ نكبة المغرب الأولى (١٨٩٨) . وقد كان للجنرال دى ريڤيرا رأى خاص فى قضية المغرب(٢) . ولكنه عزم على حلها حلا سريعاً حاسماً يليق بكرامة الأمة ، كما قال ، ولا يزيد فى خسارتها .

كانت الحكومة قد خصت المغرب باعتمادات باهظة ، فاضطرت أن تستدين

---

(١) حكم منذ ١٣ سبتمبر ١٩٢٣ إلى ٣٠ يناير ١٩٣٠ وتوفى فى باريس فى ١٦ من مارس من سنة استقالته هذه .

(٢) راجع الفصل الثانى .

من الأمة سبعمائة مليون بسيطة ، استنفدت حرب المغرب قسما كبيراً منها ، وبقى العجز ملازماً للميزانية ، فأراد الدكتاتور أن يخفف العبء عن الأمة بسياسة عسكرية دبلوماسية فى المغرب بدأها وما أتمها ، لأسباب تتعلق بثورة عبد الكريم .

قيل لى فى تطوان إنه ليس فى كل ما كتب عن تلك الثورة ، إن كان بالإسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو العربية ، كتاب واحد مجرد من التحيز وخال من الأغلاط والمبالغات . فهل من الحكمة أن أضيف أنا إلى ذلك « الكنز التاريخى » شيئاً من عندى ؟ على أنى علمت وتحققت أمراً واحداً : لماذا قبض عبد الكريم على الشريف الريسونى و كيف تم ذلك ؟ استقيت الخبر من منبعه ، وسأعطيكه فى موضعه .

أما الآن فعلىّ أن أواصل البحث فى سياسة دى ريڤيرا التى كان قد بدأ ينفذها كما قدمت ، ثم عدل عنها . والسبب فى ذلك هو أن عبد الكريم أغار على المنطقة الجنوبية فى ربيع سنة ١٩٢٥ إغارة غيرت فى سياستى الدولتين الإسبانية والفرنسية ، وعجلت فى التئامهما . فقد كانت هناك مشادات ومناورات ، وإحجام ومجادلات فى المفاوضات أو وجوبها ، لو علم عبد الكريم بها لما أقدم على تلك الغزوة مهما كانت أسبابها .

وما هى تلك الأسباب ؟ تقدمت الجنود الفرنسية ، المرابطة على الحدود ، فاحتلت ناحية فى المنطقة الخليفية ادعت أنها داخلة فى المنطقة السلطانية ، وأنه من الواجب على الجيش الفرنسى أن ينقذها من الثوار . فثارت قبائل تلك الناحية على أولئك الجنود ، واستغاثت بعبد الكريم فأغاثها ، وحمل بها على الفرنسيين فى منطقتهم الجنوبية حملات موفقة ، فتقهقروا مدحورين . وواصل عبد الكريم زحفه إلى فاس فى شهر يونيو فأضحى قريباً منها ، فاضطربت القيادة الفرنسية المغربية ، واتصل اضطرابها بباريس ، فرأت حكومة الـ « كاى دور ساى »

وجوب الإسراع بالمفاوضة وحكومة مدريد للتعاون على عبد الكريم . لا شك إذن فى أن تلك الغزوة الكريمية كانت البداية لنهاية الحرب . فإن اتهم الإسبان الفرنسيين بالطمع فى احتلالهم المراكز داخل الحدود الشمالية ، فإن ذلك الطمع ، وما تلاه من إغارات عبد الكريم ، أنقذ حكومة إسبانيا من « الأزمة المغربية » .

فقد أرسلت حكومة باريس مندوبها المسيو مالڤى (Malvy) إلى مدريد ، فجرت المفاوضات بينه وبين الجنرال ريڤيرا ، وتم التفاهم على التعاون العسكرى والسياسى فى المغرب . شكراً لعبد الكريم ! وجزاء له أرسلت فرنسا نجدة إلى المغرب فأخرجته من منطقتها فى أكتوبر ١٩٢٥ ، ثم جاء الريف المرشال بتان (Petain) بجيش جرار ، وأنزل الإسبان نجدات فى رأس الحسيمة ، فتعاون الجيشان على الريفيين ومع ذلك ظل عبد الكريم فى ساحات القتال حتى شهر مايو ١٩٢٦ ، فاضطر أن يسلم للقيادة الفرنسية فأتمت حكومة باريس جزاءها له بنفيه إلى جزيرة ده بونيون بمدغشقر .

سلم عبد الكريم ، وخمدت نيران الثورة ، وما انحلت قضية المغرب بالطريقة التى كان يريدها دى ريڤيرا ، فالجيوش الإسبانية سنة ١٩٢٧ كانت تربى على المئة ألف ، ما عدا القوات الإضافية من الدرك والحرس المدنى ، والقوات الجوية فى العرائش ومليلية وتطوان . سكن المغرب على دخل . واستقبل أهله الملك الفونس والملكة فى أكتوبر من هذه السنة ، ورحبوا بجلالتيهما ترحيباً يكمن الضغن فيه .

تلك الزيارة الملكية لم تكن مشفوعة بغير التأكيدات الحارة والوعود المعسولة . فابتسم لها المغرب ابتسام الرضى والاقتناع ، فرد الملك والملكة الابتسام بأحسن منه . مشت أرجل الجلالة على الرماد المختلط بالرمل الذهبى ، وما شعرت بالنار تحت الرمل والرماد . وعادت أرجل الجلالة إلى قصرها بمدريد ، وذهبت وعود الجلالة ذهاب الدكتاتورية ، وذهاب الملكية ، يوم أعلنت الجمهورية فى ١٤ أبريل ١٩٣٠ .

وكانت تكاليف الجمهورية ومشقاتها أشد مما نخر منها فى عظام الملكية . وما كانت سياسة الجمهوريين المغربية أرشد وأنجع مما تقدمها . . .

وجاء الرئيس المحترم السنيور ضون نسيطو الكالا زمورا (Zamura) يزور المنطقة السعيدة ، ويتفقد شؤون أهلها (نوفمبر ١٩٣٣) فزمر المغرب له ، حتى من فوق المآذن ، وقدم لائحات بمطالب الأمة [١] . فقبلها الرئيس شاكراً ، ووعد بالإصلاح باكراً ، وعاد بموكبه كما عاد صاحبا الجلالة قبله دون أن يشعر أن تحت الرماد ناراً ، غير ما رأى منها فى لائحة الإصلاحات المطلوبة ، وما هى محرقة ، ولا ملتهبة .

ولحقت الزيارة الجمهورية بأختها الملكية ، وتبدلت الوزارات فى سنة الزيارة هذه ثلاث مرات . وراح مقيم عام من تطوان وجاء آخر إليها . من لوپس فرير (Lupez Ferrer) المستبد ، إلى خوان موليس (Mulis) المتذبذب ، إلى ريكو أفيو (Rico Avello) المصانع — وازدادت الوعود الملبسة بحلو الكلام والإبهام [٢] .

وجاءت سنة ١٩٣٦ ، وولت أشهر منها ، والأمة المغربية تنتظر البر بالوعود . فأوفدت الكتلة الوطنية وفداً إلى مدريد برياسة عبد الخالق طريس ، « للاتصال برجال إسبانيا وهيئاتها والمذاكرة معهم فى ما يعود بالمنفعة للأمتين » .

وقد كان الرئيس طريس صريحاً بعد رجوعه ، فقال إن التقرير الذى قدمه الوفد إلى الحكومة يقسم إلى قسمين قسم يصف الحالة فى المنطقة من نواحيها

---

(١) مطالب الشعب المغربى التى قدمها وفد الأمة إلى الرئيس زمورا هى : (١) مجالس بلدية منتخبة انتخاباً حراً (٢) مجلس عام للشورى (٣) حرية الصحافة والنشر والاجتماع (٤) الاهتمام بالتعليم وجعل اللغة العربية أساسية (٥) اعتمادات للفلاحين فى ميزانية الحكومة .

(٢) « إن من الواجب توليد وتغذية العواطف التى تمكننا نحن الإسبان من أن نقوم فى المغرب بعمل مثمر مستمر . العواطف الناشئة عن التذكارات القديمة ، والمشتقة من النظر والإدراك ... » إلخ — من بيان المقيم العام السنيور أفيو — فبراير ١٩٣٤ .

السياسية والاقتصادية والثقافية ، وقسم يعدد المطالب . قدمه الوفد ولسان حاله يردد بيتين من الشعر لشاعر المغرب علال الفاسى :

« وأدوا المغرب الأقصى حقوقاً مقدسة حماها منذ عاد
ولا يضركم فيه خمود فإن النار من تحت الرماد ! »

هذا فى شهر أبريل . وكانت النار تتأجج فى المغرب ، نار المغاربة ونار الجيش الإسبانى نفسه ، فاندلعت منها ، فى ٢٧ يوليو ، ألسنة الثورة — ثورة فرنكو على الجمهوريين .

* * *

وبعد ثلاث سنوات ، فى سنة النصر ، تنشر جريدة « بريد الصباح » بتطوان سيرة بطل الثورة لأنه « أقرب الناس إلينا جغرافياً ، ولأنه نبغ فى المغرب[1] وقام فيه بحركته الشهيرة » .

ويقف الزعيم الوطنى خطيباً فينوه باسم فرنكو ، وباسم المقيم العام بايبدر ، ويثنى على سياستهما التى « سمحت باستقلال الأحباس [2] واستقلال القضاء[3] كما ساعدت على تأسيس بيت المغرب بمصر ، والمعهد الخليفى بتطوان ومنحت الوطنيين حرية الفكر والعمل فى صحفهم واجتماعاتهم ، دون تدخل ولا مقاومة ، واعترفت لسمو الخليفة المعظم بحرية خاصة ، وحرية عامة . لا يتمتع بهما ويا للأسف جلالة السلطان نفسه » .

---

(١) جاء الشاب فرنسيسكو فرنكو إلى المغرب كضابط فى الجيش سنة ١٩١٢ .

(٢) استقلت الأحباس وتأسست الوزارة الأولى بموجب ظهير خليفى مؤرخ فى ٤ شوال عام ١٣٥٥ (١٩ يناير ١٩٣٦) .

(٣) « واليوم يقدم الزعيم فرنكو لكم وفاء بالوعود : ١ — عشرة ملايين بسيطة للأشغال العامة ٢ — العفو العام ٣ — توسيع التعليم ٤ — إنشاء معهد ثقافى إسلامى فى قرطبة ٥ — استقلال القضاء الإسلامى » — من خطبة المقيم العام الكلونل بايبدر فى تهنئة الخليفة الحسن بعيد المولد النبوى فى ربيع أول عام ١٣٥٨ (مايو ١٩٣٩) .

هذه المنطقة الخليفية إذن هى الباب للمغرب أجمع — باب الإصلاح والتجدد باب الرقى والعمران ، باب الثقافة والعلم ، باب الحرية والاستقلال .

وأهل البيت ، وهم فى الباب ، يتفقون مع الأجنبى الحارس الحامى ويختلفون فيما بينهم أنفسهم ، ويتنابذون .

يقول ساسة أوربا الاستعماريون ، وأنصارهم من أهلهم ، رجال الدين والمال والاقتصاد ، أقوالا فى المغاربة بل فى العرب إجمالا ، هى أقرب إلى الغرض والتحامل منها إلى الحق والإنصاف . من تلك الأقوال أن المغاربة متقهقرون منحطون وأنهم سيغرقون حتما ويفنون فى أمواج التمدن الأوربى .

قيل ذلك فى مطلع هذا القرن ، يوم كانت الدول الأوربية العظمى تمهد لنفسها سبل الاستيلاء على المغرب . وها هم أولاء المغاربة العرب ، بعد ربع قرن ، ينهضون من سباتهم ، وينفضون عن مناكبهم غبار الخمول والذل ، ويمدون أيديهم إلى خزائن ذلك التمدن الأوربى ليأخذوا منها ما يحتاجون إليه من السلاح ، سلاح العلم والعمل ، لا ليحاربوا الأوربيين بل ليصونوا ملكهم من « أمواج التمدن الأوربى » الاستعمارى ، وليتعاونوا وذوى النزاهة والفضل من شعوب أوربا على الرقى والعمران .

هذا ما يجب أن يقال إنصافاً للمغاربة وللأفاضل من الأوربيين ، فلا يصدقون ما يفتريه أصحاب الأغراض المادية على أهل المغرب .

وعلىَّ أنا أن أقول فوق ذلك ، حبًّا بإخوانى العرب فى الشرق والمغرب ، وغيرة على اسمهم من أنفسهم ومن المستعمرين : إن الآفة العربية الكبرى ، التى نشأت فى البوادى قبل فجر النبوة ، ولزمت العرب فى فتوحاتهم ، فكانت السبب الأول فى اضمحلالهم وسقوط دولهم ، بعد مجد قصير أو طويل ، هى الآفة التى لا تزال تنخر فى كياننا فى هذا الزمان ، زمان التنظيم العلمى الفنى والائتلاف والتعاون . إنها الشقاق وما يصحبه من تخاذل وتنابذ وهوان .

فالزعماء السياسيون الحاملون على سياسة التفريق الفرنسية ، المطالبون بالوحدة المغربية ، الممجدون العروبة والإسلام ، المجاهدون فى سبيل أمة أدركت حقائق الحضارة الحاضرة وتريد أن تنتفع بها ، لا تتحقق أمانيهم العالية ، ولا يتغلبون على الخصوم ، ما داموا هم أنفسهم مساقين بعوامل التفريق والشقاق .

إن الصراع بينهم وبين الدولة التى تعمر المغرب ، لا لأبنائه بل لأبنائها[1] وتسعى بكل ما لديها من القوى المنظمة الموحدة — القوى المالية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية — لتهدم أركان القومية العربية المغربية الإسلامية ، فتشيد على أنقاضها معاقل روحية وثقافية ومالية للعمران الفرنسى ، إن ذلك الصراع عنيف ، وإن الغلبة فيه للعمل لا للقول ، وللقوى الموحدة ذات الاتجاه الواحد لا للقوى الموزعة الكثيرة الاتجاهات .

فما أجمل ما يخطه قلم الكاتب المصلح ! وما أبلغ ما ينطق به الزعيم السياسى نثراً وشعراً ، من درر الحماسة الوطنية ، ومن آيات الفخار بالعروبة والإسلام ، ومن الحقائق الباهرة فى وجوب الإخلاص والثبات والاتحاد فى الجهاد ! ما أفصحها كلها وما أبلغها ، وما أجملها وما أعظمها ، لو كانت تسمع فى كل مكان ينطق أهله بالضاد ، ولو كان السامعون يعملون بها . فلو عمل بها ، أو بجزء منها ، ووحد العاملون الجهاد والاتجاه ، لما استطاع المستعمرون أن يعقدوا خيطاً أو يحلوا عقدة فى قطر من الأقطار العربية . . .

* * *

ما تمتعت الصحافة فى هذه المنطقة ، ولا تمتعت الجمعيات والأحزاب ، بحرية الفكر والنشر والاجتماع فى العهدين السابقين لعهد الثورة . وإنه لجدير

---

(١) قلت لأحد القناصل فى طنجة ، غير المتحيزين لفرنسا أو لإسبانيا ، إن المشاريع العمرانية التى قامت بها فرنسا ، خلال ربع قرن ، فى المغرب ، مشاريع تذكر بالإعجاب . فقال : « هذا صحيح ، ولكنها عمرت هناك لأهلها لا لأهل البلاد » .

بالذكر والتكرار أن كل ما فى المنطقة اليوم من مظاهر النهضة الوطنية والثقافية هو حديث العهد ، ويكاد ينحصر فى السنوات الثلاث الأخيرة التى أعلنت فيها سياسة الجنرال فرنكو المغربية ، وكان المقيم العام الإسبانى ، العربى الروح ، منفذاً لها . فالمدارس والصحافة والمستشفيات والأحزاب السياسية تأسست فى أيامه ، وبمساعدته .

على أن من المؤسف أن تكون الأمة متحدة فى عسرها يوم كانت حرياتها مقيدة ، وأن تنشق على نفسها بعد أن أطلقت تلك الحريات من القيود . فالأمة فى فجر جهادها الوطنى ، وفى دور النشوء المدنى ، يجب أن تكون متحدة متضافرة ، وأن يمثل اتحادها ، وينطق بلسانها ، حزب سياسى واحد لا غير . أما تعدد الأحزاب فهو جائز بل واجب فى أمة مؤسسة موحدة النظام ، لاختلاف المبادئ فى خطط العمران وأساليب العمل الوطنى . وليس المغرب اليوم بهذه الأمة . الطفل يحيا بالغذاء ، لا بالمناقشات حول سريره !

هى كلمة يمليها علىَّ الحب لإخواننا فى المغرب . وهاك الآن رأس الموضوع .

قلت فى الفصل السابق إن الأستاذ محمد داود هو رائد التعليم الوطنى فى هذه المنطقة . وأقول هاهنا إن للسياسة الوطنية رائداً هو الأستاذ عبد الخالق طريس ، أول من أنشأ جريدة وطنية بتطوان [١] وأول من ألف حزباً سياسيًّا . فقد كان ولا يزال الزعيم الأول . وهو فى ريعان الشباب ملء برنسه الصحة والعافية ، والنشاط الوثاب ، وملء صدره الذكاء والحكمة والإخلاص .

وما أكثر ما لهذه القوى المحركة من المهمات . فصاحبها هو مدير المعهد الحر ورئيس حزب الإصلاح الوطنى وصاحب جريدة الحرية ، والقائد العام لفرق الفتيان المغاربة ، وقد تولى مديرية الأحباس [٢] مرتين ، فاستقال فى المرة الأولى

---

(١) الحياة ، صدر العدد الأول منها فى مارس ١٩٣٤ .

(٢) كانت مديرية ، وهى اليوم وزارة مخزنية مستقلة ، مثل الوزارة العدلية .

احتجاجاً على تعطيل جريدته « الحياة » لأنها كانت تطالب يومئذ باستقلال القضاء الإسلامى، واستقال فى المرة الثانية (أبريل ١٩٣٧) احتجاجاً على تدخل الحكومة المقيمية بواسطة الصدارة العظمى فى شؤون الأحباس . فهو لا يقدم الوظيفة على الوطنية ، ولا يحصر جرأته فى الكتابة والخطابة .

حزبه ، حزب الإصلاح الوطنى ، الذى تأسس سنة ١٩٣٦ ، هو أول الأحزاب السياسية وأكبرها ، عدد أعضائه ١٤٠٠ ، وله فروع فى جميع مدن المنطقة ، وله صلة حس ومبدأ بالحزب الوطنى فى المنطقة السلطانية الذى يرأسه الشاعر محمد علال الفاسى (١) .

وللحزب جيشه ، كتائبه أو « قمصانه » ، جرياً على تقليد جديد للشباب فى الشرق العربى . فالفتيان المغاربة يلبسون القمصان الخضراء ، ولهذه الكتائب فروع مثل الحزب فى المدن ، أسماؤها (٢) أجمل من قمصانها . تعيد إلى الوجود التاريخى مجد المغرب الغابر .

لعبد الخالق شغف بالتأسيس والتنظيم ، فلا يقف فيهما عند حد سياسى أو وطنى اجتماعى . فهناك فوق ما ذكرت عصبة الفكر المغربى التى تعاون فى تأسيسها هو وإخوانه الشريف الوزانى والطيب بنون ومحمد الفاسى . هذه العصبة هى جمعية أدبية غرضها الدراسة والبحث فى المواضيع العلمية والأدبية . فمن محاضراتها مثلا مناظرة فى أيهما أعظم : المهدى بن صومر (مؤسس الدولة الموحدية) أم عبد الله يسين (مؤسس الدولة المرابطية) .

سألت عبد الخالق : أتقدمون فى منظماتكم ومدرستكم وسياستكم العرب على الإسلام أم تقدمون الإسلام على العرب ؟ فقال : ندعو للاثنين معاً . ثم قال :

---

(١) كان سنة رحلتى منفياً فى كابون (Gabon) وهى مستعمرة فرنسية أفريقية .

(٢) تطوان : فرقة مولاى إدريس . أصيلة : فرقة الخضر غيلان . العرائش : فرقة المنصور الذهبى . القصر الكبير : فرقة المهدى تومرت . شفشاون : فرقة يوسف بن تاشفين .

العربية دين الإسلام . وأمن على « من أعزّ العرب أعز الإسلام » .

من أعمال حزب الإصلاح القيام بمكافحة الأمية . فقد فتحت بعض المدارس أبوابها ليلا بمساعى الحزب ، لتكون مدارس ليلية للطالبين . أما الإقبال عليها ، فهو « كيف كيف » كما يقولون فى المغرب ، ولكنه دائم .

يوم كان عبد الخالق طريس مدير الأحباس كان المكى الناصرى يرغب فى أن يكون مديراً للمعهد الحر ، فما حققت إدارة المعهد رغبته . وعبد الخالق قطب تلك الإدارة فغضب الناصرى وخرج من حزب الإصلاح .

هذه إحدى الروايتين فى الشقاق . أما الرواية الأخرى فهى أن الاختلاف مبدئى لا شخصى . سنتحراها ، فتحكم حكمك فيها .

الأستاذ محمد المكى الناصرى ، صاحب جريدة « الوحدة المغربية » وصاحب مجلة أخرى أسبوعية بالإسبانية ، ورئيس حزب الوحدة ومدير المعهد الخليفى ، هو من قرية الناصرة بالمغرب . وقد ساح فى الشرق والغرب طالباً العلم فحصل منه جزءاً وافراً فى القاهرة وفى باريس ، وأقام سنة فى إسبانيا ، ثم حط رحاله فى تطوان ببيت عبد الخالق طريس . وكان ما ذكرت من خلاف أدى إلى خروج المكى على صديقه وحزبه .

قال عبد الخالق : خمسة عشر من الأنصار خرجوا من الحزب ، ثم انشقوا على أنفسهم فانضم ثمانية إلى المكى وسبعة إلى بودرة .

والأستاذ محمد بودرّة (ابن أخت عبد الكريم) هو رئيس حزب الأحرار وصاحب جريدة « الريف » التى يحررها الشريف التهامى الوزانى نائب رئيس حزب الإصلاح الوطنى — والصلة « القدسية » بين الحزبين .

أقول القدسية على وجهها الظاهر ولا ابتسام ولا سوء ظن . فإن وجه الشريف التهامى لنادر بين الوجوه ، ما رأيت مثله فى غير صور القديسين كمار أنطونيوس مثلا أو مار يوحنا المعمدان . وهو يسير اليوم فى تطوان ، مثل يوحنا المعمدان فى

زمانه ، مكشوف الرأس أشعث الشعر . ينير الشوارع ليلا بنور ناظريه المتقدين ويزيد بريقهما بنور النهـــار . شبهته بمار يوحنا وبمار أنطونيوس . ولكن حسان أشبيلية ، يوم اكتحلت عيونهن بطلعته القدسية ، صحن قائلات : هو ذا مار يوسف !

أما محمد بودرة فإنه فى نحوله ، ودقة ملامحه ، ولحيته السوداء الفتية ، وقيافته التى من لون لحيته — جبةً وعمارةً — لأشبه بالقديسين منه بالسياسيين . وإنك لتحسبه راهباً من الرهبان المتقشفين ، أو عالماً من علماء الإسبان — أستاذاً من أساتذة سلمنكة — فى الزمن الغابر . حديثه ناعم كنظراته ، وجبته أنيقة كلحيته ، وروحه تطل عليك من بين الاثنتين ، فتغريك ولا تشجيك .

لو رأيت طريس والناصرى وبودرة والتهامى الوزانى ماشين معاً فى ساحة الفدان بتطوان لقلت معجباً مبتهجاً : سبحان الخالق ، فى المغارب والمشارق . هاكم الأربعة من صنع يديه تعالى — من صنعه الخاص — الأربعة المجربين والمقربين ، هاكم فوست ومفيستا ويسوع ومار يوسف !

قال بودرة فى تعدد الأحزاب : « لا أرى فيها غير الخير — فليس بينها خلاف سياسى . إنما هى مثل الكتائب الوطنية تجتمع كلهـــا لعمل واحد فى يوم واحد ، يوم تكون المنطقة فى حاجة إلى أبنائها ليدافعوا عنها وعن مصالحها » .

هذى هى الأحزاب السياسية الثلاثة وصحفها اليوم : الإصلاح الوطنى « والحرية » ، وحركة الوحدة المغربية وجريدة « الوحدة » ، والأحرار « والريف » . فإن أراد الله الخير للمغرب أعادها إلى الأصل الواحد ، وجمعها غداً فى حزب واحد ، وأبقى على مكتب الدفاع الوطنى ليواصل الخدمة الوطنية التى باشرها فى كتيب طبعه ليس فيه من قلم التحرير غير صفحة واحدة بعشرة أسطر ، والباقى كله منقول من المعاهدات والبيانات الفرنسية والإسبانية ، ومن أقوال السياسيين الفرنسيين والفاتحين ، وخصوصاً المرشال ليوتى ، فى سياسة فرنسا المغربية ، وما

ينبغى أن تكون لتلتئم ومعاهدة الحماية . من لسانك أدينك !

إبرهيم الوزانى نسبة إلى مسقط رأسه وزان لا إلى أحد من آل البيت ، هو شريف فى أخلاقه وأعماله ، ومكتبه مثل مكتب أخينا البارودى بدمشق . وملجأ أيضاً للمضطهدين الفارين من المنطقة الجنوبية . وهناك وزانى آخر هو أخو الشريف التهامى وصاحب جريدة « بريد الصباح » التى تختلف عن الجرائد الأخرى بأنها إخبارية تنشر الأخبار ولا تعلق عليها لا بالكثير ولا بالقليل .

هؤلاء الوزانيون الثلاثة الشريفان نسباً ومبدأ وعملا ، والشريف مبدأ وعملا ، هم فى الوطنية وعبد الخالق سواء ، ولكنهم جميعاً دون المكى الناصرى فى العلم والثقافة — وحب الذات .

وهل فى الناس من لا يحب نفسه غير القديسين والأولياء ؟ أجيب كلا : ولكنى أزيد على ذلك أن هذا الحب يختلف اختلاف الأزهار ، وفيها الكبير كزهرة (دوار) الشمس ولا شذى له ، والصغير كالبنفسج والياسمين . فالناصرى صافى الذهن ، ثاقب النظر ، سريع الخاطر ، عصبى المزاج ، يعرض أفكاره وآراءه ببلاغة تزينها الحماسة حيناً وحيناً تشينها فيضؤل البرهان فى ظل زهرة الشمس .

وأما إبرهيم الوزانى فحبه لنفسه هو كزهر البنفسج ، وحديثه نار متأججة ، بلهيبها ودخانها . هو ولا نكران من القلب ، لا غبار على صدقه ، وإن اضطرب التعبير ، ولا حد لحماسته ، وإن أربدّ لون اللهيب .

قص علىّ قصة اضطرابات أكتوبر سنة ١٩٣٧ فى المنطقة السلطانية[١] وقمع السلطة لها بالإرهاب والتنكيل ، بالاعتقـــال والنفى والتعذيب المنكر .

---

(١) لا تقل المنطقة الإسبانية أو المنطقة الفرنسية ، فالمغاربة يأبون هذه الإضافة ، ويقولون المنطقة الخليفية والمنطقة السلطانية ، أو منطقة الحماية الإسبانية ومنطقة الحماية الفرنسية ، أو المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية .

فقد بلغت الاضطرابات حد الثورة ، فتأججت نيرانها فى فاس ومنكاسة ومراكش ، وفى القنيطرة ووجدة وسلا وفى الرباط والدار البيضاء . فألقت السلطة القبض فى الرباط على الأستاذين أحمد الشرقاوى ومحمد غازى ، وفى القنيطرة على الشيخ مشيش العلوى والسيد الجيلانى كنانى ، وفى فاس على الأستاذين عبدالعزيز بن إدريس ومحمد الهاشمى الفلالى ، وعلى أعضاء الهيئة التنفيذية للحزب الوطنى . ونفت رئيس الحزب علاّل الفاسى والعلامة الشيخ محمد القرى الذى توفى فى منفاه والأستاذ محمد بن الحسن الوزانى رئيس الحركة القومية ، ومدير جريدة « عمل الشعب » والأستاذ محمد اليزيدى مدير جريدة « الأطلس » والأستاذ عبد الهادى الشرايبى محرر جريدة « الدفاع » ، كل هؤلاء حكمت عليهم السلطات الفرنسية بالنفى والأعمال الشاقة ، فنفتهم إلى أقاصى الصحراء فى أفريقيا الاستوائية ، حيث الكرباج يقوم بتنفيذ أوامر السلطة المحلية .

هذا ما عدا الذين ألقوا فى السجون فى المدن التى كانت ثائرة وعددهم يربى على الألف . وقد عطلت السلطة الجرائد ، ومنعت الجريدة الإسبانية التى تطبع فى طنجة ، وبعض الجرائد الإيطالية من الدخول إلى البلاد ، كل ذلك باسم جلالة السلطان لأن الثورة كانت عليه وعلى عرشه . كما ادعت السلطة الفرنسية . فنفذت السلطة المغربية أوامرها ولا غبار على وجهها القانونى .

وكان إبرهيم بين الثائرين يحرضهم على الثورة لإنقاذ البلاد من المحتلين المستعمرين ، ولصون العرش السلطانى العلوى من السيطرة الأجنبية المزعزعة لأركانه « فنجا من السلطة » وفر هارباً إلى المنطقة الشمالية فألقى جرانه فى تطوان .

يقول إبرهيم الوزانى : « إن أحرار الفرنسيين يقرون مطالب المغرب ، ويعترفون بحقوق المغاربة ، ويريدون أن يتم التعاون ويدوم لتوثيق الصلات بين الأمتين على أساس معاهدة الحماية .

ولكن السلطة الفرنسية الاستعمارية تحول فى أعمالها دون هذا التعاون ، فهى لا تسمح مثلا لكتلة العمل الوطنى أن تصدر صحفاً تنطق باسمها ، وتعبر عن الرأى العام المغربى ، المجرد من الصبغات الأجنبية . وهى تنتزع الأراضى من أهل البلاد خصوصاً البوادى لتملكها الأجانب . تنتزعها لشتى الأسباب وبشتى الأساليب . وفى ذلك جور يلحق ضرره بجميع الناس . فالفرنسى الذى يمنح آلاف الهكتارات — تباع له بالثمن البخس لمدة ٩٩ سنة — يجلب النقمة على حكومته فتكون هى الخاسرة . فعندما يفقد أهل البادية أموالهم وأراضيهم ظلماً ، وإرهاقاً بالضرائب يهجرون أعشاشهم ويقصدون إلى المدن ليزاحموا أهلها وخصوصا الأجانب منهم . فكسب أجنبى واحد يسبب الخسارة للفرنسيين أنفسهم وللكثيرين من أهل البلاد » .

فالوزانى إبرهيم المحصن اليوم فى مكتبه بتطوان ، يحارب الفرنسيين بمثل هذه الحجج والبراهين . والمكى الناصرى المسلح بأسلحة جريدته وحزبه يقف يوم ذكرى الظهير البربرى ، فى طنف دار الإذاعة بالقصر الكبير — هناك عند حدود المنطقتين الخليفية والسلطانية — ليطلق المدافع الرشاشة على « الفرنسيين مستعبدى المغرب وأعداء دينه وشعبه وملكه وسلطانه . »

وتقرر اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطنى أن تحتفل هيئات الحزب فى جميع فروع المنطقة ، ويشارك فى ذلك حزب الأحرار فيحجون جميعاً إلى جبل العلم[1] للتذكير بما أصاب دينهم ووطنهم من الهوان والعدوان .

وتقوم فرقة الأدارسة من الفتيان المغاربة — والقمصان الخضراء — بمظاهرة فى تطوان ، فتطوف فى شوارع المدينة يتقدمها الجوق ثم العلم ثم الضباط ثم الفتيان : ليسقط الظهير البربرى ، لتسقط سياسة التفريق الفرنسية عاش

---

(١) فى جبل العلم مقام الولى عبد السلام مشيش — « مقام الطهر والصلاح ، مأوى الشهداء الأبرار ، عرين الأبطال الصناديد » (جريدة الحرية) .

المغرب حراً مستقلا موحدا .

لا خلاف بين الأحزاب فى حملاتها على معاقل الحماية الفرنسية ومعاقل الحماية الإسبانية . ولا خلاف فى مبادئها الوطنية الأساسية : المغرب وطن واحد لا يتجزأ ، والمغرب للمغاربة أولا وأخيراً .

* * *

أين الخلاف إذن ؟ سننظر الآن فى مطالب الحزبين المطبوعة[1] علنا نجد فيها من اختلاف المبادئ ما يبرر الانشقاق . وإنى متبسط فيها لما تحويه من الأدلة على يقظة المغرب وحصافة زعمائه العصريين وعلى ما لا يزال فى المغرب من النظم القديمة العقيمة التى يسعون ليستبدلوا بها نظماً حديثة مثمرة .

موقف المغرب تجاه فرنسا

الحماية لم تقم فى المغرب بما التزمت به بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) فى أية ناحية من نواحى الإصلاح . بل إن نظامها أتى بعكس المطلوب . فوجد المغاربة أنفسهم ، بعد خمس وعشرين سنة من إعلان الحماية ، أمام مزاحمة أجنبية لا طاقة لهم بالتغلب عليها . فالإصلاحات المقترحة فى هذه المطالب هى أقل ما يقنع الأمة بحسن نية الدولة الحامية . وقد شعر المغرب اليوم بوجوده المستقل وبوجوب الاحتفاظ بهذا الوجود .

(حزب الإصلاح)

لا مبرر لتدخل الفرنسيين من الوجهة القانونية والدولية إلا شىء واحد هو مساعدة المخزن الشريف ، بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) على إدخال

---

(١) مطالب الشعب المغربى مقدمة من اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطنى إلى سمو مولانا الخليفة السلطانى وإلى مجادة المقيم العام – حركة الوحدة المغربية فى المنطقة الخليفية ، تصريحها الأساسى ومطالبها العامة .

الإصلاحات الضرورية فى مملكته . وحيث أن المكلفين من الحكومة الفرنسية اتبعوا فى المغرب منذ إعلان الحماية إلى الآن سياسة الفتح والاحتلال والاستعمار والاندماج فحركة الوحدة المغربية تبذل كل جهودها لمقاومة هذه السياسة ولإقناع ممثلى فرنسا فى المغرب بتطبيق سياسة الحماية الحقيقية وتنفيذ الإصلاحات الموعود بها الشعب المغربى حتى يستعد لاسترجاع حريته وتستعد الدولة المغربية لاستعادة استقلالها .

(حزب الوحدة المغربية)

موقف المغرب تجاه إسبانيا

ومن حسن الحظ أن الحكومة الإسبانية حافظت على مبدأ الحماية فى أكثر تصرفاتها . . . وأظهرت استعدادها لسماع صوت المغاربة وتحقيق أمانيهم . فلذلك تقف الوحدة المغربية من إسبانيا موقف التفاهم والتعاون والنقد الهادئ .

(حزب الوحدة)

وإذا كان نظام الحماية فى جوهره هو نظام الإصلاحات فلا نظن أن التعاون مع الحكومة الإسبانية على تنفيذ الإصلاحات الضرورية إلا مفيداً .

(حزب الإصلاح)

موقف المغرب إزاء العرش العلوى

المغرب للمغاربة . . . والعائلة المغربية الوحيدة المختارة من الشعب المغربى نفسه لمزاولة هذا الحق والمبايعة من قبله على الطاعة منذ أكثر من ثلاثة قرون إلى الآن ، هى العائلة العلوية الشريفة . لذلك تؤيد الوحدة المغربية هذه العائلة المالكة . . . وتوجه الشعب فى نهضته نحو الولاء لها والتعلق بأهدابها .

(حزب الوحدة)

إن مبدأنا فى حكم البلاد ملكى إسلامى على أساس الشورى . . . وإننا لا ننسى الخدمات الجليلة التى قدمتها العائلة العلوية الشريفة للمغرب . لذلك نحن متشبثون بالعرش العلوى الشريف . . . وإننا من أجل ذلك نحارب الحكم المباشر من إدارة الحماية ، وكل التشريعات التى تمس نفوذ جلالة السلطان أو نفوذ خليفته وممثله الشرعى فى هذه المنطقة .

(حزب الإصلاح)

موقف المغرب نحو لغته

اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة للمغرب الإسلامى . . . المغرب وطن واحد لا يتجزأ .

(حزب الوحدة)

إننا مغاربة مسلمون ، ديننا الإسلام ، ولغتنا الرسمية هى اللغة العربية . وإن المغرب بكل مناطقه وحدة لا تتجزأ .

(حزب الإصلاح)

الإصلاحات العامة فى المنطقة الخليفية

— بناء النظام الإدارى على أساس معاهدة الحماية طبقاً لنصوصها ولمعنى الحماية القانونى .

— إلغاء التشريعات والمؤسسات التى أحدثت منذ إعلان الحماية على أساس الإدارة المباشرة ، وكفالة الإقامة العامة لسائر المصالح الأساسية فى المغرب بالوسائل الإدارية .

— الابتعاد عن سياسة الامتيازات العنصرية فى التشريع والإدارة .

— جعل التقسيم الإدارى للنواحى خاضعاً لمبدأ المركزية الإدارية وإسناد رياسة النواحى إلى موظفين مغاربة .

– استبدال الحكم الإدارى المدنى بالحكم الإدارى العسكرى فى سائر المدن المغربية وفى كل البوادى التى استتب بها الأمن وأجرى فيها النظام .

– إلغاء الإدارات الزائدة وإدماج الإدارات المتشابهة الاختصاص ، وإلحاق كل إدارة بالوزارة المغربية التى تمس اختصاصها .

– إدخال عدد كاف من المغاربة فى كل المجالس الإدارية .

(حزب الإصلاح)

– جعل التقسيم الإدارى للنواحى خاضعاً لمبدأ المركزية الإدارية وربط الموظفين فى جميع نواحى المنطقة بالحكومة الخليفية ربطاً مباشراً .

– إلحاق كل إدارة من إدارات الدولة الحامية بالوزارة الخليفية التى تمس اختصاصها .

(حزب الوحدة)

الحكومة المغربية

– تتألف الحكومة المغربية من ست وزارات : الصدارة العظمى والداخلية – العدلية المغربية – المالية والاقتصاد الوطنى – المعارف – الأحباس – الأشغال العامة .

– يعين خليفة مغربى للقائد العام للجيوش فى المغرب .

– يعين الفنيون الإسبانيون فى الإدارات الفنية التابعة للوزارات المغربية ، زيادة على الموظفين المغاربة .

– تكون كل المصالح المغربية تحت نظر الوزارات الجديدة .

– تلغى الإدارة المباشرة فى بعض الإدارات كالمالية والأشغال العامة .

– يلحق الخبراء الإسبانيون بالوزارات المغربية فلا يبقى من حكم الحماية

غير الإقامية ، والكتابة العامة ، ونيابة الشؤون الوطنية ، والمراقبات (مراكز الاستشارية)

(حزب الإصلاح)

تتألف الحكومة الخليفية من ثماني وزارات ، بزيادة وزارة الصحة والإسعاف ووزارة المواصلات فوق ما ذكر في مطالب حزب الإصلاح .

– إنشاء رياسة مغربية عليا للجيش الخليفي إلى جانب المراقبة الإسبانية .

(حزب الوحدة)

مجلس وطني

– يؤسس مجلس وطني مؤلف من الرعايا المغربية ، يكون أعضاؤه مقسومين إلى قسمين : ثلث من مندوبي مجالس المغرب الاقتصادية ، وثلثين ينتخبون انتخاباً عامًّا .

– مندوبو المجلس الوطني لا يتقاضون أجوراً على وظائفهم وإنما تؤدي الحكومة تعويضات التنقل للمندوبين الساكنين خارج العاصمة .

(حزب الإصلاح)

– يؤسس مجلس عمومي أعلى في المنطقة يتألف من مندوبين مغاربة يمثلون المجالس الإيالية والنقابات الاحترافية والهيئات الداخلية .

– في طليعة ما ينبغي أن يعرض على هذا المجلس ميزانية المنطقة وكل المسائل التي تتصل بالمالية الخليفية .

(حزب الوحدة)

العدلية

مطالب الحزبين واحدة على الإجمال ، وخصوصاً في التنظيم الحديث للمحاكم الشرعية والصلحية والمخزنية . ويطلب الحزبان أن يكون لكل هذه المحاكم قسمان ابتدائي وثانوي .

ثم يطلب حزب الإصلاح « فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ، مع إبقائهما خاضعتين لسمو الخليفة . وحماية القضاء من التدخلات الإدارية ، وأن تكون اللغة العربية اللغة الرسميـــة فى كل أعمال المحاكم المغربية » .

ويطلب حزب الوحدة « فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ، وحماية القضاء من التدخلات الإدارية ، لا من جانب السلطة الحامية ، ولا من جانب السلطة المحمية » ، ويطلب أيضاً « إدخال اللغة العربية شيئاً فشيئاً فى الإدارات العمومية المختلفة » . ويتلو ذلك بعض التفصيل فى التعريب العام للمنطقة .

الحريات الشخصية والعامة

يتفق الحزبان فى طلب الضمان القانونى لحرية الفكر والاعتقاد والقول والنشر والاجتماع . ثم يطلب حزب الإصلاح .

– وجوب تناسب العقوبة مع الجريمة .
– عدم سجن المتهم أكثر من ٢٤ ساعة بدون بحث قضائى .
– إبطال الضرب بالسياط والتعذيب بأية آلة من الآلات .
– القضاء نهائيًا على بقايا النظام الإقطاعى فى جميع أطراف المنطقة .

ويطلب حزب الوحدة .

– وجوب تناسب العقوبة مع الجريمة .
– إبطال العقوبة بحجز الأملاك والأمتعة فى جميع أطراف المنطقة .
– إبطال الضرب بالسياط والتعذيب بأية آلة من الآلات .

وهناك فصول فى اللائحتين تكاد تكون متشابهة تتعلق بالسجون وضرورة إصلاحها « فهى وسيلة من وسائل التهذيب والتربية ، لا أداة من أدوات الانتقام » ، وبالعمال لتحسين معيشتهم ، وبالزراعة ، والاقتصاد ، والصناعة .

والحزبان يطلبان إعانة الصناع المغاربة بقروض صغيرة لترقية أدواتهم الصناعية ، وحماية المصنوعات المغربية من المزاحمة الأجنبية .

وفى إصلاح المعارف يطلب الحزبان توحيد برامج التعليم الحديث لجميع الرعايا المغربية وجعل التعليم الابتدائى إجباريًّا فى البوادى وفى المدن .

ومن أهم ما يطلب إصلاحه فى الأمور الاقتصادية والمالية هو :

— جعل قدرات ميزانية المنطقة مناسبة لحاجات سكانها وملائمة لمقدرتهم على الأداء (هذا بالحرف الواحد فى اللائحتين) وعدم الالتجاء إلى القروض الخارجية (هذا فى لائحة حزب الإصلاح) . أما حزب الوحدة فيقول : إلى أن تستغنى ميزانية المنطقة بالتدريج عن القروض والمساعدات الخارجية .

فالحزبان مدركان ما للقروض الخارجية من سوء العاقبة على الدولة ، ويطلبان ميزانية محدودة بالمقدرة والحاجة .

وفى اللائحتين روح مدنية عصرية مفعمة بالحكمة والوطنية والإخلاص . وليس فى الإصلاحات العامة والأساسية كما هو ظاهر ، شىء يذكر من الفرق الجوهرى فلا تختلف اللائحتان إلا بالتفصيل فى بعض الفصول ، وبالاقتضاب فى بعضها الآخر — وبعنوانيهما وحزبيهما — وحرد رئيسيهما ! وقد يكون حرد الواحد أخف من حرد الثانى فيزول ، ولا يدوم بعده الحرد الباعث على الشقاق إن شاء الله .

* * *

لا يتم بحث فى سياسة المغرب وأحزابه بدون ذكر الظهير البربرى والحزب الأكبر المقاوم له .

والظهير البربرى هو العلة والمعلول لسياسة فرنسا فى المغرب الأقصى ، « تلك السياسة التى أوحى بها بعض المستعمرين النفعيين ، وأيدتها مساعى الكهنة الكاثوليكيين ، واستغلها ممثلو عهد الحروب الصليبية من المتعصبين ،

تلك السياسة التى اتحدت أغراض العناصر الرجعية عليها ، وتوحدت مساعيها حولها ، فخلقت مشروعها خلقاً لتتوصل به إلى مطامعها ، واستمدت من سلطة الحكومة وغفلة حراسها قوة تستند إليها لتنفيذ برنامجها ، وتحقيق شهواتها وأغراضها » .

هذه البلاغة هى من سيل يراعة الأستاذ محمد داود ، فى مقال افتتاحى عنوانه الذكرى الرابعة فى ١٦ مايو ، مطبوع بالحبر الأحمر ضمن إطار أسود ، فى الجزء الثامن من مجلته « السلام » وموجه إلى دولة فرنسا الديمقراطية .

ومثله أو دونه أو فوقه فى البلاغة يكتبه كل كاتب ويقوله كل خطيب فى بلاد المغرب ، وخصوصاً يوم ذكرى الظهير البربرى كل عام ، كما قدمت ، فاليوم السادس عشر من شهر مايو لأهل المغرب كاليوم الثانى من شهر نوفمبر لأهل فلسطين . وكما أن العرب فى فلسطين ، بل فى البلاد العربية جمعاء يستنكرون وعد بلفور ، ويحتجون عليه ، ويستبسلون فى جهاد الدولة التى أصدرته وشرعت فى تنفيذه ، فكذلك أهل المغرب وقد عززوا جهادهم بالتضحية فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ وهم يرددون كلمات كل كاتب فيهم وكل خطيب وزعيم .

— « يا فرنسا ، إن الحقيقة التى لا مواربة فيها ، وإن الصراحة التى يسرنا ويهمك أن تسمعيها ، هى أننا نحن المغربيين ، كباراً وصغاراً ذكوراً وإناثاً علماء وجهالا ، فى حواضرنا وبوادينا ، من حدود الجزائر إلى المحيط الأطلنتيق ، ومن البحر الأبيض إلى الصحراء الكبرى . نستنكر السياسة البربرية كل الاستنكار ، وننزّه فرنسا الحقيقية ورجالها الأحرار عن المشاركة فيها ، ونصارح كل من يهمه الأمر أن الإصرار على تنفيذها سوف لا يكون له نتيجة إلا إبعاد الثقة بين الحكومة والشعب ، وخلق المشاكل العويصة التى يعود الشطر الأكبر من مضارها على الحكومة ورجالها ومشروعاتها » .

هذا الكلام من المقال نفسه للأستاذ داود يتحقق صحته كل من ساح فى المغرب . فالأمة المغربية هى حقًّا حزب واحد على الظهير البربرى ، أو هى الحزب الأكبر المقاوم له ، وللسياسة المبنية عليه .

وما هى حقيقة الظهير البربرى ، حقيقته المجردة من العواطف الوطنية ، والبلاغة الخطابية ؟

لقد كتبت فى اللغة الفرنسية كتب كثيرة ، تاريخية وقانونية وأثنولوجية وسياسية ، علمية واستعمارية ، فى هذا الظهير ووجوبه ، وفى كيفية العمل به فى القبائل البربرية بالمغرب . ما طالعت هذه الكتب الفرنسية ، ولكنى قرأت ما نقل عنها باللغة العربية(١) وشيئاً وافراً غيره فى الموضوع ، متوخياً الحقائق الراهنة المجردة من العواطف الهائجة والهادئة ، ومن أفانين البلاغة والتحريض .

هذا الظهير هو ظاهراً وثيقة استقلال البربر عن العرب المسلمين ، وحصن حقوقهم القبلية والتقليدية استوحته الحكومة الحامية من شؤون القبائل الخاضعة وتقاليدهم وعاداتهم المرتبطة بها أحوالهم الشخصية .

وهى تزعم أن القبائل هم من غير العرب الفاتحين ، بل من الشعوب الأوربية ، وأن إسلامهم لم يكن فى زمن من الأزمنة تامًّا ثابتاً ، وأن بعض هذه القبائل كانت خارجة على الدولة المغربية وسلطانها ، وأنها بعد إعلان الحماية اطمأنت إلى الحكم فدخلت فى طاعته ، وأن أكثرها تجهل الشرع الإسلامى وتتشبث بعاداتها وتقاليدها فى التقاضى ، فلذلك كله يجب أن يكون لها أنظمة خاصة تضمن بقاء الأحوال التى أمست جزءاً من كيانها .

---

(١) خير كتاب عربى يشرح القضية شرحاً تاريخياً سياسياً قانونياً ويدحض حجج أنصارها ، هو كتاب « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » أى التقرير إلى المؤتمر الإسلامى العام من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب ، والمصدر ببحث مستوف للأستاذ محمد المكى الناصرى .

إن فى الزعم الأول مجالا واسعاً للجدل والمناقشة . وقد اختلفت العلماء فى أصل الشعوب التى كانت تقطن أفريقيا الشمالية قبل الفتح الفينيقى والاحتلال الرومانى . بل قبل أن يكون بين البحرين المتوسط والأطلنتيق المضيق الذى يدعى اليوم مضيق جبل طارق . ففى ذلكَ الزمان الجيولوجى ، يوم كانت أوربا متصلة بأفريقيا ، نزحت بعض الشعوب الأفريقية إلى أوربا واستوطنتها . فيكون الأوربيون بحسب هذا الرأى العلمى ، من أفريقيا أصلا ولا يكون الأفريقيون من أوربا ! ويقول ابن خلدون الذى يحترم المؤرخون الأوربيون رأيه : إن البربر من عرب اليمن نزحوا إلى المغرب قبل الفتح الإسلامى . على كل حال إن الاهتمام بمثل هذا الأبحاث لعقيم ، وخصوصاً فى هذا الزمان السعيد . وقد اختلطت الشعوب كلها بعضها ببعض ، فلا يُعرف الآرى من السامى ، ولا البربرى من المغربى ، ولا ابن أفريقيا الشمالية الأزرق العين ، الوردى الخدّ ، من ابن ماتاغونية المفاخر بـ « الحيوان الأشقر » حيوان نتشة . لا يُعرف الفرق بينهم إلا بالقانون الدكتاتورى ، أو بالظهير .

ومن ينكر أن القبائل البربرية اختلطت بالعرب الفاتحين ونسلهم ، فأضحى الدم فى الشعبين واحداً فى صفائه ، أو فى عكرته — كما تشاء ؟

ومن ينكر أن دول المغرب كلها منذ الفتح حتى اليوم هى دول إسلامية وأن بينها مآثر مجيدة للبربر تمثلت فى دولتى المرابطين المسلمين والمسلمين الموحدين ، وفى أبطالها المشهورين ، ابن صوفر وابن يسين والبربرى العظيم ابن تاشفين .

أما عادات القبائل وتقاليدها ، فى الأحوال الشخصية ، فليس بين أهل الاختصاص من يجهل حقيقتها . بل إن للقبائل فى كل مكان عادات وتقاليد خاصة ، تتشبث بها ، وتغار عليها من طوارئ الحدثان وأيدى التجديد والعمران .

وعندنا فى البلاد العربية ما يشبهها ، كبعض القبائل فى اليمن ، وفى نجد والحجاز والعراق . فإن لها جميعاً عادات وتقاليد مرعية فى أحوالها الشخصية ، تحترمها السلطات العليا فى البلاد ، ولا تتذرع بها لتخرج أصحابها من حظيرة الإسلام ، وتجعلهم مستقلين فى قضائهم وفى لغتهم ودينهم .

إن الظهير ، فضلا عن ذلك وضع لأغراض ، وهى على ما أرى ثلاثة :

أولا — فصل القبائل البربرية عن المغاربة لغة ودينا ، وذلك بنشر التعليم الفرنسى فيهم ، وبالتبشير بالدين المسيحى الكاثوليكى .

ثانياً — استقلال القضاء البربرى ، أو ما يسمونه العرف البربرى ، عن الشرع الإسلامى وإدخاله تدريجاً فى القضاء الفرنسى .

ثالثاً — تملك الفرنسيين أراضى القبائل بطرائق مشروعة يستنبطونها من عادات البربر وتقاليدهم التى تعهدوا أن يحترموها .

فهل فى إحلال القضاء الفرنسى محل القضاء العرفى ، كما هى الحقيقة فى التقارير الملحقة بالظهير — وسنذكرها فى محلها — وهل فى إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية ، شىء من الاستقلال البربرى ، أو من المحافظة على حقوق البربر التقليدية ؟ إنه ليصعب إخفاء النتيجة أو تحايدها . فالمسألة مرتبطة بقاعدة كانت رومانية فى قديم الزمان ، وكانت تركية بالأمس ، وهى اليوم فرنسية إنكليزية يابانية ، هى قاعدة فرّق تسد . والسيادة هدف أقصى هو الاستيلاء ، وبكلمة أخص هو امتلاك الأراضى .

ليس فى الظهير البربرى الأول ما يتعلق مباشرة بالأرض . ولكن فى الظهير الثانى والتقارير الملحقة به ما يثبت أن الدولة الحامية تمهد لأبنائها سبل التملك فى البلاد وخصوصاً فى البوادى ، على ما يعترض ذلك من الصعوبات . فالفلاح المغربى شديد التعلق بالأرض ، وهو يسميها أمه . فإن سئل بيعها قال : وهل أبيع أمى ؟ والفلاح البربرى هو أشد تعلقاً بهذه الأمومة من سواه .

أضف إلى ذلك أن أكثر الأراضى التى للقبائل هى ما يسمونه هم « أرض جماعة » ، وما نسميه نحن فى البلاد العربية حِمى ، فلا يجوز بيعها للأجانب ، ولا يجوز لأى فرد كان من العشيرة التصرف بها مستقلا عن أبناء عشيرته . حتى إن حق الشفعة الذى يخص به الشرع الإسلامى شركاء الأملاك الخاصة ، يمده العرف البربرى إلى كل سكان القبيلة . فكيف تغلبت الدولة الحامية على هذه الصعوبات ؟

عندما حلت جنود الحماية بالبلاد أنزِلت فى أملاك خاصة بالدولة ، أى فى أراضى المخزنية . فما لبثت أن ضاقت هذه الأراضى بالجنود ، فخطت إدارة الأملاك خطوتها الثانية ، وقصدها أن تنتزع من بعض القبائل قسما من أملاك جماعاتهم ، فتضمه إلى ما تسميه أراضى الجيش لتخرج أصحابه منه ، ثم توزعه على المهاجرين من الفرنسيين إلى المغرب .

هذا المشروع المتشعب الأطراف المرتبك الأسباب والأساليب باشرته الدولة الحامية ، وشرعت تتقدم فيه تدريجاً كلما ازداد عدد الطالبين[1] وبما أن اشتراء الأراضى من القبائل كان متعسراً ، للأسباب التى ذكرت ، طفقت تستأجرها بعقود قصيرة الأجل — ثلاث سنوات فى البداية . ثم طويلة — عشر سنوات ، ثم أطول — تسعة وتسعين سنة .

وقد كللت مشروعها هذا بظهير يونيو سنة ١٩٢٢ الذى يختص « بتفويت (بيع) العقار من قبل المغاربة المنتمين إلى القبائل ذات العرف البربرى ، والتى لا محاكم فيها لتطبيق الشرع لأشخاص أجانب » .

فكيف نوفق بين ظهير سبتمبر سنة ١٩١٤ الذى من شأنه المحافظة ظاهراً

---

(١) لم يكن فى المغرب قبل عهد الحماية أكثر من خمسة آلاف أوربى ، منهم أربعة آلاف فى طنجة . وفى سنة ١٩٢٩ بلغ عدد الأوربيين فى المغرب الأقصى مائة وخمسة آلاف نفس ، ثمانون ألفاً منهم فرنسيون أو نحو ذلك .

على عادات القبائل وتقاليدها ، ومنها أن بيع العقار للأجنبى محظور ، وبين هذا الظهير الذى يجيز البيع ويبرره ؟ الجواب : لا توفيق يراد بينهما . والجواب الآخر : أن الاثنين واجبان لسلامة الدولة ومصالح أبنائها . أما الجواب الصريح المفحم فإنى أعطيكه من كتب ألفها فرنسيون قانونيون ومستعمرون .

قال روبر ريتو : « رعياً ليوم يصبح فيه أبناء فرنسا أصحاب الرأى المطلق فى الشمال الأفريقى . فينشأ على أنقاض الإرث الرومانى ، بأمن وسلام ، شعب فرنسى ، ويرفرف على شواطئ البحر المتوسط العلم المثلث الألوان . هوذا الفوز الذى يضمن لنسلنا المتزايد أصقاعاً أمينة نلجأ إليها كلما مست الحاجة إلى ذلك . »

وقال مارتى (P. Marty) : « ما جئنا هذه البلاد (أفريقيا الشمالية) حبًّا بأهلها ، بل لنجعل من تربتها أرضاً صالحة لأبناء فرنسا ، ونعيدها إلى الحظيرة اللاتينية كما كانت قبل الغزو الإسلامى » .

وقال جيرو (A. Guiraud) ، الذى انتدبته الحكومة الفرنسية لإصلاح العدلية التونسية ، وكان بعدئذ عضواً فى لجنة إصلاح العدلية المغربية : « إن القضاء البربرى قائم على الفكرة فى أن البربر مسيحيون فلا يجب أن يخضعوا للشرع الإسلامى » .

وقد جاء فى المادة الأولى من معاهدة الحماية (١٩١٢) أن الحكومة الجمهورية الفرنسية ، تتعهد بأن جميع الإصلاحات التى تقوم بها فى المغرب لا تمس الدين الإسلامى بسوء ، وأن المؤسسات الدينية الإسلامية تبقى كلها على حالها . ثم جاء فى المادة الثانية ، أنها « تقطع على نفسها عهداً بأن تبذل لجلالته (السلطان) الشريفة المساعدة ضد كل خطر يهدد شخصه أو عرشه ، أو يقلق راحة ولايته ، وتقدم المساعدة نفسها إلى وارث العرش وخلفائه من بعده » .

على أن فى فرنسا علماء ومؤرخين وقانونيين تستعين حكومة الجمهورية بعلمهم

فى شرح نصوص المعاهدات وتأويلها ، لتبرر السياسة التى تريد اتباعها .

وكذلك فعلت فى استصدار الظهير البربرى . فقد عادت إلى العقد الثانى من القرن الماضى ، إلى عهد السلطان الحسن بن محمد ، تدرس أحواله وأعماله ، فوجدت أنه اهتم مرة بالتقاليد البربرية فى سوس ، فأمر بجمعها ليتحقق ما إذا كان فيها شىء مخالف للدين الإسلامى فينهى عنه . ولكنه لم يتعرض لها لأنه علم وتيقن أنها لا تحتوى على ما يناقض الشرع والدين .

هذا الاكتشاف التاريخى تستغله الحكومة بواسطة رجال القانون ، قال ريبو (Ribaut) الاختصاصى فى قوانين الجزائر والداعى للظهير البربرى : « هذه السابقة الشهيرة من آخر سلاطين المغرب العظام هى التى سمحت لابنه مولاى يوسف أن يوقع دون كثير من الصعوبات ظهير ١١ سبتمبر ١٩١٤ » .

والفرق بين إجازة الأعراف البربرية ضمن نطاق الشرع الإسلامى والاعتراف بها والعمل لاستقلالها عن ذلك الشرع ، ظاهر لا جدال فيه . وقد جاء فى الكتاب العربى ، أى التقرير الذى أشرت إليه ، أن المولى يوسف كان خصما عنيداً للسياسة البربرية ، وأنه صرح قائلا : « كل قبيلة دخلت فى طاعة الدولة المغربية يجب أن تكون خاضعة للشرع الإسلامى » — نقلها كذلك ريبو فى كتابه « جماعات القضاء البربرى » (١) .

ولكن الإلحاف السياسى ، والتلبيس الدبلوماسى ، « والسوابق التاريخية » ومعاونه بعض رجال القصر لرجال الحماية ، كل ذلك أحاط بالعرش ومكّن الفرنسيين من صاحبه ، فوقع المولى يوسف الظهير فى ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ ،

---

(١) "Quand le texte du dahir fut soumis au sultan et au grand vizir, tous deux opposèrent une vive résistance, affirmant que tout tribu pacifiée devant, comme le reste de l'Empire, être soumise au charâ musulman." Ribaut : Les Djemâas Judiciaires Berberes.

وها هو ذا بنصه الشريف [١] :

« نظراً إلى أن قبائل جديدة تنضم يوماً فيوماً إلى الإمبراطورية المغربية بفضل الأمن والسلام ، ونظراً إلى أن هذه القبائل من الجنس البربرى ، لها قوانين وعادات خاصة ، تستعمل عندها منذ القدم ، ولها بها تعلق شديد ، ونظراً إلى أنه يلزم لخير رعايانا ، ولطمأنينة إيالتنا السعيدة رعاية الحالة العرفية التى تدبر هذه القبائل ، أصدر جلالة السلطان أمره بما يأتى :

« الفصل الأول — قبائل العرف البربرى تكون محكومة ومنظمة طبق قوانينها وأعرافها الخاصة ، تحت مراقبات السلطات ، وتبقى محكومة ومنظمة كذلك .

« الفصل الثانى — تصدر قرارات من وزيرنا الأكبر (رئيس الوزراء) بالاتفاق مع الكاتب العام للحكومة الشريفية تعين شيئاً فشيئاً ، وحسب الحاجة : (أولا) القبائل التى تدخل فى دائرة العرف البربرى ، (ثانياً) القوانين والتنظيمات التى تطبق على العرف البربرى » .

ثم عين المقيم العام المارشال ليوتى يومئذ لجنة خاصة من كبار موظفى الإقامية « لجمع الأبحاث المتعلقة بالقبائل البربرية من جميع أطراف المغرب واستخراج نتائج عملية من تلك الأبحاث تساعد السلطة على تنظيم القبائل وإدارتها بشكل يتفق ومصلحة الدولة » .

ومما قررته تلك اللجنة أن البرابرة ثلاثة أصناف :

أولا — العنصر البربرى الخالص الذى لا يزال فى المغرب الأقصى محتفظاً بلهجاته البربرية ، عدده مليون ونصف مليون نسمة ، منهم برابرة الريف ، والأطلس الأعلى ، والأطلس المتوسط .

الثانى — القبائل المغربية المستعربة ، التى تريد السلطة أن تضمها إلى

---

(١) أظن أنه كتب أولا باللغة الفرنسية وهذه ترجمته منقولة بالحرف الواحد من كتاب « فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الأقصى » .

الصنف الأول ، وتدخلها فى نظام العرف البربرى .

الثالث — القبائل البربرية التى تخضع منذ القدم لمحاكم الشرع الإسلامى ، وهى مسلمة عريقة فى الإسلام ، وكل ما تحتفظ به من تقاليدها يتعلق بالقضايا الجنائية فقط . وعدد الصنفين الثانى والثالث يزيد نحو مليون نفس على عدد الصنف الأول .

ولكن كل هذه القبائل ستدخل تدريجاً فى حكم النظام الجديد . لذلك أصدرت الحكومة الحامية ، باسم الحكومة المحمية ولا غرو ، قرارات وزيرية فى ٥ مايو ١٩٢٣ و ١٦ أبريل ١٩٢٨ ، توجب مواصلة العمل فى الفصل والتنظيم .

ثم قررت إنشاء « جماعات بربرية » تقوم بتنفيذ أحكام العرف ، وأصدرت الظهائر السلطانية ، والقرارات الوزيرية ، لهذا الغرض ، فأنشأت بموجبها نحواً من ثمانين « جماعة بربرية » تتولى القضاء فى نحو أربعين مركزاً من المراكز الإدارية ، وجهزت هذه « الجماعات » بكتاب فرنسيين اختارتهم من ضباط الجيش أو الضباط المترجمين ، وقررت أن تكون اللغة الفرنسية اللغة الرسمية لأعمال « الجماعات » وأن يكون لها سكرتير عام فرنسى ، هو فعلا قطبها ومدير شؤونها .

على أن المشروع فى مراحله الأولى لم يتجاوز الحدود الإدارية ، ولم تكتسب « الجماعات البربرية » صفة قانونية ، فما اعترفت المحاكم الإسلامية بعقودها وأحكامها .

وبما أن الصفة القانونية هى من ألزم ما يلزمها سعت السلطة لاستصدار الظهير الذى يعطيها هذه الصفة فيرفعها إلى مستوى محاكم الشرع الإسلامية . وكانت قد عينت لجنة لتنظيم العدلية فى سنة ١٩٢٤ ، فاستعانت بتقريرها القائل : « تعتقد اللجنة أن لا غنى عن أخذ مرسوم من جلالة السلطان لوضع أساس الجماعات البربرية وتحديد اختصاصها » .

مرت السنة وتلتها السنوات الثلاث – الأربع – الخمس ، وما صدر الظهير المنشود . مع ذلك استمرت الحكومة الحامية فى عملها الإدارى توطد أركانه ، فجهزت الجماعات القضائية بأنظمة للإدارة والمرافعة ، وبميزانية خاصة بها ، ثم قررت إنشاء محاكم عرفية ، ابتدائية واستئنافية ، فى بعض القبائل كزمور و بنى مطهر وبنى مجيلد .

هذه الأعمال الإدارية قامت الحكومة الحامية بها ، مستقلة عن الحكومة المخزنية ، خلال الست عشرة سنة ، منذ ١٩١٤ إلى ١٩٣٠ ، وبدون الظهير الذى يبررها ويعطى « الجماعات البربرية » صفة قانونية .

وفى سنة ١٩٣٠ بعد أن خلف مولاى محمد أباه مولاى يوسف بثلاث سنوات ، رأى المقيم العام المسيو لوسيان سان (Lucien Saint) أن الفرصة قد حانت لصبغ النظام الجديد بصبغة قانونية تامة ثابتة . وقد استعان ببعض رجال القصر الحائزين ثقة السلطان الشاب ، فهونوا الأمر عليه ، فوقع فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ الظهير الذى يوسع نطاق النفوذ الفرنسى فى القبائل ، ويفصلها تماماً عن السلطة المخزنية ، ويضع الجماعات القضائية تحت سلطة الحكومة الحامية ويعين موظفين فرنسيين فى المحاكم الابتدائية والاستئنافية ويجعل القضايا العقارية وجميع القضايا الجنائية خاضعة لأحكام النظام القضائى الجديد . وهو يقلد كذلك رئيس الوزراء سلطة تمكنه من إصدار الأوامر فى كل ما يتعلق بتنظيم المحاكم العرفية وتعيين القبائل التى تدخل تحت نظام العرف ، فيطبق تدريجاً عليها كلها .

وفى مقدمة هذا الظهير الذى وضعه المسيو لوسيان سان ، وافتتحه حسب العادة بالبسملة ، تسوية للحقيقة إذ يقول إن السلطان مولاى يوسف هو الذى وضع أساس السياسة البربرية لمصلحة الأمة المغربية . وقد سبق فذكرت أن مولاى يوسف صرح قائلا – بشهادة المسيو ريبو نفسه – « إن كل قبيلة دخلت فى

طاعة الدولة المغربية يجب أن تكون خاضعة للشرع الإسلامى » .

هى السابقات التاريخية ، قرة عين القانونيين ، ومعشوقة السياسيين عندما تخدم أغراضهم . فالمولى الحسن قد مهد لابنه المولى يوسف ، والمولى يوسف مهد لابنه مولاى محمد ، وما عملت الحكومة الحامية بغير إرادة سلاطين المخزن الشريف .

ولكن المؤتمر الإسلامى العام الذى عقد بمدينة فاس فى ٢٧ رجب و ٢٧ شعبان عام ١٣٥٠ قرر ما يلى :

« قد تناول المؤتمر فى أبحاثه موضوع الظهير الذى أصدر بتأثير السلطات الاستعمارية سنة ١٩٣٠ فى بلاد المغرب الأقصى القاضى بقطع علاقات مسلمى البربر من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكذلك موضوع الحملات التبشيرية التى تقوم بها الجمعيات الدينية لتحويل أبناء البربر المسلمين عن دينهم ولتنصيرهم . وهو يقابل ذلك بأشد الاستنكار ويرى فيه عدواناً صارخاً على الحرية الدينية ، وكرامة الدين الإسلامى وأحكامه . وقد عهد إلى رياسة المؤتمر بالاحتجاج على ذلك لدى المراجع الإيجابية ، وبطلب إلغاء الظهير والكف عن تلك الأسباب التبشيرية » .

وجاء فى قرار لكتلة العمل القومى :

« وقد تيقن المغاربة أن السياسة البربرية المتبعة فى البلاد هى سياسة إدماج ، وأنها مظهر من مظاهر الحكم المباشر المنافى تمام المنافاة لمعاهدة الحماية التى تقضى بأن الحكم للمغرب وحده وأن ليس للدولة الحامية سوى حق المراقبة وواجب المساعدة » .

وفى « مطالب الشعب المغربى » التى قدمتها لجنة الوفد المغربى إلى جلالة السلطان محمد بن يوسف عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤) م ما يلى :

١ ــ العدول عن تطبيق السياسة البربرية وإبطال العمل بما صدر فيها منذ ١٩١٤ من الظهائر والقرارات المخزنية ومن المناشير الإدارية .

٢ – جعل نظام المحاكم المغربية ونظام التعليم موحدين فى أنحاء البلاد كافة.

٣ – منع التبشير بين المغاربة والمسلمين فى البوادى والحواضر .

٤ – عدم منح أى إعانة من الميزانية المغربية أو أى ملك من أملاك المخزن الشريف للجمعيات التبشيرية » .

ولا تزال الأحزاب والصحافة والأمة تحتج على الظهير البربرى احتجاجاً يبلغ أشده فى ١٦ مايو من كل عام .

١٦ مايو سنة ١٩٣٠ فى المغرب الأقصى ، و ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ فى فلسطين : الظهير البربرى ، ووعد بلفور . إنهما من الوثائق التاريخية الخطيرة التى يتمثل فيها أسلوب من أساليب الاستعمار الأوربى الجديدة . ولا يقوم مؤرخ هذه الأيام ، بالواجب عليه حق القيام إن لم يذكر هاتين الوثيقتين ويدرسهما ويقارن بينهما وبين أغراض الدولتين المصدرتين لهما .

بقى أن أعطيك ، أيها القارئ العزيز ، مثالا واحداً من الأعمال التمهيدية للظهير البربرى – كيف يطبخ الظهير – وهو مأخوذ من محضر اللجنة (١) التى عينها المقيم الفرنسى العام للبحث فى تنظيم العدلية البربرية (الرباط ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٤) :

دوران (المفتش العام فى إدارة المحافظة العقارية) : يجب أن يُنصَّب قضاة فرنسيون فى المحاكم البربرية ليمكنهم استنباط ما هو العرف بين البربر .

كوردبى (الرئيس الأول فى محكمة الاستئناف) يجب أن نضع نظاماً مطاطاً ليناً جداً ، يسمح بنصب القضاة الفرنسيين فى المراكز التى يناسب ذلك فيها .

كوردبى أيضاً : أرى أن تكون عقوبة الجرائم المرتكبة فى بلاد البربر موكولة بالمحاكم الفرنسية .

---

(١) نشرته جريدة الوحدة المغربية فى عددها الخاص بالذكرى السابعة للظهير البربرى الصادر فى ١٦ مايو ١٩٣٧ .

پينازى (مدير الأمور الأهلية) : إنى أشك فى إمكان موافقة المخزن على هذه المسألة .

بلان (قنصل فرنسا ومستشار الحكومة الشريفية) : أستطيع أن أؤكد لأعضاء اللجنة مساعدة السلطان على النص المشار إليه .

پينازى : من الممكن حدوث رد فعل من جانب المخزن ، فأرى المستحسن أن نصل إلى هذه التدابير شيئاً فشيئاً — على التدريج .

* * *

كذلك يُطبخ الظهير . فيقدم بواسطة طبيب السلطان (الحاجب أو رئيس المشور أو رئيس الوزراء أو آخر من دهاقين القصر أو المخزن) فيذوقه فخامة الدهقان ، بعد أن يكون قد ذاق من موائد الحماية ألذ المآكيل — ويؤمن عليه ، بل يهون أمره على المولى ، فيوقّعه وهو مصدّر باسم الله !

الفصل الرابع عشر

الفضل للمتقدم

ليذكر العاملون فى حقل التعليم ، وزعماء الأمة السياسيون والاقتصاديون ، وقادة الرأى العام فى المستقبل أن :

أول من أسس مدرسة أهلية بتطوان سنة ١٩٢٥ هو الأستاذ الحاج محمد داود . وهو كذلك أول من أنشأ مجلة أدبية تاريخية مصورة ، هى مجلة « السلام » ، صدر العدد الأول منها فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

وأول من أنشأ جريدة عربية بتطوان هو الشيخ عبد الله الدحداح اللبنانى ، أنشأها فى سنة ١٩٣٣ وأسماها « الاتحاد » .

وأول من أنشأ جريدة وطنية من أهل المنطقة هو الأستاذ عبد الخالق طريس . فقد صدر العدد الأول من « الحياة » فى مارس ١٩٣٤ . وهو أول من أسس حزباً سياسياً .

وأول من اهتم باقتصاديات المنطقة وأسس شركة اقتصادية هو الحاج عبد السلام بنونة .

وأول بعثة من الطلبة إلى فلسطين التحقت بمدرسة الفلاح بنابلس سنة ١٩٣٠ .

وأول معلمة وكاتبة فى هذه المنطقة هى السيدة رحمة المدنى .

وأول مهندس هو محمد الفاسى .

وأول أستاذ عربى لبنانى هو ألفريد البستانى .

والآخرون من الأساتذة اللبنانيين : موسى عبود وحسن عسيران ونجيب مُلهم وأنطوان عيد البستانى ، جاءوا بعده فى أوائل سنة ١٩٣٩ .

وأول رهط من الأساتذة المصريين كان مؤلفاً من حسين الأبيارى وعبد الله الجليل خليفة وحافظ متولى ويونس مهران وحسين أمين ومحمد وهبى ، قدموا تطوان فى يناير ١٩٣٩ .

وأول خليفة عنى بالتعليم ونشره ، ويعقد صلة ثقافية بين المغرب والمشرق العربى ، فأسس المعهد الخليفى بتطوان ، وبيت المغرب بالقاهرة ، هو الخليفة الحسن بن المهدى .

وأول من اهتم بالنهضة المغربية الوطنية الثقافية من المقيمين الإسبان اهتماماً صادقاً مثمراً ، فساعد فى وضع الأسس ووطدها ، هو الكلونل خوان بايبدر[1]

---

(١) فى تطوان من يذكرون بالخير الجنرال فرنند كاباس (F. Capaz) الذى تولى نيابة الأمور الوطنية (أى مديرية الداخلية ورياسة المراقبين) منذ سنة ١٩٣٣ حتى منتصف سنة ١٩٣٥ ، وكان ذا عناية محمودة بالنهضة الوطنية الثقافية ، فباشر تأسيس المدارس ، ووظف بعض الوطنيين العصريين فى الحكومة كعبد الخالق طريس الذى كان فى عهده مدير الأحباس ، ومنح الصحافة حرية مقيدة بسياسة الإقامية . فعطلت الحكومة جريدة « الحياة » لأنها كانت تطالب باستقلال القضاء الإسلامى .

كان الجنرال كاباس من الاستعماريين الرشيدين ، يعجب بالمرشال ليوتى ويريد أن يقتفى أثره ليكون لإسبانيا فى المنطقة الشمالية ما لفرنسا فى المنطقة الجنوبية . أما فضله الأهم ، من الناحية الوطنية ، فهو استدعاؤه لصديقه الكولونيل بايبدر ، الذى كان يومئذ مستشاراً فى السفارة الإسبانية ، ليكون عوناً له فى المغرب . فجاء بايبدر فى سنة ١٩٣٤ وشغل وظيفة مراقب حتى يوم أعلنت الثورة . ثم تسلم زمام الأمور وتبنى النهضة المغربية فزادها نشاطاً وعزماً .

وللشعراء

أرى أملا للمغرب ابيضّ أفقُه ... يلوحُ بليل اليأس منه سنى البرق
عليه من العليا بشائرُ نهضةٍ ... تهدّد أركان التسلط والرقّ

المغرب — محمد المهدى الحجرى

كلّ صعب على الشباب يهونُ ... هكذا همةُ الرجال تكونُ
قدم فى الثرى وفوق الثريا ... همةٌ قدرُها هناك مكينُ

فاس — علال الفاسى

وردُّ السيل عن مجراه أدنى ... من ان يرتدّ نشءٌ يستفيقُ
ألا فلنتحد فى السير جنباً ... لجنبٍ أيها النشء المفيق

مراكش — المختار السوسى

قوموا انظروا القوم فى أسمى تقدمهم ... قد مهّدوا الأرض قاصيها ودانيها
فى كل يوم تروْا منهم عجائبَ لا ... ينفكّ حاضرُها يُزرى بماضيها

الرباط — محمد الجزولى

بنى وطنى أحيوا علوماً دوارسا ... فكل بلايا الشعب جاءت من الجهل
بنى وطنى هيا ارفعوا شأن قومِكم ... فقد جُرّعوا كأس المهانة والذل

تطوان — محمد عزيمان

أمة المغرب هىّ للعلا ... فلقد ولى زمان الخاملين
يا بنى المغرب هيا اقتحموا ... سبل العيش بعزم لا يلين

تطوان — محمد داود

يا أيها الشبان سيروا إنكم جند الحياه
الخطبُ جلّ وليس غير بنى البلاد لها حماه

المكى الناصرى

تطوان

ما كان لى من حاجة ومراد إلا تيقظ أمتى وبلادى
هذى الحوادث أيقظت من هولها حتى الجماد فعاد غير جماد

السعيد الزاهرى

الجزائر

عهدى بقومى كالصوارم تنتضى عهدى بهم كصوارم الأطراد
عهدى وليس يفلّ شىء عزمهم أو يظفروا بمرامهم ومراد

الهادى المدنى

تونس

لذةُ العيش حياةُ الوطن وفداه من صروف الزمن

* * *

إن يكن غيرى يهوى أحداً فهواه العذب قد تيمّنى

* * *

وأنا ما عشت عليه واقفٌ قوّةَ الروح وشغلَ البدنِ
ومُضحّ كلّ ما أملكه فى هواه لستُ فى ذاك أنى
وإذا متّ عليه فأنا مطمئنٌّ لرضاه المثمن
فاغسلوا بالماء منه بدنى واجعلوا نسج بنيه كفنى
وادفنونى فى ثراه وضعوا فوق قبرى منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحى بدمى ها هنا قبر شهيد الوطن

علال الفاسى

الجزء الثاني

الفصل الأول

الخليفة الحسن

لا يزال فى البلاد العربية ، على الخليج الفارسى والبحر الهندى وحول عدن ، إمارات مقيدة بالسياسة الإنكليزية ، يخضع أمراؤها بنفس طيبة ، أو بعامل من عوامل القضاء — يقضى على المرء! ... — أو حفظاً لحقوق بيتية فى الإمارة ، أو من قصر الهمة ، لمشيئة الإنكليز التى يمثلها المقيم أو المستشار أو الضابط السياسى.

هذه الصلة بين الإنكليز والأمير الحاكم ، على أنواعها فى الأمر والطاعة ، أو فى الإرادة والإذعان ، لا يجهلها العرب مهما حرص أميرهم على كتمانها ... فهم يعلمون بما به من ضعف ومن قوة ، وبما تقوم عليه إمارته من حق مشروع ، وإن كان متزعزعاً فى بيته ، ومن حق مصنوع مؤيد فى ارتباطه بالإنكليز . لذلك لا يطيعون إلا منتفعين أو مكرهين ، فيقل — ويكاد يضمحل — الحب والاحترام بينه وبينهم .

والأمير يدرك ذلك ويتجاهله . على أنه لا يستطيع أن يقنع آل بيته ، ورجال حكومته ، والمقربين منه ، بصدق جهله ، أو بحياة تجاهله . إن صلته بالإنكليز لتحرمه حق الحاكم العادل ، أى محبة رعيته واحترامها . هذه الحقيقة تثير فى صدره من حين إلى حين كوامن الغيظ والحنق ، فيكبتها . فينشأ من التفاعل بينها وبين ما يظهره شىء لا يخفى على الإنكليز . ولكنهم يتجاهلون ، يتجاهلون والحرمان مشترك متبادل فى حالى الجهل والتجاهل . فإن تلك العاطفة ، عاطفة الحب والاحترام ، التى تقل ، وتكاد تضمحل ، بين الأمير ورعيته ،

هى هى العاطفة نفسها ، بصفتها التامة — وقل الناقصة — بينه وبين الإنكليز المسيطرين عليه .

إنها لحالة غير طبيعية ، تدوم — إن دامت طويلا — بالقوة ، فإذ ذاك لا بد من الأزمات السياسية ، أو المصانعة التى توجبها المصلحة ، فإذ ذاك لا بد أن تظهر — وإن خلتها تخفى — فتفسد كل تدبير ، وتذهب بكل احتياط ، هذا فى البلاد العربية .

وهاهنا فى هذه المنطقة من المغرب الأقصى أمير عربى ، لاغبار على عروبته ، وعروبة أجداده ، التى نعمت فى المغرب بثلاثمائة سنة من الحياة الحاكمة ، بمآثرها ومعاثرها ، بعد أن انتقلت بحسبها ونسبها من الحجاز . أما أن يكون الدم العربى صافياً فى هذه السلالة طوال هجرتها فذلك مما لا أعلمه ، ولا أظن أن أحداً يعلمه العلم اليقين ، فيستطيع أن يجزم به .

على أن هناك أبواباً للترجيح أذكر منها باباً واحداً هو تسرّى جد هذه العائلة ، إسماعيل الكبير تسرياً بلغ المنتهى ، وأثمر ما يزيد على المائة من بنين وبنات ، من النسوة البيض والشقر والسود فى الحريم السلطانى الذى كان يومئذ مشهوراً . فهل يعقل أن يكون أبناؤه جميعاً من أرومة عربية صافية نقية ؟ وهل يستنكر أو يستهجن اختلاط دم البربر مثلا بدم العرب ؟ وهل نستطيع أن نثبت الشك إن شككنا فى مثل هذا الاختلاط ؟ ليس عندى غير جواب واحد فى هذه الحالات الثلاث . ولست أرى فى التزاوج بين شعبين من الشعوب البيض أو السود أو الصفر فى حالى الصحة والسلامة ، غير الخير الوافر . ما ضرّ اختلاط العرب بالفرس على قلته ، بل أفاد الشعبين ، ولا يضر اختلاط عرب المغرب بالبربر . وليس من شك فى أنه كثر خلال ثلاثة عشر قرناً . فإن اختلاط الشعبين بالتزاوج من دواعى القومية المغربية — العربية البربرية — التى تزداد قوة ومناعة .

إن الشكل العربى التقليدى السامى المحدد فى علم الأنثولوجيا ، أى الوجه المخروط ، والعظم الفارغ فوق الخدين ، والأنف الأقنى ، والإهاب الأسمر ، والعين السوداء ، هذا الشكل يشتد كثيراً فى البلاد العربية ، خصوصاً فى أعالى اليمن والحجاز . فما كل العرب ساميين بحسب التحديد الأنثولوجى ، ولا هم كلهم من معدن الخير والكرم الذى تصوره الشاعر حسان بن ثابت فى قوله :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول

فقد رأيت فى اليمن الأعلى كثيرين ممن تصح فيهم الصفتان الأولى والثالثة فقط ، ورأيت عدداً غير قليل ممن كرمت أحسابهم ، وابيضت بشرتهم ، وطالت منهم الأنوف والوجوه . فأين الشكل السامى الأنثولوجى الكامل ؟ وأين الشكل العربى الشعرى التام ؟ إنه ليندر فى الأقطار العربية جمعاء .

أما الكريمة أحسابهم فإن أشكالهم فى الحجاز ونجد تختلف عنها فى اليمن أو فى العراق . فمنها ما يدنو من الشكل الآرى ، ومنها ما فيه بعض السمات السامية ، ومنها ما تختلط فيه الأشكال السامية والآرية والحامية معاً .

وأما الأنفة والحمية وعزة النفس التى يتصف بها « بيض الوجوه ، شم الأنوف » فهى من التقاليد المستحبة صورها فى كلام الأدباء ، شعراً أو نثراً ، وقلما يجدها المحققون من العلماء مجتمعة فى موضعها . وإنه ليصعب عليهم أن يدركوا الأسباب فى شواذها ، فيدهشهم وجودها فى العبد الأفطس الأنف مثلا ، كما يدهشهم عدمها فى ذوى الوجوه البيض والأنوف الشماء .

* * *

والحسن بن المهدى بن إسماعيل بن الحسن العلوى ، الخليفة الثانى فى هذه المنطقة ، هو من العرب الذين تشذ فى وجوههم فقط قاعدة الشاعر حسان بن ثابت . فهو أسمر الوجه مستديره — غير الشكل السامى — ولا نتوء فى العظمين المتواريين فوق خديه وراء أنف أشمّ . وإن له من سواد حدقتيه ، ورقيق بياضهما ،

ما للعرب على الإجمال من النور البراق الذى يفيض على الوجه ، فيذهب بكلوحه ، ويزيد بهيبته .

« سمر الوجوه » كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وليس الخليفة الحسن ممن ذكرت من الأمراء العرب . فهو فى صلاته بالحاكم الأجنبى غير مكره وغير مكروه . بل هو محبوب محترم من رعيته ، لأن تلك الصلات لا تقصر من نفوذه ، ولا تطعن فى كرامته . فهى ناشئة من المصالح المشتركة ، والعواطف المتجانسة ، وقائمة بحسن النية فى توخى المقاصد التى يستقيم بها الحكم المزدوج ، وتصلح بها أمور الأمة .

هذه الصلة الطيبة بين الأمير الحاكم والدولة الحامية لبلاده يندر وجودها فى البلاد العربية ، وقل الشرقية على الإجمال . وهى كما أشرت منزهة عن المصانعة . لا إكراه فيها . ولا مجاملة ، غير ما تقتضيه الأساليب السياسية فى المواقف الرسمية .

يقول الخليفة الحسن ، عندما تسأله عن السبب فى هذا الولاء العامر بين الحكومة المخزنية والحكومة الوطنية الإسبانية : إن النظم السياسية التى يقوم عليها حكم الجنرال فرنكو لا تهمه . فهو وشعبه يميلون إلى تفضيل ما يكون مناسباً لمصالح البلاد وقد وجدوا فى السياسة الإسبانية الأفريقية الجديدة ما يسهل القيام بالأعمال الإصلاحية والإنشائية ويحقق كثيراً من الآمال الوطنية .

ويقول المقيم العام : لا يفسد الصلة بيننا وبين سمو الخليفة غير المصالح المتناقضة . وليس بيننا شىء منها . ليس ما يوجب الضغط والإكراه . ختم الخليفة الحسن بيده لا بيدنا . وكرامته متصلة بكرامتنا فهى مصونة معززة . هذه السياسة تغنينا عن كل عمل مستنكر أو مستهجن — ليس أحد من سياسيى هذه المنطقة فى السجن أو فى المنفى . لا يخاف الحرية غير المقيدين بها !

والخليفة الحسن يقدم الإسلام على العرب لأسباب عملية . فهو ينظر فى



الامير المهدى بن الحسن نجل سمو الخليفة
والرئيس الفخرى لبيت المغرب فى مصر

هذا الأمر نظرة عامة تشمل المغرب الأقصى بأجمعه ، فيرى فى المنطقة الجنوبية الإرساليات الدينية تقوم بأعمال تبشيرية خطيرة تضر بالإسلام والمسلمين ، فتحدوه الغيرة العربية الإسلامية إلى الدفاع والمقاومة ، فيقول نحن مسلمون ، ثم مغاربة . ويعمل مع العاملين لتخفيف وطأة التبشير فى الجنوب ، ولمنعه بتاتاً فى الشمال .

وهو يعترف بسلطان المغرب ابن عمه محمد بن يوسف فيأمر بالدعاء لجلالته فى خطب الجمع والأعياد ، كما أنه يؤيد الأحزاب الوطنية المجمعة على أن المغرب وطن واحد لا يتجزأ ، وتؤيده فى الوقت نفسه الدولة الحامية . أما أن يتم التوحيد بحماية من الحمايتين ، أو بدون حماية ، فذلك من الغوامض التى لا يكشف حقيقتها غير الزمان . ولازمان فى مُداته ومُديداته شؤون !

أما فى الحاضر فالخليفة الحسن يعمل هو والأحزاب لتخفيف المراقبة الإسبانية وإزالتها بالتدريج من دوائر الحكم المخزنى كلها . فقد كان فى مقدمة المطالبين باستقلال وزارتى القضاء الإسلامى والأحباس . ثم أجاب طلب الأمة بتأليف مجلس أعلى يشرف على الأحباس ، ويتعاون والوزارة المخزنية على ضبط شؤونها وإدارتها[1] .

هذا فضلا عن اعتنائه بالتعليم كما قدمت وبإدخال الأساليب الحديثة على فرعيه المدنى والدينى ، فيكون ملائماً لأمانى المغرب فى رقيه وتطوره وشاملا بخيره البوادى والحواضر جميعاً .

وليس حديث الخليفة فى هذا الموضوع مقتصراً على التجمل الخُلقى ، فيُثنى عليه ، بل هو حديث ذى عقيدة ويقين لا تعمّل فيه ولا تصنّع .

---

(١) أعضاء هذا المجلس ، الذى تألف فى فاس سنة ١٩٣٩ ، من الإيالات كلها ، هم واحد وخمسون عضواً ، منهم عشرة أعضاء عاملون ، يضم إليهم رئيس الوزراء ، والباقى أعضاء شرف أو مراسلون .

فالنور فى مبسمه . وإذ يتحدث فى شؤون المنطقة ، ينتقل النور إلى لهجته فيضىء ما فى حديثه من عزم وحماسة ونشاط .

ذكرت مبسمه — سمة البشر الطبيعى — الذى يتبارى وفهمه ، ولا يتقدمه فيجرى إلى جنبه أو فى أثره قريباً منه ؛ يترافقان ويتزاوجان فى مسالك السياسة والكياسة.

زار العاصمة فى خلال الثورة الفرنكوية أوانس إسبانيات يخدمن فى مؤسسة الصليب الأحمر ، فدعاهن الخليفة الحسن إلى حفلة شاى أقامها إكراماً لهن فى داره الجميلة خارج المدينة ، وأتم إكرامه فأمر بالفونوغراف . ومتى قلت الفونوغراف فى هذا الزمان قلت الموسيقى الأفريقية التى غزت العالم المتمدن بعد أن احتلت أميركا وعرفت باسمها الأفريقى « الجاز » . ومتى قلت « الجاز » قلت الرقص الفرنجى الأفريقى الذى جن به الآدميون فى كل مكان .

رقص المدعوون يتقدمهم الخليفة الشاب فى قيافته المغربية فأدهش الإسبانيات بما أتقن من هذا الفن . كأنه من أبناء أشبيلية أو غرناطة .

وما خرج فى سلوكه هذا عما كان من سلوك أجداده الحاكمين هناك فى الماضى فاقتبسوا عن النصارى كما اقتبس النصارى عنهم ، وما تقيدوا كل التقييد بالتقاليد والعادات الشرقية ، الاجتماعية والدينية . فلو كان الرقص شائعاً فى تلك الأيام شيوعه فى زماننا ، لكان أولئك العرب ، وهم المشغوفون بما يسمونه اليوم فى الحجاز اللعب ، أى الرقص ، من المبرزين فيه .

والخليفة الحسن يحسن على ما يظهر التهكم كما يحسن سياقة الحديث فى مجالسه ، فقد دعا أحد وزرائه ذات يوم إلى القصر ليسأله عن رأيه فى أمر من الأمور . فقال الوزير : كما يرى مولاى . فقال الحسن : أريد أن أعلم ما ترى أنت . فأجاب صاحب المعالى : رأيى فى الأمر رأى سموكم . فقال الحسن : أنا عالم بذلك ، ولكنه يُنتظر منى أن أستشير فى أمور الأمة لحية طويلة ، وليس فى « المخزن » أطول من لحيتكم !

الفصل الثانى

أحاديث وأخبار وزيرية

روى أن الفقيه أبا العباس المكناسى الملقب بالحبّاك كان خطيباً بجامع القرويين فعُزل . ثم طُلب لخطبة جامع بالأندلس فأبى وقال : إن كان عزلى بجرحة فلا يحل لكم تقديمى ، وإن كان بغير جرحة فقبولى من قلة الحمة !

أرويها لا لأننى وجود مثل الحبّاك فى حكومة المغرب المخزنية ، ولا لأثبته ، فليس أسهل من الشك أو القول الملتبس غير النفى المطلق . والسهل محبوب ، إلا أنه فى مثل هذه المواقف مشجوب . أما الإثبات فإنه ليعسر على من قضى شهراً أو شهرين فى البلاد . وقد يستحيل إن طالت الإقامة لما فى السياسة الحزبية والأغراض الشخصية فى كل مكان من المنافسات والسعايات التى تفسد الحقائق أو تخفيها .

إنما الأمم الأخلاق . . . صحيح . ومن الأخلاق ما هو متين وما هو جميل . وقد تقرن المتين بالجميل وقلما تعكس . فالأخلاق المتينة فى المتوظفين ، كالاستقامة والإباء والعزيمة والصراحة والثبات والجرأة الأدبية ، هى كلها من المثل العليا التى تقل بمجموعها ، ولا تندر بمفردها ، فى كل حكومة من حكومات العالم .

وأما الأخلاق الجميلة ، أى اللطف والوداعة والكرم والأريحية وما إليها من الرأفة والورع والتقوى فهى فى هذا المغرب ، كما هى فى الشرق العربى موفورة مشهورة . وقد يصح التعميم إن قلت إن الفرق الصارخ الأظهر بين الأوربى والعربى — المغربى أو الشرقى — هو فى هذه الأخلاق الروحية ،

أى الكرم واللطف والوداعة والأريحية .

لا أقول إنها تقل فى الأوربيين ، ولا أقول إنها موفورة . إنما يظهر لى أن فى البلاد العربية على الإجمال قاعدتها ، وفى البلدان الأوربية شواذ القاعدة . فكيفما وليت وجهك فى الشرق العربى — والمغرب الأفريقى منه — تجد فى أبنائه أمثالا مشرقة من اللطف والكرم والوداعة والأريحية . وكيفما وليت وجهك فى بلد أوربى يتمثل لك فى أهله الجد والنشاط ، والعزيمة والثبات ، والكبرياء والأنانية . أما الصدق والاستقامة فلا تفاضل فيهما — الصدق والاستقامة من المزايا الشخصية لا الشعبية أو الوطنية . وهذا تعميم آخر ، أتركه على وجهه ليرى غيرى رأيه فيه .

أعود إلى الحبّاك لأسترعى ، لما روى عنه ، أنظار الموظفين فى الحكومة المغربية وغيرها من حكومات شرقنا العربى . وأقتصر فى هذا الصدد الآن على صور وأحاديث لكبار رجال المخزن الشريف بتطوان . فالحديث حقيقة ، والتصوير فن وحقيقة ، على أن ظاهر الحقائق يختلف أحياناً وباطنها ، بيد أن ظاهر الفن ينبيء إجمالا بباطنه ، ولا يضيق فيه مع ذلك مجال الجدال .

* * *

ختمت الفصل السابق بتهكم الخليفة الحسن على وزيره ذى اللحية الطويلة ، فأعود إليه لأعطيك المثل لما قدمت . سأعرّفك بعد ملاحظة صغيرة ، وأنت الكريم العاذر ، أن الخليفة ليس وحده المنفرد بذلك التهكم ، فإن له زميلا هو المقيم العام نفسه . لقد سمعته ، والأصح أن أقول : رأيته ، غير مرة يسخر من ذوى اللحى الطويلة بمسحة يد من ذقنه إلى صدره ، ثم يقول : لا بد للوزير منها . أى أن الوزارات لا تليق بغير أصحاب اللحى الطويلة البيضاء . والحقيقة المطوية ، التى يكشفها التهكم ، هى أن العقل فى أصحاب تلك اللحى لا يقدم ولا يؤخر كثيراً . إنما الجلال هو المنشود — الجلال هو زينة السدة الوزيرية .

وهناك الحقيقة الأخرى المزعومة ، وفيها المثل الذى وعدتك به . فما هى الصلة يا ترى بينها وبين صورة الجلال ؟ بين عقل يقصر ولحية تطول ؟ وهل هناك من صلة ؟ هل هناك سر لا يُكشف بكلمة سحر أو سيادة ؟ لا أظن أن الخليفة أو المقيم العام يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال . ولا أظنهما يدعيان الاكتشاف للصورة أو لسرها المكنون ، إن كان هنالك من سر .

إن التهكم على اللحى الطويلة والسخرية منها ، لمن الآثار القديمة فى الفكر والمجون ، حُفظتْ فى بعض كتب الأدب ودواوين الشعر . اللحية الطويلة هدف كل ذى نكته عريضة ، أو مرارة مريضة . وهل من مبرر لهذا النوع من الأدب أو قلة الأدب ؟ هل يصح ما يقوله أولئك الأذكياء والمجّان من أن العقل يقل كلما كبرت لحية صاحبه ، فينقلها عنهم صائغو الأمثال ، فيقولون : من طالت لحيته قصرت فطنته ؟

إنها لفرية منكرة . وإنها فى ظنى قديمة العهد ، افتراها وزير من وزراء فرعون المرد أو حلاق مصرى كان يكره الآشوريين كرهيْن ، لأنهم المبرزون فى زمانهم باللحى الطويلة ولأنهم آشوريون . ثم شرع الأدباء وأصحاب النكتة ، من عرب وعجم ، يرددونها كما تردد الببغاء السلام عليكم .

لست من الذين يؤثرون الالتحاء على المرودة . وليس لأحد أقاربى أو أصدقائى أو معارفى على ما أذكر لحية طويلة أو قصيرة . أما أولئك اللحيانيون اللبنانيون ، المقيمون فى الأديرة أو الفارون منها ، خلاصاً لأنفسهم فى الحالين ، فالقارئ يعلم — وقد يجهل فيقرأ ويصبح من العالمين — بما هو قائم بينى وبينهم . هدانا الله جميعا ، وجعل دفاعى عن ذوى اللحى الطويلة ، المتقدمين والمتأخرين ، هذا الدفاع المجرد من الغرض ، جعله الله مقبولا لديهم ، فيدافعون عنى يوم القيامة — كما قال ابن خلدون متمنياً فى دفاعه عن حسب الأدارسة ونسبهم !

أنكرت صحة المثل السائر القائل من طالت لحيته قصرت فطنته ، وقلت

إن مصدره فرية افتراها الأقدمون والأرجح أنهم المصريون على أعدائهم الآشوريين اللحيانيين . وأزيد على ذلك أن لا أثر ولا دخل للعقل فى الشعر النابت على وجه الإنسان ، أو الشعر الواثب أو المتدلى منه ، أو الشعر المتكتل والمتشعب فيه ، أو الشعر المرسل الفائض كفضة الفجر على صدر صاحبه . وبكلمة أخرى أوضح أقول إنه لا صلة البتة بين الآلة المفكرة فى المخ والآلة الغازلة والناسجة وراء العثنون . وحسبى فى إثبات ذلك أن أذكر من مشاهير العلم والفن والأدب والسياسة والشعر من طالت لحاهم وهم كثيرون ، فأعدد منهم طولستوى وتانيسون ورودن وطاغور فى زماننا ، وإمام الطبيعيين دروين ، وذلك العبقرى ليوناردو ده فنسى ، وذلك رائد التعليم فى بلادنا العلامة الحكيم المحبوب كرنيليوس ڤانديك ، والشهابى الكبير الأمير بشير ، وشاعر أميركا الأكبر والتومان ، والموسيقى المشهور غونو ، والبطل غاريبلدى ، والقائد العظيم صلاح الدين الأيوبى . وهذا فضلا عن أنبياء من موسى عليه السلام إلى وكليف الممهد للبدع الإصلاحية فى الدين ، إلى بريغام يونغ المؤسس للكنيسة المرمونية — كل هؤلاء العباقرة ، جبابرة العقل والروح — طالت لحاهم ، كما طالت أيامهم ، وابيضت ، وكانت رمز العظمة ، والجلال فى زمانهم .

وهى كذلك فى زماننا . فإن شذت القاعدة ، فسخف عقل ذى اللحية الجليلة ، أو قصرت فطنة من طالت لحيته ، فلا أظن أن أحداً من علماء الفيزيولوجية يعزو ذلك إلى عملية خفية ، شبيهة بالعمليات الاقتصادية المألوفة ، التى تفقر الواحد لتغنى الآخر . لا أظن أن أحداً يقول قولا علمياً إن لشعر اللحى من الطفيليات ما يعيش على حساب الغير — يمتص غذاءه من المادة السنجابية فى الدماغ . إذن إلى أن تثبت هذه الصلة الطفيلية وتتحقق علمياً ، أثبت أنا فى الدفاع عن اللحى الطويلة الجليلة الجميلة ، وأبرئها من التعدى على العقل والفطنة .

واذكر — رعاك الله وأطال أيامك ، ولحيتك إن كنت من الملتحين —

أنى عطفت على اللحى الطويلة بنعتين آخرين هما الجمال والجلال ، الجمال القائم بالاعتناء الفنى ، والجلال الملازم للنعمة ، الجمال والجلال بالنمو الوارف والمقص المشارف ، والمشط والا . . . — عفواً مولاى — إن من زملائك الأنبياء فلا بأس كذلك بشىء من الطيب .

أما اللحى المزاحمة فى الروائح للمعامل الكيماوية ، اللحى العامرة بالأشياء السارحة ، اللحى الناشرة أنانيتها الدينية أو السياسية أفقياً وعمودياً من تحت العنانين ومن فوق الخدود ، تلك اللحى الرهبانية والبلشيفية ، مهزلات التقوى والتقشف ، أو المساواة والتعسف ؛ تلك اللحى المخيفة ، مفزعات الأطفال ومجفلات النساء والرجال ، تلك اللحى الشبيهة بالمكانس ، أو بعقلية العوانس ، تلك اللحى المذكرة بريش قنفذة تهاج — فإن فى المغرب ولا شك ، كما فى أديرة الشرق وبلاد البلاشفة ، كثيراً منها ، عفا الله عنها .

وأما فى الحكومة المغربية فهى على أنواعها غانمة ، غانمة فى الأقل بالوظيفة . وما رأيت منها فى دوائر المخزن العالية غير تلك التى تستحق الثناء والاحترام . وفى مقدمتها لحية صاحب الفخامة السى أحمد غنيمة رئيس الوزراء ووزير الداخلية .

لهذا الشيخ الوزير طلعة بهية زكية ، لا شرقية ولا غربية . طلعة حقاً بهية ، كأن الشمس الشارقة بجوار القطب الشمالى نفحتها بتذكار الحب ، فاحمرت الوجنتان ، وازرق الناظران ، وابيضت البشرة ، ورق الأديم ، فتقول لولا القيافة إن هذا الشيخ الجليل اسكتلندى أو صقلبى . وهو مغربى عربى من أقحاح المغاربة العرب ، ذو لحية متواضعة ، لا طويلة ولا قصيرة ، بياضها شامل كبياض جبل صنين فى فصل الشتاء .

ولكن فى قلبه تشرق على الدوام الشمس المغربية ، وفى طلعته يتجلى من الأخلاق الجميلة أجملها ، أى الوداعة والبشر . وهو إلى ذلك مثقف بالثقافة

الإسلامية العربية، فصيح اللسان ، سليم البيان، يرصع حديثه بالأشعار ، ولا يكثر فيعثر .

رأيته لأول مرة فى مجلس الخليفة الحسن فكانت كلماته القليلة زهرات من الحكمة المألوفة منشورة على طبق الترحيب ، فتشم فى موضعها ولا تمس . تنعش الفؤاد ، ولا تطمع بمكان من الذاكرة .

ورأيته للمرة الثانية فى مكتب الصدارة متربعاً على ديوان منخفض متكئاً على وسادة فوق وسادة ، وراء منضدة متجانسة والديوان ، فذكرنى لأول وهلة بصورة من الصور الصينية المرسومة على الديباج ، تمثل الحكمة والوداعة والحنان . هى الأخلاق الجميلة التى ذكرت وها هو ذا مثلها المشرق القائل إن المنطقة الخليفية تنعم اليوم بما لا تنعم به إسبانيا نفسها .

« والفضل فى ذلك ، يا أستاذ ، لهم ولنا ، الفضل فيه للحكومة الإسبانية الوطنية ولجنودنا الذين حاربوا مع الجنرال فرنكو ، واستبسلوا فى سبيل دعوته ، هو التعاون ، هو الإخاء العامل . إننا والإسبان اليوم إخوان .

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

« ولقد برهن رجال هذه الحكومة ، حكومة فرنكو ، على صدق إخائهم بما فعلوا ويفعلون . وبذلنا نحن فى سبيله دماء أبنائنا . فكانت النتيجة ما قلت من أننا ننعم اليوم بما لا تنعم به إسبانيا نفسها . فكل حاجاتنا الأولية — الدقيق والسكر والأرز والبن ، هى أوفر عندنا وأبخس ثمناً مما هى فى إسبانيا . أتعجب لذلك ؟ إذا بان السبب زال العجب . كانت الحكومة الإسبانية الوطنية تستورد المواد الأولية غالباً عن طريق إيطاليا فتدفع عليها رسماً جمركيًّا يتراوح بين الـ ٢٠ والـ ٢٥ ٪ ، وكان الجنرال فرنكو يعطينا هذه الأرزاق بأسعارها الأصلية ، دون أن يضيف إليها شيئاً من نفقات الشحن والنقل أو من الرسوم الجمركية » .

ولقد حقق خبرى ما قاله فخامة الرئيس عن وفر الأرزاق وجودتها . فالخبز

فى نزل الجزيرة الكبير أسمر خشن، وفى نزل تطوان الصغير أبيض نقى . والسكر فى المنطقة الخليفية أجود وأوفر منه فى إسبانيا . هذا فى أثناء الحرب الأهلية ، وقد استمر بعدها .

كل دواوين الوزراء مثل ديوان رئيسهم شرقية منخفضة . وكذلك هى دواوين الكتاب الشبيهة بالديوان الإمامى بصنعاء اليمن ، سبعة أو عشرة منهم يجلسون على وسائد مفروشة فوق الزرابى ، وراء منضدات صغيرة متضعة ، تقوم مقامها أحيانا الراحات وبها الطروس يكتبونها .

قال وزير العدلية السنى محمد أفيلال ، دفاعاً عن القديم الصالح من العادات والتقاليد : ينتقد الشباب هذه الدواوين ويقولون إن الكراسى والمنضدات العالية خير منها ، كأن مقامنا ومقام الحكومة لايعززان بغير الكرسى العالى والمنضدة المصنوعة بأوربا . الشباب يا أستاذ متطرفون فى تحبيذهم كل شئ أوربى ، كل شىء جديد صالحاً كان أم غير صالح . وفينا نحن الشيوخ من هم متطرفون فى جحودهم ومن هم رجعيون . لايرون غير الخير فى بقاء القديم على قدمه . إن فى القديم أشياء صالحة ينبغى أن يحافظ عليها وأشياء كانت صالحة فى زمنها فأمست فى زماننا غير صالحة فيجب أن ننبذها .

قلت : وأنتم الصلة الطيبة بين الصالح من القديم والجديد .

فقال : الصلة المستمرة إن شاء الله — خذ المثال من القديم الصالح .

قالها وهو يشير إلى ديوانه المفروشة أرضه بالبسط ، المزينة جدرانه بالتعاليق والآيات ، المنضدة دواوينه بالوسائد :

« ماذا يضر أن يكون مفروشاً بالفرش المغربى ؟ يقول عبد الخالق طريس : يجب أن تغير ديوانك — يجب أن نكون عصريين فى مكاتبنا ومساكننا كما نحن فى أعمالنا الإصلاحية : فأقول له . وهل جلوسى متربعاً أمام هذه المائدة الوضيعة يضر بأعمالى الإدارية ؟ فإذا كان الخلل فى الإدارة ناشئا من شكل

الديوان لا من صاحبه ، فعبد الخالق هو على حق ، ما قولك يا أستاذ ؟

أذكر أنى أجبت بكلمة فى الرموز ، وأن الأشكال الظاهرة فى حياتنا الاجتماعية أو السياسية أو الشخصية ترمز إلى ما بأنفسنا . « وليس أجمل من هذا الديوان الرامز إلى ما بنفس معاليكم . فأنتم فيه قطبه الناطق العامل . أما لو كان الوزير من الشباب ، بقيافة إفرنجية ، فإن التناسب بين الرامز والمرموز إليه يضيع . هذا من الوجهتين النظرية والذوقية ، أما من الوجهة العملية فالكرسى الصلب أصلح للشباب من الديوان الوثير . . . عوّدوهم الاخشيشان » .

هزّ الوزير رأسه ضاحكاً ثم قال : « الدهر معلمنا جميعاً ، فهو الذى يعقد العرى فى العادات والتقاليد ، وهو الذى يحلها . ولله سبحانه وتعالى البداية والنهاية » .

لمعالى الوزير السيى محمد أفيلال وجه سامى الشكل والسمات ، بسمرته وانخراطه ، وبالعظم الفارغ فوق الوجنتين ، أما اسمه أفيلال فما هو بعربى ولا سامى . هو اسم عائلة من العائلات التى خرجت من إسبانيا فى آخر القرن الخامس عشر أو بعده والأرجح أنه إسبانى (Avilal) كأسماء العائلات الأخرى المقيمة اليوم بتطوان ، ومنها طريس (Torres) ومدينا (Medina) ومالينا (Malina) وصالص (Salas) وقسطيلو (Castillo) وأراغون (Aragon) .

كما أن كثيراً من الإسبان أسماؤهم عربية ، كرامازان (رمضان) ، والفارز (الفارس) ، وأباد (من بنى عباد) . وفى الأندلس بين قرطبة وأشبلية قرية اسمها بدرو أباد (Pedro Abad) ، وزامورا (زمور) وقديرة ومنها المستشرق كوديرا (Codera) .

ومن غريب ما فى هذه الأسماء أن الاسم الأول لا يتناسب والاسم الثانى أى اسم العائلة . مثال ذلك . بدرو أباد وميشال رمضان وعبد المحسن قسطيلوس

ومحمد راغون — وغيرهم كثيرون(١)

سألت العلامة الوزير رأيه فى هذه الأسماء النصرانية الإسلامية ، والإسلامية النصرانية ، فقال إن كثيراً من الإسبان أسلموا يوم كان العرب سائدين فى الأندلس . وكثيراً من المسلمين تنصروا بعد خروج العرب من البلاد ؛ ثم حدثت ترددات فى الشعبين فعاد أبناء المسلمين المتنصرين إلى دينهم(٢) واحتفظوا بأسمائهم الإسبانية العائلية كطرس ومولينا وراغون ، وعاد أبناء المسيحيين إلى دين آبائهم وظلت أسماؤهم إسلامية عربية .

قلت : وهذا قديم استحدث ثم عاد إلى قدمه .

فقال : ولا بأس . قد يكون فى التذكارات أحياناً ريحانة للقلوب . ولكن المحافظة على الأصل هى فى كل حين عين الخير والكرامة — أعيد قولى ! القديم على قدمه اعتباطاً لا يجوز والجديد على الإطلاق لا يجوز . إنما الحق والصواب فى التمحيص والاختيار . هذه العدلية مثلا نعود بها إلى الأصل ، وفى استقلالها خيرنا وكرامتنا . أما أن تظل العدلية مقيدة بالقديم البالى فليس فيه خير ولا كرامة . وإننا ساعون للإصلاح ورافعون إن شاء الله المحاكم إلى

---

(١) ومنهم الأديب الحاج بدرو راغونى عبد الكريم مؤلف التاريخ المسمى « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر »، ومنهم نقولا « بوباديليه » (Bâbadilla) أبو عبد الله ، رفيق القديس فرنسيس الإسبانى فى الأيام الأولى من رسالته ، وقد عاون الاثنان القديس أغناطيوس لويولا فى تأسيس الرهبنة اليسوعية .

(٢) من الإسبانيين من أسلموا عن عقيدة ومنهم من فعلوا ذلك تخلصاً من الجزية والأحكام التى كانت تفرض عليهم ، وكان المسيحيون الأصليون ملقبين بالصدئيين — عليهم صدأ الحديد . ليتميزوا عن أولئك الذين دخلوا فى المسيحية من المسلمين واليهود . وبعد زوال السؤدد العربى تخلف عدد من المسلمين فى إسبانيا وهم مقيمون على إسلامهم فدعوا بالمدجنين . ولكن الملك كارلوس الخامس فرض عليهم جميعاً فى سنة ١٥٢٥ ، إما النصرانية وإما الجلاء . فظعن الكثيرون ، وتنصر الآخرون فسموا « مورسكوس » (Morescas) ليتميزوا عن المسيحيين الأصليين « الصدئيين » ، ثم حدثت فتنة اتهم هؤلاء المورسكوس بها فطردوا جميعاً من إسبانيا ، وكانت الردة التى أشار إليها العلامة الوزير .

المستوى العصرى العالى ، حسبنا اليوم أن العدلية قد استقلت كل الاستقلال فلا تمييز ولا استئناف إلى محكمة إسبانية عدلية » .

ووزير الأحباس السيد محمد بن موسى يشارك زميله وزير العدلية فى هذا الاغتباط . ولكنه غير مدهوش .

« لا إشراف أجنبى اليوم ولا تفتيش — كله بيدنا ، ولكن هل يستعظم هذا العدل من الدولة الحامية ؟ يوم كان أجدادنا مسيطرين فى الأندلس تقاضوا النصارى الجزية وما تعرضوا لشعائر دينهم ولا لكنائسهم وأحباسها . فالمعاملة بالمثل أقل ما يكون » .

سألت معالى الوزير عما إذا كان للحرمين أحباس فى المغرب ، فقال : قد تكثر فى المنطقة الجنوبية — أما فى منطقتنا فليس فى غير مدينة العرائش ، وذلك يسير » .

ثم قدم لى أعداد « الجريدة الرسمية لوزارة الأحباس » التى تصدرها الوزارة كل ثلاثة أشهر ، وهى تبحث فى شؤون الأحباس على أنواعها ، وفى إدارتها وكل ما يتعلق بها ، وفيها للدرس والاعتبار أشياء طريفة . منها أن كل شىء فيها يجرى بموجب ظهير يصدره الخليفة أو كتاب من رئيس الوزارة مصدراً بالحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه . وإليك نموذج هذه الكتب :

« يعلم من هذا الكتاب الشريف ، والأمر المنيف ، أنه وفقاً لما اقترحه وزير الأحباس من تعيين القدر من المال الذى يخصص للتعليم الإسلامى سنوياً من وفر الأحباس . . . وبعد اطلاع صاحب السمو (الخليفة) وموافقته أذن بتخصيص مبلغ ١٩٠٠٠٠ ألف بسيطة . . . » إلخ .

« يعلم من هذا الكتاب الممضى باسمنا بصفة رياسة الوزارة . واعتماد رتبة الصدارة أنه بعد اقتراح وزير الأحباس قد أمرنا بإعفاء فلان من وظيفة ناظر أحباس قبيلة كذا ، ولينصرف لحال سبيله والسلام .

أحمد الغنمية لطف الله به »

من هذه الكتب يستدل على أن وزير الأحباس يقترح الأمور والصدر الأعظم يستشير الخليفة فى المهم منها ثم يصدر الكتاب الآمر بالتنفيذ .

ومما يظهر من الميزانية العامة أن الأحباس غنية فى هذه المنطقة ، وهى منتشرة فى حواضرها وبواديها . فقد بلغت مداخليها فى سنة ١٩٣٨ فى المدن : تطوان وأصيلة والعرائش والقصر الكبير وشفشاون ، وفى بوادى الإيالات الخمس : الجبلية والغمارية والغربية والريفية والشرقية — ١,٢٨٢,٢١٥ بسيطة ، أى نحو مئتى ألف ليرة سورية(١) .

والأحباس اليوم نوعان ، الكبرى التى يصرف منها على التعليم الدينى والمدنى وعلى المساجد ، وأحباس المنقطعين التى تصرف على الفقراء والمحتاجين والمرضى وبعض الحيوانات ، منها طير اللقلاق(٢) فقد كان لها مستشفى بتطوان فى أيام الدولة المغربية السابقة للحماية . وكان للأبراج أيضاً أحباس فى تلك الأيام يصرف ريعها فى إصلاح الحصون وشراء الرايات التى ترفع فوقها أيام الجمع والأعياد . أما اليوم فقد أضيفت إلى أحباس المنقطعين .

---

(١) تصرف كلها إلا قليلا فى بعض السنين . ففى سنة ١٩٣٨ بقى فى صندوق الأحباس أربعون ألف بسيطة . ويتبين من درس هذه الميزانية أن القيمة التى تصرف على الوزارة والموظفين والقواد فى القبائل والمفتشين بلغت ٢٤٣٠٠٠ بسيطة ، أى نحو أربعين ألف ليرة سورية ، أى عشرين فى المئة . أضف إليها ما يدعى « صوائر مختلفة » وهى تبلغ نحواً من خمسة فى المئة ، فيكون مجموع ما يصرف لإقامة الأحباس وإدارتها ربع الريع السنوى . لست أدرى أكثير هو أم قليل ، إنما أثبته ها هنا لمن يهمهم الأمر .

(٢) « اللقلاق طائر أعجمى يشبه الأوزة ، طويل العنق ، يأكل الحيات ويوصف بالفطنة والذكاء . ومن ذكائه أنه يتخذ له عشين يسكن فى كل واحد منهما بعض السنة ، وأنه إذا أحس بتغير الهواء عند حدوث الوباء ترك عشه وهرب من تلك الديار » (القاموس) .

ومن فطنته أنه قلما يسكن فى غير المآذن والزوايا بالمغرب . فيحافظ على حب أهله ولا يطالبهم بما كان من إحسانهم إليه فى الماضى . فإن أقفل مستشفى اللقلاق بتطوان فالزوايا والمآذن لا تزال ترحب به . ومن صفاته الحميدة أنه ذو شرف ووفاء فى حياته الزوجية ، فلا يدخل عش جاره . وإن دخل خطأ طردته منه اللقلاقة الأم . لذلك اتخذ الأمريكيون اللقلاق رمزاً للأمانة الزوجية والشرف العائلى . فعند ما يولد للزوجين ولد يقال : زارهما اللقلاق !

رأيت فى الميزانية أرقاماً بالبسيطة الإسبانية وأخرى بالبسيطة المخزنية ، فسألت الوزير ما الفرق بينهما ، فقال : « إن النقد المخزنى قبل الاحتلال كان مؤسساً على الريال الفضة ، وهو يقسم إلى عشرين مليون (غرش) ! والمليون يساوى ربع بسيطة أى خمسة وعشرين سنتيما . صك منه الريال ونصف الريال وربع الريال[1] . ونسبة هذا الريال المخزنى إلى الريال الإسبانى (دورو) كنسبة ١٣٠ إلى ١٠٠ ، أى أن البسيطة الإسبانية تساوى نحو بسيطة وربع بسيطة مخزنية .

هذا النقد المخزنى منعت الحكومة الفرنسية التعامل به بعد الحماية . وقد نقل إلى طنجة ما كان منه فى هذه المنطقة ، نقل فى أيام الثورة بواسطة السماسرة أو بالتهريب للمتاجرة به . فالصيارفة هناك يبيعون المئة ريال المخزنية بمئتى ريال إسبانية » .

كانت البسيطة تباع فى طنجة يوم كنت هناك بأقل من ربع قيمتها الأصلية[2] ، وهى فى إسبانيا وملحقاتها جامدة على النصف ، بالرغم من تجارة السماسرة التى لا يظهر منها غير الخسارة . ولكن للنقد والقطع والفوارق الصاعدة والهابطة فى أسواقها أسراراً شبيهة عندى بالأسرار اللاهوتية ، لا تفهم بغير الإيمان والنعمة . فلندعها لأصحابها ولنمضِ فى طوافنا الشريف .

كان باشا تطوان غائباً عن المدينة يوم زرناه فى مركزه ، ولكن حظنا

---

(١) رأيت قطعة من نصف الريال وقد حفر على أحد وجهيها فى الوسط : أجيز ضربه بباريز عام ١٣٣٦ ؛ وحولها : قيمة خمسة دراهم مخزنية لضبط الحقوق المرعية . وعلى الوجه الآخر فى الوسط ضمن نجمة بستة رؤوس ، شعار المغرب نجمة بخمسة رؤوس ، ومحفور حولها بين كل رأس وآخر : محفوف بالسعادة واليمن والإقبال والعز المنيف .

(٢) فى طنجة وجبل طارق كانت الليرة الإنكليزية تباع بمئة وخمس وعشرين بسيطة ، والدولار الأميركانى بخمس وعشرين بسيطة ، أما فى إسبانيا فقد كان الدولار يشترى بعشر بسيطات ، والليرة الإنكليزية بخمسين بسيطة . والسر فى ذلك ، كما قلت فى المتن ، يفوق إدراكى .

بلقاء خليفته أنسانا ما كان من خيبة الأمل. لا أظن أن كل خلفاء[1] الباشا مثل هذا الخليفة ، فهو فقيه ، فقيه حقيقى كامل ، لا خيالى ولا مزيف . علمنا ذلك بعد المصافحة والسلام، ونعمنا بما علمنا . قبيح بنا ذم الفقهاء وفيهم مثل ابن أحمد بوعيسى . قال دام ظرفه ، ودامت صراحته وابتسامته :

« أكُل من تعلّم حرفاً صار فقيهاً ؟ ما أكثر الفقهاء فى هذا البلد، يا أستاذ ، وما أقلهم ! خدمنا الحكومة والبلاد بصفة كاتب ومستشار فى وزارات عديدة — خدمنا عشرين سنة ، وهذى هى النتيجة — خليفة لباشا تطوان ! أضاعونى وأى فتى أضاعوا . . .

« الشرع الشريف ؟ قطع اليد ، جلد الزانى ، رجم الزانية ؟ لا يا أستاذ . هذه الأحكام القديمة قد ألغيت، ونحن اليوم نسير على هذا الدستور (قدم لى قانون العقوبات والغرامات) هل تقدمنا ؟ لست أدرى . إن فى الأحكام القديمة عدلا ورحمة . خذ الزنى مثلا . فمن ذا الذى يستطيع أن يثبت الزنى على امرئ أو امرأة ؟ أين الشهود الأربعة يشهدون أنهم رأوا . . . »

« أين هؤلاء الشهود ؟ فهل يدعوهم الزانى أو تدعوهم الزانية ليشهدوا الفعلة المنكرة ؟ الله سبحانه وتعالى يلطف بنا فيعسر استكشاف ضعفنا . هى الشريعة السمحاء والحمد لله » .

والسى محمد بن أحمد بوعيسى ، الخليفة الأول لباشا تطوان، يشهد كذلك بالمحبة والحكمة والرحمة ليسوع بن مريم القائل: « من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه المرأة بحجر » .

مشى معنا إلى حديقة المركز المزدانة بشجرة من الأريكاريا باسقة مجيدة ، تفرش أغصانها أفقيًّا كالأرز . هى أكبر وأجمل ما شاهدت من نوعها .

---

(١) تقسم المدينة إلى سبعة أحياء ، لكل حى خليفة (نائب) للباشا أى المحافظ، وفيها أربعون شيخاً وشيخ واحد للحى الإسرائيلى .

أما زهور الحديقة فهى على أنواعها فى وفر مضطرب التنظيم يتوسطها حوض من الماء تسبح فيه الأسماك الذهبية .

قال الفقيه الفيلسوف وهو يطوف بنا : « هذه الحديقة والأرض المجاورة لها كانت ملك يهودى من يهود المدينة فاشتريناها بثمن غير بخس ، ولينقاب الطمع ناراً فى صدر صاحبه . هل فى الدنيا أطمع من اليهود ؟ » .

قلت : « وهل يكثرون عندكم ؟ » .

فقال : « القليل منهم كثير » ثم ذكر الآية : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » واستطرد قائلا : « اليهود والفأر » !

قلت : « ولكن الفأر عدوّ الإنسان فى كل مكان » .

فقال : « هو كذلك . الضعيف عدو الإنسان فى كل مكان . اليهود والفأر ، لسان حالهم يقول : خلقتنا اللهم للشر فأعنا عليه » .

وفلسطين؟ وقف أمام غصن من الورد وأشار إليه قائلا : « هذه فلسطين ، غصن من الورد وشوكه من عوده . يسر الله أمور المسلمين ، وأنقذهم من أعدائهم » .

ثم مد يده إلى وردة سبقت عينى يده إليها — توارد الفكران واتجه القلبان — فقطفها وقدمها إلىّ قائلا : « شرفتم بارك الله فيكم ووفق المسلمين » .

اجتمعت بعدئذ بسعادة الباشا فى حفلة شاى أقامها المقيم العام — وهما أى الباشا وخليفته — والأحرى أن يقال إن الخليفة ورئيسه على غرار واحد فى التساهل والحكمة .

كانت تلك الحفلة أوربية مغربية معاً فقدم فيها «الشاى» والحلوى، على الطريقة الأهلية ، للمغاربة ولمن شاء من الأوربيين ، وقدم لهؤلاء فوق ذلك ما طاب من الخمر والوسكى ومعها الـ « سندويتش » على أنواعه ، ومنها لحم الخنزير .

وكان الشريف الوزانى محمد يشرب « الشاى » ويرمق الـ « بار » بنظرات آكلة شاربة ! فقدمت له كأساً من الوسكى فرفضها ، وأشار إلى الباشا : « ها هوذا . يغرمنى والله غدا » .

قلت : اشرب وأنا أدفع الغرامة » .

فقال : « لا والله . هو يغرمنى » .

وكان صاحب اللطف والظرف يسمع الحديث ، فدنا منا ، والابتسامة تتقدمه . فقلت له : « هذا محمد الوزانى يريد أن يهلك معى فى هذه الساعة ولا ينعم معكم فى الآخرة ، فما قول سعادتكم ؟ » .

فأجاب قائلا : « النعيم والجحيم بيد الله » .

فقال الوزانى الصغير : « وبيدكم قانون العقوبات والغرامات . لا والله لا أشرب » .

فضحك الباشا وقال : « خذها من يد الأستاذ ، ولا حرج » . قالها وأشاح بوجهه عنا .

وذكرت أنا القانون لمشاربى ، وهو أن السكر فى المحلات العمومية يعاقب عليه بغرامة من المئة بسيطة إلى الخمسمئة أو بالسجن من العشرين يوماً إلى المئة . هون على نفسك . فلست بسكران ولا دار المقيم بمحل عمومى .

وفى هذا القانون الموقت الصادر من الصدارة العظمى سنة ١٣٥٤ جدول العقوبات والغرامات « على السرقات والاختلاسات والحرية والأضرار والجراحات والجرائم والزلات المرتكبة فى أموال الغير والمخلة بالأمن العام[1] » يقضى فيها باشاوات المدن وقواد القبائل بصفة قضاة صلح ، كما ذكرت فى فصل سابق .

(١) جدول السرقات مثلا يعين الشىء المسروق أو القيمة المسروقة وعقابها . وهو يبدأ من الـ ١٠ إلى الـ ٢٥ بسيطة ويعاقب سارقها بالسجن من اليوم الواحد إلى الثلاثة الأيام وبغرامة من الست بسيطات إلى الاثنتى عشرة بسيطة . وينتهى بالخمسمئة إلى الألف بسيطة عقاب سارقها من الـ ٢١ إلى الـ ٣٠٠ يوم حبساً ومن الـ ٢٥١ إلى الـ ٥٠٠ بسيطة نقداً .

والباشا يرأس المجلس البلدى المؤلف من اثنى عشر عضواً ، سبعة مسلمين وثلاثة إسبانيين ويهوديين اثنين يعينهم جميعاً المقيم العام .

أما ميزانية المجلس فهى تتراوح بين المليونين والثلاثة الملايين بسيطة ، بعجز فى بعض السنين تسدده الحكومة .

ومن خير مايهتم به هذا المجلس الملجأ الصحى للفقراء . فهو مجهز بأدوات الفحص والتطهير والجراحة ، وبثمانية أطباء إسبانيين وطبيبة واحدة تعاونها سيدة من أهل البلاد .

هذا الملجأ مفتوح للفقراء أجمعين من المغاربة والأوربيين يعاين فيه نحو مئتين من رجال ونساء وأطفال كل يوم . فمن كان مرضه بسيطاً عوين وأعطى الدواء فى الحال . ومن كانوا يحتاجون إلى معالجة يرسلون إلى المستشفى الأهلى . أما المعاينة والأدوية والإسعافات الأولية فى الملجأ فهى كلها مجاناً .

ومما هو جدير بالذكر والثناء أن هذا الإحسان لا يقيد بمعاملات رسمية — لا إذن ولا استرحام ، ولا فحص ولا استعلام . يجىء المريض إلى الملجأ توًّا فيعاين دون أن يسأل سؤالا مزعجاً — الفقير والمتظاهر بالفقر على السواء .

سألت المدير ما هى الأمراض المتفشية فى المنطقة فقال : « الملاريا فى الدرجة الأولى ، ثم السفلس فى الرجال والنساء والموروث من الأمراض الزهرية فى الأطفال ، ثم السل » .

يوم كنا عائدين من زيارة المعهد الحر ، وهو فى حى المسلمين القديم ، على رابية منه ، تصعد إليها فى زنقات مدرَّجة ، مررنا ببيت مكتوب فوق بابه « معالجة الأمراض الزهرية » . فسألت رفيقى عن السبب فى وجوده بهذا الحى فقال : « لأن فيه بيوت المومسات ، فرأت البلدية أن يكون العلاج قريباً من الداء » .

وقد أدهشنى قوله إنهن يفحصن يومياً ولا يتساهل أطباء المستشفى فى

أمرهن . « يجب على كل فتاة ، وكلهن فى هذا الحى مسلمات مغربيات ، أن تبرز شهادة الطبيب للطالب ، وأن تكون الشهادة محررة فى ذلك اليوم » .

والجدير بالذكر أيضاً أن شبان اليهود لا يؤذن لهم بالدخول إلى بيوت هؤلاء المومسات . فهن يطردنهم ، ويأبين وصلهم . أما شبان النصارى فلا حرج عليهم ولا هم يرفضون . « لتجدن أشد الناس عدواة » (الآية) ولا تجهلها على ما يظهر الفتاة المسلمة .

أما اليهوديات فإن لهن بيوتاً خاصة — عمومية شاملة — لا حرج فيها ولا حظر ، ولا حرز ولا إحراز — تعالوا إلىّ ، أنا يهوديت ، وإن كنت من شعب الله الخاص فإنى معشوقة الأمم والشعوب . تعالوا إلى بأوزاركم فأزحزحها بلمسة ، وأزيلها بقبلة ، هو الكرم الربانى ، ومع ذلك فهى وشعبها « أشد الناس عداوة للذين آمنوا » ، ولا تنسى المسلمات ذلك ، ولا ينساه المسلمون .

قال الراوى : « كان فى تاز حاكم وزيره الأكبر يهودى . فلما توفى السلطان بفاس كتم اليهودى الخبر عن الناس لغرض فى نفسه . أحب اليهودى أن يجلس على العرش ، ويمشى تحت المظلة السلطانية . فلما علم بذلك السلطان الجديد هم بإرسال جيش عليه ، فأشار الحكماء بغير ذلك قائلين : يهودى لا يستحق هذا الاهتمام . فالطلبة يريحون مولانا منه . وجاء الطلبة يقولون : اليهودى هذا يستحق هدية سلطانية . فعينوا لها أربعين منهم دخل كل واحد فى صندوق فحمل الصناديق أربعون بغلا ، ساقوها إلى تاز . يتقدمهم خبرها فلما وصلت القافلة إلى المدينة رحب بها الوزير وأمر بنقل الصناديق إلى داخل القصر . ثم فتحها . وكانت فاتحة الخير . فكلما انفتح صندوق وثب منه طالب والسيف بيده . فانقضوا على الوزير اليهودى وقطعوه إرباً إرباً .

وإن لأولئك الطلبة عيداً يقام بفاس كل عام ، فتمثل فيه رواية الصناديق واليهودى الذى « أحب أن يجلس على العرش ويمشى تحت المظلة السلطانية » .

الفصل الثالث

الكولونل خوان بايبدر

قيل لى ، يوم كان المغرب كعلامة الاستفهام فى ذهنى ، إن هنالك نهضة وطنية ثقافية عمرانية سياسية يشجع عليها ، ويساعد فيها ، حاكم أجنبى يحب أهل البلاد المغاربة العرب حبًّا لا زيف فيه ، ويغار على مصالحهم غيرة « عربية » أخوية . وقد قيل فى ذلك الحاكم أكثر من ذلك .

فقلت فى نفسى ، وأنا أسقط كثيراً مما سمعت لأرده إلى حد الاعتدال ، وأشذب الشكوك فى مقاصد رجال الاستعمار وأعمالهم ابتغاء الإنصاف ، إن مثل هذا الرجل لنادر عزيز بين رجال الحكم الأجنبى فى البلدان العربية ، وقد لا يكون أعز من بيض الأنوق — قد يكون مثالا لطائفة قليلة ، فطمعت فى الاستكشاف ، وما أكثر النادر العزيز !

وإن أريد التشويق بالقول الذى ذكرت فليس أبلغ فى نتائجه من هذا الاتجاه الذهنى . هو الخطوة الأولى فى التحقيق . فإن كانت الثقة بالسياسيين الأوربيين الاستعماريين مفقودة ، وكان هناك واحد منهم توجب سياسته إعادة النظر ، وإصلاح الظن ، فمن الواجب على طالب الحقيقة أن يبحث عنه ، ويسعى إليه ، ولو كان على مسافة ألف وألفين من الأميال . بل قلت فى نفسى إذا كان نصف ما سمعت من أخبار المفوض السامى الإسبانى الكولونل خوان بايبدر صحيحاً فالمسافات تقصر فى زيارته إكراماً واستعلاماً ، وفى زيارة البلاد التى يتولى شؤونها .

وما كنت مخطئاً فى قصدى وظنى . لقد حقق الخبر الخُبْر . بل تمت الأعجوبة فى المغرب، بلد العجائب ، فقد أثمر فيه عوسج الاستعمار تيناً . وما كانت الاجتماعات التى تلت الاجتماع الأول لتنفى أو تفسد ما تكوّن فى الذهن من رأى « وحكم » ونظر ، بل كانت تكشف من نواحى شخصية الرجل ما يزيد بالعلم والاغتباط . فقد تيقنت فى مقابلتى الأولى له أنه محب للعرب عموماً ولأهل المغرب خصوصاً ، وأنه مخلص فى حبه ، وغيور متحمس فى أعماله الإنشائية والإصلاحية .

وفى المقابلة الثانية لاح لى أن الكولونل بايبدر مجنون فى حبه للعرب ، وإخلاصه لهم ، ورغبته بتجديد الثقافة العربية الإسبانية وتعزيزها فى هذا المغرب الأقصى . بل يريد أن يبعث قرطبة فى تطوان ، فيجدد مجد العرب الأقدمين لخير أبنائهم الوارثين . مثل هذا الرجل فى نظر الساسة المزينة صدورهم بالأوسمة لا يصلح للعمل الذى انتدب له . وفى نظر المتفلسفين فى السياسة الواقعية القهرية — وقل الدهرية — هو مصاب بداء التصوف والخيال فيحتاج إلى الراحة والتداوى ، وبكلمة أصرح هو مجنون !

وفى اجتماعنا الثالث شع نور من كلمة قالها أنا فأضاء ذلك الجنون واخترق لبه ، فتلألأ هناك شىء جميل نبيل ، شىء طاهر باهر ، قدسى ، تجلت فيه روح بشرية كبيرة ، مفعمة بتلك الأشواق المولدة فى تاريخ الأمم لكل أعمال الإنسان العظيمة ، إن كان فى الاكتشافات أو الفتوحات ، أو فى العلوم والفنون ، أو فى الشرائع والأديان . فإن كان هذا جنوناً فالشكر ثم الشكر لله .

كدت أنسى الكلمة الكشافة . كان الحديث فى الاستعمار الأوربى ، فذكرت الإنكليز بمصر ، وقلت إن اللورد كرومر قام هناك بأعمال عمرانية عظيمة ولكن معظم الخير فيها كان للإنكليز أنفسهم .

— ولنا أن نقول إن ثلاثة أرباع ذلك الخير للإنكليز ، والربع الواحد للمصريين . وأنتم اليوم ، يا سيدى ، مثل اللورد كرومر بمصر . وهذه المنطقة من المغرب الأقصى هى اليوم مثل مصر على عهده . كل ما فيها من أسباب العمران والثقافة هو فى بدايته ، ومن العدل أن يكون الخير الأكبر فى الاستعمار لأهل البلاد .

فقال ، والتواضع شيمته : جميل منك أن تشبهنى باللورد كرومر . ولكنى على قدرى أريد أن أكون أفضل منه فى أعمالى للمغرب .

أريد أن يكون الخير كله ، مئة فى المئة ، لأهل البلاد ، إسبانيا لا تريد أن تربح من المغرب .

قلت : أو ليس فى ذلك خسارة على المستعمرين ؟

فقال : الخسارة كائنة .

فقلت : وهل تدوم ؟

فقال : ما دمنا هنا .

إذ ذاك فهت بالكلمة أشرت إليها فقلت : ليست هذه السياسة استعمارية ، بل هى — لا تؤاخذنى — ضون كيخوتيه[1].

---

(١) ضون كيخوته فى نظر العامة وأولئك الذين يصوغون الأمثال من البارز فى أخلاق الرجال وإن كان تافهاً أو عرضاً ، موضوع سخرية ، وقد أمسى رمزاً للأوهام والحماقة . ولكن الكتاب الخالد ، على ما فيه من ضروب التهكم والمجون ، ومن أفانين الأدب بتصوير أوهام الأبطال المجاهدين والفرسان العاشقين ، وادعاءات المشغوفين بشرف الأنساب وخزعبلاتها ، يحتوى على أنفس ما فى كتب الأدب الخالدة من الحكم البليغة والمثل العليا . « ضون كيخوته » كتابان فى كتاب واحد للسخرية والمجون ، للذين يقرأون القصص ولا يتجاوز إدراكهم ما فى ظاهرها ، وكتاب الحكمة السامية والمثل العليا التى أفرغها المؤلف فى القالب القصصى فكنت فى صفحاته بين السطور وطى الألفاظ . إن روح سرفنتس لتتخلل الكتاب . وهى من أشرف وأسمى ما فى الإنسانية المفكرة التائقة إلى العلا . وقد جاء فى الكتاب تحديداً لمهمة الفارس المغوار (Knight Errant) على لسان البطل نفسه ، ما يلى : « إن علم الفروسية المغامرة يشتمل على كل العلوم أو أكثرها . وعلى من يمارس هذا العلم أن يحسن ، فيما يحسنه ، إقامة العدل عقاباً وجزاء ، فلا يعطى كل امرئ ما هو حقه فقط ، بل ما هو جدير به » .

هى الكلمة التى أنارت ذلك « الجنون » فيه . فما كدت ألفظها حتى تلألأ النور فى ناظريه ، ووثب من كرسيه ، يمد يده إلى رف وراء مكتبه ، فقبض على تمثال من القشيشانى ، يمثل فارساً كئيباً على جواد منهوك ، وقد حنا رأسه على ترسه ، وتأبط رمحاً مكسوراً ، فوضعه أمامى قائلا : هاك ضون كيخوته . صنع هذا التمثال فنان أشبيلى — صنعه لى خاصة — ضون كيخوته رمز حياتى ، ونور هدى فى أعمالى وأحلامى .

ونقل الحديث إذ ذاك من السياسة إلى ميشال سرفنتس مؤلف الكتاب الخالد ، الذى حمل بطله الرمح فى سبيل الحق والفضيلة ، والصدق والأمانة ، والمحبة والرحمة ، بل حمل الرمح رمح التضحية فى سبيل المثل العليا . فقال الكولونل بايبدر : أراد سرفنتس أن يسخر من عادات زمانه وأخلاق أبناء زمانه فأدرك فى كتابه أعلى منازل السمو والجلال . ضحك فكانت ضحكته سماوية . تهكم فتجلت فى تهكمه روح الله . وما الله غير المحبة . عزمت مرة على تأليف كتاب فى ضون كيخوته ، فدرست وحللت ، واستخرجت وقارنت ، وكنت وأنا أتوغل فى الموضوع أرى نفسى عائداً إلى محوره ، إلى لبه ، وهو يحدد بكلمة وجيزة — نعم لقد تيقنت أن ضون كيخوته هو قلب كبير حساس ، ولا عقل له . لا عقل له . وعندما علمت وتيقنت ذلك رأيت كتابى كله ينحصر فى هذه الكلمة الواحدة ، فمزقت الصفحات التى كنت قد كتبتها . وفى هذه الكلمة تتجلى الحقيقة بكاملها وهى أن أعمال الإنسان الخطيرة هى من القلب — فالقلب يولدها ويغذيها ويربيها ويلجُّ فى مواصلتها وإتمامها — وها هوذا ضون كيخوته (قالها وهو يرفع التمثال ليلفت نظرى إليه) بعد وقعة من وقعاته التى انكسر فيها رمحه ، وكان مدحوراً . فهل انكسرت روحه ؟ كلا ثم كلا . تراه على حصانه المرهق يحمل ذلك الرمح المكسور ، ويمضى مطأطئ الرأس فى سبيله — يستمر فى جهاده ، فهل أخفق ذلك الجهاد ؟ اسأل

نفسك . قلت لى ، يا ريحانى ، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذى حمله ضون كيخوته . وأنا مثلك — حامل ذلك الرمح — إننا أخوان . وإن لنا فى العالم على ما فيه من المنكرات إخواناً . . . المحبة ، يا ريحانى ، تحل مشاكل العالم كلها ، وتزيل أكثر ما فيه من المنكرات . . . نعم ، لولا محبتى للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شىء من الخير الكبير . ولولا المحبة لما استطعت أن أحل مشكلا من المشاكل المغربية الإسبانية فى هذه المنطقة . . . لنشرب كأساً من الخمر .

الخمر والمحبة ذكرانى بشاعرنا الصوفى الفارض وخمريته ، فترجمت مطلعها : « شربنا على ذكر الحبيب مدامة » . فقال الفيلسوف بايبدر المولود حيث ولد ابن العربى ، والمفطور على شىء من التصوف : ومَن الحبيب ؟ الحبيب فى قلوبنا ، فى أشواقنا ، فى آمالنا ، وفى الأعمال التى تحقق بعض تلك الأشواق والآمال .

وبعد أيام كنا نتناول الغداء فى دار المفوضية ، بدعوة رسمية ، وكان الأساتذة طوباو وأراغون والبستانى من المدعوين . فجلسنا إلى مائدة تنطق بالترف والذوق ، فى ردهة تردد صدى الموشحات الأندلسية وذكرى مشاهدها . جدرانها مصفحة بالخشب المحفور الملون بالذهب واللازورد ، وسقفها مزدان بالنقوش التى تذكر بالحمراء ، فقال الجندى بايبدر ، وهو يرمق الكأس : لا شك أنك جلست مرات كثيرة إلى المآدب الرسمية وسئمتها وأنا لا أحبها ، ولكن يجب على المفوض السامى أن يكرم ضيوفه إكراماً رسمياً ، ويشاركهم فى السأم ، فهل تريد أن ترافقنى غداً إلى نزهة وغداء فى البرية — مع العمال ؟ الحرية تدعوك والإخاء يناديك . لا تحفظ غداً ولا رسميات . تعال نبعد من الـ « بروتوكول » (The Comedy of the Protocol) كما قالها باللغة الإنكليزية التى يحسنها .

ركبنا السيارة فى اليوم التالى إلى القصر الصغير (Castillejo) فى البلدة

القائمة على حدود المنطقة ومدينة سبتة ، فوصلنا إليها بعد نصف ساعة . وهناك فى غابة من شجر الكينا ، بوسطها غدير ، اجتمع نحو خمسمئة من العمال الإسبان ، رجالا ونساء ، ليقضوا يوماً تقيمه نقاباتهم مرة كل شهر فى مكان يختارونه ، وذلك عملا باقتراح المفوض السامى ، الذى وعد بأن يشارك هو وضباط الجيش وكبار موظفى الحكومة فى تلك النزهات .

وهناك فى ذلك اليوم ، يوم الأحد ، على رأس الرابية ، فى ظلال شجر الكينا ، نصب مذبح للصلاة ، فلبس الراهب الفرنسيسكانى الذى كان حاضراً ثوبه الكنسى وباشر القداس ، فحضرناه واقفين تحت الأشجار جميعاً ، وصلى — ولا شك — الأكثرون .

قلت لرفيقى الدون كيخوتى : للمرة الأولى أشهد قداساً فى الفلاة وهو والحق يقال أطيب منه فى الكنيسة !

فقال : وما كان طويلا .

فقلت : وهذا من دواعى الحمد .

ورحنا نطوف بالغابة حيث كان الناس مجتمعين حلقات حلقات ، ولكل حلقة رقمها المعلّق على شجرة ، أما الغرض من الأرقام فستعلمه فى موضعه .

ثم يممنا المطبخ الارتجالى — كل شىء فى ذلك اليوم كان ارتجالياً — من القداس إلى الموسيقى والرقص بعد الغداء . ترانى أتقدم الحوادث .

هوذا المطبخ وقد أقيم تحت جسر فى درء من الريح . ليس ما يشحذ المعدة للطعام مثل الطبخ فى الفلاة . وهاهنا عشرون مطبخاً — عشرون كانوناً شبت فيها النار ، وفوق كل كانون إناء ضخم من النحاس طبخ فيه الطبخة الواحدة الجامعة ، مثل الكنيسة الكاثوليكية . وهى أى الطبخة تدعى أرز لفالنسيانا أى الأرز على الطريقة البلنسيّة . كيف أصفها ،

فلا تفوتك على الأقل صورتها . اطبخ الأرز المعصفر كما تطبخه فى سوريا ، وأضف إليه مسبحة الدرويش ثم المقانق المقطعة قطعاً صغيرة ، واطبخها جميعاً ، على نار خفيفة ، كما تقول كتب الطباخين ، وفلفلها — وقدم .

وكان الطباخون والمعاونون لهم فى حركة مباركة تحت الجسر ، والطبخة البلنسية تنضج بين أيديهم تحت مراقبة المدير العام . ومن هو هذا المدير ؟

قال الكولونل بايبدر : جئت بالسنيور مدنيا رئيس شركة الكهربا وأغنى رجل فى المنطقة وقلت له : عينتك مدير الطباخين ، فدهش وتبرم ، فأعدت الكلمة : عينتك ، فأطاع . وها هو ذا السنيور مدنيا . عرفنى به ثم هنأه بعمله وقال : أظنك تحسن الطبخ كما تحسن المراقبة .

وكان محبّو التصوير يلحقون بنا ، فيصوبون إلينا آلاتهم الطاهرة ، فتهرول الفتيات ليقفن لها معنا — ومنهن من طمعن بالمزيد فسألن المفوض السامى أن يخصهن بوقفة لا شرك فيها — فأجاب سؤلهن . وكان كل مرة يقول : من تتزوج منكن فى هذه السنة أحضر عرسها . بل أكون أشبينها .

ثم قال لى : نريد أن نكثر النسل فى إسبانيا ، ولكن للعمل لا للحرب .

وها هو ذا أحد العمال يتلو لائحة بالأسماء والأرقام ، يتناولها من صندوقين ، ففهمت معنى الأرقام الأخرى المعلقة على الأشجار وعلمت أن المفوض السامى والموظفين والضباط يجلسون بالقرعة كل فى حلقة من حلقات العمال ؟ فلا تزاحم ولا جدال فى الاختيار . وأكثرهم ولا ريب يرغبون فى مجالسة العميد ، فكان ذلك الشرف لحلقة الرقم الخمسين . وكنت أنا وألفريد البستانى من أهلها .

جلسنا على الأرض ، فى فىء الكينا ، إلى جانب الغدير ، وعقدت كل حلقة فى مكان من تلك الغابة ، فكانت الأصوات ، لا عالية ، ولا خافتة كأنها لسرب من الأطيار .

ثم جاء المنتخبون من العمال للخدمة ، الرعيل الأول يحمل الجفنات ، والثانى الكؤوس ، والثالث السكاكين والشوكات ، والرابع المناشف والخبز ، ووزعوها علينا . ثم دلاء النبيذ لكل حلقة دلوها . ثم الطناجر الضخمة ، ذات الحلقات ، كل طنجرة بين اثنين ، يتصاعد منها البخار الطيب الرائحة . فملئت الجفنات وأكلنا ، ونحن متربعون على الأرض ، مرئياً حقاً مريئاً ، وشربنا حقاً هنيئا .

هى ساعة من الزمن طابت فيها أنفس العمال كما طابت طبختهم . وتساوت فيها أقدار الرجال كما تساوت جلستهم ، وكانت مشاركة رئيس الحكومة ورؤساء الجيش للعمال إكليل المحاسن كلها .

مثل هذا الاجتماع يندر عندنا فى الشرق العربى . إلا إذا ذكرنا نزهات بعض أمراء العرب ، وخصوصاً تلك التى يقيمها الملك عبد العزيز بن سعود ، إذ يخرج ورجاله إلى الصحراء ، ومعهم « العيال » فيوقف ذلك اليوم على المسرات الأهلية — الرمى وسباق الخيل ، ثم الغداء على الأرض فى حلقات المرح والكرم ، فيجلس العبيد إلى جنب الأمراء ، والملك بينهم ، واحد منهم . لا رسميات ، ولا قيود ، إلا تلك التى يفرضها الأدب المفطور عليه العربى . وإن حان وقت الصلاة — الظهر أو العصر — يقفون جميعاً وراء الإمام ، فيصلون ، كما صلى العمال الإسبان وعميدهم وراء الراهب الفرنسيسكانى.

ولا خطابة تسلب السرور ساعته ، لا هنا ولا هناك . فقد منع العميد الخطب . وما منع الهتاف . فكان العمال يهتفون لإسبانيا ولفرنكو ولبابيدر . فزجرهم إذ سمع اسمه قائلا : اهتفوا لفرنكو ، اهتفوا لإسبانيا .

بعد الغداء قام الموسيقيون يضربون على الأوتار ، فدار الرقص ، واستمر حتى المساء

إن من الرقص لسحراً . وإن منه لسخرية وفسقاً . وإن السحر فى

الرقص الإسبانى الأندلسى العربى لناشئ من اقتران الفن بالأدب ، فقل من ينجو بقلبه منه . ولست أنا من هذا القليل ، ولست ممن يغتبطون بمثل تلك النجاة . بل إنى أغتبط بضدها ، فيسحرنى الأندلسيات فى أثوابهن المديدة الكثيرة الثنايا ، كما يسحرنى رقص الدراويش المولويين . ويطربنى دق الشقيقات كما يطربنى صوت الناى . كل عمل إذا ما تناهى فى الإتقان والأناقة والذوق هو فن . وفى كل فن شىء من الروح والراح والريحان . فالروح ترقص فى فتل الأندلسيات كما ترقص فى فتل الدراويش المولويين . والسحر فى الاثنين واحد .

سحرت ولا عجب سحراً حلالا مبهجاً ، وكان ذلك السحر مقروناً بالخيال ، فنقلنى وعاد بى مراراً من الرقص تحت الأشجار بالمغرب إلى التكية فى المشرق ، ومن حنين الناى إلى مرح الشقيقات .

فنسيت فى تلك الساعة نفسى ونسيت أيضاً مضيفى الكريم . فرحت أنشده ، فى يقظة بين السحرين ، فلم أجده ، فعدت إلى الحلقة المسحورة . ثم جاء سائق السيارة يقول : المفوض السامى ينتظركم ، مشيت ، فقال القلب : سألحق بك .

وركبنا السيارة إلى القصر الصغير ، فوقفنا أمام حانة هناك ، وأدخلنا من باب خاص إليها ، فإذا فى الغرفة الصغيرة الكولونل بايبدر والراهب الفرنسيسكانى يدخنان السيكار وبينهما كأسان فارغتان . فقال العميد يخاطب المتعبد : كأساً أخرى ؟ فأجاب المتعبد برأسه أن نعم ، فأمر الخمر لنا جميعاً .

ثم ودعنا رجل الله ، والسيكار الأسود الضخم بيده ، فسبح قلبى بحمده تعالى ، ولست أعلم ما جرى لقلب بايبدر . إنما قال لى ونحن عائدون إلى تطوان : طلبات هؤلاء الرهبان كثيرة . وقد قال ، وهو يذكر العمال : كانوا كلهم من الحمر — شيوعيين فوضويين — أما الآن ، فقد رأيت بعينيك ، وسمعت بأذنيك .



المقيم العام – ذو المنظار فى الوسط – وعلى يمينه المؤلف ومعهما شخصيات إسبانية مغربية

المحبة يا صديقى ، ومع المحبة يجىء كل خير . كلمة إسبانيا الجديدة هى : العدل والخبز ! ولكن العدل لا قلب له ، والخبز وحده لا يغذى الروح . يجب أن يشعر العامل أن الحاكم أخوه ، فعلاً لا فلسفة ، ولا تميزه عنه غير المسؤولية فى الحكم . عندنا إخاء كما رأيت ، وعندنا أمر يطاع ، لا فوضى ولا ادعاءات فارغة فى الحرية والمساواة ، الحرية — متى كان العدل مقروناً بالمحبة — لا خوف عليها . . . كل شهر يجتمع العمال مرة للنزهة وأنا أشاركهم فى مسراتهم . فيزداد سرورى بهم ، وهم يشعرون ولا شك بشعورى . فينشر السرور فى المنطقة كلها . المغرب السعيد ، هو ذا المغرب السعيد .

قلت : وهل هذه الطريقة متبعة فى إسبانيا اليوم ؟

فقال : لست أدرى . أنا هاهنا أعمل بما يوحيه قلبى ، وقلما يخطئ القلب . وإن أخطأ — أو أخفق فى أمله أو عمله — إن انكسر الرمح — فلا تقهقر ولا استسلام . إلى الأمام على الدوام . ضون كيخوته — أخوك ضون كيخوته .

— وهل العمال المغاربة يشاركون فى هذه النزهات ؟

— ليس ما يمنع ذلك . ولكن بعض العادات الاجتماعية تحول دون ما نرغب نحن ويرغبون هم فيه . فالعامل الإسبانى لا يستمرئ الطعام بدون كأس من الخمر . وقد لا يتنازل عن « خنزيره » فيدس قطعة منه فى أكثر مأكله .

عند ما وصلنا إلى رنكون — الزاوية — زاوية صيادى السمك ، وقفنا هناك حيث كان الناس ينتظرون عودة العميد . فاستقبلونا بالهتاف لفرنكو ثم لإسبانيا ثم لبايبدر .

ومشينا مع كبير القوم وباشا البلدة إلى حقل وراء الحانوت ، فتبعتنا نقابة الصيادين فقدمهم رئيسهم إلى العميد واحداً واحداً . ثم خطب فيهم ، فذكرهم بما لمهنة صياد السمك من المنزلة العالية فى حياة الإسبان وفى تاريخ إسبانيا . « البحار تحيط ببلادنا ، وفى البحار وأخطارها سالف مجدنا » .

وبعد الخطبة تحدث رئيس النقابة بخصوص البيوت التى وعد ببنائها فى ذلك المكان . وقد أمر بمباشرة العمل ، فسيبنى لهم عشرون بيتاً من طراز البيوت التى تبنيها حكومة فرنكو للعمال فى إسبانيا ، وفى هذه المنطقة من المغرب الأقصى . وسأزيدك علماً بها فى فصل آخر .

هتف الصيادون لبايبدر ، فزجرهم كما زجر إخوانهم فى غابة القصر الصغير « لا تهتفوا لى » . اهتفوا لفرنكو ولإسبانيا .

ثم قال لى : أفلا تنبئك وجوههم بخبرهم ؟ لقد كانوا كلهم أمس فوضويين وشيوعيين — كانوا من الحمر ، وسنغير لونهم بالعدل والمعروف . سنجعلهم من الخضر — من رجال السلم والعمل .

وما كانوا فى تلك الساعة ليختلفوا عن غيرهم من الآدميين إذا ما أكرموا ، فقد استوقفونا أمام مائدة تحت شجرة التوت ، قرب الحانوت ، صفت عليها القنانى والكؤوس والـ « سندويتش » على أنواعها . فشربنا من خمرهم ، وأكلنا من خبزهم ، وودعناهم وهم يهتفون لفرنكو ولإسبانيا .

هوذا بايبدر فى بعض أعماله وأحاديثه . وهناك غيرها تنبئ بما لشخصيته من عديد الوجوه والسجايا . وهو خير الأدلاء فى ما كان يقترح من المشاهدات ، ويباغت بها .

سألنى ذات يوم : هل زرت القصر الخليفى الجديد ؟ تعال نزره وإن كان قسم منه لا يزال رهن العمل .

خرجنا من دار المفوضية ، فدل على ثلمة فى الجدار المجاور لها ، وفى الثلمة باب يبنى ، فقال : هذا باب السر — كان فى الماضى مقفلا لأن الصلة بين الخليفة والمقيم لم تكن طيبة . أما اليوم فإننا أصدقاء — وهذا الباب المفتوح بيننا يشهد على ذلك .

وقد بنى القصر الجديد إلى جانب القصر القديم وعلى بعض أنقاضه . فمن

الباب الخارجى نمر بغرف المخازنية ومكتب الحاجب ، ثم نصعد إلى ردهة العرش الشبيهة بملعب صغير ، مسرحه العرش نفسه ، يدخل الخليفة إليه من باب يفضى إلى الصحن الفسيح ، وفيه شاذروان من المرمر ، بوسط جنينة من الزهور .

والقصر قائم حول الصحن من جهاته الأربع ، بطوابقه غير المتناسقة ، وبغرفه المشرفة على السطوح ، وبسطوحه المتباينة ، كأنها بنيت كلها فوق ما كان هناك أو اندمجت به — فغدت فى مجموعها كالحصن داخل السور . أما الهندسة الداخلية فهى عربية أندلسية ، وفيه الوافر المتناهى من مظاهر الترف والزخرف والأناقة . إلا الحمام ، فلا أثر فيه للفن الشرقى العربى . بل هو أوربى حديث الطراز ، من الحوض الطويل إلى الجرن النسائى ، الفرنسى الاختراع على ما أظن ، إلى مواسير للماء البارد والماء الساخن ، ممتدة فى الجدران وراء صفحة من البلاط الباهر الألوان .

أمضى بنا الطواف إلى باب خارجى غير الذى دخلنا منه ، أمام ساحة صغيرة مرصوفة بالحجارة المنحوتة ، فبوابة يدخل السائس منها بحصان الخليفة يوم يركب من القصر فى موكبه إلى الجامع .

وقد علمت إذ عدنا إلى باب السر ، أن للمفوض السامى مهمة خاصة فوق مهماته العامة كلها ، خلقها هذا الباب الذى يؤدى إلى قلب القصر إلى المسكن العائلى فيه . فهو الصديق الوفى ليس للخليفة فقط بل للعائلة الخليفية ، فتستشيره فى أمورها وتستعين به فى حل مشاكلها الشخصية .

مثال ذلك ما حدث أثناء تأهب شقيقة الخليفة ، البارعة الحسن والتهذيب ، عندما عزمت على زيارة إسبانيا ، فقد أشارت رفيقتها زوجة ضابط الارتباط الإسبانى ، بما لم يرقها من أسباب الزى والزينة ، واختلف من لهم ولهن حق المشاركة فى الرأى ، فقالوا جميعاً : اسألوا المقيم — المقيم كما يدعى فى القصر — نادوا المقيم . فجاء مجادته بصفة حكم فى الأزياء النسائية والأذواق .

– وما رأيكم فى هذه الفساتين ، وهذه الجوارب ، وهذه الأحذية ؟ ! وهذه الكبكب ، يا مجادة المقيم ، أهى لعبة أم حذاء ؟

وكانت تعنى بالكبكب الحذاء ذا الكعب العالى للسهرات وللاستقبالات الرسمية فى عاصمة الإسبان .

– لا بد منه يا سمو الأميرة .

– للعب ؟ !

– حاشاك – هذا الحذاء لهذا الفستان .

– يو ! وكيف أمشى به ؟

– يجب أن تلبسيه فى السهرات الرسمية يا سمو الأميرة . جربيه هنا فى القصر امشى فى هذه الردهات ، واصعدى وانزلى فى هذه الأدراج ، تعاونك وصيفاتك والسنيورا – (زوجة ضابط الارتباط) .

بايبدر قاضى الأزياء الشريفية – بطرونيوس تطوان ! تذعن الأميرة لأحكامه . وتتمرن فى القصر بمعاونة الوصيفات فتتغلب على « الكعب العالى » وتتبختر به ، كأنها من أربابه .

قال الكولونل بايبدر : هذا القصر للخليفة – وعندنا غيره للأهالى . هل زرت المستشفى الأهلى ؟ هو للمسلمين والمسيحيين على السواء – مجاناً للجميع . وفيه ما لا تجده فى مستشفيات العالم كلها . قد يبنى غيرنا لرعاياهم فى مستعمراتهم أو فى البلدان التى هى تحت حمايتهم ، أكبر وأحسن منه . ويبنون فيه كنيسة . وقد يبنون مستشفيات خاصة بأهالى البلاد فيها مكان للصلاة . ولكن فى هذا المستشفى – وأنا فخور به – بنيت الكنيسة بجوار المسجد ، فى بناية واحدة ، تحت سقف واحد ، تعال نزر المستشفى الأهلى دون أن نعلم المدير بذلك . أريد أن أكون المفتش اليوم ، وكن أنت معاوناً لى .

بايبدر يلتذ بالمفاجآت المبهجة حيناً . المزعجة أحياناً – المزعجة له ولسواه .

دهش المدير لرؤيتنا ، وما كانت ابتسامة الراهبة ، رئيسة الممرضات ، تشف عن دهشة الارتياح والسرور . على أن إدارة الشؤون فى المكان ، وجميع مظاهر العناية فيه ، خففت من أثر المفاجأة المزعجة التى اعترت الراهبة الرئيسة والطبيب المدير .

طفنا بالمكان من ردهة إلى أخرى ومن غرفة خصوصية إلى غيرها ، وفيها المرضى من نساء ورجال من المسيحيين والمسلمين . إلا أنهم فى عزلة بعضهم عن بعض . فهناك دار للمسلمين تقابله دار للمسيحيين . وهذه ردهة للمسلمات إلى جانب ردهة مثلها للمسيحيات الإسبانيات وغيرهن . وهناك غرفة للتوليد وأخرى مثلها للأمهات المسلمات .

وإن للنظافة كما للعناية أثراً محموداً فى كل مكان ، ولا تمييز ولا تفضيل فى المعاملة أو المعالجة .

دخلنا غرفة العمليات الجراحية المجهزة بكل أدوات الجراحة والغسل والتطهير فإذا هى بيضاء بأجمعها ناصعة البياض من بلاط أرضها إلى جدرانها ، إلى الموائد والكراسى فيها . وكان هناك على مائدة العمليات ذبابتان اثنتان أشار العميد إليهما فبادر المدير إلى « المنشة » وسحقهما بضربتين اثنتين ، ثم اعتذر عنهما .

— وهذى هى الكنيسة . قالها المقيم مفتخراً بها . ودعت له الراهبات ثم وقفن له فى الباب فأصاخ لهن ، وهو يهز برأسه . يظهر أن الراهبات مثل ذلك الراهب ، كثيرات الطلب .

انتقلنا من الكنيسة إلى المسجد وهو فى الطابق نفسه ، فكانت لهجة دليلى الفاضل مذهبة بابتسامة الرضى . ثم قال : هذا ما لا تجده فى مستشفيات العالم — كنيسة ومسجداً فى المستشفى الواحد ، وتحت السقف الواحد ، جنباً إلى جنب ، تبرم أسقف الأبرشية بطنجة عندما قلت . سأبنى مسجداً وكنيسة فى المستشفى الأهلى . فمضيت فى عملى ، فقبل به .

والكولونل بايبدر يحسن فرض إرادته فتذعن لها الإرادات دينية كانت أم سياسية .

— النصرانية والإسلام شقيقان ، يجمعهما فى هذا المستشفى ، بل فى هذه المنطقة . التساهل والمحبة . هذى هى سياستى ، بل هذا هو مبدئى ، وهذا عملى ، وسوف ننشئ معهداً لتعليم بنات المغرب علم التمريض . فإن زرت هذا المستشفى بعد بضع سنين تجد فيه ، عدا الراهبات ، ممرضات عربيات مغربيات إن شاء الله[1] .

أشرت غير مرة إلى مفاجآت الكولونل بايبدر المزعجة . وقد تكون مبهجة . وقد تكون مبهجة ومزعجة معاً — كنت فى غرفتى بالنزل ، بعد طعام الغداء ، جالساً فى كرسى أحاول استلاب الزمان ربع ساعة للراحة ، إذ دخل الخادم يقول : المفوض السامى يسأل عنك . قلت : بالتليفون ؟ قال : لا . بل هو فى الطابق الأسفل .

نزلت وبى شىء من الغيظ ، فلم أجده لا فى غرفة الاستقبال ، ولا فى الدار ، ولا فى ردهة القراءة والتدخين . وأين هو ؟ — دخل الخادم مكتب المدير وعاد يقول : هو هنا . وقد كان هناك وراء المكتب جالساً على كرسى المدير . فقلت : إنكم تثبتون ما قلته فيكم — فكملها ضاحكاً . مفاجآتى مزعجة . ثم قال لى إن له غرفة فى النزل يستأجرها سنوياً لتكون ملجأ له من مفاجآت الناس المزعجة !

— لا أرتاح حتى فى بيتى . يجيئون حتى إلى البيت . وقد أكون تعلمت منهم المفاجآت . أتذكر وصف دانتى لما رأى فى الجحيم ؟ فقد أسكن هنالك جميع

---

(١) فى سنة ١٩٣٨ بلغت اعتمادات المستشفيات فى المنطقة كلها نصف مليون بسيطة أى نحوا من خمسة وثمانين ألف ليرة سورية ، وفى هذه المستشفيات ستون طبيباً إسبانياً ، وخمسة وأربعون ممرساً طبياً لمراقبات البادية فى كل الإيالات .

أعدائه ، ونسى أعداء الإنسانية — الثقلاء والحمقى والكثيفى العقول . أعداء الإنسانية عموماً وأعداء الحكام خصوصاً . يقول الناس : هذا الحاكم ظالم . وهم يعلمون ما يقاسى هو من ظلم الناس الثقلاء والحمقى وكثيفى العقول ، لقد نسيهم دانتى ، وهم يستحقون أن يسكنوا فى أدنى دركات الجحيم . سأعود الآن إلى مكتبى ، عفا الله عن دانتى . . . لنشرب كأساً من الكونياك الجيد فى هذا النزل قبل أن أعود .

الكولونل بايبدر يحسن انتخاب خموره ويشرب ويشارب بمسرة صادقة ، لا أذكر أنى شربت فى إسبانيا أفخر من نبيذه « الشريشى (١) » الذى كان يقدمه لنا فى مكتبه بدار المفوضية .

وجاء الخادم بالزجاجة التى أثبتت ما قاله فى كونياك النزل . فقال وهو يرمق كأسه : يوم كنا نتأهب للثورة تعقبتنى الحكومة فاختبأت فى هذا النزل . — فى هذا المكان — وراء هذا المكتب .

* * *

ضون خوان بايبدر أتيانزا (D. Juan Beigbeder Atienza) ولد فى قرطنجة بمقاطعة مرسية فى سنة ١٨٨٨ ، فتلقى دروسه الابتدائية والثانوية فى مدارسها . ثم دخل طالباً فى الهندسة سنة ١٩٠٢ ، وبعد ذلك التحق بالجيش ، فكان فى سنة ١٩٠٧ ملازماً فى الفرع الهندسى ببرشلونة . ومن برشلونة نقل إلى المغرب فاستمر هناك فى الخدمة العسكرية من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٢٣ .

وقد أحرز فى هذه المدة من العلم بالمغرب وأهله ما أيقظ فى قلبه الحب للعرب والرغبة الملحة فى تحسين الصلات بينهم وبين الإسبان ، وتوطيدها بالأعمال المثمرة خيراً للشعبين .

---

(١) نسبة إلى شريش كما أسمى العرب (Jerez) المدينة المشهورة بنبيذها الذى يدعى شرى (Sherry) .

لا أشك فى أن هذا الحب كان كامناً فى قلبه ، وقد تحدر إليه من أجداد صفا عنصرهم العربى ، وطابت أرومتهم . كيف لا ، ومرسية هى المقاطعة التى بقى للعرب فيها ، بعد أن انتزعها منهم ملك قشطيلة فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، آثار وأخبار تنطق بعصبية متينة العرى . وهى المقاطعة الإسبانية التى ظل أهلها ، العرب والإسبان ، المدجنين والـ « مورسكوس » ، مقيمين على التراث القومى حتى بعد الجلاء الأخير على عهد الملك كرلوس الخامس . فآل بايبدر ، ولا غرو ، من سلالة عربية . وقد سبقنى الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة ألف باء الدمشقية ، فرد الاسم إلى أصله العربى أى بدر أو ابن بدر(١).

مهما يكن الأمر فالاسم عرض وإن سلمت فيه الدلالة ، والروح جوهر وإن غمض معناه . على أنه فى بايبدر مشرق معرب عن محتد كريم . فقد تنبهت فيه ، كما قدمت ، خلال إقامته بالمغرب ثلاث عشرة سنة ، عوامل التراث العربى وأسباب الثقافة العربية ، فحدت به إلى تجديد معالمها ، وتعزيزها بالأعمال المثمرة خيراً للعرب المغاربة والإسبان . ولكن أحوالا حالت يومئذ دون تحقيق شىء من أمنيته .

فقد رأت الحكومة الملكية أن تنتفع بمواهبه فى سياستها الدولية ولما يحسنه من اللغات ، أى الإنكليزية والفرنسية والألمانية ، فعينته ملحقاً عسكرياً لسفارتها فى باريس ، ثم فى برلين ، فتيانا ، فبراغ ، فبوادبست ، فاستمر فى السلك الدبلوماسى عشر سنوات .

وعند ما كان الجنرال كاباص نائب الأمور الوطنية فى المغرب ، سنة ١٩٣٤ ،

---

(١) الأسماء الأعجمية عرضة للتحريف والتبديل والتعريب والتنصير . وللإسبان فعلات فيها شبيهة بفعلات العرب ، إن لم تكن أقبح منها . فيقولون موروس ومهمت وبوباديلو ، أى المغاربة ومحمد وأبو عبد الله — ونقول نحن أدفونوس — قالها ابن بطوطة ونقلها عنه أبناء البيغاء — وشنت ياقب ومجريط أى ألفونس وسنتياغو ومدريد . غفر الله ذنوبنا وذنوبهم .

وأراد أن يقوم بأعمال وطنية مغربية ، اقتصادية وثقافية ، دعا صديقه بايبدر ليكون عوناً له ، فعينه مراقباً فى شفشاون ، ثم فى غمارة .

ولكن الحكومة الجمهورية لم تكن راضية بالخطة التى اختطها ، ولما استولت الجبهة الشعبية على الحكم فى سنة ١٩٣٦ ، ووجهت اهتمامها شطر المغرب ، كان بايبدر من المغضوب عليهم ، فأقيل من منصبه .

وفى ذلك الحين كان ضباط جيش المغرب ، وفى مقدمتهم الجنرال فرنكو والكولونل بايبدر ، قد نفروا من سياسة الجمهوريين ، ونفضوا أيديهم منها ، فشرعوا يعدون العدة للثورة — التى أعلنت فى ١٧ يوليو من هذه السنة ، فشبت نارها صباح ذاك اليوم فى مليلية ، ومساءه فى تطوان .

وفى المساء نفسه دخل الكولونل بايبدر دار النيابة الوطنية والمسدس بيده ، فعزل موظفى الحكومة الجمهورية عن مناصبهم ، وأعلن انتهاء الحكم الجمهورى فى المنطقة ، وابتداء الحكم باسم النهضة الوطنية . أما القائم بأعمال النيابة يومئذ ، الكولونل بينيا فقد كان فى بيته ، فخاطبه بايبدر تلفونياً يعلمه ما جرى ، وينصحه بألا يجىء إلى المكتب لأن أعماله قد انتهت .

وهكذا استولى على الحكومة ، وفى صباح اليوم التالى تولى منصب نائب الأمور الوطنية ، وباشر الحكم باسم الجنرال فرنكو . وقد لزم فى ما فعل الأصول القانونية . فلو كان فى المنطقة يومئذ مفوض سام لأقام نفسه مقامه . ولكن المنصب الأعلى كان شاغراً منذ سنتين ، وبقى كذلك نحو سنة بعد تسلم بايبدر زمام الحكم . ثم قلده الجنرال فرنكو المنصب رسمياً فى أيار (مايو) سنة ١٩٣٧ ، فتولاه سنتين وشهرين .

ودعته فى تطوان فى اليوم الثانى من يوليو ، وقرأت فى صحف الأخبار فى الشهر التالى أنه ودع تطوان ليلبى دعوة الجنرال فرنكو الذى كان يؤلف وزارة جديدة ، فأسند إليه فيها الوزارة الخارجية .

ثم جاءنى منه كتاب ، ردًّا على كتاب منى ، يعلمنى بما جرى . وكانت الكارثة الكبرى قد حلت بأوربا ، فذكرها بكلمة تعرب عما حاولت أن أصف أو بالحرى أن أمثل من سجاياه ، قال : « إنى أشعر بهول الساعة . ولكنى متيقن أن أولى الإدارة الصالحة والمثل الأعلى يستطيعون أن يعيدوا السلام إلى العالم . لذلك ترانى أميل إلى رجال الفكر منى إلى رجال العمل .

الفصل الرابع

أعوان وأنصار

كيف تنشأ الإشاعات فى دوائر الحكومة وخارجها ؟ وما هى البواعث عليها ؟ لست أشك فى أن المصادر والبواعث هى واحدة فى الحكومات الصغيرة والكبيرة ، وفى الدوائر السياسية الدولية والوطنية ، الخارجية والداخلية .

وبما أننا الآن نعنى بشؤون حكومة من الحكومات الصغيرة ، وفيها سبل التقصى والتمحيص أوضح مما هى فى الكبيرة ، إذ تشف الأسرار التى تكتنف الحقائق ، وتقل الصعوبات فى إدراكها ، فسنحصر البحث إذن فيها ، ونجيب على السؤالات المتقدمة بما يرجح فيه اليقين .

كثيراً ما كنت أسمع فى الدوائر السياسية بتطوان أن فلاناً الموظف سينقل إلى سلك المراقبات ، وفلاناً المستشار سيعين قنصلا فى مصر أو سوريا ، وفلاناً المراقب سيُقلد وظيفة عالية فى السلك الدبلوماسى ، وفلاناً المدير سيغدو مستشاراً لإحدى الوزارات ... إلخ . وكل ذلك فى الشهر القادم ، أو فى الشهر الذى يليه ، أو فى الشهر الآخر بعده . فيمر الشهر الأول ، ويتبعه الثانى ، ويولى الثالث ، ولا يتغير فى تلك الدوائر غير الإشاعات .

تلك الإشاعات يختلقها الموظفون أنفسهم فى أكثر الأحايين ، فيسرون بالحادث المقبل إلى أحد أقاربهم أو أصدقائهم ، فينتهى الخبر إلى أحد الصحافيين ، ولا ينتهى بعد ذلك فى الدوران . وقد يكون الموظف حسن النية ، فلا يريد من أولى الأمر غير أن يتنبهوا إلى ما هو ضرورى فى إصلاح بعض الشؤون الإدارية أو السياسية ، فيرقوا المستحقين من رجالها ، أو يعينوا لها أبناء

بجدتها ، لا أبناء أصحاب العزة والإقبال والفخامة أو المعالى ، أو أبناء عمهم . هى الأمنيات الشخصية ، وأخواتها الوطنية ، مختلقة الإشاعات . وقد يكون فى الخبر غير الصحيح أمل مليح .

وهناك إشاعات أخرى مصدرها الدوائر العالية فى الحكومة . فعندما يشاع أن الخليفة مثلا أو الصدر الأعظم قادم على عمل ما إدارى أو سياسى ، متعلق بشؤون الحماية — وهل يجهل الأمر كل الجهل — تكون الإشاعة صادرة من دار المفوضية ، تمهيداً لما ستطلب من صاحب الفخامة أو صاحب السمو . وعندما يشاع أن وزيراً من الوزراء ينوى الاستقالة — بل قريباً يستقيل — يكون هناك مشورة فى أمره واتفاق على عزله . هذا إذا كانت الإشاعات التى تتردد فى المدينة وتصبحه وتمسّيه كل يوم ، لا تحمله على الاستقالة . ذى هى بعض الأمثلة التى يصح القياس عليها .

وفى المغرب الأقصى ، كما فى سائر البلدان العربية ، نزعة سياسية إسلامية ينزعها بعض الأوربيين لأغراض خاصة ، فيتزلفون من الإسلام ، ويخطبون ودّ المسلمين ، بشتى الأساليب السياسية والاجتماعية والاقتصادية . أما فى حكومة هذه المنطقة من المغرب الأقصى فإنك تجد رجالا غير المفوض السامى ، موصوفين بحبهم الخالص للعرب والإسلام ، فيتمنون الفرص التى تمكنهم من الأعمال المحققة لمبادئ التآلف والتعاون فإن لم تكن هذه النزعة نزيهة صافية ، فإنها — ولا ريب عندى فى هذا — أصفى وأنزه مما هى فى سواهم من الأوربيين ، إن كانوا فى المغرب أم فى الشرق العربى .

ومن أولئك الذين عرفتهم ، وتيقنت أنهم يرغبون فى تمكين الصلات القائمة اليوم بين حكومتهم والمنطقة الخليفية ، وبين هذه ، والمناطق العربية الأخرى شرقاً وغرباً ، وفى إنشاء الجديد من الصلات وتعزيزها بأعمال يودون لو أتيحت لهم فى السلك الدبلوماسى أو القنصلى — من هؤلاء اثنان امتازا بما يعملان فوق ما يبتغيان ،

وهما السنيور إميليو طوباو والسنيور خوسه إرغون .

لقد سبق فذكرت السنيور طوباو (Emilis Alvarez Tubau) بما لا يجوز الاكتفاء به . فهو أقدم الموظفين فى الحكومة المغربية ، رافقها فى جميع أطوارها ، الملكية والجمهورية والوطنية ، وكان فى أشد الأزمات واسطة خير ، ورسول سلم ، بين حكومة بلاده وحكومة البلاد التى أحبها وأحب أهلها ، أو بين رجال الحماية العسكريين ومن كان يناهضهم من زعماء المغاربة . يكتب للتوفيق والسلام ، ويسعى للسلام والتوفيق ، تحقيقاً لآمال المحبين من الفريقين ، الراغبين فى إزالة أسباب الشقاق والنزاع .

وللأخ طوباو مزية فى سلوكه السياسى ، الرسمى وغير الرسمى ، يغبط عليها . فهو يستطيع أن يمزج شخصيته فى شخصية سواه دون أن يفقدها . يمشى مع الملكيين كأنه منهم ويماشى الجمهوريين فيتخذونه دليلهم ، ويسير اليوم مع الوطنيين ، ولا يتنازل عن شىء من روحه الملكية ، وأخلاقه الديمقراطية . يزين صدره بالأوسمة التى منحها — وما أكثرها — فيعتز بها ، ويجالسك وهو عاطل منها جلسة الإخاء الفلسفية ، فيحدثك فى شؤون الدول والناس حديث عالم حكيم ، بل ناقد بصير ، رحب الصدر ، بعيد مدى العطف والحنان ، فلا يدين أحداً ، ولا يريد هو أن يدان ، إلا فى اليوم المحتوم ، يوم يُنفخ فى الصور ، فوق القبور .

والصديق طوباو محب للعرب ، ولا غرو ، ومغرم باللغة العربية وآدابها ، فيروى من أشعارها بلهجة تنسيك اللحن ، بلهجة مفخمة ، غير لهجة بيروت ، حيث تلقى علومه فى قديم الزمان كما قدمت . وإن قديم الزمان فى اصطلاح زماننا هو ما كان قريباً من العهد السابق للحرب العظمى . لا أريد أن أقول إذن إن طوباو من الأقدمين فهو مثلى لا يزال فى الستين أو دونها من سن الشباب !

وإن له فى الأدب والفنون علماً ماتعاً ، وذوقاً رفيعاً ، فيعتصم بالكتاب من

تكاليف الحياة السياسية ، ولا يقبل على الأثر الأدبى أو الفنى لمجرد شهرة صاحبه . بل له فى ما يقرأ ، كما له فى الناس ، رأى سديد ، وضحكة فى موضعها مديدة .

سألته مرة : وهل تتمكنون على كثرة أشغالكم من المطالعة ؟ فأجاب قائلا : مهما تكن الأشغال فلا بد من الأكل والنوم ، وكذلك المطالعة . فلا بد منها بعد الأكل ، ولا بد منها للنوم .

أشرت إلى أشغاله الكثيرة ، فيجب أن أقول إن وظائفه كثيرة . وقد تكون النسبة بينها وبين أشغاله نسبة سلبية ، أى أنه كلما زادت الوظائف قلت الأشغال . فهو اليوم مستشار سمو الخليفة ، ورئيس تشريفاته ، والمكلف بأشغال القصر الخارجية ، وهو مفتش الدروس المغربية ، وعضو فى المجلس الإدارى بطنجة ، ومعاون فى أعمال المفوضية الإسبانية هناك . فإخال أن هذه الوظائف الجليلة الأسماء ، على ما توجبه من التنقل الدائم بين طنجة وتطوان ، ومن السياسة الدولية الطنجاوية إلى السياسة الخليفية المخزنية إلى أختها الحماوية الإسبانية تفسح المجال للأكل والمطالعة والنوم ، فيتمتع صاحبها بما يشتهى منها !

وقد زيدت — أيام كنت هناك — وظائفه ، وصحت النسبة فقلّت أشغاله ، إذ عُين رسولى لدى سمو الخليفة ، ورفيقى إلى رئيس الدولة الجنرال فرنكو ببرغشت . فستلقاه ، أيها القارئ الصبور ، فيما بعد غير مرة ، وتزداد معرفة به ، وحبًّا له .

أما الإسبانى العربى الآخر فى المفوضية فهو السنيور خوسه أرغون — كما يكتبها هو بالعربية — كانيثاريس (Jose Aragon Canezares) زين الشباب ، وحقيقته الباهرة الصافية ، التى ليس فيها زيف طوباوى أو ريحانى . فهو يطل على الحياة من شرفة العقد الثالث ، ويرمق العروبة بعين سوداء ناعم نورها لأنه من القلب . فالسيد أرغون مغربى المولد ، إسبانى المحتد ، عربى الروح والوجه واللسان . طويل القامة ، أسمر اللون ، وقفته عسكرية وخطواته دبلوماسية ، وبلغة المقامات هو كالرمح المقتنّ ، وقد جُلى سنانه ؛ والفرس المستنّ ، وقد أحكم

عنانه . زين الشباب المتئد المتزن ، فلايروّج ، ولا يعوج .

ولد السيد أرغون فى الدار البيضاء منذ ثلاثين سنة (١٩٠٩) فى الشهر الأخير من الأشهر المثمرة أشهر الصيف ، فكان من طيب ثمارها فى نظر والديه وآله وصحبهم ، ثم فى نظر معلميه العرب فى المدارس الابتدائية بأسفى والجديدة ، ثم فى المدارس الثانوية بمدينة مرسية التى كمل فى جامعتها دروسه العالية ، وأحرز من معهد الحقوق فيها شهادة الليسانس .

هو إذن محام ، ولكنه غير ممارس . فقد قفز وهو فى العقد الثانى قفزة واحدة من مرسية إلى تطوان ، فى سنة ١٩٢٧ ، فدخل دار الحكومة وبقى فيها ، وهو اليوم رئيس المستشارية المخزنية ، ورئيس قسم الدعاية فى المنطقة الخليفية والممتلكات الإسبانية عبر البحار . فى المكتب الأول يساعد فى إدارة الشؤون التى تربط الحكومة المخزنية بالحكومة الحامية ، وفى المكتب الثانى ينظم ومعاونيه الدعاية التى أمست من ضروريات العيش لحكومات هذا الزمان ، وخصوصاً منها الإمبريالية الاستعمارية .

ولإسبانيا الجديدة أغراض وطنية تتجاوز ممتلكاتها فى البحرين الأطلنتيق والمتوسط . فهى تطمح إلى استعادة نفوذها الاقتصادى ، وتجديد سيادتها الروحية والثقافية على الأقل فى الجمهوريات الأمريكية الجنوبية فمكتب الدعاية بتطوان ، وإن كان مخصصاً للمنطقة الخليفية وما إليها من الجزر والبلدان كإفنى وريو ده أورو والمدينتين المستقلتين عن المنطقة ، يتعاون ما أمكن والمكتب الأول فى إسبانيا على نشر الدعاية فى البلدان الإسبانية اللسان والثقافة ، التى كانت من ممتلكاتها فى سالف الزمان .

على أن اهتمام المكتب أولا وأصلا هو فى المنطقة الخليفية ، وما يتصل بها من الشؤون معنوياً وجغرافياً غرباً وجنوباً ، أى فى طنجة والمنطقة السلطانية . فالفرنسيون هناك أول من يشعرون بهذه الدعاية وينفرون منها ،

فيقاومونها بدعاية تفوقها انتشاراً . وللدعايتين بركانان مشتعلان على الدوام ، هما الجريدتان الكبيرتان الإسبانية بطنجة والفرنسية بالدار البيضاء .

يقول السنيور أرغون إن مكتبه غير مسؤول عما تنشره جريدة « إسبانيا » بطنجة ، وإن الغرض الأول ، والهدف الأقصى ، من كل أساليب الدعاية التى يتخذها ، هو أن يعرِّف البلدان المجاورة للمنطقة ، والدول ذوات المصلحة فيها ، بما تقوم به إسبانيا الجديدة من الإنشاءات والإصلاحات فى المغرب الخليفى ، وما تطمح إليه فى انتهاجها سياسة استعمارية غير نفعية .

ثم قال : ويهمنا كذلك أن نكون مطلعين على أعمال الدولة المجاورة لنا وسياستها فنقتفى أثرها فى النافع الصالح منه ، الملائم لسياستنا — إن كنا فى غفلة عنه — ونتّقى الأفخاخ والمعاثر التى تقع فيها هناك . ولى فى الدعاية مبدأ هو أن تتبارى الدول فى الأعمال العمرانية والثقافية وينتفع بعضها فى ما يجهلون ببعضها الآخر فى ما يعلمون . نحن لا نكره الفرنسيين ، ولا نحرض على مقاومتهم . ولكننا مطلقون للصحافة والأحزاب السياسية حرية الفكر والنشر . فلا نتعرض لما لايخل بالنظام والأمن العام . ولكن الفرنسيين ، إن كانوا فى طنجة أم فى المنطقة الجنوبية ، يتخيلون غير ذلك ويجسمون ما يتخيلون . فينظرون إلينا نحن الإسبان نظرهم إلى البدو ، بل إلى العدو المتوحش . عند ما يمرون بهذه المنطقة مثلا ، فى أسفارهم من المنطقة الجنوبية عائدين إلى بلادهم . ويجتازون بعد ذلك بلاد إسبانيا وجبال البرانس ، يبرقون إلى أهلهم قائلين : اجتزنا بسلامة . كأن البلاد التى اجتازوها قفر من قفار أفريقيا الوسطى وكأن الإسبان واقفون فى الطرق يسلبون ويذبحون . إنى أؤكد لكم أنهم يعاملون كسائر المسافرين وأحسن من غيرهم فى بعض الأحوال ، عندما يجتازون هذه المنطقة فى العودة من المغرب الجنوبى إلى بلادهم ، أو من بلادهم إلى المغرب الجنوبى ، وفى الأعمال خير الدعايات وأسرعها انتشاراً . . .

لا نكران أن بين الإسبان والفرنسيين عداوات قديمة تتصل بأبناء هذا الزمان ، فيصرح من ليسوا فى الحكومة بما تكنه أفئدتهم ولا يبالون . حضرت مرة حفلة راقصة فى النزل ، حيث شاهدت شبان المغاربة ببرانسهم البيضاء وجواربهم الحمراء والصفراء يراقصون الإسبانيات بأدب يدنو من الورع والتقوى . واجتمعت هناك بطبيب إسبانى أقام فى المغرب الجنوبى معظم حياته وأشرف على صحة السلاطين ، من المولى حسن ، والد السلاطين الثلاثة ، إلى المولى محمد السلطان الحالى . فقال : كلما تقربنا من الفرنسيين بعدوا عنا . ولا سبيل إلى التفاهم . أما نحن والعرب فالأمر على خلاف ذلك . نحن إخوان وأنسباء — إخوان فى البلاد الواحدة وأنسباء فى الثقافة العربية الإسبانية ، فيجب أن نتضامن ونتعاون فى إنشاء مدينة تجمع بين الهلال والصليب . نحن الوحيدون فى أوربا المدركون أهمية الإسلام ، العاملون فى تعزيزه ليسير جنباً إلى جنب وعظمة إسبانيا الجديدة .

قلت : هذه الروح جديدة فى إسبانيا .

فقال : بل هى قديمة .

فقلت : كانت إذن فى سبات ولم تستيقظ إلا حديثاً .

فقال : كانت فى سبات يوم كانت إسبانيا غريبة عن نفسها ، يوم كان النفوذ الفرنسى مسيطراً على سياستها ومقدراتها . يقول الفرنسيون إن أفريقيا تبدأ من جبال البرانس — أى أننا نحن الإسبان مثل العرب أفريقيون — متوحشون برابرة ، أما أننا برابرة متوحشون فهذا قول لا نرد عليه . وأما أننا أفريقيون فلا اعتراض . بل إن فى ذلك فخرنا . نفتخر ، نعم ؛ إننا والعرب إخوان . وإن عظمة إسبانيا التى نسعى لتجديدها فى المغرب والمشرق ، حتى فى العالم الجديد ، هى معقودة بتجديد عظمة العرب والإسلام .

وكان حاضراً أحد العاملين فى دائرة الحكومة الوطنية للترميم والتنظيم ،

فقال مؤمناً على كلام الطبيب وشارحاً له : سياسة إسبانيا تختلف عن سياسات الدول الأوربية كلها . لأنها سياسة عقيدة ، لا سياسة مصلحة . ونحن فى ذلك متطرفون ولا ريب . ولكننا صادقون لما بأنفسنا ، عاملون للعقيدة المالكة قلوبنا ، دينية كانت أم سياسية ، ولذلك نحن دوماً خاسرون ماديًّا ، وراضون بما يكون من تعويض معنوى وروحى . سأعطيك المثل . كانت إسبانيا أيام عزها تتقيد فى سياستها ، أولا وأخيراً ، بالديانة الكاثوليكية ، فتقدم مصلحة الكنيسة على مصالحها ولا تبالى بالخسارة ، هى سياسة العاطفة . هى سياسة العقيدة الدينية فى الماضى . أما اليوم ، وإن كنا مقيمين على إيماننا الدينى الكاثوليكى ، فقد أضحت عاطفتنا محض مدنية — وما تجردت من الروحيات . نحن إمبيرياليون ، ولسنا مستعمرين . نريد أن نحيى الماضى ونلبسه حلة جديدة لا دينية ولا استعمارية . نريد أن نؤسس دولة إسبانية قائمة على الثقافة العربية الإسبانية ، وإن كنا فيها خاسرين . سنخسر لا محالة كما خسرنا فى سياستنا الدينية الكاثوليكية .

سألت محدثى : وهل كانت فرنسا رابحة ربحاً ماديًّا فى سياستها الداخلية والخارجية منذ مئة سنة ، يوم نشر جنودها ، جنود الثورة البسَّل ، مبادئ الحرية والإخاء والمساواة فى أوربا ، ويوم عاونت بعقيدة صادقة حارة ، فى تحرير الأمم ؟

فأجاب : كانت خاسرة ماديًّا ، رابحة معنويًّا وروحيًّا . ولكنها نبذت تلك المبادئ فى حروب نابوليون ، ونسيتها تماماً فى الحكومات البورجوازية التى تأسست بعده . فالسياسة العاطفية التى نبذتها حكومة فرنسا ونسيها الشعب الفرنسى ، هى اليوم سياسة الحكومة الوطنية الإسبانية .

— وهل تدوم هذه السياسة فى المغرب ؟

— ستدوم يقيناً .

— وإن لم تدم الحكومة الوطنية ؟

— ليست سياستنا الجديدة منحصرة فى الحكومة . بل هى تنعكس عما يضىء فى قلب الأمة الإسبانية .

ثم قال الدكتور : هذا صحيح . ولكنى أقول فوق ذلك بصراحة تامة ، إن المصالح الإسبانية فى هذه المنطقة محفوظة ، وهى معززة بإرادة أهل المغرب ورضاهم . وهذا ما يريد الإسبانيون أن يحتفظوا به . الإرادة الواحدة فى الشعبين ، والرضى المتبادل بينهما — هاك الأساس المتين لحكمنا المتين فى هذه المنطقة ، وللسيادة الثقافية المشتركة هنا وفى الوطن .

فما هو يا ترى حظ السياسة العاطفية فى عالم تتنازعه سياسة فرنسا البورجوازية وسياسة إنكلترا الإمبراطورية ، وسياسة ألمانيا النازية ؟ هذه السياسة المحررة من قيود المبادئ الإنسانية الشاملة ، من قيود المثل الأعلى فى الحياة المعتزلة ، تسير مبصرة متعمدة على الخطة التى تستوجبها الأحوال السائدة التى يعبر عنها بالحالة الراهنة ، كما تستلزمها المصالح الخصوصية الوطنية والحزبية والشخصية .

ولكن السياسة البريطانية تتميز عنها فى علاقاتها العربية الإسلامية التى لا تخلو من بعض العواطف التقليدية .

وتريد إسبانيا اليوم أن تقيم سياستها على العواطف فقط ، وهى لا تخلو من بعض المبادئ الاستعمارية التقليدية .

أما السياسة العاطفية البحت — رويداً رويداً ، فقد يريد الله بعد أن يعيد الإيمان إلى قلوب الشعوب وقلبك ، بواسطة هؤلاء الإسبان ، فتكون سياستهم العاطفية بداية عهد جديد فى العالم .

الفصل الخامس

شِفْشاون

صروح مديدة منخفضة ، ظاهرها أبداً جديد ، صروح بيضاء كزهر السوسن ، ناعمة كفجر الربيع ، مزخرفة منمنمة . صروح كقصور الجن ، بنات الخيال وقصص المحال ، بعُمُدٍ كفتيات الحور ، بأقواس كالنونات ، خطها قلمٌ ساحرٌ ، فعكستها يدٌ عابثة . صروح بتيجان اقتُبست من أعالى الحصون ، لتنوح فوقها الحمائم ، وتغرد الحساسين ، صروح لفنانين موطين ، فرُّوا من حقائق الوجود إلى حقيقة الحياة الخالدة — من الأشكال المتنافرة إلى الوئام والتجانس فى وحدة الجمال ، صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية ، تحت سماء كلها بهاء وحنان ، صروح كاللعب لأطفال الأرباب ، وما هى باللعب ولا هى للاعبين .

ولمن الصروح ؟ أللجبابرة الحديد وعبيد البخار ؟ أللطائعين الوادعين الصالحين النافعين من ذريَّة مباركة لا إنسية ولا جنيَّة ؟ أللحيوان والإنسان ، للذابح والحارس من الناس وللناهبة المسافات ؟

حصِّن فؤادك واستمع . إن هذا الصرح لسكة الحديد فى محطها ، وذلك الصرح لمجزر تطوان ، والآخر على الهضبة الخضراء هو مخفر عسكرى .

هى الفنون والروح العربية الإسبانية المتزاوجة المثمرة . هى الهندسة الساحرة الأندلسية الغرناطية ، وقد تجسمت فيها الأمنية القصوى ، الناشئة من فنون الشرق والغرب ، ومن تشوقات القلوب المعتصمة بآثار الماضى المجيدة ، وبخرائبه

الفتانة — بروح الماضى وذكراه .

هى هى صروح الروح الخالدة ، وقد شيدت ، بعد الحمراء والزهراء للحديد الممدود ، وللفحم والوقود . وشيدت للجزارين يجازون الأنعام على الطاعة والوداعة والخير . وشيدت لحماة الأمن والنظام .

الصروح البيضاء المتوجة بتيجان الحصون ، المحصّن فيها الفن المغربى الإسبانى تودعنا ونحن خارجون من تطوان .

والطريق الأسحم الصقيل ينساب بين الروابى الخضراء ، المتألق طلّها فى روض الصباح ، الراقص زهرها للشمس الشارقة . ينساب ذلك الأسحم الصقيل بين تلك الروابى فى سفوحها وثناياها ، وعلى صدرها المجلود وفوق جبينها الصامد لسهام الشارقة الغاربة .

الطريق وأبناء الطريق وزينات الطريق ، يحدجها الفجر ، ذلك العابد فى سمائه ، بعين الحب التقية ، ويلفها بنسماته العاطرة ، يدخل على قلبها نور محرابه الدرّى .

الطريق وأبناء الطريق : رجال البوادى يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الأرض الجوّادة يسوقونها إلى المدينة بما تنبت الأرض وتثمر ، بالحطب والفحم والبقول والحبوب . وبنات البوادى بقبعاتهن الشبيهة بالمظلات تتناعس تحتها العيون النجل فى سمرة الخدود ، وهن ممتطيات ظهور الأتن الوديعة ، الطائعة الصابرة المكدودة .

الطريق ، والحركة والسكون فى الطريق — سكون الفجر الوفى الأزلى ، وحركة الشعوب المتقلبة الزائلة ، جيلا بعد جيل ، منذ وطئت هذه الأرض أرجل الفينيقيين ، ثم الرومان ، ثم البيزنطيين ، ثم الغوط والعرب والفرنجة اللاتين إلى زماننا ، فرأت عين الفينيق منذ ثلاثة آلاف سنة ما نراه نحن اليوم — هذه الوجوه السمراء الجافة الإهاب ، وهذه العيون السوداء الناعسة ،

وهذه النعال والبرانس والشماريق ، وهذا السكون فى الوجوه والعيون الحاجب العزم والشدة والاستعزاز .

بوادى المغرب من عرب وبربر ، صلة الخير بين المدينة والأرياف ، بين معدة جشعة ، وقلب خاشع ، بين شهوة لا تزول ورحمة لا تحول ، بين فم يردد دوماً : هات هات ، وأيد تلبى يوماً بعد يوم ، مبسوطة غير مقبوضة لا تكل ولا تمل .

الطريق وزينات الطريق — ومنها سيارات هذا الزمان تطوى المسافات وتنهبها وتخفيها ، وهى تمزج أنفاسها الغازية بأنفاس الطبيعة الشذية ، فتمر بالحقول والمروج ، وبالزهور والرياحين ، كأنها من الطريق اليابس العابس العقيم ، لا تستحق وقفة ولا نظرة ، ولا نشقة عابرة .

الطريق ، طريقنا إلى شِفشاون ، بعد حبس فى المدينة يومه شهر وشهره دهر ، حياك الله حياك !

الطريق والربيع الزاهى إلى جانبى الطريق ، وفوقه على رؤوس الربى ، وتحته فى الوادى الريان ، بجوار النهر ، نهر مرتيل النائم الكسول . أهو نهر ورع متقشف لا تهزه نشوة الربيع ، فيسير ويدور على هواه ، هادئاً ساكناً بطيئاً ، سيرَ الخير فى العالم ، ويتقبل الجزية التى تؤديها له الربى والجبال — ساقيةً هنا وسلسبيلا هناك — بيد صفراء ناحلة !...

الربيع واحد فى المغرب وفى لبنان ، طرفى هذا الشاطئ الأفريقى الأسيوى ، هو واحد فى فيضه وأشكاله وزمانه ، يجىء البلدين على اليوم — على الساعة — فى الروزنامة ، لا يبطئ ولا يسرع ، ولا يتقدم ولا يتأخر ، فيُسمع صوت الحسون ، وتُشهد طلعة السوسن فى آن واحد هنا وهناك .

وذى هى النباتات اللبنانية ذوات الأريج الكامن والمنتشر — الصعتر والقصعين والقندول الزاهر . وهاك الدفلى البيضاء والحمراء تتمايل على ضفتى

النهر . وقد شاهدنا فى بعض الأماكن شقائق النعمان والأصفر من الأقحوان .

وهاهو ذا العلم يغزو حتى هذه الأصقاع المغربية القصية . تلك الأبراج من الحديد والعمد من الخشب هى لأسلاك البرق ، والأخرى لأسلاك الكهربا ، تسير جنباً إلى جنب بين أشجار الزيتون البرية والخرنوب . عجبت لزيتونهم الذى لا يلقحونه فيثمر ويضىء ، ولخرنوبهم الذى يقدمونه للمواشى ولا يدبسّون .

وهاهو ذا مخفر آخر من مخافر القبائل ومنها بجوار تطوان بنو قُرَّش . قُرَّش؟ أم هى قرَيش ؟ يجب أن ترد هذه الأسماء إلى أصلها العربى . ولكن المغاربة لا يبالون بما يحل بالأصول . وإن هم داووها فبالإهمال . فيطول يومها ، ولا يحول اعتلالها .

وقد يخترعون أصولا غريبة فى الدين والتفسير . فيتنكّر التوحيد لأهله ، أو يتقنع بقناع الصوفية ، ويؤثر الزوايا على المساجد ، والمرابطين على العلماء . هى الفتوحات والأقاليم القاهرة . وهى العقائد فى قلوب الفاتحين . تنتقل إلى حقائبهم ، فتتأثر بالمناخ والمحيط وبتقاليد المغلوبين أنفسهم . بعد الإسلام عن مهده ، فسادت فى أندلسه الفلسفة ، وكادت تتغلب عليه ، وسادت فى مغربه روح القبائل البربرية ، ففتح أبوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية — لأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم — بعد أن أخفق فى مقاومتها وعجز عن التغلب عليها .

هذه الكلمة جرَّها مخفر بنى قرَّش — قريش ؟ — ونحن ندنو من مدينة هى معقل الدين ، والعلوم الدينية ، أو كانت . فقد قيل لنا إنها نجف المغرب — وإنها لسبب آخر نابلس المغرب . وقد يكون التشبيه مثل الأسماء المشوهة بالتحريف ، فنبحث فى نجف المغرب عن السراديب والمدارس فيها فلا نجدها — وقد نجد فى نابلس المغرب بعض اليهود . فالتشويه فى التشبيه مستقبح كما هو فى الأسماء ومضلل كذلك .

ولكن فى الأسماء الكثير من الفصيح السليم ، وفيها ما يبرره الأصل

البربرى . فقد ذكرت المخفر وهو فى اصطلاحهم مرقب . وقرب المرقب المدشَر أى القرية . فالمرقب مقبول مكرم فى قواميسنا العربية ، والمدشر مرفوض مجهول ، إلا فى القواميس البربرية ، وهى غير موجودة . ولا أحد من أهل البلاد العرب والبربر ، يستطيع أن يرد اللفظة إلى أصلها اللغوى فينكشف سرُّها .

إذن نقول المدشر . وقد مررنا بمداشر عدة وما شاهدنا غير نموذج منها ، كوخ أو كوخين بجوار المرقب ، والنموذج طبق الأصل مبنى من القش والطين بشكل هرمى . أما المدشر فهو مختبئ فى الوادى أو فى ثنايا الروابى .

وهاك شفشاون مجموعة ظلال على الأفق المشرق . وهاك النهر فى ناحية غير تلك التى كان رفيقنا فيها . فسألت الرفيق ألفريد البستانى ، الذى تعلم جغرافية المنطقة بالأسفار المكررة فى البوادى والحواضر : كيف انتقل النهر من يميننا إلى يسارنا ، وسبقنا فأصبح أمامنا ؟ فعلمت أن نهر مرتيل لا يزال مكانه وراءنا وقد اختفى فى أحد الأودية المنحدرة من منبعه . أما هذا الذى أمامنا فهو نهر سيف اللاو ، والسِّيف ساحل للوادى — فى القاموس — كما هو للبحر .

إننا إذن فى رأس وادى اللاو ، وقد كتب لنا التعرف إليه ، من رأسه إلى قدميه . وسنشهد هناك العجائب المبهجة — وستشهدها معنا ، أيها القارئ الصبور ، إن ثبت فى الصبر والتسيار ، فها هو ذا الآن سيف اللاو وها هوذا نهر السيف ، المنحدر من جبل شفشاون فى أحد فرعيه ، ومن جبل باب تاز فى الفرع الآخر . فجبل شفشاون أمامنا هناك ، على الأفق الشرقى ، ولا يزال للثلج أثر فى أعاليه — وإلى جانبه جبل القلعة ، ووراءه — وراء ذلك الأفق المشرق — باب تاز وجبالها .

إن نهر السيف لأنشط من نهر مرتيل ، فيُرى كأنه يجرى وكأنه يسرع فى جريه ويقهقه فى انحداره . تُرى ضحكته الفضية وتُسمع . وإن له مرحلة يجتازها من نبعيه فيقف الفرعان متحدين طوعاً للعلم ، وقد شيد لهما مركزاً قريباً من

شفشاون ، وفيه الأدوات والمحركات لاستثمار قواهما . نهر السيف ، وقد حُشدت قواه لتوليد الكهربا . فرأينا أبراجها فى الطريق ، وهى تحمل النور إلى المدن — إلى شفشاون وتطوان والعرائش وإلى القصر الكبير والصغير ، حتى إلى سبتة وطنجة .

دنونا من البساتين ، وقد نوَّرت أشجارها ، وفاح طيبها . وعدنا إلى الصروح ، الصروح البيضاء المتوجة بتيجان الحصون ، الحاملة خارجاً وداخلا رسالة الحمراء فى الهندسة الغرناطية شكلا ومعنى — جمعاً وتفصيلا — فى النقش والتلوين ، وقل التلحين ، وقل الغناء . وإن أجمل الألحان لفى هذا الزخرف وهذه الألوان .

هى الصروح المغربية الإسبانية ، الغرناطية المغربية . هذه ثكنة للجيش ، وهذا — فى وسط جنينة زاهرة بالقرنفل والورد والنرجس والياسمين — مركز المراقبة ، وذلك إلى جنبه مركز المخزن الشريف ، تحيينا فى الأول إسبانيا وقد أقامت للحماية مراقبات يديرها أبناء حكومتها من عسكريين ومدنيين . وهذا مراقَب الناحية — ندخل فإذا نحن فى شبه « حمراء » صغيرة منمنمة . فتبدو المكاتب فيها كموائد الصيارفة فى المعابد . وهاهو ذا المراقب الضابط الشاب ، فى جزمة لامعة وثوب أصفر عسكرى ، إنه لمن المتناقضات .

ولكن فى شفشاون صرحاً أندلسيًّا واحداً لا تناقض فيه — هو النزل الجديد . فإن كنت ممن جابوا الأقطار القاصية والدانية ، وشاهدوا فى المدن الحديثة والقديمة كل عجيب طريف ، فأصبحت يابس الشعور ، لا يهيج يبهجك ، ولا عجيب يعجبك ، فاطو هذه الصفحة ودونك غيرها . وإن كان لا يزال لوح نفسك طريًّا تطبع فيه الآيات الطبيعية والفنية ، فتزيدك علماً وحبوراً ، فواصل ما أنت الآن فيه ، ولا تخش الخيبة أو الملل .

ليس هذا النزل القائم بين الجبال ، على هامش المدينة ، بنزل ضخم فخم عظيم ، ولا هو فى ظاهره على شىء من النادر والممتاز فى الجمال . ولكن فى داخله

السحر الساحر ينقلك بلحظة عين إلى الأندلس – أندلس العرب . ذلك السحر هو فى ردهة الاستقبال – فى النقش والزخرف والألوان ، على الجدران والعمد ، وفى السقف وتحت قدميك . هات القهوة يا غلام !

إن كتاب هذا السحر لمن « حمراء » بنى الأحمر الخالدة – يا للمتحمر بلهجة المغرب . وأدوات السحر من معامل البلاط الزلّيجى بأشبيليه ، وأستاذ السحر من هذه البلاد المغربية – والسحر الحلال ، هاكه فى هذه الرسوم الهندسية ، بخطوطها الخضراء والصفراء والحمراء ، وفى هذه الفسيفساء – الأرابسكية – السوداء الزرقاء البنّية ، تتجلى فى السقف ، وترقص على الجدران وحول العمد ، وعند قدميك – هات الخمر يا ولد !

إننا فى غرناطة ، فى المضيف السلطانى بالقصبة !

هو السحر القديم . وفى الطابق الثانى السحر الحديث الجديد . فى الطابق الثانى ننتقل انتقالا آخر سحرياً . من غرناطة إلى باريس أو نيويورك – من الفن الساحر المتعب للأعصاب إلى الصناعة الموفورة الراحة والرفاه – من الترف الذهنى والعاطفى إلى الترف الجسمانى – من الكرسى الخشب المطعم القاسى إلى الكرسى المنجد الوثير – من الألوان المثيرة للأفراح والأشجان ، إلى اللون الواحد الساكن المسكّن ، الممزوج بماء الحياة والاطمئنان !

وإلى جانب كل غرفة من غرف النوم نعيم هذه الدنيا – حمام مجهّز بجميع أسباب الرفاه والبهجة ، بأحواضه الكبيرة والصغيرة ، بزلّيجه الأشبيلى ، بأنواره الكهربية ، بمواسيره الخفية الحاملة إليك الماءين الحار والبارد . . . يا غلام ! أين المدلّكة ؟

أيها القارئ العزيز ، إن كنت ممن شاهدوا عجائب الدنيا فى الشرق والغرب ، وما زلت تهتز دهشاً وطرباً لكل مشهد غريب عجيب ، وعند كل مظهر من مظاهر الجمال والأناقة ، فإنك لمن الفائزين ، وإنك الغنى السعيد .

وقفنا فى طنف من أطناف النزل نمتع النظر بالمشهد الطبيعى المتمم للجمال الهندسى والفنى . فسألت معاون المراقب الذى كان رفيقنا ودليلنا عن بيت ببرج على رأس إحدى الهضبات فى الجانب الآخر من الوادى ، فقال : هو مسجد

– ومن يقصده للصلاة وهو بعيد عن المدينة ؟

– قلما يُقصد

– ولماذا بنى هناك ؟

– بناه أحد المراقبين ليزيّن به تلك الربوة .

الزينة والزخرف ! الجمال اللطيف فى الهندسة والصناعة والفن ، وفى الحياة العاطفية . إن الإسبان لأشد نزعة إليها ، وأبلغ شغفاً بها ، من العرب . بل هى الصلة المتينة بين الشعبين تنحصر اليوم فى الفن الهندسى والثقافة وتشتمل غداً ... دع التنبؤ للأنبياء .

خرجنا من النزل نمشى إلى الساحة الكبرى ، فإذا هى تغص بالناس من المدينة والمداشر المجاورة إليها . هو يوم السوق التى تقام فيها كل أسبوع فتحتلها النساء والرجال للمتاجرة ، فتتربع المرأة على الأرض ، ويجلس الرجل القرفصاء إلى جانب ما هو معروض للبيع من البقول والثمار والحبوب ، ومن الأقمشة والأحذية والبرانس ، ومن مواعين الفخار والنحاس ؛ من الدبوس – كما يقول العطار اللبنانى – إلى جهاز العروس . سوق عامرة بالجماهير من بدو وحضر ، وبما تناثر فيها على الأرض للبيع والشراء ، فتتم الصفقات – وهذا ما أدهشنى – باليسير من الكلام بالصوت الخافت . لا صياح ولا ضوضاء ، ولا ازدحام .

قوم متمدنون ، يجلسون على الأرض ويتاجرون – فمن هم يا ترى ؟ هل هم العرب ؟ هل هم البربر ؟ وهل هم من الجنسين وقد تخالطا وتشابها ، فتحسب

العربى بربريًّا والبربرى من العرب العرباء . إنهم لبيض الوجوه ، يغلب فى النساء الحسن ، وفى الرجال الهيبة وشدة البأس .

وهذه اللهجة العربية لهجتهم قد أدهشتنى ، فأثارت بى كوامن الذكرى . لأنها أليفة الأذن بسرعتها ووقفاتها وغنّاتها وبما فيها من نحت وإدماج وتسكين لا يجيزه أحد من اللغويين الملتحين أو المرد المحافظين أو المجددين . حيّاكِ اللّه — حياك الله . لْباسْعْليك — لا بأس عليك !

اللهجة والوجوه ، نقلتنى النقلة السريعة البعيدة — نقلتنى إلى اليمن هناك — فى الأعالى — فى يريم وذمار وصنعاء — رأيت أمثال هذه السحن البيضاء ، وهناك سمعت مثل هذه اللهجة الغناء ذات القفزات والوثبات والوقفات والمدّات .

وهذه السوق بقناطرها الواطئة ومخازنها الصغيرة ، وقد تربع التجار فى دكاكينهم على حصير أو فراش أو بساط ، هذه السوق بدرجاتها ومتعرجاتها ، وبروائحها الشبيهة بالبخور الهندى والبهار والكمون ، وقد سُحقت فى الفهر الواحد ومزجت ببقية من بوتقة العطار — هذا السوق بجوّها وروائحها تنقلنى إلى اليمن .

وهذه البيوت ، لولا قرميد سطوحها ، يمانية .

وهذه المدرسة لصبيان القرآن ، يتعلمون قراءته بالألواح المكتوبة لا بالكتاب المطبوع — اليمن . وهذه الأنوال — اليمن . وهذا الترفض الشفشاونى — اليمن .

أقف عند هذا ، فلا تضلنا التشابيه والانتقالات . إن لشفشاون ، على ما ذكرت ، صفاتها الخاصة ، رأسها النظافة — النظافة فى ساحتها ، وفى أسواقها المدرَّجة ، وفى أهلها ، وفى بيوتها .

وقف بنا الرفيق الدليل أمام مدرسة دينية عالية — هى مدرسة شفشاون لتعليم القرآن والفقه فدخلنا فإذا نحن فى صحن فارغ نظيف كقلب البادية ، لولا شجرة الليمون والشاذروان الصامت ، لا ماء فيه . وحول الصحن المدرسة بطابقين فيهما غرف التدريس والأكل والنوم . لكل طالب غرفة صغيرة فيها

سرير وخزانة ونضد للكتابة — كل ما فيها بالمجّان ، وكل ما فيها نظيف .

ولكن الرفيق وبخ المدير لأن الرواق أمام الباب لم يُكنس فى ذلك اليوم . فاعتذر المدير وراح ينادى الخادم .

ثم قال رفيقنا : الحكومة تقوم بنفقات هذه المدرسة وتدفع رواتب المعلمين والخدم . فعلينا أن نطالبهم بالواجب عليهم .

ليس فى اليمن مثل هذه المواظبة على النظافة . وليست أنوال اليمن كأنوال شفشاون ، وإن كانت فى البلدين يدوية . فتلك شبيهة بأنوال لبنان الضيقة ، عرض نسيجها لا يتجاوز الذراع ، فيشغل كل عامل نولا واحداً .

أما أنوال شفشاون ، فعرض نسيجها متر ونصف متر ، فيشغل النول الواحد عاملان كلاهما بمكّوكين ، الخيط فى الواحد مفتول وفى الآخر محلول ، فيجىء النسيج متيناً خشناً مزغابّا . ولا يُصبغ كما فى اليمن . بل ينسج من صوف الغنم ويستعمل بلونه الطبيعى للمشالح والبرانس .

وأمام بيت الحائك تينة أو مشمشة ، وعلى سطحه عريشة من عرائش العنب — لبنان .

خرجنا من المدينة ونحن نواصل السير فى بقعة من الأرض جبلية لبنانية . وهذا نبع النهر ، نهر سيف اللاو — يتدفق من بين الصخور فى نفنف زانته الطبيعة بشجيرات من الزيتون البرى والبطم والسنديان . وإلى جوانب المياه تتزاحم الدفلى الزاهرة .

لا بد للدليل من قصة يقصها عليك . فقد أخبرنا أن السلطان الحسن ، والد السلاطين الثلاثة عبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف ، زار هذا المكان ونصب خيامه حيث كنا واقفين ، وأن الشمس تشرق فى أيام الجمع والأعياد على سرب من النساء يقصدن النبع للنزهة . فيلعبن ويغسلن فى هذه المياه بين الصخور .

عدنا من النبع فى طريق آخر بين البساتين المسيجة بالصبير ، المزدانة جوانبها بأقمار البيلسان ، فكنا نسمع خرير الماء ، ولا نرى غير بريق منه هنا وهناك بين أشجار اللوز والتين ، ثم يظهر شلالا عند طاحون أو ساقية فى بستان ، فيذكرنا دوماً بلبنان . هى ساعة فى بقعة من الأرض طيبة مثمرة — وألذ ثمارها الذكرى والخيال . فمن النزل إلى المدينة إلى النبع انتقلنا ثلاث انتقالات .

شفشاون [1] بلدة حديثة العهد ، أسست سنة ١٤٧٠ ، عند سفح الجبل الحامل اليوم اسمها ، على هضبات هى كالدرج إلى رأس النبع . وفى هذا الدرج الطبيعى الأسواق المعبَّدة والأدراج المرصوفة بالحجارة ، وقد صقلتها أرجل الناس فأمست مثل نعالهم المسحاء الملساء . مزلقة للأحذية الفرنجية .

وفى شفشاون مزالق أخرى — لا للفرنجة بل للعلماء من أبنائها ، فهم يذكرون الماضى ، يوم كانت مثل النجف مدينة العلوم والأسرار الدينية ، فيطمعون بالنعم الخالدة ، ولا يتقون فيقعوا بالزائل منها — ولكنهم لا يؤلفون الكتب ليبرروا المزالق ويشرحوها . وهذه من حسناتهم . ومنها أنهم يزدرون الجهل وأهله حتى الإهمال فيسمعون الأساطير تُرَدد ولا يبالون .

فمن ذا الذى أشرف على بناء شفشاون ؟ هو ولى من الأولياء يُدعى على بن غاشد « راشد » (يلفظ الشفشاونى الراء كما يلفظها ابن باغيس = باريس) ولولانا ابن غاشد مزار عند مدخل المدينة وكرامات فى الحياة وفى الممات . فهو الذى امتشق حسامه وضرب به الصخرة فى سفح الجبل فتفجرت منها مياه النهر !

وفى شفشاون اليوم ثمانية آلاف نفس نزح أجداد أكثرهم من الأندلس قبل سقوط غرناطة وبعده . ومن هذه الثمانية الآلاف ألف أو مئة أو عشرة —

---

(١) وتختصر فيقال شاون فتكتب بالإسبانية (Xauen) وهى على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من تطوان وتعلو ستمئة متر من سطح البحر .

لست أعلم بالتحقيق – يشكون فى كرامات الولى المذكور وينكرون أعجوبة سيفه المتحدر من سلالة عصا موسى .

وفى شفشاون مزالق لليهود . فيوم دخلت عساكر إسبانيا المدينة سنة ١٩٢٠ ، رحبت بهم الجالية الإسرائيلية ، فابيضت وجوه واسودت وجوه . وما كان المبيضون بمفلحين فعددهم اليوم أقل مما كان منذ عشرين سنة . وقد تصير شفشاون شبيهة كل الشبه بنابلس .

أما حسنة حسناتها ، بعد النظافة والأنوال ومعمل الزرابى والمدارس المدنية والدينية ، حسنة هذه الحسنات مدرسة البنات – ومديرتها السيدة رحمة المدنى حرم عبد السلام الأندلسى . والسيدة رحمة الريفية المولد ، المتعلمة بطنجة المحسنة اللغتين الإنكليزية والفرنسية هى أول امرأة تعلم وتكتب فى هذه المنطقة من المغرب الأقصى . وقد تصير ولية – طال عمرها – فتدفن إلى جنب مولى شفشاون على بن راشد .

تقسم هذه البلدة القدسية إلى خمس حومات أى أحياء ، هى حومة رأس الماء ، القريبة من النبع ، وحومة الخرازين (الإسكافين) ، وحومة ريف الأندلس التى سكنها النازحون من إسبانيا ، وحومة سُويقة (كانت تقام قديماً بها سوق) وحومة ريف الصبّانين أى الغسالين .

سألت الدليل : وفى أية الحومات يسكن اليهود ؟ فأجاب : فى البلدة حفنة منهم منشورة على حواشى الحومات .

ليس فى شفشاون من الآثار التاريخية غير القلعة التى بناها البرتغاليون ، القائمة فى الناحية الجنوبية الشرقية من الساحة الكبرى . فى هذه القلعة تحصن الريسونى يوم كان يحارب الإسبان وقال كلمته المأثورة يخاطب القبائل : هذه بلادى وأنتم أهلى . فلا خوف على البلاد مادمت حيًّا ، ولكنها ذاهبة بعد موتى .

وكانت هذه القلعة مركزاً لعبد الكريم بعد الريسونى ، فحدث بين الاثنين

ما سنذكره مفصلا فى موضعه . وما كان القدر ليرحم المجاهد الأول ولا المجاهد الثانى . قال بطل الريف للبطل الشريف : تعال شاركنا فى الجهاد . فأبى . وكان الشريف يومئذ مريضاً فى بيته بتَتْزروت ، ومتحركاً مع ذلك فى سياسته . هى القبائل المتقلبة ، والدسائس المتغلبة . ومن رجال عبد الكريم الذين حملوا غصن الزيتون يومئذ إلى الريف ، الريسونى ، وممن حملوا السيف عليه السى يزيد بن صالح قائد قبيلة بنى يَرْزِين ، وباشا شفشاون الحالى .

زرنا الباشا فى بيته فاستزريت اللقبَ لما شاهدت صاحبه . وما محل الباشوية من هذه الطلعة البدوية الرائعة — لقد خط الدهر فى وجه ابن صالح سفر المغامرات والغزوات والشدات ، فأجاد ، وأيدته لحية سوداء بيضاء كأن غبار المعارك لا يزال لاحقاً بها . وأيدت الدهر عينان غائرتان لا تزال النار بادية فى رمادهما . وأيد الدهر فمٌ فى سكوته هول ، وفى ابتسامه أمن واطمئنان .

الباشا يزيد ! حاشا وكلا . السى يزيد ! بئست الألقاب المدنية والمخزنية . متى كان الـ « باشا » من تراب هذا المغرب ؟ وهل لبنى عثمان أثر غيره هنا وهناك فى شرقنا العربى ؟ أريد الجواب من عجيل باشا الياور . أريد الجواب من محجم باشا مهيد . لا يا أخى . لا تضيع الوقت فى السؤال والجواب . إن هذه الألقاب وأغطيتها — سعادة ، فخامة ، معالى — لمن منكرات الدولة البائدة . ولو كانت من غير المنكرات فإنها تستقبح حينما تضاف إلى عجيل أو محجم أو فهد أو هزلول أو يزيد . أما الـ « سى » — نصف سيد أو أقل — فهو أقبح وأنكر . إذن نقول الشيخ ، وليس أشرف منه لقباً فى البوادى والحواضر .

زرنا الشيخ يزيد بن صالح — أرأيت كيف تتجانس الأسماء والألقاب ؟ زرنا الشيخ يزيد فى بيته فاستقبلنا فى الباب وصعد أمامنا فى درج ضيق عالى الدرجات — ذكرنى باليمن — إلى قاعة الاستقبال المشرقة بألوان فرشها ، على الأرض والدواوين والجدران ، إشراق ابتسامته — وكان فى إكرامه لنا عربيًّا قحًّا ،

خلقاً وتقليداً . فجاء الخادم ، عمليق من سود السودان ، بقماقم خضراء وصفراء وقدم قمقماً لكل زائر فصب ماء الزهر على الرؤوس والأيدى فمسحت الوجوه وسبّح بحمد الله . ثم جاء العبد الآخر بمبخرة حرق فيها عود الند فنشقنا منها وبخرنا الصدور ، وسبّحنا بحمد الله .

ثم جاء الخادمان بال « أتاى المنعنع » وبأطباق عليها أهرام من الحلوى ، فشربنا الشاى فى كؤوس من الزجاج كأننا فى الحجاز ، وأكلنا من تلك المقرّنات والمربّعات المعسّلة ، وما سبّحنا بحمد الله ، وهو هاهنا أولى بالتسبيح . إن للتقاليد تقاليد تقيدها .

وكنا قد علمنا أن مضيفنا ممن حجوا فى العام السابق ، فسألناه رأيه فى ابن سعود فقال بأسلوبه الوجيز : عربى كريم وحاكم عادل . ثم أخبرنا أنه دعى لمأدبة أقامها الملك لبعض الحجاج ، وأنه يحتفظ برقعة الدعوة .

وفى مساء ذلك اليوم بتطوان ، فى بيت عبد الخالق طريس ، اجتمعنا بغيره ممن حجوا فى ذلك العام فأثنوا على عبد العزيز « العربى الكريم » و « السياسى القدير » و « الحاكم العادل » وما تعرضوا بخير أو شر لمذهبه . إننا لفى المغرب السنى الشافعى ، ولكن المذاهب لا تحول فى هذه الأيام دون الإقرار بالفضل ولا تتنافى فى العروبة .

طال الحديث ، وطابت فيه المقارنة ، فلنختمه بشىء منها يختص بالبيوت ، وهى إجمالا على شكلين : بيت الشيخ يزيد بن صالح — مثال الشكل الواحد ، والبيوت الحديثة فى تطوان من الشكل الآخر . الأول — وأكثر بيوت تطوان القديمة مثله — عربى مبنى ومعنى ، عربى النطق والمزاج ، بيت صغير متواضع يتوارى ولا يتعالى . وبيت الأستاذ الطريس مثلا هو عربى مغربى ، عربى الشكل ، مغربى المزاج ، منفسح منشرح وراء جداره العالى الأصم ، فيقوم بطابقيه حول صحن رحب ، مفروشة أرضه ، ومصفحة جدرانه ، بالبلاط الزليجى ، وفيه كما فى بيت الأستاذ محمد بنونه الذى نزل به الأمير شكيب أرسلان يوم زار تطوان ،

ردهة استقبال مفروشة بالفرش الأوربى مغرقة التقليد ، وأخرى وطنية ، مغربية الشكل والذوق ، مغربية الروح والمظهر . وهى على الإجمال فى الطابق الأول ، فى صدر الصحن ، طويلة ضيقة ، مشطور طولها شطرين ، يفصل بينهما عمد بأقواس ، ودرجة ترفع أرض الواحدة عن مستوى الأخرى .

وفى صدر هذه الردهة ديوان منخفض عريض طويل ، مدى الحائط ، حافل بالفُرُش الوثيرة ، المغطاة بالأبسطة ، وبالوسائد الباهرة الألوان — مزاج المغرب — وإلى جانبى هذا الديوان فى طرفى الردهة أى زاويتيها ، سريران عاليان ، أو سدتان ، أو عرشان . قد يستطيع الرياضى الحائر الجوائز فى القفز أن يقفز من الأرض إلى ذلك العرش قفزة واحدة . ولا يستطيع مثلنا — أستغفر قارئى الرياضى — أن يدرك ذلك العز بغير درج يصعده .

كثيراً ما فكرت ، قبل أن أقدم على السؤال ، فى هذا الشىء المفخم المتخمّ بالفخامة ، المكدس بالفُرُش ، المصفف بالوسائد ، المرفه بالأطلس والحرير ، البادى بكلتّه المزركشة كالعروس المجلوة . كثيراً ما فكرت فى ماهيته — مهنته — سبب وجوده ، أهو من الأثاث أم من نوافله ، أهو للزينة أم للاستعمال ؟

وهل يجوز ، فى الحالين ، لغير العروسين . . . إذن هو سرير الليلة الأولى . فكرت ، أقول ، ثم فكرت . وقد يستعمل بضع ليالٍ بعدها ، وقد يسخر لشهر العسل بأجمعه ، ثم يترك هناك لعسل الذكرى ، وإن حام عليه الذباب ، فكرت وفكرت ، ثم تشجعت فسألت ، فعلمت أنه لأهل البيت فى الأيام العادية ، وللضيف فى الأعياد .

فشرحها رب البيت قائلا : ويوم الضيافة عندنا عيد .

وكما أنهم يستعملون هذه السدة الملكية للنوم ، فهم يستعملون الردهة الفخمة للمآدب . فيكرمون فيها الضيف إكرامين فى مأكله ومنامه .

جلسنا حلقة حول طبق من النحاس ، ونظمنا الزاد بالأيدى على الطريقة

العربية فى شبه الجزيرة اليوم . غير أن المضيف لا يشارك ضيوفه فى الأكل ، بل يحدثهم وهو واقف يشرف على الخدم .

وكان الخدم تلك الليلة من شبان كتائب حزب الإصلاح فى أثوابهم — قمصانهم — الرسمية .

وكان الحديث فى تطوان وتاريخها . فأخبرنى جارى أن العلامة المفضال الحاج أحمد الرهونى — الرئيس السابق لمجلس التعليم الإسلامى الأعلى — كتب تاريخ تطوان فى عشرة مجلات — غير مطبوعة طبعاً . وقد أهدى النسخة الخطية إلى الأستاذ الطريس يوم زفافه .

تاريخ تطوان فى عشرة مجلات ، ياساتر يامعين ، فكيف السبيل إلى الانتفاع بعلم الشيخ الرهونى ؟

خطر لى خاطر أذكره الآن وهو أنى أعربت عن رغبتى فى نشر نموذج منها ، فتعلم دوائر الأدب العربى بالكنز التاريخى ، فلا يبقى كنزاً دفيناً ، وهدية عرس . بل لقد رغبت فى نشر تاريخ تطوان بالشكل الملائم لمِعَد قراء هذا الزمان الضعيفة . فسألت عبد الخالق أن يأمر أحد كتابه بتلخيص كل مجلد فى صفحة واحدة ، فأضعها أنا فى بوتقتى وأغليها ، ثم أقدم لقراء هذا الكتاب خلاصة الخلاصة . فأجاب بالإيجاب . أى أنه وعد بأن يفعل .

وكررت الطلب فكرر الوعد . وتكرر الوعد . فتكرر الطلب . فعلمت وتيقنت أن الوعود فى المغرب مثلها فى هذا الشرق العربى ، وأننا والمغاربة إخوان ، حقًّا إخوان !

الفصل السادس

العرائش

من برقة على البحر الأبيض إلى طنجة ، ومن أصيلة على البحر الأطلنتيق إلى بلاد نهر الذهب (Rio de Oro) ؛ فى كل بقعة من هذه الشواطئ الإفريقية ، الشمالية والغربية ، زينها الله بالجبال الخضراء والأنهار وبالمروج والبساتين ، كان يتحدث الأقدمون ويسترسل المحدثون ، فى ذكر الأسطورة اليونانية ، وتفاحات بنات الـ « هسبيريد » الذهبية ، التى كانت شائعة فى هذه الديار فى زمن الرومانيين ، وفى عهد البيزنطيين بعدهم .

إنما اختلف علماء الأساطير فى موضع ذلك البستان — بستان بنات الـ « هسبيريد » وشجرتهن العجيبة ، فقالوا إنه كان فى البلاد الطرابلسية بالقيروان ، وقالوا إنه كان بجوار طنجة ، ومنهم من مضوا فى التدقيق فذكروا الأرض التى يجرى فيها نهر لوكوس ، وحددوا المكان الذى سكنته الـ « هسبيريد » الحسان فى ظل شجرة تفاحهن الذهبى ، فقالوا إنه على شاطئ النهر عند مصبه حيث تقوم اليوم مدينة العرائش . .

أولئك الحسان الثلاث ، وقيل إنهن أربع ، وقيل سبع ، عدد الثريا « بنات الدجى » ، كن يسكن المغرب الأقصى ، كما جاء فى التقاليد القصصية على شاطئ الأقيانوس ، حيث تختفى الشمس كل يوم ، وكل يوم تعود ، لتشرق عليهن وعلى بساتينهن ، وفيه الشجرة التى كان يحرسها التنين ، شجرة التفاح الذهبى

التى أهدتها الأرض إليهن ذكراً لقران الربة هيرا بزوس رب الأرباب(١).

أما التنين حارس تلك الشجرة فهو المعروف برمزه الذى لا يزال يدعى باسمه القديم نهر لوكوس (٢) ولا يزال رابضاً عند سيف الأوقيانوس ، فيهدر عندما تزمجر رياح الجنوب ، ويرغى ويزبد تحت سياطها الكاوية .

وهاك بجوار العرائش ، فى ذكرى النهر ، بحراسته الدائمة ، آثار المدينة القديمة (الرومانية ؟ اليونانية ؟ الفينيقية ؟) المدينة العريقة فى القدم المسماة شمّيس (Chimmis) تحدثك خرائبها ، لو وهبت النطق ، عن ذلك البستان الذى كان يظللها ، وأولئك الحسان جيرانها ، وتلك الشجرة كنزهن الذهبى .

وهوذا الأوقيانوس حيث كانت الشمس « تختفى كل يوم ، وكل يوم تعود » فتشرق على البستان وتفاحه وحوره — الأوقيانوس الغول يشرب دوما ماء النهر العذب ولا يرتوى . والنهر الذئب أى التنين يحرس الأرض التى لا تزال حافلة بالكنوز — بالشمس الشارقة ، والشمس الغاربة ، وبالسماء الصافية الأديم ، وبالمروج الذهبية ، والجبال الزمردية — بالكنوز العسجدية الخالدة .

ذهبت الأساطير وما ذهبت روحها المثمرة على الدوام — المثمرة تفاح الـ « هسبيريد » حيناً وحيناً تفاح صدوم . فالعرائش الحديثة العهد تناجى شمّيس القديمة ، وخرائب شميس اليوم تنادى العرائش ، وهوذا التفاح الذهبى يستحيل فى

---

(١) وفى أسطورة أخرى أن أربيس ، إحدى بنات الدجى ، دعيت مرة لحفلة عرس فألقت تفاحة ذهبية بين المدعوات لتأخذها أجملهن ، ملكة الجمال ، فكادت تحدث فتنة ، فسميت « تفاحة الشقاق » . وقد ادعتها ثلاث من اللواتى حضرن ذلك العرس ، هن أفروديت وهيرا وأثينا ، فنحها الحكم بريس الربة الكبرى أفروديت .

(٢) لوكوس شبيه اسم نهر الكلب بلبنان ، اسمه اليونانى القديم : (Lykos) أى الذئب فسخته التقاليد كلباً . وللاتين فى الأقاصيص مصدر واحد يونانى . فالكلب حارس الممر عند النهر كان ينبح كلما رأى العدو قادماً إليه . والذئب عند أهل المغرب الأقدمين هو التنين الحارس لشجرة "التفاح الذهبية فى بستان بنات الـ « هسبيريد » . والمدهش المدهش إنما هو فى لساننا العربى المثبت الصلة الخرافية بين الذئب والتنين . فقد جاء فى مادة تن بعد تنين والتينان أى الذئب .

زماننا برتقالا ورماناً – إننا لفى فجر الزمان – ويستحيل خشخاشاً وحنظلا – إننا لفى غسقه ، وذى هى حسان الـ « هسبيريد » – بنات الدجى – مجسدة فى بنات المغرب السمر الهيف ذوات العيون النجل والثغور المتأهبة للتُقبل .

إرث الأساطير إنه لخالد فى روحه ، وإن تغيرت أسماؤه ، ودرست معالم أشكاله . فالتفاحة التى كانت تفاحة المعرفة والخطيئة ، ثم صارت تفاحة الشقاق ، أصبحت فى زماننا تفاحة الحب والتناسل ، فحل الفارس العارس محل الذئب الحارس . إرث الأساطير تتوارثه الشعوب فيحول منه المنظور والمنقول ، ولا يحول المحسوس والمعقول .

شاهدت بنات الـ « هسبيريد » مغربيات هذا الزمان ، يبعن الرمان وأكواز الخشخاش – المنعشات والمنومات – فى سوق الاثنين بطريقنا إلى العرائش . وهى سوق حافلة كسوق شفشاون ، تقام كل أسبوع فى بستان من النخيل بجوار قرية سيدى اليمنى ، فتدعى أيضاً باسمها .

وما أجمل الأسماء أسماء القرى والجبال والقبائل فى هذه الناحية . إن أكثرها عربية نقية لا تشوبها العجمة . فهى ذى الفنيدق ودار شادى وسيدى اليمنى ، وهناك جبل الحبيب ، وفيه منازل بنى مصور وبنى عروس .

وهذه فروع الطريق من تطوان ، تنتهى إلى آفاق لازوردية ، أو عند سفح الجبال الزمردية ، أو تذوب فى عناق المروج الذهبية ، وفيها كلها الذكريات الطيبة والمرة لأحداث التاريخ وأساطير الشعوب . فهاهنا انعراج إلى شفشاون ، وفى الشمال الغربى انعراج آخر إلى طنجة . والفرع الثالث يؤدى إلى أصيلة ، والرابع إلى قبيلة بنى عروس – عروس جبل الحبيب – والخامس عند العرائش يصل جنوباً إلى الرباط ، رباط الفتح ، وهى على مئتى كيلو متر من العرائش .

وفى هذا الطريق المفروش أكثره بالزفت مخافر ومراقب من طراز ما شاهدنا بشفشاون ، بيضاء ومنمنمة أندلسية عربية فى هندستها ، وفى وفر ما يزين جنباتها

من الزهور . وبجوار كل مرقب بيت باشا البلدة أو قائد القبيلة [١] وهو مركز الحكيم الوطنى المخزنى الذى يشرف عليه ، يرقبه المراقب (المستشار) الإسبانى .

لا أنهر فى هذه الناحية بعد لوكوس أو قبيله . وليس ما يجيز المقارنة بين هذه الجبال الوادعة وأهلها العرب الأشاوس من بنى عروس وبين مصور أكبر قبائلها . هى الربى وهم الجبال المشمخرة المنفردة . هى الربى تنحنى وتتضع ، فتتصل وتنفصل بلين ولطف واطمئنان . لا روعة ولا شموخ ، ولا مباغتات فى الأغوار والأنجاد ، زرعت سهولها قمحاً ، وغرست منحدراتها بالكروم والأشجار المثمرة .

أما فى الحقول إلى جوانب الطريق فيكثر الدوم بين النبات البرى ، الدوم هنا غير شجر الدوم فى شبه الجزيرة العربية ، فهذا الدوم المغربى من فصيلة النخيل — مراوح البساتين عندنا — نبتته لا تتجاوز القدمين علوا ، يصنع من ألياف ورقه القيطان والحبال . وبجوار حقول الدوم وخلالها طنافس بيضاء بالأقاحى وأخرى حمراء بشقائق النعمان ، وخطوط زمردية مطرزة بزهر الدفلى ، وغيرها منشورة بين الأشواك من الخرنوب والبطم والملول ، وأما الزيتون البرى فقد شاهدنا الكثير من أشجاره الضخمة المتينة فى أرض سيدى اليمنى .

ورأينا فلاح المغرب ، كفلاح اليمن ، يحرث أرضه بمحراث صغير ، على بقر عجاف ، فيمشط الأرض تمشيطاً لا يبلغ الشغاف من قلبها البكر . وهذه الأكواخ الهرمية الشكل المبنية بالقش والطين ، ذكرتنى بمثلها فى بلاد اليوكاتان بالمكسيك .

بعد أن نجتاز قرية سيدى اليمنى نرى فى هذه الديار القديمة شيئاً حديثاً

---

(١) قائد القبيلة مثل باشا المدينة ، كلاهما يحافظ على الأمن ، وينفذ أوامر الحكومتين الأهلية والحامية ، ويجبى الضرائب ، ويقضى كما تقدم فى الدعاوى التى يقضى فيها قضاة الصلح عندنا . فهو من هذا القبيل موظف لحكومتين ، حكومة المخزن وحكومة الحماية .

ينساب فى طرف السهل كالثعبان ، وقد صعد من رأسه دخان كدخان الأتون ، يتخلله الشرر الأحمر . نرى ذلك الشىء يجرى ، ولا نسمع له صوتاً . يجرى كالثعبان الأسود تحت غيمة دكناء . هو القطار ، قطار سكة الحديد الفرنسية الإسبانية بين طنجة وفاس . فيمر بأصيلة والقصر الكبير من هذه المنطقة .

وبعد سيدى اليمنى يزدان الطريق على مسافة بضعة كيلومترات بشجر الكينا السامق السوى فيخيم علينا إلى أن ندنو من العرائش .

وها هو ذا الأوقيانوس ، بحر الظلمات ، تفضض حواشيه الشمس وتذهّب شاطئه فتلطف تجهمه ولا تزيل من قلبه حقيقة الأساطير . وهى ذى قُبَيل أن نقطع الجسر إلى المدينة ، خرائب شمّيس ، ثم النهر القديم الاسم والرسم نهر لوكوس . الذى يجرى شمالا من المنطقة الجنوبية ، فيدخل هذه المنطقة ويتعرّج عند المدينة إلى البحر ، فيلتقى البحر والنهر ولا يتسعان فى الميناء لغير المراكب الشراعية .

وهاهنا بمدينة العرائش [1] وبجوارها مقر السحر القديم وجنات الأساطير الشعرية والمادية : ذلك السحر وتلك الأساطير لا تزال آثارها فى سحرنا الجديد ، وفى أساطيرنا الدينية والسياسية . ولا تزال نفسية الشعب القاطن هذه الديار كنفسية من تقدمه من الشعوب المتحضرة وغير المتحضرة ، من البربر صعوداً إلى الإغريق . الساحر والمسحور حديثهما كالقديم ، ولا يختلف القديم والحديث منهما بغير الاسم والصورة والسبيل . أما بعد ذلك . . . فإياك نعبد ، وإياك نستعين . . . وأنت السمع والبصر للعاشقين . . . وفيك السحر الحلال حتى للسياسيين !

* * *

(١) تكتب بالإسبانية (Arache) وهى على مائة وثلاثة كيلومترات من تطوان غرباً بجنوب ، وعدد سكانها ثلاثون ألفاً .

فى هذا المغرب اليوم ساحر هو الجنرال فرنكو ، وفيه المسحور وهو الشعب المغربى. وهاكم حروف السحر وتعاويذه وطلاسمه على جدران المساجد بالعرائش . أقف بك عند جامع الزاوية المصباحية ، فى آخر جادة المعتمد بن عباد . فقد كان هذا الجامع صغيراً حقيراً . فأضحى بفضل الساحر كبيراً كريماً ، الساحر الذى « أنفق فى تجديده وتوسيعه من ماله الخاص إعراباً عن عطفه التام ومحبته الخالصة لإخوانه المسلمين » ، كما هو مزبور فى الأثر التذكارى على الجدار عند الباب.

وهذا مسجد القادرية « بنى فى عهد الخليفة المعظم مولانا الحسن ابن مولانا المهدى ابن المولى إسماعيل وعلى عهد حكومة الرئيس الإسبانى الكبير الجنراليسمو فرنكو المنصور ، كبرهان ساطع على إخلاص المحبة المتبادلة بين الأمتين المغربية والإسبانية ، اللتين اتحدتا فى ميدان الجهاد الشريف » .

وفى الأثر لمسجد محلة الفقراء زيادة فى إيضاح الجهاد الشريف — « الجهاد الشريف لإعزاز الدين ومحاربة أعدائه » .

وفى أثر آخر إفصاح فإيضاح لصداقة إسبانيا والمغرب « التى أنقذت العالم من استعباد الرجال الذين لا إله لهم » .

إياك نعبد وإياك نستعين ! نحن المغاربة والإسبان . أولئك القادريون الذين كانوا يعدون أوانى الشاى لحفلة فى المسجد تلك الليلة فهم لا يجحدون النعمة ، يدلونك على الأثر عند الباب ، ولا يذكرون « مولاى الحسن » ولا « الجنراليسمو فرنكو » بل يقولون : كله من فضل الله عز وعلا ، ثم من فضل مولانا عبد القادر قدس الله سره . وهم يقرأون المناقب مناقبه ، ويذكرون ، ويرتلون : عبد القادر الجيلانى من إحسانك لا تنسانى ، ويشربون الأتاى المنعنع ، ثم ينعسون[1] على فراش السحر ويحلّقون فى سماء الأساطير .

---

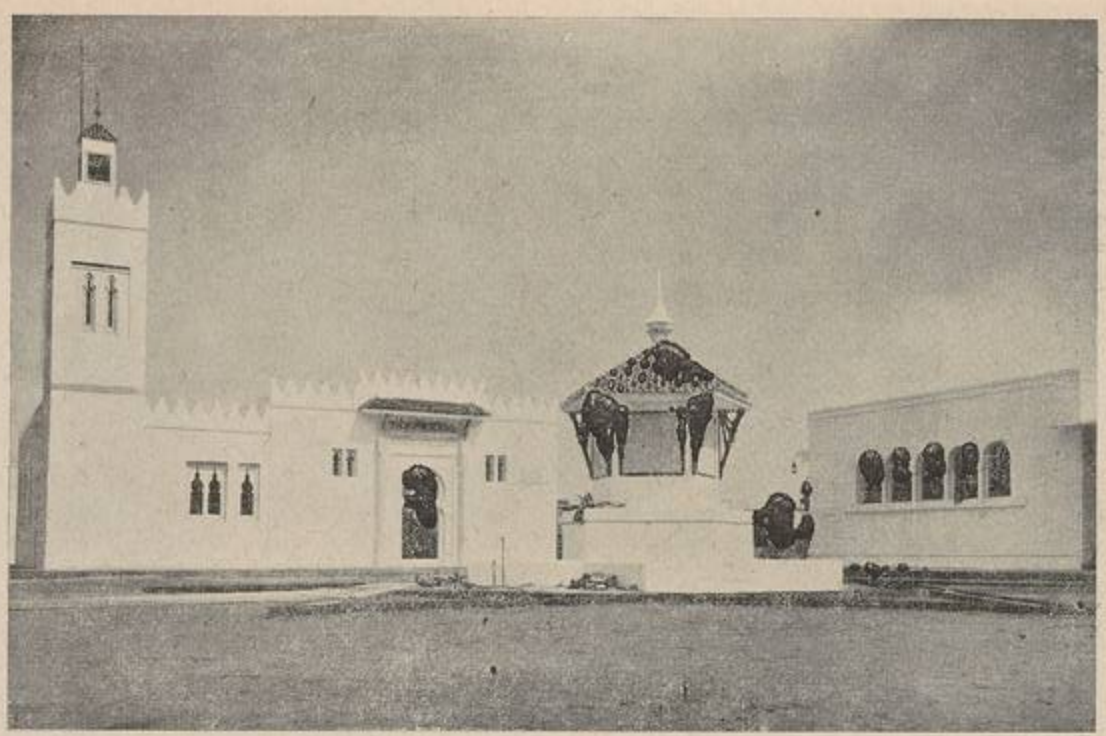
(١) نعس فى اصطلاح المغاربة ونام لهما عكس معناهما المعروف عندنا . فهم ينامون ثم ينعسون ، ونحن ننعس ثم ننام كما يشاء الله والقاموس .

وفى المعهد الدينى بهذه المدينة ، العرائش ، المهد الحديث للسحر والأساطير . هو شبه دير للطلبة يقيمون فيه على نفقتهم بمساعدة من وزارة الاحباس . ويتلقنون مجاناً العلوم الدينية واللغوية فى المسجد الأكبر . فقه الكلام وفقه العبادة والتوحيد وفقه اللغة ، يقرأونها جميعاً على أساتذة تدفع الحكومة المخزنية رواتبهم ، ولا يد للجنرال فرنكو فى هذا السحر الإسلامى العربى ، المدونة علومه فى مختصر الخليل المصرى وتحفة الغرناطى ورسالة ابن أبى زيد القيروانى . حتى فى الصرف والنحو لا يزال طلبة هذا المعهد يغبّون من الأحواض القديمة الدكناء كابن مالك وابن هشام .

بيد أن فى هذا المغرب سحراً جديداً هو ثمرة العلم والعمران . فقد كان الفقير فى الماضى يرفع من كوخه صوت الضراعة إلى الله : بيتاً من لدنك يا رب ، بيتاً مثل بيوت الناس . فجاءت حكومة الجنرال فرنكو تلبى باسم الله دعوة الفقير . فبنت بيوتاً فى تطوان وفى العرائش ، بيوتاً حديثة بهندستها ومرافقها ، صحية جميلة ، للمسلمين والمسيحيين . تقدم البيت الواحد للعائلة الواحدة بأجرة زهيدة فى الشهر من العشر إلى العشرين بسيطة وعند ما يتم دفع ثمن البيت يسجل لصاحبه .

إن فى تطوان محلتين من هذه البيوت الجديدة ، فى كل محلة نحو مئتى بيت ، فى البيت الواحد أربع غرف ومطبخ وحمام . محلة للمسيحيين على هامش المدينة . ومحلة للمسلمين قرب الناحية الإسلامية منها . وفى العرائش شارع بخمسين بيتاً ، خمسة وعشرين عربية الهندسة خارجاً وداخلا للمغاربة ، وخمسة وعشرين قبالها أوربية الشكل للنصارى الإسبان .

وقد زادت الحكومة على ذاك حيّاً جديداً خارج البلدة لمن كانوا يعيشون هناك فى أكواخ من «تنك» كأكواخ الأرمن خارج مدينة بيروت . هناك فى ساحة كبيرة بنت الحكومة الإسبانية الخليفية جامعاً ومدرسة وسوقاً للبقول والثمار ومغسلا عامّاً وحوضاً بصنابير لماء الشرب ، وبيوتاً صغيرة بجدران من اللبن وسقوف من القش



ساحة المحلة الجدية – محلة الفقراء – وفيها يظهر الجامع وحوض الماء والمدرسة

دفعاً لحرارة الشمس ، وداراً كبيرة لشيخ الحومة (المحلة) . هى ذى إحدى مفخرات العرائش ينطق بها أولئك الذين كانوا مقيمين بأكواخ التنك ، وسيغدون بعد دفع خمس بسيطات شهرياً لبضع سنوات ، أصحاب بيوت مثل بيوت الناس .

وإن فى العرائش أيضاً ، من فضل الحكومة الحامية ، مختبراً زراعياً ومشتلا عاماً يتولاهما مهندس إسبانى وعمال من الأهالى يعاونون . ذلك المختبر قائم فى وسط حرج من الصنوبر مساحته اثنا عشر كيلومتراً مربعاً ، وحرج آخر إلى جانبه من شجر الكينا .

لقد أبهجتنى مشاتل الصنوبر المديدة ، وفيها ما لا يقل عن المئتى ألف شتلة ، يُنقل منها إلى الجبال ويأخذ منها الفلاحون والقبائل للغرس فى أراضيهم . وهناك مشاتل من الأزدلخت والسنط والسرو والشربين والكينا ، فضلا عن أغراس الثمار على أنواعها . أما هذه فتباع ، وأما تلك فتعطى مجاناً . إلا أن الإقبال عليها قليل ، لأن فلاح المغرب لا يزال مقيداً بقيود الجمود والجهل والكسل . فيجب على الأحزاب السياسية والمدارس والحكومة أن تهتم للأمر . يجب أن يخصص يوم للشجرة فى هذه المنطقة المغربية ، وجمعية لأصدقائها .

وهناك من فضل ربك ، ثم فضل الإسبان ، مقر لعلم الطب والصحة سحره الحديث من غير الكتب التى يجدها المطبب المغربى فى مغارة النبى دانيال . هناك المستشفى البلدى ، بمعداته وأدواته الحديثة للفحص والعلاج والتطهير والجراحة يتمتع بها المريض من أبناء البلاد مجاناً لوجه الله . ويعجب لأنوار سحرها التى تريه ما لا يرى فى بدن الإنسان وفى الحشرات والجراثيم . هذا المستشفى هو صنو مستشفى تطوان ، أطباؤه إسبانيون وممرضاته من راهبات البر والإحسان . مجاناً للجميع ، إلا من استطاع أن يدفع شيئاً لقاء النعمة فيقبل منه تخفيفاً للنفقات التى تقوم بها الحكومة .

أقف هاهنا لأعلم القارئ بأساليب هذا الرحالة طالب العلم . فقد كان سبيلى إلى أولى الأمر فى الحكومتين المخزنية والإسبانية اثنان، أو ضابطا ارتباط ، إن شئت الأبهة فى التسمية ، هما السنيور طوبا و بينى و بين الخليفة ، والسنيور أراغون بينى و بين المفوض السامى ، ينبوعا الأخبار الرسمية . أضف إليهما الأديب البستانى ألفريد ومعاوناً له من الحكومة المحلية ، دليلى فى جولاتى الاستكشافية . وكثيراً ما كان البستانى وحده صلة التعارف الطيبة بينى و بين زعماء البلاد ووجهائها ، فتتم الآراءُ الوطنيةُ الأخبار الرسمية وتصححها فى بعض الأحايين ، وهناك صلة أخرى قد تكون أهم الصلات، هى الصلة بينى و بين الشعب المغربى ، هى الريحانى نفسه السارح لأمره بخيرة الله ، خير الأدلاء مستزيداً فى الاكتشاف والتحقيق .

* * *

العرائش مثل تطوان بلدتان قديمة وجديدة . وقد أسست الجديدة خارج بوابة البلدة القديمة على قواعد البناء الحديثة فى الهندسة والتخطيط . فهى فى ساحتها وفسيح جاداتها إسبانية مثل غيرها، إسبانية جميلة. وهى فى هندسة بيوتها وزخرفها الخارجى إسبانية عربية . وهى فى ساحتها الكبرى ، بنخيلها وأزاهيرها ومجالسها المدهونة باللونين الأحمر والأزرق ، وفى « كرنيشها » على البحر بمقاهيه المدعاة للكيف «والنعس » ، هى فى هذه الصورة الفاتنة إسبانية استوائية ، استوائية بدفء الخط الاستوائى لا بحرّه ، وبنسيم ليله ، لا بسموم نهاره .

بعد أن شاهدت ما تقدم ذكره ووصفه فى هذا الفصل ، خرجت صباح اليوم التالى وحدى أطوف بهذه المدينة الجديدة ، ثم عرجت على العرائش القديمة، فدخلت البوابة الجليلة التى دخلها فاتحاً السلطان إسماعيل الكبير ، الكبير بفتوحاته ومحظياته ، فقال فيه الأديب المراكشى كَنْسُسٌ شعراً شبه عربى، ولا عجب والاسم شبه كردى أو بربرى :

وفى فتح العرائش قد تبدّى لقــدركم على الشعرى الظهور

وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربوا الخمور

والعرائش أول مدينة دخلتها الجنود الإسبانية سلما بقيادة الجنرال سلفستر ، بعد الاتفاق الفرنسى الإسبانى سنة ١٩١٢ ، نزل الجنرال سلفستر ورجاله ليلا فى القوارب من المدرعة الإسبانية باتفاق والشريف الريسونى الذى كان يومئذ فى احتراب وإسبانيا ، تتخلله الهدنات والمناورات ، كما سنذكر مفصلا فيما بعد .

إن السوق الكبيرة ، بدكاكينها وأروقتها وقناطرها لأوسع ما شاهدت فى هذه المنطقة . وهى تنعم فى معاملاتها ببركتين : المعهد الدينى فى أحد طرفيها والجامع فى الطرف الآخر . وهناك فى حر الصيف البركة الكبرى . هناك إلى جانب الجامع مفيأة جميلة ، هى كمسرح التمثيل ، مقصورة بثلاثة جدران ، مجالسها ، مثل جدرانها وأرضها ، مصفحة بالبلاط الزليجى الزاهى الألوان . فمجرد صورتها تنعش الزائرين .

وهذه وراءها أسكفة المدينة القديمة والباب المفتوح إلى الجادات والزنقات ، ببيوتها التى لا يرى منها غير الحائط الواحد والباب فيه . ما أشد فضول الغريب فى هذه الزنقات ، وهو يحاول التصور لما وراء الأبواب الموصدة من أسرار الحياة ، ويقف كاللص عند باب مفتوح على شقه يسترق اللحظ إلى ما وراءه ، فلا يرى غير مدخل ضيق ينتهى إلى باب آخر موحد . هى الحياة المغربية ، وقل الشرقية العربية ، بحجبها المتنوعة .

ولكن فى الجادات عند زواياها شيئاً جديداً ، فريداً فى بابه . فى الجادات التاريخ المكشوف لمن شاء التعلم ماشياً — التاريخ ، تاريخ مشاهير العرب ، خذه من جادات العرائش .

هذه جادات المعتمد بن عباد وخبر نكبته ووفاته بأغمات مع التاريخ مسطور على اللوحة تحت اسمه .

وهذا شارع ابن سينا ، وهو الحكيم الإسلامى المشهور أبو على الحسين

ابن عبد الله بن سينا المولود عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م والمتوفى عام٤٢٧ هجرية — ١٠٣٧ ميلادية . ثم ترجمة ذلك كله باللغة الإسبانية .

وهذه ساحة مولاى المهدى . وقد كتب على اللوحة : مولاى المهدى ابن مولاى إسماعيل ابن المولى محمد أول خليفة بمنطقة حماية إسبانيا بالمغرب . من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٤٢ (٢ أبريل ١٩١٣ إلى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٣) تليه الترجمة الإسبانية .

وهذا القصر الجديد المغربى الشكل القائم فى ساحة الجندى المجهول ، فوق بقية من السور القديم ، وهو أى السور من عهد الأشراف السعديين . وعلى الجدار عند الباب أثر تذكارى يقول : فى هذه الساحة وفى هذه البنية كانت ثكنة الشرطة الشريفية فرقة رقم ٦ ، ثم صارت للشرطة الأهلية وبعد ذلك للمراقبات الحربية . . . . أولئك الذوات الذين كانوا أفضل ماهر أسس أخوّة المغرب وإسبانيا تأسيساً راقياً فى ظل سمو الخليفة مولاى الحسن والجنراليسمو فرنكو المظفر صفى المسلمين ، ١٣٢٥ — ١٣٥٧ (١٩٠٧ — ١٩٣٨) .

هى طريقة مبتكرة فى تعليم التاريخ . تعلّمْه وأنت ماش فى أسواق المدينة . حبذا اقتباسها فى مدن شرقنا العربى .

وبجوار تلك البنية ساحة مغربية بحديقة ومفيأة شبيهة بالتى تقدم ذكرها . حول الساحة مجالس بنيت بالأسمنت وفرشت بالبلاط الزليجى الملون ، وبوسطها ست مخمّسات فى كل مخمّسة شجرة من الليمون ، حول مثمّنة كبيرة غرست فيها أشجار السرو . لقد كان هذا المكان من البقع الجميلة فى المدينة ، وهو اليوم بأجمعه يندب سوء حاله . فالمجالس متداعية ، والأطواب مكسرة ، والأشجار مريضة مائتة ، والمفيأة فى أسمال مرقعة بعد أن كانت فى ثوب العيد . كل شىء فى الساحة ينهم المغاربة بالكسل والمجلس البلدى بالإهمال . هاهنا قناعة بما هو كائن ، ونسيان لما كان ، ولا فكر ولا أمل ولا عمل

لما يجب أن يكون . قد لا يكون السبب كله فى هذه الساحة المنكوبة كسل الأهالى وعدم اكتراثهم . فالمجلس البلدى مؤلف من مغاربة وإسبان ، وهذه الساحة مثل الساحة الكبرى فى المدينة الجديدة ، فى ذمة المجلس .

بعد تطوافى بالعرائش القديمة مستعيناً مرة بصبى من صبيان السوق دلنى على المدرسة التى يقرأ فيها القرآن — وهى مثل كل المدارس القرآنية التى شاهدتها بالمغرب — حظيرة أطهار يلوكون كلمة الله ولحية طويلة مطوية على صدر صاحبها الناعس ! بعد هذا المشهد عدت إلى الساحة العامة فالتقيت هناك بباشا العرائش خالد بن أحمد الريسونى ، الذى أضافنا يوم وصولنا ، فسر جداً أنى كنت أطوف بالمدينة وحدى وسألنى هل زرت المدرسة الأهلية للبنات ؟ ومعمل الزرابى ؟ وبيت الجمعية الخيرية الإسلامية ؟ فكان جوابى ثلاث لاءات . فقال : وهل ترغبون فى زيارتها فأرافقكم ؟ هيا بنا .

مشينا إلى معمل الزرابى فدخلنا بيتاً فيه نولان كبيران طول الواحد ثلاثة أمتار ، يشتغل عليه عشرون بنتا متقابلات ، عشر من كل جهة ، فتلقط الواحدة منهن خيط اللحمة وتعيده من بين خيوط السدى إلى البنت أمامها فتحكم القطبة ، ثم تقطعها بالسكين وتمسدها بفرشاة مغموسة بالماء . ثم ترسل الخيط الآخر خلال السدى فيعاد إليها محبوكاً لتفعل به ما فعلت بالسابق ، وكذلك دواليك إلى أن يتم الزربى . النسيج متراخٍ ، والعمل بطىء . فالعشرون عاملة يعملن شهراً ونصف شهر فى زربى مساحته أربعة أمتار فى خمسة أو أقل .

وهناك على الأرض عشر بُنيات ، تتراوح سنهن بين الرابعة والعاشرة ، ينفشن الصوف ويفتلنه فتلا متراخياً ، خيوطاً للنسيج .

قلت للباشا خالد مشيراً إلى أولئك الصغيرات : ألا يجب أن يكن فى المدرسة بدل هذا المعمل ؟ فقال يجيب عن سؤالى ولا يجيب : سنزور مدرسة البنات .

وكانت المدرسة الأهلية للصبيان فى طريقنا وهى التى أكثر من ذكرها ، وبشىء من الفخر ، لأن الأهالى يقومون بنفقاتها . هى بين الابتدائية والثانوية يعلم فيها شبان مغاربة .

كان الصف يدرس ساعة وصولنا فصلا فى الصرف . فأطلعنى المعلم على كتاب التعليم ، وهو من الكتب الحديثة المطبوعة بمصر ، ثم أشار إلى جملة تمثل القاعدة أبدل كلمة فيها لتناسب المكان فقال : بدل نهر النيل فى العبارة نقول البحر الأطلنتيق .

وفى هذه المدرسة شاهدت للمرة العاشرة أو العشرين « زريبة » القرآن ، وقد امتلأت أرضها بالصبيان ، من الرابعة إلى العاشرة ، وهم يقرأون الأمثولة من ألواح بأيديهم ، يقرأون بأصوات عالية مجفلة ، كما كان الصبيان بلبنان يقرأون مزامير داود تحت سنديانة الكنيسة ، يكررون ويفرون ، يخبون ويرملون . ليت شعرى كيف يستطيع الشيخ المدرس — المدرر باصطلاح المغرب — إصلاح أغلاط تلاميذه ؟ والعجيب أن كل « المدررين » أو أكثرهم من ذوى اللحى الطويلة . قلت إن هذا لعجيب . ولا عجب مع سبب . فالسبب فى ذلك ، دام حسن ظنك ، أن الشيخ جاز حد سوء الظن فأمسى وصبيانه واحداً فى الطهارة !

مدرسة البنات هى أتقن تنظيما وأنظف وأكبر من غيرها . استقبلتنا فيها سافرة السيدة المغربية التى تعلم البنات القرآن على الطريقة الصبيانية ، ثم سيدة أخرى تعلم القراءة والكتابة . وهناك غيرهما يعلمن الصرف والنحو والجغرافية والحساب . استقبلتنا باسمات دون أن يظهرن شيئاً من الدهشة لمفاجأتنا بالزيارة .

وفى المدرسة معلمات إسبانيات يعلمن اللغة الإسبانية والخياطة والتطريز . عرضت المديرة أمثلة من أعمال التلميذات ، وهى تقول مثلا : هذا صنع

فتاة عمرها خمس سنوات ، وهذا خط بنت عمرها عشر سنين ، وهى فى ذلك تثنى على التلميذات والمعلمات معاً .

ثم زرنا المعهد الخيرى الإسلامى للعجزة والمحاويج من رجال ونساء وللمتشردين واللقطاء من الصبيان والبنات . فيه مسجد صغير وغرف صغيرة مظلمة للنوم . النساء ينمن على فرش ممدودة على الأرض ، والرجال على أسرة فى غرف أخرى .

ومن أعمال هذه الجمعية التى تأسست سنة ١٩٣١ أن تمنع التسول ، وتأوى العاجزين عن العمل وتساعد العاطلين منه ، وتعلم البنات اليتامى ، ثم تزوج من أمكن تزويجهن .

كان العرب قديماً يكثرون العناية بمثل هؤلاء المحاويج والمتشردين ، وقد كانت معاهدهم الخيرية متعددة متنوعة — ذكر ابن بطوطة بضعة عشر معهداً فى دمشق ، منها معهد لبنات الفقراء فيعتنى بتعليمهن وزواجهن — بعد تجهيزهن — كل ذلك مجاناً لوجه الله . وقد كانت تلك المعاهد منظمة خير تنظيم ، وعلى جانب يذكر من أسباب الصحة والراحة والرفاه لساكنيها . والمنتفعين بها .

قلت ذلك لرفيقى فقال : هذا صحيح ، وإننا باذلون الجهد لنبلغ الغاية فى التنظيم والإتقان ، وفى تعميم أسباب الراحة والنظافة والصحة . كل هذه الإنشاءات جديدة ، ولا تزال فى أولها تقوم بما يبذله الأهالى من مساعدة . ولا يخفى عليكم ما فى شعبنا من الجهل فنحتاج فى الدرجة الأولى إلى التعليم . لا إصلاح يتم ويدوم بدون المدارس . . .

وحدثنى أحد أدباء العرائش قال : كان الصبى خالد الريسونى — باشا العرائش اليوم — يكره العلم والتعليم والكتب والمدارس والمعلمين . فقيده والده يوماً بالحديد ليدرس أمثولته . هذا الرجل هو اليوم من أكبر دعاة التعليم فى المنطقة .

جاء هذا الأديب يدعونى للاجتماع فى أحد مقاهى البحر ببعض إخوانه الوطنيين المثقفين ، النازعين إلى التجدد والتحرر . قبلت الدعوة فرحاً ، فرحب بى شابان اثنان الواحد ببرنس أبيض أنيق ، والثانى معلم درس فى الأزهر ، وتشرب من محيط القاهرة الجديد أكثر من محيط ذلك المعهد القديم . فعاد إلى المغرب وهو يريد أن يفكه من قيوده الأجنبية ، وقيود التقاليد والعادات القديمة العقيمة ، ولا يرى إلى ذلك سبيلا محققاً للآمال غير سبيل العلم — المدارس.

جلسنا فى ذلك المقهى أمام الأوقيانوس الصخاب الأمواج حول مائدة صُفت عليها فناجين الشاى . وكان الحديث فى السياسة والأحزاب السياسية . فقال الأزهرى الشيخ عبد القادر : لا خير فى السياسة لبلاد مثل بلاد المغرب اليوم . أما الأحزاب السياسية فقد يكون بعض الخير فى حزب واحد منها . ولكن تعدد الاحزاب بلية وطنية لمغربنا الحاضر .

فقال الأديب صاحب الدعوة : نريد أن تطلع على حقائق الأمور ، يا أستاذ . فلا تخدع بما ترى وتسمع ، ولا تخطئ فى أحكامك . قد يكون فخامة المقيم لغرض منّا مشجعاً للأحزاب فتتعدد وتتطاحن . نحن لا ننكر أنه محب للمغرب وأهله ، ويريد لنا الخير . ولكنه لا يوفق دائماً فى الوسائل التى يتخذها لخدمة البلاد . خذ مثلا قضية الأحباس . لقد رفع المقيم المراقبة عن الأحباس وامتن علينا بهذا الاستقلال . فرددت الجرائد والأحزاب كلمات الشكر والعرفان . ولكن ماذا فعل المقيم ؟ بعد أن أطلق الأحباس من قيود المراقبة الإسبانية عين لها مديراً لا يحسن إدارتها . وسيسوء حالها فى عهد الاستقلال إذا كانت لا تحظى بمن هو أهل لتولى شؤونها . أحباس العرائش وحدها طائلة ، يكفى ريعها لأعمال خيرية وإنشائية كبيرة .

فقال أبو البرنس . . . التازى : الحق مع الأخ مصطفى يا أستاذ . كثيراً ما يخطئ العميد فى انتخاب الرجال لخدمة البلاد . فإما أنه حسن النية فيؤخذ



بنات مغربيات يتعلمن الحياكة

بالظاهر ، أو بأسباب التدخل والتوصية ، فيسىء إلى البلاد من حيث لا يدرى ، وإما أنه سيئ النية فيعين لنا من هم غير أهل للإدارة ، لا فى العلم والاختبار ولا فى الأخلاق ، ليستطيع أن يقول ، ويقدم الشواهد على قوله : إننا غير أهل لنتولى أحكام بلادنا . ولا تخلو البلاد من أصحاب الكفاية علماً وأخلاقاً ، ولكن التوسط والتوصيات — وخصوصاً ما يجىء منها من القصر الخليفى — يفسد على المقيم أعماله . أنا أعتقد أنه سليم النية يريد الخير للبلاد .

فقال الأزهرى : ولا يفوتك ، يا أخى ، أن عندنا جماعة من الأقدمين يرغبون فى إبقاء القديم على قدمه ويتهافتون على الخليفة ، ويتجاذبون نفوذه . فيزيدون فى البلبلة والإفساد . لا أقول إنه يزمّر دائماً للذين يطبلون له لأغراض شخصية . ولكنه يضطر أن يجامل ويدارى وفقاً للأحوال حيناً ، وحيناً لأن الأقامية تريد . وليس نفوذه لديها كما ينبغى أن يكون .

— وهل تفضل الصور فى الوزارات على الرجال ؟ سؤال سأله التازى . هل يجب أن يكون الوزراء دائماً من ذوى اللحى الطويلة ؟ لماذا لا يختار المقيم شابا لرياسة الوزارة ؟ وشبانا لوزاراته ؟ أيخشى التطرف منهم ؟ إن المراقبة كلها بيده . فإن اختار شاباً للوزارة فهو يستطيع أن يراقب أعماله كما يراقب اليوم أعمال الشيوخ العجز . ويحول دون التطرف الذى لا تستقيم فيه مصالح المغرب ، ولا مصالح إسبانيا . ليس فى المغرب اليوم من لا يحب الإسبان ويخلص لهم . فالموظف ذو الكفاية هو خير لهم ولنا ، والموظف العاجز والمفسد يضر بمصالح الجميع : المغاربة والإسبان .

انتقلنا من السياسة إلى الاقتصاديات ، فقيل لى إن الشركات الأهلية قليلة فى البلاد . والحق فى ذلك ليس على الإسبان وحدهم بل على المغاربة أيضاً .

— فى المنطقة شركة نقل واحدة هى إسبانية وأكثر أسهمها بيد الرهبنات واليهود . لقد عرضت الأسهم على أهل البلاد فلم يقبلوا عليها لجهلهم قيمة

الشركات الاقتصادية ، ولعدم ثقتهم بها .

فقال الشيخ الأزهرى : شعبنا فى حاجة إلى التشجيع ، وفى حاجة إلى المساعدة الفنية النزيهة . وأما أن الشركات الأهلية لاتنجح فلذلك أسباب وأسرار . فى تطوان شركة كهربا أهلية ، غير الشركة الكبرى الإسبانية ، عمالها الفنيون من الإسبان . اشترت هذه الشركة من الأدوات فوق حاجتها وطاقتها فساعدتها الحكومة بمليون ونصف مليون بسيطة لدفع ديونها . وخسرت الشركة فى السنة الأولى فساعدتها الحكومة لسد العجز فى ميزانيتها . فإذا كان الخلل الإدارى من أعضاء الشركة الوطنيين ، فالخلل الفنى من الموظفين الفنيين الإسبان . عكس ذلك شركة الماء بتطوان أو بالحرى إدارتها التى بيد المجلس البلدى . فليس من يشكو هذه الإدارة — هى على غاية ما يرام .

التازى : الحق يقال إن الحكومة لا تلام بقدر ما يلام الأهالى . تريد الحكومة أن تشرك الأهالى فى المشاريع الاقتصادية ، وهى تشجعهم على ذلك وهم يترددون . الحق علينا لا على الحكومة الخليفية أو الإسبانية ، فى خلو المشاريع من أموالنا ومساهمتنا .

سألت سؤالا عن حالة العمال فى المنطقة ، فعلمت أنها كانت فى عهد الجمهوريين سيئة جداً . كانت أجرة العامل المغربى ثلاث بسيطات أو أقل أو أكثر قليلا ، وأجرة العامل الإسبانى ثمانى بسيطات . هذا عدا الإهانات التى كان يقاسيها المغربى من الإسبان العمال وغير العمال ، أما اليوم فقد زادت أجرته ، ولا احتقار ولا إهانة . إنما هناك مجال للتحسين . . . الاحتكار ؟ لا احتكار البتة فى المنطقة ، والفضل فى ذلك للحكومة الحامية .

الأزهرى : لا نكران يجوز — ولا إطلاق . ضرورات العيش مضبوطة الإدارة والتسعير ، فتعطى بالمقادير والأسعار المعينة وخصوصاً منها الزيت لأنه قلّ فى سنوات الحرب ، والسكر والشاى والبن لأنها تجلب من الخارج . أما الحنطة

فهى موفورة ، ولا قيد ولا تحديد فى بيعها . إلا أن المراقبة شديدة والأوامر تنفذ ، فلا سبيل للاحتكار أو للتلاعب بالأسعار . هذه من حسنات الحكومة الحامية . وقد ذكرنا لك بعض سيئاتها . وأهمها فى الاقتصاديات ما قد تكون جاهله ، أهمها جمرك واد مرتين ، هل زرت واد مرتين ؟ وهل رأيت المكان الذى كان جمرك هذه المنطقة ؟ هناك عند مصب النهر وإلى شاطئ البحر كان للبلدة ميناء عامر فى الماضى ، هو ميناء تطوان . وكان فيه جمرك دخله بأجمعه لخزينة المنطقة — ويشتغل فيه ويرتزق منه من العمال وأصحاب المراكب الشراعية أكثر من ألفين من المغاربة . فكانت السفن الحاملة البضائع إلى تطوان ترسو فى البحر قرب مصب النهر فتنقل أحمالها بالمراكب الشراعية إلى الجمرك — هذا الجمرك ألغته الحكومة الحامية فى بداية عهد الجمهوريين ، أو بالحرى نقلته إلى سبتة ، فصارت البواخر الحاملة البضائع إلى تطوان ترسو فى ميناء سبتة تدخل جمركها ، فتدفع الرسوم الجمركية هناك ، فتدخل بأجمعها خزينة المدينة المستقلة . ثم تدفع تلك البضائع رسماً جمركيًّا آخر (١٢ ونصف بالمئة) للحكومة المخزنية عند حدود المنطقة بكستياخو . لا يخفى ما فى ذلك من الخسارة للمنطقة وأهلها . فعندما كان جمركها بواد مرتين كان ألفان من العمال المغاربة يرتزقون منه وكان دخله بأجمعه للخزينة المغربية . إننا حقًّا لمظلومون . ظلمنا الجمهوريون الذين ألغوا ذلك الجمرك ، وعطلوا ذلك الميناء ، فهل تنصفنا الحكومة الوطنية الإسبانية ، فتعيد إلى واد مرتين جمركها ، وتحيى ميناءها ؟ الأمل بالله ، وبها وبما عندنا نحن من همة .

الفصل السابع

عمارة الخضر غيلان

إن الأولياء فى المغرب لمثل القديسين عند النصارى ، عددهم كثير ، والغرض فى تقديسهم واحد ، هو الزلفى إلى الله بواسطتهم ، اتقاء لجحيمه ، وطمعاً بنعيمه . وفى العقيدة نظر كما فى العبادة والتوسل .

وإن الطرق فى المغرب لمثل الرهبنات فى لبنان مثلا ، اللهم إذا استثنينا التبتل الذى أمسى فى مجمل حاله تقليداً من التقاليد غير المرعية ، ومدعاة للرياء والفساد . أما الروح فى هذه الجمعيات المغربية واللبنانية فهى أصلا دينية ، وفصلا مادية دنيوية ، فيقل فيها ما يشفع بحالها ، ويبرر كل أعمالها .

وأما التصوف ، إن كان فى الدين الإسلامى أو المسيحى ، فهو اجتهاد شخصى قلما يتمثل فى الجماعات تمثيلا يليق فى الأقل باسمه . ذلك لأن الهدف الأعلى من هذا الاجتهاد إنما هو معرفة الله ، والاتصال به اتصالا كلياً ، تضيع عنده الطبيعتان الإلهية والإنسانية ، فيحل محلهما ، عند بعض كبار الصوفيين ، الرموز الشعرية ، وعند الآخرين صورة الجمع الكلية ، مهما تكن غامضة أو مشوشة . وكل ما سوى ذلك فى « تصوُّف » أو « ترهُّب » الجماعات هو تقليد وتقييد ، بل هو تشويه لما تقدم من أغراض التصوف والطرق .

وكما تندر الرهبنة الصافية عقيدة وعبادة ، روحاً وعملا ، تندر كذلك الطريقة التى تتمثل فيها حياة صاحبها الطاهرة ، ظاهرة وباطنة ، عبادة وروحاً . فهى تحمل الاسم وتمجد الذكر ، وتقيم المهرجانات ، الأعياد والعمارات ، لما فيها من التفريج ، ومن المنافع المادية .

ليست هذه التوطئة للبحث فى الموضوع بحثاً مستوفياً، فلسفياً واجتماعياً. فالمجال هاهنا لا يتسع لذلك. إنما هى شمعة نضيئها عند الباب، باب هذا الفصل المخصص بزيارة ولى بنى غُرْفُط يوم عيده فى محله بالجبل. وعيد الولى، فى اصطلاح أهل المغرب، يدعى عمارة، بكسر العين، فيقولون عمارة القطب عبد السلام، عمارة سيدى هدّى، عمارة الخضر غيلان. وهم يريدون، على ما أظن، العمرة أى الزيارة[1]، فقد جاء فى القاموس أن العمارة، بضم العين، طول العُمر، وبكسرها تعمير المنزل، وبفتحها كل شىء على الرأس من عمامة أو قلنسوة أو تاج أو غيره. عِمارة — عَمارة — عُمارة، هى اللغة العربية، لغتنا، بما فيها من مرونة، ومن غموض لغير العارفين — ولكثير من هؤلاء أيضاً.

وقد يراد من العمارة بكسر العين، معناها فى حاضر حالها، فالولى، قدس الله سره، يجلب الناس من كل حدب وصوب يوم عيده، فيقام حول ضريحه سوق ومهرجان فيهما الخير والبركة لبلده وأهله وأشياعه — فيهما التعمير — وفيهما للسائح جاذب قوى.

فقد كنت أتأهب للرحيل من العرائش بعد انتهاء عملى فيها، إذ علمت أن فى قبيلة بنى غُرفُط، إحدى القبائل الكبيرة فى هذه الناحية، عيداً فى اليوم التالى لوليها الخضر غيلان، وأن المراقب العام للإيالة، السنيور توماس غرسيا فغويرا (Sr. Tomas Garcia Figuera) يريد أن أرافقه وجماعته لنشهد ذلك العيد.

تلقيت الدعوة فرحاً، وكنت فى صباح اليوم التالى أول المتأهبين للسفر. وهاهو ذا الرفيق البستانى يجىء مبطئاً معتذراً على عادته. وها هو ذا الشيخ عبد السلام الأزطوطى المبطئ غير المعتذر، ثم جاء السنيور كرستوبال پيريز ڤيرا

(١) العمرة: الحج الأصغر. والقصد إلى مكان عامر، والزيارة التى فيها عمارة الود (القاموس).

(Sr. Cristobal Perez Vera) الذى كان الرفيق والدليل فى جولاتنا بالعرائش ، وبعده المراقب العام يصحبه ضابطان من موظفى المراقبة .

قبل أن نركب السيارات إلى قرية سوق السبت ، على نصف ساعة من العرائش ، حيث ينتهى الطريق المعبد ، أو أثناء سيرنا إليها ، أزيدك علماً بالرفقاء . فالمقيم العام السنيور توماس غرسيا هو الكاتب الإسبانى الأديب المخصص أبحاثه وتآليفه فى لآثار العربية الأندلسية . وهو عضو فى معهد فرنكو المؤسس لنشر المخطوطات العربية فى إسبانيا ، تجديداً للثقافة العربية ، وتوطيداً للصلات الودية بين الأمتين . يحب العرب ويقرن الإحساس بالعقل فى تقدير فضلهم على الفلسفة الإغريقية التى أحيوها فى الماضى ، وجعلوها من أركان المدنية الأوربية . والسنيور كرستوبال بيريز مستشار أملاك الدولة فى الإيالة المغربية يشارك زميله فى الحكومة وفى معهد فرنكو حبَّ العرب والإعجاب بهم ، وهو يحسن العربية ويساعد فى إخراج باكورتها فى مستهل سنة ١٩٤٠ .

أما الرفيق الآخر — والآخرون أولون — فهو العلامة الشيخ عبد السلام الأزطوطى — آل أزطوط من الأقدمين فى العرائش — كان قاضى الناحية . وهو اليوم مدير المعهد الدينى الذى تقدم ذكره . والشيخ عبد السلام محدث كثير العلم والرواية ، خفيف الظل ظريف ، يرصع أحاديثه بالشعر على الدوام . فيرويه بلهجته المغربية ، الشبيهة بزقزقة الحساسين ، فتطرب لها ولا تفهم معناها . فهو يقول عن الزّارع : الزُّرع ، وعن عبد السلام : عبد سْلَم ، وعن حطه السيل من علِ : حطّهُ سْيَلِ مْنِ عْلِ . فهل يُفهم معنى المد والتسكين والتخفيف والتفخيم فى زقزقة الحسون ؟ وهل ينبغى أن تفهم فى لهجة صنوه الأزطوطى ؟ — وفى الاثنتين من الكر والفر ، والإقبال والإدبار — التوكيد والخفض — ما يدهش حتى جواد امرئ القيس .

ولكنى أسارع إلى اطمئنانك فلا تخشى جلاميد الصخور . إنما هاهنا ثمار تتساقط من شجرة العرفان ، وهاهنا الدرر الشعرية من كل ديوان .

سألت الشيخ عبد السلام عن قرية فى الطريق فقال هى سوق الثلاثاء ولكل يوم سوق فى مكان معين أو فى قرية تدعى باسمه ، هى الوسيلة الوحيدة للمتاجرة بين القبائل .

– وذلك الجبل على الأفق الشرقى ؟

– هو جبل بنى غرفط محجتنا . وبنو غرفط (تكتب أيضاً بالجيم وتلفظ كما تلفظ بمصر) من صفوة العرب ، يصح فيهم ما قاله امرؤ القيس فى بنى عوف :

ثياب بنى عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غُرّان

وهم مثل كل القبائل مزارعون . قبيلة غنية ؟ لا غنى فى هذه المنطقة. الثروة والخير فى الجنوب . ولكن التملك عندنا ، فى هذه المنطقة الشمالية ، عام شامل . كل عائلة من أهل الأرياف والجبال تملك بيتها ، وإن كان كوخاً ، وتملك بعض الأرض تستغلها بالحراثة والزراعة . مع ذلك هم فى ظاهر حالهم فقراء – ولكنهم أباة بسّل . لا يستسلمون للظلم ولا ينامون على ضيم :

لا زينة المرء تعليه ولا المال ولا يشرفه عم ولا خالُ
وإنما يتسامى للعلا رجل ماضى العزيمة لا تثنيه أهوال

كنا نمر بغابات من شجر الفلين ، ولم أكن أعرف لها اسما غيره ، فقال : هو الدلم واحدته دلة .

وهذا شجر التين فى سياج من الصبير فقال : يسمى التين عندنا كرموس ، والصبير التين الهندى .

سألت الشيخ العلامة وما أصل لفظة كرموس ؟ هل هى عربية مُبَرْبرة ؟

فأجاب : قد تكون محرفة من القرموط فقلبت القاف كافاً والطاء سينا . والقُرموط هو الأحمر من ثمر الغضا شبيه بالتين .

وبينا نحن سائرون فى سهل تتخلل زرعه بقع بيضاء قال مشيراً إليها : وهذه صفحات كتاب بهامشها بياض الأقحوان . اسمه واحد عندنا وعندكم قال الشاعر متغزلا بمبسم الحبيب :

بالله يا أقحوان مبسمـــه على قضيب الأراك من نظمك؟

وهذه شقائق النعمان . يقال الشقائق للمفرد والجمع . وقيل مفرده شقيق . وعليه قول الشاعر :

وكأن محمرَّ الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد
أعلام ياقوتٍ نشرن على رماحٍ من زبرجد

وقال أيضاً :

لا تعجبوا من خاله فى خده كل الشقيق بنقطة سوداء

كان الشيخ يروى الشعر ونحن فى السيارة ، فتزكّى هزهزتها لهجته المغربية ، فتخفى علىّ معانيها ، فاستكتبته الأبيات عندما وصلنا إلى مركز المراقبة المحلية بقرية سوق السبت .

وقد لزمته أو لزمنى ونحن نطوف بالمركز مع المراقب المحلى ، وهو يزيدنى من بحر علمه وأدبه . فكان أول ما نبهنى إليه مشهد الجبال من رواق الدار . — تلك الجبال بعضها فوق بعض تسمى بالعربية الفصحى النطُق ، ومنها المنتطق أى العزيز الرفيع الشأن . قال الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قـــومى على الأعداء منتطقاً مجيدا

وعندما كان المراقب يحدثنا عما يربى فى المركز من الدواجن ، وقفنا أمام بيت الحمام فحاولت مجاراته فى رواية الشعر فذكرت بيتاً للمعرى من قصيدته التى مطلعها : « غير مجد فى ملتى واعتقادى » :

أبكت تلكم الحمامة أم غنّت على فرع غصنها المياد

فقال على الفور : لا بكت ولا غنت . الحمام لا يبكى يا أستاذ ، ولا يغنى ، الحمام يقرقر . يقال قرقرت الحمامة أى صاتت والقرقرير صوت الحمام . قال الشاعر :

وما ذات طوق فوق عود أراكة إذا قرقرت هاج الهوى قُرقريرها

وبعد أن طفنا بالمركز فشاهدنا المختبر الزراعى ، ونماذج من محصولات تلك الناحية — من الحبوب والصوف والفلين — ووقفنا أمام بيت الأرانب المبنى بالخشب والشريط على الطريقة الفنية الحديثة ، وهو مثل بيت الحمام بنظافته الأوربية ، واستعرضنا الخيل العربية وغير العربية — الإسبانية المغربية اللقاح — دخلنا ملجأ الأيتام ومدرسته التى يتعلم فيها نحو أربعين ولداً اللغتين العربية والإسبانية ، فحياهم الشيخ العلامة ببيت الشعر المعروف :

ليس اليتيم الذى قد مات والده إن اليتيم يتيم العلم والأدب

وكل ما فى هذا الميتم من الغرف ، غرف الدرس والأكل والنوم ، تنبئ بحسن الإدارة والاعتناء . فقلت لرفيق العلامة : هذا مثال يجب أن تحتذوه فى معهدكم الدينى — الإدارة ، النظافة ، الثقافة ، فهز رأسه مبتسما وقال :

يدق على الأفكار ما أنت فاعل فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

قلت : وهل للتصوف يد فى نسيج العنكبوت على جدران المعاهد الدينية ، وعلى عقول الطلبة وأرواحهم ؟

فقال : التصوف هو الحياة ، يا أستاذ ، والحياة هى التصوف . ولقد أحسن الشاعر فى قوله :

خذ بنصل السيف واترك غمده واعتبر فصل الفتى دون الحلل

* * *

مرقب سوق السبت هو واحد من ستة مراقب محلية فى هذه الإيالة

الغربية . أما الخمسة الأخرى فهى أصيلة وسيدى على والقصر الكبير وتطّاف ومسراح . وفى كل ناحية من هذه النواحى قبيلة معروفة بعلو منزلتها ، وشدة بأسها بين القبائل ، كالخلوط فى القصر الكبير ، وأهل سريف فى تطّاف ، وبنى عروس فى سيدى على ، وبنى غرفط فى سوق السبت هذه . ولها كلها قواد ، أى حكام مخزنيون ، يرقب أعمالهم المراقبون المحليون المرتبطون جميعاً بالمراقبة العامة بالعرائش ، التى تتلقى الأوامر العليا من نائب الأمور الوطنية بتطوان ، وهو الموظف الأول ، بعد المقيم العام ، فى حكومة الحماية . هذا التنظيم الإدارى يشمل الإيالات الأخرى فى المنطقة[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن للمراقب العام حق التصرف بكل ما فى إيالته من قوات التنفيذ والأمن والنظام ، أى الشرطة والقوة المخزنية المؤلفة من عدد يتراوح بين الخمسين والمائة « مخازنى » ثم « الحملة الخليفية » أى جند تلك الناحية ، لإخماد نيران الاضطرابات والفتن إذا اقتضى الأمر .

ولا خوف اليوم — ولا غداً إن صدقت العهود الوطنية ، وهى إن شاء الله صادقة — لا خوف ، أقول ، من الفتن والاضطرابات . إذن ، وقبل أن نستأنف السير إلى السدة القدسية فى الجبل ، يجب أن أسجل هذه الكلمة :

إن الحكومة الوطنية المخزنية لتتضاءل إزاء الحكومة الإسبانية الحامية . وإن هذه المراقبات بأصولها وفروعها هى فوق ما تقتضيه أحوال المغرب الحاضرة ، الممتازة بالصلات المغربية الإسبانية الطيبة ، وبعقلية أهل المغرب السلمية الولائية فى عهد الجنرال فرنكو .

---

(١) وهى :

الإيالة الجبيلية : المرقب العام بتطوان تتبعه ستة مراقب محلية

« الغمارية : المرقب العام بشفشاون تتبعه ثمانية مراقب محلية

« الريفية : المرقب العام بسان خورخو يتبعه اثنا عشر مرقباً محلياً

« الشرقية : المرقب العام بالناضور تتبعه ثمانية مراقب محلية .

أما بعد — وما بعد ذلك غير الرحيل — فها هو ذا السائس جاء يقول : الخيل حاضرة . وها هى ذى الشمس تكاد تتكبد السماء . ولكنها فى جميع أطوارها لا تنفذ إلى الساحة التى يشملها — وقل يذلّها — الزيتون البرى العتيق بالفىء الدائم .

نزلنا إلى هذه الساحة أمام دار المراقبة . وامتطينا الجياد جميعاً إلا شيخنا الأزطوطى الذى شاء أن يحافظ على العادة القديمة عادة العلماء أصحاب التجلة والكرامة ، فاختار لنفسه الحمار الوحيد بين الخيل . وراح يسوقه برفق ، فلا يبعد عن الموكب ، ولا يتعدى الوسط منه . وخير الأمور الوسط . فكنت أراه غالباً أمامنا ، وراء الطليعة من الفرسان المغاربة شاهرى البنادق.

الوسط للعالم الحكيم . ونحن نحمى المؤخرة كما تحمى الطليعة المقدمه فنسير سيره تصعيداً فى الجبل ، ونطلق العنان للخيل ، اقتداء به ، هو المقتدى بالفرسان ، عندما يبلغون سهلا يخلو فيه العدو رملا أو خبباً . هَرَأ قصدنا وأنت السبيل !

وعندما دنونا من هرأ رأينا جماعة تمشى إلينا ومعها نوبة بطبلين وزمرين . هو وفد من أهل هرأ جاء يرحب بنا . فشرعت النوبة « تموسق » بحماسة حربية . رقصت لها الخيول طرباً ، ورفعنا لها الأيدى شكراً وإعجاباً ، فزادها ذلك عنفاً وتفنناً ، فضاق الفضاء بزخر أنغامها ، وأنّت الأصوات التى تتموّج فيه من إذاعات العالم ، فرأينا أن نقف قليلا رفقاً بهم وبها ، لعلها تقتدى بنا فيستريحون ونستريح !

ثم استأنفنا السير مخبّين فهرول « المموسقون » مع وفد الترحيب وراءنا ، إلا واحداً منهم راح يبارينا فى العدو وهو مستمر ، لله درّ أبيه وأمه ، فى التزمير . وقد سمعت الشيخ الأزطوطى يثنى عليه ببيت من الشعر فهمت منه كلمتين « صفير البلبل » لا غير .

وبينا نحن فى هذه البهجة من الفرار لاح عند سفح الجبل بياض كالثلج مديد ، غطّى الاخضرار على صدره وفى جنباته ، وكلما دنونا منه بدا متموجاً متدافعاً . فما عتمنا أن تبيّنا الحقيقة المجسمة فى ذلك اليوم ، حقيقة العمارة والمعتمرين بثيابهم البيضاء . هناك ألوف منهم ، رجال ونساء وصبيان وبنات ، هناك كبار القبيلة وصغارها ، حتى الأطفال تحمل على ظهور الأمهات ، خرجوا من القرية وجاءوا من المشادر المجاورة لها ، ومن القبائل الموالية ، يشاركون فى عمارة الخضر غيلان .

بلغنا بعد التصعيد الساحة الكبرى وفيها الجموع تزدحم وتتدافع ، وقد فسح بوسطها لحوقة أخرى من « المموسقين » وشقّت السبل لخيلنا فوقفنا فى حلقة هناك كحرس للساحة ومن فيها . قدس الله سرك . يا ولى الله ! فها هم أولاء رسل البركة وأركان المجد ، بل أرباب الطرب فى إحياء المجد ونشر البركات . ها هى ذى الطليعة من أقمارك وأنوارك — ستة من الزنوج بأثواب مسرحية ، مطرزة بالرقع والخرق ، مزدانة بالودع والعظام ، ستة من ظرفاء السودان ، بخلاخيلهم وأساورهم والقلادات والتيجان والأجراس تتقلقل على الرؤوس ، وتتجلجل على الأرداف . ستة من مؤمنى السودان ، وفيهم الشيخ الملتحى ، والشاب المستحيى ، والمريد ، ومرقّص العبيد . كل يحمل بكلتا يديه شُقيقات من حديد ، فى حجم النعل الكبيرة ، بحلقات من جلد يدخل بها الإبهام والسبابة . ستة باثنتين . اثنتى عشرة آلة من آلات الطرب — اثنى عشر صنجاً من النحاس بل الحديد ، لها صوت فى مجموع فنها يفعل بالجلمود فعل الديناميت . فكيف به إن أطلق على بنى آدم ؟ ولكن الجلادة فى بنى آدم جلاميد ، تكونت والإحساس فى العهد الآدمى الأول منذ الآلاف من السنين . فهات ما عندك يا سودان !

والغريب العجيب أن هذه النوبة السودانية هى ذات وتر واحد ، ووزن

واحد ، ونغم واحد :

ترا تاتاتا — تراتا تُمْ ، بتسكين الميم فى تم وتشديدها . ولا تنس أن الديباجة فى الصوت حديدية ، لا حرف لها ولا ظل — لا هالة ولا صدى . تراتا تم ! ولا دونها دون . تراتا تا تا ! ولا سر مكنون — ولا حذلقة فى الجنون !

ربع ساعة منها ، رافقها الرقص الأفريقى المتولد من مطاردة الحيوانات الضوارى والفوز الإخفاق فيها — فيشب من الحلقة إلى وسطها ذلك الذى بلغ منه التهيج أقصاه ، ويدور دورات على محوره ثم يقفز قفزات لولبية ، ثم يمشى على رؤوس أصابعه ، ويثب بعدها وثبات عنيفة . ثم يجثو على ركبته ، ويغطى الأرض بصدره ومنكبيه ، فتظنه لصق بها وسكن ، وارتاح . وما هو غير مخادع ، فيفاجئ الناس بوثبة نمرية ، ثم بفتلة درويشية ، يجعلها الخاتمة ، ويعود إلى شقيقاته « تارا تا تا » فيستأنف غيره الرقص ، ولا تغيير فى البرنامج ولا تبديل .

وبعد انتهاء دور السودانيين يتقدم إلى وسط الساحة شيخ القرية وخطيبها ، وهو شيخ جليل بصوت جلاجل ، ويبدأ بسم الله الرحمن الرحيم إلى آخر الفاتحة ثم يلقى خطبة تنسينا ما قاسينا . والمصائب سحائب ينسخ المتأخر المتقدم منها . فمن ذكر نعم الله على عباده ، وبركات المولى فى شعبه وبلاده ، يستطرد — ولكن قبل الاستطراد يذبح ثلاثين دقيقة من الزمان — ضحايا العيد — وهو يذكر ويردد ويعدد نعم الله وبركات المولى — ثم يستطرد إلى الأدعية ، الأدعية الخالصة الحارة — الأدعية المضمخة بطيب القلوب أولا للزعيم الأكبر (الجننار) الجنرال فرنكو ، ثم للأمة الإسبانية ، ثم للخليفة مولاى الحسن ، ثم للمسلمين ، ثم لمجادة المقيم العام ، فالمراقب العام فالمراقب المحلى . وكلما انتهى الدعاء ، وهو خطبة بنفسه ، يمسح الخطيب وجهه بيديه مسبحاً متوسلا ، فيهتف الناس مرددين كلماته الأخيرة — ويمنّ

الله عليه بالخير الغزير آمين . وبالهناء الكثير آمين . وبالنعمة والتعمير ، أمين . بالتوفيق فى حسن العمل والتدبير آمين ، آمين .

سكوت تحل فيه البركات . سكون يعيد النسمات المنعشات . فيتقدم المراقب العام من الخطيب ويقدم له هدية من المال ، فيتبعه المقيم المحلى بهدية مثلها . وبعد ذلك نستأنف السير راكبين — ما ترجلنا أثناء النوبة والخطبة — إلى أعلى بيت فى القرية ، بيت أنسباء الولى ، وهو صغير حقير أمامه تينة كبيرة جليلة فرشت تحتها السجاجيد .

وكانت نساء المراقبة المحلية ، الإسبانيات زوجات الموظفين وبناتهم ، قد تقدمننا إلى ذلك المكان ، فاحتللن ساحة الاستقبال منه ، وتركن لنا البيت الصغير ذا السقف القائم ، والباب الضيق ، الشبيه ببيوت اليمن القرويين فجلسنا للغداء فى زاوية منه ، وجلس وجهاء القبيلة فى الزاوية الأخرى .

كنت أظن أن قبائل المغرب ، مثل عرب البادية فى مآكلهم ، يقتصرون على البسيط منها ، فلا تتعدد الألوان ولا تتجاوز فى الإسراف اللحم المسلوق مع البرغل أو الأرز . فأخطأت الظن . وقد دهشت بما شاهدت من تفنين المغاربة ، بدوهم وحضرهم ، فى طبخ اللحوم . وهم قلما يعنون بغيرها للضيافة . فالكسكس مثلا ، طبختهم الوطنية المشهورة ، لاتقدم للضيف لأنها طبخة بيتية .

على أنهم فى طبخ اللحوم ، وتعدد أنواعها ، من أمهر الشعوب المتحضرة علماً وفنًّا . لا ينقصهم غير ذوق الغربيين فى التهيئة والتقديم . وقد يبز المغاربة حتى أمهر طهاة الفرنسيين فى أنواع طبخ اللحوم . البرهان والدليل ؟ ليس عندى غير هذه المأدبة المغربية الغرفطية . فبعد المعلاق المشوى على الشياش ، والقوزة التى لا تمتاز عن أخواتها فى اليمن والحجاز ، جىء باللحم — بأقسام كبيرة من الخرفان ضحايا العيد — المشوى منه بالفرن ، والمسلوق ، ثم المحمَّر ،

يتلوه المخمَّر فالمجمَّر فالمعمَّر .

ليمسك القارئ . فإنى شارح موضح . فاللحم المجمَّر هو المشوى على الحجر ؛ والمخمَّر — ليس بالخمر — بل بشىء أفعل من الخمر فى دغدغة اللهات ، بالإدام الكثير الأبازير ؛ والمعمَّر هو الخروف المحشو . والسر فى الحشو ، كل الصيد فى جوف الفرا .

وهاكم البرهان يقدمه الشيخ الأزطوطى إذ يشمر عن ساعده ويمد يده إلى جوف الخروف ، وهو يقول : كنت مفتشاً بالجمرك . . . ثم يخرج بيضة ، ويرفعها بين أنامله ، كأنه ساحر على مسرح عمله ، ويشقها ليرينا أنها هى أيضا محشوة ، وفيها الجوز واللوز والزبيب واللحم المقطع المغموس فى الأبازير .

شغل مفتش الجمرك : وهل غير البيض من المهرَّبات ؟ فمد يده ثانية ، وأجالها جولات كاشفات ، فعاد بها إلى أنظار الضيوف ، وهى تحمل كليتين ، قدم الواحدة للسنيور غرسيًّا والأخرى لى . ثم أعاد التفتيش وأخرج كليتين أخريين ، فسأل البستانى ضاحكاً : ألهذا الحيوان أربع كلى ؟ فأجاب الأزطوطى دون أن يضحك أو يبتسم : وأكثر من أربع . كليتان اثنتان حلال من الله ، والباقى حرام — مهرب — مثل البيض .

ولا يفوتنى أن أخبرك أنهم يتفننون بطبخ الدجاج تفننهم بطبخ الغنم والبقر . ومن عاداتهم فى المآدب أنهم يقدمون دائماً أربع دجاجات — محمرة أو مجمَّرة أو مخمَّرة أو مبخَّرة — فى جفنة واحدة . أربع دجاجات أقل ما يكون ، وقد تتعدد الجفنات وفى كل منها أربعة طيور — ماعرفت السر فى هذا العدد ، ولا أحد ممن سألت أزال جهلى أو بعضه . فالمعلوم هو أنها عادة القوم .

وهناك بعد كل ما تقدم ، وفوق كل ما أذكر ، هناك اللحم المشرْمل

أى المغموس بعد القلى بإدام كثيف يخالطه السعتر . هذا الإدام يدعى شرمولة ، يغمس بها فخذ اللحم مثلا أو الدجاجة أو السمكة حتى تصير كالغشاء الخارجى أو الدثار اللاصق بجسم الحيوان المطبوخ .

بقى أن أقول إن اللحم المبخر هو أفخر اللحوم وألذها . وهو يطبخ بقدور ثلاث ، قدر للماء فوق الموقد ، وقدر يتصل بها للبخار ، فيخرج من ثقوب فيها إلى القدر الثالثة المحتوية على اللحم أو الدجاج .

أما الشراب فليس منه غير الماء القراح . أفلا يشعر المغربى ياترى بشعور الأوربى بوجوب الخمر لتعديل الأدهان فى هذه الوفرة من اللحوم ؟ اغسل الورك بكأس من النبيذ أو بكوب من الجعة — كذلك يقول الفرنسى أو الإنكليزى . فيقول العربى الذى لا يرى فى الحرمان غير البركة : القهوة المرة خير من النبيذ . ويقول أخوه المغربى : الشاى خير من القهوة المرة — وقول أخيهما العربى المسيحى : الحق كله فى الكلمتين ، وفى ما قاله السيد المسيح . فيشرب الخمر ، قليلا أو كثيراً ، ويشرب الشاى والقهوة ، ولا يبالى .

نقلنا من البيت المظلم إلى نور الحرم تحت التينة ، فجاء شيخ من مشايخ القبيلة يرفل ببرنسه الأبيض الفضفاض ، وقد طيب لحيته السوداء بعطر الورد إكراماً للولى وعيده . جاء يقوم بالعمل الذى يختص عند الإنكليز بربة البيت . فجلس وظهره إلى جذع الشجرة أمام أوانى الشاى (العفو الأتاى) ثم جاء الخادم بالأتاى الأخضر وبطاقة من النعنع ، فاختار منها الأطراف الطرية ، وتناول حفنة من الأتاى وضعها فى الأبريق مع النعنع ، ثم أضاف السكر وصب الماء الحامى من السموقار أمامه .

انتهى القسم الأول من الرتبة — وهى تكاد تكون دينية — فوضع راحتيه على ركبتيه أحنى رأسه احتراماً لما أودعه الله فى هذا الخلط الكريم . ثم صب قليلا منه فى كأس الزجاج فذاقه ، وشرع يصب للضيوف .

وبينا نحن نشرب الأتاى طلع علينا أولئك السودانيون ، وعادوا إلى تطريبنا — وزان تعذيبنا — بآلات الحديد « ذيالهم » ، فسارعنا إليهم بشيء من المال ، قدمناه مع دعاء من أدعية خطيب القبيلة — دعاء واحد بآمين مكررة .

ثم عدنا إلى الساحة الكبرى عبر الوادى ، حيث تتزاحم الأشجار والأدغال مثل جموع المعتمرين وقد ملأوا كل درب بين الربى ، وكل بقعة منها غير مزروعة .

وكان أشد الزحام فى الساحة الكبرى . فاخترقنا الصفوف إلى وسطها ، فإذا هناك الراقصون والراقصات ، وحلقات الذكر ، وغير الحلقات . لقد شاهدت فى البلاد العربية حلقات ذكر كثيرة ، شعرية ودينية وبهلوانية — فى نور القمر ونور الزيت ونور الكهربا . وهى كلها للرجال ، لا نساء بين الراقصين ، ولا بين المتفرجين .

وهاكم فى المغرب النساء والرجال فى الحلقات وخارجها . اليد باليد هاهنا فيثبون جميعاً ويحجلون . والصدور للصدور ، فيهزون الرؤوس إلى الأمام وإلى الوراء هزات عنيفة ويقعسون . وهناك الحلقات غير المختلطة ، حلقات الرجال وحلقات النساء .

وهاكم من النساء المتفردات كل واحدة حلقة بنفسها ولنفسها . وبينهن الصبايا الحسان ، وقد احمرت خدودهن ، وانحلت شعورهن ، وذبلت عيونهن من الاهتزاز العنيف المستمر . فهن يهززن الرؤوس والصدور والأرداف ، والعيون منهن شاخصة إلى أعلى ، أو إلى لا شيء أمامهن ، فتراهن غائبات ذاهلات هائجات مشغوفات بما لا يعلمه غير الله ، أو بمن لا يعرفه بعد الله إلا هن .

هى عمارة الخضر غيلان بمظاهرها الدرويشية ، وبما يضطرم فى صدور

النساء والرجال والفتيات والفتيان ، من التشوقات الروحية والجسمانية .

وبعد قليل تغرب الشمس على هذا المشهد الغريب — وسيغدو الإسلام غريباً فى دياره — فلا يرى ، حتى العمارة القادمة فى العام التالى ، من أثر القداسة غير ضريح الولى فى رأس الجبل . ولا يرى فى ساحة المهرجان غير أثر الجنزال فرنكو التذكارى — حوض الماء والمسجد والمدرسة — لتعزيز « الصداقة » الإسبانية المغربية .

الولى — المدرسة — الصداقة الإسبانية المغربية — لمن البقاء ؟ .

* * *

منذ عهد الكهان والكواهن فى بابل وآشور ومصر ، وفى بلاد اليونان والرومان والفينيقيين ، كانت نساء البربر فى المغرب يتعاطين السحر والتكهن .

وكان لغمارة ، التى لا تزال من أكبر قبائل البربر ، نبى اسمه حاميم بن مَنّ الله ، تنبأ سنة ٣١٣ هـ بجبل حاميم القريب من تطوان ، فشرع الشرائع وقلد القرآن ، فكان يتلو من كتابه ذاك على الناس بلسانه العربى البربرى . وكانت عمة حاميم كاهنة ساحرة ، وأخته كذلك ، فتستغيث القبيلة بهما فى الحرب والقحط .

قال ابن خلدون : وظهر فيهم نبى آخر هو عاصم بن جميل ، له أخبار مأثورة ، وما زالوا يفعلون السحر إلى هذا العهد . أى عهد ابن خلدون .

وما زالوا يرقصون رقصة السحر والكهانة — رقصة الأسرار الروحية وقد اختلطت بالأسرار الجنسية — الشقية المكبوتة بلغة علم زماننا — ليس فى غمارة فقط بل فى غرفط وغيرها من القبائل .

على أن الأولياء حلوا محل الأنبياء ، وحلّت السواحر محل الكواهن ، أما السحر فإن أكثر منتحليه « النساء العواتق » كما يقول ابن خلدون . ولهم كما للرجال — فى زماننا كما فى ما مضى — « علم استجلاب روحانية

ما يشاءونه من الكواكب . فإذا استولوا عليه وتكنفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها فى الأكوان بما شاءوا . والله أعلم » .

ويجب أن أقول فى ما يختص بسواحر المغرب الحاضر إنهن لسن كلهن من « العواتق » . فقد شاهدت بين نسوة بنى غرفط الراقصات الذاكرات « المستجلبات روحانية الكواكب » عدداً غير قليل من الصبيات الجميلات الوجوه والعيون والقدود .

هى الطرق وشعابها الجنسية ، المكنونة والمكشوفة . هم الأولياء وأشياعهم ، وفيهم الطالب والطالبة لوجه الله ، والساحر والساحرة لوجه الحبيب فى الحياة الدنيا . ولهم الزوايا التى لا تحصى .

أما الطرق نفسها فهى ستٌّ فى المغرب أذكرها بحسب أهميتها وانتشارها . وهى القادرية[1] والدرقاوية والتيجانية والناصرية والكتانية والعيسوية ، نسبة إلى محمد بن عيسى المولود فى مكناس .

وأما الأولياء فإنى أعيد القول ما أكثرهم فى هذا المغرب . وإنهم لفى ازدياد على عقم الزمان فى القداسة . فأصغرهم سنًّا — فى الولاية — هو سيدى محمد بن صديق أخمليش ، المتوفى منذ اثنى عشر عاماً ، والمدفون بقبر ذى قبة فى قبيلة بُونصار .

إن قبور الأولياء جميعاً بقباب ، عدا قبر القطب الأكبر عبد السلام ابن المشيش . فقد كان عبد السلام يقول : إن جسده ليس أحسن من التراب ، وأراد أن يكون قبره من التراب بمستواه ، لا قبة فوقه ولا بناء . فكأنه وهابى فى هذا يقول قول الوهابيين : خير القبور الدوارس .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن أكثر أولئك الأولياء كانوا فى حياتهم

(١) والقادرية أغنى الطرق فى أوقافها . فإن لها من المساجد والجوامع والزوايا ما يزيد على المئة .

أصحاب كرامات ، ولا يزالون فى مماتهم يضعون العجائب . فيشفون المرضى والعواقر والمجانين ، مثل إخوانهم قديسى لبنان .

قيل لى إن سيدى هدّى فى بنى عروس يشفى المجانين ، ولكن طريقته غير طريقة الرهبان فى دير قزحيا بلبنان . طريقة سيدى هدى علمية عصرية تختص بتربيته . فهو مدفون فى مكان قريب من تزروت يتفشى فيه نوع من الحمى التى تصعد سريعاً إلى الدماغ فتتغلب على ما به من مرض أو اختلال . فإذا جىء بالمجنون إلى ذلك المزار لا يلبث أن يصاب بتلك الحمى فتصعد توًّا إلى رأسه وتطرد الشيطان منه — تشفيه من الجنون . إنها لعجيبة العجائب . فالمعروف أن الحمى ، إذا ما تصاعدت إلى الرأس تجنن صاحبها ، وبجوار سيدى هدى تفعل عكس ذلك — تعقل المجانين .

أما الخضر غيلان فقد كتب اسمه فى سفر المجاهدين قبل أن كتب فى سفر الأولياء الأبرار . هناك بطنجة ، فى السهل القريب من وادى اليهود ، كان معسكره ، يوم كان البرتغاليون محتلين تلك المدينة . فجاهدهم سبع سنوات (١٦٥١ — ١٦٥٨) حتى يئست البرتغال من طنجة ، فأهدتها إلى الإنكليز .

وأما قبيلته فإنها تهتم ، مثل أكثر القبائل ، بالزراعة قبل كل شىء . وهى تمتاز عن سائر قبائل هذه الإيالة بما تنتجه من الجلبان (البازلة) كما تمتاز بأحباسها الغنية التى يبلغ ريعها السنوى عشرين ألف بسيطة ، رجل فى الأرض ورجل فى السماء . شأن بنى عروس ، أكثر القبائل وجاهة ، وأشدها بأساً ، وأغناها بالمساجد والجوامع والزوايا . قيل لى إن فيها أكثر من مئة ولى . مهما يكن فى القول من المبالغة فالعدد الصافى المحقق يظل كثيراً . إن الأولياء بروحانيتهم — أو بعجائبهم — لا بعددهم . وإن منهم فى بنى عروس عبد الرحمن شريف وسيدى يندر وسيدى على الريسونى وسيدى محمد الريسونى . هذه العائلة



مسجد القادرية

هى من أوجه عائلات القبيلة ، وقد بسطت نفوذها على أكثر القبائل فى أيام زعيمها الأكبر الشريف أحمد الريسونى .

وفى هذه الإيالة ، فى ديار بنى عروس ، أشهر جبال المغرب . هو جبل العلم ، محجة المؤمنين والوطنيين ، حيث تحفظ عظام القطب الأكبر ، والولى الأشهر ، عبد السلام بن المشيش ، وحيث تجلس روحه الطاهرة لتستريح ثم تستأنف حراسة المغرب .

من قمة ذلك الجبل ترى كل مدن هذه الناحية من المغرب الشمالى : أصيلة والقصر الكبير وطنجة وتطوان وشفشاون ، ومن تلك القمة ، من ذلك الجوار القدسى الوطنى ، نظر أحمد الريسونى إلى هذه البلاد ولسان حاله يقول : هى بلادى ، وسأخلصها من حكم الأجانب .

الفصل الثامن

الشريف أحمد الريسونى[1]

عندما جلس السلطان الولد عبد العزيز على عرش أجداده ، بعد وفاة والده السلطان الحسن فى سنة ١٨٩٤ ، أدخل الله الرحمة على قلبه أو على قلب بعض الصالحين فى بلاطه ، فصدر الأمر السلطانى بالعفو عن سجين فى الصويرة هو الشريف أحمد الريسونى .

كان للشريف أحمد يومئذ نحو أربعين عاماً من هذه الحياة الدنيا ، قضى ثلاثة منها فى ذلك السجن مكبلا بالحديد ، جزاء ما تقدم من ذنوبه فى طرق المغرب وجباله . بعد أن كان يقطع الطرق على الطريقة البدوية الشريفة : اللهم لنا وللمحتاجين !

أما الدافع به من ركن داره إلى الطرق السلطانية يقطعها على رعايا السلطان فهو أنه فى تلك الأيام من شبابه المتأخر جاءته امرأة تشكو رجالا سرقوا بيتها وقتلوا زوجها وولدها . فجاشت فى صدره الحمية ، فدعا بعض صحبه الشبان للجهاد فى سبيل تلك المرأة المنكوبة بنكبات ثلاث ، فلبوا الدعوة مهللين مكبرين . ثم أركبوا المنكوبة فرساً ، واندفعوا وإياها يبحثون

---

(١) فى هذا الفصل خلاصة أخبار وأحاديث مدونة وغير مدونة . أما الأولى فقد جاءت فى كتاب « سلطان الجبل » للكاتبة الإنكليزية المعروفة برحلاتها الأفريقية والعربية السيدة روزيتا فوربس التى زارت الشريف الريسونى فى مقره بتزروت ، بعد أن سكنت حركاته وأقامت فى ضيافته بضعة عشر يوماً تدون أخباره وأحاديثه قدر ما كانت تفهم من لهجته المغربية . وأما غير المدونة فهى التى جمعها الكاتب من شتى المصادر المغربية والإسبانية . فهى تكمل الرواية الإنكليزية فى بعض المواضع وتمحصها وتصححها فى بعضها الآخر .

عن اللصوص ، فأدركوهم فى إحدى الأودية وقتلوهم جميعاً . أما الغنيمة ، فقد أعطوا المرأة ما سرق من بيتها ، وأخذوا هم بغال اللصوص وسلاحهم .

ولكن المرأة لم تكتف بأن يرد إليها المسروق . بل دنت من جثة الرجل قاتل زوجها ، فقطعت رأسه بيدها ونبذته قصيًّا لتفصل روحه عن جسده فيكون ناقصاً يوم القيامة !

قال الشريف أحمد : تلك المرأة علمتنى أن الخير ليس فى الكتب ، بل فى ما يقوله بنى مصوَّر ، قبيلة أمى ، وهو أن المصوَّرى يولد فى السرج والبندقية بيده .

حصان وبندقية ، والسلام على سلطان الرعية !

والأمان والخير للمظلومين والفقراء . فقد كان الشريف أحمد أعرابيًّا قحًّا ، يطيب له الأخذ والإعطاء ، نهَّاباً وهاباً ، موزعاً لخير الله وعدله ، يدافع عن المظلومين ، ويساعد الفقراء ، ويظلم سواهم فى سبيله تعالى . فتطورت مهنته ، وصار يشن الغارات على القرى . فينهب الأموال ، ويؤدب الرجال ، ويفرض مشيئته ويوزع خيره على الناس .

فقال الناس : ما هذا بقاطع طرق . هذا قائد رجال — فارس فرسان . ورددتها القبائل ، فانضم تحت لوائه كثيرون من بنى عروس قبيلته وبنى مصور قبيلة أمه ، ومن أنجرَا وغيرها . فصار رئيس العصابة قائد جيش يشتهى الحرب .

وكانت أخبار الريسونى تصل إلى فاس فتزعج السلطان فى قصره فصبر وتحقق ، ثم أرسل عليه فرقة تلو فرقة من الجيش فحاربها وبدد شملها .

قال الشريف : كانت عساكر مولاى الحسن تتردد فى محاربتنا ، وتنذرنا فنفر هاربين . وكان بعضهم وهم فقراء جياع ، يبيعوننا السلاح والذخيرة « ذيالهم » . وعندما تقع الوقعة والتذبيح كان الريسونى ورجاله يلبسون أثواب من

يقتلون منهم (كما كان يفعل البدو فى الأحساء بالأتراك قبل أن أخرجهم منها ابن سعود) ويدخلون القرى فينهبونها باسم الحكومة المخزنية .

حصان وبندقية ، والسلام على سلطان الرعية .

ضجت البلاد من هذه الصولات والغزوات ، وعجزت عساكر المخزن عن القبض على الريسونى ، فعمد السلطان إلى الأسلوب الناعم يأمر به معتمده بطنجة . فأغرى المعتمد الريسونى بالوعود فجاء طنجة آمناً مطمئناً ، ونزل فى دار الاعتماد ضيفاً كريماً ، ثم أرسل مكبلا بالحديد إلى صوَيْرة ، حيث ذبحت الثلاث السنوات من حياته ، وذاق هو الشديد الشديد من العذاب . « ظل الحديد على رجلىّ ويدىّ وعلى عنقى والله ثلاث سنوات » .

فلا عجب إذا دخلت التوبة قلبه بعد أن خرج من ذلك السجن . ولا عجب إذا صار التقى التائب فقيهاً يعلم القرآن . إنما العجب لقداسة تفسدها السياسة ، أو لسياسة تفتح القداسة أبوابها !

كانت شؤون المغرب يومئذ فى اضطراب داخلى وخارجى . فالفرنسيون والمنافسون لهم يستغوون السلطان الشاب بالهدايا ، والقبائل فى الجبال تلبى دعوة ثائر باسم الدين يدعى « بوحمارة » (١) . فهاج هائج الريسونى وفى قلبه شعلة من الحب لبلاده . أيضلل الأجانب السلطان الولد ويخادعونه ابتغاء السيطرة على بلاده ؟ أيثور عليه شريف كاذب باسم الدين ، والريسونى المنحدر من السلالة النبوية ساكت قابع فى بيته ؟ إنها لمن المخجلات . إنها لمن المنكرات .

دعا الريسونى رجاله ، وشرع يؤلف جيشاً من القبائل ، ليقوم بثورة عامة على الحكومة المخزنية فيستأصل شأفة « الولى » الكاذب « بوحمارة » ويوقف الأجانب فى طغيانهم ، وما عتم أن باشر العمل ، بل عاد إلى سالف سيرته .

---

(١) راجع الفصل الأول من الجزء الأول .

خرج على السلطان دون أن يقلع عن قطع الطرق . وتفنن فى جولاته وصولاته ، فصار يخطف الرجال ذوى الوجاهة واليسر ، ويحفظهم رهائن إلى أن يدفع أهلهم الفدية المعينة من المال .

وكانت مطامحه تكبر وجسارته فى تحقيقها تزداد يوماً فيوماً ، حتى إنها شملت طنجة ، وكر السياسة الدولية . ودهاقينها القناصل . فقال يخاطب نفسه : هاهنا الفدية الكبرى — وهاهنا البوق بل الأبواق تذيع اسمك فى أوربا وأميركا فتلفت إليك وإلى قضيتك الدول كلها .

وقرر الريسونى أن يخطف قنصلا من القناصل وأن يخص بهذا الشرف قنصل الولايات الأميركية المتحدة إيون برديكاريس[1] .

كان للريسونى فى خطف القنصل الأمريكى وعائلته ثلاثة أغراض ، أولها الفدية ، وثانيها الأمل بتدخل الحكومة الأمريكية النزيهة فى شؤون المغرب فتدفع عنه تعدى الدول الأوربية ، وثالثها الدعاية للقضية الوطنية وحامل لوائها الشريف الريسونى .

ومن هو هذا الريسونى ؟ تساءلت الصحف والوزارات يوم حمل البرق إلى عواصم العالم اسمه واسم القنصل المخطوف . فجاءت الأجوبة تترى . هو لص من اللصوص — هو بطل من الأبطال — هو رئيس عصابة تقطع الطرق — هو زعيم نهضة وطنية — هو خارج على سلطان المغرب — هو ثائر على النصارى فى البلاد المغربية .

* * *

أحمد بن محمد بن عبد الله الريسونى الحسنى العلمى — نسبة إلى جبل العلم — هو من قبيلة بنى عروس ، ومن سلالة كبير أولياء المغرب عبد السلام الشريف ، الذى يمت إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

(١) راجع الفصل الأول من الجزء الأول .

ولد الشريف أحمد فى قرية زيْنَة تحت سقف من القش بكوخ مسيج بالصبير ، فى يوم مجهول وعام لا يعرف بالتحقيق . فقد يكون ١٢٧٠ هـ أو العام الذى قبله أو بعده ، سئل مرة عن عمره فقال : العرب لا يعدون السنين . ثم وجه السؤال إلى خادمه : كم عمرك يا مبارك ؟ فأجاب مبارك قائلا : قدر ما يريد سيدى . عشر سنين ، عشرين سنة ، ثلاثين . والله لا أدرى !

مما لا ريب فيه أن الريسونى ، يوم خرج من السجن بالصويرة ، كان قد جاوز الأربعين . ويوم خطف القنصل الأمريكى كان قد دخل فى العقد الخامس من عمره ، فلم تكن أعماله من نزق الشباب أو عنجهية البدو . ومما لا ريب فيه كذلك أنه من الأشراف ، وأن مناقب الشريف فى شخصيته وسجاياه .

وُلد الريسونى زعيماً وولد فارساً . اذكر ما يقوله بنو مصور قبيلة أمه . ولكن السرج والبندقية ، بعد أن كانا للغزو ، أصبحا للوطن . وأهل البوادى ، بعد أن كانوا لأنفسهم ، أصبحوا للريسونى .

وقد كان للشريف من غير البوادى ، ومن غير المال الذى جمعه بالطرق التى يبررها « السرج والبندقية » ومن غير الشخصية الفذّة شخصيته ، قد كان له قوة رابعة هى فى الزعامة السياسية الدينية حليفته الأولى . قلت إنه من السلالة النبوية . فإن كان هناك ، ما يشوب النسب الشريف ، قولا أو عملا أو تاريخاً ، فليس هناك ما يشوب إيمان صاحبه . وبعد إيمانه بالله ورسوله كان الشريف أحمد مؤمناً بما يُسمى فى المغرب البركة .

البركة فى بيت الشريف هى من الخوارق التى يأذن بها الله . بل هى القوة الإلهية التى تدفع عنه الشر والأذى وتحمل الناس على طاعته ، فيقاتلون مستبسلين فى سبيله .

كان الشريف أحمد يقول : إذا قلت لرجل اذهب إلى مكة أو إلى مصر

فهو يلبس برنسه حالا دون أن يسأل سؤالا ويذهب باسم الله . . . أذكر أن والدى غضب يوماً على أحد عبيده فأمره أن يذهب ويقول لإخوانه العبيد إن الشريف يأمرهم بضربه بالسياط . التقيت بالعبد خارجاً من البيت فسألته : إلى أين أنت ذاهب فأجاب : لأضرب بالسياط — فقلت : وما ذنبك ؟ فقال : لا أدرى . الشريف يدرى .

ويوم خلع ضرساً من أضراسه ورماه تهافت عليه عبيده وكسروه ، فأخذ كل منهم قطعة منه بركة يتبركون بها .

وقد تظهر البركة فى عمل من أعمال صاحبها أو فى مجرد إرادته . مرَّ الشريف أحمد برجل مستلق تحت زيتونة فلم يسلم . فسأله الشريف : لماذا لم تسلم ؟ فأجاب الرجل : الشمس بعينى فما رأيت سيدى ؟ فقال الشريف : أنت لا تستعمل نظرك فلا حاجة لك به . حلَّت البركة فى الإرادة الشريفية ، ونفذت الإرادة فى الرجل ، ففقد نظره .

بمثل هذه الخوارق كانت تتعزز شخصيته ، وتستقيم أغراضه ، فتنقاد إليه القبائل وتستبسل فى سبيله ، وهو فى نظرها وإيمانها سبيل الله والمغرب .

وقد كان الريسونى يشرف اليهود بشىء من « البركة » عند ما تفرغ يده من المال وتسد أمامه السبل الأخرى إليه . قيل له مرة : ثلاثة لا يقاتلهم العرب : النساء والحلاقين واليهود . فقال : ولكن المال عند اليهود فكيف نأخذه منهم إن لم نروعهم فى الأقل .

لم يكن الريسونى محبًّا للمال ، ولا كان يرى نفعه فى غير السياسة . فيأخذه من أهل الرهائن مثلا ويوزعه على رجال القبيلة الموالية له ، أو الموشكة على الولاء .

جاء رسول السلطان إلى الريسونى ، وهو فى الجبل يحكم بأمره ، فعرض عليه الأمان لقاء الطاعة والإخلاص للعرش . فقال له : لا نيتك ولا نية عبدالعزيز

تخفى علىّ . سأغتنى بواسطتك . فقال الرسول : وهل تظن أن مولاى عبد العزيز يعزنى كثيراً فيدفع المال فديتى ؟ فقال الريسونى : غيره يدفع . وسترى . ثم أرسل يخبر كبار القبيلة أن عنده بضاعة للبيع ، فجاءوا يشترون . فتقدم لهم الرسول ، وقد كانوا يعرفونه ، فقطعوا رأسه فى الحال وهو ينظر إليهم .

تكررت مساعى الصلح ، بالرغم من قتل الرسول الأول ، وما أفلحت إلا فى تعيينه معتمداً فى طنجة للسلطان عبد العزيز . طنجة مهد الفتن والفساد والفوضى . طنجة عش الدسائس الأوربية والمناورات الدولية ، والسياسات الاستعمارية . وما كانت الضواحى والطريق منها إلى تطوان ترتع بالأمن والسكينة . وكان معتمد الحكومة المخزنية ينفض يده من كل تبعة . فلا قوة تعيد الأمن إلى نصابه ، ولا قوة لتحمى حتى من يخرج من الأوربيين للصيد فى ضواحى المدينة .

وكان المغربى العربى إذا أثرى ، وطمع بقصر يبنيه لنفسه ، يستهدف السلطة المحلية فينتقل من الغبطة إلى الشبهات ، فالتهم ، فالسجن . ولا أذن تسمع ، ولا عين ترى . وكان المزارع يبيع ثمار بستانه فيضطر الشارى نفسه أن يحرس البستان من اللصوص .

وبكلمة وجيزة شاملة كانت الأحوال تنذر بتفكك الملك ، وبذهاب السيادة الشريفية من المغرب الأقصى . وكانت الدول الأوربية تتآمر على ذلك المغرب ، كما كانت تتآمر على الدولة العثمانية وتستعد لتقسيمها . ولقد تم التقسيم لجزء كبير منها ، فخلص مصطفى كمال البقية الباقية ، وأنشأ منها دولة جديدة .

أبمثل هذا كان يطمع الريسونى ؟ لست ممن يعتقدون ذلك . فى كل حال لا فائدة ترجى اليوم من البحث فى غوامض المسألة . حسبنا سرد الحوادث .

لقد كانت طنجة كما وصفت ، وهى لا تزال فى حكم السلطان شرعاً وعملا ،

يوم باشر الريسونى حكمه فحكم باسم المولى عبد العزيز ، وما عتم أن أعاد الأمن والنظام إلى المدينة وضواحيها . ثم شرع ينظف الطريق بين طنجة وتطوان . ومن ذا الذى يحسن مثله هذا العمل ؟ هو زعيم قاطعى الطرق يعرف كيف يقطع رؤوس قاطعيها فى عهده . حكم الباشا الريسونى بيد من حديد وبقلب من جلمود الصخر . فقد كان المظلوم فى أيام أسلافه يجىء الباشا شاكياً ، فيرسله إلى أحد أعوانه ينظر فى أمره . فيقول ذلك المظلوم : وما هذا الباشا ؟ فهو لا يقتل ولا يرتشى — ولا عبيد لديه يحملون السياط . فجاء الريسونى يصلح الباشاوية مبدأ وعملا . جاء بالسيف والسياط ، وبالضمير الذى له عين وفكر ، وليس له قلب وعاطفة . فكان الناس يرون كل يوم رأساً معلقاً فى السوق . فصاح الأوربيون قائلين : هذه فظاعة . فقال الريسونى : هذا عدلنا . فراحوا يحتجون إلى قناصلهم ، واحتج القناصل إلى دولهم ، واحتجت الدول إلى السلطان بفاس . فأرسل السلطان قوة عسكرية إلى طنجة لتجىء بالريسونى إليه . فقابله الريسونى بوجهه المقنع للإرهاب . فقال القائد : لا أريد محاربتكم . ولكنى أسألكم لو اقتتلنا فكم من رجالى يقتلون وكم من رجالك ؟

فأجابه الريسونى قائلا : قد نقتل مائة من رجالكم وتقتلون خمسين منا .

فقال القائد : وبكم تشترون حياتهم ؟

فابتسم الريسونى ابتسامة هزلية لاحت كالبرق تحت جبينه المدلهم . ثم اتفق والقائد على الفدية أو الجزية أو الرشوة ، فدفعها ، وبقى فى طنجة يحكم بأمره ولا يغير من عدله .

وعلمت القبائل بما كان من أمر ذلك القائد . فقال كبارها وصغارها إن الريسونى أقوى من السلطان الشاب ، وإن ذلك السلطان بيد الفرنجة الطامعين ببلادهم ، وبيد وزرائه الخونة . فهاج هائجهم على الأجانب الفرنجة وعلى الحكومة المخزنية . فقتلوا فرنسيًّا فى أنجرا ، وسجنوا إسبانيين فى قبيلة أخرى

وضربوا وسلبوا المسيحيين فى الدار البيضاء ، وهجموا على أصيلة فنهبوا وخطفوا حاكمها .

سارع الريسونى إلى أصيلة بقوة من رجاله ، فدخل المدينة باسم المولى عبد العزيز ، وأعاد إليها الأمن والنظام — والحكم السلطانى .

فهل أرضى السلطان ؟ وهل أسكت الدول ؟ لا هذا ولا ذاك ، فقد عقد القناصل اجتماعاً وقرروا الاحتجاج الشديد على الريسونى ، وحكمه ، مدعين أنه يريد أن ينفذ « عدله الفظيع » حتى فى الأوربيين .

وكانت الدول يومئذ فى صراع سياسى بخصوص المغرب ، ولا سيما طنجة ، فزار الإمبراطور غليوم تلك المدينة زيارة عاصفة ، وتقرر بعد ذلك عقد مؤتمر الجزيرة ، وعزل الريسونى من منصبه . ومن العازل ؟ السياسة تقول : السلطان . والحقيقة تقول : الدول .

* * *

كان مؤتمر الجزيرة معقوداً يوم عاد الريسونى ، فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ، إلى بيته بزَيْنَة . ويوم كانت المدرعات الأوربية ، بعد بضعة أشهر ، فى ميناء طنجة ، لتنفيذ ما قرره المؤتمر ، كان الريسونى قد حشد جيشاً من القبائل ، وجدد الثورة على سلطان المغرب باسم الوطن الذى بدأت تعمل فيه عوامل الاستعمار الأوربى . فهذه طنجة تخرج من حوزة السلاطين ، وتنذر البلاد بالتقسيم والخراب .

قامت الحرب . ووقعت الوقعة الأولى بين رجال الريسونى وعساكر المخزن فى زينة نفسها . فقتل القائد المخزنى ، وتقهقرت رجاله تحت وابل من رصاص البوادى . على أنهم عادوا فى اليوم التالى بنجدة فيها مدفعى جزائرى من الجيش الفرنسى ، فكانت طلقات المدفع هذه المرة تصيب الأهداف ، فانهزم الريسونى ورجاله وشُغل العسكر عنهم بالقرية فنهبوها ، وأضرموا فيها النار .

كانت تلك الهزيمة بداية حرب عوان دامت سنتين . وقد حاول جنود السلطان ورسل سره القبض على الريسونى حرباً أو سلماً ، بأية وسيلة كانت فلم يفلحوا .

— نريد رأس الريسونى .

— سأجيئكم بقلبه — طائعاً موالياً .

— الريسونى لا قلب له .

— القلب عندى إذا أذنتم بالمفاوضة .

فأذن السلطان عبد العزيز للسير هنرى مكلين ، نديمه ومعلم جيشه ، أن يقابل الريسونى ، فكتب السر هنرى إليه يفصح عن رغبته فى الاجتماع به ويسأله أن يضرب له موعداً ، ففعل .

وقد اجتمعا فى مكان خارج طنجة . فتعهد مكلين للشريف بالأمان والسلام إذا هو رافقه إلى فاس لمقابلة السلطان .

كان الريسونى يحترم مكلين ولا يشك فى حسن نيته . ولكنه كان يخشى الخيانة والغدر ، وهو لا يزال يذكر الصويرة ويذكر سجنها والحديد . لذلك رفض طلب مكلين وزوده بطلب منه . فهو يعيد النظر فى الأمر إذا جاءه بخط من السلطان يؤمنه على حياته .

عاد مكلين إلى فاس ، وما لبث أن كتب ثانية إلى الريسونى يقول إنه موفق فى مهمته ، وسيعود قريباً إليه .

فقد أجاب السلطان عبد العزيز طلبه ، لا بخط واحد بل بخطين ، الأول إلى الشريف يحمل الأمان والاطمئنان ، ومعهما الوعد بأن يعيد إليه أملاكه المحجوزة ويعينه فى منصب عال ، فى غير طنجة لأنها خرجت من يده .

والخط الثانى إلى قائد جيشه فى جبال بنى عروس يخبره بما كتب إلى الشريف ، ويأمره بأن يزوره مجاملا مهنئاً . وللكتاب حاشية تقول : خذه

بالحسنى ، وابذل الجهد فى إقناعه ليقابل مكلين فيقبض عليه ويجىء به إلينا .

هى البركة ، تلزم الشريف فى القريب من أمره والبعيد . فقد نزلت بفاس ، فى القصر ، فى مكتب القصر ، فحالت بين الكاتب وبصره ، فوضع كتاب الريسونى فى غلاف القائد وكتاب القائد فى الغلاف المعنون باسم الريسونى[1] .

وجاء مكلين يحمل إلى الريسونى كتابه ، وهو لا يدرى بما دبره السلطان وأفسده الكاتب . ولكن الريسونى كظم ما عراه من الدهشة والاشمئزاز بعد أن فض الكتاب وقرأه . ثم قال لمكلين : سأعطيك الجواب بعد أن أستشير أخى ، هو فى خيمته مريض فلم يتمكن من الحضور لمقابلتكم . سأرسل كلمة إليه .

قال ذلك وخرج من الخيمة فأمر أحد رجاله المرافقين له أن يسارع إلى المضارب ويأمرهم بالشد للرحيل . ثم عاد إلى مكلين يقول : أتريد أن ترافقنى إلى خيمته ؟

ما شك مكلين فى صدق الريسونى ، فركب معه وسارا يتبعهما الخدم والمرافقون ، إلى تلك الخيمة . وأين هى ؟ لقد طال الطريق ، فطمأنه الريسونى قائلا : وصلنا ، وصلنا .

وصلوا إلى الخيمة — إلى الخيام — فرأى الضابط الإنجليزى نفسه فى معسكر الريسونى محاطاً بالجنود فقال إذ ذاك الشريف : هذا جوابى .

فأعطاه كتاب السلطان فقرأه وهو يجحظ ويقطب من شدة الدهش والغيظ . وقد أقسم بشرفه أنه جاهل كل الجهل تدبير السلطان وقصده . ثم قال : حقكم أن تأسرونى .

---

(١) مثل هذا حدث فى مكتب الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت يوم كانت الحرب قائمة بين ابن سعود وابن الرشيد ، وكان الشيخ مبارك محايداً يريد الشر للاثنين .

فقال الشريف : لست بأسير ، لا والله . أنت ضيفنا إلى أن تشاء حكومة بريطانيا أن تعود إلى بلادك .

ومشوا جميعاً فى موكب مهيب إلى زَينة .

وفى اليوم التالى اهتزت أسلاك البرق اهتزازاً عنيفاً بين لندن وفاس ، ولندن وطنجة ، وتعددت الرسل بعد ذلك بين طنجة وتلك القرية الصغيرة فى الجبل .

غضب الإنكليز ولا عجب ، وارتاع السلطان الشاب ، وضحك الريسونى ، وما كان مكلين على شىء كبير من الهم . بل كان وخادمه يتمتعان بكل أسباب الضيافة التى يستطيع بذلها وتسخيرها الشريف المضياف .

وكان الشريف الآسر يصارح أسيره فى ما يبتغى من دولته .

— الحكومة البريطانية غنية ، يا مكلين . ونحن اليوم فى حاجة إلى المال . . . أتريد أن تخرج للصيد ؟

— ما رأيك ، يا مكلين ، فى قيمة الفدية ؟ أيجب أن تكون أقل من أربعين ألف ليرة ؟ . . . اليوم جميل للنزهة . تفضلوا ، نتريض قليلا .

— كثيرة ؟ أتقول القيمة كثيرة ؟ مقامك ، يا مكلين ، رفيع فى نظرنا . والحكومة البريطانية عظيمة غنية . قل ثلاثين ألفاً . . . هذه أحسن بندقية عندنا للصيد هى إنكليزية .

— لا والله ، القيمة تحددت . اكتب إلى حكومتك أن الريسونى لا يقبل أقل من خمسة وعشرين ألف ليرة ذهباً .

استمرت المفاوضات ، وكتب مكلين بعد التردد إلى حكومته ، فطلبت من الحكومة المغربية قيمة الفدية . على السلطان أن يدفع . كذلك قالت حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وأصرت ، بل هددت وأنذرت فأذعن السلطان ، على شرط أن يدفع عشرة آلاف ليرة نقداً والباقى نسيئة .

قال الريسونى لضيفه الأسير : وهل يدفع السلاطين ديونهم إلا بعد أن

ترى المدرعات فى ثغور البلاد ؟ وأين مدرعاتى ؟ لا بأس . عندى البركة .

فقال مكلين : وخير لكم أن تكونوا دائنى السلطان من أن تكونوا من المدينين له .

الريسونى : وأىّ المصيبتين أشد ؟

مكلين : كل شىء نسبى ، غير أن الله معكم . خذوا وطالبوا . هى قاعدة الزمان السياسية .

وقد أخذ الريسونى عشرة آلاف ليرة ذهباً من السفير البريطانى فى طنجة ، دفعها السلطان عبد العزيز . ثم طلب من السفير الحماية الإنكليزية ، فرفع طلبه إلى الحكومة بلندن ، فقبلت بذلك ، وأصبح الريسونى من رعايا صاحب الجلالة البريطانية . هى السياسة الأوربية فى المغرب ، بعجرها وبجرها .

ومن عجيب الاتفاق ، فى ما يتعلق بهذه الشاردة من سيرة الريسونى ، أن يلتقى هذا الكاتب بالرجل الذى كان خادماً للسر هنرى مكلين فى تلك الأيام .

كنت أطوف والدليل فى إحدى كنائس أشبيلية ، فقلت : لهجتك الإنكليزية ليست لهجة إسبانى . فسُر بذلك ، واندفع يتكلم بلهجة ، زاهية ، فقال : أنا لست من إسبانيا . أنا من جبل طارق . اسمى جوزيف غريرو (Guerrero) كنت خادم مكلين يوم أسره الرسولى (باللام بدل النون ، وبدون الياء الأولى ، كما كانت تلفظ فى أوربا وأميركا فى تلك الأيام) الرسولى — لا أزال أتصور وجهه المخيف ونفسه الكريمة . ولا أزال أذكر أيام ذلك الأسر . ليس فى حياتى كلها أطيب منها .

* * *

لم يكن الريسونى عدو الأجانب ظاهراً ، بل عدو السلطان الضعيف الرأى والوطنية المنقاد إلى الأجانب . فقد شق عليه أن يرى العرش العلوى

متداعياً وأن تكون اليد الهادمة يداً علوية من سلالة إسماعيل الكبير . فأراد أن يصون ذلك العرش لنفسه . أو لمن يعززه من السلالة الحاكمة . لذلك لم يحمل على الأجانب ، ولا كان فى بداية أمره يخشاهم . على أنه لم يدرك ما للحوادث من عوامل التطور والانقلاب فى الدول والرجال .

فقد ازدادت أحوال المغرب اضطراباً بعد مؤتمر الجزيرة . ولكن الريسونى ، خلال الحرب التى قامت بين الأخوين عبد العزيز وعبد الحفيظ ، وبعد أن شبت نيران الثورة على الإسبان فى الريف ، كان معتكفاً فى بيته . وعند ما انهزم السلطان عبد العزيز ونصب مكانه عبد الحفيظ ، قصد الريسونى فاس مهنئاً السلطان الجديد . وأملا بالتفاهم والتعاون فى سبيل البلاد والملك . فأكرمه السلطان ، عبد الحفيظ . وأفضى إليه ببعض ما كان يقلق نفسه ويشغل باله .

— النصارى يطمعون ببلادنا ، ويسعون للاستيلاء عليها . فيجب أن نتعاون على الدفاع عنها .

— والله لو قال سلفكم هذا القول وكان مخلصاً للوطن ، لما حاربته ، لا والله . ولو عاد للجهاد لكنت أول من لبى الدعوة .

وقد تحدثا فى بعض الشؤون الفرعية ، فوعده السلطان بباشاوية أصيلة بشرطين . أن يتخلى عن الحماية الإنكليزية ، وألاّ يطالب بالباقى من المال فدية مكلين . فقبل الريسونى بذلك .

ثم استدعاه قبل أن غادر فاس ، واستقبله فى الخلوة (المخلوان) ، فكرر ما قاله فى التعاون ، وجاء بالقرآن فسأله أن يقسم اليمين أنه سيخلص له الولاء ويساعد ما دام حيًّا فى دفع الأخطار عن المغرب ، فقبّل الريسونى الكتاب ، وأقسم الاثنان اليمين المغلظة على التحالف والتعاون فى الدفاع عن البلاد ، والمحافظة على وحدتها العربية الإسلامية .

وبعد ذلك باح السلطان عبد الحفيظ بسر من أسرار الدولة قال : نحن فى حاجة إلى المال — الخزينة فارغة والله .

فوعده الريسونى بالمساعدة وبر بوعوده بعد عودته من فاس ، فأرسل إليه ثلاثمئة ألف دورو (نحو ثلاثين ألف ليرة ذهباً) جمعها من القبائل .

انجلى الجو للمولى عبد الحفيظ فى بداية عهده ، بعد أن قمع ثورة القبائل وقبض على زعيمها بو حماره [1] وقد رأى من مصلحته كما رأى الفرنسيون أن من مصلحتهم يومئذ ، أن تُمدّ ثورة الريف على الإسبان بالمساعدات الحربية . فكان ذلك . وقد انهزم الجيش الإسبانى شر انهزام فى وقعة « سيدى موسى » وانقسم البرلمان بمدريد فى قضية المغرب ، فاشتدت المعارضة على الحكومة . ولكنها قررت المضىّ فى الحرب إلى أن يتم الاحتلال .

وكانت المنافسات بين الفرنسيين والإسبان مستمرة ، تسكن ريحها حيناً ، وحيناً تعصف ، عملا بتطور العنصر الألمانى فى قضية المغرب . ولم تكن سياسة الفرنسيين المغربية فى عزلة عن ذلك التطور . بل كانت تتأثر دوماً به ، فتُشجع السلطان على مقاومة الإسبان تارة ، وطوراً تنصح بالتفاهم والولاء . نحن وإياك والإسبان على الألمان ، أو نحن وإياك ، فى حال السكون الألمانى ، على الإسبان . ولا يعوزنى المثل أعطيكه فى القاعدتين . فقد ساعد السلطان ثوار الريف على الإسبان ، وقد عقد اتفاقاً والحكومة الإسبانية على احتلالها المنطقة الشمالية فى السنة التالية . فهل تستوى اليمين والمعاهدات فى زماننا ؟ قال الريسونى بعدئذ — يوم تسالم والإسبان — قد حنث السلطان بيمينه فجعلنى فى حل من يمينى .

كان الريسونى فى تلك الأثناء قد تعين باشا أصيلة . وبما أن بعض البوادى

---

(١) راجع الفصل الأول من الجزء الأول .

من عرب وبربر ظلوا يذكرون قاطع الطرق المشهور معجبين به ، فقد طفقوا يتشبهون به ، وتمادوا فى الشقاوة فصار كل زعيم ريسونيًّا ، وكثرت العصابات فكثر خطف الناس طمعاً بالفديات ، فرأى الباشا الريسونى أن يعود إلى عدله الفريد الذى وصفه أوربيو طنجة بالفظاعة .

فالعرب ينسون . كما كان يقول ، وإن لم ينسوا فهم لا يصدقون غير ما تراه عيونهم . يجب أن يجسم العدل إذن فى رأس يعلق فى السوق وفى سجن يثقل حديده على أعناق الأشقياء ، ولا يدخله نور أو هواء .

إنها لفظاعة ، ولكنها فى نظر حاكم مثل الريسونى مبررة بما كان يرتكبه أولئك الأشقياء . وهاك مثالا من فظائعهم . جاءه ذات يوم قنصل إسبانيا فى العرائش ، مكفهر الوجه ، مضطرب الأعصاب ، يشكو زعيما من بنى عروس خطف رجلا وولديه من المغاربة المشمولين بالحماية الإسبانية[1] وسلب مالهم وحبسهم رهائن فى بيته ، بفدية قيمتها ثلاثون ألف ريال ، تدفع فى يوم معين . وبما أنها لم تدفع فى ذلك اليوم قتل الشقى رهائنه الثلاثة ، وعلق رؤوسهم على رمح تحت راية القبيلة ، فحمل رجاله الرمح وطافوا به يدعون الناس للعصيان . فهل يجوز أن يعاملوا بعدل غير عدل الريسونى ؟

ولكن عدله لم يكن ذا عين واحدة . فقد كان له عين أخرى ترى فى السياسة القصاص الذى هو أبلغ من قط الرؤوس .

كان الجيش الفرنسى فى تلك السنة (١٩١١) قد دخل البلاد واحتل مركزاً بالغرب من القصر الكبير . وكان الإسبان يتأهبون لاحتلال المنطقة الشمالية بموجب الاتفاق الذى عقدوه والمولى عبد الحفيظ . فوصل إلى ميناء

---

(١) كل مغربى طامع بالفرار من العدل فى تلك الأيام – أو من الظلم – كان يلجأ إلى دولة أجنبية طالباً حمايتها . وكانت الدول تمنح الطالب حقوق الرعوية لأغراضها السياسية فى المغرب .

العرائش فى شهر يوليو مركبان يقلان جنود الجنرال سِلڤِستَر (Silvestre)، جنود الاحتلال !

وفى اليوم التالى حدثت فتنة فى القصر الكبير ضد الأجانب ومنهم المغاربة المتمتعين بحماية إسبانية ، فشكا هؤلاء أمرهم إلى القنصل الإسبانى فرفع الشكوى إلى الريسونى . الفرنسيون بجوار القصر الكبير والإسبان على أبواب العرائش ، وقد كان الريسونى يخشى الفرنسيين ولا يخشى الإسبان . بل كان يقول : الإسبان يستطيعون أن يحمونا ولا يستطيعون أن يظلموا . فهل يستعين بهم الآن على الفرنسيين؟ هى الفرصة التى اغتنمها ليرضى القنصل ورعاياه .

— سنساعد الجنرال سلڤستر لينزل جنوده فى العرائش .

ونزلت الجنود فى الليل ، فاستقبلهم الأهالى ساكنين واجمين . ولكنها إرادة الريسونى . والخير فى تحقيق مقاصده إن شاء الله .

كلمة رددها الناس إلا اليهود منهم . ولا عجب ، فالريسونى ميزهم عن الناس بما يجوز لهم وما لا يجوز . لا يجوز ليهودى أن يجلس فى حضرة عالم . . . يجب على اليهودى أن يخلع نعله إذا مر فى سوق فيها مسجد (١) . . . فهل يلامون إذا هم استقبلوا جنود سلڤستر تلك الليلة بالمشاعل ينيرون طريقهم إلى المدينة ؟

الجنرال سلڤستر رسول القدر إلى الريسونى ، وصاحب عدل تأبط ميزانه وحمل الريسونى سيفه . صاحب عدل ذى وجهين ، يقذف به القدر إلى بلاد لا تعرف غير العدل الواحد .

كان الاجتماع الأول فى أصيلة . فقال الريسونى : نساعدكم إذا واليتمونا وأخلصتم لنا . وكتب الجنرال إلى حكومته يقول إن الريسونى مخلص للإسبان .

---

(١) كان الريسونى مع ذلك أرفق باليهود من أسلافه حكام المغرب ، الذين كانوا يوجبون على اليهودى أن يخلع نعله ليس فقط فى سوق بها مسجد ، بل أمام بيت القاضى أيضاً والقائد . وكان يجبر فى مدينة فاس أن يمشى حافياً .

ولكن الفرنسيين يحاولون اجتذابه إليهم . فيجب أن نسرع فى العمل مستعينين به ما دام موالياً لنا . فقد ينقلب غداً علينا .

وقال الريسونى فى سلڤستر بعد الاجتماع الأول إنه شجاع ولكنه يتمنى لو كان فى غير المغرب ، فلا مكان لأسدين فى غابة واحدة .

وما عتم أن وقع الخلاف فالعداء بين الأسدين .

لقد ظن سلڤستر أن الريسونى يساعده فى مطاردة الفرنسيين . ولكن الريسونى بعد أن تأكد أن الفرنسيين لا يطمعون بالمنطقة الشمالية ، وبعد أن أراح ضميره من اليمين التى حنث بها المولى عبد الحفيظ ، اعتصم بحبل السياسة الحيادية فترك الفرنسيين وشأنهم فى الجنوب ، واستقل هو فى المنطقة الشمالية .

استقل مبدئيًّا واستقل عملا إلا فى بعض المواقف الحرجة . فعند ما أراد سلڤستر أن يرسل إلى أصيلة ضابطاً لمراقبة الجمارك ، رفض الريسونى قائلا : إنى ممثل مولاى عبد الحفيظ ، لا ممثل سلڤستر .

بعد ذلك سعى سلڤستر للتقرب من القبائل بتخفيض الضرائب ، فيثيرهم على الريسونى . وقد كتب إلى حكومته بمدريد أن القبائل غير راضية بحكمه . بل اتهمته بابتزاز الأموال منهم ليبنى قصره . وأنه ظالم قاس ، وفوق ذلك جشع بخيل . فرد الريسونى على هذه التهم بقوله : أنا آخذ وأعطى ، وغيرى يأخذ ويمشى .

ومن أعمال سلڤستر المعادية أنه كان يغرى باشا القصر الكبير بالمال ويوغره على الريسونى ، فاستدعاه مرة إلى أصيلة فحال سلڤستر دون مجيئه .

ومع كل ذلك فقد كان سلڤستر يزور الريسونى مجاملا مدارياً — ويظهر الثقة به فى بعض الأحايين دون أن يفهم مقاصده . فقد كان لا يرغب فى الإسبان بأصيلة ، إلا بما يبرر وجودهم فيها ، حتى لا يقول المسلمون إنه انقاد إلى النصارى أو تساهل معهم . وفى هذا ما يفقده النفوذ الذى كان أساس حكمه وعدله .

أسدان فى غابة واحدة وبطبعين متناقضين — الإسبانى لجوج غضوب

والعربى هادئ طويل الأناة . وما كان الأول ليتعلم شيئاً من الصبر والتؤدة اللذين اتصف بهما الثانى . وقد كان إلى ذلك متقلباً ، يوماً يمدح الشريف فى رسائله إلى حكومته ، ويوماً يطعن فيه — وفى هذا الاضطراب من حاله كان يرى من الواجب أن يتفق والشريف الطامع بالسلطة والاستقلال . فوعده بأن يسعى لدى الحكومة ، يوم عاد إلى مدريد ، لتحقيق بعض آماله ، فبر بوعوده . ولكن الحكومة سوفت ثم رفضت ، خشية أن تتهم بالضعف وهى يومئذ ترسل جيوشها إلى الناحية الشرقية لقمع الثورة التى كان يضرم نارها المجاهد الريفى أمزيان .

وفى أبريل من تلك السنة (١٩١٢) عقدت معاهدة الحماية بين الفرنسيين والسلطان عبد الحفيظ ، فثار أهل فاس عليه وعلى الحكومة المخزنية ، فرأى سلفستر أن يستمر فى تعليل الريسونى بالوعود ليتعاون وإياه على حفظ الأمن والنظام فى المنطقة الشمالية فلا تمتد الثورة إليها . فأخلص الريسونى فى ذلك التعاون ، وما رأى من نتائجه ما يحقق شيئاً من آماله الوطنية .

فقد كانت الحكومة الإسبانية متذبذبة متقلبة فى سياستها المغربية . فيجىء إلى الريسونى من الإسبان من يقول له : لا قوة لإسبانيا إلا فى الجيش ، فاتكل على الحزب العسكرى لأنه والملك واحد . ويجيئه آخر يقول : لا تصغ إلى العسكريين فلا نفوذ لهم فى الحكومة أو فى السياسة ، ولكن الريسونى كان يسلك مسلك المتحايد ، فلا يهتم لشؤون إسبانيا الداخلية ، ولا يقطع صلته بحزب من الأحزاب ، فنفعته هذه الخطة فى الحرب ، وأطرته فى أيام السلم .

ذلك لأن الحكومة ، فى فترات الخير ، كانت تعود إلى المماطلة والتسويف ، ففقد المغاربة ثقتهم بها ، وبالشريف المتكل عليها . هو ذا الخطر الذى بدت غيومه السوداء فى الأفق المغربى الإسبانى . لقد كان فى إمكان الريسونى أن يخدم الإسبان ، لو بقيت القبائل كلها بيده . ولكن الإسبان فى سياستهم مع الشريف أحدثوا فى تلك القبائل شقاقاً ظنوه من مصلحتهم ، فمضوا فيه مستبشرين . مالت

قبيلة بنى عروس إليهم ، وبقيت بنى مصور مع الشريف ، فضعفت القوتان وما انتفع الإسبان بذلك الشقاق .

اختل الأمن فى البلاد فزاد الريسونى فى عدله قساوة ، وما عدل دائماً فى قساوته ، فكان يكثر من سجن أعدائه لأسباب حزبية ، فغص سجن أصيلة بالسجناء ، وكان يقيد الثلاثة أو الأربعة منهم بالسلسلة الواحدة من الحديد الثقيل . هذا عدا ماكانوا يقاسون من الجوع والقذارة والروائح الخانقة والضرب بالسياط .

ضجت القبائل ، وتعددت الشكاوى إلى الجنرال سلفستر . فجاء ذات يوم إلى أصيلة محققاً . فطلب أن يرى ذلك السجن ، فرفض الريسونى طلبه ، فأصر سلفستر ، فسخط الشريف سخط العادل المتيقن صحة عدله ، فتناقش الاثنان مناقشة حق تأججت ناره ، فتطاير منها شرر الحنق والضغينة .

— أنتم لا تطعمون السجناء .

— وهل يجب على الحكومة أن تطعم المجرمين ؟ أهلهم يطعمونهم .

— أنتم تأمرون بالتعذيب و بالضرب بالسياط .

— وهل تكرم الحكومة من يسيئون إليها ؟ هؤلاء وحوش . وأنتم الأوربيون لا تفهمون عدلنا . فلو اقتديت بكم وعملت بما تسمونه عدلا لكنت ترى اللصوص والقتلة والأشقياء فى كل طريق وكل مكان ... أتريد أن ترى السجن؟ هيا بنا .

مشى و إياه إلى السجن فى ناحية من القصر ، ففتح السجان الباب ، فإذا هناك نحو مائة سجين فى غرفة صغيرة مظلمة ، فاحت منها الروائح المنتنة الخانقة ، وعلت الأصوات والأنات ، تتخللها صلصلة السلاسل والقيود . فرفع الجنرال سلفستر يده إلى وجهه ، و رجع أدراجه وهو يقول : شىء فظيع ، شىء وحشى ! ثم طلب أن يُحضر بعض أولئك السجناء أمامه ، فجىء بثلاثة فسألهم

ما ذنوبهم فكان جواب كل منهم أنه برىء . ما صدق سلڤستر ادعاءهم ، ولكنه استفظع القصاص ، وطلب من الريسونى طلباً جحظت له عيناه .

سلڤستر : يجب أن تطلق سراح السجناء كلهم .

الريسونى محدقاً نظره إليه : أنا الحاكم هنا .

وتتابعت بعد ذلك الحوادث المنذرة بالإعصار .

أرسل الريسونى رسله إلى القبائل الموالية له يقول إن الحرب قائمة بينه وبين الإسبان فليستعدوا .

وكتب سلڤستر إلى حكومته يخبر بما شاهد بعينه من فظائع الريسونى .

ورفع الريسونى الأمر إلى الحكومة الإسبانية بواسطة السفير الإسبانى فى طنجة فزاد ذلك فى سخط سلڤستر وحقده .

وعندما قبلت حكومة مدريد بأن يفاوضها الريسونى مباشرة قدم سلڤستر استقالته فرفضت .

ثم قررت الخطة التى تثبت قدمها فى البلاد ، منها أن يكون لجيش الريسونى ضباط من الإسبان ، وأن يعين له مراقب إسبانى .

ففضل الريسونى الخروج من أصيلة على أن يبقى فيها تحت أمر الأجانب . عاد إلى زينة . ولكنه ، وهو يعد العدة للحرب استمر يعالج الأمر بالسياسة . فتفجرت القبائل وأرسلت إليه تقول : سلاحنا أكله الصدأ وأيدينا ملت الانتظار .

حقيقة الأمر هى أن الريسونى لم يكن يرغب فى محاربة الإسبان . ولكنه كان يقول : سأحارب سلڤستر إذا هو سطا على .

وقد استمرت الحكومة الإسبانية فى استرضائه ، فقررت أن يعقد مؤتمر فى طنجة لحسم الخلاف وتقرير المصير . فعقد ذلك المؤتمر برياسة سفير إسبانيا وحضره قنصل العرائش السنيور زوغستى (Zuqasti) الذى كان يقول فيه الريسونى إنه أفضل من عرف من رجالات الإسبان .

. . . وكانت الكلمة لسلڤستر ، فاتهم الريسونى بأنه نكث عهده .

الريسونى : لو جاءت هذه الكلمة من أحد أبناء القبائل لما عاش بعدها . أما منك فلا بأس . أنا وإياك الآن تحت سقف واحد أخوان .

سلڤستر : ولكنك حرضت القبائل علينا .

الريسونى : الصحيح عكس ذلك . فقد ردعتهم عنكم .

سلڤستر : ضجت البلاد من أعمالكم البربرية .

الريسونى : وهذه من الكلمات التى لاتضمن السلم . فكأنى بك تريد الحرب .

زوغستى : (متوسطاً) الصبر — أرجوكم .

سلڤستر : (مستمراً فى ثورته) هو قاطع طرق . صبرت عليه ، وقد عيل صبرى .

الريسونى (بتؤدة) : لذلك أنا أقوى منك . ولكنى أرى أن السلم بيننا مستحيل . أنت تعصف كالريح وأنا أضطرب فى نفسى كالأمواج . أنت العاصفة وأنا البحر . أما العاصفة فتذهب وأما البحر فيدوم .

قال هذا ونهض يريد الخروج . فقال السفير : إلى أين ؟ فأجاب الريسونى : إلى بيتى بزينة .

السفير (مسترضياً) : أحب أن تنتظر إلى الغد . فقد أرسل رئيس الوزراء إليكم هدية من السجاد برهاناً على صداقة حكومتنا لكم .

الريسونى : ليس الوقت ، يا سيدى ، وقت هدايا ، فإن أنا قبلت هدية منكم اليوم فأبناء بلادى لا يحسبونها هدية .

السفير (مصراً) : السجادات قديمة جميلة تروقكم .

الريسونى (بتهكم) : أهنىء سيدى بحسن عدله .

السفير : لم أفهم .

الريسونى (مستمراً فى لهجته الناعمة) يقال إن العدل أعمى . فسأوضح .

كان لى بيت بأصيلة فاستوليتم عليه ، كان لى سلاح وذخيرة فأخذتموها . كان لى أثاث وفرش فتصرفتم به . وقد أسرتم عائلتى (١) وجئتم الآن تقدمون لى بعض السجاجيد . لا يا سيدى ، ضموها إلى ما أخذتم .

السفير (غاضباً) : لم يؤخذ شيء من أشيائك — كلها محفوظة فى أصيلة .

الريسونى : لن أعود إلى أصيلة .

السفير : ألا تريد أن تزور عائلتك هناك .

الريسونى : عائلتى كبيرة . هى فى المغرب كله .

* * *

يوم عاد الشريف الريسونى من مؤتمر طنجة إلى بيته بزينة ، والجنرال سلفستر إلى مركزه بالعرائش ، كان الجيش الإسبانى فى الناحية الشرقية قد انتصر على الثوار ، عند نهر الكُرْط ، فى معارك شديدة ، قتل فى إحداها زعيمهم أمزيان ، وظهر لأول مرة فى القتال الضابط الشاب فرنسسكو فرنكو على رأس كتيبة ذكرها قائد تلك الحملة الجنرال بيرنغير بالثناء والإعجاب .

وقد تحسنت بعد ذلك الفوز معنويات الجيش الإسبانى ، ونشطت الحكومة فى تنفيذ خطة الاحتلال فى الناحية الغربية ، فعينت للمنطقة كلها مقيماً عاماً هو الجنرال الفاو (Alfau) ونصبت خليفةً فيها المهدى بن إسماعيل .

دخل الجنرال الفاو بألفين من الجنود ، مدينة تطوان ، بدون قتال ، فى فبراير سنة ١٩١٣ . فهاجت القبائل المجاورة ، وثار ثائرها الأشد على الخليفة المهدى الموالى للأجانب ، فكتبت حكومة مدريد إلى الجنرال سلفستر تقول إن الطريقة المثلى لتعزيز مركز الخليفة فى القبائل هى أن يزوره الشريف الريسونى . فسعى سلفستر لذلك دون جدوى . ثم جاءه أمر من حكومته بأن يطلق سراح

(١) كانت الحكومة لا تزال آسرة حريم الشريف فى القصر ومعهن ولده خالد .

عائلة الريسونى ، وينقلها مكرمة إلى طنجة ، ففعل . ولكن النتيجة لم تحقق الأمل فى التقرب من الشريف . بل جاءت على عكس ماتوقعه السياسيون فى مدريد.

فقد قالت القبائل : لا يزال الريسونى قوياً . والبرهان على ذلك هو أن الحكومة تخشاه فأطلقت سراح عائلته .

وقد انضم بعد ذلك إلى القبائل الموالية له كثيرون من المعادية . وبما أنها نهضت فى جوار تطوان للدفاع عن البلاد ، بعد دخول الجنرال الفاو ، فحاصرت واد مرتيل ، وامتدت حركاتها إلى ناحية العرائش ، رأى الريسونى أن دور المفاوضات قد مضى ، وأن الحرب لا بد منها ، فاستنفر جميع القبائل ، فنفر معظمها إلى القتال .

كانت خطة الريسونى فى الحرب تجمع بين الدفاع والمناوشة ، فيترك الهجوم للعدو ، ويرسل من مكامن جيشه ، وراء الصخور ، وبين الصبير الذى يكثر فى المغرب ، جماعات تناوش جيش سلفستر حيث يكون ضعيفاً . ومن أساليبهم أن يستدرجوا العدو إلى الجبال ويرموه من أعاليها بالرصاص ، أو يدحرجوا عليه الصخور . أضف إلى ذلك طريقة الريسونى الخاصة ، وهى القبض على رجالات الإسبان ، فى كل فرصة تسنح ، ليكونوا لديه رهائن تفدى بالمال . أو كما كان يقول هو : يصير عندى بضاعة للبيع .

قامت الحرب . ووقعت الوقعة الأولى فى ناحية من بنى قرش ، بالقرب من تطوان ، فبلغ عدد القتلى فيها مائتين من الإسبان وثلاثين من المغاربة (رواية الريسونى) أو مائة وخمسين من الإسبان وثلاثمائة من المغاربة (البلاغ الرسمى) .

وتعددت المعارك فجاءت النجدات الإسبانية ، الواحدة تلو الأخرى ، لحماية المراكز التى كانت فى حوزة الجيش . ولفتح الطرق ، وخصوصاً طريق تطوان — طنجة ، التى كانت بيد الريسونى . وما كانت تلك النجدات موفقة كل التوفيق فى خططها وحملاتها . فوقع خلاف بين المقيم العام الجنرال الفاو والقائد

العام الجنرال سلفستر ، أدى إلى استقالة المقيم لأنه كان يميل إلى السلم ، فخلفه الجنرال مارينا (Marina) المتذبذب بين السلم والحرب .

استمر القتال ، وبقيت طرق طنجة بيد الريسونى يجلب المؤن والمعدات ، فلزمه النصر فى أكثر المواقع فى تلك السنة ، سنة قامت فى أوربا الحرب العظمى .

وفى ذلك الصيف تكللت انتصارات الريسونى بالمجد . فقد كانت أكثر القبائل الجبلية تحارب تحت بنوده ، فاجتمع فى شفشاون قوادها وزعماؤها مع علماء بنى غرفط والأخماس وأهل سريف ، ونادوا بالريسونى سلطان الجبل . فكتب العلماء عهداً بذلك تُلى فى جميع أنحاء البلاد .

هى سنة النصر ، ختمها الريسونى بدخوله شفشاون فاتحاً مظفراً ، فهتف له أهلها ، ونثرت نساؤها عليه وعلى رجاله ماء الزهر من قماقمهن ، وهن يزغردن للشريف الملك ، منقذ البلاد من الأجانب .

* * *

هى البركة تلازم الشريف على الدوام .

وهى القبائل . وفيها المتذبذبة . وفيها الخائنة . فقد كان الريسونى ذات يوم ضيف إحداها ، وهى تتظاهر بالولاء والإخلاص ، فكذبها كلب من الكلاب . كان الشريف يشكو ألماً فى المعدة فلم يأكل غير القليل ، وشرع يطعم كلباً دنا منه . وعندما جىء برأس الخروف إلى رأس القوم لم يأكل شيئاً منه بل قدم معظمه إلى ذلك الكلب فأكل حتى العظم متلمظاً به ، وبعد قليل سُمع يعوى من شدة الألم وما لبث أن مات .

هى البركة ، لا تفارق الشريف .

وهذا إدريس الريفى ألدّ أعداء الريسونى يرسل إليه فى جبل الحبيب وفداً يقول : سى دْريس يريد السلم — سى دريس يريد رضى الشريف — سى دريس يلتمس الإذن بالمقابلة . . .

فظنها الشريف دسيسة . ولكنه قبل أن يجتمع بالريفى بشروط ذكرها . فعاد الرسل يحملون تلك الشروط إلى سيدهم .

كان قد اجتمع بهم فى بيت له خارج القرية ، فلما عاد الرسل راح هو إلى المسجد يصلى ، فسمع وهو فى سجداته دويًّا كالصاعة . هو دوى القنبلة التى جاء بها رسل الريفى ، ووضعوها تحت السجادة التى كانوا جالسين عليها ، وهم يشربون الشاى ، ويدعون للشريف بطول العمر !

هى البركة — رأى الناس مفعولها فى ذلك البيت الخراب بعد أن خرج الشريف منه .

ولكن البركة لم تدفع عن البلاد ويل النكبة الأوربية الكبرى . فامتدت إلى المغرب ، وهيمنت المجاعة فى أطرافه ، فأشار على الريسونى بعض رجاله بأن يتقرب من الألمان ، فيمدوه بالذخيرة والمال ليواصل الحرب . ورددوا ما كان يُشاع يومئذ وهو أن الألمان لا محالة منتصرون ، فإذا والاهم ينصبونه سلطاناً على المغرب أجمع .

وقد كان للألمان رسل منهم فى طنجة ، وغيرها من شمالى إفريقيا يبثون الدعوة لبلادهم ، ويغرون الزعماء بالوعود الخلابة . فوعدوا الريسونى بالمساعدات المالية والحربية إذا هو حمل على الفرنسيين فى المنطقة الجنوبية ، فرفض بتاتاً . وقيل إنه قبل منهم بعض الذخيرة والسلاح دون أن يعقد وإياهم عهداً ما .

أما الإسبان فقد سعوا لتخفيف الأزمة الاقتصادية بما بذلوا من الإسعاف فى البلدان التى كانت فى حوزتهم . وقد حاول رسل السلم ، ومنهم المقيم العام والقنصل زوغستى ، أن يصلحوا بين حكومتهم والريسونى فلم يتوفقوا . ما لان عود الشريف وما تغيرت كلمته : لا سلم ما دام سلڤستر فى المغرب .

ولكن سلڤستر كان ماضياً فى زحفه وتغلغله ، فوصل بجنوده إلى مدينة القصر الكبير واستولى عليها ، ثم احتل مركزاً فى الطريق إلى طنجة ، ليحول دون اتصال الريسونى بها .

الطريق إلى طنجة — حياة الريسونى الحربية .

سلڤستر يستولى على تلك الطريق ! غصّ الشريف بهذا الخبر . فجمع قواده فى جبل الحبيب ، وكشف لهم الستار عن الحالة . لم يبق من سبيل إلى تموين القبائل — والضائقة تشتد فى البلاد . سأشترط على الإسبان فى قبول السلم ألا يدخلوا الجبال . السهول لهم ، والجبال لنا .

وما ذكر سلڤستر — سلڤستر لا يزال فى المغرب وقد كُتب له النصر أو شىء منه .

ولكن البركة لا تزال مع الشريف .

كان المقيم العام يميل إلى قبول شروط الصلح التى عرضها الريسونى ، وكان الجنرال سلڤستر يرفضها . فاشتد الخلاف بينهما ، وبلغ منتهاه يوم أرسل الريسونى رسولا إلى طنجة لغرض خصوصى فقتل هناك غدراً — قتله رهط من الشرطة بأمر من الضابط المحلى الإسبانى أو بعلمه . فاحتدم المقيم غيظاً وأرسل إلى سلڤستر يدعوه إليه فوبخه على ذلك الغدر ، وطلب منه أن يستقيل .

أبى سلڤستر ، واحتج مكابراً ، فجلس المقيم إلى منضدته قائلا : إذن ، أنا أستقيل .

وكتب حالا كتاب الاستقالة ودفعه إليه ليقرأه .

البركة تلازم الشريف .

لا سلم ما دام سلڤستر فى المغرب .

وهذا سلڤستر يرى ما فعله المقيم العام ، فيخجل و يكتب مثله سطر الاستقالة.

وقد قبلت حكومة مدريد الاستقالتين وعينت الجنرال خوردانا (Jordana) مقيما عاماً ، والمركيز بللبا (Villalba) خلفاً للجنرال سلڤستر .

* * *

لا سلم ما دام سلڤستر فى المغرب . أما وقد رحل ، فالسلم أصبح قريباً من

مريديه . فجاء صديق الريسونى القنصل زوغستى يجدد السعى ، وكان المقيم العام الجديد مؤيداً له ، فتحققت الآمال بصلح — صُليح — عُقد فى سبتمبر سنة ١٩١٥ على أن تكون الجبال للريسونى والشواطىء للإسبان .

وقد أعادت الحكومة الإسبانية أملاكه إليه ، ومدته بالمال لتخفيف وطأة الجوع فى القبائل ، وتعهدت بدفع نفقات « محلته » أى جيشه المحدد بألف مقاتل ، لحفظ الأمن والنظام فى منطقته الجبلية ، التى كانت عاصمتها تزروت فى الطريق إلى جبل العلم .

فهل استقام الأمر للريسونى بعد انفراده فى السيادة بتزروت ؟ أوَ يستقيم الأمر لحاكمين ، كلاهما ذو سيادة مطلقة ، فى البلد الواحد ؟ قامت القبائل بعد ذلك الصلح تقول : خاننا الريسونى — باع البلاد للنصارى . وقد تألب عليه بنو حسن وبنو مصور وبنو عروس وغيرهم فهجموا على تزروت بالبنادق والفؤوس يريدون محق « محلته » وهدم بيته ، فنازلتهم جنود « المحلة » وردتهم منهزمين .

كانت القبائل تحارب مع الريسونى بشجاعة ركنها الإيمان ، الإيمان بالله والبركة . أما فى محاربتها الريسونى فقد كان الإيمان يفل من عزمها ويضعف فيها الشجاعة والاستبسال . هى البركة التى كانت تخشاها ، تلك البركة التى دفعت عنه مراراً رصاص البنادق ، وكل شر وأذى . كان يؤمن بها الأصدقاء والخصوم . وإذا حمل هؤلاء عليه فبقلب خائر ويد مضطربة . فيطلقون بنادقهم وهم يذكرون « البركة » فينهزمون .

وهذا أحد أبناء عم الريسونى يخرج عليه ويمشى برجاله إلى تزروت يريد اكتساحها ، فينهزمون عند الأبواب ويرابطون فى قرية مجاورة فيخرج الريسونى برجاله ليلا ، وقد حملوا المشاعل والبنادق ففاجأوا العدو «بالبارود» وألقوا المشاعل على سطوح القرية فاشتعل قشها والتهمت النار القرية بأجمعها .

وجاءت فى اليوم التالى ابنة ابن عمه ، وهى فتاة حسناء ، تسترحم الريسونى لا من أجل أبيها الذى فر هارباً ، بل من أجل أمها التى كانت مع الخوارج .

ـ العفو ، العفو عن أمى ، طوّل الله عمر سيدى .

ـ وأنت ، يا بنتى ؟

ـ أنا تحت قدمى سيدى .

ـ أنت فى عينى وقلبى . ولا بأس على أمك .

ذهب سلفستر ، واندحر الخصوم من القبائل ، وغنم الشريف غنيمة الحسن والجمال ! فاقترن بابنة ابن عمه الحسناء . فهل صفا له الجو بعد ذلك ؟ .

* * *

كان المقيم العام الجنرال خردانا مخلصاً للريسونى ، يرعى عليه حرمته و يعمل ما بوسعه لتعزيز سيادته فى الجبال . فيحيل إليه كل من جاءه منها شاكياً وقلما يتدخل فى شؤونه .

على أن الحوادث كانت تحول دون تحقيق أمانيه فى المسالمة والتعاون . فنقضت مراراً ذلك الاتفاق الذى تحددت بموجبه الحدود بين منطقة الإسبان والأراضى الجبلية المستقلة عنهم . فاضطر المقيم أن ينفذ خطته فى المحافظة على العهود ، فقاومه الريسونى ، وما كان مثله كريماً حكيما .

ـ فلان وفلان وفلان المسجونون عندكم هم من منطقتنا ، فيجب أن يحاكموا عندنا . لذلك أسألكم أن ترسلوهم إلينا .

ـ فلان وفلان وفلان لصوص وقتلة . ولكنى ، حبًّا بخدمة إسبانيا و إكراماً لكم ، أعيدهم إليكم .

وأعادهم ، بعد أن قطع أيديهم . فهل تستغرب غضبة المقيم ؟ وهل يستغرب عمل الريسونى وقد برره الشرع الإسلامى .

قال المقيم : هى فظاعة . فقال الريسونى : هو عدلنا ؟ وقد كنت رحوماً فى

تنفيذه . كان من الواجب على ، وهم لصوص وقتلة ، أن أقطع رؤوسهم .

– أفى هذا الزمان ؟

– فى كل زمان .

– الحكم بما توجبه المعاهدة هو غير الحكم بما نريد .

– لا حكم يستقيم ، لا بإرادتى ولا بما توجبه المعاهدة ، إن كنت لا أقطع أيدى اللصوص ، ورؤوس المجرمين .

هى ذى العقدة التى يعقدها الشرع ولا يحلها القانون . هى ذى المعضلة فى التوفيق بين الحكمين الإسلامى الصافى والمسيحى المدنى .

وما كان المقيم موفقاً فى سياسته الخليفية . فقد سأل الريسونى ، وألح عليه ، أن يعترف بخلافة المولى المهدى ، ويقبل منصب الصدارة العظمى ، فكان يرفض قائلا : تحتقرنى القبائل وتخرج عن طاعتى إذا رأتنى أنحنى أمام لا شىء .

لقد كانت سياسة من تقدم خردانا من المقيمين مبنية على القاعدة : بلادى وإن أخطأت . فيحاولون أن يخدموا بلادهم بشتى الأساليب مهما كلف ذلك من مال ورجال . أما خردانا فقد اتبع خطة الاعتدال والإنصاف فى خدمة بلاده وبلاد المغرب . فسعى لعقد معاهدة القسمة بينهم وبين الريسونى ، وأدرك بعد ذلك الخطأ فيها .

والحق يقال إن المساومة فى الرياسة ، سواء أكانت أجنبية أم وطنية ، تولد المشاكل والشرور . وإن الحق فى ما قاله الريسونى يوم اجتمع للمرة الأولى بالجنرال سلفستر : لا مكان لأسدين فى غابة واحدة .

فقد كانت سلطة المقيم العام تضعف يوماً فيوماً ، إذ أن الريسونى يحكم فى الجبال بأمره فيحول دون امتداد النفوذ الإسبانى إليها ، ولا يحترم فى نفوذه الحدود والعهود . وما كان مع ذلك يعامل المقيم ، كما كان يعامله ، بالمعروف أو فى الأقل بالمجاملة . فأثر ذلك أشد التأثير فى نفسه ، فكتب إلى حكومته

يقول إن سياسة الاعتدال التى اتخذها قطعت طريق الجبال على التقدم الإسبانى فى البلاد .

اعترف خردانا بخطئه . وفى ذلك اليوم من نوفمبر ١٩١٨ ، وفى تلك الساعة التى كان يوقع فيها ذلك الكتاب أصيب بنوبة قلبية ، فسقط القلم من يده ، وما رأى بعد ذلك نور الحياة الدنيا .

خلف خردانا الجنرال بيرنغير (Berenguer) فكان مخالفاً له فى سياسته ، بيرنغير — وفيه شىء من سلڤستر وشىء من مارينا — صمم على احتلال عسكرى عام للمنطقة كلها . فكتب إلى الريسونى كتاباً صريح الكلمة شديد اللهجة ، فرد عليه الريسونى بمثله . الحدود بيننا القوة .

عاودت الاضطرابات البلاد ، وخصوصاً على الحدود الريسونية الإسبانية . فتعددت « العركات » بين رجال الريسونى والمخافر ، وكثر التجاوز والإجرام فى شتى المظاهر — تهريب السلاح والقتل والثارات — تتلوها الشكاوى من الجانبين إلى حكومتى تطوان وتزروت .

وقد كان طريق طنجة — تطوان مفتوحاً ، فسارع الريسونى إلى قطعه ، والاستيلاء عليه لجلب الذخائر والسلاح تهريباً فى الليل . . . تلك البضائع للتجار تستحيل بعد أيام بنادق ورصاصاً للجيش .

سلطان الجبل ؛ يجب أن نضع حداً لسلطته ، يجب أن يُذل ، يجب أن يذهب . رُددت هذه الكلمات فى تطوان . ورُددت فى مدريد ، فاختارت من قوادها أشدهم بأساً ، وأصلبهم عوداً ، لتضرب الريسونى الضربة القاضية .

عاد الجنرال سلڤستر إلى المغرب .

وهناك على رأس جبل العلم ، المقدس بروح عبد السلام الطاهرة ، فى ليلة مقمرة ، اجتمع زعماء القبائل من بنى عروس وبنى غرفط وغمارة والأخماس ، ومعهم علماء زاوية تلدى — أكبر علماء المغرب — فولوا وجوههم

شطر المشرق ، قبلة مسلمى الغرب ، وتلوا حزباً من القرآن ، فصلوا وسجدوا ثم نادوا بالريسونى سلطان الجهاد . وعند ما أطلق الناس بنادقهم مهللين ، صاح بهم أحد الشيوخ قائلا : ادّخروها للنصارى .

عاد سلڤستر إلى صراعه فى الأمس . عاد إلى الريسونى بروح جبارة ، وقوة قهارة ، ففتح طريق طنجة ، أهم طرق المواصلات الخارجية ، واحتل الفندق ، باب المواصلات الداخلية . انتزعه من يد عدوه الشريف . فقال ذلك العدو شارحاً أمره : وجاءت الطيارات ، طيور الجن ترمى بيض الموت علينا فى الفندق ، فتراجعنا .

ثم اشتبكت رجاله والعسكر الإسبانى فى وادى الراس ، فدامت المعركة يومين ، وكتب فيها النصر للريسونى . فقال المنتصرون : البركة ، والله أقوى من جيوش إسبانيا .

ولكن سلڤستر ، بعد أن استولى على طريق طنجة والفندق ، تقدم إلى أصيلة وصمم على تطويق بنى مصور .

بل كان للقوات الإسبانية ، المقسومة إلى ثلاثة أقسام ، ثلاث محجات . فمن تطوان تتطلعت القيادة العامة إلى شفشاون ، ومن العرائش إلى بنى غرفط ، ومن « سلڤستر » — كان يعلل سلڤستر نفسه ، وهو ينظر إلى جبال بنى عروس ، بالدخول إلى الزاوية المباركة بتزروت .

وما وقف الريسونى عند انتصاره فى وادى الراس . بل استمر يجمع المقاتلة ، ويجلب العتاد لحرب طويلة .

عاد سلڤستر إلى المغرب — والريسونى لا يخادع نفسه .

ومما هو جدير بالذكر أن الضباط المغاربة ، المعلمين فى المدارس الحربية الفرنسية والمدربين فى الجيش الفرنسى ، كانوا يساعدون الريسونى ، كما ساعدوا بعده عبد الكريم .

ولا يفوتنى أن أذكر كذلك أن الضابط فرنسسكو فرنكو ، القائد يومئذ لكتيبة فى اللفيف الأجنبى كان مرابطاً فى وادى «لاو» فاشترك فى المعارك التى أدت إلى احتلال شفشاون فى أكتوبر من سنة ١٩٢٠ .

وبعد احتلال تلك المدينة فتحت الطرق الثلاث بينها وبين وادى «لاو» والعرائش والقصر الكبير ، وتُركت «عشاش النسور فى جبلى بوهاشم والعلم» للريسونى .

* * *

فى فصل الشتاء من سنة ١٩٢١ بدأ نجم الريسونى يأفل ، وفى صيف تلك السنة أفل نجم الجنرال سلفستر ، وطلع نجم عبد الكريم الخطابى ، الذى أضرم نار الثورة فى الناحية الشرقية ، فكانت فاتحة انتصاراته نكبة الجيش الإسبانى فى أنوال .

هناك نكب الجنرال سلفستر ، الذى كان قد نُقل إلى مليلة (مليلية) ليتولى قيادة الجيش الشرقى ، ومنه فى تلك الأيام تسعة عشر ألفاً فى أنوال بجبل أرويت فهجم الريفيون عليهم ، وفتكوا به فتكاً ذريعاً . قتلوا ستة عشر ألفاً منهم ، ولحقوا بالبقية الهاربة يثخنون فيها . ثم قطعوا على سلفستر الطريق إلى الساحل . فوصلوا إلى أبواب مليلة .

بعد هذه الهزيمة لم تقم للجنرال سلفستر قائمة . بل أمسى ولا خبر له ولا أثر إلا ما كان من إشاعات . فعند ما وصلت النجدة إلى مليلة استقبلها النائب العام ، فسأله أحد الضباط عما حل بالجيش ، فقال إن سلفستر انتحر — وقيل إنه قتل — ولم يبق واحد من القيادة العليا ، وإن الهلع والذعر استوليا على الجنود الهاربين .

كان الريسونى عالماً بما حل بالإسبان فى الريف ، بل كان عالماً ، يوم دنا نجم مجده من المغيب ، بما يُعد للإسبان هناك . فقد تراسل وعبد الكريم بخصوص

الثورة فرغب الزعيم الريفى فى التعاون ورغب الشريف عنه . أما السبب الحقيقى فى ذلك فهو مجهول .

قال لى أحد قادة الريسونى ، إن المؤن كانت قد نفدت عند الشريف وإنه كان يأمل أن فوز عبد الكريم يمكنه من تحويل بعض قواته إلى الجبهة الغربية . فخمدت فيها نار القتال ريثما تصل فى الأقل المؤن والذخيرة .

وقد قال الريسونى نفسه — روتها روزيتا فوربس فى كتابها « سلطان الجبل » : إذا أخلف الإسبان وعودهم التى قطعوها لى أراجع فكرى بخصوص عبد الكريم .

أما الإسبان فقد كانوا يسعون للسلم فى الناحية الغربية ويواصلون فى الوقت نفسه القتال . ذلك لأن تغلغلهم فى الجبال كان محفوفاً بالأخطار . وعندما أبطأ الجنرال بريرا (Barera) فى زحفه من شفشاون وفتح الطرق إلى جبال الأخماس ، استعادته حكومة مدريد وبعثت بالجنرال سان خرخو مكانه . فاستأنف الزحف فى ربيع السنة التالية (١٩٢٢) تتقدمه الطيارات . فحلقت فوق جبل بوهاشم ، تمهيداً للجيش فى تطويقه تزروت .

وجاءت « طيور الجن » تضرب تزروت بـ « بيض الموت » فاستمرت فى ذلك ثلاثة أيام وهى تهدم وتحرق كل قائم فيها عدا الجامع ودار الريسونى .

حدثنى ضابط إسبانى قال : كنت فى الحملة التى فتحت تزروت ، وكنت أول مسيحى دخل بيت الريسونى فى تلك الوقعة . ساعة كانت طياراتنا ترمى القرية بالقنابل فيسقط منها فى ساحة البيت ، وهو جالس هناك تحت السنديانة (١) لا يبالى .

ولكن « طيور الجن » أجبرته أخيراً على التسليم ، أو بالأحرى على الرحيل ففر ورجاله إلى حيث كان قد أرسل عائلته — إلى جبل بوهاشم ملجأ أهله .

---

(١) هذه السنديانة العتيقة يقدسها الرياسنة . فعندما بنى الشريف بيته لم يقطعها ، بل بنى البيت حولها .

وفى يوليو من تلك السنة سقطت زاوية تلدى ، أقدس الزوايا لدى الرياسنة ، بعد أن دافعت عنها قبيلة الأخماس بضعة أشهر وشارك الطلبة فى ذلك الدفاع . وعندما انهزموا حملوا معهم المخطوطات القديمة التى كانت مخزونة فى زاويتهم المشهورة ، كما فعل سابقاً أجدادهم ، منذ أربعمائة سنة ، يوم خرجوا من إسبانيا ومعهم الكثير من كتب المكتبة العامة بغرناطة .

هى المرحلة الأخيرة فى جهاد الريسونى . فقد جاءه بعدها الرسل يقولون إن الجنرال بيرنغر قد عاد إلى إسبانيا ، وإن المقيم العام الجديد اسمه برغيت (Burguete) وأنه يحمل فى حقيبته طيبات سياسة جديدة . فألحوا عليه فى الصلح ، فأبى أن يكون هو الطالب ، وثبت مطمئناً فى موقفه حتى تم ما كان يتوقعه .

عرض المقيم الجديد السلم بواسطة الجنرال خيرونا والقنصل زوغستى والترجمان سرديرا . فاجتمع هؤلاء به فى الجبل أولا وثانياً وقد حضر الاجتماع الثانى بعض قادة القبائل التى كانت ترفض السلم وتريد جهاد النصارى حتى النهاية ، فصرح الريسونى بمطاليبه وعددها فبدأ الإسبان يقبلون . . .

وعندما قاموا يودعون قال للخدم : خذوا هذه السجاجيد والوسائد ونفضوها فقد وسخها النصارى !

فعاتبه بعدئذ أحد أولئك النصارى فقال : قد تعمدت ذلك ، لأسكّن خواطر أولئك المشايخ . وإلا استحال عقد الصلح مع المحافظة على ولائهم . ففى تنفيض السجاجيد مصلحتكم قبل مصلحتنا .

تلك المفاوضات والاجتماعات أسفرت بعد بضعة أشهر — فى الخريف من سنة ١٩٢٢ — عن معاهدة صلح وسلم وولاء . ولكن الإسبان لم يسلموا بمطالب الريسونى إلا بشرط واحد وهو أن يزور الخليفة بتطوان . فلانَ الشريف قليلا وساوم حتى فى هذا الأمر : أرسل عائلته إلى العاصمة لتزور المهدى بن المولى إسماعيل .

أما مطالبه فهى (١) أن تعاد إليه أملاكه المحجوزة (٢) ويؤذن لعائلته بأن تسكن فى القصر بأصيلة (٣) وتُبنى تزروت مقرّه (٤) ويُعين للقبائل قادة من كبار رجاله (٥) ويدفع لجيشه ما حبس من المال أيام الحركة.

وقد تعهد هو بأن يسرح ذلك الجيش، إلا الحرس منه، وأن يساعد الإسبان بماله من نفوذ فى القبائل ليحتلوا الجبال. ولكنه لم يعترف بالمهدى خليفة للسلطان، ولا لأحد من الحكام. وما طلب لنفسه وظيفة أو مالا.

ولا تغير موقفه تجاه البيت العلوى الحاكم. فقد أراد أن يكون للبلاد سلطان من هذا البيت حقيقة ومعنى قانوناً وعملا. وإن كان لا بد من الحماية فهو يفضل الإسبان «لأنهم يستطيعون أن يحمونا، ولا يقوون على ظلمنا»!

* * *

بعد هذه الخاتمة لجهاد الريسونى اشتدت الثورة على الإسبان فى بلاد الريف، وامتدت إلى قلب المنطقة غرباً، فانضم إليها قبائل بنى سعيد وبنى حسان، حتى بعض أصدقاء الإسبان كالبقالى فى غمارة وغيره من القواد.

وحسبنا ذكر بعض الحوادث البارزة ليدرك القارئ مقدار ما قاسته وبذلته إسبانيا فى المغرب.

١ — لقد تجرب فى تلك الحروب أكبر قوادها — ميلان استراى وسلفستر ومولا وبيرنغر وخُردانا وجيرونا وسانخرخو. وكان الكومندان فرنكو تحت قيادة أكثرهم فى معظم القتال، فقد خاض غمار سبع وأربعين معركة خلال ست سنوات (١٩١٨ — ١٩٢٤) فحارب الريسونى، وحارب عبد الكريم.

٢ — من الحاميات فى غمارة، التى حمل عليها الثوار، وأذاقوها الأمرين فى الحصار، حامية سولان. فقد قطعوا عنها الماء، فشرب الجنود برميلين من الخل، حتى البول فات الكثير بينهم صبراً.

٣ — استغاثت المعسكرات فى قبائل بنى سعيد، فأرسلت النجدة الأولى إلى

كوب دسته ، التى كانت محاصرة من جميع جهاتها ، فأفنيت بأجمعها ، فتلتها الثانية والثالثة فى الهزيمة والفناء . كان الكومندان فرنكو يومئذ بوادى لاو ، فهرول إلى تطوان ، يعرض نفسه وجنوده لإنقاذ كوب دسته . فمشى إلى قصده ، وما أدركه ، لأن الثورة كانت قد امتدت إلى ضواحى شفشاون وتطوان ، فقطعت المواصلات بين البلدين وطنجة .

٤ — كان الجنرال خيرونا محتلا شفشاون ومعه كتيبة من اللفيف الأجنبى بقيادة فرنكو . فاضطر أن يجلو عن البلدة سرًّا فى الليل لينجو من جنود عبد الكريم ، الكامنين وراء الآكام ، وبين الصخور والصبير . مشى فرنكو بكتيبته تلك الليلة ، ينقلون المؤن إلى الجيش المرابط بدار عكوب . ويا لها من ليلة تعددت أهوالها . وما كانت أهوال الطبيعة — الأمطار والأوحال والبرد والرياح والظلام الدامس — « لم يكن الواحد منا يرى الآخر » — بأشد من هول المغاربة ، الخفاف الأحمال ، يرسلون مع الأمطار والرياح وابلا من الرصاص على أولئك الإسبان . فقتل فى الطريق الجنرال سرانو ، وجرح الجنرال بيرنغر وعدد غير قليل من الضباط .

* * *

توالت النكبات على الإسبان خلال السنوات الثلاث التى تلت الصلح بينهم وبين الريسونى . وما اطمأن بال الريسونى وهو فى تزروت الجديدة ، يمحص النفس تحت سنديانته ، ويقدمها صافية فى الزاوية المباركة بين يدى الله . ما اطمأن سيد تزروت ، ولا اطمأنت تزروت .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطيرُ

لله من هذا الإنسان ، الذى يجر بلاياه على الجماد والحيوان . فتزروت المتفيئة جلال الغابات فى جبال بنى عروس ، تزروت المقدسة ، المدمّرة ، المجددة البناء لا تزال رهينة الردى ، ولا تزال الفواجع تتأثر سيدها الريسونى .

والسبب فى ذلك وفاؤه للإسبان ، وبره بعهده لهم : سأساعدكم لتحتلوا البلاد ولكن هذا الخطّابى يعترض لنا فى جبالنا .

كان عبد الكريم يحتل المنيع من الجبال الغربية ، والإسبان ينهزمون ، والريسونى برًّا بعهده ، يبذل ماله من النفوذ فى القبائل ليجتذبها إلى الإسبان ويضمن ولاءها لهم . لا بد إذن من اصطدام بعبد الكريم .

هى ذى خلاصة تلك الحوادث المفجعة التى تلت الصلح الإسبانى الريسونى ، وها كم الخبر للنكبة التى خُتمت بها حياة الشريف .

بعد أن خرج الجنرال جيرونا من شفشاون دخلها جيش الزعيم الريفى وهى مقسومة إلى حزبين غمارة والأخماس . فكانت غمارة قلباً وقالباً مع عبد الكريم ، وكانت الأخماس تتذبذب بينه وبين الريسونى . فسعى لاستخلاصها بالمساعدات — بالسلاح والذخيرة والمال — والاستعانة بها على غمارة . وعمد عبد الكريم فى بدء الأمر إلى السياسة والكياسة فى مقاومة المساعى الريسونية .

من ذلك أن أخاه محمداً الذى كان محتلا القلعة بشفشاون أرسل وفداً إلى الريسونى يدعوه للتعاضد والتعاون ، فعاد الوفد خائب الأمل (١) ثم بعث خمسة وعشرين من رجاله يطوفون فى قرى الأخماس ، لبث الدعوة لعبد الكريم ، والحث على مناصرته ، فكانت « خزانة » أولى تلك القرى وآخرها .

رحب أهل خزانة بهم ، وأضافوهم ، ثم هجموا عليهم بالسلاح فى الليل ، فقتلوا خمسة منهم ، وقبضوا على زعيمهم . ففر الباقون هاربين .

وقد أرسلت على الأخماس حملة تأديبية ، بقيادة السى يزيد بن صالح ،

---

(١) قال الريسونى لمؤلفة كتاب « سلطان الجبل » ما أترجم حرفيا : إن علم الأجنبى الوطنى ، فالوطنى أخيراً يغلب الأجنبى . هذا عبد الكريم الخطابى قد تعلم فى مدريد وصار مهندساً تخصص فى علم المناجم . ولكنه استخدم علمه للتخريب . هو يحارب القدر ، بدل أن ينتفع بما أرسله الله . لما كان صبياً طلب والده منى أن أساعده ليرسل ابنه إلى مدريد يتلقى فيها العلوم ففعلت . فكان جزائى أن يعادينى عبد الكريم ويحرض القبائل على .

قائد بنى يرزين يومئذ ، ومن كبار قادة عبد الكريم ، فدارت رحى القتال بينهم وبين تلك القبيلة ، وكانوا منتصرين . قتلوا من رجالها وشرّدوا ، ثم حرقوا القرية التى غدر أهلها برسل السلم إليهم .

بعد ذلك زحفوا على تزروت ، مقرّ صديق الأخماس ، وعونهم العنيد ، فالتقت هناك بنادق ابن صالح — تسعمئة منها — بخمسمئة من بنادق الريسونى ، فدامت المعركة يومين ، قتل فيها خمسون من رجال عبد الكريم ، ونحو مئة من حملة الشريف .

وفى اليوم الثالث دخل البيت قائدُ خمسين ، يدعى الهلالى ، ريفىٌّ من الريف فقبضوا على الشريف الهرم — كان يومئذ مريضاً وفى السبعين من عمره — وقبضوا على أهله ، ومعهم ابنه خالد وأبناء عمه وحريمه . وبعض خدمه ، وذهبوا بهم جميعاً إلى تماسنْت .

* * *

من السجن بالصّويرة سنة ١٨٩٤ إلى الأسر بتماسِنْت سنة ١٩٢٥ — هى ذى خاتمة مراحله فى المغامرات السياسية والروحية . بل هى ذى حياة مجاهدٍ عربى شريف فصيح شجاع صادق أبىٌّ وفىٌّ كريم .

من الصويرة إلى تماسنت تعصف هذه الروح الجبارة ، القصيرة الربيع ، الضئيلة الصيف ، الطويلة الشتاء ، والشتاء الطويل لا يتقدمه خريف ، ولا يتلوه ربيع !

فبعد خمسة أشهر من واقعة تزروت ، وقبل أن نوّرت الشقائق فى جبال الريف ، مات الريسونى فى تماسنت ودفن هناك .

وفى تلك السنة ، وذلك الربيع ، دُفنت كذلك آمال عبد الكريم الخطّابى ، بعد أن جمع الفرنسيون والإسبان كلمتهم ، فسلّم للقيادة الفرنسية (مايو ١٩٢٦) ثم نُفى إلى جزيرة ريونيُون فى البحر الاستوائى ، وكان لا يزال إلى يومنا هذا فى منفاه.

جمع الله كلمة العرب ، فيُضىء نورهم مرة أخرى فى العالم .

الفصل التاسع

من القصر الكبير إلى القصر بأصيلة

فى هذا الأوقيانوس الذى تلطفت حواشيه بأساطير الأقدمين ، وحول جزائره الخالدات ، وعلى شواطئه الذهبية ، نشر حنّو الفينيقى ، منذ ألفين وخمسمئة سنة ، أشرعته الزاهية الألوان ، المقدسة فى هيكل البعل ، وسجّل فى تاريخ الرحلات الاستكشافية العمرانية خبر رحلة الإنسان الأولى ، التى ربطت قرطنجة بطنجيس (طنجة) ووصلت طنجيس بجزائر الخط الاستوائى ، بعد أن أسس تلك المستعمرات والمدن المخلدة لذكره وذكر رفقائه أبناء فينيقيا الإفريقية .

أجل ! إن أول من رحل رحلة استكشافية عمرانية فى العالم هو حنّو الفينيقى ، الذى تقدم كولمبوس بألفى سنة .

وفى هذا المغرب الأقصى ، بمدينة طنجة ، ولد الرحالة العربى الأول ابن بطوطة وقام برحلاته فى الشرق والغرب وفى أواسط أفريقيا ، كاشفاً لأسرار البلدان وشعوبها ، واقفاً عند آثارها وأطلالها ، مسجلا لما شاهد من عجيب العادات والتقاليد والعقائد ، ولما سمع من غريب الأخبار والقصص والأساطير ، مصوراً ببيانه تلك الصور الأدبية التى لا تزال مشرفة مُطرفة فى صفحاته الخالدة .

أجل ! إن أول من رحل رحلة استكشافية أدبية فى العالم هو هذا العربى المغربى أبو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة ، وكان ذلك بعد حنّو بألف وثمانمئة سنة .

فإن كان الفينيقيون من العرب ، أو كان العرب من الفينيقيين ، لا فرق اليوم عندنا ، فقد تبين من درس الآثار المكتشفة فى خرائب القصور والقبور — فى

جبيل والبحرين — أن الشعبين من جنس واحد ، هو الجنس الفاتح بفرعيه العمرانى والأدبى ، الجنس السامى الجامع بين الخيال الروحى والحقائق المادية . وإن فخرنا اليوم بالرائدين الفينيقى والعربى من روّاد الاستكشاف العمرانى ، والاستكشاف الأدبى . لهو فخر واحد ، لا ينقص إذا ما ذكرنا حنو . ولا يزيد فى ذكرنا لابن بطوطة .

وإن صاحب هذه الرحلة الأدبية العمرانية السياسية لمن سلالة هذين الرائدين العربيين الفينيقيين . ولكن بين يومه وأيامهما أحقاباً من الزمن طلعت فيها نجوم للفينيقيين وللعرب ، وأفلت نجوم ، فبعد أن أشعلنا فى العالم مصابيح العلم والأدب والعمران ، وشيدنا لها المعاهد والقصور ، دمّرت الديار ، وأطفئت الأنوار ، وطمست الآثار . ذهبت النكبات بما شيدنا فأمست الأمة المجيدة ذات تاريخ مجيد ، بمآثره وكنوز العلم والأدب . ثم جاء المستشرقون الأوربيون يرحلون رحلاتهم العلمية فيكتشفون تلك الكنوز ويدرسونها ، متطلعين منها إلى ماضينا العربى الفينيقى . ذلك بعد أن كنا نحن المدرسين المعلمين لتلك الأمم ، أممهم ، البانين لهم حاضر حضارتها السعيد ، المتطلعين مما شُيد فوقه إلى مستقبلنا الحافل بالأمجاد .

ومن أولئك المستشرقين المستكشفين العالم الإسبانى دومنغو باديا لبلخ (Domingo Badia Leblich) المعتنق الإسلام ، المنتحل اسم على بك العباسى ، الذى ساح فى هذا المغرب الأقصى سياحته العلمية ، الاجتماعية الأدبية ، فى العقد الأول من القرن الماضى ، أى منذ مئة وثلاثين سنة ، فكانت الرحلة الأوربية الأولى من بابها .

وقد طبع كتاب رحلته باللغة الفرنسية ، فى ثلاثة أجزاء سنة ١٨١٤ ، طبع بباريس فى تلك الهدأة النابليونية بين جزيرة إلبا وواترلو ، يوم عادت الملكية البوربونية تصلح العرش المتداعى للملك لويس الثامن عشر . وقد قدم الطابع

الكتاب بكلمة وجيزة توقفنا فى هذا الزمان مدهوشين لما كان ينتاب الأمم فى كل زمان من الخوف على التمدن ، بل من الذعر والهلع ، فتنادى بالويل والثبور ، وتذرف الدموع على الحضارة والدين والثقافة والعمران ، المهددة كلها بالخراب والاضمحلال . اسمع لأرميا تلك الأيام .

« لم تكن أوربا فى زمن ما مهددة كما هى اليوم بالنكبة الجارفة التى ستعود بها مسرعة إلى التوحش (Barbarie) فالعلوم والفنون ، والتمدن ثمرتها ، كادت تكون على وشك الزوال من بلادنا عندما أعادت العناية الإلهية ، جلالتكم إلى عرش القديس لويس وهنرى الرابع رحمة بالإنسانية . . . . »

واسمع لأرميا هذا الزمان ، وقد رأى تلك العناية وتحقق مقاصدها . فهى تبعث اليوم بالحليفتين إنكلترا وفرنسا لتنقذ الديمقراطية بل الحضارة نفسها من الأخطار التى تهددها بالاضمحلال ، وتنذر بعودة الأمم إلى التوحش . إن بين أرميا الأول وأرميا الثانى قرناً وربع قرن من الزمن ، وليس ما يدعو للذعر والهلع فى الحالين غير فرق واحد ، وهو أن تلك الأخطار الوهمية كانت فى الماضى نابليونية فرنسية ، وهى فى الحاضر هتلرية ألمانية ، وقد تكون بعد مئة سنة بلغارية أو تركية .

أما المدنية فهى تفدى نفسها دائماً بالمال ، وأما الديمقراطية ، أختها بالسفاح ، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح ، فلا خوف على الاثنتين ولا هما تحزنان !

نعود إذن مطمئنين إلى موضوعنا وصلته الآن بعلى بك العباسى . فقد جاء هذا العالم الإسبانى المغرب فى عهد السلطان العلوى المولى سليمان ، يحمل إليه الهدايا المثيرة للظنون . لم يكن على بك من الأغنياء ليرحل رحلة أميرية كلامارتين بعده مثلا أو السر ولفريد بلونت وزوجته حفيدة اللورد بيرون . إنما كان مقرباً من نابليون بونابرت ، وقيل إنه كان رسوله إلى العالم الإسلامى فى المغرب والمشرق ، مهما يكن من الأمر فإن ما حمل إلى السلطان لا يتناسب ومقاصده العلمية . فمن

تلك الهدايا مدفعان وعشرون بندقية وثلاثون مسدساً وبرميل من البارود الإنكليزى ؛ تقبلها السلطان شاكراً ، وقد أكرم صاحبها إكراماً خاصًّا ممتازاً بإهدائه ، فى ظرف من الدمقس المطرز بالقصب ، رغيفين من الخبز . فهنأه الوزير بهذه الهدية قائلا : لقد صرت أخاً للسلطان !

وقد برهن جلالته غير مرة على هذا الإخاء . فهاك آية من الكتاب الكريم يخطها بيده ويقدمها له ليحفظها ذكراً منه . وها هو ذا وضيفه فى المخلوان بالقصر ، يحدثه فى بعض الشؤون الشخصية ، ويعيب عليه طول شاربيه فيأمر بالمقص ويشير بمقدار ما يجب أن يشذب لتتم فى وجهه آية الحسن والتحلية .

وقد اهتم المولى سليمان وهو الفقيه العالم المحب للعلماء ، بأدوات على بك العلمية لرصد النجوم ، وقياس درجات الأرض ، وتسجيل الحرارة والرطوبة فى الجو . فرفع إحداها بين يديه معجباً بها ، فقدمها هدية إليه ، فرفضها قائلا : لا نحسن استعمالها فهى تنفعكم ولا تنفعنا .

إن رحلة على بك العباسى تمتاز بالوصف الجغرافى والطوبوغرافى للأماكن التى مر بها ، وتحقيق درجات الطول والعرض للمدن التى زارها ، مع تصحيح بعض الأغلاط التى كانت شائعة فى أيامه . فقد كان يحمل خارطة لبلاد المغرب ، ظهر فيها مثلا نهر لوكوس شمالى مدينة القصر الكبير . وهو يمر جنوباً منها ، ثم ينعطف شمالا إلى مصبه فى ميناء العرائش ، كما قدمت فى فصل سابق .

لقد كانت القصر الكبير ، على ما يظهر من كلام هذا المستشرق ، أكبر من طنجة فى القرن الماضى . بل كانت المدينة الأولى ، بعدد سكانها وأهمية مركزها التجارى ، بين مدن الجنوب والسواحل الشمالية . بيوتها مبنية بالطوب . وسطوحها مفروشة بالقرميد كما فى أوربا ، وسوقها الكبيرة عامرة بالمخازن والناس ، وبينهم النساء المحجبات يلبسن الجوارب .

أما اليوم فالقصر الكبير هى المدينة الثالثة (١) أو الرابعة فى هذه المنطقة ، تتقدمها طنجة ، فتطوان ، فالعرائش . لم يقف على بك فى القصر الكبير ، فى طريقه من طنجة إلى فاس ، ليصفها بالتدقيق الذى يميز وصفه للعرائش وطنجة . فقد كان نهرها شمالا منها — على خارطته — فرده إلى مكانه فى الجنوب ، وما رأى حتى من ظاهر حالها غير طوب بيوتها ، وجوارب نسائها .

هذه المدينة هى اليوم قريبة من مركز الحدود بين الحمايتين الإسبانية والفرنسية أى من عرباوة ، على خمسة كيلومترات جنوباً منها . أما اسمها فهو يعود إلى قصر قديم فيها كان يُعرف بقصر كتامة لأحد قادة بنى سريف ، عبد الكريم الكتامى ، نسبة إلى قرية من قرى هذه القبيلة ، لا إلى كتامة القبيلة المشهورة فى المغرب .

وفى القصر الكبير اليوم ما لم يكن بالأمس فى سائر المغرب ، ولا فى خيال على بك العباسى . فى القصر الكبير ، محطة لسكة الحديد بين طنجة وفاس ومطار عسكرى إسبانى ، تحط فيه أيضاً الطيارات الألمانية للسفر من أوربا إلى مدينة القصر الكبير ، ومنها إلى الجزائر الخالدات التى تدعى اليوم باسم ذلك الطير الغريد الكنار — جزائر كنارى . وفى القصر الكبير كذلك مدرسة ليلية للأميين وفروع للأحزاب السياسية فى العاصمة ، ومركز للإذاعة !

ومن شرفة بيت الإذاعة كان زعيم من زعماء المغرب يخطب يوم زيارتنا (١٦ مايو) خطبة من نار ، تتطاير بشرارها إلى ما دون عُرباوة ، إلى قلب المنطقة السلطانية ، إلى مقر السياسة الفرنسية ، فيردد الجمع المحتشد فى الساحة كلمة الخطيب : ليسقط الظهير البربرى ليحيا المغرب موحّداً مستقلا !

هذا ما سمعه سائح اليوم ، وأما السائح بالأمس ، على بك العباسى فقد

---

(١) عدد سكانها ثلاثون ألف نفس ، منهم خمسة آلاف من الأسبان ، وبضعة عشر من الإنكليز والفرنسيين والألمان ، وألفان من اليهود .

سمع الخطيب ، وهو يخطب خطبة الجمعة فى المسجد بفاس ، يقول : لا تبيعوا للنصـــارى ، ولا تشتروا من النصارى ، لا تتعاملوا والنصارى فى أى حال كان .

تغيرت الألفاظ ، وما تغيرت المعانى . تبدلت اللهجات ، وما تبدلت الغايات . هى المقاطعة الاقتصادية منذ قرن وربع قرن . هو الدفاع السلبى فى الماضى وفى الحاضر ، أما أن الضعيف لا يعتدى على القوى فهو معلوم . وأما أن العرب اليوم ، بل الإسلام ، فى موقف الدفاع فهو معلوم مؤكد أيضاً . ولكن أمم النصارى تخطب كلها اليوم ود الإسلام والمسلمين ، العرب وغير العرب . فهل نحن فى آخر ليل المسيحية والإسلام ؟ هل نحن ندنو من الفجر الأول ، فجر اليوم السعيد فى تاريخ الأمم الكبيرة والصغيرة القوية والضعيفة فى المشرق والمغرب ؟ وهل نحن مقبلون على عهد جديد فى السياسة الأوربية ؟

قل : إن شاء الله . وتعال نكمل رحلتنا .

ليت كل شىء فى هذه البلاد المغربية مثل هذا الطريق بين القصر الكبير والعرائش . فهو أجمل طريق فى المنطقة الشمالية ، ومن أجمل الطرق فى العالم ، إن كان فى تعبيده أو فى السهول الخضراء التى يمر بها ، أو فى تشجيره إلى الجانبين من المدينة الواحدة إلى الأخرى . أى مسافة سبعة وثلاثين كيلومتراً ، بشجر الكينا النامى نمواً ماتعاً سوياً ، المغروس على المتر والخيط بقياس واحد هندسى ! وأجمل من كل ذلك الرعاية المشمول الطريق بها . فقلما تجد فيه موضعاً حافراً أو ناتئاً . وقلما تجد فى صفى أشجاره مكاناً واحداً فارغاً ، أو شجرة واحدة متأخرة أو سابقة فى نموها . هذا الاعتناء الدقيق يندر فى أعمال أهل المغرب العامة . هو أوربى ولا غرو . يشاهد مثله فى أكثر الأعمال العامة فى أوربا ، وخصوصاً فى تشجير جوانب الطرق ، وتزيين الحدائق بفرنسا وإسبانيا .

أما السهول فلم تكن مأهولة يوم مر بها على بك العباسى ، ولم تكن غير مرعى للماشية . فكان يرى فى طريقه خيمة هنا وأخرى هناك ، وأكواخاً للعرب الرعاة ، وقطعاناً من الغنم والبقر ترعى حيث نشاهد اليوم سهولا مزروعة ، وبيوتاً فى أطرافها للمزارعين .

فى مثل هذه المقارنات بين مظاهر الحياة والطبيعة فى الأزمنة المختلفة يظهر بعض فضل الرحلات العلمية والأدبية . لقد تحول وجه هذه الأرض شكلا ولوناً ، من الكلأ إلى الحنطة ، وفى ذلك شىء من التقدم . ليت شعرى ماذا يكون حالها بعد مئة سنة . فلو عاد على بك العباسى إلى المغرب اليوم لأدهشته ولا ريب نتيجة اكتشاف البخار بعد وفاته ببضع سنوات ، بل لأدهشته إحدى نتائجه فى سكة الحديد ، ولأدهشه أكثر من ذلك ظاهرة اللاسلكى والإذاعة فى اكتشاف الكهربا والأثير الكهرطيسى فى الفضاء . فما الذى يدهش يا ترى من يعود بعد مئة سنة إلى هذا الوجود ؟ !

على أن هناك تقاليد وعادات هى من الجمود كالجلمود ، فلا تغير فيها ولا تبدل . وهذا المغرب فى بعض مظاهره الاجتماعية ، وعاداته وتقاليده الدينية ، لا يزال اليوم كما كان منذ مئة ، بل خمسمائة عام . فهذا صبىّ على جواد وبعض خلانه يطوفون به فى المدينة احتفالا بانتهائه من قراءة القرآن . هى حفلة الختمة التى يفرح بها ذلك الصبى وأهله ، ويهلل لها الناس فتحييه الرجال ، وتزغرد له النساء .

هذه العادة عربية من قلب بلاد العرب ، وهى لا تزال شائعة هناك ، وخصوصاً فى نجد ، مع هذا الفارق . فالصبى فى حفلة الختمة بالرياض مثلا يمتطى جواداً ويشهر سيفاً وكذلك من يراكبونه من خلانه فيطوفون فى المدينة وهم يهتفون : سامعين لا معين : أى أنهم سامعون دعوة الجهاد يلبونها وسيوفهم لامعة !

وهاك قبراً ذا قبة لولى الأولياء ركب فى حياته الدنيا هواه ، فحلل لنفسه المحرَّمات ، وأكثر من الصلاة والشعوذة ، فقال الناس إنه ذو كرامات ، وأنه إذا شرب الخمر حوله الله لبناً على لسانه !

ومما شاهد على بك فى العرائش ، التى كانت قرية لا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة آلاف نفس ، وهى اليوم مدينة سكانها عشرة أضعاف ما كانوا فى تلك الأيام ، شاهد خارج القرية مقاماً لولية أسماها مريانا — مرجانة — مقاماً يزار كما تزار مقامات الأولياء فى هذه الأيام للعبادة والتوسل . وليس هذا المقام الوحيد لولية تُستغاث فى بلد من بلدان الإسلام . فلا يُستغرب ذلك فى المغرب ، وقد مر بك فى فصل سابق ما كان للنساء فى الماضى من المنزلة الرفيعة فى الكهانة ، أما اليوم فلا أثر فى العرائش ، على ما أعلم ، أو فى غيرها من المدن لمزار الولية مرجانة ، أو لولية غيرها بين الأولياء .

ولم يكن فى هذه المدن الشمالية التى زارها العباسى أو مر بها صرح يذكر من الصروح ، أو جامع يمتاز بشئ يذكر من الفن فى الهندسة أو التزيين ، ذلك لأن هذه الناحية الشمالية لم تكن على جانب كبير من العمران . فالمغرب الأقصى فى عهد المولى سليمان وأسلافه كان يبدأ بالرباط على شاطئ البحر وبمدينة فاس فى داخل البلاد .

إنما كان لطنجة ، على ما يظهر من أخبارها فى الكتب القديمة العربية ، ماض مجيد ، وخصوصاً فى عهد الإسلام الأول ، يوم مر بها إدريس الكبير فى طريقه إلى المغرب ، ثم طرأ عليها من الطوارئ فى الحروب ، ومن الانقلاب فى الاستيلاء ، ما جعلها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بين المدن الشمالية .

أما أصيلة ، القائمة على شاطئ الأوقيانوس ، بينها وبين العرائش ، فهى اليوم من المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة ، سكانها لا يتجاوز عددهم الثمانية آلاف نفس . على أنها ، فى أهميتها التاريخية والأثرية ، قديماً وحديثاً ، مثل طنجة فى زمانها الغابر .

كانت أصيلة – أو أرسيلا كما تكتب بالإسبانية (Arcila) – من المستعمرات الرومانية وقل الفينيقية قديماً . وقد كانت فى أيام العرب أول مدينة العدوة مما يلى المغرب ، كما يقول ياقوت الحموى ، نقلا عن أبى عبيد البكرى . ويقول ياقوت أيضاً إنه « كان عليها سور ولها خمسة أبواب » .

وذلك السور دُمِّر فى الحروب بين العرب والبرتغاليين والإسبان ، ولم يبق منه غير برج واحد من أبراجه على البحر ، ظاهره برتغالى لا عربى . كان البرتغاليون جددوه ، ثم دمره العرب فى استرجاعهم المدينة ، أو الإسبان عندما رموها « بالقنابر » فى النصف الثانى من القرن الماضى .

على ذلك الشاطئ وراء تلك البقية من السور ، شيد الشريف أحمد الريسونى قصره الكبير ، الذى يضاهى فنًّا وجمالا واتساعاً ، أعظم القصور العربية فى الأندلس أو فى المغرب .

ولقد بناه يوم كان حاكماً فى أصيلة من قبل السلطان عبد الحفيظ . فاتهمه الجنرال سلفستر بالتسخير فى بنائه . ولا أذكر فى ما قرأت أو سمعت من أخباره أنه رد هذه التهمة أو فندها ، وهو الصريح الصادق فى أعماله وأقواله . فلو لم يكن سلفستر صادقاً فى الاتهام لما سكت الريسونى . وكأنى به يقول ، وهو العالم بما كان من مسلك الحكام المسلمين وغير المسلمين قبله : أطعموا المحابيس وشغلوهم . فخير لهم أن يعيشوا ويشتغلوا من أن يموتوا من الجوع والكسل .

وكذلك كان فى تشييد القصر بأصيلة ، وفى تشييد ما تقدمه من القصور فى غرناطة وقرطبة ، وبلنسية وفاس ومكناسة .

إن القصر بأصيلة لهو الريسونى مجسما للخلود – الريسونى بفكره ، بعمله ، بضميره ، ببسطة يده ، وبكلمة أخرى إن عظمة الريسونى مجسمة فى هذا القصر . فهو آية فى الإسراف بناء وتزييناً . أما فى الهندسة والفن فليس فيه

ما يحسب ريسونيًّا . إنه لعربى أندلسى بصحنه وردهاته وبهوه الكبير ، كما أنه عربى بمقصوراته المثقلة جدرانها بالرسوم والأصباغ وبالآيات القرآنية والأشعار . كيف لا وفى الحمراء مثلا مقصورات أخذ عنها صناع المغرب كل ما زينوا به جدران الديوانخانة فى الطابق الأول . فالجدار مقسوم إلى ثلاث مناطق غنية : الأولى من الأرض إلى الوسط ، فسيفساء زليجية بالأصفر الفاتح والأخضر الغامق والأزرق النيلى . والثانية جص منقوش ملونة رسومه بالأخضر الفاتح والأبيض المسيج بالرماد . والثالثة خشب محفور بالأشكال المقرنصة المصبوغة بالأخضر والأصفر والأحمر ، تعلوها تلك التى تتصل بالسقف ، وهى مثلها من الخشب ، فى رسوم هندسية ، دوائر ومثمنات ، بدل التقرنص ، مصبوغة بالأصباغ التى ذكرت ، وقد أضيف إليها التذهيب . فمن الرسوم المذهبة فى أعلى الحائط إلى الفسيفساء الزليجية فى أسفله ، وبينهما الجص الملون والخشب المحفور — هو ذا الإسراف فى الفن ، بل البذخ والتبذير . فلو وزع ما فى هذه الغرفة الصغيرة — هى مربعة لا تزيد فى طولها وعرضها على الخمسة الأمتار — لو وزع ما فيها من النقوش والرسوم والأصباغ وأشكال التزيين الأخرى على بهو حجمه خمسة أضعاف حجمها ، لظل كثيراً ، ويحسب خارجاً عن التوازن الصناعى والتناسب الفنى فى البناء .

ولكن التناسب قائم فى صحن القصر ، وفى وسطه بركة بنافورة من الرخام الطليانى ، حوضها قطعة واحدة من المرمر الرقيق ، دائرتها خمسة أمتار أو تزيد . هو حوض أنيق الشكل . وهذه النافورة — أو الشاذروان كما تسمى فى اليمن — قائمة فى وسط صحن طوله مثل عرضه خمسة وعشرون متراً ، تعلوه قبة من زجاج بينها وبينه طابق ثان فيه بهو الاستقبال كبهو السفراء فى الحمراء ، يليق بأن يكون بيت القصيد لأعظم القصور الأوربية . مساحة هذا البهو ثلاثون من الأمتار فى عشرين ، سقفه من الخشب المحفور

المزين بالرسوم الهندسية المصبوغة بالصباغ اللازوردى ، المطليّة بالذهب . وفى وسطه قبة كبيرة هرمية الشكل ، وإلى جانبيها قبتان صغيرتان مثلها شكلا ، يحيط بكلتيهما أربع كوات محفورة مقرنصة وملونة بألوان السقف الذهبية واللازوردية . إذا ما وقفت فى هذا البهو يجذب السقف ناظريك ، فلا ترى الجدران ، وهى مثل تلك التى فى الديوانخانة ، مقسمة إلى مناطق فنية متعددة متنوعة . ولكن الإسراف فيها يتناسب ومساحتها فيزين ولا يشين .

هذا البهو يفضى إلى بهو آخر ولا يفصل بينهما غير صف من العمد والأقواس الأندلسية . ثم إلى رواق ، وراء صف آخر من هذه الأقواس والعمد يشرف على البحر ويرى تحته البرج الباقى من السور البرتغالى ، وقد بدا صغيراً حقيراً بين بحرين . ومن تلك الناحية البحرية يجىء النور وتجىء الشمس فى الأصيل فيملآن الرواق من فيضهما ، ثم يدخلان رويداً رويداً إلى البهوين فيلمسان أرجاءهما وألوانهما ورسومهما لمس الحب والاحترام ملمساً لطيفاً يزيد بما لهما من جلال وفخامة .

وهناك فوق الديوانخانة فى الطابق الأول مقصورة أخرى مثلها فى الطابق الثانى مزينة جدرانها بالرسوم الهندسية الملونة التى ذكرت . إلا أن المنطقة الوسطى المحفورة رسومها فى الجص باقية على لونها الطبيعى . أ إهمالا من الصناع أو عمداً لست أدرى . فهى بين القسم الزليجى والقسم المذهب فوقها آية فى الجمال الرائع الخلاب . كأنها منطقة من عاج بين منطقتين من الذهب واللازورد . منطقة من العاج ، من ذلك اللون العاجى المحروق المنقطع النظير الذى يميز صور رمبرانت الزيتية عن سواها من روائع المصورين . هو فن جميل أصيل .

والعجيب أن صاحب القصر الشريف الريسونى كان ينام فى هذه الردهة — ينام ناعم البال كأنه نائم فى كوخ بجبل العلم ! إن ذلك لعجيب عجيب فى نظرى . فكيف ينام المرء ، وهذا الجمال الفنى يقبض عليه من السقف

والجدران كأشعة الشمس الشارقة بين عينيه ، أو كقوس قزح بين جفنيه . إن كان بى شىء من النعاس ، ودخلت هذه الردهة ، يطير فى الحال على جناح البهجة والحبور .

أقول فوق ذلك إن فى الطابق الأول مسجداً . ولا يفوتنى أن أذكر كذلك أن فى ناحية من القصر ، بالقرب من هذا الجمال الفتان ، الملطف للشعور ، المرهف للإحساس ، فى هذا الجوار الفنى القدسى ، ذلك السجن الذى أشعل فى صدر الجنرال سلفستر نيران السخط والغضب . وكان من أسباب نكبة الريسونى ، كما يقول السياسيون . وفى القول مقاصد تضيع عندها الحقيقة . فالظلم ظلم فظيع منكر يوم نريد أن نعزل الحاكم الظالم ونقضى عليه . والظلم عدل وحكمة ومرحمة يوم لا نريد غير تأييد صاحبه وتعزيزه .

لقد أشرت فى مواضع شتى من الفصل السابق إلى الأسباب التى حملت الحكومة الإسبانية على حجز أملاك الريسونى ، ومنها هذا القصر . ثم أعادت إلى ولده خالد الأملاك دون القصر الذى هو الآن ملك الحكومة الخليفية . وقد رأينا العمال يمدون الأسلاك الكهربية ، ويصلحون بعض الغرف لأغراض عامة فيضاف إلى الآثار العربية الخالدة ، ويغدو مثل الحمراء والقصر بأشبيلية مزاراً للسياح والمستشرقين .

انتهينا من الطواف فى القصر ، ووقفنا فى ساحة البلدة أمام القلعة البرتغالية التى لا تزال قائمة هناك ، ومشينا من الساحة نتذوق روح أصيلة فى بيوتها وشوارعها ، فإذا هى كالعرائش والقصر الكبير . لا يميزها عن سائر المدن الشمالية غير ذلك القصر المنيف قصر الشريف الريسونى . الوداع يا أيها الشامخ بأنفه على تلك البقية من آثار الأجانب الذين كانوا بالأمس من المتغلبين .

وها نحن أولاء فى الطريق عائدين إلى تطوان ، ترافقنا البهجة ، ويحدونا

الإعجاب فلا نزال فى ظلال الأشجار ، وبين بهاء السهول المتموجة بفتى الحنطة والشعير . إن أخصب أراضى المنطقة الخليفية هى هاهنا فى هذه النواحى الغربية البحرية . بين الربى الوادعة ، المكسوة بالأزهار والنبات الطيب الأريج .

فها هى ذى حجرة النخل أو العقبة الحمراء مركز الحدود الدولية المغربية . فالفرع الشمالى من الطريق ينتهى إلى المدينة الخضراء (٢٤ كيلومتراً) والشرقى الذى نحن فيه يستمر إلى المدينه البيضاء (٦٣ كيلومتراً) . قلت إن حجرة النخل مركز فأخطأت . إنها لمراكز عدة للشرطة والحراسة والمراقبة والجمرك وجوازات السفر !

فما أقرب طنجة ، وما أبعدها .

وهذا النهر نهر المُهَرْهَر ، يسير الهوينا ، وهو ينقبض ويتلوى بين المنطقة الخليفية والفحْص ، أى الأرض الطنجاوية الدولية .

فيم الإقامة بالزوراء . . . وفيم الوقوف ؟ دُرْ بنا دون هذه المراكز السياسية الدولية . در بنا فوق تلك الرابية — در بنا ، فى هذا القاع السندسى وراءها — در بنا بين هذه الربى الممرعة التى تدعو الرجايع — وفيها مرقب وثكنة للحكومة الحامية .

ومن المرقب ترى الحدود الدولية بين طنجة وتطوان ، فيشير إليها الدليل ويمكن اللفظ ولا يفوتنا العلم : هناك الحدود الدولية !

اثنان وخمسون كيلومتراً بين هاتين المدينتين الشقيقتين طنجة وتطوان — اثنان وخمسون كيلو متراً تحسبها فى أشواقك الإنسانية كيلومتراً واحداً ، وفى علومهم الدولية اثنين وخمسين ألفاً من الكيلومترات !

الفصل العاشر

جحيم السجون ونعيمها

يوم كان الإسبان يلومون الريسونى على قساوته فى مقاصة الأشقياء والمجرمين، ويستنكرون سجنه بأصيلة، كان يقول لهم: هذا عدلنا. على أنه لم يكن منفرداً بذلك العدل، ولا مخترعاً لشىء من العذاب جديد. فالسجون فى الماضى كانت على السجناء كالجحيم، ولا فرق بين الآسيوية منها والأوربية. وقد كان من الإسبان أنفسهم حكام يشبهون الريسونى، بل يفوقونه، فى عدله، وفى سجنه. لا أعود إلى التاريخ مستشهداً بالحجاج الثقفى وإخوانه، فى كل زمان ومكان. فحسبى أن أذكر واحداً منهم إسبانياً فى زماننا.

كانت جزيرة كوبا، درة الأنطيل، آخر مستعمرة فى العالم الجديد، وفى عهد حاكمها الجنرال وَيْلَر، الذى اشتهر بقساوته، وبسجنه، كالريسونى، ثار الأهالى، فى آخر القرن الماضى، على إسبانيا، وظفروا باستقلالهم. ليس تاريخ تلك الثورة موضوعى. إنما أذكر الآن — وحديث السجون حقاً ذو شجون — أنى زرت مرة سجن القلعة، قلعة مورو، بهاڤانا، بعد استقلال الجزيرة.

تلك القلعة هى على البحر. ووراء جدرانها السفلى، المتلاطمة عليها الأمواج، سراديب عرضها متران، وعلوها لا يبلغ الثلاثة الأمتار، لا يدخلها الهواء والنور إلا من بضع كوات فى جهتها البحرية. ذلك هو السجن، دخلناه على نور الشموع، فإذا هو خال خاو إلا من أشباح المظالم التى

يتصورها الزائر فى ظلماته ، ورطوبته ، وهوائه الفاسد ، ويرى آثارها بحلقات الحديد التى لا تزال بالجدران ، وبالسلاسل المتصلة بها . هاهنا بهذه السلاسل والأطواق كان يقيد السجناء . فى عهد الجنرال وَيْلر وأسلافه . فيقضون الأسابيع ، الأشهر ، السنين ، وليس من يرى بؤسهم — جحيمهم — ويسمع شكواهم ، غير الله .

وفى زماننا كذلك بمكة المكرمة ، كان القبو ، قبو الملك حسين ، وهو مثل هذه السراديب فى عتمته ورطوبته وفساد هوائه ، يساق إليه المذنب ، الشقى والتقى البرىء ، وينزل بهم هناك ، فيقضون الشهور والسنين ، وليس من يرى جحيمهم ، ويسمع أنينهم وشكواهم ، غير الله .

ولكن صبره ، تعالى ، هو غير صبرنا ، وعينه ، سبحانه وتعالى غير عين الناس . فيرى سجن وَيْلَر بهاقانا ، وسجن الريسونى بأصيلة ، وسجن الحسين بمكة ، يرى هذا الجحيم فى السجون ، وفيه الخمسون ، المئة ، المئة والخمسون من عباده ، يموتون كل يوم ، يميتهم الجوع والقنوط ، تميتهم الروائح والأمراض — يرى كل ذلك ويصبر . ويسمع الصراخ والأنين ويصبر .

ثم يرى ، ويسمع ، ويستجيب .

وقد كان السامعَ المستجيبَ ، سبحانه وتعالى ، يوم بعث ابن سعود إلى مكة ليطهرها من الأرجاس ، ويطلق سراح سجناء القبو فيها .

وكان السامع المستجيب يوم أضرم نيران الثورة فى صدور أبناء كوبا فكانت النهاية لسجن ويلر ، وحكم إسبانيا هناك .

وكان السامع المستجيب يوم أوحى إلى الجنرال سلفستر بأن يزور سجن الريسونى ، فرأى ما رآه وكانت تلك الغضبة المنقذة المطهرة — مثل سيف ابن سعود ، مثل ثورة الكوبان .

ذهب الله بتلك السجون فيندر مثلها اليوم فى العالم . وقد لا تجد لجحيمها

أثراً فى غير أخبار التاريخ ، ومنها ما قدمت فى هذا الفصل .

أما الجزء الثانى من عنوان هذا الفصل ، فقد يحسبه القارئ ضرباً من المجون ، أو مظهراً من مظاهر المبالغة فى التشويق والإصلاح . ولكنى أؤكد للقارئ أن التشويق فى هذه الصفحات لا يجاوز حد المنطق فى غريب المشاهدات ، وحد الشعر فى عجيب الحقائق . وقد جاء فى الأمثال الإنكليزية : رب حقيقة أغرب من خيال .

* * *

قال السنيور أراغون ذات يوم سائلا : هل زرت السجن بوادى لاو ؟ ثم مكرراً : يجب أن تزوره . ثم شارحاً : ووادى لاو قريب من تطوان .

فقلت : وهل القريب عندكم مثله عند البدو ؟

فقال : كلا . وادى لاو هو على أربعين كيلومتراً من تطوان — أربعين لا غير .

توكلنا على الله . وخرجنا من العاصمة إلى واد مرتين ، فاجتزناه إلى الجسر ، وقطعنا الجسر إلى الساحل ، ثم سرنا شرقاً ، فبدا الطريق بالجبل أمامنا ، الغاطس فى البحر الشبيه برأس الشفعة بلبنان فأشرفنا بعد القليل ، من علو مئتى متر على الأمواج الساجية ، ودرنا حول الرأس ، ثم هبطنا منه ، فإذا نحن فى واد فسيح كواد مرتين ، يُدعى أمسا ، ويجرى فيه نهر وادع ، مزدانة ضفاته بالدفلى الزاهرة .

ومن وادى أمسا شرعنا نصعد وندور ، ونهبط ونغور ، من مناكب الجبال إلى مرافض الأودية ، الحافلة بالدفلى الوردية والزهور البيضاء . الوادى يتلو الوادى ، ورؤوس الجبال تنادى سفوحها الخضراء والذهبية ، المعانقة هناك السهول ؛ الناحّة هنالك إلى البحر . وقد تخللها ساحات من الرمل بين الصخور ، وبين الماء والزهور . هى الدفلى بزخرفها وبهجتها ، تهديك إلى تلك الخلوات ، وتناديك من أبوابها ، وترافقك فى المرافض النضرة ، فلا تكاد تودع فى المرفض الواحد حتى تسلم فى الذى يليه .

طريق الدفلى إلى السجن . أعجب طريق إلى أعجب السجون .

ومتى ينتهى هذا التصعيد والتغوير ، يالْفريد[1] ؟ . فابتسم الرفيق البستانى ابتسامة لا أمل فيها ، ولا هم .

فقلت : أوَ جئت يالفريد ، بدمك البارد من لبنان ، أم اكتسبته فى هذا المغرب ؟ .

فما أجاب ، بارك الله فيه ، بغير كلمة واحدة : تعودنا .

مرت الساعة ، ونحن فى التصعيد والتغوير مستمرون ، نطوى الجبال الخضراء المشرفة على البحر الأبيض ، فيدنينا الطريق منه حيناً فنستأنس بعينه الزرقاء الناعمة اللحظ ، وحيناً يبعدنا منه ، فيختفى صاحبنا فتعود إلى النفس الوحشة والكآبة .

إن مئة كيلومتر فى طريق قويم فى السهول لأقل مشقة من عشرة كيلومترات فى مثل هذه الجبال .

وأين وادى لاو ، يالفريد ؟ قلت إنه على مسافة ساعة . وهذا ربع فوقها ، وهاك رأس جبل آخر — وهناك ، هنالك الطريق على ما أرى . أم هو شرخ فى رأس الجبل . قل لى — طمئنى .

هو هو الطريق يناديا . وإن بينه وبيننا لست أدرى كم من الأودية . وما عتمنا أن علمنا ، والحمد لله . فقد كان ذلك الجبل آخر المحنة . فهو يشرف على الوادى المقصود ، الذى يرفضّ إليه نهر اللاو .

خمسة وأربعون كيلومتراً من تطوان إليه ، لو كانت فى سهل لقطعناها بنصف ساعة . وقد حسبنا الساعة ونصف الساعة يوماً كاملا .

---

(١) تشيع فى المغرب الأسماء الأولى الحاملة «ال» التعريف ، كالتهامى الوزانى مثلا والعربى الفاسى والمكى الناصرى والطيب بنونه . وهذا أخ لهم من لبنان ألفريد البستانى ، ومثل من نجد فى النداء يالأمير .

قلت فى نفسى ، ونحن نهبط من الجبل الأخير ، سأعد الأكواع والأودية فى العودة . ولقد فعلنا أنا والرفيق المشرف اسمه بألّين من ألات التعريف ، فكنت أنا أعد الأودية وهو يعد الأكواع ، فجئنا بإحصاء عجيب فى إحصاءات العالم . قد شغلنا فى المراقبة والعد فقصر الطريق ، ولا غرو ، وقل : قصرت الكربة ، وخفت المشقات .

وهاك ما أحصيناه . إن فى هذا الطريق العجيب الذى لا يتجاوز الخمسة والأربعين كيلومتراً مائتى كوع ، عدا التفريجات والانحرافات ، وعشرين وادياً ، خمسة منها فسيحة بسهولها وأنهرها — نهرين جاريين وثلاثة جافة — وخمسة عشر وادياً ضيقاً ، بسواق تجرى فى الشتاء . فهل فى العالم يا ترى طريق آخر مثله بمسافته القصيرة ، وأكواعه وأوديته المتعددة ؟

أما الجبال التى قطعناها — فى الربيع ، والحمد لله ، لا فى الشتاء — فهى كلها خضراء ماتعة بالغابات والأدغال من صغير السنديان والبطم والغار ، والدلم والسرو والدردار ، وغيرها مما أجهل أسماءها ، ولا يعرفها الأهالى . وإلى جوانب الطريق ، فى بعض الأماكن يجىء الطيون — طيون لبنان — وكذلك قصعينه وقندوله ، مسلّمين مرحبين .

حياكم الله ، فى كل مكان . وحياكِ أيتها الأكواع والأودية . مائتا كوع ، وعشرون غوراً إلى وادى لاو — المكان قريب من تطوان ؟ ! صلِّ على النبى يا ابن أراغان !

على أن فى وادى لاو ، غير السجن ، مما ينسيك مشقات الطريق — وعجائبه . فى وادى لاو مسجد ذو مئذنة فريدة فى بابها وجلبابها . علوها نحو عشرين متراً . مثمنة الأضلع بخمس طبقات ، وفى كل ضلع شبه شباك مبنى بالزليج . وفى الرأس قبة مخمسة الأضلع بشبابيك خمسة . فيكون مجموع الشبابيك خمسة وأربعين ، عدنا إلى الإحصاء ، والحق فى ذلك على البانى ، لا علىّ . فقد

تعمد الإكثار من هذه الشبابيك ، لا للنور والهواء والشمس ، بل للزينة . فليس بينها غير ثلاثة أو أربعة شبابيك صادقة ، تنير طريق المؤذن ، المجلبب ، فى صعوده وهبوطه ، بجال الشبابيك الكاذبة — فهل يجوز ، وقد تعمد هذا التزيين ، أن نهمل عدّ طبقاته وشبابيكه ، وألوان زليجه الزرقاء والخضراء والصفراء . إنها حقًّا لأغرب وألطف مئذنة رأيت فى المغرب والمشرق .

وهذه المدرسة فى جوار المسجد ، تستقبلنا فيها المعلمة والمعلمان ، فعلمنا أن أحدهما يعلم العربية ، والآخر القرآن ، والسيدة تعلم اللغة الإسبانية ، وأن عدد التلاميذ فى المدرسة خمسون ، من بنين وبنات ، بينهم عشرون من الإسبان والإسبانيات ، ومما علمناه ، أن المدرسة تقدم لكل من التلاميذ والتلميذات الفطور كل يوم ، والشاى مع الحلوى بعد الظهر ، وكسوة كاملة ثلاث مرات فى السنة .

سألت عن سن البنات ، فقالت المعلمة : من الرابعة إلى العاشرة .

وسألت عما كان من إقبال الأهالى على تعليم البنات . فقالت : الإقبال قليل — ولكنه فى ازدياد . . .

قلت : وتلك الفتاة الشقراء الجالسة إلى جنب فتاة سمراء ، أهى مغربية ؟

فأجابت قائلة : هى ابنتى .

هذه السيدة المعلمة هى زوجة المراقب ، « أنطونيو سرڤيرا برسيلو » (Antonio Servera Barcelo) والمراقب هو أيضاً مدير السجن ، والمدير هو منقطع النظير فى سجنه ، وإدارة سجنه ، وروح سجنه ، بل هو روح ذلك السجن ، وملاكه الحارس .

مشينا فى ذلك السهل الفسيح إلى البستان البشرى ، إلى سجن ذى ساحات رحبة ، تحيط بها بيوت ذات طابق واحد ، مفتوحة الأبواب ، وخالية من الحديد ، من السلاسل والقيود .

وها كم بعض السجناء جالسين خارج سجونهم ، أمام الأبواب ، وفى الأروقة كل يعمل عملا . فهذا خياط الجلاليب . وذاك إسكاف يصنع الأحذية . وهاك الحائك ، والحداد ، والدباغ والنجار .

ومنهم حلقات يتعلمون هذه الصناعات . وغيرهم يعالجون ألياف القنب ، فيستخلصون الخيوط منها لصنع النعال . وهذا أستاذ فى علم الاقتصاد يستخرج الخيوط السليمة من برنس خلق ليصنع منها برنساً جديداً .

وما هم فى أثواب خلقة أو رسمية — مخططة للتشهير — بل هم فى أثوابهم اليومية . كأنهم عمال فى معمل ، لا سجناء .

لست أقول ، مع كل ذلك ، إن ما شاهدناه يميز هذا السجن عن سواه من السجون الجديدة فى العالم المتمدن اليوم . وحسبى أن أذكر سجن بغداد مثلا ، فهو أوسع من هذا فى فسحاته ، وأصلح فى بيوته وأجود فى صناعاته .

أما مزية هذا السجن الفريدة ، فليست صناعية ، ولا صحية ، ولا فنية ، فكل هذه الصناعات حسنة ، ولكن ميزته روحية . أجل روحية ، فقد كتب كثيرون من المصلحين فى إصلاح السجون ، وتحسين المعيشة فيها . ولكن طولستوى وقد رأى بعينيه سجوناً فى روسية كالتى شبهتها بالجحيم ، فصاح الصيحة الداوية النافذة ، الجوابة لعواصم العالم ، الصيحة المزعزعة لجحيم السجون فقال : أحسنوا إلى السجناء يحسنوا سلوكهم . أحسنوا الظن بهم ، توقظوا الخير الراقد فى قلوبهم . أيها المديرون لسجون العالم ، ثقوا بفطرة الإنسان الطيبة ، تظهروها من مكامنها ، وتخلصوها من الموبقات .

وقد وصل صوت طولستوى الخالد إلى هذا الشاطىء الأفريقى — إلى وادى لاو فى أرض بنى سعيد من المغرب الأقصى . بل وصل ذلك الصوت الخالد إلى جزيرة مايرْقا ، مسقط رأس أنطونيو برسيلو ، يوم كان رئيساً فى المدفعية .

سألته : أهذه الفكرة فكرته ، أم هى مقتبسة ؟ فقال : قرأت لما كنت

ضابطاً فى الجيش ما كتبه طولستوى فى إصلاح السجون ، وخصوصاً الأسلوب والنظر فى معاملة السجناء . ففطرة الإنسان الطيبة ، تنكمش فتتوارى وتكاد تضمحل ، إذا ما عوملت بالقساوة والظلم . وهى تظهر وتنمو إذا ما عوملت بالمعروف ، هذا الكلام أثر بى أبلغ التأثير ورسخ فى ذهنى .

ثم دارت الأيام بحياة برسيلو ، فقضى مدة فى الجيش يعالج المدافع ، ويطلقها فى الحرب على إخوانه الآدميين ، إلى أن سنحت الفرصة لوضع ما حمل بصدره من مبادئ طولستوى موضع العمل . تلك الفرصة الذهبية سنحت له فى هذا الوادى على هذا الشاطئ الذهبى للبحر الأبيض . فقام منذ ثلاث سنوات ، يوم تأسس هذا السجن يعمل بها ، وهو مسرور بعمله ، مطمئن إليه ، مغتبط بنتائجه .

يقول المدير برسيلو لأولئك العاثرين المحكوم عليهم بالسجن من السنة الواحدة إلى الحد الأخير ، أى السجن المؤبد : أنتم هنا عمال لا سجناء . وما دمتم تعملون عملكم بجد وإخلاص فلا بأس عليكم . بل أنتم الرابحون . فإنكم تتعلمون الصناعات ، وتصبحون من رجال المجتمع الإنسانى المنتجين الصالحين . لا قيود حديدية عندنا — ولا غرف مظلمة — هذه الشمس لكم بخيرها كله . وهذا الهواء الطلق من حقكم الاستمتاع به . وهذه الحقول احرثوها وازرعوها وكلوا من خيرها . أنتم فى هذا المكان أحرار — عمال أحرار ، فكونوا أمناء أوفياء ، حتى تعود إليكم الكرامة والسعادة .

وهو يعين منهم الرعاة والخدم والحراث — احملوا معاولكم ، واتبعونى .

وقد شاهدناهم فى الحقول يزرعون ، وفى البساتين يحرثون ، وفى بيوت الدواجن يطعمونها وينظفون مآويها .

قال المدير برسيلو يخاطب هذا الكاتب : إنى أثق كل الثقة بكل واحد منهم . لا ، ياسيدى ، ما فر واحد منهم هارباً منذ تأسيس هذا السجن . إنى مسرور

جداً بهذه النتيجة الباهرة لعملى . وإنى أؤكد لك أن المغربى صادق أمين إن عومل بالمعروف ، وهو إن وعد بر بوعده . فلو قلت لهؤلاء اخرجوا صباح اليوم للنزهة أو اذهبوا إلى تطوان ، وعودوا قبل الغروب ، لفعلوا . وقد طالما أرسلت الرسول منهم إلى المدينة بألفين أو ثلاثة آلاف بسيطة ليبتاع بعض حاجات السجن ، ففعل ، وعاد بها فى الوقت المعين ، ومعه لائحة الحساب وما يكون قد تبقى من المال . وها هوذا واحد منهم .

كان الشاب السجين داخلا من باب السجن الخارجى ، عائداً من الحقل ، فناداه المدير فجاء فحدثناه .

قلت : ولماذا سجنت ؟

فأجاب : خمرة اليهود ، سيدى ، وبنات اليهود ، ومزاحمة عليهن ، وعركة مع المزاحم . وكانت الخمرة تدور بالرأس ، واليهودية تلعب بالقاب ، فطعنت الرجل بالخنجر — جرحته وما قتلت ، هذا ذنبى ، لعن الله خمرة اليهود واليهوديات !

لهذا الشاب أم فى تطوان . فيقول له المدير ، حين يرسله إلى المدينة : لا تذهب إلى بيتك لتشاهد أمك ، لئلا يعرف الجيران فيفسدون عليك حرينك . فيعمل بما يؤمر به ، دون سؤال .

— ما زرت أمى مرة واحدة . المدير لا يريد .

وهناك ما هو أعجب . كان المدير قد أخبرنى أن من السجناء من انتهت مدتهم ، ففضلوا البقاء فى السجن على الخروج منه . وهو لا يجبرهم على ذلك ما داموا قائمين بالأعمال المعينة لهم . ثم دل على أحدهم فسألته : لماذا أنت باق فى السجن وقد انتهت مدة قصاصك ؟ فقال : وليش تعب الراس سيدى ؟ هنا عمل ، وراحة وهواء طيب ، وأكل وكسوة ، والحمد لله .

وقد أكّد الحمدلة بيده ، وهو يرفعها ورعاً إلى رأسه .

وفى مثل هذا السجن لا بد من مخزن يباع فيه ما بقى ، بعد الاستهلاك

من محصول ومنتوج . فها هو ذا المخزن ، بوكالة أحد السجناء . أما العجيب فيه فهو أنه فى كل سنة يعدل الحساب ، فالذى يبقى من الدخل ، بعد حسم النفقات كلها ، يوزع على السجناء .

إنى مسجل الحقائق المجردة من كل تنميق .

قال المدير برسيلو : ربح السجن فى السنة الماضية ألف بسيطة ، وزعناها على السجناء بالسواء .

فهل يستغرب بعد هذا تفضيل السجين البقاء فى السجن بعد أن تنتهى مدة قصاصه ؟

كان فيه يوم زرناه سبعون سجيناً ، وخمس عشرة سجينة . فزرنا السجينات فى سجنهن الخاص — فى بيتهن . دخلنا الباب المفتوح فألفيناهن يغزلن جميعاً . فسألت الأولى والثانية والثالثة : ما ذنبك ؟ لماذا سجنتِ ؟ . فكان جواب الأولى : مقدور . والثانية : من الله . والثالثة : وهى تنظر إلينا بعين سخينة : ذنبى كبير ، كبير .

ولما خرجنا كمل أحد المرافقين العرب جوابهن قائلا : جرمهن قتل الأطفال .

قلت : ما فهمت .

فقال : هن زانيات قتلن أطفالهن بعد الولادة لإخفاء الجريمة الأولى ، فارتكبن جريمتهن .

* * *

هذا الوادى فى جبال بنى سعيد سمى قديماً باسم أهله الأولين بنى لاو . وهم بطن من أربعة بطون — أماسة ونفوسة وضربة ولاو — تُدعى البُتر نسبة إلى جدهم مادغيس الملقب بالأبتر ، وهو وأخوه بُرنس أبوى شعوب البربر .

وقد يكون الاسم — وادْ لاو — مركباً من اسمى بنى لاو وبنى عبد الواد ، أصحاب الدولة المعروفة باسمهم الماهد لها يَغمراسِنْ بن زيان ، فاستمرت مئة ونيفاً

من السنين ، وانقرضت فى أيام السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر . بنو عبد الواد وبنو لاو — واد لاو — وفوق كل ذى علم علمٌ كما يقول ابن خلدون .

أما بنو سعيد ، عرب هذه الناحية اليوم ، فإن لهم سبعين مدشراً — قرية — منتشرة فى الجبال ، أبعدها على ثلاثين كيلومتراً من الوادى ، وأقربها القرية الجديدة القريبة من المرقب ، وفيها نحو أربعين بيتاً ، بنى السجناء بعضها .

وفى هذا الوادى الممتد عنقه فى ثنايا الجبال ، المفتوح قلبه للبحر ، يجرى نهر اللاو الذى شاهدنا أحد نبعيه عند جبل شفشاون . أما النبع الآخر فهو ينبثق من جبل باب تاز . وبعد أن يجتمع الفرعان قرب شفشاون ويستعملان هناك لتوليد الكهربا ، يخرجان نهراً واحداً ، ثم ينضم إليه فروع أخرى ، فيصل إلى مرفض الوادى نهراً غزيراً ، إنما منخفض عن السهل إلى ضفتيه . لذلك باشرت الحكومة بناء سد يبعد عن البحر اثنى عشر كيلومتراً ، لرفع المياه ، فيحيون بالرى ثلاثة آلاف هكتار من الأرض ، ويؤسسون إذ ذاك معملا للسكر بعد أن يزيدوا بزرع القصب الذى يستخرج منه . وقد كانوا يوم زيارتنا يشتغلون فى تأسيس معمل للغزل مجهز بالآلات الكهربية .

ها هى ذى أسباب العمران الشامل البركات . ها هى ذى فى وادى لاو البساتين — بستان الأولاد ، بستان الرجال ، بستان العمل : المدرسة والسجن والصناعة والزراعة . لا أظن أن فى العالم كثيرين من أهل الإنسانية العاملة والغبطة الشاملة المتمثلتين فى السنيور أنطونيو برسيلو وزوجته ، العاملين الأوليين فى هذه البساتين ، بهذا الوادى المبارك ، على هذا الشاطئ القصى المتوارى بين الجبال .

* * *

عدنا من التطواف إلى بيت المراقب ، حيث كانت زوجته أعدت لنا فنجاناً من الكاكاو — الكاكاو بوادٌ لاو — وأطباقاً من الحلوى فجلسنا حول

المائدة نحن الخمسة — المراقب والعربيان رفيقاه وأنا والبستانى ، وما جلست السيدة معنا ، بل وقفت تخدمنا . هى عادة الأهالى ، المضيف يخدم ضيفه فاقتبستها عنهم .

ويروق العربى ، العالم بما يعترى صلات الأهالى بالأجانب من التكلف والترفع فى البلدان الشرقية ، يروقه أن يشاهد الإسبانى والمغربى مجتمعين متآخيين بدون تعمل أو تصنع ، بدون ترفع أو تواضع من أحدهما . لقد شاهدت ذلك فى أماكن عديدة ، فى النادى بتطوان ، فى قاعة الرقص ، فى المدارس ، فى البيوت .

دعانا عبد الحميد القادرى ، شيخ الطريقة القادرية بتطوان ، للعشاء فى بيته ، ودعا معنا محافظ المدينة فجلس فى الحلقة جلسة ابن البلد ، وأقبل على الزاد بيده ، بالأسلوب السهل الممتنع ، دون أن يلحن مرة — حكمت الاستعارة — بلغة السماط دون أن يدلز أو يبالغ بالتأنق .

وجلسنا جميعاً ، نحن ومراقب العرائش وأعوانه ، من ضباط ومدنيين ، إسبان ومغاربة ، فى ذلك البيت الصغير بقرية بنى غرفط ، كأننا من أهل الولى ، جئنا نحتفل بمولده ، ونشارك فى العمارة المباركة .

ومن أجمل الحفلات التى جمعت بين الشعبين ، فاختلطا اختلاط الخمر بالماء ، وتشابها إلا فى القيافات ، حفلة شاى أقامها السى عبد السلام الحاج ، الذى دعاه الأستاذ يوسف العيسى ، طارق بن زياد لمهابة طلعته العربية ، ويدعوه أصحابه بالأمير لكرمه الحاتمى . فإن له بيتاً بتطوان مفتوحاً للضيافة ، وخصوصاً حين يؤم المغرب أحد مشاهير العرب .

حضر يومئذ نحو مئة من عيون المغاربة والإسبان ، يلبون دعوة الطلاب الذين أرادوا أن يكرمونا فى بيت أميرهم . وكان بين الحضور اليهود واليهوديات فلعبد السلام الحاج قلب واسع ، مثل بيته ، يفتحه للحسان من سائر الأمم والأديان .

أدين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى !

تُرجم هذا البيت لأحد كتاب الإسبان ، وسئل عما إذا كان بين شعراء إسبانيا من يضاهى هذا الشاعر العربى فى معناه وهواه ، فقال : مثله لا يكون غير عربى ، أو من وحى العرب .

وقال عبد الخالق طريس فى عبد السلام الحاج : قلبه مثل قالب العسل . فيه مئة خلية ، ولكل خلية خليلة .

فرفع الإسبانى يده معجباً بهذا التشبيه ، وقال : مانفد معدن النبوغ العربى ، ولن ينفد . الإسبانى والمغربى صنوان حتى فى المجاملات الشرقية .

الفصل الحادى عشر

فى جبال الريف

بعد طريق وادْ لاو تهون الطرق كلها . قلت هذا لرفيقى البستانى ، صباح رحلتنا الريفية فقال : إن شاء الله . فعرانى شىء من القلق ، لأن الرفيق الصديق صادق فى ما لا يقول صدقه فى وجيز قوله . وما توسمت الخير فى الـ « إن شاء الله» التى فاه وقتئذ بها .

توكلنا فى كل حال عليه تعالى ، وسرنا شرقاً بجنوب ، فى طريق شفشاون ، فأطللنا ثانية عليها ، وجزنا حماها ، قاصدين باب تازى . ولكن الرفيق شاء أن يزور قرية له بين البلدين . أقول : له ، بالرغم عن اسمها وأهلها . فهى تدعى مدشر الحاج فرنكو ، ويقوم بتأسيسها بعض اللاجئين من المنطقة السلطانية . فمنحتهم الحكومة أرضاً قرب عين الرامى ، شرقاً بجنوب من شفشاون ، عند أفق مئذنة جامعها الكبير .

عرجنا على مدشر الحاج فرنكو ، الذى كان منذ ثلاث سنوات غاباً من شجر الدلم والسنديان ، فقطعت الأشجار وفحم خشبها ، وجمع الفلين للتصدير ، ثم بنيت الأكواخ ، نحو عشرين منها ، والمسجد والمدرسة . وها هوذا الشيخ الذى يعلم الثلاثين ولداً القراءة والكتابة . وها هوذا زعيم القوم يعدد للبستانى مطالب المدشر الجديد . فقد ساعدتهم الحكومة بشىء من المال لابتياع أدوات البناء والزراعة ، ووعدتهم بالمزيد . فطمأنهم ألفريد ، وأكد لهم أن ما وُعدوا به آتٍ إن شاء الله . وكانت « إن شاء الله » هذه المرة باعثة على الأمل والخير .

مدشر الحاج فرنكو – لقد اختار هذا الاسم هؤلاء اللاجئون ، اعترافاً بالجميل وعملا بما يوصى به الورع والعلم . فالرجل الكريم صالح ، والصالح تقى ، والتقى لا بد له من محجة يحجها لوجه الله . إذن الحاج فرنكو – فهو المحسن إلى هؤلاء الفارين من وجه الموت ، وهذا المدشر حافظ لاسمه وذكره .

مع كل ذلك أقول إن الفضل فى تأسيسه ، ونجاحه ، ورضى أهله ، عائد إلى « الحاج » البستانى ، الذى اهتم بأمره منذ البدء ، وهو لا يزال يعنى به ويشؤون أهله ، « إخواننا المغاربة » .

ومن دار المراقبة بباب تازى ، التى تعلو تسعمئة متر عن البحر ، تشرف على الطريق التى سلكها أولئك المهاجرون من فاس ، ودونها جبل باب القرن ، ونهر صغير هو الحد بين المنطقتين السلطانية والخليفية . وللمشهد نُطُقٌ – اللفظة لصديقى الشيخ الأزطوطى – رائعة فى جهاته الأربع . فهناك فوق باب القرن جبل خزانة ، وعلى الأفق الشرقى بُوحَدّ ، والشمالى ماكو ومُشْكَرَلا ، وفى الجهة الغربية تبدو خيمة بوهاشم مبرقعة بين الوصيفات السافرات للشمس .

وفى هذه النواحى ، بين شفشاون وباب تازى تقطن قبائل الأخماس السفلى والعليا ، وهى تربى على العشرين ألف نفس . وفى الجنوب ، على الحدود ، قبيلتا غَزَّاوة وزِرْوال القاطنون فى المنطقتين ، نصفهم سلطانى والنصف الآخر خليفى .

نستمر فى التصعيد فنصل بعد ثمانية كيلومترات إلى قرية جميلة المكان ، لا ترى هى فيه ، أو إنها محجبة على الدوام . فهناك شلال المياه يطيح من نفنف عال ، فيذهب فى ساقية تتزاحم على ضفتيها أشجار التين والرمان والعرائش الشائكة والزاهرة . هناك الصخور تختفى وراءها البيوت . والأشجار تحجب المياه عن الأنظار ، والظلال الممتدة فوقها ، وخلالها ، تتعقب التائه والتائهة ، والشلال والساقية ، والهواء الناعس الهامس يضيع كل ما يحمله من الطيب ، والسكينة التى تنوب عن القرية فتستقبلك فى غابة من السنديان

العتيق والزيتون ، حول الجامع القديم ، تحت جفن الجبل الذى يرى القرية ، شرافات ، المختبئة فى واديه ، بين أشجاره وصخوره .

أما الجامع فهو وحده يستمتع منذ القديم بجمال المكان . ويقال إنه أقدم جامع فى هذا المغرب ، بناه طارق بن زياد . وهو مبيض من الخارج ، ولا ندرى ما بداخله لأنه كان مقفلا ، وما كان هناك من يفتح لنا باباً من أبواب العلم والتقوى . إنما علمنا أن الجامع مشهور أيضاً بغير قدمه . فإن له أوقافاً كثيرة ، وقد كان مقرًّا للعلم فاشتهر علماؤه بإحسانهم القراءات العشر .

نفع الله الجيران بقدسيته وبعلم علمائه . نفع الله غمارة . إننا لفى جبلها الآن . جبل غمارة المشهور ، منذ عهد ابن خلدون ، وقبله ، بغير العلم والتقوى . جبل غمارة ، عش الدسائس ، ومدرج الفتن. نفعه الله بشرافات . وإن غمارة لمثل جامع شرافات ، عريقة فى القدم ، فقد كانت تصول فى الجبل والساحل يوم وصل موسى بن نصير فى فتوحاته إلى طنجة . وهى اليوم تشرف هذه الجبال باسمها وتفسح فيها لغيرها من القبائل .

ومن حسنات أولياء الأمر فى عهدنا الحديث أنهم عنوا بهذه القبائل فأحصوها. وسجلوا فى لوحات على الطريق عددها ، وعدد مداشرها ، ومساحة أرضها . نحن الآن فى جوار بنى خالد التابعة لغمارة ، وهذه اللوحة عند مفترق الطريق إلى ديارهم تقول : بنو خالد ١٠٧٨٠ ، مداشرها ٧٦ ، أرضها ٦٢٥ كيلومتراً مربعاً .

وهذا مركز الشرطة المشرف على واد منبسط متسع ريان ، يجرى فيه نهر وتقام سوق لبنى دكرون ، وفى القرية مركز لقائد قبيلة الأخماس العليا . وإلى جوانب هذا الوادى من الجهات الأربع تتشامخ الجبال[1] وقمة غمارة منها مكللة بالثلج .

---

(١) أعلى جبل فى المنطقة الخليفية جبل كلعلى (٢٤٠٠ متر) فى جبال غمارة على نحو ستين كيلومتراً ، شرقاً من شفشاون .

دخلنا منطقة الهول فى المشاهد الجبلية ، وشاهدنا لأول مرة غابة من الصنوبر . بل هناك على رأس الجبل غابة من الأرز .

الأودية تتباعد ، والرواسى تتعالى ، والمنحدرات تفاجئك بالنفانف ، والنفانف بالمهاوى ، وتحت المهاوى البطاح والربى ، تتموج فى اخضرارها واصفرارها وظلال بساتينها — تتموج فى نور الشمس خلال الغيوم البيضاء الشفافة — شىء يشبه لبنان فى الناحية الشمالية .

ويقلده فى صنوبره — وفى أرزه ! تباركت الأرض التى تتعاون والإنسان على كل شىء صالح حتى فى التقليد . وتبارك أرز المغرب فى غاباته المديدة ، التى كانت فى قديم الزمان للبنان .

نحن الآن فوق البحر ، بألف وأربعمئة متر . نحن قريبون من جبل كتامة . نسير بين أشجار من الأرز اللبنانى قائمة فى أسناد الجبل ومنحدراته ، فوق الطريق وتحته ، هى أضعاف غابة أرزنا المشهور . إنما علو الأشجار هو دون العشرين متراً ، ومحيطها لا يتجاوز ثلاثة أمتار[1] وقد رأينا منها المحروقة اللحاء ، فعلمنا أن الأهالى يحرقونه قليلا ليستخلصوا القطران منه . فمنعت الحكومة ذلك لأن الحرق وإن كان سطحيًّا يضر بالخشب إن استعمل للبناء أو للصناعة .

بعد مفرق بنى خالد نشرف على البحر ، فيهتف الرفيق قائلا : هناك الجبهة (أى بورتوكباس) .

إنما بيننا وبينها أودية ، وبطاح وكثبان من الرمل ، ومساحات على الساحل تحضن القرى المسيّجة بالصبير . لقد زار ألفريد الجبهة مرة ، وقضى أياماً طيبة بين أهلها ، فهش لها من أعالى الجبال إذ تراءت له على الساحل القريب البعيد .

---

(١) جاء فى دائرة المعارف الإنكليزية (الطبعة الرابعة عشرة) أن فى أعالى جبال المغرب الشمالية أرزاً عمره يتراوح بين الأربعمئة والخمسمئة سنة . علو الشجرة من ١١٥ إلى ١٣٠ قدماً ، ومحيطها من ١٦ إلى ٢٠ قدماً . فقد يكون ذلك فى غير الجبل الذى قطعناه .

وتلفتت عيني ومُذ خفيت عنها « البطاح » تلفت القلب

وهذه إساغن ، اسم لغير مسمى ، أو لقرية خفية مثل أكثر القرى فى جبال المغرب ، وهذا المخفر العسكرى المخزنى بإساغن ، إنه يعلو ألفاً وخمسمئة متر فوق البحر ، ويستقبل جبل تديغين المتوج بالثلج ، فى أواخر شهر مايو ، وهو على مسافة ساعتين مشياً من ذلك المخفر .

وفى جواره ، بين الأخضر والأدكن والأبيض من الجبال ، إلى جانب الطريق ، نصب تذكارى ، حديث الأسلوب الفنى ، بفراش من الرخام أمامه مُدرج بدرجات واسعة مديدة ، تعلو بتؤدة إلى السدة القائم النصب فوقها ، وهو فى نحو عشرة أمتار ، مضلع ومجنح ، ومكلل بما يشبه العمارة فى التماثيل المصرية القديمة .

أقيم هذا النصب فى هذه الأعالى الجبلية فى قلب المنطقة الخليفية ، تذكاراً للثورة التى قادها الجنرال فرنكو إلى ذروة النصر ، والأصح أنه تذكار لاجتماع بعض ضباط الجيش الأفريقى ، إخوان فرنكو ، فى هذا المكان ، فى أواسط يوليو سنة ١٩٣٧ ليقسموا اليمين بأن يعلنوا الثورة ، ويخلصوا لها ، ويجاهدوا فى سبيلها حتى النهاية .

والجدير بالذكر كذلك أن هذا النصب لا يتميز دينياً بشىء — فهو وطنى فنى ، لا إسلامى ، وإن كان فى المغرب ، ولا مسيحى ، وإن كان إسبانى — فكأن الذين أوحوا به ، والفنانين والبنائين الذين كونوه ، يقولون : إننا والمغاربة العرب أبناء وطن واحد .

لم يكن الجنرال فرنكو حاضراً ذلك الاجتماع فى جبل كتامة ، فى هذا المكان منه ، بل كان يومئذ حاكماً فى جزائر الكنار ، أو سجيناً أو منفياً هناك . من الواجب ، ونحن واقفون عند هذا النصب ، أن نعلم القارئ بما تقدم من حياته السياسية وأدى به إلى ذلك المنفى . وسنوجز الكلام .

حياة الجنرال فرنكو مرتبطة بحياة الجيش الإسبانى منذ أيامه الأولى فى المغرب. فكان وهو ضابط صغير يغار على الجيش غيرته وهو القائد الزعيم . فيطلب تطهيره من الفساد وتحسين أحواله المادية والمعنوية بل إعادة تنظيمه على أحدث الأساليب العسكرية .

وبالرغم عما تسرب إليه من الدعايات السياسية ، وتغلغل فى صميمه من نزعات أحزاب الشمال ، بقى فيه كثيرون من أصدقاء فرنكو وأنصاره .

ولكن الحكومة الملكية ، بعد انتهاء الحرب فى المغرب ونفى عبد الكريم ، أهملت فرنكو ، فقضى سنة فى السياحة والدرس ، دون أن يبعد عن موضوع حبه وجهاده .

وما كانت الحكومة الجمهورية لتحسن الإصلاح الذى استمر يطالب به . فلما قُلد خيل روبليس (Gil Rubles) منصب الوزارة عين الجنرال فرنكو رئيساً لفرع من أركان الحرب وفوض إليه أمر إصلاح الجيش ، وإعادة تنظيمه ، فباشر فرنكو العمل ولما يتممه ، ولا عجب .

فبعد أن فازت الجبهة الشعبية ، واستولى الثوار — أحزاب الشمال — على الحكم ، فى فبراير سنة ١٩٣٦ ، عُزل الرئيس سامورا (Zamora) وأقيم مكانه منيوال أنسانيا (Anzania) الذى كان يقول يوم كان وزيراً للحربية فى مستهل الجمهورية ، إنه سيرسل فرنكو إلى جزائر البليار ليخلص منه.

وهاك أنسانيا يعود إلى الحكم — وهاك فرنكو بين يديه — وقد زادته نكبات بلاده ، على يد المتطرفين من أحزاب الشمال ، سخطاً وألماً ، ونشاطاً فى السعى لإنقاذ الجيش من عوامل الفساد والتفسخ ، وإنقاذ الأمة بواسطته من عوامل التحزب والفساد والخراب .

فماذا عمل أنسانيا بفرنكو ؟ عينه حاكماً عسكرياً بجزائر الكنار ، تلك الجزائر القصية فى الأوقيانوس ، وهو يظن أنه قضى عليه وعلى أحلامه . وما

خفى على فرنكو شئ من مقاصد الوزير . فقبل الوظيفة — وقل المنفى — وقاسى هناك ما يقاسيه السياسى المنفى من المراقبة والتجسس ، وظل مع ذلك مستمراً فى مساعيه . وما كانت الأحوال فى مدريد أقل اضطراباً منها فى تلك الجزائر . بل كان المتطرفون أشد عليه فى ذلك المنفى فهدد مرة بخطف ابنه ، وغير مرة بالقتل . تفاقمت الأمور وبلغ الصبر منتهاه .

ثم حدث الحادث الذى كان الشعلة لنار الثورة . ذلك الحادث هو اغتيال العلامة كلفو سوتيلو (Calvo Sotilo) زعيم الحزب الملكى . قُتل فى مدريد فى الثالث عشر من يوليو ليلا بشكل شبه رسمى فظيع .

وقد كان الضباط الذين أقسموا تلك اليمين على اتصال دائم بفرنكو ، فأعلنت الثورة فى مليلية صباح اليوم السابع عشر ، وفى تطوان مساء ذلك النهار .

وفى اليوم التالى وصل الجنرال فرنكو فى الطيارة إلى تطوان ، فاستقبله إخوانه الضباط وفى مقدمتهم الكلونل بايبدر لولب الحركة ، وقلبها النابض فى المغرب . ثم عقد اجتماع عسكرى ، قررت فيه خطط العمل ، وردد صدى اليمين التى أقسموها فى جبل كتامة حيث يقوم اليوم هذا النصب التذكارى .

فى ذلك الحين كان بعض قادة القبائل موالين لفرنكو ، فبث الدعوة بواسطتهم فى القبائل الأخرى ، وأخذ المغاربة ينضمون إلى جيشه . ولكن نقل الجنود ، بعد إعلان الثورة لم يكن متيسراً ، لأن البواخر الحربية الإسبانية كانت ترصد أبواب المضيق . ومع ذلك فقد جازت الفرقة الأولى فى القوارب ، وبعد ذلك سارت الجنود المغاربة والإسبان من تطوان إلى ساحات القتال .

إن أكثر من تطوعوا فى جيش الجنرال فرنكو هم من جبال الريف . والريف منذ عشر سنوات كانت تحارب إسبانيا . فما السبب فى هذا الانقلاب ؟ قرأت فى جريدة إنكليزية رصينة مقالا لمكاتبها فى إسبانيا يقول فيه إن السبب

فى تطوع عرب المغرب هو مادى محض ، ينحصر فى المعاملة الحسنة ، والرواتب العالية . وقد ردد غيره من الصحفيين هذه الفكرة السطحية ، واكتفوا من الأسئلة بظاهرها .

إن لانقلاب عرب المغرب من أعداء إلى أصدقاء ، ومن مقاومين إلى مناصرين ، أسباباً غير الرواتب وحسن المعاملة . ومن هذه الأسباب أن الحكومة الملكية بعد انتهاء ثورة عبد الكريم ، أهملت قادة تلك الثورة ، وأبعدتهم عن مناصب الحكم ، فباتوا لها أعداء ، وما سعت بعد أن رأت نتيجة سياستها لإصلاح الأمر . فأولئك القادة رؤساء فى قبائلهم ، التى انقادت لهم ، فاشتدت الضغائن على الإسبان ، وحلت محل الثورة حركة فكرية خفية .

وفى عهد الجمهوريين تفاقمت الأمور ، لأن سياسة مدريد الخارجية المغربية حذت حذو السياسة الفرنسية فى المنطقة السلطانية . فاتفقت الحكومتان اتفاق أصحاب المصلحة الواحدة ، فأهملت مطالب المغاربة ، واحتقرت قادتهم وفرضت المراقبة عليهم ، فشعر الجميع ، التابعون والمتبوعون ، بالذل والهوان ، وتحولت الثورة الفكرية إلى نهضة وطنية ، على الحكومة الجمهورية .

ولو لم تكن ثورة فرنكو ، لكانت ثورة المغرب .

أضف إلى ذلك أن الجنرال فرنكو وإخوانه الضباط كانوا يعطفون على المغاربة ، ويخلصون الولاء لهم وللمغرب ، فنصروهم على الجمهوريين وسارعوا إلى السلاح والتطوع ، فكان عددهم يزداد يوماً فيوماً ، حتى بلغ فى مدة الحرب الأهلية مئة وثمانين ألفاً . وما كانت شجاعتهم فى الحرب مع فرنكو بأقل منها يوم كانوا حرباً عليه . بل حاربوا مستبسلين ، لأنهم كانوا مؤمنين . فلقد آمنوا بفرنكو ودعوته ، كما آمنوا بقادتهم والزعماء . وقد خاضوا المعارك متيقنين أن انتصارهم هو انتصار المغرب ، وأن فى تحقيق مبادئ الثورة تحقيق مطالبهم الوطنية وآمالهم القومية .

والجدير بالذكر هو أن الإحساس الدينى ، الشديد فى المغاربة والإسبان ، كان من العوامل القوية التى كونت الثورة ، وضمنت لها النصر . فقد تصور الثوار ، وصوروا للمغاربة ، أن الجمهوريين أعداء الدين وأعداء الله . وأن الانتصار عليهم هو الانتصار على الكفر والإلحاد . إن فى ذلك التصور من الوهم والخداع ما فى كل دعاية من الدعايات السياسية فى هذا الزمان .

* * *

نعود إلى رحلتنا الريفية ، بعد أن وقفنا هنيهة أمام النصب عند باب الريف ، نقص على القارئ القصة التى تتعلق به بداية ونهاية ومستقبلا . فإن للتعاون الإسبانى المغربى نتائج دائمة ، ظهر بعضها ، والأمل كبير بما سيظهر فيما بعد .

نعود إلى الرحلة الريفية ، بل نبدأ الآن بها ، وقد قطعنا جبال غمارة ، واستقبلنا جبال الريف . فعاد الزمان إلى أوائله ، على الأقل فى الأسماء ، أسماء الأماكن والبلدان .

إساغِنْ ــ كتامة ــ زَرْقَتْ ــ تَرْغيسْتْ ــ هذه الأسماء تبعدنا عن العربية ، ولا تدنينا من لغة معروفة مألوفة . فالشائع أنها بربرية ، وقد لا تكون كذلك من غير الوجهة الذوقية . أما من الوجهة التاريخية والجنسية فقد تكون غوطية أو بيزنطية أو أفريقية أو فينيقية .

وصلنا من إساغن إلى ترغيست حيث تلتقى ثلاث سواكن : الياء والسين والتاء ، وثلاث قبائل : بنو مَزْدَوى وبوخنّوس وبونصار ، وثلاثة ألغاز : بربرى ومغربى وعربى .

والزمان اليوم يعمل فى تكوين اللغز الرابع ــ الإسبانى العربى . فيقف رحالة المستقبل عنده سائلا كما نقف اليوم سائلين : وما البربرى ، وما المغربى ، وما العربى ، وما السبَنْرَبى ؟

اللغز السبنربى هو هنا فى ترغيست وسنكفى رحالة المستقبل مؤونة السؤال .

ترغيست مركز عسكرى فى وسط المنطقة ، عند الحدود الغربية لجبال الريف . فالإسبان العسكريون فيها أربعة آلاف ، والمدنيون ألف واحد ، والمغاربة تسعمئة نفس لا غير . إنما فى جوار البلدة القبائل الثلاث التى ذكرت ، وعددها جميعاً أربعة عشر ألف نفس .

إسبان ومغاربة ، فى هذه البقعة الجبلية العالية ، الطيبة الهواء المرهفة الغرائز الحيوانية ، إسبان ومغاربة متآخين متحابين فى هذا الزمان السعيد — فى العقد الرابع من القرن العشرين — وقل متناسلين ، بالرفق والتؤدة . مرة كل شهر ، كل عام ، كل عشرة أعوام ، فالمحصول ، بعد خمسمئة أو ألف عام ، هو واحد . هو هذا اللغز الأثنولوجى السيكولوجى . إنه يكون لغزاً ، نعم ، لولا هذه الأسطر العشرة الشارحة لأصله وحاله فى التكوين .

فلو كان ابن خلدون ، أو غيره من العلماء فى الماضى ، مدققاً محققاً فى أصول الأشياء والناس مثلنا اليوم ، لكفانا مؤونة السؤال والافتراض والحدس . ومع ذلك سنعود فى فصل آخر إلى الموضوع فنسأل ونفترض ونحدس فى من هو البربرى فى المغرب ، ومن هو العربى ، ومن هو العربى المغربى البربرى ؟

إننا الآن فى ترغيست ، على ألف ومئة متر فوق البحر ، فى سهل مفتوح للرياح الأربع . وما هى مع ذلك الكينا والحديد فى المناخ ، فتشعر بنشاط يذهب بتعب الأسفار ، ويبش للغسق ، فالمساء ، فطنجة للعشاء مهما تكن ، وفراش بعد ذلك من تراب ، ووسادة من حجر .

ولكن فى ترغيست قائداً عربى الاسم واللسان والروح . يقول للحجر : لِنْ ، فيلين . هو الحاج أحمد بن شعيب بورجيلة . الحصيف الحكيم والتقى الورع ، فقد حج ، ثم ساح فى الشرق العربى — جاب الأمصار فتمصر — ثم عاد إلى هذه الجبال الريفية يتولى شؤون القبائل ، ويشرف على بناء المستشفى الجديد ، ودار الصناعات . ويضيف الزائرين لترغيست أو المارين بها .

والحاج أحمد محدث فكه مفيد ، يحدثك فى شتى المواضيع إلا السياسة . فقد كان من القادة فى جيش عبد الكريم — والسكوت بعدها أولى . أما القبائل ، فالذى يعرفه عنها كان يجهله ابن خلدون .

صنهاجة ؟ نعم ، فى هذه الناحية جذم منها وعدة بطون ، عربية الاسم وغير عربية ، تجمعها صنهاجة سراير . أما البطون العربية الاسم فهى بنو شيبت — وهم فى رأيه من بنى شيبة الحجاز حافظى مفتاح الكعبة ، إلا أن التاء القصيرة هناك أمست طويلة فى المغرب — وبنو أحمد ، وبنو بشير ، وبنو بونصار . وغير العربية هى تغزوت وزرقت وبنو خنّوس وبنو مزدوى . ولكل هذه القبائل ولى واحد كبير ، جامع شامل فى بركاته وفى اسمه هو سيدى محمد بن صدّيق أخمليش ، المدفون بحيّون فى قبيلة بونصار .

صناعات ؟ موجودة . فبنو مزدوى مشهورون بصناعة البارود ، وتغزوت مشهورة بصناعة الأسلحة .

قلت : وهل تفكرون فى غير الأسلحة والبارود فى هذه الجبال ؟

فضحك وقال : كنا نقول : الكلاطه[1] قبل كل شىء . فصرنا نقول : المدرسة قبل كل شىء . ولكن منزلة الكلاطة محفوظة . ولا عزيز بعد الله غيرها وغير المدرسة .

قلنا للحاج أحمد : إن لعائلة بورجيلة فرعاً فى لبنان . ولكنهم نصارى وفيهم بطريق . فقال — زادنا الله نعمة . ووعدنا بأنه سيزور لبنان إن شاء الله ليتعرف إلى أهله فيه .

ودعناه صباح اليوم التالى ، وفى القلب غرس من بستان مودته ، وشىء من الأمل باجتماع البورجيليين ، اللبنانيين والمغاربة .

---

(١) الكلاطة هى الاسم العام فى المغرب لكل بندقية . وهناك زيدان ، البارودة القديمة التى تحشى بالبارود . والخماسية (الأوربية) ذات الخمس طلقات . وأم كحلة « عروس المغرب » .

وودعنا سهول ترغيست المرابط فى أفقها جبل الأرز ، فأطلالنا ثانية على البحر البعيد الأفق . وبعد أن انطوى الأفقان وتواريا ، طلعت علينا طلائع وريْاغل فى أراضى الوطا والمنكور .

بنو ورغايل صناديد الريف ، هذه ديارهم ، تشرف عليها من مركز المراقبة بقرية بنى حديفة ، ونلاحظ أن البيوت فى جبال الريف هى مثل البيوت اللبنانية القديمة مبنية بالحجارة ، مربعة منبسطة السطوح . إلا أنها مسيجة بالصبير ، وبين البيت والآخر فسحات مديدة يكثر فيها اللوز والتين والزيتون .

بعد بنى حديفة نستقبل جبلا ولا كالجبال هو جبل الحمام . وليست الصفة الممتازة فى الاسم أو فى ما يأوى إليه من الحمام . هو جبل ولا كالجبال لأن فيه يعقد ديوان الأولياء ، كما تقول الأساطير (١) .

وهذه تماسينْت أم القرى فى ناحية الغيس من جبال الريف . وهى تمتاز ، بعد بساتينها الزاهرة وسهولها الخصبة ، ومياهها الجارية ، ومدرستها الزراعية — تمتاز بشىء شبيه بالأساطير . كيف لا وهى مسقط رأس ذلك العلامة الفقيه المنقطع النظير فى زمانه . وكل زمان . فقد كان كاتباً غزير المادة ، ولكنه ما كتب غير الحواشى ملأ بها هوامش الكتب .

فلو علم به أبو بكر الخوارزمى لهبط من عليائه إلى تماسنت ليحييه ، ويفلى حواشيه . ولو سمع به الزمخشرى لنوّر ضريحه عاماً بعد عام بزيت الزيتون (٢) .

كادت حواشى فقيه تماسنت تنسينا الحاشية المهمة فى تاريخها الحديث ، وهى أن الشريف الريسونى مدفون فيها .

---

(١) أى الأساطير : الفينيقية أم الإغريقية ؟ وهل لديوان الأولياء صلة بذلك الديوان الإغريقى الذى كان يدعى (The Arcopaqus of the Holy)

(٢) ولا بد لهذه الإشارات الأدبية من حاشية تنيرها . قيل لأبى بكر الخوارزمى عند موته : ماذا تشتهى ؟ قال : النظر فى حواشى الكتب . وقال الزمخشرى : الزيت مخ الزيتون والحواشى مخ المتون .

وإنى أتصور ذلك المخبر للحواشى ، وبيده سيرة الريسونى ، يكتب على هامش صفحتها الأولى : أخطأ وأصاب . وعند الله كل الصواب .

وعنده تعالى ، الثواب لمن يحسن العمل مهما يكن ، والعقاب لمن لا يحسنه . فقد رافقنا من مرقب بنى حديفة رجل يدعى ابن على العبد لاوى ، فظننته من اسمه — لاوى — يهوديًا . ولكنه يحمل الاسم قصاصاً له ولمن تحته من بنى عبد الله عائلته . بنو عبد الله — عبد لاوى — كذلك تنحت أو تنسب الأسماء فى المغرب ، وكذلك تفسد اللغة . فهل يستعظم القصاص بعد تحويل الله إلى لاوى؟

وكنا أثناء الاقتباس لهذه العلوم اللغوية والإلهية ، نهبط من الجبال إلى مرفض الوادى الكبير . وادى النكور ، فعرجنا على إفْزورَن ، وزرنا مدرستها الشبيهة بما شاهدنا من مدارس القرى والقبائل ، بصفوفها وكتبها ورسومها الملونة النباتية والجغرافية والفيزيولوجية المعلقة على الجدران ، وبنظافة غرفها وتلاميذها من بنين وبنات .

وفى وادى النكور يجرى نهران ، النهر المسمى باسمه ، ونهر الغيس . ويقوم إلى جانبه الشرقى من الوادى جبل تمسمان وبنى توزين ، فيمتد شمالا إلى البحر وينتهى فى شبه رأس عند الخليج .

إن وادى النكور لأرحب الأودية وأخصبها فى هذه الناحية ، كثير المياه والبساتين ، كغوطة دمشق . وفيه من قديم المدن وحديثها اثنتان هما أجدير وسان خرخو .

سان خرخو ، هاك رطانة جديدة فى الأسماء ، حلت محل الرطانات القديمة التى كانت شائعة فى هذا المكان . فالطرف البحرى منه قَنْتُ الزيت ، والشاطىء الرملى تَغْدَيت ، والقرية التى غمرتها المدينة كانت تعرف بتَغْزَوِيت . كأنها تنتقل من شكل إلى شكل دون أن تبرح أولى درجات الارتقاء .

قد تأسست هذه المدينة الجديدة على رأس البر ، عند خليج النكور ،

سنة ١٩٢٥ ، ودعيت باسم القائد سان خرخو الذى نزل بجنوده على هذا الشاطىء فى آخر مرحلة من ثورة عبد الكريم . عدد سكان هذه المدينة اليوم ستة آلاف من الإسبان ، وألفان من أهل الريف ، وثلاثون أو أربعون يهوديا . مياهها تجلب من جبل هو على أحد عشر كيلومتراً منها . وفيها مأوى لفقراء الأهالى ، ومدرسة دينية ، ومستشفى عصرى ، ومحكمة شرعية ، ومجلس بلدى مؤلف من إسبان ومسلمين رئيسه الحاج سليمان الخطابى ، باشا المدينة .

الخطابى الورياغلى — نحن فى ديار بنى ورياغل التى أشرفنا عليها من الجبال. وهى من أكبر القبائل الريفية ، تقسم إلى جذمين : مرابط وخطابى . ويقسم الخطابى إلى بطون أهمها بنوعبدالله بن على وبنوعلى بن على وبنو يوسف بن على. ومن المرابطين بنو حديفة وبنو بوعباش . وتكثر الآية فى أسماء البطون والمداشر فى أكثر القبائل الريفية . ففى ورياغل مثلا آية يوسف ، وآية إبرهيم ، وآية عمر وبكر . وفى تغرسيت آية مشيطة وفى شوكت من بنى سعيد آية حمّو ، وكلها تكتب بالتاء الطويلة ! آيات فى الخلط بين العربية وغير العربية — وبين الإسلام والوثنيات التى تقدمته فى هذا المغرب .

والنكور منها فى القدم والغموض . يذكر ابن خلدون شيئاً من فصلها ، ولا يتجاوزه إلى الأصل . فقد كانت اسماً لمدينة اختطها سعيد بن صالح بن منصور الحميرى من عرب اليمن الفاتحين . وكان يعرف بالعبد الصالح . استخلص بلاد النكور لنفسه وأقام فيها ، وكثر نسله ، فاجتمعت إليه قبائل غمارة وصنهاجة وأسلموا على يده .

هذا مثال من تاريخ ابن خلدون وعلمه . فالنكور مدينة اختطها ابن صالح اليمنى ، والنكور بلاد استخلصها لنفسه وأقام فيها . وليس فى اسم المختط للمدينة ، أو المستخلص البلاد ، ما يدل على أصل النكور ، أو يحل عقدتها .

ويقول ابن خلدون إن بلاد النكور تنتهى من المشرق إلى جراوة ، مسافة

خمسة أيام ، ومن المغرب إلى مروان من غمارة ، وإلى مسطاسة وصنهاجة . هذى هى بلاد النكور التى تكاد تكون أكبر من بلاد الريف ، ولم يبق منها اليوم غير الوادى والنهر ، الذى يخترق المنطقة من الشمال إلى الجنوب ، مثل نهر الغيس . ولكن مخرج النكور من جبال غزناوة ، ومخرج الغيس من جبل مزدوى بالقرب من ترغيست . والنهران لا يجتمعان فى آكال ، كما يقول ابن خلدون ، بل يجريان من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، كل فى طريقه مستقل عن الآخر ، فيقترب الواحد من الآخر قليلا فى الوادى ولا يلتقيان ، ثم يصبان مفترقين فى الخليج ، تجاه تلك الجزيرة الغربية التكوين الشبيهة ببارجة حربية راسية فى ميناء سان خرخو .

ومما لا ريب فيه هو أن مدينة النكور كانت فى هذا الوادى ، وربما مكان أجدير اليوم ، لأنها كانت تدعى أيضاً بين النهرين .

وهذه بين النهرين ، أجدير عاصمة بنى ورياغل ، ومسقط رأس عبد الكريم الخطابى . مررنا بالبيت الذى كان بيته وهو اليوم مقر المراقب المحلى . أما المرقب العام لإيالة الريف فهو بسان خرخو . والريف كله ، وهو نصف المنطقة الشمالية [1] مقسوم إلى إيالتين : هذه التى نجتازها ، والإيالة الشرقية التى نحن قادمون إليها .

عدنا فى الوادى بجانب النهر ، فجزناه بالسيارة عند سفح الجبل واستأنفنا التصعيد والدوران فى طريق وعر ، كثير الغبار ، هو الطريق الجديد إلى مليلية . وقد تغيرت كذلك تربة الأرض ، فهى حوّارية كلسية ، دكناء جافة . ينبو النظر عنها ، ويتعب الراكب فى القليل من طريقها .

---

(١) حدود الريف هى شمالا : البحر المتوسط من كبدانة ، شرق مليلية ، إلى مثيوة ، شرق الجبهة ، أى بورتوكباس . وجنوباً : المنطقة السلطانية من كتامة إلى نهر ملويه . وغرباً : من مسطاسة قرب البحر إلى كتامة على حدود المنطقة الجنوبية . وشرقاً : نهر ملويه إلى كبدانة . ويتبع بلاد الريف جغرافياً وتاريخياً ، ثلاث جزر هى كبدانة والنكور وبادس . أما اليوم فهى فى وصفها السياسى تابعة لمدينة مليلية المستقلة عن المنطقة .

وما كان منه غير القليل . فبعد أن أدركنا ، بين عزيب الميضاد ودار دريوس ، أعلى نقطة فى هذه الجبال ، أى تزتز ، التى تعلو ١٩٥٠ متراً عن البحر ، انفسحت الأرض ، واخضر بساطها المديد . فإذا نحن فى سهل كسهل البقاع خصباً وهواء وبِشراً .

وفى هذا السهل ، بل فى هذه المنطقة من المغرب الأقصى ، شاهدنا لأول مرة الجمال . وعلمنا أن القبائل التى تقتنيها هى ثلاث رُحَّل لا غير ، منها قبيلة بنى بويحيى .

وفى هذا السهل ، بل فى جبال الريف كلها ، لا تبيض البيوت من الخارج كما فى الناحية الغربية . بل هى من لون الأرض التى تحيط بها ، كبيوت القرى فى اليمن .

وإلى بلدة تستوتين فى هذا السهل تصل سكة الحديد من مليلية . فنمر بعد تستوتين بالجبل الذى وقعت فيه الوقعة الأولى فى ثورة عبد الكريم ، ومنه إلى سلوان محل النكبة التى نكب بها الجيش الإسبانى .

ومن سلوان نجنح إلى الشمال . ونستمر نازلين ، فندنو بعد قليل من البحر ، ومن الغروب .

فهده ، بعد سلوان ، الناضور وفيها مركز المراقبة العامة للإيالة الشرقية . وهذه ، على بضعة عشر كيلومتراً منها ، مدينة مليلية .

الفصل الثانى عشر

مليلية وجبال الحديد

لو كان الإنكليز الفاتحين لهذه المدينة فى القرن السابع للميلاد ، والمستعمرين الحاكمين السائدين فيها ثمانمئة سنة ، فخسروها بعد ذلك لفساد تسرب إليهم ، أو لقوة أو حيلة فى الصائل عليهم ، وكانوا اليوم فيها مثل هذه الشرذمة من العرب المسلمين ، لما كان السائح الإنكليزى يختلف كثيراً فى نظره وشعوره ، عند ما يدخل مليلية عن هذا السائح العربى .

المسألة قديمة جدا . هى أقدم من قطيع لابان ، وأقدم من جب يوسف ، وأقدم من دم هابيل . هى مسألة قديمة حديثة وعقلية وجدانية ، والرأى السديد فيها هو دائماً جديد ، دائماً جديد .

فمهما تغيرت وتلونت وجوه الحق والوجدان ، فالحق والوجدان لا يتغيران . ومهما ارتقت القوانين ، وتطورت الشرائع ، فى حقوق التملك الشخصى أو الدولى ، فالحقيقة الدائمة التى لا يعتريها شىء من الفساد أو التغير ، هى أن الإقامة والزمان ، من أركان حق التملك . إن كان للأمم أو للإنسان . ولا تفسد ذلك ، ولا توقف أحكامه ، اللهم إلا وقتيا ، حيلة لابان مثلا ، أو خيانة إخوة يوسف ، أو ضربة قايين الذابحة .

وحينما يُسطَى على الإنسان فى ملكه ، بالقوة أو بالحيلة ، أو يسىء هو إلى نفسه بما رَكَّ من خلقه ، فيبسم للساطى ويداجيه . أو يخنع له ويواليه ، فيفقد ذلك الملك ، ويسلى نفسه مثل لابان ويعقوب بالعهود ، فإن نظرى قد يتغير فى

المسألة ، ويظل وجدانى واحداً لا يتغير .

والسبب فى ذلك هو أنى من أولئك الذين يعطفون على الضعيف المظلوم ، وإن كان ضعفه من نفسه وظلمه من يده ، وأنى فى هذا ، ولا ريب مسيحى. فإن كنت أعجب بالقوى ، فإعجابى لا يقرن دائماً بالحب ، ولا بذلك الشىء الذى يحمل أكثر الناس على أن يكونوا من الأكثرية فى المجتمع الإنسانى . إنى إذن مقلد لذلك الذى صلب ، والحمد لله . فلو شهدت ديكين يقتتلان لملت بقلبى إلى الديك المغلوب ، وإن كان لجار غير محبوب !

ولو كان الإنكليزى أو الفرنسى أو الإسبانى هذا الديك المغلوب اليوم فى مليلية لكنت إنكليزيًّا أو فرنسيًّا أو أسبانيًّا فى شعورى ووجدانى .

إنما الديك عربى ، وقد فقد الزاهى من ريشه ، وذهب الزمان بعرفه وبصوته . فليس فى مليلية اليوم ديك عربى يصيح ، ولا ديك عربى فصيح . فهل يلام السائح العربى إذا وقف وقفة شعراء الجاهلية عند الطلول والآثار ؟

جلست قليلا فى المدينة التى فتحها العرب فى أيام الفتح الأول ، واحتلوها وعمروها ، وكانوا السادة فيها ثمانمئة سنة ، فعرتنى رعشة من الأسى . ليس هنا أثر عربى ، ولا إسلامى .

والعرب المسلمون — ألفان لا غير — ضائعون بين ستين ألفاً من الإسبان ، وقلما يتميزون عنهم فى هيئتهم وزيهم .

مشينا مع الدليل ، وهو مسلم فى ثوب إفرنجى ، وعربى بلسان إسبانى مغربى إلى قهوة فى الشارع الكبير ، فاجتزنا شوارع كبيرة تعددت فيها المقاهى على الأرصفة ، تحت الخيم ، وازدحمت بها الرجال والنساء ، فخلتنى فى مدريد أو فى باريس ، وهذا بائع الجرائد وليس بينها جريدة عربية .

قال الدليل : غداً نزور الجامعة الإسلامية . فسررت ، وما طال ذلك السرور . فقد زرنا « الجامعة » صباح اليوم التالى فإذا هى جمعية خيرية تأسست

منذ أربعة أعوام ، للاهتمام بشؤون المسلمين المقيمين والذين يؤمون المدينة من الجبال . وقد باشرت الأعمال التى تقتضيها الشؤون الضائعة المتبعثرة . فمن ذلك أن تبنى مسجداً ، وتؤسس مدرسة بل مدرستين ، للبنين وللبنات ، وملجأ للعجزة ، وآخر للأولاد الفقراء المتشردين وغرفة تجارية كذلك . ومن مقاصد الجمعية تنظيم سلك العمال وأصحاب الحرف ، لتحسين أحوالهم وللدفاع عن حقوقهم ومصالحهم .

رافقنا الرئيس إلى أولى هذه المؤسسات ، وهى بناية بطابقين ، وراءها حمام عام ، ووراء الحمام المسجد ، وفى البناية دكاكين هى وقف عليه . لقد قدمت البلدية الأرض هبة للجمعية ، وقدمت الحكومة لها بعض المساعدة المالية ، وجلبت لها معلماً من لبنان يعلم فى مدرستها العربية .

كل هذه الأعمال الخيرية القومية المدنية والدينية — تقوم بها الجمعية ، بمساعدة الحكومة . قالها الرئيس بلهجة فيها سرور ، يخالطه امتنان . ونهضة المسلمين هذه ، فى مدينة كانت لهم ، فأمست أوربية مسيحية حديثة العهد ، كما قدمت ، لا سابق لها ، تمهيداً أو إنشاء ، لا من الإسبان ولا من المسلمين أنفسهم . فقبل أن تأسست هذه الجمعية كان القطيع بلا راع يرعاه ، ولا من يهتم بشؤونه من المحتلين . فالحالة الحاضرة فى الإنشاء والإصلاح والتعاون هى مظهر من مظاهر التجدد القومى فى بلاد العرب ، والنشاط الدينى فى بلدان الإسلام كافة . فالدولة الأوربية المسيطرة على بلد إسلامى ترى من صالحها أن تساعد فى تحسين أحوال المسلمين ، الدينية فى الأقل والاجتماعية . وهذا ، من فضل ربك ، فى مليلية اليوم ، وإن كان قليلا . فالكثير الضائع ، لا يفدى بالقليل أو بالكثير من هذه الأعمال الخيرية .

مليلية أحد الثغور الأفريقية والآسيوية على البحر المتوسط ، بل أحد الثغور العربية فى الماضى . عرتنى إذ جلست فيها ، رعشة أسى تلتها رعشة من الخوف . خفت

على بيروت وطرابلس ، خفت على حيفا ويافا ، حتى على الإسكندرية — فالأوربيون اليوم فيها جميعاً ، والهجرات الأوربية إليها متواصلة والمشاريع الأوربية فيها تزداد يوماً فيوماً ، والمدارس الأوربية تنشر أعلامها فى جدار المدارس الوطنية ، والحكم الأوربى يحل محل أحكامها الأهلية ، من إسكندرونة إلى ... حذار يا إسكندرية . فإن تهاوناً فى سيادتك القومية يصير فتقاً فباباً للسيادة الأجنبية .

وليس التيار الأجنبى اليوم كتيار الأمس فى مجراه . فهو اليوم مكهرب نشيط ، سريع التدفق والشمول . فالانقلاب الذى استغرق مئة أو مئتى سنة فى هذه المدينة من مدن المغرب لا يستغرق خمسين سنة فى مدن الشرق العربى . هذا إذا استمر التيار الأجنبى فى مجراه الفياض الغلاب .

وهو مستمر إن كانت الأمة العربية لا تتنبه له . هو مستمر إن كان أمراء العرب وملوك العرب وساسة العرب لا يهتمون للثغور العربية اهتمامهم للعواصم . هو مستمر ، وهو غالب ، إن كان العرب لا ينهضون نهضة واحدة ، موحدة الصفوف والمحجة ، ليدفعوا هذا الخطر عن ثغور هى عربية منذ ألف ، منذ ألفين ، منذ ثلاثة آلاف سنة .

لقد خفت عليك يا بيروت — خفت ، وأنا فى مليلية ، عليك ! فعندما تلفظ الروح القومية فيك نفسها الأخير ، تمسى مدارسك وجامعاتك قبوراً لها . وعندما تتلاشى فيك الوطنية العربية تنقلب المعاهد الحية عليك وتغور طوع إرادة الأجانب فى كل ما ينتغونه منك . وحينما يستسلم الرعيل الأخير من فرسانك الأحرار ، يذل سادتك وزعماؤك وينبذون قصيًّا ، فتهجر المساجد والكنائس ، ولا يبقى لمئذنة صوت ، أو لقبة صدى ، وقد تبقى فيك ، يا بيروت ، شرذمة من اللبنانيين العرب المسلمين والنصارى ، كهذه الشرذمة الإسلامية فى مليلية .

بيروت ، حيفا ، يافا ، الإسكندرية ، ثغور هذا البحر الأبيض جميعاً

– إنى أخاف عليك ، إن لم تقم الدولة العربية الموحدة ، المفعمة بروح المدنية الحقة – مدنية العلم والدين مقترنين – مدنية المادة والروح متعانقين – فتحميك من التيار الأوربى الصائل الغلاب ، وترد عنك أخطار الاستعمار الحديث التى بدأت تدس سمومها فى دسم الثقافة والتجارة والسياسة والدين .

بيروت النصارى ، بيروت المسلمين ، استيقظى ، لبنان الدروز والموارنة استفق ، استفق . فلقد غزاك نصارى المشرق ، السريان والكلدان كما غزاكَ ، وكما غزاكِ ، يا بيروت المستعمرون وأعوانهم المهاجرون ، الأرمن والشركس والآشوريون.

وستزداد الأقليات قوة فى لبنانى العزيز ، فتمسى الأكثرية حلية ، ويمسى أهله الأصليون أقلية صغيرة ضئيلة ، ضعيفة ذليلة . وذى هى الشرذمة الإسلامية فى مليلية تشهد على ما أقول .

فيا ملوك العرب ، ويا أمراء العرب ، إن الأجل قريب ، وإن اليوم الذى ستشاهدون رهيب . إلا أن تستفيقوا ، وتعملوا ، بعزم وإخلاص ، العمل الواحد ، مهما اقتضاه من بذل النفس والنفيس ، فتحموا الثغور العربية على هذا البحر الأبيض – تحموها تحقيقاً لأمانى أهلها ، تحموها بالرغم عما يريده أهلها ، تحموها وأنتم فى البداية والنهاية أهلها ، وإن لم تدركوا معنى التبعة وقيمة التبعة التى ألقاها الله على عواتقكم ، فأنتم الخاسرون ، وأنتم المظلومون . فالثغور اليوم ذاهبة ، والعواصم ذاهبة غداً ، ولات ساعة مندم . وهذه مليلية تشهد على ما أقول .

ومن غريب أمر مليلية أنها فى أواخر القرن الماضى ، وفى زمن الحكم الإسبانى كله ، أى منذ انتزعها الإسبان من العرب ، فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر إلى آخر القرن التاسع عشر ، لم تكن على شىء يذكر من الرقى والعمران(١)

---

(١) مليلية من البلدان التى أسسها الفينيقيون القرطاجيون ، وقد أسموها روسدار ، ولا يزال لتلك المدينة أثر عند الصخرة الكبيرة على البحر . ثم جاء البربر فبنوا بلدة إلى جانبها أو وسعوا المدينة الفينيقية ، وهى التى استولى عليها الرومان ، ثم الغوط فى القرن الخامس للميلاد ، ثم العرب=

فقد كان عدد سكانها ، سنة ١٨٩٥ ثلاثة آلاف نفس ، وهم اليوم سبعون ألفاً منهم ألفان مسلمون ، وثمانية آلاف من اليهود ، وقليل من الأوربيين غير الإسبان .

ولكن بعد الاحتلال الإسبانى ، والحصول على امتياز جبل الحديد ، وتوسيع المرفأ ومد السكة إلى الجبل ، اتسع مجال العمل والتجارة للإسبان ، فتهافتوا على مدينة المناجم ، فاخذت تزداد عمراناً واستعادت سالف عهدها فى الازدهار .

فالمناجم ، ولا غرو ، مصدر ثروتها وازدهارها ، فى الماضى والحاضر . والمناجم التى كان العرب سادتها فى الماضى ، هى اليوم باب من أبواب الرزق لعمال العرب .

فهل يكتفون به يا ترى وقد فتح لهم باب من أبواب العلم الذى كان أجدادهم سادته وحملة مشاعله فى العالم . ومن العلم اليوم ما لم يدّركه أولئك السلف ، ولا كان من أسباب الحضارة فى زمانهم . فعلينا نحن أن ندرك الحقيقة القاسية فى علوم هذا الزمان ، وهى أن النفط والفحم والحديد هى لمدنيتنا كالماء والهواء والغذاء للإنسان . وأن الفحم والنفط والحديد للأمم هى قوام حريتها واستقلالها وسيادتها التامة . فالأمة التى لا فحم ، ولا نفط ، ولا حديد عندها ، تكفى فى الأقل حاجاتها ، فى أيام السلم والحرب ، هى أمة وُكِلَة فلا حرية ثابتة لها ، ولا استقلال يدوم .

ولنا أن نقول إن السيادة الحقيقية فى زماننا ، وما يصحبها من استعباد العباد ،

= فى الفتح الأول ، فأطلقوا عليها اسم مليلة على وزن سفينة ولكنها حرفت فصارت مليلية . وقد بلغ عدد سكانها فى عهد العرب ما هو اليوم ، أى نحو سبعين ألف نفس ، فشغلوا المناجم المجاورة لها ، واستخرجوا منها الحديد والقصدير ، وقيل الذهب أيضاً . فازدهرت فى عهدهم ، واضطربت شؤونها فتقهقرت فى زمن الحروب بينهم وبين الاسبان ، تلك الحروب التى انتهت بانهزامهم سنة ١٤٧٠ فقد حاولوا غير مرة بعد ذلك أن يسترجعوا المدينة فلم يفلحوا ، فعقدوا معهم معاهدة صلح وولاء فى سنة ١٧٨٠ فى عهد السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل ، وجددت فى سنة ١٨٥٠ فى عهد السلطان عبد الرحمن بن سليمان .

إنما هى لشركات النفط والحديد ، وللحكومات التى تتحالف وتتآلف وإياها . وفى إسبانيا اليوم من يدركون هذه الحقيقة ، ولا يطمئنون إلى حال توجب عليهم استجلاب النفط دائماً من خارج بلادهم ، ودفع ثمنه نقداً ذهباً . لذلك بدأوا يبحثون عنه ، وسيجدونه فى الجهة الجنوبية الغربية من منطقة حمايتهم فى المغرب .

أما الحديد فإن فى إسبانيا مناجم منه غنية المادة . ولكن الحديد الأجود هو هاهنا فى هذه الجبال المجاورة لمليلية .

وهناك حقيقة أخرى من حقائق علومنا العصرية القاسية وهى أنه كلما تقدمنا فى هذه المدينة ، مدينة الفحم والنفط والحديد ، ازدادت حاجاتنا ، وازدادت أسباب صنعها وتعاطيها ، وازدادت كذلك أنواع العمل فى سبيلها ، عمل الفرد وعمل الأمم .

أما الفوز فى تنظيم هذه الأعمال وانسجامها للأمم التى تحسن العلم فليس فى تقسيم الأعمال وتوزيعها فقط ، بل فى تقسيم ما تنتجه من المال وتوزيعه بين العمال وأصحاب العمل على السواء .

هوذا سر النجاح الذى بدأت تدركه إسبانيا الجديدة ، فتعمل به فى بلادها وفى منطقة حمايتها بالمغرب . إسبانيا ، ومن شأنها الوثوب من حال إلى حال ، من تطرف إلى آخر ، فى تاريخها القديم والحديث ، إسبانيا هى اليوم قادمة على تجربة فى الاستعمار مقلقة لدول الاستعمار جاراتها . وإن لها فى ذلك إيماناً عظيما ، هو إرثها ومددها فى كل أعمالها . فهى المدركة كذلك أن العلم والعمل ، والابتكار فيهما ، غير ممكن ، وغير مثمر ، بدون السلم والأمن والطمأنينة . وكأنى بها تقول : ليطمئن المغاربة بالا ، أطمئن أنا . وإن عدلت أنا عدلا إنسانيًا لا سياسيًا ، يخلد المغاربة إلى السكينة . ويخلصون الولاء ، ويستقيم التعاون وإياهم لخيرى وخيرهم .

إن إيمانها لعظيم ، وقد تكون فيه مبدعة لعهد جديد فى صلات الأمم بعضها ببعض ، وفى العمران البشرى ، المادى الثقافى الروحى .

* * *

إن لمليلية فحصاً ، مثلما لسبتة وطنجة ، ولكنه صغير — لا يتجاوز الكيلومتر الواحد فى كل جهة من جهاتها البرية . فإذا سلكنا الطريق المغربية منها ، نصل بعد قليل إلى حدود المنطقة الخليفية ، حيث مراكز الشرطة والجمرك وجوازات السفر .

أين المغاربة ؟ أين أبناء الريف ؟ هم دون هذه الحدود ، فى القرى القريبة من الجبال ، وفى الجبال وأعاليها . وها نحن أولاء فى شِيكَر عند سفح الجبل ، على بضعة عشر كيلومترا من مليلية . وهذه كذلك فرخانة ، ولا يزال عليها أثر العتق والقدم . فقد كانت فى أيام السلاطين مركزاً عسكرياً لحراسة الحدود المغربية ، وهى تسمى قصبة مولاى إسماعيل لأنها بنيت فى أيامه (١١٢٠ هـ) وهذه بقية كئيبة من صورها .

وفى فرخانة اليوم مدرسة عربية ، يتعلم فيها مئة من أبناء القبائل ، وهى مجانية بكل ما فيها ، وتقدم ، فوق الكتب والقراطيس ، الفطور والشاى للتلاميذ كل يوم وكسوة كاملة لكل منهم ثلاث مرات فى السنة .

وفى الطريق الجنوبية من مليلية نصل بعد ربع ساعة فى السيارة إلى المدينة الجديدة الجميلة التى بناها الإسبان — إلى الناضور (Villa Nador) وفيها نحو ألف من المسلمين ، وخمسة آلاف من الإسبان المدنيين . هذه المدينة قائمة على بحيرة تتكون من البحر وتتصل به بعد أن تكون قد بلغت خمسة عشر كيلومتراً من الأرض ، ووقفت عند سفح الجبال الشرقية ، فتفيأتْ قسما مما أكلت — لساناً رمليا طويلا ، يفصل بينها وبين البحر فيزرع بطيخاً .

أريد أن أقول إن الناضور على الجهة الغربية من البحيرة ، التى أسماها الإسبان « مارتْشيكا » ، البحر الصغير ، وفى هذه النواحى قرية غريبة الاسم ، تجتمع فيه ثلاث لغات ، قرية لبنى نصر (تلفظ أنْصار) من قبيلة مزوجة ،

تدعى ، « أولاد بُوَيفُوكُوزين مارتشيكا » ! فهل فى العالم يا ترى قرية أخرى تحمل مثل هذا الاسم الضخم الفخم الرخيم ، الجامع بين الإسبانية والعربية والمشلحة الريفية ؟

لقد أنسانا هذا الاسم « البحر الصغير » والناضور القائمة على ضفته الغربية وجبل كبدانة المقابل لها ، واللسان الرملى الذى يمتد من سفح ذلك الجبل إلى البحر الكبير ، بالقرب من مليلية ، فتخرج البحيرة من ذلك الباب لتجتمع بسيدها البحر .

وفى الناضور مركز المراقبة العامة للإيالة الشرقية ، ومعسكر كبير ، رأينا الفراخ منه فى الساحة أمام المركز . هناك رأينا عقاب الحرب يفقس بيضه ، فيخرج منها الفراخ حاملين البنادق . سلاحك ! إلى الأمام ! الصوت الرهيب هو صوت العقاب ، يسمعه مئة من أولئك الفراخ ، صبيان من الخامسة إلى العاشرة ، يمشون بخطوات شبيهة بتلك التى اخترعها الألمان . فراخ تخرج من البيض حاملة البنادق — جنود المستقبل — أبناء الحروب الدائمة !

وفراخ ، فى الميتم الريفى ، يتعلمون القراءة والكتابة والقرآن الكريم ، ذلك الميتم قائم فى حديقة غناء ، وفيه أربعون من بنات وبنين ، تقوم بخدمتهم امرأة مسلمة ، ومعاونات لها ، ويشرف على المعهد شيخ ذو لحية مثل لحى الأنبياء ، طويلة مرسلة بيضاء .

ومما راقنا كذلك ثوب البنات الريفيات . فالبنات فى ميتم أوربى أو أميركى يكمدن بالثوب الصفيق القاتم ، فيغدون كالراهبات أو كالسجينات ، وما ذنبهن غير اليتم . أما فى هذا المعهد فتراهن يمرحن فى أثواب من الشيت ، نعم ، ولكنها زاهية الألوان ، تعلوها المناديل الحمراء ، وقد شدت على الرؤوس من وراء بأسلوب اللبنانيات . وكذلك تلبس نساء الريف ، وهن فى الجبال سافرات ، ويقمن أسواقاً خاصة بهن للمتاجرة ، أسواقاً نقالة لا يحضرها الرجال .

خرجنا من الناضور نقصد جبل الحديد ، فمررنا بقرية مغربية صافية إلا

فى اسمها . إسجانجن (باللفظ المصرى للجيم) وهى مقسومة قسمين ، نصفها على رأس الرابية ، بيوت مربعة منبسطة السطوح محصنة بالصبير ، والنصف الآخر حديث البناء ، فى السهل فيمر الطريق فى السوق الغربية ، وفيها عدا المدرسة العربية مدرسة صناعية .

ومن إسجانجن نباشر الأسناد فى الجبل المنتسب إلى قبيلة بنى بويغرور ، المسمى باسم أحد بطونها ، ويكسن — لا يروعنك التقاء الساكنين ، فاذكر أنك مررت بترغيست ، حيث التقت ثلاثة حروف ساكنة . ولبنى بويغرور بطون أخرى منكرة الأسماء ، إلا واحداً هو أولاد شعيب .

ومن قبائل الريف ذات الأسماء العربية ، أصلا وفرعاً ، قبيلة بنى بويحيى ، تلك التى تقتنى الجمال ، تلك التى تحفظ عهد البادية ، وقديم صحبة « البُل » . فمن بطونها المباركة أولاد على ، وأولاد فطُّومة ، وأولاد عبد الدايم ، وأولاد موسى ومُوحَن — لا بد من عثرة ولو فى نعيم العربية . فوحن هو اختصارهم لمحمد ! سامحهم محمد وسامحهم الله .

وها نحن أولاء فى جبل ويكسن ، جبل الحديد ، نترجل أمام بناية من بنايات الشركة ، فيستقبلنا المدير ، ويتلطف فيطوفنا بالمناجم القائم بعضها فوق بعض .

نمشى إلى رف من رفوف الجبل ، فنشرف على منجم يحفر فيه العمال بالمعاول فيخرجون التراب والحجارة يملأون بها العربات التى تسير على خطوط الحديد إلى آلات التكسير والتصويل .

ونصعد إلى رف آخر فنشاهد المعول التجارى يعمل العجائب فى حفر الجبل ودك صخوره . ونستأنف السير ، والنظر والفكر والأذن تبارى الرجل فى العمل الواحد الشاق . ولكن لكل عامل حيلة يستعيد بها النفس والنشاط . فكنا من حين إلى حين نستوقف المدير لندون فى دفتر المذكرات كلمة قالها أو وصفاً لآلة

أو عملية فى التنجيم . وكذلك تتهم الرجل الذاكرة بالضعف ، وتشارك الذاكرة الرجل فى الراحة .

ثم نستأنف التصعيد فى جبل بنى بويَغْرور ، الذى باعه « بوحماره » لهذه الشركة الإسبانية — أعطاها امتيازاً مجهول الحدود والشروط ، إلا فى المديرية العامة ، سنة كان ثائراً على سلطان المغرب المولى عبد العزيز (١) وقد تكون الحكومة الحامية عالمة ببعض تلك الشروط والحدود ولكنها متكتمة . قال لى المقيم العام الكلونيل بايبدر جواباً على سؤال سألته : قريباً تنتهى مدة الامتياز ، وسيكون للمنطقة بعدئذ حقوق فى الاستثمار .

أما الآن فالشركة الإسبانية للمناجم الريفية هى ربة هذا الجبل . ولكنها ، وإن كانت قد بدأت فى الحفر سنة ١٩١١ ، توقفت طويلا . فقد حالت الاضطرابات والثورات مدة عشرين سنة دون الاستثمار فلم تباشره حتى سنة ١٩٣١ .

فى هذه المناجم سبعمئة من العمال المسلمين ومئة لا غير من الإسبان ، وفيها القوانين والأساليب فى الإدارة ، والحقوق والواجبات فى العمل ، تامة شاملة طبقاً « لإنجيل » العمال فى هذا الزمان . فالعمل ثمانى ساعات ، وأسبوع العمل خمسة أيام ، والأرباح الإضافية مضمونة ، ومخزن « الكوربوراتيف » مفتوح للعمال وأهلهم جميعاً .

لهذا المخزن لجنة مؤلفة من إسبان ومغاربة تتولى إدارته وتضبط حساباته السنوية ، فتوزع الأرباح على العمال كل بالنسبة إلى قيمة ما يشتريه من المخزن . وقد بلغ ربح أحد عمال المغاربة خمسمئة بسيطة ، وهو من الذين يشتغلون بخمس بسيطات يوميا ، أى أقل الأجور ، وهى تبلغ الخمس عشرة بسيطة للعمال الحاذقين والفنيين .

---

(١) راجع الفصل الأول من الجزء الأول .

ومن الأعمال الإضافية التى تقوم بها الشركة أنها أنشأت مدرستين للعمال وأبنائهم ، الواحدة للبنات والأخرى للبنين ، فيتعلم فيها ليلا من يشاء من العمال أنفسهم ، ويتعلم أبناؤهم فى النهار . قال المدير : والإقبال حسن فى النهار وفى الليل . الطالب المغربى من العمال يرغب خصوصاً فى تعلم الحساب . والعامل المغربى نبيه نشيط يتعلم بسرعة العمل على الآلات الميكانيكية والتجارية .

وقفت لأدون ذلك فى مذكرتى . فقد كنا نصعد فى الجبل من طبقة إلى طبقة ، ورف إلى رف ، حتى بلغنا ما يقرب القمة التى تعلو ستمئة وخمسين متراً عن البحر . فمن تحت تلك القمة إلى المكان الذى وقفنا أولا فيه حفرت الطبقات الأربع . فبدت كالنيران ، وكلها مكونة من التراب الأحمر والحجارة الحمراء المثقلة بالحديد .

هو الحديد الخام يجرف من هذه المناجم فى بطن الجبل ، بل فى بطونه الكائنة بعضها فوق بعض ، وينقل منها بعربات على خطوط من حديد إلى معمل التكسير ، إلى الآلات ، ويا لهول تلك الآلات الكسارة ، المركبة فى ثنيات الجبل ، المتصل بها من أسفل ومن أعلى شبه قنوات من حديد ، فتتدهور فى العالية جلاميد الصخور ، تقذف بها تلك العربات ، فتتناولها الآلة بأضراسها الجبارة ، وتكسرها بقوة هادئة خارقة كما تكسر اللوز والجوز بمكسرتك الفضية على المائدة .

هذه الآلة تكسر يومياً من الثلاثة إلى الأربعة آلاف طن ، فترسل فى القنوات السفلى إلى آلات التصويل والتحليل ، فيفرز منها الكبريت والإكسير ، وما تبقى يحتوى على ٧٠٪ من الحديد الأحمر (hematite) وهو ، كما يقول المدير : أحسن حديد فى العالم .

هذا المحصول من المناجم ، أى نحو مليون طن فى السنة ، يشحن فى سكة الحديد ، وهى ملك الشركة ، إلى الميناء بمليلية ، ومنها إلى إسبانيا ، ليستخلص

الحديد ويصنع من هناك . ذلك لأن هذه العمليات تستهلك من الفحم الحجرى ما يكلف استجلابه إلى مليلية أكثر من نفقات شحن الحديد الخام إلى بلياوة مثلا حيث تكثر مناجم الفحم .

ولكن الفحم موجود فى المنطقة الجنوبية ، والنفط موجود فى الجهة الجنوبية الغربية من هذه المنطقة .

الفحم والحديد والنفط فى المغرب (١) وكل المناجم بيد الفرنجة اليوم ، ولا أظن أن أحداً يطمع فى أن تكون كلها اليوم بيد المغاربة .

إنما هناك عدل منشود ، ووسط محمود .

فلأصحاب البلاد قسمتهم من ثروة البلاد .

ولأصحاب الامتيازات حقوقهم الفنية والمالية والاقتصادية ، التى يجب أن تكون بعيدة عن السياسة وحدودها .

وعلى الحكومة الحامية فى البلاد ، إن كان فى المنطقة السلطانية أو الخليفية ، أن تعدل فى الفريقين عدلها الأعلى ، المنزه عن السياسة والمطامع السياسية . وإلا فما معنى الحماية ؟

ولأن تُهمل الفريقين أقرب إلى العدل من أن تحمى فريقاً دون الآخر .

---

(١) المناجم الغنية ، على أنواعها ، هى فى المنطقة السلطانية وجلها بيد الشركات الفرنسية . أهم تلك المناجم الفسفات الذى صدر المغرب منه سنة ١٩٣٥ مليوناً وثلاثمئة ألف طن . وقد صدر من الفحم الحجرى خمسة وثلاثين ألف طن . ومن المنغنيز مئتى ألف طن . أما الرصاص والزنك فالمغرب وطنهما الأول . وهناك أيضاً مناجم الحديد والصفر والفضة والذهب والنيكل والقصدير والألماس ، وكل هذه المعادن يقول الخبراء إنها تضمن للشركات المستثمرة مئتى مليون فرنك ربحاً فى السنة .

الفصل الثالث عشر

العرب والبربر

لولا شيوع هذا الاسم – البربر – فى الماضى والحاضر ، واستعماله حتى فى زماننا لأغراض سياسية استعمارية ، تمييزاً وتحقيراً وتفرقة ، لقلنا العرب والمغاربة . وإننا لقائلون ومقررون ذلك قبل أن نختم هذا الفصل .

على أننا مضطرون ، ونحن نتدرج إلى هذه النتيجة ، أن نمحص الحقائق الجوهرية فى الموضوع دون أن نحمّل القارئ ونحمل نحن وقر الأبحاث الأثنولوجية والبيولوجية ، ودون أن نثبت أو ننفى ادعاءات العلماء والمؤرخين فى الماضى ، قبل ابن خلدون وبعده . فإنها من وجهة نظرنا الحاضرة لا تجدى نفعاً .

ووجهة نظرنا هى وطنية إنسانية . ووطنيتنا هى عربية قومية ، لا عربية إسلامية . فقد جهرنا بذلك مئة مرة ومرة ، ولا ننفك نجهر به فى كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها ، وأشواقها وآمالها إن كان فى المشرق أم فى المغرب . وإن لنا فى الوطنية غرضاً أكبر فيها ، وإن كان قائماً عليها ومتصلا بها ، ما كتمناه مرة ، ولا حاولنا .

ذلك الغرض ناشىء عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة ، وهى أن العرب عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة ، العريقة فى الحضارة الناشرة أعلامها فى العالم . وإن لها مطالب قومية ، وأمانى سياسية ، لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام ، وعاملة لتحقيق الإخاء الإنسانى ، والسلم الدولى العام فى العالم .

فالمغرب بأجمعه ، من برقة إلى طنجة ، بركان مشتعل ، يتفجر من حين إلى حين ، ما دامت سياسة الاستعمار الأوربية سائدة فى شؤونه ومستثمرة لكل أسباب الثروة والسيادة فيه . وكذلك كل قطر من الأقطار العربية فى المشرق . فما دام فى أوربا اثنان : المرسل المنصِّر ، والسياسى المستعمر ، يتدخلان فى سياستها الأجنبية ، الأفريقية أو الآسيوية ، ويسيطران حيناً بالقوة ، وأحياناً بالدعاية والمال عليها ، فالحال التى وصفت لا تتغير ، والبركان لا ينطفىء .

فالمرسل وأعوانه : الدين والثقافة الأجنبية والمشاريع الخيرية ذات الأهداف السياسية — والسياسى وأعوانه : المال والدعاية والمشاريع الاقتصادية ذات الأهداف الاستعمارية ؛ يسعون جميعاً لإحياء نعرات قديمة ، أو بالحرى يخترعون نعرات جديدة ، مبنية على التاريخ المشوَّه ، والثقافة المموهة ، تذرعاً بحب الخير للبلاد التى يريدون استثمارها ، وتوصلا ، فى الحقيقة ، إلى تبليغ رسالة التفرقة لتتم السيادة الأجنبية وتتلاشى الوطنية .

وقد اخترعوا فى هذا الزمان : الفرعونية بمصر ، والفينيقية بلبنان ، والبربرية بالمغرب الأقصى ، اخترعوا هذه النعرات القومية القديمة ، هذه النزعات الثقافية العقيمة ، القومية ظاهراً ، الاستعمارية باطناً ، هذه النزعات والنعرات التى لم يكن لها اسم أو أثر فى الزمان السابق للحرب العظمى .

وهؤلاء المخترعون لهذه النزعات هم أعداء الوطن العربى ، وأعداء أوطانهم ، بل أعداء السلم فى العالم . يخلقون لدولهم المشاكل العويصة فى الخارج ، ولا يجلبون للأوطان الأجنبية غير بلية التفريق والشقاق .

المرسل المنصِّر . والسياسى المستعمر ، ذاك يريد أن يهدى العرب « الحام » كما يقول ، أى البربر ، إلى الدين « الصحيح » ، وهذا يريد أن يستثمرهم ، ويستعمر بلادهم . ولسان حال الاثنين يقول : « يجب أن يصيروا تابعين لنا وخدماً

يخدموننا ، وعساكر يحاربون حروبنا . وإن كان فيهم المتمرد والضال ، فعلينا أن نؤدب الأول ونهدى الثانى لخيرهما . وإلا فعلينا أن نستميل الواحد إلينا ليكون عوناً لنا على الآخر . فنخترع لهذا الغرض نزعة ينزعونها تحل محل نزعاتهم الوطنية والدينية ، فنزين للمصريين الفرعونية ، وللبنانيين الفينيقية ، وللمغاربة البربرية . ويجب علينا أن نثير أذهانهم بما نفهمه نحن من التاريخ وبما يوافقنا نحن من الثقافة » .

ورأس كل علم ، وكل ثقافة ، وكل فهم ، وكل حكمة فى الموضوع هو أن البربرية والفينيقية والفرعونية لا تمت إلى العرب بصلة ما ، بل هى والعروبة متناقضة متعادية .

لا نكلف أنفسنا نفى هذا القول أو إثباته . فالبربرية والفرعونية والفينيقية فى نظرنا نزعات مصطنعة ، نزعات عقيمة سقيمة ، نزعات مائتة . ولا نظن أن عرب اليوم يريدون أن تكون لهم صلة ما بالقديم العقيم ، بالأموات المائتة . بل يريدون أن تكون صلاتهم بالسلف الصالح الحى المحيى المنير الهادى الباقى للعروبة وللحق ، الباعث فيهم روحاً جديدة ونزعات وطنية تمتاز عن نزعات الماضى بإنسانيتها الجديدة الشاملة .

وبما أننا فى مباحث هذا الكتاب نعود عودات قصيرة إلى الأصول التاريخية ، والقومية ، والدولية ، نمحصها ونجلوها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، لاتصالها بموضوعنا وبأغراضنا المار ذكر بعضها ، فعلينا الآن أن ننظر فى أصل هذا الجنس البشرى الأفريقى وفصله وأثره فى تطور شؤون المغرب .

يقول فريق من العلماء الذين لا يشوب علمهم مأرب سياسى أو غرض وطنى أو دولى : إن أهل البلاد الأصليين من شعبين أسمرَى البشرة ، الواحد من صحراء أفريقية ، غير الزنجية ، والثانى من جنوبى أوربا ، ويضيفون إليهما عنصراً ثالثاً صغيراً من أوربا الشمالية أبيض اللون .

هؤلاء هم المغاربة الذين كانوا فى البلاد منذ القدم ، وبعبارة أوفى منذ أول التاريخ المدون .

ويقول فريق آخر من العلماء المنزهين عن الأغراض الخاصة ، والممعنين فى المباحث الأثنولوجية البيولوجية ، وفروعها الجغرافية والنباتية والحيولوجية : إن برزخاً ، فى عهد جيولوجى قديم ، كان يصل شبه جزيرة إيبارية (ألبانية) بالمغرب الأقصى ، ودليلهم على ذلك الجبلان المتقابلان المعروفان اليوم بجبل طارق وجبل موسى المقابل له فى القارة الأفريقية .

هذان الجبلان ، فى الزمن السابق للعهود الجليدية ، كانا جبلا واحداً ، بشهادة علماء الجيولوجيا والحيوان والنبات . ففى الجبلين اليوم تشابه فى طبقاتهما ، وفى حاضر نباتهما وفى آثار الماضى من حيوانهما . وقد مر بك فى الفصل الذى عقدناه عن جبل طارق أن لحيوانات أفريقية القديمة الحديثة — القرد والفيل والدنياسور — آثاراً وجدوها فى الكهوف بذلك الجبل . وكما نزحت الحيوانات وانتشرت النباتات الأفريقية من الجنوب إلى الشمال نزح الإنسان السابق للتاريخ ، إنسان العصر الحجرى . والدليل على ذلك فى جماجم من بقايا ذلك العصر فى أوربا شبيهة شكلا وحجماً بالجماجم الأفريقية .

إذن ، وبموجب هذه الآراء العلمية ، تكون الحقيقة على عكس ما كان يظن . أى أن الأوربيين من أفريقية ، وليس الأفريقيون من أوربا . ولهذا الرأى الأخير غلاة من أهل العلم فى زماننا ، ولكن علمهم يتصل إما مباشرة وإما بالوسائط الثقافية والتبشيرية ، بسياسة البلاد الاستعمارية ، فيقولون إن المغاربة الأصليين كلهم من أوربا . ولذلك فللأوربيين الحق أن يستولوا على بلادهم ويحكموها ويستثمروها وينشروا فيها الدين المسيحى .

والرأى الأجدر بالاعتبار هو أن الشعب المغربى الأصلى من القارتين — من صحراء أفريقية وجنوبى إسبانيا . وقد يضاف إليه عنصر أبيض البشرة من شمالى أوربا .

هذا الشعب المغربى الأصلى كان فى البلاد قبل أن أسست قرطنجة ، وقبل أن اتصل بالمغرب شىء من حضارة الإغريق .

ثم جاء شعب من المشرق يختلط به ، فينقلنا من العلماء الطبيعيين إلى العلماء المؤرخين . ومن هؤلاء من يقول إن المغاربة ، أو البربر كما صاروا يدعون ، هم من بلاد كنعان ، بل هم من الكنعانيين ، فأخرجهم اليهود فى أيام يشوع بن نون . ولهذا القول أشياع فى زماننا يروقهم مثل هذه الأبحاث . وما الفائدة منها ؟ لا فائدة ألبتة . وأما النتيجة فقد تكون وخيمة . قد يتحد غدا المغاربة على إخراج اليهود من المغرب كما أخرجهم اليهود فى قديم الزمان من أرض كنعان ، ونحن نرجو أن يكون اليهود المغاربة مخلصين لوطنهم ، متعاونين وإخوانهم المسلمين على دفع الأخطار عنه ، فلا يلحق بهم شر أو أذى .

ومن العلماء المؤرخين من يردون كل شىء فى حضارة الأمم الشرقية والغربية إلى اليونان حتى قبل أن صار لليونان حضارة ما . فهؤلاء مثل أصحاب الرأى الكنعانى ، والرأى العلمى البيولوجى . وليس فى علومهم الافتراضية ما ينفع كثيراً أو يضر .

بقيت المسألة التى تهمنا أكثر من كل ما تقدم ، وهى مسألة نزوح العرب إلى المغرب وبداية عهده . وبما أن هذا البحث تناوله كبير من مؤرخى العرب وأمعن فيه ، وبما أن تاريخه أو بالحرى المقدمة منه ، لا تزال من الكتب التى تتداولها أيدى الطلاب والأدباء ، فعلينا أن ننظر فى ما يقول . وقبل ذلك نلوم ابن خلدون لأنه استعمل لفظة بربر بدل مغاربة . فشهرها بالعربية ، بعد أن وضعها الأجانب الفاتحون ، كما سنبين فيما بعد .

يقول ابن خلدون فى أول المقدمة : إن عرب اليمن لم يصلوا قبل الفتح الإسلامى إلى المغرب ، بل ينكر ذلك بشىء من الغيظ المقرون بالتحامل على أسلافه المؤرخين . وهذا كلامه بالحرف الواحد : « ما كان لحمير طريق إلى بلاد

البربر إلا فى أكاذيب مؤرخى اليمن » .

ثم يقول فى الفصل الحادى والعشرين من المقدمة : « وأعتبر ذلك بحال العرب السالفة مثل التبابعة وحمير ، وكيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة ، وإلى العراق والهند أخرى » .

وقانا الله مثل هذا التناقض والاضطراب . فمما هو ثابت من الأخبار التى تؤيدها علومنا الأثرية والتاريخية فى هذا الزمان أن البلاد العربية الجنوبية كانت صلة الوصل التجارية بين الهند وبلاد الحبشة ومصر وسوريا . ثم ظهر من درس الآثار المصرية المكتشفة فى آواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن أن تجار العرب ، عرب قحطان ، عرب اليمن وحضرموت ، وصلوا إلى مصر فى تجارتهم ، واستمروا فى أسفارهم برًّا إلى بلاد المغرب . هذا الطريق من الهند فى السفن العربية إلى حضرموت ، ومنها إلى سبأ فالبلقاء فمصر وبلاد المغرب ، طريق قديم جدًّا يعود إلى عهد الأسرة الفرعونية الحادية عشرة أى ٢٠٠٠ قبل المسيح .

ومن اضطراب ابن خلدون فى تقرير المسألة أنه يذكر زناتة العرب فيقول : إن أولية هذا الجيل بأفريقية والمغرب مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلا الله تعالى .

ومن زناتة تفرعت شعوب كثيرة « أكثر من أن تحصى » منها مغراوة وبنو يَغْرِن وجراوة وغيرهم ممن لا تزال أسماؤهم شائعة بين القبائل ، وقد كانت مواطنهم من طرابلس إلى تلمسان إلى وادى ملويه بالمغرب الأقصى وكانت الرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبنى يغرن .

ويروى ابن خلدون فى نسب زناتة أن نسّابتهم يزعمون أنهم من حمير ثم من التبابعة . وفى رواية أخرى أنهم من ولد جالوت ، وأن زناتة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت . وجالوت هذا يمت بنسبة إلى قيس غيلان .

أوليس جالوت من نسب غلياط الفلسطيني – وزناتة من الفلسطينيين أعداء يهوذا ؟

ولكن ابن خلدون يحلل جانا تحليلا دقيقاً لطيفاً . خلاصته أن جانا جمعت على جانات وعممت بإضافة النون إليها فصارت جاناتن . والجيم تنطق عندهم بين الجيم والسين وأميل إلى السين ، فيقال سانات أو جانات فأبدلوا الجيم زايا لاتصال مخرج الزاى بالسين فصارت زانات ، وحذفوا الألف التى بعد الزاى فى اشتقاقاتها الأخرى تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة . أى جانات = زانات = زنات = زناتة .

والظاهر أن ابن خلدون كان ضائعاً بين حبه للبربر وغيرته على العرب ، فيغالب هواه فى الأمرين فيغلب حيناً وحيناً يُغلب ، ولا ينجو فى الحالين من الاضطراب . فهو فى زناتة مثلا يقبل بعروبتها ، ويفند مزاعم النسّابة فيها ، فيقول إن الذى حمل نسابة زناتة على الانتساب إلى حمير هو الترفع عن النسب البربرى لزعمهم أن البربر كانوا خولا وعبيداً للجبابة .

ثم يقول : « وهذا وهم . فقد كان فى شعوب البربر من هم مكافئون لزناتة فى العصبية أو أشد منهم ، مثل هوّارة ومكناسة . ومن غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ، ومن تلقف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة . كل هؤلاء كانوا أشد قوة وأكبر جميعاً من زناتة » .

ولا تفاضل اليوم ولا تفاخر ، فأبناء البلاد من سلالة الشعبين ، وقد تكون السلالة اختلطت بالتزاوج حتى فى أيام الزناتية الشهيرة ، رهبة الكاهنة ، التى ادعت « المعرفة بغيب الأحوال وعواقب الأمور » فحكمت فى قبائل زناتة خمساً وثلاثين سنة ، وعاشت مئة وسبعاً وعشرين . وقد استبدت الكاهنة حتى على أبنائها الثلاثة ، الذين كانوا سائدين فى قومهم ، فانتهت إليها الرياسة الكاملة الشاملة ، هذا فى أيام الفتح الأول ، فحاربت تلك الزناتية الوثنية المسلمين .

واعتصمت بجبل أوراس ، فكانت الغالبة فى بداية أمرها ، والمغلوبة فى نهايته ، وبعد أن قتلت فى إحدى المعارك ، لحق أبناؤها بقائد المسلمين ، « وحسن إسلامهم واستقامت طاعتهم ، وعُقد لهم على قومهم ومنهم فى سواحل مليلية » .

ومن سلالتهم فى الريف اليوم قبيلة بنى بويحيى المتحدرون من الجد الأول جانا بن يحيى .

نقف عند هذا الحد والعلامة ابن خلدون ، فنشكر له ما صفا من علمه ، ونعيد ما قلناه فى كفاءة الشعبين وهما سواء فى نظرنا . يوم كانوا وثنيين يحاربون الإسلام ، ويوم صاروا مسلمين يحارب بعضهم بعضاً . فالذى يهمنا من أمرهم اليوم ، ويهمنا أن يهتموا هم له ، هو أن أبناء البلد الواحد أعزاء إذا تضامنوا وتعاونوا ، أذلاء إذا كانوا متنابذين متخاذلين .

بقى أن نقول ما معنى كلمة البربر وما أصلها ؟ لقد كانت هذه اللفظة شائعة فى العهد القديم يطلقها كل شعب فاتح ذى حضارة راقية على من يخالفه فى الجنسية أو اللغة أو الدين . ويراد منها تحقير الشعوب الصغيرة والتنفير منها ، والحط من قدرها(١).

أما أصل الكلمة فهو على ما يظهر أفريقى ، فأخذت من لفظة بربارى المعربة عن فرفاروس (Vervaros) ومعناها « اللفظ المشترك بين اللغط وبين نطق الألثغ » ثم صار اليونان يطلقونها على كل من تكلم بلغة غير لغتهم . وقد أطلقها الرومان على كل من لم يخضع لسلطانهم من الأمم .

والذى يبدو لنا أن الإغريق . وقد وصلوا إلى هذه السواحل قبل تأسيس قرطجنة ، أطلقوها على أهل البلاد لأنهم كانوا « يفرفرون » أى « يبربرون » أو كما نقول نحن اليوم يتراطنون بالأعجمية . وأطلقها عليهم الرومان لأنهم

---

(١) فى مجلة السلام التى كانت تصدر بتطوان ، فى الأعداد الثامن والتاسع والعاشر منها ، مقال ممتع للأستاذ الحاج محمد بنونة — « صور من تاريخنا الوطنى » .

حاربوهم ، وتمردوا على سلطتهم ، وحاولوا غير مرة التخلص منها ، فقالوا إنهم برابرة — من البربر !

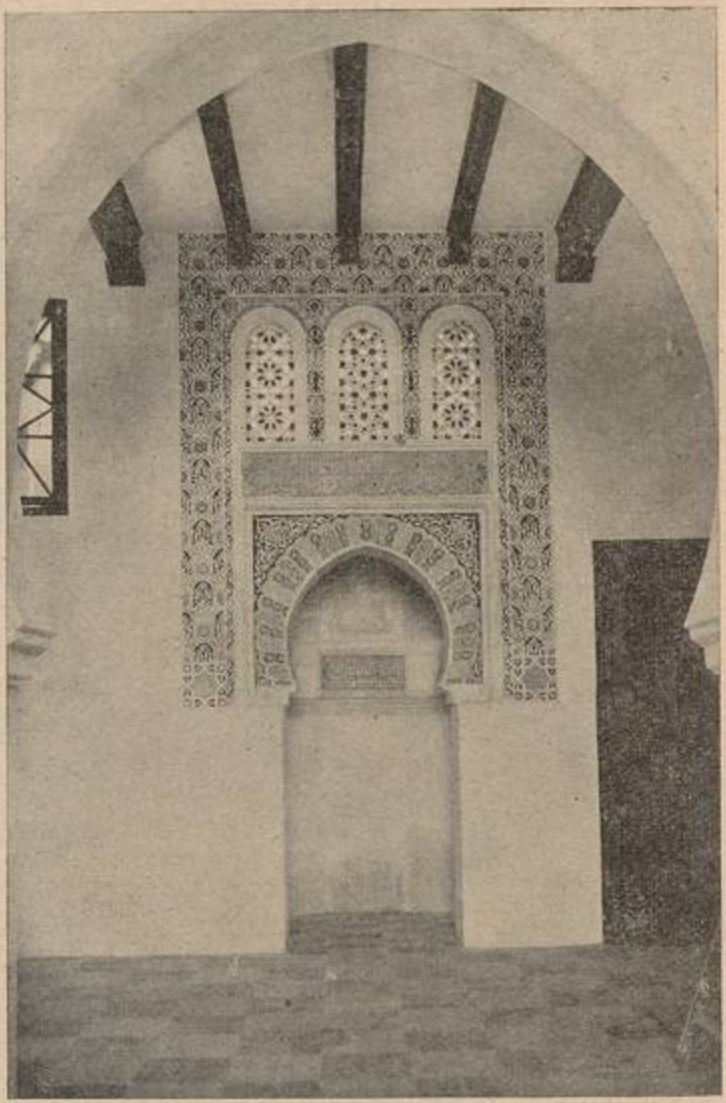
فما عذر العرب بالأمس فى التمسك باسم أطلق على إخوانهم أبناء البلاد تحقيراً وامتهاناً . وما عذرنا نحن اليوم ؟ ليس ما يسوغ الاستمرار فى هذا الخطأ ، بل هذه الإهانة .

إن فى المغرب اليوم شعباً واحداً وإن تعددت عناصره . أوَليس فى شبه الجزيرة اليمنى والحجازى والنجدى . أوَليس فى القحطانى ، لدى التحليل لعوامل الوراثة والجنس ، ما يختلف عن العدنانى ، وأين فى مضر وربيعة اليوم ما كان من عداء وضغينة فى قديم الزمان ؟ إنهم جميعاً اليوم عرب ، تجمعهم اللغة العربية ، وشعر امرئ القيس ، كما يجمعهم القرآن والإيمان .

أما العناصر المختلفة فى الشعب المغربى فهى لا تتجاوز الثلاثة ، ومنها العنصر الأوربى الضئيل . ويجوز أن نقول إن فى البلاد فرعين لشعب واحد : المغاربة العرب ، والعرب المغاربة . فهؤلاء منحدرون من الفاتحين وأبناء الفاتحين بالأندلس وأولئك منحدرون من القبائل الأولى — الزناتية وغير الزناتية — زمن سلالة العرب الفاتحين .

أولئك الأولون من المغاربة ، وفيهم النصارى واليهود والوثنيون ، قاتلوا القرطجنيين والرومان . وقاتلوا كذلك العرب الفاتحين فانهزموا ، ودخلوا فى الإسلام فوحدهم ، والأصح أن نقول عمل فى توحيدهم والعمل مستمر فلا يزال فى المغرب بعض القبائل من أولئك المغاربة الأولين الذين كانوا يتقلبون بين المسيحية واليهودية ويحتفظون بأشياء من الدين الوثنى .

هؤلاء القبائل يتكلمون اليوم الشلحَت ، وهى لغة قديمة ولكنها لا تزال فى بداءتها ، وقد لا تخرج منها لجفاوة وعقم فى أصولها . وهى تختلف طبعاً عن العربية ، كما ظهر من بعض الأسماء والأعلام التى مر ذكرها . لا ماضى لها



داخل جامع « حومة » محلة الفقراء الجديدة

من الأدب ، غير بعض القصص وجلها منتحل ، عربى الأصل أو مغربى عربى . وفى الشلحة ألفاظ وأوضاع معربة وألفاظ عربية « مبربرة » واشتقاقات تدل على قواعد أولية[١] .

أما أدبها فجله قصصى منقول غير مدون . وقد جمع طائفة من قصص البربر أو أخبارهم كاتبان فرنسيان رنه باسه (Bassét) ومرسيه (G. Mercica) فترجمها إلى الفرنسية ثم إلى الإنكليزية بمساعدة تشانسى ستاركويزر (Chauncy Starkweather) ومزية هذه القصص الإيجاز ، والسذاجة ، وقساوة الأحكام ، وخلط الواقع بالخيال . منها ما هو على ألسنة الحيوانات ، ومنها أخبار القبائل ، وبعضها تقليد لقصص ألف ليلة وليلة . كالقصة التالية مثلا :

البستان المسكون

كان لرجل غنى بنتان ، طلب ابن الخليفة إحداهما ، وطلب ابن القاضى الأخرى ، فرفض والدهما الطلبين . فجاء الشابان فى الليل إلى البستان الذى كان له ، واجتمعا ببنتيه هناك . وكانا يجتمعان بهما كل ليلة ويتحدثون . فرآهم الوالد ذات ليلة ، وفى اليوم التالى ذبح ابنتيه وسافر للحج .

بعد ذلك اجتمع ابن الخليفة وابن القاضى بشاب يحسن العزف على الرباب والناى ، فقالا له : نريد أن تعزف لنا على الناى فى بستان ذلك الغنى الذى رفض أن يزوجنا من ابنتيه . ليلة الغد نوافيك هناك .

ذهب صاحب الناى إلى البستان ، فما وجد الشابين ، فبقى وحده يعزف

---

(١) كالتا مثلا للتأنيث : حنجير : صبى . ثحنجير : بنت . والياء والنون للجمع : ثمغر : امرأة . ثمغرين : نساء . إربز : رجل . إربزين : رجال . ومن الألفاظ العربية « المبربرة » : تاحدادت : حداد . تاخرازت : خراز . تابقالت : بقال . التاء تاء النسبة . والتقاء الساكنين فى لغة الشلحت أكثر شيوعاً منها فى لغة الإنكليز .

على الناى . وظل يعزف حتى منتصف الليل ، فاشتعل إذ ذاك مصباحان ، وظهرت البنتان من الأرض تحت المصباحين ، فقالت إحداهما للشاب : نحن شقيقتان ، نحن بنتا صاحب هذا البستان ، قتلنا والدنا ودفننا هنا ، وأنت فى هذه الليلة أخونا ، سنعطيك المال الذى خبأه والدنا فى ثلاثة مواعين . احفر هاهنا تجد المال .

فحفر صاحب الناى فى ذلك المكان ، فوجد الثلاثة المواعين وقد ملئت ذهباً ، فحملها إلى بيته ، وعادت البنتان إلى قبرهما .

* * *

مثال من أخبار القبائل

فى ديار إجلُو ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل ، لهم ألفان ومئتا بيت ، وعندهم تسعمئة وستون رأساً من الخيل . بلادهم على البحر ، لها ميناء برصيف . فيه قوارب للصيد .

خرج بعضهم ذات يوم يصطادون السمك ، فإذا مركب قادم من البحر ، فعادوا إلى البر خائفين ، وأخبروا أهلهم .

رسا ذلك المركب عند شاطئ إجلو ، وظل هناك حتى منتصف الليل ، فدخل الميناء ، ورفع علماً أحمر .

أما الأهالى فقد اجتمعوا جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، وأرسلوا كتاباً إلى سيدى هاشم يقولون فيه : احضر حالا . دهمتنا النصارى ودخلوا الميناء .

فأرسل سيدى هاشم رسله إلى القادة يقول : يجب أن توافونى إلى ديار إجلو ، لأن النصارى هناك فى الميناء .

اجتمعت القبائل المجاورة وزحفت على إجلو ، فقال سيدى هاشم يخاطبهم . ارفعوا علما أحمر[1] مثل علمهم . ففعلوا . فلما رأى من فى المركب العلم أرسلوا

(١) يظهر أن العلم الأحمر فى تلك الأيام كان كالعلم الأبيض فى أيامنا رمزاً للسلم .

رسولهم فى قارب ، فنزل إلى البر ، وتقدم من المسلمين .

فقال سيدى هاشم يخاطب رجاله : لا تؤذوه . ولا تباشروا العداء ، حتى نعرف السبب لنزوله فى أرضنا .

فسألوه : ماذا تريد ؟

فأجاب قائلا : الأمان باسم الله .

فقال الجميع : أمان الله عليك وعلينا .

فقال المسيحى : نريد أن نتاجر معكم .

فقال سيدى هاشم : لا بأس ، نحن نتاجر . فماذ تريدون أن تشتروا ؟

فقال المسيحى : الزيت والسمن والحنطة والبقر والغنم والدجاج .

فجمع المسلمون الحنطة والغنم والدجاج وكل ما ذكر ، فاشترى المسيحى ، ودفع ثمن ما اشتراه ، مسروراً بما لقى من حسن المعاملة . ثم قال : تمت المتاجرة فيجب أن نسافر إلى بلادنا . ولكننا سنعود إليكم .

فقال سيدى هاشم : يجب أن تعلم أننا عاملناك بالمعروف ، وما كان أهل إجلو راضين بذلك . وقد ردعناهم فارتدعوا ، لأنهم أعطوك عهد الأمان . وقد أعطيناك كذلك كل ما تبتغى . فعندما تعود إلينا اجلب لنا معك عشرة مدافع كبيرة وعشرين مدفعاً صغيراً .

المسيحى : كما تريد . سنعود ومعنا المدافع بعد سنة فى مثل هذه الأيام .

* * *

وفى بلاد النصارى اليوم شركات مثل هذا النوتى تبيع الأسلحة ، المدافع الكبيرة والصغيرة ، والطيارات والدبابات ، لمن يريد من الشعوب ، على قاعدة « ادفع واحمل » ، ولو كانوا من أعداء بلادهم . هى التجارة ، ولا بأس ، نحن نتاجر ، كما قال سيدى هاشم لذلك النوتى . نعطيك ما تريد إذا جلبت لنا معك المدافع الكبيرة والصغيرة .

ولا نظن أن سيدى هاشم فى هذه القصة كان سيء النية ، يجلب المدافع من بلاد النصارى ليحاربهم بها . بل كان على الغالب يحتاج إليها ليوطد حكمه فى القبائل ، أو ليحارب أعداءه من أهل البلاد أو من أهله .

وهذا تاريخ المغرب وفيه — مثل تاريخ الأندلس — صفحات وصفحات مكتوبة بدماء العرب والبربر الإخوان وأبناء العم . هى الحروب الأهلية ، هى الحروب القبلية . هى الحروب المذهبية .

بنو مرين ملوك تلمسان ، وآل زيرى ملوك فاس ، وبنو خزرون ملوك سجلماسة ، وبنو وَمَاتو وَيَلُومَى سادة المغرب الأوسط ، يحتربون جميعاً ، بالسيوف والبنادق ، وبمدافع النصارى .

البربر يقاتلون البربر ، والعرب الرابحون .

دادا[1] يَغمْراسِن يحمل على دادا عثمان ، ودادا إسنكيان يغزو بلاد دادا سكيمان . . .

والعرب الفاتحون يدخلون البربر طوعاً أو قهراً فى الإسلام .

ثم تنقلب الآية ، فيحارب الأمويون الشيعة من سلالة إدريس ، ويخرج المرينيون على الموحدين ، والمرابطين ، ويستظهر بنو الأحمر بالأندلس إخوانهم فى الدين ، سلاطين المغرب ، على النصارى ، ثم يظاهرون ملوك النصارى على سلاطين المغرب عندما تقوى شوكتهم فى ثغور الأندلس .

دادا يغمراسن يحمل على دادا سكيمان ! وانشقت صفوف زناتة ، وتجددت العداوات بين يغرن ومغراوة ، فتمكن الأمويون من بسط سيادتهم على المغرب .

ثم عادت السيادة الكاملة الشاملة إلى البربر فى عهد يوسف بن تاشفين فانقلبت الآية . وصار العرب يحاربون العرب !

ودادا يوسف يأكل داداوات أمية !

---

(١) دادا السيد الأعظم .

« وسرح كتائبه فى البسائط ، وخلال المعاقل ، تنسف الزرع ، وتحطم الغروس ، وتخرب العمران ، وتنهب الأموال ، ويكتسح السرح ، وتقتل المقاتلة ، وتسبى النساء والذرية » . . .

وغزا الدادا الأعظم غزوته الموفقة وقفل وجنوده عن البلاد إلى أوطانهم « وقد امتلأت أيديهم من الأموال ، وحقائبهم من السبى ، وركائبهم من الكراع والسلاح » . . .

وقد انتهينا من كل هذا ، ومن غيره من إرث القبائل المشؤوم ، وإرث المذاهب الأشأم . فلا كان العرب ، ولا كان البربر رابحين .

ونحن اليوم فى عهد جديد ، عهد العروبة ، عهد القومية العربية الشاملة ، والأعمال الوطنية المعززة لها .

فالمغاربة عرب فى دينهم ، عرب فى ثقافتهم ، عرب فى قوميتهم ، عرب فى قصصهم ، عرب فى أخلاقهم وطبائعهم . وإننا لنرى التطور عاملا حتى فى أسماء أهل المغرب التى كانت « بربرية » خالصة فأضحت « بربرية » عربية وسيتم التطور فتغدو عربية صافية .

وفى الأسماء برهان على ما فى القلوب وما فى الأمانى . فلو تغلب اسم هربرت على اسم غسطون فى فرنسا مثلا لكان فى ذلك دليل على انقلاب اجتماعى ، وتطور قومى .

وهذا ما حدث وما هو حادث فى المغرب . فالأسماء العربية الإسلامية دخلت على الأسماء المغربية فغيرت أولها حيناً وأحياناً آخرها أيضاً ، أى اسم العائلة[1] وهذا التطور وقل هذا الارتقاء فى الأسماء مستمر ، وستزداد الأسماء

---

(١) وهاك مثالا من الاثنين :

أسماء مغربية (بربرية)	أسماء مغربية عربية
ماكس بن زيرى	حميد بن يصل
يطوفه بن بلكين	باديس بن المنصور =

العربية انتشاراً فى المنطقة الشمالية لتعميم اللغة العربية فى مدارسها .

والجدير بالذكر كذلك أن قبائل الريف حتى فى النواحى التى يتكلم أهلها لغة الشلحت يكتبون صكوكهم وحججهم باللغة العربية .

أهدانى المراقب العام لإيالة الريف ، الضون إميليو بلانكو إيزاغا (Don Emilio Blanco Izaga) كتباً له فى قوانين الجماعات ، أى قضاة القبائل ، ضمنه كل ما يتعلق باصطلاحاتهم وتقاليدهم وأوضاعهم فى البيع والكراء والتملك ، وفيه رسوم فوتوغرافية للصكوك والوثائق التى تتعلق ببيع المحصولات وحقوق المياه والرى ، وكلها مكتوبة باللغة العربية(١)

على أن أقول كذلك إن هذا الشعب المغربى ، وفى ماضيه قبل الإسلام وبعده ، ماله وما عليه ، هو مثل عرب البادية فى أمور كثيرة . فهو قلما يرى غير ما تراه العين وغير ما يُلمَس من أسباب القوة . لا خيال له ولا نزعات روحية عالية . انغمس فى الكهانة وخرافاتها فى الماضى ، ولا يزال بروحه وبزواياه أشياء منها .

= حاموش بن بندوكس — حماد بن بلكين
نكاس بن مكسوسن — زيرى بن عطية
بلكين بن دوناس — المعز بن زيرى
بلكين بن محمد بن حماد
مسعود بن عثمان
عثمان بن شعيب

(١) مثال من توزيع المياه للرى :

مياه نهر النكور تستعمل للرى بين بوعياش ، وموسى وعمر وأمزورن كما يلى :

أول يوم : بوعياش
ثانى يوم : بوموسى
ثالث يوم : بوعياش
رابع يوم : بوموسى وعمر
خامس يوم : آيت بوعياش
سادس يوم : أمزورن

وهو مع ذلك شعب باسل ، صادق الكلمة صريحها ، عزيز الجانب فى خشونته وبداوته ، وفى نزوعه إلى الاستقلال .

اعتنق الإسلام وقبله بحذافيره أو على قدر ما فهم منه . وما اقتبس من الثقافة العربية فى الماضى شيئاً يذكر . وقد قدمت مثالا من قصصهم التى يقصها الرواة القصاصون .

أما اليوم فهم يتعلمون باللسان العربى فى مدارس وطنية ، وبدأوا يفهمون معنى العروبة . وأبناء الريف منهم خصوصاً متصفون بتوقد الذهن والنجابة . قرأت على لوحة فى مدرسة سان خرخو الكلمة التالية للخليفة الحسن :

« إنى آمل بل إنى أتيقن أن النهضة العلمية الحقة التى ستكون أساساً متيناً للنهضة المغربية العامة ، سينبعث نورها من أبناء الريف السامية أفكارهم ، المتوقدة بالنجابة عقولهم » .

الفصل الرابع عشر

المراقبون

انتهينا من التجوال فى إيالات المنطقة الخليفية ، وقد زرنا مراكز المراقبات ، وتحدثنا إلى المراقبين ، بواسطة ترجمان أو مترجمين ، فيجب علينا الآن أن نعيد النظر فى مسألة إدارية مهمة قبل أن نعود إلى قطب دائرة رحلتنا فى تطوان .

أول ما يظهر للسائح المراقب فى زياراته لمراكز المراقبات الإسبانية هو أن الحكومة الوطنية ، أى الخليفية المخزنية ، هى شىء ضئيل إلى جانب هذه الدوائر العديدة الكثيرة المراقبين والموظفين والكتاب والمترجمين لحكومة الحماية الإسبانية . وقد أسلفت القول إن لكل مراقبة رئيسية مراقبات فرعية ، هى ست فى إيالة العرائش مثلا وثمان فى إيالة الريف ، فيمتد نظر المراقبة ويدها إلى أقصى الأماكن الساحلية ، وأعلى وأوعر الأماكن الجبلية .

قد يكون ذلك من ضرورات المراقبة والإدارة . وقد يكون أكثر الموظفين من الإسبان لقلة ذوى الكفاية ، علماً وخبرة ، من الوطنيين . فالمطالبة بتغييرها لا تجوز قبل المطالبة بإنشاء مدرسة لتخريج الموظفين . وهى — كما تقدم — فى لائحة الإصلاحات للأحزاب السياسية الثلاثة .

والمسألة الثانية تتعلق بما يصح أن يدعى ميزان الإدارة . أريد بذلك مقدار ما تعطى السلطات الرئيسية والفرعية من الحرية فى تنفيذ القوانين وتصريف الأمور . وفى توزيع هذه السلطة المقرونة بحرية العمل ضمن نطاقها لا بد من المساواة المرتكزة على العدل والحكمة معاً .

فلو رجحت كفة الميزان للسلطة العليا بمدريد ، أو للسلطة العالية بتطوان ، أو للسلطات المتفرعة عنها فى المراقبات ، لتعرقلت الأمور وسادت الأهواء والفوضى مكان العدل والنظام . وهذا ما كان يحدث فى سياسة الحكومات السابقة : الجمهورية والملكية .

إنه لمن العدل والحكمة إذن أن لا ترجح كفة الميزان — ميزان الإدارة — فى المركز الأعلى ، أو فى المركز الأوسط ، أو فى المراكز الفرعية . فيعطى المقيم العام حرية العمل ضمن نطاق الخطة الأساسية للحماية ، ويعطى المراقبون حرية العمل ضمن نطاق السياسة التى يتخذها المقيم العام . ليس فى هذا القول تقرير للواقع كما يتبادر للذهن . بل فيه ما يتجاوز المعروف المألوف . وهاك المثال زيادة فى الإيضاح .

هب أن خطة الجنرال فرنكو الاستعمارية تعاطفية لا مادية ، كما يقول . وكان من الواجب فى تنفيذها ، لخير من يعطف عليهم وعلى مصالحهم ، أن تعمم اللغة العربية فى المدارس . فيصدر أمر المقيم العام بذلك لينفذه المراقبون أو لتنفذه الحكومة المخزنية بمساعدة المراقبين .

ولنفرض أن فى الإيالة الشرقية أو الريفية قبائل لا تقبل بالتعليم العربى فى المدارس ، بل تقاومه . فماذا يفعل المراقب ؟ هل يجامل تلك القبائل فى هواها فلا يصر على تعليم اللغة العربية فى مدارسها ، أم يجامل قادتها فى مزاعمهم الوطنية ، فيستميلهم إليه . ويقنعهم بوجوب تنفيذ القانون ، وبما فى ذلك من الخير لأبنائهم ولمستقبل البلاد ؟ إن فى المراقبين من يسلك المسلك الأول وفيهم من يتخذون لأغراضهم الخطة الثانية .

وإننا لنعلم ما لهؤلاء الحكام المحليين ، مراقبين كانوا أم مستشارين ، من الأعمال التى لا يستقيم فيها خير حكومتهم ، ولا خير البلاد . توحيها المصلحة الخاصة — البقاء فى الوظيفة مثلا ، أو الاستفادة من التحزب والشقاق — أو

يمليها على الموظف طبعه أو علمه أو ما شذ ونقص فى الاثنين .

ولكننا نظلم الحكام المحليين إذا افترضنا أنهم جميعاً مثل ما ذكرنا . فالحاكم المحلى يرى ما لا يراه المقيم العام وما لا يراه الحاكم الأعلى . هو القائم بالأعمال فى محلها يبنى بناءه على قواعد معروفة ، رأس الحكمة فيها الحذر من الأهالى الذين تعودوا أن يثوروا على حكامهم . أو أنه يبنى على قواعد معروفة تقرن بأعمال ارتجالية ، أى بحرية التصرف كما قدمت ، فلا يخشى أن يضع ثقته بالأهالى ويمعن فى معاملتهم بالمعروف الذى لا يتنافى والخطة السياسية العامة .

قال أحد أولئك المراقبين : المراقبة لا تتفق والثقة الكاملة الشاملة . فالخلل الموضعى نخشاه أكثر مما نخشى الخلل العام . الخلل الموضعى — ثقب فى حائط ، حفرة فى طريق — مزلقة عند باب من أبواب الإدارة — تجلب البلية علينا وعلى زملائنا فى الدوائر العالية . وبكلمة أخرى نحن نخشى أن يقع السقف على رؤوسنا خلال عاطفيات الحاكم الأعلى ، أو المقيم العام .

وقال مراقب آخر : السياسى الاستعمارى بعيد النظر قصيره ، فهو يرى الأفق المتألق أمامه ، ولا يرى رسل الفتنة بين يديه . ونحن نرى رسل الفتنة ولا نرى الأفق . فإذا حذرنا يقال إننا ضعفاء البصر والبصيرة . وإذا سكتنا يقال إننا مهملون لواجباتنا . أشد الأخطار تحيط بالمراكز البعيدة . فى الجبال البعيدة . فى الجبال العالية أو فى السواحل النائية . والمراقب الذى لا يرى غير الحرف من القانون ، أو لا يرى غير القانون من خطة المقيم العام ، لا ينجو من الغزوات . ومنها الأفخاخ ينصبها الزعماء المحليون بعضهم لبعض فيقع المراقب فى الفخ إذا كان لا يشارك فى التحزب ، يجب أن يكون المراقب ذا أربعة عيون فى مؤخر رأسه كما فى مقدمه . فيرى ما وراءه قبل أن يرى ما أمامه .

كنت وأنا أصغى إلى الترجمان ، أراقب وجه المراقب فيبدو حيناً قاسى الإهاب . وفى أسرّته ما قصر دونه لسان المترجم . وإنى لأذكر أحد أولئك

المترجمين – وهو يتكلم كل اللغات ولا يحسن إحداها . فكان فى ترجمته يخلط ألسنته بعضها ببعض فيثب من الواحد إلى الآخر ، ويعتصم بكلمة إنكليزية لينجو من ورطة مغربية ، ثم يستعين بالفرنسية على الإنكليزية ثم يفر من كل الألسنة الأجنبية إلى لسانه العذب الإسبانى فألجأ أنا إذ ذاك إلى رفيقى البستانى وأرجوه أن يترجم لى ما يقوله ذلك الترجمان .

لا يظن القارئ أن هذه الصعوبات كانت تحول دون فهمى ما يقال أو ما يراد من القول . كلا . فقد كنت أتغلب ، بمساعدة أخى البستانى ، على الصعوبات وأحول دون البلبلة التى تنذرنى بها .

ولم أكن سعيداً بالبستانى فقط . فقد سعدت مرة بترجمان لا كالمترجمين ، بترجمانة أنستنى المترجمين جميعاً ؟ وذلك يوم دعانا مراقب الإيالة الشرقية الكاونيل خوسه برميجو (Bermejo) للشاى فى بيته بمليلية . فبينا كان الحديث فى مستهله دخلت القاعة امرأة بيضاء شقراء ، بضة ، كأنها بلغة المقامات « برج من فضة » تمشى مشية أميرة عربية بتؤدة واتضاع . فقال الكاونيل باللغة الإنكليزية التى يحسنها قليلا : هى زوجتى .

سلمت السيدة بكلمات شبيهة بخطواتها ، ناعمة هادئة متمهلة ، فقلت فى نفسى : ما أشبهها لولا بشرتها بأميرة شرقية . جلست السيدة وهى تدعونى بكلمة إسبانية عذبة لأجلس إلى جنبها ، فقلت كذلك فى نفسى : وما أكثر ما فيها مما أتصوره فى عربيات الأندلس . وبينا أنا أردد – كذلك فى نفسى – كلمة مديح أخرى ، قال زوجها : هى تتكلم الإنكليزية . فزاد ذلك بسرورى . ثم قال : هى أمريكية ، فعرانى من هذا الكشف التدريجى لستار البهجات شىء من الغيظ ، حل محله فى الحال أشياء من الغبطة الصافية .

فهل كنت متشوقاً إلى مشاهدة أمريكية – حسناء أمريكية ؟ أفلم أكن عائداً من أمريكا حيث الحسان كدود الحرير فى اليابان ؟ ولكن العين

لا تشبع من الجمال ، والعقل لا يشبع من العلم ، وفى الشقر الهيف الحسان القدود أبواب للمعرفة مفتوحة ، وأستار مكشوفة ، وخصوصاً إذا كنت تحسن لغة واحدة من اللغات التى تنطق بها . تكلمت هى أو سكتت .

وكان سرورى أنى لقيت الترجمان الذى كانت تتوق إليه نفسى . فكلمتها بلهجة أبناء بلادها فأبرقت عينها . وعندما علمت أنى كنت فى تلك البلاد ، وقد أكون أعرفها أحسن منها ، ابتسمت ابتساماً ردده جبينها ، وبدت أمريكية كما أعرف الأمريكيات . برعمت ونوّرت ، ابْرَنْشَقَتْ فوثبت بها النفس وثبات غيرت فى لهجتها دون أن تخرجها عن التؤدة والسكون . هى لهجة أمريكية لطفتها إقامة سنوات فى أوربا ، وعشر سنوات زوجة لضابط إسبانى .

فما أجمل الأمريكية فى حديثها وأسلوبها وأناقتها وتوهجها إذا مازج كل ذلك شىء من روح العالم القديم — الروح الأوربية الساكنة الخلابة المتعمدة السكينة والرفق .

كانت تترجم كلماتى وسؤالاتى لزوجها باللغة الإسبانية ثم تترجم بالإنكليزية كلامه وجواباته بالسهل الفصيح فى الحالين ، فما تمالكت أن قلت لها : إنك أمهر وأفصح وأجمل ترجمان لقيته فى رحلتى المغربية .

فضحك الكلونيل وضحكت زوجته الترجمانة الحسناء . ومن الطبيعى أن يكون الحديث فى الشعر دون أن يخرج عن موضوع اهتمامى . سألت سؤالا عن الشعر والشعراء فى الريف فقالت مدام برمنجو تترجم ما قاله زوجها :

— فى جبال الريف لا يقول الشعر إلا البنات . ولا يجوز للمرأة المتزوجة ، أى أنه يسمح للفتاة أن تتسلى بالشعر إلى أن تتزوج ، فيحظر بعد ذلك عليها . أما الرجل الريفى فهو يحتقر هذه الصفة فى الرجال ولا يرى الشرف فى غير البندقية . الشعر عندهم منقول غير مدون . نعم ، هو من نوع الزجل وفيه الأغانى الشعبية (talk lore) وكله بلغة الشلحت إلا أنه ثلاثة أبواب :

المدح والهجاء والغزل ، وقليل من الحماسة .

— لا يزال قسم من أهل الريف وثنيين فى بعض عاداتهم . فهم يكرمون الضيف إكراماً عربياً وثنياً . فيقدمون له امرأة تشاركه فى ليلته ، وهم فى زواجهم شبه وثنيين لا يكتبون كتابهم على الفتاة ، ويكتفون بالشهود . وما كان يهمهم فى الماضى أن يعقد العقد فقيه أو إمام أو قاض أما اليوم فعندهم قضاة . ومع ذلك فإن لهم إلى الماضى رجعات .

وقد أكد لى الكلونيل برمنجو بواسطة السيدة الترجمانة زوجته أن أهالى وسط المنطقة ، أى كتامة وما إليها شرقاً وغرباً ، هم أصدق فى ولائهم لإسبانيا من أهالى الناحية الغربية .

ولبعض الإسبان نظر فى تعريب المنطقة وتوحيدها فيقولون : يجب على أهل أصيلة مثلا أن يأخذوا عن أهل كتامة الإخلاص للإسبان . ويجب على أهل كتامة أن يأخذوا العلم والدين والثقافة العربية عن أهل المدن الغربية : تطوان والعرائش وأصيلة . فيحدث التوازن ، ويسهل التوحيد .

ومما قاله الكلونيل برمنجو إن أهل الريف كانوا فى الماضى ، قبل ثورة عبد الكريم ، أميل إلى إسبانيا من العرب المغاربة .

فإذا صح هذا القول فذلك لأن العرب العريقون فى العروبة ، والمنحدرون من أولئك الذين أخرجوا من الأندلس ، يشعرون من حين إلى حين بالعداء الكامن فيهم ، فيأبون الولاء لمن أذل الأجداد ، ويرفضون أن يأخذوا عن الأوربيين ، بالاقتباس أو التقليد ، كما نفعل نحن فى سوريا ولبنان مع أنهم أقرب العرب إلى أوربا .

أما المغاربة فحسّ العداء ، مع أنهم دحروا وأذلوا مثل العرب ، ليس شديداً فيهم لأنهم ، على ما أرى ليس لهم أدب قومى يمكن ذلك العداء ويطيل أيامه . فضعف هذا الحس فيهم أو مات . وقد يكون اتخذ اتجاهاً آخر —

فأدناهم من الجنرال فرنكو ، وحملهم على مشاركته فى الثورة الوطنية .

لذلك يقول محدثى إنهم أميل إلى الإسبان النصارى منهم إلى المغاربة المسلمين .

الذين يتكلمون الشلحت أقلية فى بلاد الريف . وأكثر هذه الأقلية فى جبال كتامة . فقلما يفهمون اللسان العربى ، فإذا جاءهم الفقيه يعلمهم القرآن فلا يفهمونه . إسلامهم « كِيفْ كِيفْ » تغلب فيه الطرق والزوايا وليس كإسلام أهل الناحية الغربية كطنجة وتطوان والقصر الكبير ، ولكن هناك كذلك — فى قبائل أنجره وواد راس — من هم على شىء من الإسلام ، وأشياء من الفتور والجهل .

وكانت السيدة برمنجو تسألنى خلال الحديث سؤالات عن بلادها وتتلقى جواباتى ببشر لا يخلو من لهفة وحنين .

قالت إنها تشتهى أن تعود إلى أمريكا ؟ كلا . بل هى تشتهى أن تزور لبنان وسوريا وخصوصاً دمشق .

ثم قالت وهى تفرغ النور من عينيها أسفاً : هو حلم من الأحلام .

وقال الكلونيل زوجها : ولاحظ للجندى فى الأحلام !

الفصل الخامس عشر

فوق جبال الريف

فى أصيل يو م من أيام مايو الصافية الأديم طرنا من الساحة الكائنة بين البحيرة ومدينة الناضور فى طيارة إيطالية ، تسافر يوميًّا من رومة إلى مليلية فتطوان .

طرنا ، بعد أن نضنضت الطيارة ألسنتها ، فلمعت فى نور الشمس ودوت ، ثم درجت فى سهلها وهى ترتفع عن الأرض ، وتنطلق فى الفضاء ، فتراجعت البحيرة شرقاً ، وبدت الناضور كقلادة فى جيدها ، ثم تلألأت إلى يميننا مدينة مليلية ، وانطوت وميناءها فى ما توارى من البحر ، فتلتها فرخانة ووادياها ، وتلت فرخانة الجبال .

هى جبال الريف المنخفضة الكثيرة التجعد ، كوجه العجوز ، وكالأرض المخططة بالقنوات والأحواض للرى ، أرض مسنمة ومجوفة ومضلعة ومقبّبة بألوف الحداب والعراقيب والأخاديد والعقاب . ظاهرها رملى ويندر فيها الاخضرار ، إلا حول البيوت ، وهى قليلة ، تراها على القمم والطلوع ، لا يصل بعضها ببعض غير الطرق الجبلية ، التى تبدو كالخيوط ، أو كالخطوط الجغرافية . وهاك بيوتاً على حرف الضلع كأنها ذباب على حد السيف .

نجتاز هذه الجبال — العفو ! نطوى الجو فوقها بربع ساعة ، فندنو بعد ذلك من شاطئ البحر ، وساحله الضئيل ، القائمة إلى جانبه الصخور الرملية كالجدران العالية ، فتصاب رؤوسها فى بعض الأماكن برشاش من الأمواج .

على هذا الشاطئ فوق تلك الكثبان ، تكثر البيوت ، وهى مربعات بصحون ودور حول الصحون . تلك الصحون تبدو كالأحواض الفارغة وقد طوقت بشيء من الاخضرار .

ثم نعود إلى الجبال ، أو تعود الجبال إلينا . فالحقيقة هى أننا نطير غرباً فى خط مستقيم ، والجبال تدنو من البحر فى خطوط معوجة . فتمسى حيناً تحتنا وحيناً تبعد فتتوارى .

إنها لجبال عارية جافة موحشة . وليس فيها غير الطرق الجبلية التى ذكرت . فهى الصلة الوحيدة بين أهلها . وما أوهنها ظاهراً ، وما أقدمها وأثبتها لذى الحافر وصاحبه ابن آدم . فلا يستغرب أن يكون الريفيون أيبس وأصلب عوداً من البدو . ولا يستغرب نظرهم فى ما يجمل الحياة . دع الشعر والفنون والماء والخضرة والشكل الحسن — فلا جمال بغير الخيل ، ولا شرف ولا عز بغير البندقية !

على أن أولى الأمر اليوم يريدون أن يعلموا هذه الطائفة من بنى آدم غير الفروسية والغزو . يريدون أن ينشئوا المدارس فى مفاوز جبالهم ، فيعلموهم القراءة والكتابة فى الأقل . يريدون أن ينشئوا المدارس فى تلك القرى النائية المنعزلة المعتصمة بسنام الجبال ، وبين القرية والقرية ، وهاد وآكام ، وليس بينها ما يصل بعضها ببعض غير الثنيات والعراقيب ، تلك الطرق الشبيهة ، للناظر إليها من الطيارة ، بالخطوط الجغرافية ، ودون الوصول إليها من الطريق العام أهوال .

قال الجنرال فرنكو : أريد أن يصل « الدولاب » إلى كل قرية من قرى المغرب . فهو يريد أن يحييها بالدواليب — بالسيارات . فهل تحسا أراضيها يا ترى بغير المشاريع الزراعية ؟ وبكل جبار فى الجبال من تلك المشاريع — مشاريع الرى والتشجير ؟ !

هى معضلة الريف — تفكر فيها وأنت فى الطيارة ، فتقول ، وأنت الطائر : ليس فى نظر الله ، ولا فى كتاب العلم شىء مستحيل . ولا تكاد تقول ذلك حتى يتغير ما يسميه العرب خد الشعيب ، ويتغير لون وجه الأرض ، فتصبح الطيارة فوق خليج سانخرخو ، وإلى يسارها يمتد وادى النكور الريان .

والبحر ساج ، والشمس ترقص تحت جناح الطيارة ، فتترك أثراً على الأمواج كالوشم الفضى . أو هو كالشبك يطرحه الصياد على البحر ، فيستحيل فى سحر الشمس غربالا من الذهب والفضة .

وهذه مدينة سانخرخو تحتنا ، على ظهر الصخرة الممتدة إلى البحر . وهاك الجزيرة الغريبة الشكل — تلك المدرعة فى الخليج — تفقد غرابة شكلها ، فتعود ، للناظر إليها من علٍ ، إلى حالها الطبيعى البسيط — صخرة فى المياه .

ولا نزال فوق البحر قريبين من الشاطئ الكثير الصخور . وهناك على الأفق الجنوبى جبال كتامة .

خمسة وثلاثون دقيقة من مليلية إلى حدود الريف المغربية ، أى إلى الوادى الفاصل بين جبال غمارة وجبال الريف .

وهاك تحت جناح الطيارة بورتو كبنّاص ، أى الجبهة وسهولها المنقطة بالبيوت ، المسيّجة بالفاقع والأدكن من الألوان الخضراء — بالزرع والصبير . وبعد الجبهة بقليل تعاين واد لاو ونهره على الشاطئ كحبل فضى على رحل الرمل الذهبى .

ومن واد لاو ، قبالة تلك الجبال التى قطعناها بالسيارة فتقطعت أوصالنا إلى واد مرتين — عشر دقائق أخرى . فنعرج بعدئذ عن البحر ، إلى ما فوق السهول الخضراء الصفراء ، وفيها ينساب نهر مرتين ، فنهبط هبطات تدنينا منه ، ثم نسيفٌ عند منحدرات الربى ، فيخيل إلينا أنها تهوى علينا . وبعد جولة قصيرة فى السهل تلمس دواليب الطيارة الأرض ، فتجرى الهوينا إلى

محط « رحالها » امام المطار خارج مدينة تطوان .

* * *

يكاد يكون المعقول كالخرافة ، والواقع كالأساطير . فلقد قضينا يومين فى السيارة ، نصعد فى الجبال وندور حول رؤوسها ، ونهبط منها ، ثم نعود إلى التصعيد والدوران ، فندرك من الروابى الألفين من الأمتار ونجتاز من المسافات أربعمئة وأربعين كيلومتراً ، بين تطوان ومليلية ، فنرى الموت غير مرة فى الطريق ، ونطير فرحاً إذ نصدمه الصدمة التى فيها النجاة لنا ، فنتركه وراءنا مدحوراً مدفوناً . ومع ذلك فقد قلنا يوم وصلنا إلى مليلية : لا نعود إلا ماشين ، والله ، أو طائرين .

ولقد طرنا — شكراً للشركة الإيطالية — فطوينا المسافة ، وهى مائتان وأربعون كيلومتراً فى خط مستقيم ، بخمس وخمسين دقيقة لا غير . فأين رب المسافات وأين أخوه رب المشقات ، وأين ذلك الذى صدمناه ودهسناه بدواليب سيارتنا ؟

ولقد تعلمت أنا كذلك علماً جديداً . تعلمت أن الآلام تقهر وتذل كالمسافات والمشقات ، والموت نفسه . فبالرغم عما قاسيته فى السيارة ، وخصوصاً فى أكواع الطـريق ، هبوطاً وإسناداً ، والخض العنيف يحرك آلامى العصبية فتثقل حتى « الجاكتة » على كتفى وظهرى ، ويتهيج الوجع فيشتد ويدوم ، فيوقف فىّ التنبه الفكرى ، ويكاد يذهب بقوة المراقبة لما حولى من مشاهد طبيعية وقروية وبشرية — مع كل ذلك ما توانيت ولا وهنت إلا مرة واحدة . يوم خرجنا من سان خرخو فى منتصف النهار وعدنا إلى التصعيد والدوران ، فتألب الألم والتعب وحر الهجيرة علىّ ، فاسترخيت واستسلمت ، أحسست بدوار فى الذهن ، وتوتر فتخدر فى الأعصاب ، فنمت — نمت من الإعياء الجسدى والذهنى . وما استفقت حتى بلغنا أعالى جبال الريف وما تغير وجه الدنيا . ولا لون وجهها . فتحت عينى على أرض كلسية

جافة عقيمة . وقد طمأننى الرفيق البستانى أننا لم نمر على قرية أو بيت أو أثر لإنس أو جن فى الطريق .

خرجنا من مليلية ، بعد أن زرنا فى صباح ذلك اليوم جبل الحديد ، فشينا كثيراً ، طالعين فى الجبل نازلين ، وأعملت الذهن كثيراً فى الاستخبار والاستيعاب ، فتعبت جسداً وذهناً ، وحدث لأعصابى ما حدث فى عِقاب جبال الريف ، بعد أن غادرنا مدينة سانخرخو فاستسلمت ، نمت فى السيارة إلى المطار . ودخلتُ الطيارة وأنا فى حال مضنية .

ولكنها لم تدم غير بضع دقائق . فعندما بلغنا جو جبال الريف كانت المشاهدات تحتنا جديدة ومدهشة فى تكوينها وأشكالها ، فتنبه الذهن ، وزال النعاس والتعب والألم جميعاً .

الألم — عدوّه العمل لغرض ما إنسانى ، أو وطنى أو شخصى . الألم — عدوه القصد والمحجة والإرادة فى إدراكهما . الألم — عدوه كل جديد بهيج فى الطريق إلى المحجة . الألم — عدوه الثقة بالنفس والإيمان بالله .

فلقد خبرت ذلك عندما وصلنا إلى واد لاو وشاهدنا السجن هناك ، وعندما دخلنا غابات الأرز فى جبال غمارة ، وعندما طرنا فوق جبال الريف . البهجة قوت القلوب . وفى القلوب قوة لا تغلب !

الجزء الثالث

الفصل الأول

فوق الجزيرة الخضراء

لم يكن من أغراضى فى الرحلة المغربية أن أزور إسبانيا . ولكنى ، بعد أن سحت فى المنطقة ، وشاهدت من أعمال الحكومة الحامية ما هو فى دور الإنشاء، وما لا يزال عهداً وأملا ، رأيت من الواجب علىّ أن أقابل الجنرال فرنكو لأتحقق مالاح لى — ولم أخفه على القارئ — من أنوار وظلال الخطة المغربية الجديدة .

ولم يكن بحسبانى أن الرحلة ستدوم شهرين ، وتمتحن الأعصاب والعظم منى فى أشد ساعات العمل تجوالا وتفكيراً . إنما كنت فرحاً بما تراكم بين يدى من أسباب الدرس والكتابة ، كما كنت مسروراً بما مهدته الحكومة من سبل السياحة والعلم .

وها أنا ذا والرفيق البستانى على الدوام . نعود من تطوان الى مطارها لنطير هذه المرة فى طيارة ألمانية إلى إشبيلية ، لا تشبه طيارتنا الإيطالية فى وجهها وأثاثها ، وقد تشبهها باطناً فى الجهاز . إن على هذه الألمانية مسحة من العتق والقدم ، لا تذهب بشىء من متانتها ، وإن كانت المتانة غير معقودة بالراحة والهناءة .

ولقد أضحكنى من قدمها — والمرجح أنها كانت فى صباها للجيش — أن مجالسها القاسية مجهزة بالسيور ، يشدها الركاب إلى أوساطهم إذا ما خطر لها ، فى منطقة من الرياح العاصفة ، أن تعمل عملا بهلوانيًّا ، فتنقلب مثلا

ظهراً لبطن أو جناحاً لدولاب !

ولله در جناحها الحامل لذيذ الذكريات للغريب القصى من الأقاليم ! لله در ذلك الجناح المضمخ بطيب إفنى والعرائش ، المبرقش بألوان نهر الذهب (Rio de Ora) المتطرب بأفاويه وأغاريد الجزائر الخالدات .

وهاك التعاويذ والطلاسم على الجناحين لتقى الطيارة نفثات الجن الجوية ، وصولات الأرواح الصحراوية والأوقيانوسية — وهاكها تحت الجناحين حروفاً دُطْشَلَنْدِيَّة[1] متصلة غير منفصلة ، تبدأ بمقطع أخْط وتنتهى بمقطع شخط ، وبينها مقاطع غزلية[2].

هذه الطائرة الألمانية كانت قادمة من الجزائر الخالدات ، حيث يغرد الكنار المسحور على أفنان الخمائل الدرية ، وتركب القيان الساحرة مناكب الأمواج الزمردية — هى سبعة من السجعات ، تغتفرها لنا المقامات .

طرنا ساعة الضحى غرباً بشمال ، فوق أرض غير مسحورة[3] تتموج بالرُّبى الخضراء الصفراء وبالحقول الموشاة بألوان الزرع الجديد ، والتربة غير المزروعة . وما عتمنا أن صرنا فوق المياه ، فدخلنا جواً مثقلا بالضباب ، إلا أنه يرقّ فى أماكن منه ، فتخرقه أشعة الشمس الفاترة ، وتنير رقعة من البحر وباخرة تمخر أمواجه . هى الحقيقة التى نتصورها ، وإن كذبها البصر المخدوع الذى يرينا البحر ساكناً ، والباخرة نقطة فى نون السكون .

فوق بحرين من الضباب والماء نطير غرباً معرجين عن جبل طارق . ليس لجناح أن يطرح ظله على هذا الجبل — جبل طارق ؟ أستغفر الله . إنه لجبل جان بُلْ ، إنه لبريطانيا العظمى ، هو وما فوقه من سماء البير

---

(١) Deutchland

(٢) M — CABY Aktiengerettschat

(٣) الأرض المسحورة التى لا ينبت فيها شىء (القاموس) .

والتقوى . كيف لا ، وللحصون ، كما للقديسين ، هالة هى رمز القداسة وحرمتها ، فلا تُمتهن من البر أو البحر ، ولا من السماء . إلا إذا كان المتجاسر عليها حاملا حديداً ونارا ؟ وما كان الألمان حاملين يومئذ غير السلام وأبنائه . فجنحنا ونحن فوق المضيق إلى الغرب فالشمال ، فغدت مدينة الجزيرة تحتنا ، والصخرة إلى يميننا تتحجب بالضباب .

الضباب ، كنا على نحو ألف متر فوق بحره الفضى ، وكان جونا صافياً ، إلا غشاء منه يحس به ولا يُرى ، فيحجب الشمس ولا يحجب نورها .

الضباب والأرض والسماء ، ونحن بينها ، منسلخون عنها ، ومتصلون بها . نسير ، نطير آمنين مطمئنين . نحن الصبية الجبابرة ، أبناء العلم ، ندرك حرفاً من الناموس ، فنعقل يوماً فى استعماله ، ونجن أياماً . نسالم هذه الأرض حيناً ، فننثر عليها ماء الورد من عليائنا ، وحيناً نرميها بالحديد والنار ، والأرض تستمر فى دورانها ، ولا تبالى بحديدنا ، ولا بماء الورد .

وهى تدور تحت الطائرة دورتيها اليومية والسنوية ، فيسرع الضباب فوقها من الشمال إلى الجنوب ، ونسبح نحن فوق الضباب من الجنوب إلى الشمال . حركات أربع متناقضات غير متنافرات ، شمالية وجنوبية وشرقية ، وحركة الأرض السنوية .

ونحن فى وسط هذه الحركات ، ساكنون هادئون مطمئنون ، ما دامت متناقضة غير متنافرة . فتسير كل منها فى خط أينشتينى[1] غير مستقيم . أما خطنا الشمالى المستقيم ، وخط الضباب الجنوبى المستقيم ، فليسا إلا مظهراً من مظاهر النسبة الفلكية ، والحدبة فيهما كائنة وإن كانت لا ترى . فهى ناشئة من الانحدباب الأرضى والفلكى تحتنا وفوقنا .

وأما الخط المستقيم فهو يستحيل فى غير الكوارث والخوارق ، حتى فى

(١) نسبة إلى العلامة أينشتين مكتشف ناموس النسبة الكونية .

سقوط القنبلة المقذوفة من الطائرة الحربية . فلا بد من حدبة فى طريقها . ولو صعد الضباب عموديًّا علينا بسرعة تلك القنبلة المقذوفة من عل ، لما ترك لنا مجالا للنظر بالخطوط واعوجاجها . ولو طرنا نحن عموديًّا بسرعة البرق ، أو بسرعة النور ، فقد نتغلب لحظة على عوامل الاعوجاج فى الكون ، فنعلو إلى حد الاختناق فى الفضاء ، أو نهبط مأنف طيارتنا فى التراب أو بين الصخور .

قلت إنها ، لا فض جناحها ، من الطراز القديم . تعلن بسيورها الأخطار الكامنة للإنسان ، وتمتحن المناعة والشجاعة فيه بما تيبسه وتضيقه فى مجالسها ، ولا تحرمه استماع موسيقى الكائنات فى محركاتها .

سألت القيم بصوت يقلد صوتها ولا يدنو منه — ما علونا ؟ فكتب فى دفتر مذكراتى (1700 M) أى ألف وسبعمئة متر .

فمن علو ألف وسبعمئة متر يجب أن نتصور الحركات ، لأننا قلما نشعر بها . اللهم إلا حين تنفصل قطع الضباب بعضها عن بعض ، فتظهر من خلالها بقعة من الأرض الخضراء أو الدكناء ، ويتبين بالإضافة أن الضباب فوقها متحرك من الشمال إلى الجنوب — فى حالنا الحاضرة — ونحن فوقه طائرون من الجنوب إلى الشمال .

وإنا لنشعر بذلك وندركه أيضاً عندما نرى خيال الطائرة على الضباب تحتها . ومع ذلك لا ندرك حقيقة السرعة ولا نشعر بها . فنظن أننا نطير طير الهون . والسبب فى ذلك هو الفضاء حولنا . فليس فيه شىء جامد ساكن يصحح البصر المخدوع وينبئ بالسرعة وحقيقتها الكيلومترية فى الدقيقة . إنه — فى حالنا الحاضرة — أربعة كيلومترات ويزيد .

وبعد خمسين من هذه الدقائق ترق صفحة الضباب تحتنا وتأخذ بالتقطع والانتشار فيظهر من الجزيرة الخضراء — بلاد الأندلس — بعض رؤوس جبالها ، وهى كالجزر فى البحر الأبيض الأمواج . ثم يتلألأ طرف من

اخضرار سهلها (Vega) الرحب المديد .

ثم نتبين ، ونحن نهبط من عليائنا ، طرق السيارات ، وهى كظلال عمد البرق ، وفيها الخنافس تدب دبيباً .

ثم نتبين البيوت فى الأرياف ، والمواشى فى الحقول ، والدخان يصعد من مدخنة حمراء .

وبينا نحن نراقب التغير فى وجه الأرض وألوانه ، يفاجئنا دولاب الطائرة بتحويلها إلى سيارة تدرج على الأرض دروجاً عنيفاً رجراجاً ، فنتنبه للمطار ، مطار إشبيلية .

الفصل الثانى

إشبيلية(١)

المدن بروحها ، لا بصروحها . وبرسالتها ، لا بمساحتها . المدن بعظمتها الثقافية ، لا بثروتها المحصية . المدن بما استمتعت ، وبما قاست ، لا بما انطوى من زمانها ، ولا بعدد سكانها . المدن بيومها الخالد المجيد ، لا بأيامها التكلانية والتجارية .

المدن مثل المرأة فى مزاجها وخيالها ، فى الباطن والظاهر من حالها ، فى زينتها وفتنتها ، فى أوابد هواها ، فى قيود حبها ، فى سبحتها وبخورها .

هذه المرأة هى إشبيلية سيدة الشقيفات(٢) ، وبنت الكنيسة ، وربة الخصب والمنع . ترقص فتسمع الدنيا صوت خُشَيْباتها ، وتصلى فتردد صلواتها المدن والقرى ، فهى الأم ، وهى الابنة ، وهى فتنة العاشقين !

تضع المشط الرفيع العريض التاج فى شعرها ، وتهز رأسها غنجاً ودلالا . تفتل خصرها ، إذ تسكت الخشيبة بيديها ، فتنفتح طيات فستانها ، وتنتشر منه الأمانى والصدود ! ثم تضرب الأرض برجلها ، فتنصت إليها قلوب الرجال .

إشبيلية الراقصة هى التى تقرر مصير الرجل ، فتؤيده فى حبه ، ثم تقيده بالبنين . هى إشبيلية الرومان .

---

(١) إسبيلتس (Espiletis) الرومان وسفليا (Sevilla) الإسبان و إشبيلية العرب الذين عادوا فى تعريبهم إلى الأسماء الرومانية .

(٢) الشقيفات مصغرة هى صنوج من نحاس – (القاموس) أو من خشب – (المؤلف) .

وإشبيلية المرتلة للعذراء ، المشعلة الشموع للقديسين . هى إشبيلية الغوط والإسبان .

وإشبيلية الساقية فى الحان ، وعلى ضفاف الغدران ، بالجنان ، إشبيلية الضاربة على الأوتار ، المنشدة الأشعار . هى إشبيلية العرب .

هى مدينة الأعياد ، والمواكب والمهرجانات — مواكب القديسين ، ومهرجانات الربيع ، وحرب الثيران . هى مدينة البهجة والحبور . بما فيها من خمر وبخور ، وبما يتضوع فى عرصاتها من طيب الرياحين والزهور .

وإن لإشبيلية مزاجاً يتجسم حيناً فى رب من الأرباب ، فتنظم القصائد ، وتصور الصور ، وتنحت التماثيل . وحيناً يتجسم فى غول أو جنى ، فتأكل أبناءها ، وتضرم النار فى مرابعها .

وإن لها روحاً ترفل ، مثل بناتها ، فى الدمقس وفى الحرير ، روحاً تأبى العرى ، روحاً تتقنع للتمثيل على مسرح الوجود ، والخيال المنشود ، تمثل أمام الله حيناً ، وحيناً أمام إبليس ، تمثل جميع أدوار الحياة تمثيلا صادقاً رائعاً فيطرب الله ، ويطرب إبليس ، ويهمس كلاهما فى أذنها بالكلمة التى تعيد إلى قلبها النور والبخور ، ومُرَّ الشعور ، فينور فيه الياسمين وينور فيه الصبر والقندول .

وإن لإشبيلية رسالة هى رسالة الحياة الوارفة الظلال ، الوافرة الأنوار ، هى رسالة الحياة الطامعة بخلود طيبات الحياة . هى رسالة الحبيب والأديب ، وحاملات الطيب . هى رسالة المطرود وصاحب الجنود .

لله درك ، يا إشبيلية ! إشبيلية الرومان والعرب والإسبان .

ثلاثة من عواهل روما ولدوا فى كنفك[1] وسيد من سادات العرب جلس على عرشك ، وكبار ملوك قشتالة وأرغون حملوا سيفك ويراعك وصليبك .

---

(١) فى إيتاليكا ، على سبعة كيلو مترات من إشبيلية ، ولد تراجان وهدريان وتيودسيوس ، وهى اليوم تقصد لما فيها من الآثار الرومانية .

إشبيلية قيصر أنت ، وإشبيلية المعتمد ، كما أنت إشبيلية ألفونس العالم وفرنند القديس .

وحيث دفن فرنند — فى قدس أقداسك[١] — دفن كذلك سفاح من السفاحين .

وحيث جلس المعتمد — على عرش الحب والشعر ومكارم الأخلاق — جلس كذلك عات من العتاة المجرمين[٢].

لله درك ، يا إشبيلية ! فما أرحب فناءك ، وما أبعد مدى حنانك !

يزرع المعتضد الزهور فى جماجم أعدائه وأعدائك ، ويزين بها حديقة القصر ، فتبتسمين ، وتنشدين الأشعار .

يشرب أبناؤك مياه الحمام لحظيّة الملك السفاح ، فتضحكين وترقصين .

يذهب سيدك ، فلا يذهب ما عندك من حب ووفاء . ويوم يعود تقدمين له قلباً عامراً بالوفاء والحب .

وأنت فى تقلبك أجمل منك فى قلبك .

سمعت المؤذن يؤذن ، والكاهن يرتل ، فخشعت وسجدت .

وشيدت المعابد والمساجد والكنائس بيدَى العبقرية والإيمان ، فقال الله : أحسنت ، وقال الفن : حبيبتى ، أنت !

فزهوت ، يا إشبيلية ، وباهيت ، ورحت تغنين للجلنار ، وترقصين للورد والياسمين . ونادتك شريش[٣] فلبيت ، وما عصيت حبيبيك .

شربت الكأس باسمهما ، ثم الكأس على ذكرهما ، فازددت جمالا وافتتاناً ثم أثلثت ، ففرح إبليس .

---

(١) فى فناء المذبح الكبير بالكاتدرائية وتحت المذبح دفن القديس فرنند والملك بطرس الملقب بالعاتى .

(٢) المعتضد ابن عباد سلف المعتمد .

(٣) شريش (Jerez) مشهورة بخمورها .

والتهب دمك ، فجلست جلسة الرومان ، فى ساحة الثيران ، وهللت للذابحين : « أندا ، أندا »[١] .

رأيت الدم يجرى على الرمل ، فقلت : ذهب وياقوت . وقبلت من يد الذابح عربون الغرام . وعدت إلى بيتك تحملين التذكار[٢] الدامى فعلقته بين الشموع .

* * *

فى الكنائس ضجة ، وفى البيوت والمخازن ضجات . فالشمامسة ينظفون تماثيل القديسين والقديسات ، والكهان يخرجون الحلى من أسفاطها ، والخدم يزيلون الغبار عن الأثواب التاريخية والصور . والنجارون يبنون السدد والهوادج ، والنساء يملأن القماقم بماء الورد . والبنات يضفرن أكاليل الزهور ، وبائعو السمك يجلبون القناطير من القريدس (الجمبرى فى اصطلاح المصريين) ومعامل البيرة تضاعف إنتاجها .

هى إشبيلية تتأهب لمهرجانها الأكبر ، مهرجان الأسبوع المقدس ، المهرجان المنقطع النظير فى العالم المسيحى ، بل فى العالم أجمع . فمن أحد الشعانين إلى أحد الفصح تغدو إشبيلية بأجمعها مهرجاناً حافلا باهراً ، يستمر أسبوعاً كاملا ، هو أسبوع الآلام عند نصارى الشرق ، والأسبوع المقدس عند الأوربيين .

وهو فى ذلك الوقت من السنة أسبوع المواكب بل المعارض . فتخرج الهوادج من الكنائس كل يوم من ذلك الأسبوع بحسب برنامج تصدره حكومة إشبيلية . ثم تسير بموكب فخم ضخم إلى الكاتدرائية مارة بشارع المدينة المشهور ، الضيق المتعرج الكثير القهاوى والحانات ودور القمار ، وهو

---

(١) أندا بالإسبانية : مرحى .

(٢) فى حرب الثيران ، من يذبح الثور يقطع أذنه ويقدمها لمن يحبها بين المتفرجين .

صادق الاسم والرسم – هو شارع الحية (Seirpis) الذى تحدث يومئذ فيه الأعجوبة الكبرى . كيف لا وهو على ضيقه وقصره يتسع للألوف من أبناء المدينة والألوف من الزوار الأوربيين والأمريكيين .

وها هو ذا الموكب يجتاز شارع الحية فى طريقه إلى الكاتدرائية . هو موكب من الهوادج يحمل كل هودج ، بما عليه من تماثيل ، عشرة أو عشرون من الرجال . يحملونه على الأكتاف ، وهو مغطى من الجهات الأربع بأستار طويلة ، فلا يرى من الحملة غير أرجلهم . فيبدو فى مجمله كجنى ضخم ذى عشرين أو أربعين رجلا !

هذه الهوادج تقف من حين إلى حين لتستريح تلك الأرجل . ثم تستأنف السير . وأهل إشبيلية ، والمتفرجون من أربعة أقطار العالم ، جالسون فى المقاهى ، وفى الأطناف فوقها ، أو واقفون فى الحانات ، يشربون البيرة ، ويأكلون الجمبرى ، وينتقدون الهوادج أو يثنون عليها .

ومن نوافذ البيوت وأطنافها تنثر النساء ماء الورد من قماقمهن على الموكب ، ويرفعن أصواتهن وقلوبهن بالإنشاد والابتهاج . فيذكرن العربى ، فى وقفاتهن وغناتهن ، بأهل التجويد . فهل هى يا ترى من بقايا الروح العربية . تتوارثها الأصوات والقلوب الأندلسية ؟

وعندما يكون الموكب سائراً إلى الكنيسة الكبرى ، تُرى الهوادج جارية مجرى الشراع فى الريح الطيبة . فلا تميد ولا تضطرب . ولكنها فى عودتها من الكنيسة الكبرى تبدو كالمراكب التى تتقاذفها الأمواج ، فتخشى وأنت تنظر إليها أن تميد فتهوى إلى الأرض . . .

هى المواكب المقدسة . يمشى فيها قلب إشبيلية التقى الطروب ، ويجلس عقلها فى الحان ، متفرجاً على قلبه ، وعلى بطنه ، وعلى الأجنبيات الحسان ، المتفرجات مثله ، المشاركات فى شرب الجعة ، وأكل الجمبرى .

هى المواكب المقدسة ، موكب كل يوم ، وموكبان يوم الجمعة العظيمة ، واحد فى الصباح والثانى فى المساء .

وفى ذلك اليوم يُسمع الميزاريره (Misarere) نشيد الموت على الأرغن الكبير فى الكنيسة الكبرى .

وتُشعل فى اليوم التالى — أى فى سبت النور — شمعة العيد الجبارة ، التى تبلغ خمساً وعشرين قدماً طولا ، وأربعمائة كيلو وزناً .

كدت أنسى حفلة الغسل وهى من الحفلات المهيبة ، تقام يوم الخميس فى وسط الكنيسة ، فيشهدها ألوف من الناس المزدحمين فى الأورقة الرحبة . هو ذا مشهد من المشاهد الدينية ، يمثله الأساقفة والكرادلة وبضعة صبيان فقراء ، فيغسل كبير الكرادلة أرجلهم والناس فى خشوع . ثم يمشى أمراء الكنيسة المتضعون فى موكب بهىّ ، وهم يرددون كلمات لاتينية بلهجات غير متشابهة ، تدل على ما يصدر كل منهم من حماسة أو فتور : « تديوم لودامس » مثلا .

* * *

فى ربيع السنة الثالثة من الحرب العظمى شهدت المهرجان العظيم بمواكبه وحفلاته الدينية كلها .

وفى الشهر الثالث من سنة النصر ، فى عهد الجنرال فرنكو ، شهدت فى إشبيلية كذلك مهرجاناً عظيماً . وبالتدقيق أقول شاهدته فى الساعات الأخيرة من يومه الأخير ، فحسبت الساعة يوماً ، واليوم شهراً .

لقد حرمت إشبيلية المهرجانات مدة الحرب الوطنية ، فتضاعف شوقها إليها . فخرجت فى ربيع هذا العام تحمد الله ، وتسبح العذراء ، وتحتفل بالنصر وتقيم المهرجان . خرجت بعشرين ألفاً من نسائها وبناتها ورجالها وشبانها إلى مركز السيدة ربة العيد ، فكانت تتدفق مرحاً وطرباً وحبوراً .

والسيدة ربة العيد تدعى عذراء الطل أو الندى (Virgen de la Roseo)

ومركزها فى مرسما (Marisma) وهى قرية خارج إشبيلية ، على خمسين كيلومتراً منها . وربة العيد تدعى كذلك الحمامة البيضاء ، فيقام لها مهرجان يليق باسميها الطاهرين ، مهرجان يدوم ثمانية أيام .

هى « عمارة » الحمامة البيضاء عذراء الندى . فيركب المعتمرون والمعتمرات الخيل والبغال والعربات الضخمة تجرها الثيران ، ويحملون فرشهم ومواعينهم إلى مرسما ! هولا ! كُرّه ! ويقيمون هناك فى هرج ومرج ، ومرح وطرب . يقيمون الصلوات ويشربون البيرا ويأكلون الجمبرى ويصيدون الطيور !

قال الدليل : إن شئتم أن تشاهدوا الموكب راجعاً قبل أن ينتثر فعليكم أن تلاقوه خارج المدينة .

استصوبنا الرأى ، وسرنا نقطع الجسر عند برج الذهب إلى تريانا — بلدة العمال والمعامل ، وخصوصاً منها معامل الزليج أى القيشانى . تريانا فخارية إشبيلية ، ومربض عمالها .

وفى طريق الموكب العائد من مرسما ، التقينا بطلائعه ، بعد أن اجتزنا نحو عشرين كيلومتراً ، واستقبلنا قسماً منه ، ثم انخرطنا فى سلكه ، وأمسينا من المعتمرين ، ولا اعتمار غير الفضول !

ولكننا سررنا بما شاهدنا من مظاهر الفرح الشعبية ، بخيلها ورجلها وعرباتها ، بدفوفها وشقيفاتها ، وما كان يسمع غير أصوات النساء يرتلن ، ويضربن على الشقيفات ، وصريف الدواليب الضخمة للعربات الخشنة تجرها الثيران .

وهناك عربات النقل الكبيرة وقد كدست فيها النساء بعضهن على بعض . أسراب منهن فى أثواب العيد ، الزاهية الألوان ، كأنها قطعة من قوس قزح تجرها الثيران . والرجال على الخيل والبغال ، فى تلك القبعات السوداء القوراء القاسية ، الرفيعة التاج ، المجسمة فيها عظمة الرجل الإسبانى (الكاباييرو = الفتى) وقد أردف امرأته أو أخته أو عمته على حصانه أو بغله .

الدواليب الضخمة المطوقة بالحديد ، وبينها عربات بمجالس من خشب ، تجرها الثيران ، ويسوقها رجال باسمو الوجوه ، وإلى اليمين واليسار منهم أنوار وجوه الحسان ، ووراءهم فى العربة على فراش من التبن سرب منهن يغنين . هو ذا الموكب بصورة ظاهرة ، وبروحه وقلبه .

يعود ، بعد ثمانية أيام من الطرب ، وبلوغ الأرب ، ولا وهن ولا تعب ، يعود كما خرج حاجًّا ، فى غمرة السرور والطرب .

وها هو ذا عائد ، له أول وليس له آخر . وها نحن أولاء فى غمار المعيدين والمعيدات . مكره أخوك لا بطل ! فلا طريق إلى المدينة غير هذا الطريق ، والموكب يحتله احتلالا مهرجانيًّا ، فيسير سير السلحفاة ولا عجب . فقد قطعت ثيرانه فى هذا اليوم أربعين كيلومتراً . والخيل والبغال مثل الثيران مكدودة مرهقة .

ويجب أن نقف فى كل قرية لنسمع نساءها يرحبن بنا منشدات الأناشيد . ويجب أن نقف عند كل ساحة إلى جانب الطريق . ثم نستأنف السير — تتحرك السلحفاة . فيا قديسة مرسما ، يا سيدة الطل يا أيتها الحمامة البيضاء طيرى إلينا ، وبجناحيك أنقذينا . لقد دنت الشمس من الأفق ، وكادت تغيب .

أشعلت فى الطريق أنوار كهربية ضئيلة ، ونحن لا نزال فى أوله ، وقل فى آخره ، وأمام الدير الذى كان فى غابر الزمان قصراً لفاتح المكسيك ، وقاهر الهنود فرنندو كرتيس (Cortez) . واعلم أعزك الله أن كرتيس أول من أدخل الخيل العربية إلى العالم الجديد .

ومع ذلك يقول قاموس الأعلام : « يجب ألا ننسى ، على ما كان من

فضله فى الاكتشافات وتوسيع نطاق علومنا الجغرافية ، أنه فى معاملته للهنود أهل البلاد كان جائراً عتيًّا » .

وهل نسيت الأقدار كرتيس الذى مات ها هنا فى هذا القصر بالقرب من إشبيلية ، منبوذاً منسيًّا ؟ قيل إنه تصدى مرة ، فى آخر أيامه ، لعربة الإمبراطور (شارلس الخامس) فأنكره فقال : « أنا الرجل الذى أعطاك من الولايات أكثر مما أورثك أجدادك من المدن » .

رحم الله كرتيس . وإن فى العلم بعض التعزية والرحمة . فهل هناك من يعلمه بما كان من معاملة الحكومة الأمريكية بعده للهنود أبنـــاء أولئك البسّل الذين تغلب هو عليهم ؟ فإنهم اليوم ، باسمهم واسم أجدادهم يترحمون عليه .

وله الفضل الآن بما أنسانا من مر الانتظار . فها هى ذى السلحفاة تتحرك ، بل هى تمشى — بل هى تمشى مسرعة ، وهاك فارساً بين فتاتين يطلق لجواده العنان . تقدس اسم « الحمامة البيضاء » فقد استجابت طلبنا . . .

ما كدت أنتهى من التسبيح حتى عادت السلحفاة إلى طبعها ، وعاد الفارس إلى سابق سيره ، يطمئن المليحتين ، التى يحضن والتى يردف ، يطمئنهما بصوت خشن وكلمات عذبة .

وكان الطريق يضيق فى بعض الأماكن فيغص بالموكب ، أو يحدث فيه احتقاناً ، فيقف ربع ساعة — نصف ساعة — ثلاثة أرباع ساعة ، اللهم ، هوِّن ، هون !

فأسمع من يقول : تأمل الثيران يهُنْ أمرك .

كنت أتأمل غير الثيران . كنت أتأمل النساء المعيدات بأيديهن وأصواتهن . فما كانت تقف تلك الخشيبات فى « تَرْتَتاتها » حتى خلال الانتظار ،

ولا تلك الأصوات فى أغانيها . بل كانت تزداد عملا وعنفاً ، لله درها !

وهذه الثيران — نعم ، هى مكدودة مرهقة ، وصابرة مع ذلك طائعة ، صامتة . ما سمعت ثوراً يخور ولو مرة . وكنت أخشى أن يفلت بعضها من السيور وتفر هاربة . فما كان شىء من ذلك .

ولكننا نحن الثلاثة أكثر منهم طاعة وصبراً وخنوعاً . فإننا أحرار نستطيع الفرار من السيارة ، ولا نفعل .

فقال البستانى ألفريد : نحن نُجرُّ ، وهم يَجرُّون .

فقلت : أوليس لجائع وعطشان من فضل فى السكوت والصبر ؟

وما كان فى الطريق بائع كعك ، أو سقاء سوس . ولا كان هناك من يفكر بغير النساء المسنوجة ، أو بالحرى بالرجال المسنوجة بالنساء . وأين السَّنْواج[1] ؟ وأين النزل يلبى طلبنا ؟

وصلنا بعيد منتصف الليل . فشربنا الماء لأن الـ « بار » كان مقفلا . وجاءنا الخادم بشىء يشبه سناويج اللحم والجبن .

ونمنا تلك الليلة على أصداء الأغانى ، وأصوات الشُّقَيفات ، التى كانت تتراجع فى آذاننا ، وتتردد فى الأحلام ، بل فى الكوابيس[2].

* * *

(١) سنواج ، شاطر ومشطور — عن المجمع اللغوى بالقاهرة — هى (Sandwich) الإنكليزية ، أى قطعة لحم أو جبن أو غيرها بين قطعتين رقيقتين من الخبز ، وعلى سبيل المجاز كل شىء يختلف عن شيئين وهو بينهما كاللحم بين الخبزتين مسنوج . وسندويش هى بالفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية سنويش — فهل يليق بنا أن نستقل عنها بالشاطر والمشطور ؟ إنى ، مع احترامى لمجمع فؤاد الأول ، أقول : السنواج على وزن السربال والجلباب . ولم لا نحافظ على الأصل الإنكليزى فى الفعل كذلك — (to sandwich) فنقول : سنوج يسنوج سنوجة وسنواجاً ، كما تقول دحرج أو سربل ونجمعها على سنوجات وسناويج .

(٢) إن شئت المزيد من أخبار المهرجانات ونكباتها فاقرأ « نور الأندلس » فى الجزء الثالث من الريحانيات .

كل ما يتجاوز حد المعقول ، أو حد الإدراك الهنىء المستريح فى عمله ، يخرج عن وضعه الأصلى ومعناه . فالذى يحب الغناء مثلا ويتذوقه لا تروقه شلالات منه ، تتدفق من مئة حنجرة مجهودة . والذى يهوى مشاهدة الرقص لا يهزه مرقص يضم مئة أو خمسين من الراقصات والراقصين . فالعين لا ترتاح إلى ما لا تستطيع حصره فى مشهد واحد ، أو صورة واحدة . والأذن لا تلتذ بغير الممكن استيعابه ، بمجمله وبدقائق جزئياته ، من الألحان .

هذا الذى أقوله فى الغناء والرقص يصح كذلك فى الكنائس الكبرى التى لا تتم فيها كل شروط العبادة ، وأولها حصر الفكر والإرادة فى الاتجاه الروحى ، إلا إذا كان المتعبد ضريراً . فلا يرى من الكنيسة غير غرضها الدينى الأسمى . وأين هذا الغرض من الفنون الجميلة ، أو غير الجميلة ، التى تملأ المكان بآثارها وخنفشارها ، بتحفها وتوافهها . فتتحكم بالإحساسات ، وتبعدها عن كل ما هناك من بواعث الغبطة والحبور .

يقول لك الدليل ، وأنت سابح فى لجج الجمال الهندسى الغوطى ، بين العضادات الضخمة ، تحت الأقواس الرفيعة ، فى نور مكرر بالزجاج الملون عليه الرسوم الدينية ، التاريخية والخيالية ، يقول لك الدليل ، وأنت فى هذه البهجة العالية : إن طول هذه الكنيسة خمسمئة قدم وعرضها مئتان وخمسون قدماً ، فتهبط من عليائك ، وتتحطم رؤوس أحلامك . فهل أنا فى مكتب أشترى قطعة من الأرض(١) ؟

ويقول لك إن فى الكاتدرائية خمسة وسبعين شباكاً من الزجاج المزين بالرسوم الملونة ، فتود لو كانت كلها شباكاً واحداً ، بحجم معقول ، تستطيع

---

(١) ما دمنا فى المساحات فإنى أنقل رقماً آخر يثبت أن كاتدرائية إشبيلية هى أكبر كنائس أوربا ، بعد كنيسة مار بطرس بروما . وهاك القياس بالتدقيق : مساحة كاتدرائية إشبيلية هى ١٤٢٠٠٠ ألف قدم مربعة . ومساحة كنيسة القديس بطرس هى ١٦٢٠٠٠ ألف قدم مربعة .

أن تدرسه بعينك وذهنك ، وتحصره فى قفص حبك ، لتتلذذ بمحاسنه الجليلة كلها .

أما الخشب المحفور ، على وفره وأنواع فنه فى هذه الكنيسة ، فهو دون الفن العربى الذى نشاهد فى القصر أمثلة منه رائعة .

وأما أن فى الكاتدرائية ، إلى جانبيها ، مجموعة من الكنائس الصغيرة ، وكل كنيسة هى متحف للصور الزيتية والتماثيل ، فليس فى القول مبالغة . ولكن أكثر تلك الآثار الفنية هى الوسط أو الدون فى الفنون .

وبينا أنت شاخص ببصرك إلى النافذة المدورة الكبيرة ، فوق الباب الكبير ، تلك النافذة التى هى كالشمس وقد رصعت بالزمرد والياقوت ، يستوقفك الدليل ، ويلفت نظرك إلى بلاطة تحت قدميك ، قائلا : هاهنا مدفون فرنندو كولون (كولمبس) ابن المكتشف العظيم . ابنه ! نعم .

وها هو ذا الأثر التذكارى للوالد الخالد . هو مؤلف من قاعدة يقوم فوقها أربعة أشخاص رمزيون يمثلون الممالك الإسبانية الأربع : قشطيل وليون وأرغون ونبار ، ويرفعون على أيديهم التابوت المحتوى على جثة خريستوفر كولمبوس ، وعليه كتابة هى توبيخ لأميركا « الناكرة الجميل ، العاقة أمها إسبانيا[1] » .

وفى هذه الكنيسة مدفون كذلك الملك فرنند غالب العرب ، ومعيد إشبيلية إلى الملك الإسبانى (١٢٥٢ م) فصار بعد موته القديس فرنندو . وهاهنا ،

---

(١) ما ارتاحت عظام كولمبوس بعد موته . فقد توفى المكتشف العظيم فى بايادوليد (٢٠ مايو ١٥٠٦) ودفن فى دير بإشبيلية . وبما أنه كان قد أوصى بأن يدفن فى جزيرة سان دومنغو ، نقلت جثته إليها فى سنة ١٥٤٢ ودفنت فى كنيستها الكبرى . ثم استولت فرنسا على تلك الجزيرة . فى عهد نابليون الأول فنقلت عظام كولمبوس منها إلى كاتدرائية هابانا . وعندما استقلت جزيرة كوبا عن إسبانيا ، نقلت بقية كولمبوس الأرضية للمرة الأخيرة إلى كنيسة إشبيلية الكبرى (١٨٩٩) حيث هى اليوم .

تحت المذبح المدفون أمامه القديس ، بقية ذلك الملك الآخر الملقب ببطرس العاتى ومعه حظيته ماريا باديليا .

هذا فى التاريخ ، وفى الكنيسة الشاملة برحمتها الملوك ، القديسين منهم والخاطئين .

وأما فى اللاهوت ، ينبوع الأديان الأرضية والسياسية فإن فى الكاتدرائية أثراً طريفاً منه هو « مذبح الجنب » وفيه صورة زيتية للفنان الإشبيلى لويس ده برغاس (Vargas) تمثل آدم وحواء يعظمان مريم العذراء . هو التصوف أو طليعته فى الفن الإسبانى .

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

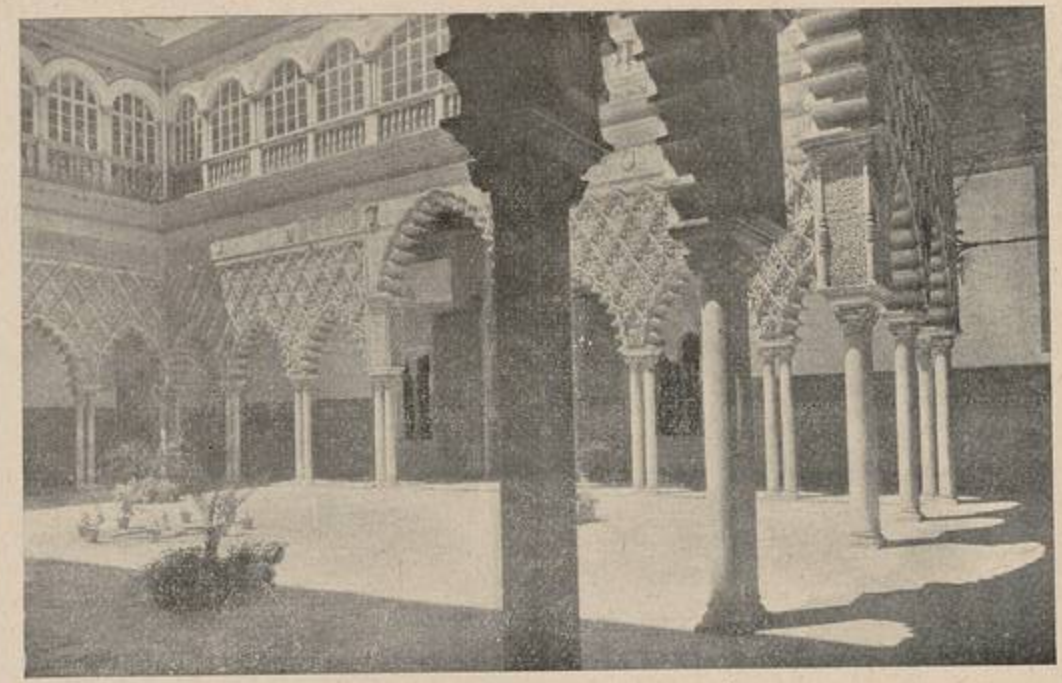
أطلنا الوقوف فى الكاتدرائية وما كان غرضنا هذه المرة غير إعادة النظر ، فى صومعتها الشهيرة التى تدعى خيرالدا ، إلى تمثال الفتاة القائم فوق القبة رمز الإيمان وهو يدور على محوره كدولاب الهواء . لذلك سمّى خيرالدا (Giraldillo) .

والذى يهمنا فى هذه الصومعة أو المنارة ، كما كان عرب المغرب يدعون المئذنة ، هو أنها تمثل عهدين وفنين . بناها المعلم جابر فى القرن الثانى عشر للسلطان أبى يعقوب يوسف الموحدى كما هو معلوم[1] . وبنى البرج الأعلى فوق الصومعة فى سنة ١٥٦٨ وهو من فن الـ « رنسانس »[2] فى الهندسة . وفى

---

(١) كانت لاخيرالدا هذه مئذنة الجامع الكبير الذى ظل المسيحيون يصلون فيه مئة وخمسين سنة بعد استيلائهم على إشبيلية ، أى من ١٢٥١ إلى ١٤٠١ وفى هذه السنة هدم الجامع ما عدا المئذنة والبوابة الشمالية التى تفضى إلى الصحن . وهو اليوم يدعى « فناء الليمون » — وبوشر بناء هذه الكنيسة واستمر البناء مئة سنة قبل أن تمت بأجمعها .

(٢) هذا الفن الإيطالى الحامل طابع النهضة الجديدة (Renaissance) دخل إسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر وكان فى أوج الإقبال يوم بنيت القبة فوق المئذنة .



بهو العذارى بقصر إشبيلية

الفنين مثال لما يسميه الإسبان الأسلوب المدجن (Estilo Modeian) أى الجامع بين الهندستين العربية والإسبانية[١] .

إن هذا الأسلوب جدير بالدرس ، لأن نزعاتنا الثقافية والفنية اليوم تعود إلى الجمع والإدماج ، لتساعد فى تقرب الشعوب بعضها من بعض .

فى إشبيلية من هذا الفن الهندسى بيتان مفتوحان للسياح ، هما بيت الكونت ده إلبا الحافل بالفنين العربى والغوطى ، والنقوش فى الآثار الفضية بالأسلوبين ، وبيت بيلاطوس الذى كان فى أيام صاحبه ، فرنندو ده ريبيرا[٢] ، محط رحال الشعراء والفنانين ، وفى مقدمتهم غنغورا وسرفنتس وهريرا ، هو جامع ، فى أساليبه الهندسية ، بين العربى والغوطى والإيطالى ، جمعاً طريفاً منسجماً ، تلتئم فيه العناصر المختلفة ولا تضيع أشكالها الأصلية .

ومن أمثلة هذه الهندسة ، غير هذين البيتين والصومعة ، برج الذهب (Torre de Oro) الذى كان أصلا أحد أبراج القصر ، وجعل فى عهد بدرو العاقى سجناً وبيتاً للمال . فالقسم الأسفل المضلع بُنى سنة ١٢٢٠ ، فى عهد السيد أبى العلاء الحاكم الموحدى ، والقسم الأعلى من العهد المسيحى بعده — وقد أسمى « برج الذهب » لا لأنه كان بيت المال ، بل لأن لون القيشانى فيه ذهبى .

هـــذه الأمثلة تثبت أن اندماج الفنين العربى والغوطى أو الإسبانى ممكن . وهو جمـــيل متى كان متناسقاً منسجماً ، كما فى لاخيرالدا

---

(١) العرب الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد الجلاء الأول ، وحافظوا على دينهم ، يدعون المدجنين ، ومنها (Modejan) أخذها الإسبان ليعبروا بها عن هذا الفن الجديد الجامع بين ما تقدمه من الفنون الهندسية وغيرها . وقد كان للملك بدرو الملقب بالعاقى حرس من المدجنين .

(٢) آل ريبيرا من الأسر النبيلة فى أشبيلية . سافر أحدهم وهو المركيز ده طريفة إلى القدس وباشر بعد عودته بناء هذا البيت فأطلق الناس عليه الاسم المعروف به اليوم لأنهم ظنوه تقليداً لبيت بيلاطوس .

وبرج الذهب . وأما التزيين والنقش فإن فى القصر أمثلة رائعة منهما .

هذا القصر مثل فارس مغوار قضى حياته فى الغزوات والحروب ، فطُعن فى وجهه وصدره وجوارحه كلها . ضرب فيه التشويه عصاه والدهر عوامل أيامه ، وما زال بالرغم من ذلك معروفاً مهاباً بطلعته وروحه وعظيم خلقه .

بُنى هذا القصر ، أو ما كان مكانه من قصر وحصن ، للسلطان الموحدى أبى يعقوب يوسف (١١٨٤) فتهدم فى الحروب ، وأعاد بناءه أيام الملك بطرس العاتى ، فى القرن الرابع عشر ، مهندسون وعمال من المغاربة المتنصرين (Morescos)

ثم شيدت الملكه إيزابلة الكنيسة فى الطابق الثانى ، ورمم وجدد فيه عمال ومهندسون إيطاليون للملك شارلس الخامس .

وقد أصلح ورمم كذلك فى عهد فيليب الرابع (١٦٣٤) وفى القرن الثامن عشر (١٧٦٢) شبت فيه النيران فذهبت بكثير من خشب سقوفه ، فرمم بعد خمسين سنة (١٨٠٥) ولا تسل لماذا أهمل خمسين سنة . هى الحروب التى تشغل الملوك والأمم عن كل شىء سواها .

ثم جدد (١٨٥٧) فى عهد الملكة إيزابلة الثانية تجديداً كلياً بالأسلوب الغرناطى تقليداً للحمراء ، بنقشه وحفره ، وبنوافذه الشمسية (Ajimez) أى القائمة بين عمد مزدوجة رفيعة ، ذات أقواس على شكل نعل الفرس — نعفرية[1] .

بيد أن فيه ما هو من غير هذا الأسلوب ، وما هو مخل به ، وما هو جامع بينه وبين غيره مما ذكرت .

---

(١) نحت العرب عبشمية من عبد شمس وعبقسية من عبد قيس وغيرها فكيف تنسب هذه الأقواس إلى نعل الفرس ، وهى ما تتميز بها إن لم نقل : نعفرية ؟

ومع ذلك لا يزال على الإجمال معروفاً بطابعه الأول العربى ، خصوصاً فى روافد سقوفه وخشبها ، المحفور الملون منها ، والمموَّه بالذهب .

أما جدران ردهة السفراء فالمدقق النظر فيها يكتشف أشكالا من الأسلوب المدجن ، وأخرى فى الإدماج والاختراع .

هى ذى عمد إيطالية (renaissance) تحمل أقواساً عربية نعفرية . وهاك منطقة بالخط الكوفى يتخللها قطع بالخط الغوطى القديم فى مدح الملك بطرس العاقى المشغوف بالحلى[1] .

وهذه مناطق أخرى من الحروف الكوفية ، وإن كانت ألفاظها مشوشة ، تتخللها دوائر مذهبة ، تحتوى على صور أسد وأبراج أو قصور بالأسلوب الغوطى ، إن هذا التقطيع لجميل ، بل هو فى نظرى ذروة بلغها الفن المزدوج . ذروة فنية ذوقية . فالمنطقة العريضة الطويلة المتواصلة من الكلمات الكوفية تتعب البصر وترهق الذهن المستكشف خفايا ألفاظها . فيجىء هذا التقطيع مريحاً بأسده وأبراجه ، ومفرحاً بتناسقه وانسجامه وسهولة بيانه .

وتلك مناطق من الحفر والنقش والتلوين على الجدران ، وهى غوطية الرسم والأسلوب ، يحيط بها إطار عربى تقلَّد فيه الحروف الكوفية والمغربية .

وهناك حائط حافل بالفن العربى ، خطًّا ورسماً ، من أسفله إلى أعلاه ، تعددت مناطقه وتنوعت ، وهو واحد من أربعة حيطان تذكر بردهة السفراء بالحمراء إنما يكللها سقف بقبة من الخشب المحفور والملون الغوطى الشكل والأسلوب . ولا تنافر بين هذا السقف وتلك الجدران ، ولا بين الفنين . بل إن اقترانهما يبدو طبيعيًّا بجماليه : البساطة والبلاغة .

---

(١) فى هذا القصر قتل الملك بطرس ضيفه أبا سعيد الغرناطى طمعاً بجواهر كان يحملها ، ومنها خاتم بياقوتة كبيرة أهداها بعدئذ إلى « البرنس الأسود » ولى عهد ملك إنكلترا إدورد الثالث ، كما يقول دوزى ، وهى لا تزال محفوظة مع جواهر التاج الإنكليزى .

فهل يصح هذا الاندماج الفنى الهندسى فى الثقافتين العربية والإسبانية إرث الأجداد المتحاربين بالأمس ، المتآخين اليوم فى المغرب الأقصى ؟

وهل يمكن الاندماج فى عادات الشعبين وتقاليدهم فتنشأ من ذلك حضارة شرقية غربية ، عربية إسبانية ؟ قد لا يكون ذلك ممكناً إلا فى البلاد التى يتم فيها تعاون الشعبين على أساس العلم والفن ، وعملا بالمصالح الاقتصادية المشتركة.

أما الأديان فهى لا تحول فى زماننا دون هذا الاندماج ، وهذه الثقافة . الأديان قد تحاربت فى الماضى وتعبت من الحروب !

* * *

هل هناك فن فى الهندسة والزخرف يصح أن يدعى فنًّا عربيًّا ؟ أجيب : نعم . إلى البادية لأعطيك المثل والبرهان . هناك القصر أو الحصن أو الاثنان معاً ، تراهما اليوم فى نجد أو فى إمارة من الإمارات على الشواطئ العربية . هما أساس كل فن دعى بعدئذ بالعربى أو المغربى .

وأما صفة البناء الأولية ، فهى سور بأبراج ، أو مربع بجدران عالية ، وفيها أو فى السور نوافذ صغيرة مرتفعة . وذلك للأمان والاطمئنان فيأمنون أعاصير الرمال ، أو للدفاع عن الأهل والقبيلة فيأمنون غزوات العدو .

وفى داخل المربع أو السور صحن ببئر ماء ، وبيوت حوله للسكن . بيوت من لبن أو طين ، جافة الظاهر ، قاسية فى بساطتها كالبادية نفسها ، وكجو البادية . لا زهور — لا ألوان — لا مياه جارية . والنفس تواقة إلى ما حرمت ، وعلى الأخص نفس العربى الذى نطق بالشعر ، أو بالكلام الموزون المقفّى منذ القدم ، وقرأ فى مظاهر الحياة شيئاً مما تنطوى عليه ، وأشياء مما فى قلبه .

إذن لابد من شىء يلطف هذا الظاهر الجاف القاسى . فلجأ إلى الجبص والألوان الأربعة — الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر — يزين بها حائطا

داخل بيته ، وباباً ونافذة . وإنك لتراه حتى اليوم يحفر الرسوم الهندسية دوائر ومربعات وخطوطاً بالجص على جدران المجلس أو غرفة القهوة . وتراه يصبغ أبوابه بالصبغة التى ذكرت ، ويرسم فيها الدوائر المقسمة والمربعات القائمة والمائلة ، وغيرها من الرسوم الجامدة .

هذه القاعة فى بساطة المجموع وقساوته ، وفى القليل من التزيين الداخل عليه ، تتمثل كذلك فى لباس العربى ، من الصوف كان أم من الخام ذى اللون الواحد ، القاتم والأدكن ، والخطوط القويمة البسيطة كخطوط السور للحصن أو القصر أو البيت العادى . مثال ذلك العباءة الفضفاضة ذات اللون الواحد ، والخط الواحد ، كأنها سور الرجل . ولكن فيها حول الطوق وعلى الصدر قليلا من التطريز بخيط الفضة أو الذهب ، ليخفف من وجوم مجموعها ، وينعش النفس التواقة إلى الجمال .

هذا ما حمله العربى من البادية — ذلك القصر الواجم فى ظاهره ، المشرق بعض الإشراق فى الداخل وتلك العباءة الفضفاضة الخشنة ، المطوقة بشىء من القصب — من الزينة — من الشعر . هذا ما حمله ، مع الدين الجديد ، دين التوحيد ، إلى البلدان التى فتحها واحتلها وعمرها .

وكان السوريون العرب — الغساسنة وغيرهم من اليمن والحجاز — قبل ذلك ، فى العهد الرومانى الأول ، قد أخذوا عن الرومان وعن الروم — البيزنطيين — بعدهم ، شيئاً من فنونهم فى الهندسة ، وأضافوا إليها أشياء من عندهم — ومن وحى بلادهم وطبائعهم الشرقية — فصار للهندسة الرومانية (Romanesque) والبيزنطية شكل يعرف بالسورى ، بالفن السورى .

وعندما دخل العرب الشام حاملين من البادية مع الإسلام أولياتهم الهندسية كان فى دمشق من الصناع والبنائين من طبقت شهرتهم الآفاق ،

فبلغت رومة والقسطنطينية (١) .

واجتمع الاثنان ، العربى الفاتح والعربى الماهد ، واقترن الفنان ، فى دمشق . فمن سور الحصن تدرجنا إلى جدران القصور ، المهيبة مثل السور فى انبساطها القاتم الأصم ، وفى القليل من نوافذها العالية . ومن القوس البيزنطية صنعنا قوساً تلائم مزاجنا ، أو تشبه شيئاً عزيزاً عندنا ، هو نعل الفرس . ومن العمود الرومانى نزعنا الضخامة ولزمنا أشكالا تعودتها العين ، وأحبها القلب ، كالنخلة فى صحن الدار ، أو كالخيزرانة بيد الأعرابى !

ومن هذا الاختراع وذلك الاقتباس ولدت النوافذ الشمسية ، ذات العمد الرفيعة المزدوجة والأقواس النعفرية . ومن الخط الواحد بالقصب وبعض الرسوم الهندسية بالجص تدرجنا إلى فن التقرنص ، وإلى ذلك الذخر من النقش والرقم والتزيين التى دعاها العرب بعدئذ بالتسطير والتصغير والتوريق والتقضيب .

أجل ، لقد نشأت تلك الأساليب فى البناء وتلك الأشكال فى الزخرفة ، من الفنين : الفن العربى الأوّلى ، والفن السورى الرفيع ، واقترنا ونشآ فنّاً واحداً خلال مئة سنة من الخلافة الأموية الأولى فى المشرق والمغرب . فحمله ، مع دين التوحيد ، الفاتحون . حملوه من الشام إلى القيروان — إلى المغرب الأقصى — إلى فاس إلى ديار العدوة .

وقد كانت حصون المغرب وقصوره ، قبل الفتح الإسلامى ، على الشكل

---

(١) بل كان للسوريين قبل ذلك بأربعمئة سنة ، مثل هذه الشهرة . جاء فى دائرة المعارف الإنكليزية فى الجزء الثالث صفحة ٤٨٤ ما يلى : « فى عهد الإمبراطور هدريان (١١٧ — ١٣٨) نشأت فى سوريا هندسة سورية شكلا وزخرفاً . ذلك لأن فى البلاد تكثر الحجارة ويقل الخشب ، ولأن الروح الشرقية تميل إلى الزخرف والتزيين . وكثيرون من البنائين فى ذلك العهد وبعده كانوا سوريين أو أنهم تمرنوا فى سوريا ، وآثار فنهم ظاهرة فى قصر الإمبراطور ديركليسيان بـ « سبالاتو » وفى بعض مبانى الإمبراطور قسطنطين فى القسطنطينية » .

الخارجى الذى وصفت ، فغدت بعد الفتح عربية فى زينتها الداخلية . جاء الفاتحون يحملون الرماح بيدهم ، والثقافة الجديدة مع الدين الجديد فى القلوب .

وبعد أن دخلوا الأندلس ، واستقروا بها ، جاء إخوانهم المستعمرين من سوريا ومصر وفلسطين ، وجاء مع السوريين — الشوام والحماصنة — البنّاء والنقاش والرسام والمشتغل بالرخام .

هو ذا الفن العربى الذى بدأ يظهر فى الفن الغوطى الإسبانى فى القرن الثانى بعد الفتح ، وأصبح فى القرن الحادى عشر شاملا بنفوذه فنون الهندسة والتصوير ، حتى فى المواضيع الدينية — فقد عثر المنقبون فى مكتبة الجمعية التاريخية بمدريد ، على مخطوطات للرهبان[1] مزينة صفحاتها الأولى بالحروف الملونة الشبيهة بالكوفية وفيها كذلك رسوم لقصور عربية فخمة بنوافذها وأبراجها وبأقسام من داخلها منقوشة مزخرفة .

وكان قد تأسست فى الشمال بدير من الأديرة مدرسة للنساخ ، يتعلمون فيها الخط والرسم والتوريق — تصوير ورق الأشجار — العربية كلها ، وكان لهذه المدرسة وآثارها تأثير بليغ فى فنى التصوير والنحت ، ليس فى إسبانيا فقط بل فى أوربا جمعاء .

ومن الطبيعى ، والفن فى ذلك الزمان دينى محض ، أن تتأثر إسبانيا بفنون غيرها من الأمم المسيحية كالألمان والفلامند والطليان . وبما أن فنونها الأولى كانت منحصرة على الإجمال فى تزيين الكنائس ومذابحها ، حفراً فى الخشب ، ونقشاً فى الفضة والنحاس ، كان الفن العربى ، خارج المخطوطات التى مر ذكرها ، كبضاعة « التهريب » شيئاً محظوراً . ومع ذلك فإن الباحث المدقق يرى من آثاره — من التوريق والتسطير والتقضيب — فى بعض صور المدارس الفنية التى نشأت فى بلنسية وقشطيلة وليون وإشبيلية فى مقدمتها .

(١) منها مخطوطة للأخ بياتوس (Beatus) فى سفر الرؤيا (Apacalypse) .

فقد أخذت مدرسة إشبيلية عن الفن العربى الشىء الكثير ، وموهته بالألوان القاتمة ، والأساليب البلدية ، فلا تظهر عروبته فى مظاهرها الباهرة . وكان السبب فى ذلك ما كان بين الأمتين من عداء واعتداء وحروب . فالفنان ، وإن كان على الإجمال لا يذعن لمشيئة الوطن السياسية ، كان يقتبس عن الفنون العربية ، ويحاول أن يخفيها . أو أنه يسميها مغربية (Moresque) لأن العداء بين الإسبان والمغاربة كان أخف منه بينهم وبين العرب .

وقد يستغرب قولى إن المصورين ، وفى مقدمتهم موريليو وبتشيقو وزرباران ، أخذوا عن الفنون العربية ، مثل المهندسين والنقاشين . فاستوحوا تلك الأشكال الخارجية فى تعمير الألوان والظلال فى صورهم ، كما استوحوا فى الزخرف والتزيين ما كان منها داخل الجدران .

ولا يخفى على العارفين أن الصورة الزيتية ، مهما يكن موضوعها ، لا تتم ولا تظهر محاسنها ، بدون التقسيم السورى فى كتل النور والظل والخطوط ، ثم اجتماعها فى محور واحد ، أو اتجاهها إليه . وهذا التقسيم والتعمير ، والتكتل السورى ، المنبسط أو الناتئ المتناسق المنسجم فى كل أشكاله ، تجده ممثلا أبدع تمثيل فى مجموعة من القصور والأبراج والأسوار العربية أو المغربية ، المتصل بعضها ببعض ، القائم بعضها فوق بعض ، كالنُّطُق فى الجبال . فكأن البنّاء مصور ، ، وكأن المصور بنّاء[1] .

---

(١) ونساج . فصنعة النسج عند العرب وصلت فى كمالها إلى فن جميل . وعلى الأخص فى ما كان يزين الديباجة من تصوير ورقم وتلوين ، مما استعان به الفنانون الإسبانيون .

قال الدكتور فرديناند كلر (Keller) السويسرى فى كتابه : غارة العرب على سويسرا . الذى ترجمه الأمير شكيب أرسلان وضمنه كتابه : تاريخ غزوات العرب (صفحة ٢٧٣) ما يلى :

« كان مادة النسيج من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق ، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود من الحرير الأصفر بحيث لا تزال الفضة تلمع فى أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائى تلك الفضة ذهباً » .

هى هى القاعدة فى وضع الألوان بعضها فوق بعض ، رقائق متعاونة ، فتنعكس خلال الأخلاط ، وتزيد بجمال الصورة الفنى .

أقف عند هذا الحد فى ما هو مستتر ، وما هو ظاهر ، من عوامل الفن العربى فى الفن الإسبانى وقد كان مجهولا فى الماضى ، إلا عند الاختصاصيين ، بل أقول إن الباحثين فى الموضوع قديماً وحديثاً أهملوا أو جهلوا الأساس العربى — لا المغربى — الذى كشفت النقاب عنه ، والفن السورى فى الهندسة والتزيين الظاهر حتى فى بعض الآثار البيزنطية والرومانية . ولا يصح رأى ، ولا يستقيم نظر فى الموضوع بدون درس الفنين السورى والعربى .

على كذلك أن أقول إن العوامل التى ذكرت هى كائنة ، ليس فقط فى فن الأولين من الإسبان ، الذين قلدوا كثيراً وقلما ابتدعوا ، بل فى آثار الفنانين ، زعماء النهضة الفنية الوطنية ، وفى مقدمتهم موريليو وزرباران وهريرا وبتشيقو و ريبيرا . وكل هؤلاء نبغوا فى زمن واحد — فى القرن السابع عشر . فلم يكن الاقتباس فى فن التصوير عن الفنون العربية مغلفاً بغلاف الحظر والتنكر كما كان فى الماضى ، فى عهد الاستيلاء العربى .

وهذه الظاهرة فى تاريخ الفن الإسبانى والنهضة الإسبانية الوطنية حرية بالتأمل . فما كان فى البلاد أيام العرب شىء يذكر من الفن الإسبانى والوطنية الإسبانية القومية الجامعة . والسبب فى ذلك هو التجزؤ السياسى والتفسخ الاجتماعى ، والحروب الأهلية ، فضلا عن تلك التى قامت بينهم وبين العرب المغاربة .

ولكن هذه الآفات السياسية والاجتماعية والقومية كانت متأصلة فى العرب أنفسهم . فقد كانت بلاد الأندلس مجزأة بينهم إلى إمارات صغيرة وكبيرة . وكان التفسخ الاجتماعى أو التحزب السياسى والإقليمى والمذهبى ضارباً أطنابه بينهم . وكانت الحروب الأهلية فى البلاد ، فضلا عن تلك الحروب التى قامت بينهم وبين الإسبان .

ومع ذلك فقد كانت النهضة العلمية والفنية عند العرب فى أبهى مظاهرها وما كان منها عند الإسبان شىء يذكر .

فما السبب ؟ السبب فى ذلك ، على تشابه البيئتين ، اجتماعياً وسياسياً ، هو أن العرب كانوا فاتحين محتلين ، سائدين ، وأصحاب دعوة كبيرة — أصحاب دين جديد — وكان الإسبان مغلوبين على أمرهم وواقفين فى مجمل أحوالهم موقف الدفاع عن وطن هو لهم ، وما هو لهم بسبب تخاذلهم .

ليس من ينكر أنهم ، مع ذلك ، أصحاب البلاد ، وأن العرب الأجانب — نعم الأجانب ، متغلبون فيها مسيطرون . فما ضرت الحزبية بهم ولا ضرهم التخاذل ، كما ضر الإسبان المغلوبين .

ولا نهضة للفن أو للعلم أو للوطن فى أمة مغلوبة . ولا يقوم لهذه الأمة قائم — لا تتفتح أزاهر نبوغها ولا تظهر أعلام نهضتها ، ما دام للأجنبى يد فى حكمها ، أو تدخل سياسى فى شؤونها .

وهذا الذى أقوله فى ماضى إسبانيا يصح فى حاضر البلاد العربية . فإذا كان الحكم الأجنبى فى إسبانيا هو سبب تقهقرها ، أو بالحرى سبب جمودها أثناء ذلك الحكم ، فهو كذلك فى البلاد العربية اليوم .

وليس فى الحالين غير نتيجة واحدة . ما قامت النهضة الإسبانية الفنية الوطنية ، وازدهرت إلا بعد انقراض الحكم العربى فى البلاد . ولا تقوم النهضة العربية الثقافية الوطنية وتزدهر ازدهاراً شاملا ، إلا بعد أن يخرج الأجانب المسيطرون من البلاد العربية .

° ° °

قال فرنندو هريرا (Herrera) أكبر شعراء الأندلس وابن إشبيلية ، وأول المجددين : « اللغة لا تموت ما دامت على ألسنة الناس وفى قلوبهم . وهى فى حياتها الدائمة تستمر فى الارتقاء والتحسن فتفوق فى يومها أمسها ، وتنبذ فى سبيل التجدد كل بال قديم » .

وقال لوبه ده فيغا (Lope de Vega) شاعر إسبانيا الكبير[١] : « القليل وهو ملكى أعظم من الكثير وهو ملك غيرى » .

فى هاتين الكلمتين نور يضىء مهد النهضة الأدبية الفنية الوطنية ، التى ازدهرت فى القرن السابع عشر . وقد كانت إشبيلية مهد تلك النهضة .

فأول من رفع مستواها الفنى بالتماثيل المجردة من العوامل الفرنسية أو الغوطية أو الإيطالية ، هو النحات مرتينس مونتانياس (Martinez Montaûes) .

وأول من أسس مدرسة للفنون على مبدأ التجدد هو ابن إشبيلية كذلك خوسه دى ريبيرا (Jose de Ribera)

وممن ولدوا فى إشبيلية من الكتاب المجددين لوبه ده رويدا (Lope de Rueda) وماتيو أليمـان (Mateo Aliman) . ومن الفنانين زعماء النهضة فرنسيسكو هريرا الأب وفرنسيسكو الابن . وفرنسيسكو بتشيقو (Patcheco) وزورباران (Zurbaran) وموريليو (Bartolome Morillo) وفلاسكيز (Diego Velasquez) .

قبل هؤلاء كانت الفنون الإسبانية تقليدية محض ، سواء فى أساليبها أم فى قيودها أم فى قوالبها . وقد شاع يومئذ بين الفنانين ما هو شائع فى ثقافتنا اليوم : النقل عن الأجانب ، والتقليد ، مع التقيد بالقديم ، فكان الـ « باروك »[٢] من الفن ، أى المبالغة فى النزعات الأجنبية ، الغوطية والعربية ، رسماً وشكلا وخيالا . فتفنن أشياعه فى أثواب القديسين مثلا وتطريزها دون النزعات الروحية ، وفى الرؤوس الطويلة والخوارق الدينية التى تمثلها بأسلوب مقتضب .

---

(١) وله أربعمئة رواية تمثيلية .

(٢) (Baroque) مدرسة للفنون يمتاز أسلوبها بالخطوط الملتوية المتقطعة ، وتمتاز روحها بالخيال الشاذ ، والتصور الشخصى المطلق من قيود التقليد .

وكاد الـ « رُكوكو »[1] يقضى بخزعبلاته على فن التصوير ، لولا العناصر الأجنبية الأخرى التى دخلت على الفن الإسبانى ، ورفعته إلى منزلة من الإبداع جديدة ، وإن لم يكن ما أبدع بشىء يذكر على أنه كان الخطوة الأولى فى سبيل الاستقلال .

ومن تلك العناصر الأجنبية السليمة عنصر الـ « فلاميش » (Flemish) الصافى منه والممزوج بالألمانى . وأول من أخذ من فنانى إشبيلية عن الفلاميش هو سنكيز ده كسترو (Sanchez de Castro) وقد تبعه كثيرون . هذه المدرسة تمتاز بأشكال الفن الظاهرة ، كقامات القديسين النحيلة ووجوههم الطويلة المخروطة وألوان أثوابهم الزاهية .

ثم دخل إسبانيا الفن الإيطالى الجديد ، ابن النهضة المعروفة بالرنسانس (Renaissance) فكان لويس ده برغاس (Luis de Vargas) وفرنسيسكو بتشيقو الرائدين لها ، الناشرين أعلامها .

وقد سافر إلى إيطاليا فى عهد رفائيل وميكل آنج ، أى بعد سنة ١٥٤٠ . كثيرون من فنانى البلاد ، طالبين العلم فى كنف كبار المعلمين ، فبدأ النفوذ الإيطالى منذ ذلك الحين يعلو كل نفوذ آخر ويتقدمه . هى النهضة التجديدية الأوربية فى إسبانيا .

وقد كان لزعمائها الذين ذكرت اتجاه واحد — إسبانيا الجديدة — على اختلاف الأساليب والأمزجة . فما خلت نزعاتهم من الخزعبلات ، ولا كانت المبالغات الفنية دائماً مرنة رصينة . خوّف هريرا زملاءه بضربات ريشته الغليظة ، وبشرار مزاجه العصبى ، وأضحكهم زورباران بشذوذه وادعائه ، لا تقاليد ولا خيال ولا وهم فى فن زورباران . ولا رصانة . فقد كان يجىء

---

(١) (Rococo) فى هذه المدرسة تطور الـ « باروك » (Baroque) تطوراً سلبياً زاد فى التشويه منه وذهب بالمحاسن ، وعلى الأخص فى التصوير .

بصبيان الأزقة مثلا ويلبسهم قمصاناً من الخام ليمثل الملائكة فى لوحاته تمثيلا واقعياً غير خيالى . وله فى ذلك شطحات إذا صح التعبير الصوفى ، فى فن بعيد من التصوف إلا فى الحقيقة العارية المرعشة . فقد كانت النساء فى زمانه يلبسن المشدات العالية فترق خصورهن وتصغر منهن الصدور ، فجاءت القديسات فى صور زورباران بصدور مسحاء كالرجال !

أما موريليو ، كبير الفنانين وأشهرهم فلم يخرج طوال حياته من إسبانيا ، ولا كان مكثراً فى اقتباسه عن الإيطاليين العظام ، مثل تيتيان وكورجيو وتنتورتو[1] فى التلوين ، وميكل آنج فى العظمة على الإطلاق . بل مشى فى سبيله كإسبانى مستقل ، وتطور فى أساليبه فكان منها ما يدعى بالبارد والحار والمبخر . بل قسمت صوره إلى ثلاثة أقسام أو أدوار ، وفى التقسيم تحكم واجتهاد . فإن فى بعض صور الدور الأول ، المصورة بالألوان الفاتحة الجافة ، متانة ورصانة ، وفى بعض صور الدور الثانى من التافه والركيك ما يمتاز به الدور الأول . وفى صوره الأخيرة ، أى فى الدور الثالث ، ما يصح أن يعد من الدورين الأول والثانى .

لقد أجاد موريليو فى تمثيل حياة الأنبياء ، والقديسين كما أجاد فى تصوير الأولاد ، أولاد الأزقة . فإن فى النوعين صدقاً وبلاغة وعلماً بعيد القرار بكوامن النفس . بل إن الجمال الذى يتخلل نور عيون الصبيان فى هذه اللوحات هو من رصانة الأنبياء ، وما فى عيون الأنبياء هو من روح الصبيان .

ومن أسلوب الدور الثانى صورة كبيرة فى كاتدرائية إشبيلية للقديس أنطونيوس بلغ فيها ذروة الفن .

أما أسلوبه المبخر فهو ذاك الذى تنتشر من ألوانه الحواشى الرفيقة كالضباب والبخار ، وتلبسها روعة الغسق المتخلف فيه بعض ألوان الشمس الغاربة .

(١) Titian, Corregio, Tintoretto

قلت إن موريليو هو كبير فنانى ذلك العهد ، وهناك أكبر منه هو فلاسكيز ، وإن كان موريليو أشهرهم فى إسبانيا فقد كان فلاسكيز أشهرهم لدى العارفين المتذوقين روعة الفنون ، وهو اليوم أشهرهم على الإطلاق . ولد مثل موريليو فى إشبيلية ولكنه وإن كان تلميذ بتشيقو يعد خارج مدرستها الفنية .

إن فلاسكيز فى التصوير يمثل سرفنتس فى الكتابة . فقد رفع الاثنان حقائق الحياة الإسبانية اليومية إلى مستوى النبوغ العالى . وهو مثل سرفنتس عبقرى فذ ، لا تصح المقارنة بينه وبين أحد من نوابغ الأمم الأخرى . رأى الفن فى زمانه إسبانيًّا دينيًّا فصمم على أن يجعله أوربيًّا بل عالميًّا . فى فنون زملائه طغت إسبانيا على أوربا !

إن رمبرانت (Rembrandt) أعظم الفنانين بعد ميكل آنج ده فنسى ، تنحصر مزية لوحاته أحياناً فى النور وأحياناً فى أزياء أشخاصه ، وأحياناً أخرى فى شخصية المصور نفسه ، فتنقلك توًّا إلى مكان الحادث ، أو إلى مقر الوحى فى عمله .

ليس لفلاسكيز شىء من هذه المزايا الفنية . فهو مثل ابن وطنه سرفنتس لا يقيد فنه بقيد من قيود الاصطلاحات الشكلية والشخصية . إن بصيرة الاثنين مثل بصرهما منطلقة شاملة نافذة تستكشف الطبيعة فى جميع مظاهرها ، فى حقائقها ووقائعها ، فى الدائم والزائل منها ، بدون خداع بصرى أو حيلة فنية ، فلا سرفنتس ولا فلاسكيز يتورع فى تمثيلها بأحط مظاهرها وبأسماها . اذكر مواقع دون كيخوته تجدها كلها لا تميل قيد شعره عن الواقع . يقابلها خياله فى الحب ، ومثله الأعلى فى الفضيلة والإحسان . واذكر فى لوحات فلاسكيز صور الملك فيليب والعائلة المالكة والمحبوس ، والسيدة العذراء (Madonna) وهى صورة فلاحة أندلسية ، ليست عليها مسحة شعرية أو دينية أسطورية أو خيالية .

نقل فلاسكيز من إشبيلية ، حيث كان الفن خادماً للدين والكنائس والأديرة ، إلى مدريد — إلى العاصمة — إلى القصر الملكى فى العاصمة . صورة من صوره ، تلك التى يتمثل فيها الملك فيليب ممتطياً جواده ، ففتحت له باب القصر ، وما لبث أن صار من المقربين فى البلاط .

وقيل إن الملك فيليب الرابع ، لما رأى صورة العائلة المالكة ، وفيها فلاسكيز نفسه واقفاً يصورها ، أخذ الريشة ورسم الصليب بالحبر الأحمر على صدر المصور . ولكنه لم يمنحه الوسام قبل أن تمت الأصول التى تتعلق به . وهى أن تتعين لجنة للبحث عن عائلته والتحقيق فى نسبها ، فقررت تلك اللجنة بعد البحث أن عائلة فلاسكيز خالصة من شوائب الكفر ، وشوائب الدم اليهودى أو المغربى ومن دنس المكاسب فى التجارة . هو ذا النيل الإسبانى المؤيد — والمقيد — بالبلاط .

ويوم أعطى الملك الفنانين موضوع طرد المغاربة من إسبانيا يتبارون فيه ، حاز فلاسكيز الجائزة بصورة صورها ولم يحتفظ بها .

إن لفن فلاسكيز أدواراً كما لفن موريليو وغيره من كبار الفنانين : فالدور الأول يمثل الطبيعة تمثيلا صادقاً أميناً بديباجة بارزة التقاطيع كالنقش فى الحجر ، وبانسجام من الألوان الحمراء والصفراء والبنيّة .

والدور الثانى يبدأ بزيارته لإيطاليا وتأثره بفنون ميكل آنج وتيتيان وتنتورتو ، فشرع يصور مثلهم فى فيض من النور . وكان يصور كذلك فى النور المنعكس ليلطف ألوانه ويعزز الرحابة فى أوضاعه وأشكاله .

أما فى الدور الثالث فالفكر هو الذى يتغلب فى لوحاته ، أو مزية الفكر السامى ، التى تجمعه وسرفنتس فى مستوى واحد . وهذا الأسلوب ظاهر بأتم معانيه وأبلغها فى لوحته الحربية المشهورة التى تدعى الرماح (Las Lanzas) وهى تمثل نهاية الحرب الإسبانية الفرنسية فى فلافورس

بعد حصار بريدا الطويل ، وتسليم القائد جوستين إلى القائد ليونردو . وتمثل غير ذلك ، تمثل كرم الأخلاق . فالقائد الإسبانى لا يقبل سيف خصمه ، بل يرده إليه رداً جميلا كأنه يقول : سلمت كرامتك . هى نهاية حرب دامت ثمانى سنوات ، وانتهت كما أرادها الفنان ، على ما قيل ، فكان فلاسكيز أمير بيانها ، وروح سلمها المكلل بمثل أعلى من مكارم الأخلاق .

كان عهد الملك فيليب الرابع (١٦٢١ — ١٦٦٥) العهد الذهبى فى الفنون والعلوم . وكان كذلك ، مثل عهد لويس السابع عشر ، عنوان الفساد فى الأخلاق ، والتهتك والاستهتار فى الهيئة الاجتماعية وخصوصاً فى البلاط الملكى ، وفلاسكيز ذلك الرجل الكريم النزيه الطيب القلب ، ذلك الفنان الأكبر فى زمانه ، والكبير فناً وحذقاً فى كل زمان ، عاش فى تلك الموبقات ، واحتمل ما احتمل ، وصور لزمانه صورة صادقة بليغة بدون مرارة أو ضغينة . على أنه وجد لما كظم منفذاً حين صوّر رجالا فى البلاط كانوا أقزاماً خَلقاً وخُلقاً ، ما عدا الوزير الأول أوليفارس (Olivares) ، فخلدهم فى لوحاته بأسلوبه البليغ الصادق الضارب إلى الرمزية . فجاء أولئك الأقزام[1] رموزاً للعالم السياسى الاجتماعى الذى كان يتلاشى تصنعاً وفساداً . وهذه اللوحات هى من فلاسكيز اعتراف صادق بما كان عالماً به ، وساكتاً عنه إلا فيها .

من العوامل الأجنبية التى عملت بالفن الإسبانى فى نشوئه وتطوره ، وخصوصاً فى هذه الحقبة من الزمن التى نعنى بها ، عامل شرقى غير عربى ، وصل إلى إسبانيا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر مع عبقرية جديدة لشاب يونانى اسمه دومينكو ثيوتوكوبولى ، فأطلق عليه اسم جنسيته وصار مشهوراً فى العالم بالإغريقى (El Greco) .

لا يمكن ونحن نستعرض الفنون إجمالا كركن من أركان النهضة الإسبانية

---

(١) El - Boldo, El - Primo, El Nino

الجديدة ، التى نشأت فى إشبيلية ، أن نخص كل فنان ممن ذكرنا بما يستحقه من البحث والتحليل . ولكننا معرفون كلا منهم إلى القارئ تعريفاً جزئيا . فعسى أن يحبب إليهم مواصلة الدرس والتعرف ، لما فى ذلك من لذة ولما فيه أيضاً من الفائدة فى تكوين الشخصية المثقفة التى لا يتم تكوينها إلا بمعرفة الفنون الجميلة .

هذه الكلمة نخطها اعتذاراً عما طال فى هذا الفصل ، وعما قصر فى الوقت نفسه عن الإشباع للمواضيع الفنية التى تتعلق به . وأهمها كما أسلفت القول فلاسكيز وفنه . على أن فلاسكيز كان معجباً جد الإعجاب بفن الإغريقى ، وما خلا محترفه ، بإشبيلية أو بمدريد ، من آثاره الفنية .

أما العامل الأجنبى فى فن الغريكو فليس إيطاليًّا ، مع أنه تلميذ تيشيان ، وإنما هو بيزنطى . هو إرثه الجنسى الثقافى الفنى — إرثه الشرقى ، ظهر فى لوحاته منذ بدأ يصور فى توليدو (طليطلة) المدينة التى أقام فيها ، بعد سفره من مسقط رأسه ، إلى إيطاليا

وأما العامل البيزنطى فهو لا ينحصر فى التلوين فقط ، بل يتجاوزه إلى الشكل ، أى أنه يشمل القالب والمعنى والديباجة . وقد كان لأول ما صوره وقع مدهش فى عالم الفن الإسبانى ، على وفرة الآثار الفنية فيه وكثرة الفنانين . فهاهنا وجوه للقديسين غير مألوفة ، وألوان للديباج والدمقس جديدة . هاهنا نوع من الأرجوان الذى لا يزال إلى يومنا نادراً فى غير صور الإغريقى . وهاهنا مقدرة غير اعتيادية فى تأليف الألوان وتصريفها . ولجميع هذه المزايا كلمة شاملة المعنى هى العظمة .

فالعامل البيزنطى فى فن التصوير الإسبانى هو قسم من العظمة التى تميز كذلك صور فلاسكيز عن سواها ، كما أنه قسم من الفخامة التى تتجلى فى الفن العربى بالحمراء ، وعلى الأخص فى الجامع الكبير بقرطبة . وهذا العامل

ظاهر فى أجمل وأروع مظاهره فى فن الإغريق الخالد . ومع ذلك فما تعدت شهرته فى حياته إسبانيا ، أو عالم الفن والمشجعين والمعجبين بالفن من أرباب الكنيسة . فظل هذا العبقرى ثلاثمئة سنة مغموراً بالخمول الذى يكاد يكون نسياناً.

ثم بعث فى أواسط القرن الماضى ، وذاع اسمه وخبره وفنه ، فوقف الناقدون أمام لوحاته وقفة الإعجاب والإكبار .

ومن عجيب الظاهرات الفنية أن يكون هذا الرجل سلف الفنان الأكبر فى القرن الماضى ، أى سيزان (Paul Cezanne) ، وأن يكون فنه أساساً لفن الفرنسى الشهير وأتباعه .

وكذلك قل فى فلاسكيز . فإن مدرسته الـ « إمبرثيونيزم » تمت إليه بصلة كريمة . فالإغريق ولد سيزان . والإسبانى ولد مونه ومانه ورنوار وبيسارو[1] وإخوانهم الكثيرون .

وهاهنا أريد أن أقول كلمة فى الـ « إمبرثيونيزم » وقد أضع لفظة عربية لها . فما هو أصل اللفظة الفرنسية ، وما هو معناها ؟ أول من خرج على المدارس الرسمية ، وراح توًّا إلى الطبيعة يستخبر حالها ، ويستطلع أسرارها ، هو إدوار مونه . وأول ما قرره مونه هو أن مظهر الأشياء الزائل هو أهم للفنان من مظهرها الدائم ، ثم شرع يدرس هذه المظاهر الزائلة فى الأنوار والظلال ، والأشياء الجامدة والمتحركة ، ويصورها فى تلك الأحوال وهو متأثر بها . فلقّب لذلك بالـ « إمبرثيونست » . وترجم كتابنا اللفظة إلى العربية ترجمة حرفية فقالوا : الفنان التأثيرى والمدرسة التأثيرية . وهذا فى نظرى غلط . لأن التأثير ممكن أن يكون دائماً وزائلا . ولا يراد بالأصل الفرنسى غير الزائل كما قدمت . وإن فى لغتنا العربية لفظة تؤدى هذا المعنى كاملا نجدها فى مادة فعل . فمن اشتقاقاتها الفعل . . . وهاك بقية الخبر من القاموس .

---

(١) Monet, Manet, Renoir, Pissaro, Sisley, etc.

الانفعال عند الحكماء التأثر . والانفعاليات عندهم الكيفيات الراسخة المحسوسة كصفرة الذهب . والانفعالات هى الكيفيات المحسوسة غير الراسخة – الزائلة – كصفرة الخوف (القاموس) أو كصفرة الأفق المقابل لمغرب الشمس.

إذن يصح ويجب أن نقول : مدرسة الانفعالات ، والفن الانفعالى ، والفنانون الانفعاليون وصورة انفعالية .

وهذه المدرسة التى ولدت من التمرد على المدارس الرسمية الأرثوذكسية (Acadamie Dogmatie) تمت بنسبها ، كما قدمت ، لفلاسكيز ، كما يمت فن سيزان والمدرسة التى نشأت عنه فى زماننا إلى الإغريقى الشهير ثيوتوكوبولى .

بقى أن أذكر فى هذه اللمحة الفنية العبقرى الإسبانى الآخر الذى يشارك فلاسكيز فى شهرته ومجده ، ولا يشاركه فى عذوبة النفس وسمو التفكير . ولا عجب ، فهو من غير زمانه ومن غير مكانه ، جاء بعد فلاسكيز بنحو مئة سنة ، وعاش فى زمن الثورة الفرنسية والحروب النابليونية ، وشهد بعد عودة البوربون ، روحتهم الأخيرة ، ثم الحرب الأهلية الإسبانية ، ومرحلة أخرى من مراحل التقهقر ، إذ بيعت فلوريدا للولايات المتحدة ، واستقلت بيرو والمكسيك .

كان لفرنسيسكو غويا (Goya) الرغونى (Aragon) المولد ، قساوة جو الشمال ، وجفاف سمائه . بل كانت عبقريته وليدة الفيافى والصخور ، وربيبة الشمس المتهافتة من خلال الحجب ، حجب الشك والازدراء . فاستعاض عن الحرارة بالأشعة الحادة النافذة ، وجاءت فى لوحاته الغبساء كمسحة من الغروب فى وجه الغسق .

إن غويا ، فى نزعته الشديدة إلى الطبيعة ، وفى ملازمته لها على الدوام ، فى عجرها وبجرها ، لمثل إميل زولا فى الآداب . وهو فى تهكمه مثل هوغرت (Hogarth) وفى مجونه مثل رابيله (Rabelais) .

وقد عبر عن كل ما اختلج فى نفسه ، ولاح لخاطره ، بالريشة والمنقاش — على اللوحة ، وفى لوح النحاس . فإن محفوراته (Etchings) مثل زيتياته (صوره الزيتية) لفى المنزلة الرفيعة العزيزة من الفن .

وفيها جميعاً معرض طريف للحياة الإسبانية الدينية والسياسية والاجتماعية والتاريخية . فقد جاب فنه الأمة ومعاهدها ، من مجلس التفتيش إلى المهرجانات ، إلى ساحة حرب الثيران ، إلى البلاط الملكى ، إلى المراقص ، إلى قدس أقداس الكنيسة نفسها ، فتناول هذه المواضيع كلها بريشته وإزميله ، وحولها على لوحاته ونحاسه إلى مشاهد حية ناطقة صادقة ضاحكة منهكمة .

وإن ضحكة غويا غير ضحكة سرفنتس . فضحكة سرفنتس تضحك وتطرب فى كل مكان . وضحكة غويا هى ضحكة حفار القبور حيناً ، وحيناً ضحكة مدمن فى حانة ، ودائماً هى ضحكة سياف يقط ولا يعد الرؤوس !

إن فن غويا لفن إسبانى مجرد من العوامل الأجنبية كلها — هو فن ديوان التفتيش الأعلى . هو فلاسكيز بدون حرارة قلبه ، وهو سرفنتس بدون حرارة إيمانه .

* * *

قال العرب فى قرطبة وإشبيلية كلمة رددها الكتاب ، ولا يزالون يرددونها حتى فى هذا الزمان دون تروٍّ وتحقيق . فقد تصدق فى العهد الأموى الذى ازدهر بالعلم فى غرناطة واشتهر بالطرب والغناء فى إشبيلية ، فكانت تروج هنا آلات الموسيقى كما تروج هناك الكتب . والأغلب أنها كلمة أقرب إلى النكتة منها إلى الحقيقة . وهى فى الزمان الذى عنينا به ، وفى زماننا ، غير صحيحة . فإشبيلية ، كما تبين ، هى مهب النهضة الفنية والأدبية فى التجدد ، وهى كذلك من الأشجار الأندلسية التى تغرد على أفنانها طيور المرح والمهرجانات ولا فرق بينها من هذا القبيل وبين مدينة أخرى أندلسية . فقد شاركت غرناطة

وبلنسية وقرطبة فى نهضة التجدد ، كما تشارك فى هذا الزمان فى كل مهرجان .

إنما تختلف إشبيلية عن سائر المدن بلطف مزاجها وتقلبه ، وشدة هواها على الدوام . هى روح مركبة من أرواح مختلفة متعددة — صاخبة الألوان — حمراء حتى الأرجوان ، صفراء حتى الذهب ، زرقاء حتى اللازورد ، خضراء حتى الزمرد . فهى الراقصة ، وهى القديسة ، وهى المحسنة ، وهى العاتية القلب . وهى فى هذا الزمان ، أو بالحرى بنتها تريانا عبر النهر ، محور من محاور العمال — يتصاعد منها دخان المعامل ، وخصوصاً معامل الزليج ، ودخان الاضطراب والإضراب .

وهى على الدوام إشبيلية الشاعر والفنان ، والعيد والمهرجان ، وهى ساحة الثيران ، وساحات البخور والصلبان ، والخنجر ودولاب الزمان ، هى هى إشبيلية فلاسكيز وموريليو وهرّيرا ، إشبيلية ألفونسو وفرنندو وريبيرا ، إشبيلية المعتمد بن عباد ، وبطرس ابن إبليس !!

نعود إلى إشبيلية العرب ، فنسمع الدليل يقول إن هذه المدينة ، إشبيلية ، كانت قديماً مستعمرة إيبرية ، قائمة على طريق التجارة بين قادش ومارندا وسكمنقا ، فاستولى عليها يوليوس قيصر سنة ٥٤ ق . م . وبعد العهد الرومانى صارت عاصمة الوندال ، فعاصمة القوط بعدهم . ثم جاء العرب — فنرجو الدليل الآن أن يستمع إلينا .

لقد كان أكثرهم فى الفتح الأول من عرب الحجاز ، وخصوصاً من أهل المدينة ، ومعهم بضعة آلاف من البربر(١) . فما طالت أيام الولاء بين الشعبين . ذرت الفتنة قرنها فى عمالة عبد الملك بن قطن ، فقام البربر على العرب يساعدهم نصارى البلاد .

---

(١) كان مع طارق بن زياد عندما دخل الأندلس اثنا عشر ألف مقاتل أكثرهم من البربر .

وكان فى سبتة يومئذ السوريون ، من حمص ودمشق ، يريدون العبور إلى الأندلس ، وعبد الملك لا يجيز ذلك لثأر كان له على أولئك السوريين . حمله فى صدره من الشام ، بل من الحجاز . ولكنه وقد أحاق به خطر البربر ، تناسى الثأر واستظهر السوريين . فعبروا المضيق ، وحاربوا فى جيشه مستبسلين فغلبوا البربر فى مواضع عدة ، واستتب الأمر بعد ذلك للعرب .

هذا هو الفتح الثانى ، والجيش الفاتح من سوريى حمص ودمشق ويرأسه بلجُ القيسى من قبيلة قشير (١) فلما اختلفوا وعبد الملك لأنه ما بر بوعوده لهم ، خلعوه ثم قتلوه ، وولوا بلجاً مكانه .

فقام أبناء عبد الملك يثأرون لأبيهم ، فنصرهم المدنيون ، وغيرهم من العرب ، وبينهم عبد الرحمن اللخمى وعبد الرحمن الفهرى ورجالها ، ثم انضم إليهم أولئك البربر أعداؤهم بالأمس ، وأصحاب ثأر اليوم ، فبلغ عددهم جميعاً خمسين ألفاً . وما تجاوز عدد جيش بلج الاثنى عشر ألف مقاتل .

وقعت الوقعة بين الجيشين (٧٤٢ م) فانتصر السوريون فيها ، ودخلوا قرطبة ظافرين . ولكنهم فقدوا قائدهم بلجاً الذى جرح فى تلك المعركة ومات بعد أيام قليلة . فعين الخليفة هشام ثعلبة اليمنى عاملا على الأندلس .

وكان ثعلبة أعدل ، أو أقل جوراً ، فى معاملته الأعداء ، أى عرب الحجاز ، أى القيسيين . وما زالت العداوات مع ذلك . بل شبت نار الحرب ثانية بين أبناء الوطن الواحد . وما هو فى نظر أحد الفريقين كذلك . هو وطننا نحن العرب . وما أنتم إلا سوريون . نحن — السوريين — العرب ، نحن اليمانيون ، وما أنتم إلا قيسيون .

السيف يثبت ما نقول . انتصر السوريون ثانية على المدنيين . انتصر ثعلبة على أمية وقطن ، ابنى عبد الملك ، وجيشهما فأخذوا منهم ألف أسير من رجال

(١) هو القائد الذى أرسله الخليفة هشام ليؤدب البربر .

ونساء . وباعوا النساء كالأرقاء بالمزاد فكان ذلك أفظع أعمالهم . العربيات تباع كالجوارى ؟ ! هى الصفحة السوداء فى تاريخ السوريين الفاتحين . وهى التى زادت فى النفرة والضغينة بين الحزبين . فقام فريق من العرب يحتجون عليهما ويطلبون من حنظلة الكلبى حاكم أفريقية أن يرسل إلى أرض العدوة من يستطيع أن يعيد النظام والعدل إلى مجاريهما القديمة . فأرسل حنظلة أبا خطار الكلبى ، من وجهاء دمشق ، فقبله السوريون والحجازيون .

وكان أبو خطار حكيما كريماً فاستبشر الناس به وبحكمه . فأول ما فعله أن أطلق سراح الأسرى ، وأبطل بيع الجوارى العربيات ، ثم سرح الجنود وأقطعهم الأراضى ، فأنزل الحمصيين بإشبيلية ، والدمشقيين بالبيرة ، والقنسريين بجين ، والمصريين بتدمير ، والفلسطينيين بالجزيرة وضواحيها .

وبعد ذلك ؟ حرب أخرى وخلافة أموية جديدة ، سنقص عليك قصتها عندما نصل إلى قرطبة .

قال الدليل : وعندما سقطت خلافة قرطبة قام كل من ملك فداناً من الأرض ينصب نفسه خليفة فى البلاد — ملوك الطوائف !

فنستأذن الدليل لننير زاوية من علمه .

عندما سقطت خلافة قرطبة (١٠٣١) استقل زاوى بن زيرى بغرناطة ، وقام فى إشبيلية القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل الحمصى من بنى عباد[1] يعلن استقلال المدينة ويؤسس فيها الحكم الجمهورى .

وكان هو رئيس الجمهورية الأولى — الجمهورية اسماً على ما يظهر — فإن حكمه دام تسع عشرة سنة ، فخلفه ابن عباد آخر هو ابنه المعتضد ، فحكم سبعاً وعشرين سنة ، ثم المعتمد المشهور ، أبو القاسم محمد بن المعتضد ، الذى حكم نحو خمس عشرة سنة ومات فى المنفى بأغمات .

---

(١) بنو عباد ينتمون إلى المنذر بن ماء السماء من لخم ، جاءوا الأندلس فى جند حمص .

هذه الجمهورية أو الإمارة دامت إذن ستين سنة لا غير ، فانضمت إليها ، خلال هذه المدة ، قرطبة التى كان يحكمها بنو جَهْور ، والجزيرة ورندا وتوابعها التى كانت فى حوزة بنى حمود ، ونبلة بنى يحيى ، وسلبة بنى مرين ، وطليطلة وسرقسطة حيث تولدت تلك الألقاب التى قال فيها الشاعر بيتاً من الشعر ذهب مثلا . وما كان كاذباً فى من أسموا أنفسهم عماد الدولة ونظام الدولة وجناح الدولة وهلم جرًّا .

فى هذه الحقبة السعيدة من الزمن (١٠٢٣ — ١٠٨٤) كانت إشبيلية أول مدينة فى الأندلس ، فكسفت قرطبة حتى فى العلم والأدب ، فكانت فى أيام المعتمد على الأخص كحلب فى عهد سيف الدولة ، يقصدها الشعراء والأدباء من كل نواحى البلاد ليتمتعوا بأنس أميرها الشاعر وأعطياته .

وما طال صفاء الجو للشعر والشعراء ، لأن ألفونس السادس ملك قشطيلة وليون ، قام يحارب المسلمين ، ويشن على مدنهم الغارات ليخرجهم من البلاد . ومع أن ملوك المسلمين جمعوا يومئذ كلمتهم عليه ، فما تمكنوا من خضد شوكته .

لنستنجد إذن بإخواننا عبر المضيق . هناك كان قد ظهر زعيم جديد للمرابطين ، هو يوسف بن تاشفين ، مؤسس مدينة مراكش ، وفاتح بلاد تلمسان . فاستنجده الملوك المسلمون فى الأندلس فسارع يوسف إلى نجدتهم . وما كاد يصل إلى الجزيرة الخضراء حتى التحم جيشه وجيش النصارى فى الوقعة المشهورة ، واقعة الزلاقة ، وكان منتصراً .

نصر الله المسلمين على يد يوسف ، ثم نصر يوسف على أمراء المسلمين ، فقد رأى ابن تاشفين أن أولئك العرب المقسمين المتحزب بعضهم على بعض[1]

---

(١) إن شئت المزيد من أخبار التقسيم والتحزب والتخاذل والاطلاع على رأى ابن رشد فيها ، فاقرأ « نور الأندلس » فى الجزء الثالث من الريحانيات .

لا يصلحون لملك هو كالجزيرة فى بحر النصارى . فأزاحهم عن عروشهم ، وقرأ عليهم فصلا من كتاب الفتوحات المباركة .

وقد أدرك المعتمد بن عباد أن نظم الأشعار ، لا يفى الملك من الدمار . فاستل سيفه على يوسف ، وكان مدحوراً ، فنُقل هو والرميكية إلى أغمات بالمغرب — هو والرميكية صاحبة القصة المشهورة ببيت من الشعر :

نسج الريح على الماء زرد . . .

أجز يا ابن عمـــار[1] .

فأغلق على الوزير الشاعر ، وفتح على جارية كانت تتنزه فى تلك الساعة على ضفة النهر الكبير ، وهى قريبة من الملك المتنكر ووزيره . فسمعته يقول :

نسج الريح على الماء زرد . . .

فقالت على الفور : يا له درعاً منيعاً لو جمد !

تلك الجارية هى الرميكية ، وتلك الساعة هى الأولى من أيام وأشهر وسنين نادرة فى حياة المحبين .

نسج الريح على الماء زرد !

وكان ملك المعتمد كالريح على الماء .

وكانت حياته والرميكية كالنسيم العاطر فى روضة العاشقين .

قال الدليل : وحمل المهاد على المراويد (الموحدون على المرابطين) وانتزعوا الملك منهم فى سنة ١١٤٧ .

وبعد مئة سنة — ما أطول صبر أولئك الأقدمين ! — أعاد المسيحيون الكرة على إشبيلية بقيادة الملك فرنند الثالث ، فرنند القديس ، ومساعدة

---

(١) المعتمد وابن عمار نديمه ورفيقه ووزيره كانا يتنزهان فى مرج الفضة منتزه إشبيلية العام على ضفاف النهر الكبير .

العربى المسلم محمد بن يوسف بن الأحمر ملك غرناطة[١] فسلمت المدينة بعد حصار دام ستة أشهر (١٢٤٨ م) .

ودخل القديس إشبيلية ظافراً ، ثم طرد منها المسلمين — ثلاثمئة ألف من المسلمين .

* * *

إيه إشبيلية العرب ، لها أقصر يومك ، وما أطول ذكراكِ !

وما أنصع يمينكِ ، وما أقتم يسراكِ !

المعتمد الشاعر ، والمعتضد السفاح ، كلاهما كان أميركِ ، وكلاهما كان نيراً عليك .

كلاهما أحب نفسه ، ثم أحبّك ، وما أخلص لكِ .

نفس المعتمد فى الجارية اعتماد[٢] .

ونفس المعتضد فى جماجم الأعداء ، المزروعة بالزهور .

الشعر فى الفواجع ، والشعر فى الغرام !

والحكم لله — وللمرابطين .

وهل يحتقر الشعر ، وهو من روح الله ؟

عادت الرميكية وأميرها من رحلة فى الشمال حيث شاهدت الثلج على أفنان الأشجار فراقها المشهد ، وغدت فى إشبيلية حزينة تحن إليه . فسألها أميرها الشاعر الملك : ما بك ؟ فقالت : أشتاق إلى منظر الثلج . فقال سترينه من نافذة هذا القصر .

وجاء بأشجار من اللوز فغرسها فى الحديقة . واللوز يزهر فى الشتاء —

---

(١) كان ابن الأحمر وابن حمود يتنازعان الملك ، فقتل ابن حمود فى المارية (١٢٣٨) واستولى ابن الأحمر على غرناطة ومالقة ، وعلى جيان التى اتخذها قاعدة لملكه . ومع ذلك ما خلا له الجو . وكان الملك فرنند الثالث قد استولى على قرطبة ، وهم بالزحف إلى جيان ، فرأى ابن الأحمر من الحكمة أن يواليه ، ويساعده فى الاستيلاء على إشبيلية ، ليبعده عن عاصمته .

(٢) اسمها اعتماد ، والرميكية نسبة إلى سيدها الأول رميك .

وها هو ذا ، يا اعتماد ، الثلج على الأفنان !

ما أجمل حبك ، وما أرق شعورك ، وما ألطف خيالك ، أيها الملك ، ياشاعر الحياة !

وكان المعتضد يأمر بالتعذيب ، وبالقتل ، وبسلخ الجماجم ، ولا يأذن لعينه أن ترى ، ولا ليده أن تلمس غير الزهور .

ما أدق ظلمك ، وما أرق خيالك الدموى ، أيها الملك ، ياشاعر الموت !

وبذكرى الأثنين يتلمظ التاريخ . . .

فى حديقة القصر شجرة من المنغولية ، جذعها ضخم قصير معقد قبيح الوجه ، وأغصانها عالية وارفة زاهرة . هى أكبر شجرة شاهدت من نوعها . وهى رمز ذينك العهدين من حكم بنى عباد . جذعها ضريح المعتضد وزهرها يردد ذكرى المعتمد كل ربيع !

وفى الطابق الأسفل من القصر ، وراء شجرة المغنولية ، ذلك الحمام الذى كانت تستحم فيه ماريا باديليه حظية بطرس أخ المعتضد .

وجدران ذلك الحمام لا تزال تسمع قهقهة أولئك المخنثين الذين كانوا يشربون من الماء الذى تستحم فيه باديليه الحسناء .

وبطرس والمعتضد لا يسمعان اليوم غير قهقهة الأبالسة ، وهم يهيئون لهما شراباً من غسلين !

وفى جوار شجرة المنغولية ، مقصورة الملك الحكيم الكريم[1] وتجاهها دروب منحنية بين الزهور والرياحين ، تدعى درب العشاق ، فيها نافورات تفاجئهم بمائها ، فيضحك اللاعب واللعوب ، وتغرد الطيور فى القلوب !

فيا أيها الملك الشاعر ، ويا أيها الملك الحكيم ، إن ذكركما الطيب لخالد بين زهور المنغولية ورياحين درب العشاق !

---

(١) هو الإمبراطور شارلس الخامس (١٥١٦ - ١٥٥٦) تنازل عن العرش لابنه فيليب الثانى وعاش سنتين بعد ذلك مغموراً بلطف الحياة .

الفصل الثالث

الفاتحون العرب والإسبان

منذ ألف ومئتين وسبع وعشرين سنة – أى فى سنة ٧١٢ – وقف عند أبواب مدينة ماردا [1] جيش من العرب والبربر عدده عشرة آلاف ، وقيل ثمانية عشر ألفاً بقيادة موسى بن نصير .

وكان أهل المدينة قد أقفلوا أبوابها ، ووقفوا فى الأبراج وعلى السور يدافعون عنها ، فدار القتال بينهم وبين العرب ، واشتد ، وطال .

وكان موسى قد فتح إشبيلية ، بعد أن حاصرها أشهراً ، وقرمونة ، بعد قتال شديد ، فأبت عليه همته العالية أن يعود من أمام ماردا مدحوراً .

استمر القتال ، تتخلله الحيل الحربية ، وأولها وأحبها لدى العرب الكمين . وكان الليل حليف الكمين . فانقض على أهل المدينة عند خروجهم صباحاً للقتال ففتك بهم فتكاً ذريعاً ، فمات كثيرون ، وفر الآخرون هاربين .

مع ذلك ثبت أهل ماردا فى الدفاع من وراء سورهم المنيع . فعمل العرب دبابة ، دب تحتها الفدائيون إلى برج من أبراج المدينة ، فنقبوا الصخر الكلسى ووصلوا إلى حائط فى داخله من الجلمود . فعملوا فيه الفؤوس والمعاول ، فاستفاق من صوت ضرباتهم العدو وقابلهم بما كان منهم يوم الكمين . فاستشهد جميع من كانوا تحت الدبابة ، وأسمى ذلك البرج بعدئذ برج الشهداء .

---

(١) ماردا العرب هى بالإسبانية (Meriad) وكانت تدعى فى عهد الرومان إمريتا (Emerita) .

وكانت بعدئذ الهدنة . فخرج وفد من أهل المدينة يفاوض فى الصلح ، فدهشوا لما رأوا أن قائد الجيش شيخاً ذا لحية بيضاء ، فاستمعوا إليه وحملوا شروطه إلى أهلهم . كان ذلك فى أواخر رمضان .

ثم عادوا فى اليوم التالى فإذا الشيخ صاحب اللحية البيضاء كهل بلحية حمراء . هو هو موسى بعينه ، وقد صبغ لحيته بالحناء للعيد . للعيد ، أو لحسناء من حسان ماردا . والنصيريون كما يظهر قوامون على الأعجميات . فقد تزوج عبد العزيز بن موسى أغيلونة زوجة ردريق ملك القوط بعد الوقعة التى قتل ذلك الملك فيها . وها هو ذا والد عبد العزيز أبو اللحية الحمراء ، يمشطها بأنامله الرفيعة ويرد ذلك الوفد عن وجهه قائلا : لا يرجع العرب عن قصدهم ، ولا يغيرون فى مطالبهم .

عاد الوفد يشاور أهله . فصبر الماردیون ، وما وهنوا فى المساومة علهم يستخلصون شيئاً من المفروض ، ولو حلىّ الكنائس . فعادوا يساومون ، أو كما يقول المؤرخ يراوضون .

وكان مجىء الوفد للمرة الثالثة يوم العيد ، عيد الفطر ، فدهشوا ، صعقوا بما شاهدوا . إن هذا العربى لمن الجن يأكل ولد آدم ، بل هو من الأنبياء يعمل العجائب . كيف لا وقد كان منذ يومين ذا لحية بيضاء ، وكان بالأمس أحمر اللحية وهو اليوم شاب ذو لحية سوداء ! يغير هؤلاء العرب لحاهم ، ولا يغيرون كلامهم !

فما راوض الماردیون فى ذلك اليوم ولا فاوضوا ، ولا جادلوا ولا ساوموا . بل عادوا توًّا إلى أهلهم يقولون ، إن من نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا . فقد صار ملكهم شابًّا بعد أن كان شيخاً . أعطوه ما يسأل ، ولا ترددوا ، ولا تماطلوا ، ولا تسوّفوا .

صالح أهل ماردا العرب — سقياً فى الجنة للحية موسى ! — على كل ما

طلبوا ، فدفعوا للمسلمين دية القتلى يوم الكمين ، وأموال من فروا من المدينة هاربين ، وحلى الكنائس للقائد نفسه !

ثم فتحوا له المدينة فى ذلك اليوم ، يوم عيد الفطر من سنة أربع وتسعين للهجرة (٧١٣ م) .

كان موسى بن نصير اللخمى الحجازى كبير الهمة ، عظيم الخلق ، طموحاً شجاعاً ، شديد الإيمان والإرادة . هو فاتح المغرب ومدوخ البربر ، البربر الذين ارتدوا اثنتى عشرة مرة فى أقل من اثنتى عشرة سنة .

علمهم موسى الإيمان والطاعة والإخلاص باسم الله والرسول . ووضع فى رؤوسهم عيوناً ترى لهيب نار الجحيم ، والكافرين فيها وتحتهم المرتدون ! فهو الذى رفع أعلام العرب والإسلام فى بلدان المغرب كلها وأدخلها فى حوزة العرب المسلمين .

وهو الذى فاوضه يليان حاكم سبتة فى أمر الأندلس ، وشوقه إلى غزوها بما لدى طارق من الجنود ، وبما يقدمه هو من السفن . قيل إن يليان فعل ذلك انتقاماً من الملك رذريق . والذى يظهر أنه فعل ما فعل ليبعد أولئك العرب والبربر المسلمين عنه ، كما قدمت فى فصل سابق(١).

فكتب موسى إلى الخليفة الوليد يستأذنه فى غزو الأندلس ، فكان جواب الوليد : أن اتق الله ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . فأصلح موسى علمه بالبحر الشديد الأهوال قائلا : إنه خليج يرى من أوله ما وراء آخره .

وغلبت إرادة موسى خوف الخليفة فأرسل وليه طارق بن زياد يفتح الأندلس .

وجاءته أخبار طارق تثير أشواقه إلى الفتوحات ، وتغضبه بما فيها من تصرف يخالف أمره . فصمم على الغزو فى دار العدوة ، وشمّر فى الإعداد

---

(١) راجع الفصل الخامس من الجزء الأول .

له . فعبر المضيق بعد طارق بسنتين بذلك الجيش من وجهاء العرب وعرفاء البربر ، ومعهم واحد من أصحاب النبي محمد عمره مئة سنة ، وكثيرون من أبناء الصحابة .

ومشى موسى فى غير الطريق الذى سلكه طارق ، ففتح إشبيلية ، كما قدمت ، ثم قرمونا ، ثم ماردا .

وزحف بعد ذلك شمالا إلى طليطلة حيث كان وليه طارق بن زياد . فخرج لملاقاته وتعظيمه ، فكان سلام وكان بعد السلام أن وضع موسى السوط على رأس طارق ، ووبخه فى ما كان من خلاف رأيه . ثم سأله عن الغنائم ، عندما دخل طليطلة ، فأتاه بها . وعن تلك المائدة . . .

تلك المائدة التى تغزل بها صاحب القصة فى كتاب ألف ليلة وليلة فقال إنها من عجائب الدنيا . وهى مائدة بوجه من المرمر فى إطار من الخشب المذهب ، وبأرجل من الذهب الصافى .

وكانت إحدى تلك الأرجل مكسورة ، فوضع السوط على رأس طارق فأقسم طارق بالله وبالنبى أنه لا يعلم — والله كذلك أصبتها . فأمر موسى بأن يعمل لها رجل من ذهب ، ثم وضعت فى سفط من الخوص وحملت مع الغنائم .

يقول أحد المؤرخين إن موسى رضى بعد ذلك عن طارق ، ومشى وإياه ، مشى خلفه فى جيوشه إلى الثغر الأعلى فافتتحوا سرقسطة .

ويقول آخر من المؤرخين إن طارقاً شكا موسى إلى الخليفة الوليد وأيده فى شكواه رسول الخليفة مغيث الرومى فكان ذلك من أسباب النكبة التى نكب بها.

ولكن المؤرخين متفقون فى أن موسى وطارقاً اشتركا فى غزو بلاد الشمال . فكان طارق ورجاله فى المقدمة فيجىء موسى مكملا عمل مولاه ومثبتاً ما عاهد الأهالى عليه .

مشوا فى البلاد فاتحين ظافرين غانمين الغنائم ، حاصدين زرع قلوب

نضج للمنجل . فما كان هناك من يقول لا ، ولا من كان يعارض بغير طلب الصلح.

قلت إن موسى كان عالى الهمة طموحاً شجاعاً . وما كانت إرادته مجردة من قوة التصور. فنظر إلى تلك البلاد الشمالية ورأى وراءها ، الأرض الكبيرة، أى أوربا ، فطمع بأن يقطعها فاتحاً باسم الله والرسول للعرب والمسلمين ، وأن يعود إلى الشام عن طريق ألمانيا فالآستانة فآسيا الصغرى ، فيسلك بعده الأندلسيون العرب طريق البر إلى الشرق بدل طريق البحر .

ولكن الخليفة الوليد قطع عليه تلك الرؤيا المجيدة . فكتب يلح عليه فى القدوم إلى دمشق ليقف منه على حقيقة خبر الأندلس .

فقال موسى للرسول مغيث الرومى : فى الشمال بلاد تنادينا ، تنادى المسلمين تعال معنا نفتحها فتكون شريكنا فى الأجر والغنيمة . ثم نعود إلى الشام .

فزحفوا إلى جليقيا (Galicia) فافتتحوا الحصون ، وبلغوا صخرة . . . على البحر الأخضر (كذا) ، وكانوا كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به الرحال ، ونزلوه قاطنين .

وبينما هو فى هذه الفتوحات إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة أدرف به مغيثاً ، ومعه كتاب فيه توبيخ لإبطائه فى العودة .

فعاد موسى من جليقيا . واستخلف ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس التى اندمجت يومئذ فى ولاية المغرب . وأقره بمدينة إشبيلية .

وركب البحر بعد ذلك ومعه طارق بن زياد ، وأحمال من الغنائم والأموال والجواهر التى لا يقدر قدرها ، وثلاثون ألف رأس من السبى .

عاد الفاتح ظافراً غانماً فماذا لقى من مليكه أمير المؤمنين ؟

قيل إنه ما وصل إلى دمشق حتى مات الوليد وخلفه أخوه سليمان . وقيل

إنه لما توجه إلى المشرق ، وانتهى إلى مصر ، بلغه الخبر بمرض الوليد ، ووافاه كتاب يستحثه على القدوم ، وكتاب آخر من سليمان يثبطه فأسرع موسى فى العودة ووفد على الوليد قبل وفاته بثلاثة أيام ، ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال . فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه .

قال المؤرخ : أوقفه فى يوم شديد الحر فى الشمس ، وكان رجلا بادناً ذا نسمة (ربو) فوقف حتى سقط مغشيًّا عليه . وقال له سليمان : كتبت إليك فلم تنظر كتابى . هلم مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذتم ما كان معى من الأموال . فمن أين لى مائة ألف ؟ فقال سليمان : لابد من مائتى ألف . فاعتذر ، فقال الخليفة : لابد من ثلاثمائة ألف دينار . وأمر بتعذيبه وعزم على قتله ، وقتل جميع أولاده .

ولقد أمر عامله بأفريقيا بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بنى موسى ، فسجنه الأمير وعذبه ثم أمر بقتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فلما بلغه ما حل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع ابن مروان . فجاء أمر سليمان إلى وجوه العرب بالأندلس بقتله فقتلوه وأرسلوا برأسه إلى الخليفة .

فلما أحضر الرأس بين يدى سليمان استدعى إليه موسى بن نصير وقال : أتعرف هذا ؟

فقال موسى : نعم أعرفه صوّاماً قوّاماً . فعليه لعنة الله إن كان الذى قتله خيراً منه .

وذكر فى وفاة موسى أنه حج مع الخليفة سليمان ، فلما وصلا إلى المدينة قال لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب .

وكان موسى[١] ذلك الرجل[٢].

* * *

منذ أن فتحت ماردا (٧١٢ م) إلى أن استعادها الملك ألفونس التاسع (١٢٢٨ م) كانت فى حكم العرب ، مدينة عربية إسلامية .

توطنوها خمسمئة وست عشرة سنة ، وكانوا سادتها ، ولم يبق فيها اليوم من آثارهم الظاهرة القائمة غير الحصن .

على أن فيها ، وفى ضواحيها من آثار الرومان شيئاً كثيراً . فقد كانت أصلا مستعمرة عسكرية رومانية ثم صارت ، بعد أن استقر الرومان فى البلاد ، قاعدة لولاية لوسيتانيا التى امتدت غرباً إلى البحر . وهى لشبونة عاصمة البرتغال اليوم ، على خط العرض الواحد ، وبينهما من المسافة ما بين إشبيلية وماردا ، أى نحو مئتى كيلومتر .

دخلناها قبل الغروب قادمين من إشبيلية ، راغبين فى المبيت فيها ، فكان نزلها غاصًّا بالضباط الإسبان والمسرحين من الجيش .

وما رسخ فى الذهن مما شاهدناه ، ونحن نمر بأسواقها ، غير مشهد من مشاهد الحرب المخزنة . هو فى حقل قبالة إحدى ساحاتها ، شبيه بهرم من الحديد المكسر المكدس بعضه فوق بعض . هو بقايا سيارات ودراجات ومدافع وغيرها من الآلات المحطمة والمعطلة لحرب هذا الزمان الميكانيكية . فقد كانت ماردا ، على ما يظهر ، مرفقاً من مرافق الثورة تصب فيه خرابها ، وهو أول ما شاهدنا من خرائبها ، وخرائب العمران .

---

(١) ولد موسى بن نصير اللخمى بمكة فى سنة ١٩ للهجرة ، فى خلافة عمر بن الخطاب . وولى أمر أفريقيا من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩ ، أى فى السبعين من سنه . وتوفى سنة ٩٨ (٧١٧ م) بوادى القرى .

(٢) ما تقدم من هذا الفصل هو خلاصة أخبار لمؤرخى العرب والفرنجة نقلها وعلق عليها ، لأمير شكيب أرسلان فى كتابه « تاريخ غزوات العرب » .

شتان بين حروب الزمان الغابر وحروبنا ، شتان بين خسارة وخسارات ، بين دك الحصون وهدم الأبراج والأسوار بالأمس ، وتدمير كل ما ينتجه العلم ، ويصنعه الإنسان ، فى هذا الزمان .

واصلنا السير شمالا بشرق إلى تروخيو (Trujillo) ترخيّة العرب ، فدخلناها بعد الغروب ، وحططنا فى النزل رحالنا — حقائبنا — ثم خرجنا لساعة النزهة فى ساحة المدينة قبل العشاء . فجلسنا فى رواق قهوة من المقاهى ، قبالة الكنيسة القائمة فوق الساحة والبلدة تحتها ، وأمام الكنيسة تمثال لرجل على جواد هو ابن ترخيو وبطلها فرنسيسكو بيزارو (Pizzaro)

بيزارو ! عادت بى الذكرى إلى أيام المدرسة بنيويورك إذ كنا ندرس تاريخ أمريكا ، وما يزين ويشين أوله من الاستكشافات والفتوحات والاغتصابات ، الإسبانية والإنكليزية والهولندية والفرنسية .

وها نحن أولاء فى بلدة أحد أولئك المستكشفين الفاتحين ، بل فى ولاية إسترمادورا ، مهد الكبار والصغار ، من خاضوا البحار واقتحموا الأهوال والأخطار ، فى العالم الجديد من الإسبان .

والمحزن هو أن أكثرهم نكبوا فى آخر أمرهم كما نكب موسى بن نصير وولداه وآل بيته .

أما وقد قصصنا عليك قصة موسى بماردا . فسنقص الآن قصة ابن تروخيو فرنسيسكو بيزارو وبعض زملائه من الفاتحين الإسبان . فالدهر قلب فى الناس والأمم ، يركبهم يوماً منكبيه إلى ذوات المجد والثروة ، ويوماً يركبهم كالكابوس فينامون نومة « رِبْ ڤان وِنْكَل » وأهل الكهف .

* * *

خمسمئة سنة ركب الدهر الإسبان ، فاستكنوا تحت كابوسه ، بعد أن أنّوا ، ثم هجعوا هجعتهم الطويلة — خمسمئة سنة !

ثم ظهرت علامات اليقظة ، فقاموا يدافعون عن الوطن ؛ فاستعادوا طليطلة وإشبيلية وماردا . ووقفوا عندها . ومن يقف يركبه الدهر !

جدد العرب صولتهم فى غرناطة فأنّ الإسبان ثانية ، ثم استكنّوا وعادوا إلى هجعتهم التى دامت مئتين وخمسين سنة

ثم اتحدت مملكتا أرغون وقشطيلة ، وولدت إسبانيا الجديدة . نهض الشعب الإسبانى .

وكانت حروف الطباعة قد اكتشفت فى أوربا ، وكان كولمبوس قد اكتشف عالماً جديداً . وكان قد انتصر فرنند وإيزابلة المتحدين على أبى عبد الله آخر بنى الأحمر .

وبعد اكتشاف أمريكا سرت فى البلاد روح المغامرة والاستشكاف طمعاً بالذهب ، وحبًّا بنشر الدين المسيحى الكاثوليكى ! — خسئت يالوثير ! — بين الهنود . فإن خسرت روما ألمانيا ، فى تلك النهضة الإصلاحية اللوثيرية ، فإسبانيا الابنة التقية النقية الغيور تجيئها بعالم جديد .

منذ سبعمئة سنة كان طارق وكان موسى . واليوم — فى هذا القرن السادس عشر — يوم كرتيز ومليباو وبيزارو وبنسه ده ليون وغيرهم .

منذ سبعمئة سنة مشت روح البطولة والمدنية من الشرق إلى الغرب ولا تزال بعد سبعمئة سنة ، بعد ألف سنة ، تمشى غرباً — غرباً عبر الأوقيانوس — إلى العالم الجديد .

ومن العالم الجديد غرباً — غرباً عبر الأوقيانوس الهادى إلى الشرق الأقصى — إلى اليابان[1] ومن اليابان تستأنف السير غرباً ، إلى الصين ،

---

(١) قبل سنة ١٨٥٥ كان لليابان سور معنوى منيع كسور الصين الحقيقى يفصلها عن العالم . وما انهدم ذلك السور ، وانفتحت أبواب اليابان للمدنية الغربية ، إلا بعد أن عقدت الولايات المتحدة لأول مرة فى سنة ١٨٥٥ معاهدة سلام وولاء ، وبدأ الشبان اليابانيون يؤمون=

إلى الهند ، إلى الأفغان وإيران ، إلى البلاد العربية ! هى ذى الرحلة الكبرى للمدنية وهى غير رحلتنا الآن .

لنعد إذن إلى إسبانيا ، إلى تروخيو مسقط رأس المستكشف الفاتح فرنسيسكو بيزارو .

* * *

ما كاد كولبوس يعود من رحلته الأولى حتى انتشرت فى أوربا ، وخصوصاً فى إسبانيا ، وعلى الأخص فى مقاطعة إسترمادورا روح المغامرة والاستشكاف . كان بيزارو يومذاك فى العشرين من سنه ، يرعى خنازيره فى حقول تروخيو فترك تلك الحقول وباع تلك الخنازير ، وسارع إلى إشبيلية المدينة القريبة من البحر ، ينشد سفينة تحمله إلى العالم الجديد ، فالتقى بكولومبوس وانخرط فى سلك بحارته فى رحلته الثانية .

وبعد عودته من تلك الرحلة رافق بلباو فى رحلته إلى أمريكا الجنوبية . بلباو مكتشف الأوقيانوس الهادى ، كما سنذكر فى الكلام عنه . كان يزن ذات يوم شيئاً من الذهب جمعه من الأهالى فضرب أحد الهنود الميزان بيده ونثر الذهب على الأرض قائلا : إن كان هذا ما تطلبون وتشتهون فأنا أدلكم على بلاد يأكل أهلها ويشربون بآنية من الذهب .

كان ذلك الهندى يعنى مملكة بيرو التى عزم بلباو على اكتشافها فحالت الأقدار دون ذلك ، وقد خدمت تلك الأقدار بيزارو ، الذى عاد إلى بلاده ليهيىء حملة لاكتشاف بيرو وفتحها .

وقد اشترك فى مشروعه ، اثنان من أبناء وطنه ، أحدهما جندى مغامر اسمه دياغوده ألمغرو والثانى كاهن عليم بأمور الدنيا حكيم اسمه هرنندو لوك (١) .

=كليات أمريكا وإنكلترا يتلقنون فيها العلوم الحديثة . والفضل فى عقد تلك المعاهدة لرجل أمريكى واحد هو الكوموودور بيرى (Perry) .

(١) Diego de Almegro. Hernando Luque

أبحر بيزارو بمئة من رجاله الأشداء فى سنة ١٥٢٤ ولحق به شريكه الجندى بحملة أخرى . فوصلت الحملتان بعد سنة إلى بيرو والقوا مراسيهم فى ميناء بلدة قريبة من مدينة طمبيز (Tombez) .

فنزل الإسبان إلى البر بشىء من الأهبة التى كان لها وقعها فى قلوب الأهالى الهنود . فرحبوا بالأجانب أجمل ترحيب ، وهم يظنونهم من أبناء الآلهة .

وكأنهم ثبتوا فى ظنهم عندما زاروا السيفنة وشاهدوا ما فيها من أسباب العلم بالملاحة ومن الذخيرة والمؤونة والدجاج — فعجبوا جداً للدجاج وقدموا للأجانب فى اليوم التالى هدية الترحيب والضيافة خبزاً وثماراً ورأسين من اللاما غنم البيرو التى أسماها الإسبان الجمال . وقد أهدى بيزارو زعيم القوم فأساً من حديد وهو أندر وأعز عندهم من الذهب عند النصارى .

— وهذه البندقية ، أشار الزعيم إليها . فسأله بيزارو بواسطة الترجمان إذا كان يريد أن يشهد عملها فأجاب الهندى بالإيجاب . فأمر بيزارو أحد رجاله أن يطلق بندقيته على هدف من خشب . فأطلقها فلما سمع الزعيم ورجاله دوى البارود ورأوا فعله فى الخشب المحطم رفعوا أيديهم إلى السماء خاشعين مكبرين .

وكانت أخبار بيزارو قد انتهت إلى ملك البلاد الإنكا ، كما يدعى الإنكا أتاولبا (El-Inca Atahualpa) ، فأذن لهم فى النزول بطمبيز ؛ ثم فى المثول بين يديه . فاحتال بعدئذ بيزارو على الإنكا . وقبض عليه ، وسجنه فى بيت من البيوت التى نزلوها .

لقد اكتشفنا بلاداً جديدة فيجب أن نحتلها باسم الملك . ولا يسهل ذلك بغير هذا العمل الذى يلقى الرعب فى قلوب أهل البلاد .

وقد حار أتاولبا بأمر هؤلاء الناس . فلو كانوا من أبناء الآلهة لما كانوا يقابلون معروفه بالإساءة . فسألهم ذات يوم ما يريدون ، فأجاب الكاهن :

نريد أن نهديك إلى الدين الصحيح . وأجاب بيزارو : ونضم ملكك إلى ملك إمبراطور إسبانيا .

فهز برأسه ثم قال : أخبروني أنكم تريدون الذهب . فإن أطلقتم سراحي أفرش لكم هذه الغرفة بالذهب .

أرسل بيزارو إلى رفيقه الكاهن نظرة استفهام وإعجاب ، ثم سمع أتاولبا يقسم بربه ، ورآه يرفع يده إلى أعلى ما يستطيع من الحائط ، ويقول : إن أطلقتم سراحي أملأ لكم هذه الغرفة إلى هذا الحد بالذهب .

يقول المؤرخ بريسكوت (Prescott) : كان طول الغرفة ٢٢ قدماً ، وعرضها سبعة عشر قدماً وعلو الحائط حيث انتهت يد الإنكا سبعة أقدام . فلا عجب إذا قبل بيزارو ووعده خيراً . فأرسل الإنكا رسله إلى المدن والدساكر يجمعون باسمه الأوانى والمواعين والتحف الذهبية ، ما فى المعابد منها وما فى القصور الملكية ويجيئون بها إليه .

وكان من بيزارو برهاناً على حسن نيته أن رفع القيود عن الإنكا ، وأذن لأهله وبعض وجهاء المدينة فى زيارته ، فكانوا يخلعون نعالهم قبل أن يدخلوا الغرفة المسجون فيها .

فقال بيزارو لكاهنه : نحن لا نحترم قديسنا احترام هؤلاء البرابرة لمليكهم . ولكنهم على ضلال وكل ما عندهم من الذهب هو فى غير محله .

وما مر الشهر حتى جاء الرسل بالذهب ، بالتحف والأوانى والمواعين الذهبية ، فملأوا الغرفة بها إلى الحد الذى أشار إليه الإنكا بيده . فكادت عيون أولئك الإسبان تطير من رؤوسهم ، لما شاهدت .

وقد قرر بيزارو القسمة بعد أن أفرز ما يوازى الخمس ليرسل إلى الملك بإسبانيا.

وقرر كذلك أن تصهر تلك الآنية والمواعين والكنوز ليتمكن من توزيع قسمة رجاله على السواء بينهم .

على أنهم أبقوا على بعض التحف الفنية لترسل إلى الملك . ومنها ما هو آية فى التوريق وتقليد الأزهار والثمار . وكان بيت القصيد عرنوس من الذرة بحبه الذهبى الملفوف بأوراق من فضة وقد تدلت منه شرابة خيوطها من ذهب .

صهر الباقى من الذهبيات ، وأعيد صبه سبائك بالوزن الواحد فبلغت قيمتها ما يوازى ثلاثة ملايين ليرة إنكليزية !

فأين منها غنائم طارق وموسى ؟ وأين من هذه التحف المائدة الذهبية التى أصابها طارق فى طليطلة ؟

وبعد كل هذا لم يظفر أتاولبا بحريته . فلقد صدق هو وبر بوعوده فأخلف بيزارو وشركاه بوعودهم .

فكيف يستولون على مملكة بيرو ومليكها حى يرزق ؟

لقد قدموا للجريمة بعمل مسيحى ، وكان الكاهن هذه المرة ممثل الدور الأول فى الرواية .

— إلهك ، يا أتاولبا غير الله خالق السموات والأرض ، وخالقك وخالقنا .

— خالقكم وخالقى ؟ إذن نحن إخوان .

— إخوان بالرب .

— نريد أن نعرفك إليه تعالى ونقربك منه قبل أن نعيد إليك حريتك . وقبل كل ذلك يجب أن تنكر إلهك وتنبذه . فلو كان إلهك حقًّا لخلصك من الأسر ، بل ولما أذن فى أسرك .

هو ذا البرهان الذى أفحم أتاولبا . لماذا يتركنى الرب ربى . فلو كان ربًّا لما تركنى .

وقيل إن أتاولبا اعتنق الدين المسيحى وكتب اسم الله على ظفر إبهامه وشرع يردده صباح مساء . وهو لا يزال أسيراً .

قال الكاهن لوك : ولك فى الدين صحيح التعزية الكبرى .

وماذا بعد ذلك ؟

قال المؤرخ بريسكوت : إن إعدام آخر إنكا لمملكة بيرو ، الإنكا أتاولبا . لمن أفظع ما ارتكبه أولئك الإسبان .

أسلفت القول إن لبيزارو شريكين . وقد شهدت وسمعت شريكه الكاهن . أما شريكه الجندى دياغوده ألمغرو فقد توغل فى استكشافه شواطئ شيلى وعاد إلى بيزارو يقتسمان ملكهما . فاختلفا فى الحدود والسيادة واحتربا . فغلب بيزارو ألمغرو وأمر بإعدامه فأعدم .

وكان للقائد ألمغرو ابن همام محبوب من رجاله ، فلما قام يثأر لأبيه نصروه ، وراحوا جميعاً يطلبون بيزارو ، فظفروا به فى عاصمة بيرو وقتلوه (١٥٤١) .

انتهت هذه الأخبار المفجعة إلى الإمبراطور شارلس الخامس ، فعين نائباً له فى البلاد الجديدة ، التى اكتشفها بيزارو ، وبعث معه قوة كافية لقمع الفتن وتثبيت الأمن والنظام ، فأرسلها نائب الملك فور وصوله إلى بيرو على ألمغرو ورجاله الثائرين ، فوقعت بينهم الوقعة التى قتل فيها الابن وجرح وأسر أكثر رجاله .

كذلك انتهت المقدمات الدموية للاستيلاء المنظم . وكذلك انتهت حياة بطل تروخيو وشركاؤه فى اكتشاف أرض الذهب واغتصابها من أهلها الهنود .

* * *

ليس بعد اكتشاف كولمبوس لأمريكا أهم من اكتشاف بلباو للأوقيانوس الهادى ، وبلباو (Vasco Nunez De Balboa) هو أشرف المستكشفين الإسبان نفساً ، وأكرمهم خلقاً ، وأحرصهم على العدل وأسبابه فى معاملة الناس ، هنوداً كانوا أم بيضاً .

وبلباو هو كذلك من هذه المنطقة الإسبانية إسترامونى[1] من بلدة فيها

---

(١) Estremeno نسبة إلى Estremadura ومتى شذت اللغة الإسبانية تشذ بلا عقل .

تدعى شريش الكاباليرو (Jerez de Cabaillero) وقد رافق كولمبوس مثل بيزارو فى رحلته الأمريكية الثانية .

ثم رحل رحلات إلى أمريكا الوسطى ، كان هو قائد حملاتها ، فبلغ أرضاً فى العنق الذى يصلها بأمريكا الجنوبية اسمها داريان (Darien) أول مستعمرة إسبانية هناك ، وخليجاً يمتد منها غرباً ، فجازه بلباو ذات يوم ووصل إلى جبل أخذ يصعد فيه حتى أدرك الرأس منه ، فوقف مبهوتاً — « صامتاً على قمة داريان » كما يقول الشاعر الإنكليزى فيه ، إذ أشرف على بحر عظيم ظنه لأول مرة بحر الهند .

وخر بلباو ساجداً يشكر الله . ثم نزل من الجبل إلى الشاطئ الغربى وصاح بملء صوته قائلا : هذا البحر وهذه الأرض ملك إسبانيا . وإنى أرفع فوقها العلم الإسبانى باسم الله والملك .

وكان بلباو قد عزم على مواصلة الاستكشاف على تلك الشواطئ الغربية ليصل إلى البلاد التى قيل له عنها إن أهلها يأكلون ويشربون فى آنية من ذهب ، أى بلاد بيرو ، التى اكتشفها بعده بيزارو ، كما قدمت .

ولكن حاكم مستعمرة داريان ، ابن بلاده الذى يدعى بدرارياس (Padrarias) حال دون قصده ، حسداً وكيداً ، بعد أن اكتشف الأوقيانوس الهادى ، بل اتهمه بمخالفة الأوامر التى تتعلق بالاكتشافات والمستكشفين . لقد أقدمت ، يابلباو ، على عملك بدون إجازة . فأنت مذنب . بل أنت متمرد على القانون .

لله من القانون ، بيد صغار الأنفس والعقول . وما شأن بلباو وبدرارياس غير شأن كل كبير ذى عبقرية ، وكل صغير ذى سيادة .

ولقد زكى ذو السيادة حسده وكيده بالغدر . فأغرى بلباو بكتاب استدعاه فيه إليه . فلما حضر ألقى القبض عليه وسجنه ، ثم اتهمه بخيانة الوطن ، وأجبر

القاضى على أن يحكم عليه بالإعدام .

وقد نفذ الحكم فى ساحة أكلا (Acla) من مستعمرة داريان (١٥١٧).

* * *

وهذا بُنسه ده ليون الذى حارب العرب فى غرناطة ، والهنود فى العالم الجديد . فقد رافق كولمبوس فى رحلته الثانية ، وعين حاكماً لناحية من المستعمرة الأولى التى أسسها فى جزيرة هايتى ، وأسماها إسبانيا الصغيرة (Espanola)

بُنسه ده ليون. (Juan Ponce de Leon) هذا سمع ذات يوم الهنود يتحدثون عن نبع ماء فى البر الكبير له مزية إلهية . فهو يجدد الحياة ويحفظها فى ميعة الشباب .

وكان بنسه فى اللامألف من عمره ، والألفباء من جديد أماله فشمر فى الاستعداد للرحلة الكبرى ، للاكتشاف العظيم . وهل اكتشاف أعظم منه فى العالم الجديد بل فى العالم كله ؟

أبحر بنسه ده ليون ورجاله من إسبانيا الجديدة ، ينشدون ذلك النبع ، فوصلوا إلى أرض كثيرة الأزهار فأسماها لذلك فلوريدا ، ونزلوا فيها ، ومشوا يبحثون داخل البلاد ، ويسألون ، ولا يبالون بالمشقات والأخطار . بل يحاربون وهم يبحثون ، يحاربون الهنود الذين كانوا يصدونهم ، ويردونهم ويرمونهم بالنبال .

وأين نبع ماء الشباب ؟ بدأ الرجال يشكون ، ويشكون فى صحة ما سمعوا . فقد كان ذلك النبع يتوارى كلما تغلغلوا فى البلاد ، يتوارى فى عالم العدم !

وأوشك رجال بنسه ده ليون أن يتمردوا ، وما سكنت عداوات الهنود ، فتراجعت الحملة إلى شاطئ البحر ، ومنه إلى المستعمرة بجزيرة هايتى .

أما قائدها فقد لقى بعض التعزية فى اكتشافه أرضاً جديدة جميلة خصبة ، وعاد إلى إسبانيا يحمل النبأ العظيم إلى الملك، فعينه قائداً حاكماً (Adelantado) للبلاد الجديدة فلوريدا على شريطة أن يؤسس مستعمرة فيها .

حشد بنسه ده ليون جيشاً للمستعمرة ، وعاد به إلى أرض الأزهار ، وما كانت العودة حميدة . فما كاد المستعمرون ينزلون إلى البر ، ويشدّون الأوتاد حتى قامت عليهم قيامة الهنود ، ولول الهنود مستنفرين وهرولوا مستبسلين . العدو ، العدو ، جاءوا يطردون العدو من بلادهم . وشنوها عليه حرباً حامية فقتلوا عدداً من الإسبان ، وشردوا الآخرين .

وقد أصيب بنسه ده ليون (١٥٢١) بسهم ما شفى من جرحه . من لم يمت بالسيف مات بالنبال !

* * *

ما كان الهنود معادين لمكتشف نهر الميسسبي ووادیه ، فرنندو ده سوطو (Fernando de Sato) ابن بلدة بلباو ، ورفيق بيزارو إلى بيرو .

وما كان ولاؤهم مجرداً من الريب والتفلسف .

— إن كنت ابن الشمس ، كما تدعى ، فاعطنا البرهان . نشف هذا النهر ، نصدقك .

لقد كانت حملة ده سوطو أكبر الحملات الاستكشافية وأتمها . حملة مؤلفة من ستمئة رجل بمعداتهم للقتال ، وبنوافل الأبهة . حملة فخمة بخيلها وبنادقها ورماحها وأعلامها وأبواقها وخوذاتها اللامعة .

فلا عجب إذ استقبلها الهنود بشيء من الولاء . ولكن البلاد التي حلوها ، وتغلغلوا في أوديتها وجبالها ، وفي فيافيها ومستنقعاتها ، كانت أصرح من الهنود وأصدق ، قولا وفعلا ، صيفاً وشتاء ، في حرها وبردها وعقمها وتجهمها .

فلقد أمعنت تلك الحملة شمالا وغرباً وشرقاً ، فجابت الأراضي التي هي اليوم ولايات ألاباما وأركانسو وتانيسي ، شرق النهر وغربه ، وقاست من المشقات أشدها ، ومن خيبة الآمال أقساها . لا كنوز ، هاهنا ، ولا ذهب . إنما هاهنا حر في الصيف ، وبرد في الشتاء ، وجوع وبرغش وحمى ،

فتكت كلها بتلك الحملة ، فذهبت فى سنتين بأكثر من نصفها . وعاد الباقون شبه حفاة عراة يتقهقرون إلى ساحل البحر .

وما نجا ده سوطو من ضربات إسرائيل . فى وادى الميسسبى .

من لم يمت بالسيف من المستكشفين ، مات بالنبال . ومن لم يمت بالنبال مات بالحمى !

وقطعوا جذع سنديانة وحفروه ، ووارو جثة زعيمهم فيه ، ثم بحثوا فى النهر عن عمق ساتر حنون ، فأنزلوه هناك (١٥٤٢) .

وجاء الرسول من قبل زعيم الهنود يسأل عن الزعيم ده سوطو ، فقيل له إن الله استدعاه إليه لأمر مهم .

ثم جاء ومعه شابان من الهنود فقال : من عاداتنا ، عندما يموت رجل عظيم أن نرسل واحداً منا يرافقه فى عالم الأرواح . فالزعيم يقدم هذين الشابين لتختاروا واحداً منهما .

فأجاب كبير القوم لويس ده مسكوزو (Mascoso) قائلا : لم يمت الزعيم ، بل سافر إلى السماء . وقد رافقه كثيرون من رجالنا . إننا نشكر زعيمكم ونرجوه وشعبه أن يقلعوا عن هذه العادة البربرية .

الفصل الرابع

مدريد

بين إشبيلية ومدريد طريقان ملكيان ، تنعم السيارة فيهما ، فتسرع الإسراع المبهج للمجانين فى أسفارهم . وأنا من أولئك المجانين ، إن لم يكن لى غرض فى البلاد التى أجتازها ، وكان الطريق استواءً مثل لوح الزجاج . أجل ، أنا إذ ذاك ممن لا يبالون بالكيلومترين فى كل دقيقة ، ولا يجزون القابض بيده على الدولاب إذا نقص عداد الكيلومترات عن التسعين فى الساعة الواحدة .

اطوها طيًّا ، يا حادى ، التهمْها التهاماً ، يا بْن زين !

قلت إن من إشبيلية إلى مدريد طريقين يلبيك فيهما ابن زين ، طريقاً يجتاز مقاطعة إسترمادوره شمالا إلى ماردا ، فتروخيو ، ثم يعبر نهر الناخوس ، ويشرّق إلى طلبيرا ، فيصل إلى مدريد من الجنوب الغربى .

والطريق الثانى يمر بقرطبة إلى بيلين ، فلينارس ، ثم شمالا بولاية لامنشا ، المخلدة فى سيرة ضون كيخوته فإلى مدريد من بوابة الجنوب الشرقى .

كلا الطريقين لا يتجاوز الخمسمئة كيلومتر . سلكنا الأول ذهاباً ، والثانى إياباً . فوقفنا فى الأول ، إذ وصلنا إلى تروخيو ، من مقاطعة إسترمادوره ، إكراماً لمن أنجبت من رجال الفتح والاستكشاف .

هذه المقاطعة لا تشبه المقاطعات الإسبانية الأخرى فى شىء من الخصب الطبيعى ، أو اللمعان الاجتماعى فإن طبائع أهلها مثل سمائها جافة ، ومثل

أرضها يابسة ، أرض تقل فيها الغابات ، وتكثر فيها المراعى . وهى مشهورة بخنازيرها ، التى تعلف البلوط . ولحم تلك الخنازير مشهور فى إسبانيا ، كما أنها مشهورة بأغنامها السارحة ، التى تنزل فى الخريف من أعالى جبال قشطيلة وليون ، وتخلق المشاكل والدعاوى بين المالكين والغنامين . أو كانت فى الماضى ! أما اليوم فالقانون يوجب إفراز مساحة معينة إلى جانبى كل طريق للمرعى العام المشاع !

وبين إشبيلية وماردا سلسلة جبال خضراء وادعة هى السيارّا مورينا (Sierra Morena) الممتدة شرقاً بغرب ، المرتفعة عند لرينا إلى ستمئة متر المنخفضة عند ماردا إلى المئتين من الأمتار ، ثم تعود فى تروخيو إلى العلو الأول ، وأعلاها بالقرب من هذه البلدة جبال غوادالوبه ، التى تفصل إستريدمادوره العليا عن أختها السفلى ، وتنقلنا من وادى قنا (Guadiana) إلى وادى التاخوس (Tajos) . هذان النهران يخترقان المنطقة من الشرق إلى الغرب ، فيجتازان الحدود الإسبانية البرتغالية ويستمر التاخوس غرباً إلى لشبونة ، فيصب فى الأوقيانوس الأطلنتيق . أما نهر قنا فهو يجنح جنوباً ، عند باداخوس ويصب خارج مضيق جبل طارق .

نسير شمالا من تروخيو كأننا نقصد جبال غردوس (Gredos) العالية ، المدركة فى أعلى قننها الثلاثة الآلاف من الأمتار ، فنصل إلى نهر التاخوس ، ونشرق بعد أن نعبره ، فتمسى تلك الجبال إلى يسارنا حتى تبلغ طلبيرا (Talavera) التى هى دون تروخيو فى علوها عن البحر . على أننا لا نشعر بذلك لأن الانحدار ، وهو مئة متر ، ضائع فى نحو مئة كيلومتر من المسافة .

وقفنا فى طلبيرا بضع دقائق وهى أهل لأكثر منها . فإلى طلبيرا هذه خرج طارق بن زياد من طليطلة يلاقى سيده موسى بن نصير الذى كان قادماً

بجيشه من ماردا . وفى طلبيرا كما قيل لنا ، أثر عربى يدعى البرج البرانى . (Torres Albarranas) كما أن فيها ، بعد ألف ومئة سنة ، وقعت الوقعة الكبرى فى الحرب النابليونية الإسبانية ، بين الإنكليز حلفاء الإسبان بقيادة ولنغتون والفرنسيين بقيادة يوسف بونابرت . فكان كلا الجيشين خاسراً ما يربى على الستة آلاف مقاتل .

وفى طلبيرا ، بعد مئة وخمس وعشرين سنة من تلك الوقعة ، انتصر جيش الجنرال فرنكو على جيش الحكومة الجمهورية ، فأخرجه من البلدة واحتلها فمهد لنفسه الطريق إلى طليطلة ومدريد .

لا نزال فى مقاطعة إسترمادوره ، فى طرفها الشرقى الشمالى الذى يدنو من قشتالة الجديدة ، وهو أخف وجوماً وأقل جفافاً من الطرف الجنوبى . على أن الأشجار كانت تقل فى الماضى ، وأوشكت أن تضمحل ، فى كل نواحى المنطقة ، لأن الفلاح الإسبانى كان يظن أن الشجرة عدوه لأنها تظلل الطيور الصغيرة التى تأكل بذور ما يزرع من الحبوب .

وقد بلغ هذا الخوف أشده فى ولاية لامنشا ، فقطع أهلها الأشجار ، ليقضوا على الأطيار ، وقد قيل لى إنه فى زمن ليس ببعيد لم يكن هناك إلا ما يندر من الأشجار ، وأن ألوفاً من مواطنى ضون كيخوته لم يروا فى حياتهم غرساً مغروساً . وقد زكوا هذه الكلمة بمثل يقول : يجب على القبرة التى تزور أرضنا أن تحمل زادها معها .

ولكن الإسبانى ، مثل العربى مضياف ، وإن تجهم القبرة ، وجافى فى الماضى الطيور . ولقد سعت حكومته ، فى مطلع هذا القرن ، لتزيل ذلك الجفاء وتنشر من العلوم الزراعية ما يعيد إلى الفلاح حسن الظن بالطيور ، وهى التى تأكل الحشرات الفتاكة بكل مزروع ومغروس ، فتدفع عنها الشر والأذى .

وهناك فى أعالى المقاطعة ، كما فى قشطيلة ، آثار باهرة لقنوات الرى التى مدها العرب فى زمانهم ، فجددتها الحكومة ، وزادت فيها فازدانت الأرض بالأشجار ، وتحسنت العلاقات بين الفلاحين والأطيار .

* * *

بعد ساعة من طلبيرا نشاهد مدينة قائمة فوق مائدة من الأرض ، تعلو مئة متر عن النهر الجارى فى ناحيتها الجنوبية الغربية ، وستمئة متر عن البحر . ذلك النهر الضئيل هو المنسانارس (Manzanares) ، وتلك المدينة هى مجوريطم الرومان ، مجريط العرب ، مدريد الإسبان .

لم تكن هذه المدينة فى القرن التاسع للميلاد غير حصن عربى لحماية الثغور من غزوات أهل الشمال النصارى : حصن مجريط . وقد كان ذلك الحصن قائماً حيث القصر الملكى اليوم ، فيشرف على النهر فى سفح الرابية ، وعلى السهول الفيح دونها إلى اليمين ، وهناك وادى الحجارة فسرقسطة ، ودونها إلى الغرب الشمالى ، وهناك جبال وادى الرحمة (Guadarrama) ووراءها بلد الوليد (Valladolid) .

ومدريد هى قلب قشتالة ، كما أن قشتالة هى قلب إسبانيا ، هى وليون كما كان يقال ، قلب إسبانيا وحصنها ، من قبل أن تخلق إسبانيا ، يوم كانت الممالك الإسبانية ، كالممالك والإمارات العربية اليوم ، أنانيات مسلحة تريد أن تحمى خيالها المديد الزائل .

وقشتالة اليوم قشتالتان ، القديمة والحديثة ، القديمة التى شبت على الفروسية ، وركبت فى قنانها سنان الإيمان الكاثوليكى ، والجديدة التى أنبتت الفكرة الإسبانية التى أنارت شموع الكنيسة للملكة إيزابلة والملك فرديننند — فكرة التوحيد ، فكرة السيادة المركزية — فكرة الدجاجة الرنقاء تضم تحت جناحيها فراخ إسبانيا الجديدة المتحدة المظفرة .

وقد أصبحت مجريط مدريد فى فجر القرن الثانى عشر يوم وضع ألفونس السادس بضع بيضات تحت جناحى الدجاجة « الرومية » الرنقاء .

ثم صارت مصحاً فى عهد شارلس الخامس الذى أمها مستشفياً ، ثم شيد فيليب الرابع عرشه فيها ، فغدت عاصمته ، وفيها بلاطه الوحيد .

ثم نقل إلى مدريد عبقرى إسبانيا الأكبر سرفنتس فأقام فيها خمس عشرة سنة ، وكمل فى بيت له فوق ذلك القصر كتابه الخالد .

ثم جاء صنو سرفنتس الفنان الأكبر فلاسكيز ، فحام حومة حول القصر ، ودخله ظافراً فزينه بوجوده ، وبصوره ، وبسمو أخلاقه .

لم يكن فى إسبانيا قبل ذلك غير العواصم . لم يكن فيها عاصمة . فكانت سرقسطة لأراغون ، وبرغوس لقشطيلة ، وطليطلة للغوط ، وقرطبة وإشبيلية للعرب . وليس لإسبانيا عاصمة تعصمها من شرور الأنانيات الصغيرة ، فخلقت الضرورة مدريد .

صار الحصن قصراً ، وأصبح القصر إرادة وسيفاً وصليباً . فلتسمع أراغون ، فلتخضع ليون ، فلتدفع الأندلس الخراج .

وصار ابن مدريد ، بعد أن عقها ، يفتخر بها . وبعد أن شتمها صار يقول : من مدريد إلى السماء . وفى السماء نافذة لمشاهدة مدريد (١) .

شاهدناها من غير السماء ، وما شاهدنا فى أبوابها غير أبناء الجحيم مجسمة فى الظلول الدوارس .

هو ذا الدير الذى كان مدفوناً فى كنيسته نوابغ إسبانيا : سرفنتس وهريرا ولوبه ده بيغا وفلاسكيز .

وهى ذى الأسواق التى أمست مقابر ، والقبور فيها فارغة ، فاغرة أفواهها كأنها تصبح قائلة : أين موتاى ؟

---

(١) "De Madrid al cielo y eu el cielo un ventanillo para ver a Madrid."

أين ضحايا الحرب الأهلية ؟ من ماتوا تحت الردم ، ومن ماتوا فى النار ، ومن ماتوا متعثرين بين الأطلال ، ومن ماتوا خوفاً وهلعاً ، ومن ماتوا غير مرة فى الفرار والحرمان والجوع والبرد والتشريد . وأين ضحايا الحرب الأيتام ، والمنقذين من مخالب الموت بأيدى الرحمة الجامدة العين ، والإحسان القاتم الجبين .

مذ دخلنا المدينة ، من الجنوب الغربى ، حتى اجتزنا الخمس عشرة أو العشرين من أسواقها ، كانت الخرائب على الجانبين متواصلة ، لا يتخللها بيت واحد سليم فى طابق من طوابقه العليا . هذى هى آثار الطائرات المدمرة ، شاهدناها بأم العين .

ولقد شاهدنا ما هو أشد هولا منها فى ناحية الغرب الشمالى من المدينة . هناك ، فى الحديقة الغربية (Parque del Oeste) وعند جادة روزالس (Paseo Rosalis) بين أشجار السرو والحور والصنوبر ، تقوم أو كانت مدينة الكليات .

صروح جميلة مبنية بالحجر الأبيض وبالقرميد الأحمر ، يتصل بعضها ببعض ، وينفصل بعضها عن بعض ، صروح للعلم — للعلوم والفنون والصناعات — عشر كليات ، عشرون كلية — بضع عشرة ، بضع وعشرون بناية — كلها خراب يباب .

وكل أشجار تلك الغابة تندب مدينة الكليات . تلك الأشجار ، وفيها المحطمات ، والهاويات ، والواقفات كالثكالى المحروقة أثوابهن ، المحروقة أجسامهن حتى العظام ، الصارخة أرواحهن صرخات تسمعها السماء — ترسل مع ذلك شمسها كل يوم لتدفئ عظام الأرض .

فى هذه الغابة وبين صروح مدينة العلم قامت الحرب فى أشدها بين أبناء الأمة — الأم — الواحدة . هاهنا أمام جبال وادى الرحمة تذابحوا وتعاونوا فى التدمير ، والرحمة هناك علاها الشيب ، وغشيها الصمم ، فهى لا تشعر ولا تسمع ولا ترى !

وذى هى خنادقهم ، وقد نصبت فوقها الألواح المكتوب عليها . هم (Ello) ونحن (Nosotros) نصبتها الحكومة الوطنية الحاضرة للمتفرجين والسياح والمؤرخين . هم ، نحن . أى هناك كان العدو مخندقاً ، وهاهنا كنا نحن .

وهذا باب الحديد ، درب من الشمال إلى مدريد يشطر مدينة الكليات شطرين ، وإلى جانبى الدرب خنادق « لهم » وخنادق « لنا » مختلطة بعضها ببعض . فمنها للثوار بين نارى الجمهوريين ، ومنها للجمهوريين بين نارى الثوار .

وكان الجنود من الجيشين ، ساعة تخمد نار المعركة ، يخرجون من الخنادق إلى قارعة الطريق ، فيتلاقون هناك ، ويشربون الخمر ، ويدخنون ، ويتمازحون ثم يعودون إلى الخنادق يستأنفون أعمالهم المباركة !

وأغرب من ذلك أن تلك الخنادق مفروشة بالبلاط الأسمنت ، فلا تتوحل فى الشتاء . هو الارتقاء الخندقى ، توحيه إلى إسبانيا أوحال خنادق الحرب العظمى .

وذى هى لوحة من غير اللوحات التى ذكرت كتبت عليها كلمة تذكر بكلمة الجيش الفرنسى بثردون : لن تمروا . وجهها جيش الحكومة إلى جيش فرنكو . وتحتها اليوم لوحة كتبت عليها حكومة فرنكو الجواب : قد مررنا .

نستمر فى درب باب الحديد الذى ينتهى عند شارع بلاسكو إبانياس (Velasco Abaûez) الكاتب المشهور ، ونمشى فى هذا الشارع نحواً من نصف كيلومتر إلى ساحة إسبانيا ، بين بيوت متهدمة ، وجدران بأثقاب سوداء كانت شبابيك ، فأمست كالأشباح وهى تصيح : الموت ، لا يدوم غير الموت .

كان الهجوم الأول على مدريد فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وبعد يومين حلقت فوقها عشرون طائرة من طائرات الثوار .

وفى ٦ نوفمبر دنوا من الجسور فوق النهر فما بقى بينهم وبين بوابة الشمس (Puerta del Sol) — قلب المدينة — غير ستة كيلومترات ، فنقلت الحكومة فى ذلك اليوم إلى بلنسية .

ومنذ الهجوم الأول إلى أن سلمت ، بعد سنتين وسبعة أشهر ، هوجمت من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فكانت جبهات الجيشين المتحاربين كالبحر فى مدها وجزرها ، وكالبحر الهائج فى أمواجها المتلاطمة .

ويوم سلمت مدريد كانت هى المنتصرة ، مدريد الأم المحافظة على تقاليدها الدينية والسياسية والاجتماعية والوطنية ، مدريد إسبانيا الموحدة ، مدريد الكنيسة وكل المصالح المتصلة بها ، مدريد ألفونس السادس وفرديننند الرابع ، مدريد « الملكين الكاثوليكيين[1] » ، مدريد ديوان التفتيش ، ومدريد « كميونيروس » (Comuneros)[2] ، مدريد فيليب الرابع وشارلس الثالث — هذى هى المدينة المنتصرة فى استسلامها . المنتصرة على نفسها ، ثم على كاتالونية مهد الأحزاب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية التى انضمت كلها تحت لواء الجمهوريين .

كانت مدريد بيدهم ، وكانت بيد خصومهم . كانت مقيدة فى روحها كما كانت مقيدة فى جسمها . فتنازعها الخصمان — فدافع عنها من ترغب عنه ، وحمل عليها من تميل إليه . والويل للمنقسمين فى بيوتهم وعلى أنفسهم .

جئناها فى الشهر الأول ، بعد سنتين وسبعة أشهر من أهوال الحرب ، وهى فى دور النقهها ، فلا عجب إن لم تكن قد تأهبت لاستقبال الزوار .

وما كانت أنزالها كلها مفتوحة . فمنها التى أقفلت أثناء الحرب لانقطاع أسباب السفر والزيارة ، ومنها التى استخدمت للجرحى ، فأمست جميعاً فى حاجة إلى الإصلاح والترميم .

---

(١) فرديننند وإيزابلة . (٢) الحزب اللامركزى فى عهد الإمبراطور شارلس الخامس .

ولقد شاهدنا الأثر القبيح ليد الحرب وروحها فى نزل المدينة الأكبر — فى غرف النوم ، وفى الأروقة والمجالس العامة ، حتى فى خدمة الخدم — فكيف به فى الأنزال الأخرى .

كان ذلك النزل مزدحماً بالضباط المسرّحين من الجيش وغير المسرّحين ، وبالأسر الإسبانية العائدة إلى العاصمة ، تتفقد بيوتها المهجورة أو المتهدمة ، وتعيدها كما كانت صالحة للسكن .

أما القصور الملكية ، والمعاهد العلمية ، ومتاحف الفنون والآثار فقد كانت كلها مقفلة . وليس هناك غير ذلك المعرض الدائم — المعرض البشرى — فى الساحة التى تدعى « بوابة الشمس » .

ولكن الشمس الراقصة على حجارتها المرصوفة ، الضاحكة حول موائدها المصفوفة ، لم تكن فى قلوب الجالسين والجالسات هناك ، ولم تكن فى دوائر الفكر والسياسة فى زوايا تلك الحانات والمقاهى .

بوابة الشمس ، وجه مدريد ، وقلبها وفكرها . ولكن الوجه لا يزال واجماً ، والفكر مضطرباً ، والقلب على شىء من الغم .

مدريد كالخارجة من المستشفى ، تراها تتنزه فى شارع الكلا ، فكأنها تمشى فى نومها . وتراها جالسة للشمس فى « البرادو » فتنعس وتنام .

خرجنا من المدينة بعد يومين ، تشيعنا الرُّدُم والأطلال . فقد استقبلتنا فى الجنوب الغربى ، وها هى ذى تلك الأطلال تودعنا عند بوابة الشمال فى الطريق إلى برغوس . بل تفعل ذلك لطفاً منها — يالنهكم الموت ! — عند أية بوابة من بواباتها السبع (١) . فلقد طوقتها الحرب ، وضمتها إلى صدرها حبًّا وحناناً .

---

(١) الطرق إلى ليون فى الشمال الغربى ، ووادى الحجارة فسرقسطة فى الشمال الشرقى ، وبرغوس فى الشمال ، وقرطبة وطليطلة فى الجنوب ، وطليرا فى الجنوب الغربى ، وبلنسية فى الشرق الجنوبى .

* * *

يقول الشاعر الفرنسى تيوفيل غوتيه (Gautier) فى كاتدرائية إشبيلية إنها تظهر للقادم إلى المدينة كالفيل الواقف بين قطيع من الغنم النائمة (١).

هذا القول يصح فى كل بلدة ، وكل قرية إسبانية ، حيث تقوم الكنيسة فوق البيوت كالفيل الواقف بين قطيع الغنم ، أو المعزى .

وما كانت القرى لتتبين الأرض حولها ، وهى فى بيوتها من لون تلك الأرض البنية أو الدكناء لولا « الفيل » الواقف فى وسطها الشامخ بخرطومه — برج الكنيسة — عليها .

القرية — الضيعة — المدينة ، ببيوتها المنخفضة ، اللاصقة بالأرض النائمة فى ظل الكنيسة القائم ، هى إسبانيا الخاشعة التقية ، الواجمة فى خشوعها ، القاسية فى تقواها ، إلا فى الأعياد والمهرجانات . فتطفر يومذاك الطفرة المنقذة . تثب وثبة واحدة من نور الشموع إلى نور الشمس ، وترقص وقديسيها رقصة الحياة فى ساحات المرح وواحات السرور .

يقول الدليل : وفى هذا القلب ، أى فى قشطيلة الجديدة ، بقع شاسعة هى الصحراء ، ولكن الحكومة فى الزمن الحديث قامت بمشاريع كبيرة للرى والتشجير كما قدمت . فلم تعد ضواحى مدريد مثلا كما كانت جافة قاحلة . بل هى اليوم زاهية زاهرة بالواحات والبساتين .

ومن ألطف ما شاهدنا من مظاهر الاهتمام بالتشجير تلك الصفوف من الحور والإزدلخت واللبلاب التى تزين الطريق على جانبيه ، إلى مداه ، بدون تقطع يذكر ، من مدريد إلى برغوس ، مسافة مئتى كيلومتر .

وهاهنا فى الشمال شاهدنا ما شاهدناه فى قلب إسبانيا وفى الجنوب من تلك القرى والبلدان اللاصقة بالأرض الجاثية تحت أبراج الكنائس وقبابها .

(١) "Comme un éléphant debout au milieu d'un troupeau de mouton couchés".

والأهالى ، رجالا ونساء وولداناً ، يمشون الهوينا إلى الكنائس ، وكتب الصلاة أو السبحات بأيديهم ، كما يمشون كل مساء إلى شارع أوساحة التنزه فى البلدة — إلى المعرض البشرى . وهم فى كلا الحالين مطمئنون مستبشرون ، على وجومهم الذى أمسى كالقناع .

كنت أظن أن إسبانيا التقية الفقيرة ستتمرّد ذات يوم على السلطتين الدينية والمالية فتسحقهما ، أو تنزع فى الأقل المخالب من جورهما . فتمردت إسبانيا ، وظن من تمردوا أنهم فائزون فما صح ظنهم .

فالكنيسة لا تزال فى القرية ، وفى المدينة كالفيل القائم بين قطيع الغنم غير النائمة .

أجل ! لقد استيقظت إسبانيا . فإن قلنا إن الإكليروس فى هذه الحرب كان منتصراً على الأمة الإسبانية ، فالأمة راضية بذلك . الأمة الإسبانية لا تستطيع أن تنام قريرة العين إن لم يكن لها دين . ولا تنام دون أن تصلى ، ولكنها إن صلت اليوم ، فهى لا تعود إلى النوم . وقد لا تسكت إن رأت الكنيسة منتصرة على فرنكو وحكومته .

ليس من شك فى أن الجنرال فرنكو وأكثر أنصاره من أبناء الكنيسة المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . وقد أدركوا أن الأمة الإسبانية هى على الإجمال مثلهم . وفى ذلك قوة استخدموها ، فكانوا فائزين .

ومما لا ريب فيه كذلك أن الأمة التى أعادوا إليها كرامتها وإيمانها ستقف معهم إذا قام الإكليروس غداً ينازعهم السيادة ، أو يطالب بما كان له فى غابر الزمان من الامتيازات .

الفصل الخامس

بلد السيد

بين إشبيلية وبُرغوس مسافات ، مسافات جغرافية وجوية واجتماعية وأخلاقية . أما المسافة الجغرافية فقد تكون أقصرها ، لأن السبعمئة كيلومتر بين المدينتين تقطعها جواً فى ساعتين ، وبراً فى ثماني ساعات إن كنت فى الأسفار ممن وصفت فى مطلع الفصل السابق .

وأما المسافات غير الجغرافية فهى تبدأ بعد أن تصل من إحدى المدينتين إلى الأخرى . فيعكر مزاجك إن كنت صافى المزاج ، ويصفو إن كان عكراً . وتشتاق إلى الآفاق الواسعة المشرقة إن كنت قادماً من الأندلس ، وتتعب منها إن كنت قادماً إليها من جبال كُنْتَبْرِيه . يرطب الهواء هنا فيكثف ويضنى ، ويجف هناك فيخف وينعش . وقد تجف فى الشمال الوجوه والنفوس . فيمعن الناس فى الجد ويقسون ، وتجيء حتى مهرجاناتهم دكناء اللون شمالية .

ولا حرج إن قلنا مجملين إن إشبيلية عربية ، ومدريد إسبانية ، وبرغوس غوطية ، غوطية ألمانية ، إن كان فى كنيستها الكبرى وسراياها القديم ، أم فى بيوتها القائمة الجبين ، أو فى ساحاتها الصغيرة المتأنقة فى وجومها ومنطقها .

هو التقليد الغوطى ، والفن الغوطى ، والروح الغوطية . وقل هو جو الشمال ، وأفق الشمال ، والطبائع الشمالية . يمشى الناس فى خط مستقيم إلى أغراضهم ، وإن اعوجت الأسواق وضاقت ، لأن جوانب الطريق جافة ، وليس فيها ما يجذب النظر أو يستوقفه . ويسلكون المسلك القويم فى معاملاتهم لأن الاعوجاج

متعب ، وهو فوق ذلك يورث المشاكل ووجع الرأس . أما أن يسرعوا أو يبطئوا فى السير والسلوك فذلك أمر ثانوى . أو أنهم يفضلون الرفق والتمهل على الكدح والإسراع .

وهاك المثل لما قدمت : تعطلت ساعتى فى برغوس ، كما اعتلت صحتى ، لسبب واحد ، على ما أظن ، هو الطقس ، فمن سماء تطوان المشرقة وجو إشبيلية العاطر ، طرنا ثم وثبنا وثبة واحدة إلى الإقليم البارد ، والرطوبة والمطر والأوحال ، والزكام بالساعة وبصاحبها ! فحملناها أنا والرفيق البستانى ، ترجمانى الملازم ، إلى أحد أطباء الساعات ، فوضع الزجاجة على عينيه وفحصها ، ثم أعادها قائلا : ليس فى الإمكان إصلاحها .

فأخذناها إلى زميل له فى الشارع نفسه ، ففعل ما فعل الأول ، وبعد الفحص أعادها إلىّ وهو يهز برأسه . ثم قال : الجزء المكسور فيها غير موجود عندى . فإن شئت أصنعه ولكن ذلك يستغرق من الثلاثة إلى الأربعة الأسابيع . فما شئت ذلك ، لأنى لم أجىء برغوس لأقضى فيها أكثر من ثلاثة أيام .

وقد أجاب حضرته على سؤال آخر قائلا : قد تجدون مثل الجزء المكسور عند غيرى . ولكنى أشك فى ذلك .

دخلنا إلى مخزن الساعات الثالث ، وخرجنا منه إلى الرابع ، فقال الطبيب المستقيم الرأى : هذه الساعة ثمينة ، فالأحسن ألا تصلحها فى هذا البلد .

أربعة منهم — وطبيب الساعات فى الدنيا مثل طبيب الأسنان — ينفضون أيديهم من ساعتى ، ويزدرون فرصة للعمل والكسب . فهل تظن أن أمثالهم فى الدنيا كثيرون . أنا لا أظن أنهم موجودون فى غير برغوس .

وعندما رحنا نشترى ساعة وقتية للسفر ، تقوم مقام المعطلة ، كان التاجر يعرض بضاعته ، وينطق بكلمات قليلة ، جلها أرقام . وهل عندكم أرخص من هذه ؟

الجواب : قد تجدون عند فلان فى الشارع الفلانى .

والسيد التاجر فلان يرينا ما عنده دون إسراف فى القول أو العمل ، وآخر يعيد الساعات إلى مكانها ، ويعود هو إلى كرسيه ، دون أن ينطق بكلمة واحدة . لا تشويق ولا مساومة ، ولا ابتسامة تجارية أو غير تجارية . فالكلمة اللطيفة الوجيزة الهادئة تقرن بروح مثلها ، ولا اكتراث بما جاء من رزق أو فات . هى ذى ناحية من برغوس ، وهو ذا صنف من أبنائها .

وفى هذه المدينة مقاهٍ ، فى شارعها الواسع الوحيد ، على إحدى ضفتى النهر ، تطمح إلى العلاء المدنى — الباريسى أو المدريدى — فتبلغه فى النظافة والأثاث والأناقة ، وتفوقه فى الخدمة وفى السكينة التى تجلب الذين يؤمونها .

ومن هذا الشارع تصعد المدينة إلى سفح الرابية التى تقوم فوقها ، فتفضى الأسواق بكآبتها إلى ساحات صغيرة صامتة ، ومنها إلى جادات ضيقة متعرجة ، تحنو البيوت فيها بعضها على بعض ، وفيها الكاتدرائية غائصة إلى وسطها ، فلا يرى منها فوق السطوح غير القباب .

ولهذا الشارع الباريسى أو البرلينى حاجب فى حلة خضراء ، واقف بينه وبين النهر ، هو الإسبالون (Espalon) أى المتنزه ، وله صنو على الضفة الأخرى ، فيسمى هذا : المتنزه الجديد ، وذلك الذى أمام المقاهى : المتنزه القديم .

وبين الاثنين يجرى نهر أرلنسون (Arlanzon) المتدفق من جبل ليس ببعيد تدفقاً قصير المدى ، فيصل إلى المدينة ساكناً متضعاً ، فيجر أذياله الرقيقة من الشرق إلى الغرب ، ثم غرباً بجنوب ليتحد ، قبل أن يصل إلى بلنسية (Palencia) بنهر يجرى جنوباً إلى الشمال هو بسورغة (Pasuergo) فيمران ببلد الوليد (Valladolid) متحدين متعاظمين ، ويصطدمان بعدها بالنهر الأكبر نهر دويرو (Duero) فيبلعهما ويحملها فى جوفه ، كما حمل الحوت يونان فى قديم الزمان ، يحملها إلى سمورا (Zamora) فبلاد البرتغال فالأوقيانوس !

وبرغوس تقلم أشجار حديقتها ، وتشرب القهوة أو الخمر أمام تلك الأشجار الجميلة الأشكال ، الأنيقة الصفوف ، ولا تبالى بمصير نهرها الوديع .

ولبرغوس كما لغيرها من مدن إسبانيا التاريخية ، كتدرائية غوطية الهندسة ، شوهها الزمان والإنسان ، بما أضافا إليها من بناء وزينات ومشاين . فهى من هذا القبيل أعظم الكاتدرائيات الإسبانية . تقوم فى سفح الرابية ، وتلصق بها ، كجزء منهما ضخم عجيب .

وهى على ضخامتها وتفرعها ضائعة بين الرابية والمدينة ، كما أن شكلها الهندسى الأصلى ضائع فى الإضافات التى بنيت حوله ، وهى كثيرة . بل هى بالتدقيق خمس عشرة كنيسة ألصقت بجوانبها وزواياها فصارت وهى داخل الكنيسة الكبرى تتنازعها قلوب المؤمنين وأنظارهم .

فى إحدى هذه الكنائس الصغيرة ، أعنى « كنيسة الجسد المقدس » ، صندوق لبطل برغوس فى قديم الزمان ، بل بطل إسبانيا فى كل زمان ، الملقب بالسيد . وقصته طريفة نقصها عليك فيما بعد . فاعلم الآن أن ذلك الصندوق الذى يزين كنيسة « الجسد المقدس » هو هو الصندوق الذى ملأه السيد حجارة ورملا وخدع به يهوديين من يهود برغوس . هى كذلك من القصص الطريفة .

ولقد أسس هذه الكاتدرائية فى الربع الأول من القرن العاشر ، الملك فرديننند الثالث وأسقف إنكليزى ، ثم وكلا بها الزمان ، والمهندسين الألمان والفرنسيين ، وأهالى برغوس الذين كانوا يشتغلون يوماً على ما يظهر وينامون ثلاثين . فاستمروا والزمان والمهندسين ثلاثمئة وستاً وأربعين سنة فى بنائها التام — الأتم (١٢٢١ — ١٥٦٧)

فهل يستغرب فيها تعدد الأساليب الهندسية والفنية ؟ وهل يستغرب التناقض والتنافر فيها ؟ لقد ضاع القديسون والقديسات فى زخر طام من الزخارف

الفضية والمرمرية والذهبية والخشبية والجصية ، فلا عجب إذا كان الزائرون يتيهون فيها .

* * *

برغوس (برغشت العرب) هى متربعة على مائدة من الأرض تعلو زهاء ألف متر عن البحر . أسسها سنة ٨٨٤ م ، الكونت القشتالى دياغو بورسيلوس (Porcelos) وما عزز استقلالها ، فجاء ملك أشتوريا يحميها .

على أن الحماية الأشتورية لم تدم طويلا . فقد قام حاكم المدينة أردونو على آل بورسيلوس ، باسم الحرية والاستقلال فذبحهم جميعاً ، ثم قام الأهالى على أردونو فألحقوه بآل بورسيلوس ، وأسسوا حكومة جمهورية رأسها اثنان من أبناء برغوس الأبرار ، حفظ التاريخ والمدينة اسميهما .

وما طالت مع ذلك أيام تلك الجمهورية ، لأن ابن برغوس الأبر فرنان غنسالس (Gonzales) فضل الإمارة عليها ، وشيد لها ولنفسه قصراً على رأس الرابية ، فنعمت فى عهده ، وانتقلت بعده بعرس ملكى إلى مجد أعلى ، فقد كان ذلك العرس ، وكانت برغوس من جهاز العروس ، فضمت إلى مملكتى قشتالة وليون المتحدتين ، وجعلت العاصمة لقشتالة القديمة .

ثم تكلل مجدها بأسقفية أسست فيها — ولكن الإكليل كان ، مثل الأمجاد التى تقدمته ، قصير الأجل . فقد أسست الأسقفية سنة ١٠٧٤ ، وسقطت طليطلة العربية بيد المسيحيين سنة ١٠٨٧ فنقل بلاط الملك من قشتالة إليها .

كسفت طليطلة برغوس ، ولكنها مع ذلك احتفظت بشىء من شهرتها حتى أيام فيليب الثانى الذى جعل مدريد عاصمة إسبانيا الوحيدة . فأمست برغوس بعد ذلك نكرة بين المدن . قال كاتب زارها فى القرن السابع عشر : لم يبق من برغوس غير الاسم .

إنما عادت بعد ذلك إلى الحياة والازدهار ، وهى اليوم مدينة عامرة بمعنى

العمار الأوربى لا الأمريكى. فليس فيها بناء جديد ، ولا زيادة كبيرة فى عدد سكانها ، الذين يربون على الثلاثين ألف نفس .

وفى برغوس كثير من الآثار القديمة المخلدة لذكر أبنائها الأبرار ، منها قدس القديسة مريم ، وهو أثر قديم جليل بأبراج جانبية ، ومسلات ، وتماثيل لمؤسس المدينة ، ولرئيسى جمهوريتها ولغنسالس والسيد . ومنها الجسر الذى يصل المتنزه الجديد بالمتنزه القديم ، وهو مزين بتماثيل ملوك الغوط والإسبان .

وفى الجهة الجنوبية من النهر قسم آخر من المدينة ، هو دون القسم الشمالى فى عمرانه . إنما هناك الأديرة — وما أكثرها فى برغوس وجوارها — الأديرة العامرة والمهجورة ، والمتحولة إلى مراكز للعمران — منها دير سان بدرو القردينى (Cardena) حيث دفن السيد وزوجته شمينة وحصانه بيبشا .

وما أكثر البيوت فى الناحية الشمالية التى تنقلك بواجهاتها والأبراج إلى جانبيها ، والأشكال القردينية (Gargoyles) لمزاريبها ، إلى القرون الوسطى ، وعلى الأخص إلى أوربا الغوطية فى ذلك الزمان .

قلت فى الفصل السابق إن لكل مدينة إسبانية كنيسة كبرى تعلوها ، تشمخ فوقها . وهذا لا يصح فى برغوس لأن الرابية هى القائمة فوق البلدة وفوق الكنيسة الكبرى .

وعلى رأس تلك الرابية قصر متداع ، أو خرائب كانت قصراً ، وهى اليوم زريبة للمواشى . ذلك القصر كان لفرنان غنسالس ، ثم صار مقراً لأمراء قشتالة ، ومربعاً للأفراح الملكية . فقد تزوج فيه إدوار الأول ملك إنكلترا بأليانور أميرة قشتالة . وفيه بدأ السيد مرحلة من مراحل مجده ، يوم اقترانه بشمينة (Ximena) حفيدة الملك ألفونس الخامس .

وهناك تحصن الفرنسيون فى حربهم النابليونية الإسبانية عندما حاول

الدوق ولنغتون سنة ١٨١٢ أن يأخذ برغوس ، فرُد عنها ، ثم سلمت فى السنة التالية .

وفى الطريق من الكنيسة الكبرى إلى القصر ، بالقرب من المقبرة ، كان البيت الذى ولد فيه السيد .

أما وقد أخبرتك أين دفن السيد ، وأين تزوج ، وأين ولد ، فإنك سائل ولا شك السؤال السديد : ومن هو هذا السيِّد ، أو السَّيد ؟

* * *

روى دياز ده بيبار (Ruy Diaz de Vivar) هو فى إسبانيا عنتر والسفاح وأبو زيد السروجى فى شخص واحد . هو عنتر بشجاعته ، لا بشعره . وهو السفاح بقساوته ومطامعه . وهو بخفته وظرفه ومكره أبو زيد السروجى .

أما لقبه السيد فقد أطلقه عليه العرب المحبون له ، المعجبون به . فأخذه الإسبان عنهم ، وصار يعرف فى تاريخهم وأساطيرهم وأشعارهم بالسيد (El Cid) .

والسيد سيدان : سيد التاريخ وسيد الأساطير .

أما سيد التاريخ فهو ذلك الرجل الذى عاش فى القرن الحادى عشر (١٠٢٦ — ١٠٩٩) وكان فى مغامراته ، وكبائر أعماله ، الشريفة وغير الشريفة . الصليبية وغير الصليبية ، فى الحرب وفى السلم — القليل يومئذ — وفى الغزوات المسيحية والإسلامية — يوماً على الكفار ويوماً معهم — كان السيد المثل الأعلى للبطل القشتالى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وأصبح بعد ذلك بطل إسبانيا الأمجد — بطلها التقليدى التاريخى الأسطورى .

كان أول نبوغه فى الحرب التى قامت بين الملكين ، سانتشو القشتالى وسانتشو النبارى (Navarre) ، وكان هو فى جيش الأول ، فبرز ذات يوم فى ساحة القتال وحده يدعو قائد ملك نبارة للنزال . هى الطريقة العربية ، وقد

أخذها على ما أظن عن العرب .

ـ تعال نفصل الأمر بسيفنا . فإما أن أقط رأسك أو تقط رأسى .

نزل البطلان إلى الميدان . وكان السيد منتصراً . فقبله الملك على كتفيه ، ولقبه بالبطل المجاهد (Compeador) . ثم زوجه بخفيده سلفه ألفونس الخامس ، وأرسله إلى إشبيلية يجبى الخراج .

كان المعتمد بن عباد لا يزال يومئذ على العرش ، فاستعدّ لاستقبال السيد بما يستحقه من الإكرام ـ بالسيف ! ولكنه كان يومئذ فى حرب وابن الأحمر صاحب غرناطة ، فوصل السيد إلى إشبيلية قبل أن يتفرغ المعتمد لأمره .

وصل إلى إشبيلية والحرب قائمة حامية . فسمع : من يحارب السيد ؟ فجال وصال على هامش المعركة ـ حارب لنفسه ـ قبل أن انتصر ابن عباد على عبد الله بن الأحمر ، وعاد بما غنم من أموال وأسرى إلى برغوس .

مرت السنون وهو يقوم بهذه الغزوات باسم الملك ، وللملك ، فيغزو « الكفار » يوماً ، ويوماً يشنها على أعداء قشتالة فى أراغون ونباره ، حتى منى أخيراً بما يمنى به من يخدمون الملك .

ـ السيد يامولانا يغزو باسمكم ، ويغنم الغنائم ويسبى السبايا ، ولا يعرف غير نفسه . وهو يجبى الخراج ولا يؤدى منه إلى خزانة الملك غير اليسير .

وقلّ فى الملوك من لا يصدق الواشى ، فغضب ألفونس السادس غضبة ملكية ، ونفى السيد من قشتالة .

كان روى يومئذ فى الخمسين من عمره ، وفى حاجة إلى المال . فسارع أبو زيد السروجى إلى نجدة عنتر ، ودبر الأمر . هى قصة الصندوق الذى رأيناه فى الكنيسة ، وأصبح كنزاً من كنوزها . هى حيلة السيد أبى زيد السروجى ، الذى ملأ ذلك الصندوق حجارة ورملا ، وأقفله بأقفال من حديد ، وختمه ،

وجاء به على ظهر أحد خدمه إلى راشيل وبيداس اليهوديين فى المدينة فخاطبهما قائلا :

« فى هذا الصندوق جواهرى وكنوزى كلها ، جئت أرهنها عندكم .. فقد طردنى الملك من بلاده ، وعلىّ مال لرجالى وخدمى ، وعلىّ واجب لزوجتى قبل الرحيل . فاحتفظوا بالصندوق إلى أن أعود ، وأعطونى ستمئة دوقة — ستمئة لا غير — فالجواهر والكنوز فى الصندوق تساوى أضعاف أضعاف هذه القيمة .

دفع اليهوديان المال ، واحتفظا بذلك الصندوق إلى أن عاد السيد ، أو إلى أن شاء رب إسرائيل أن يكشف الخدعة . وهناك روايتان يرددهما التاريخ : الأولى تثبت أن السيد فك الرهن ، والثانية تنفى ذلك .

بعد أن تسلم المال من بيداس وراشيل خرج السيد من قشتالة غازياً بلاد المسلمين ، ومعرجاً على ديار اليهود . اليهود والمسلمون أعداء الدين والدنيا ، مالهم حلال ، ودمهم فى بعض الأحوال — كذلك يقول الله لعبده روى بيبار — ويقول كذلك : حبوا أعداءكم — فيمتشق روى السيف حيناً ، وحيناً يلوح بالصليب العاجىّ الذى كان يحمله دائماً .

سيف الكثلكة فى رقاب المسلمين . ولكن فى المسلمين الشجاع ، والكريم والهمام والحكيم ، والمنتفعون حتى فى الدين .

— هذى هى مصلحتنا ، يا سيد ، وتلك هى مصلحتك . فعليك أو علينا أن نجمع بين المصلحتين ونوحدهما .

— دمكم حلال لى . ولكنه لا ينفعنى . تعالوا إذن نوحد الغارات والغزوات ونتقاسم الغنائم .

هى الأمثولة العربية التى تعلمها السيد ، فعزز فى شخصه أبا زيد السروجى ، وعزل السفاح — النهب النهب . وإذا كان لا بد من القتل ، فالخير للدين الصحيح ، ولكنيسة المسيح ، هو أن نرسل المقتول إلى الجحيم لا إلى السماء .

مالى وهداية الكفار . فإن الله يهدى من يشاء . كذلك يقول أصدقائى المسلمون .

لم يكن السيد صليبيًّا ، بالرغم من صليبه العاجى الذى كان يحمله دائماً ، ولا كان مبشراً منذراً . لم يكن قصير النظر ، بعيد الخيال يجن بالدين ويرى فى سيفه الرحمة — رحمة السيف ! لا ، ما كان مجاهداً فى سبيل الله ، ولا من أجل السيد المسيح والعذراء القديسة . بل كان يحب القتال ، حبه للمال ، وثاباً ، خفيف اليد والرجل ، متحركاً على الدوام . ولكنه يختلف عن الأعرابى فى أنه كان نهاباً غير وهاب .

قال أحد الكتاب فيه إنه كان غوطيًّا فى القتال ، وفنيقيًّا فى حب المال . أى أنه كان مسيحى الاسم فينيقى المزاج والنزعة . ولكن الفطرة الغوطية كانت تستيقظ فيه من حين إلى حين ، فتتغلب على الوثنية الفينيقية — المسيح سيدى وعميدى ، والعذراء أمى الحنون . فماذا عملت من أجلهما ؟ لا شىء — لا شىء .

وفى عاصفة من التقوى يشن غارة دينية صليبية ، فيقتل « الكفار » حيث يثقفهم ، ويقدمها كفارة بين يدى سيده الإلهى ، وأمه السماوية . ثم يعود إلى سجيته الوثنية الفينيقية العربية — إلى عنتر وأبى زيد السروجى .

— ولماذا نقتل الكفار ، يا فانس (أحد قواده) لماذا ؟ أليس خيراً من ذلك أن نواليهم ، وننتفع بهم . فإن فيهم الحكام وفيهم الأغنياء ، وفيهم الشجعان المفلسين المجاهدين . فهؤلاء إن أحسنا معاملتهم وأشركناهم فى الغنائم يجاهدون معنا — يساعدوننا على أبناء دينهم الأغنياء والحكام .

وهناك الملك الذى نفاه ، والمسيحيون الذين كادوا به ، ووشوا به . فهل يجوز أن ينساهم . كلا . وسيتعاون وأخاه المسلم على البر والتقوى . أجل . إن فى المسلمين من يؤخون غير المسلم لأغراضهم الخاصة ، مثل ابن هود صاحب سرقسطة .

إلى ابن هود إذن ، نتحالف وإياه فى سبيل الله . الله أكبر ! الله أكبر ! تعلمها السيد . وحمل المقتدر ابن هود على أعداء ابن هود المسلمين — ها هو ذا بطل النصارى شاهراً سيفه . وعلى أعداء السيد النصارى — ها هو ذا بطل المسلمين ، وقد هداه الله .

قضى السيد ثمانى سنوات يغزو الغزوات المسيحية الإسلامية الفنيقية السروجية .

— والحمد لله رب السموات والأرض . كنت فقيراً فأصبحت غنياً — غنياً بالذهب وبالأملاك والأموال . صاهرت الأمراء ، ونازلت الملوك . فكنت منتصراً فى المعارك ، ومنتصراً فى القصور . المسلمون يحترمونى . والنصارى يخافوننى واليهود يدفعون . . . أنا السيد ، صاحب الصولة والاقتدار . . . وهناك فى المغرب جوامع وقصور — ويهود — وهناك أناس ينادوننى وينتظرون — ولكنى باق هاهنا . . . فإن فى بلنسية الغنيمة الكبرى .

بلنسية الجالسة على عرشها بين البحر الأبيض والنهر الأبيض (Guadalaviar) دخلها العرب فى سنة ٧١٤ للميلاد ، فحكموها باسم الخليفة بدمشق ، ثم باسم الخليفة بقرطبة . وبعد سقوط قرطبة بيد النصارى استقل بها ابن أبى عامر وخلفاؤه من آل بيته — ثم استولى عليها المرابطون سنة ١٠٩٢ ، يوم كان السيد يعد العدة للزحف إليها .

وجاء السيد بسبعة آلاف مقاتل أكثرهم من المسلمين العرب ، فسارع يوسف بن تاشفين سيد المرابطين إلى نجدة المدينة .

والتحم الجيشان الإسلامى المسيحى والإسلامى المغربى ، فتراجع المغاربة وكانت الخدع الحربية التى لا يبارى السيد فيها . فبعد أن حصر المدينة حصاراً دام تسعة أشهر ، قال أبو زيد السروجى الكلمة التى كانت المفتاح ، فانفتحت بوابة السور .

سلمت بلنسية (١٠٩٤) فدخلها السيد ظافراً ، وحكمها أربع سنوات حكماً سديداً عادلا .

على أن المرابطين استمروا يحومون حولها ، ويشنون الغارات ، فناجزهم السيد ، وردهم عنها مراراً . فحملوا عليه الحملة الموفقة سنة ١٠٩٩ وهزموه ، وكادوا يأسرونه .

تلك السنة كانت آخر ما قدر له من الحياة الدنيا . وقد تكون الهزيمة عجلت بأجله .

ولكن زوجته شمينة استمرت ، بعد موته ، تناجز المرابطين . وقد قبضت على زمام الحكم ، وجلست على كرسيه ، ثلاث سنوات .

قال المؤرخ المحقق : عندما رأت شمينة أنها لا تستطيع أن تواصل الدفاع عن المدينة فرت هاربة إلى بلاد الشمال ، ومعها جثة زوجها ، فدفنتها بدير قردينية ، قرب برغوس عملا بوصيته .

وقال القصصى بلسانى المؤرخ والشاعر : عندما رأت شمينة أن لابد من الفرار ، امتطت ببيشا جواد زوجها ، ووضعت الجثة أمامها ، وأغارت فاخترقت صفوف المغاربة المحاصرين المدينة . . .

وللسيد الخرافى قصص وذواوين . أهمها « ملحمة السيد » وهى أقدم الملاحم الإسبانية . « وأيام السيد » وهو تاريخ روائى ، أو رواية تاريخية شبيهة فى أسلوبها بالروايات التاريخية فى كتاب ألف ليلة وليلة . هذا فضلا عن القصائد ، وقد نظم باللغة الإسبانية وحدها أكثر من مئتى قصيدة فى مدحة وتمجيده .

أما الرواية فى دفنه فلا غبار عليها . ولكن عظامه ، مثل عظام كولمبوس بعده ، تعذبت عذاباً غير أبدى . فكانت عرضة لحوادث الزمان ، وهى الإيمان فى الإنسان ، زهاء ثمانمئة سنة ، فنقل بعض العظام خلال تلك المدة

إلى بلدة فى ألمانيا ، وبعضها إلى بيت ببرغوس . ثم نقل الباقى منها سنة١٨٨٣ إلى مقرها الأخير – إن شاء الله – بكنيسة السراى ، القريبة من الكاتدرائية ، حيث شاهدنا صندوق « الجواهر والكنوز » التى خدع به السيد ذينك العبرانيين راشيل وبيداس رحمهما الله .

* * *

فى برغوس وليون نشأت العصبية التى قاومت المسلمين ، وتغلبت بعد مئتى سنة عليهم ، تغلباً جزئيًّا – وتغلبت كذلك على نفسها – فإن إسبانيا المسيحية روحيًّا هى فى دمها عالمية ، كيف لا وقد جرت فى عروقها دماء الفاتحين الرومان والقوط والعرب والبربر ، وكل منهم يحمل فى عروقه مزيجاً من دماء الأقدمين الشرقيين والغربيين .

لقد انبعثت هذه الشعوب كلها ، وتجددت ، فتوحدت روحها فى إسبانيا ، هذا فى الكيان الجنسى القومى ، أى فى العصبية . وأما فى الدين فقد كانت إسبانيا فى أيام السيد مسيحية إسلامية يهودية . إنما المسلم فيها كان سائداً ، والمسيحى مسوداً ، واليهودى أقلية تائهة تافهة .

بل لقد كان هناك سادة من المسلمين تجرى فى عروقهم دماء القوط واليهود . وكان هناك أساقفة من النصارى امتزج بدمهم دم عربى يمنى ، أو سورى ، أو بربرى . وكان هناك شعراء وعلماء من اليهود تربت أمهاتهم فى الحريم .

أما القصر القديم الغالب أو المغلوب ، وهو واحد فى الجميع – ذلك القصر الساكن ، أو المتحرك . أو المضطرب الهائج – طبقاً لليقظات ، وللفرص والأحوال – فقد يتغير اسماً ، ولا يتغير هدفاً وعملا .

وقد تغير فى إسبانيا ثلاث مرات فى ألف سنة فكان وثنيًّا رومانيًّا . وكان مسيحيًّا غوطيًّا ، وكان مسلماً عربيًّا . ثم عاد مسيحيًّا كاثوليكيًّا ،

وهذا طبيعى ، لأن المسيحية الغوطية لعنتها روما ، وروما أم إسبانيا منذ القديم . فطبيعى أن تكون مسيحيتها كاثوليكية مقدسة .

أما غير الطبيعى فى أمرها الوطنى الدينى ، فهو أن اليهود والعرب والإسبان تآلفوا فى معاملاتهم وتزاوجوا ، وما تآلفت أديانهم ، ولا تسالمت . بل ازدادت نفوراً بعضها من بعض ، وغلا بعضها على بعض ، فتحاربت وتطاحنت .

وكانت فى بعض الأحايين تتهادن بدون مقدمات أو تفاهم . إنما تتعب من الحرب ، فتسكن وتنام . فيتحارب إذ ذاك العربى مع الإسبانى لمآرب غير دينية . ويتحارب الإسبانى مع العربى نكاية بإخوانه الإسبان ، أو طمعاً باسترجاع مدينة أو مقاطعة ذهبت من يده .

« وخرج المهدى ومعه ابن أذفونش لقتال المستعين بالله ، فانهزم ومن معه من المسلمين والمسيحيين » .

« وكان موسى أمير سرقسطة يحارب المسيحيين (٨٥٨) فظفر بهم فى بعض الوقائع . إلا أنه انكسر فى آخر الأمر ، وتغلب عليه ملك أشتوريا . فعزله الخليفة الحكم من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غيظاً ، وانحاز إلى المسيحيين ، وزوج ابنته بملك نابارا (Navarre) » .

« وثار نصارى نابارا على حكام الفرنسيس (٨٢٠) من شدة عسفهم وجورهم ، واتفقوا مع المسلمين فسلموهم مدينة بنبلونا » .

ومن هم الذين ساعدوا السيد ليتغلب على المرابطين ويستولى على بلنسية ؟ هم المسلمون العرب .

ومن هم الذين أعانوا فرنندو الثالث على ابن عباد بإشبيلية ؟ هم العرب المسلمون .

فلا تسل عما يفعله الناس ، وتفعله الأمم ، عندما تشتد بينهم العداوات ، وتسيطر الأهواء على عقولهم وأعمالهم .

أوَما كان العرب أنفسهم فى قرطبة وفى بغداد يكيد بعضهم لبعض ، ولا ينظرون فى مصالح الدولة والدين إلى أبعد من مدى الكيد والضغينة[١] ؟

وما كان الإسبان ، كما قدمت ، على غير هذه الحال ، قبل اتحادهم الوطنى الكاثوليكى ، الذى أخرجهم عن عالميتهم الأولى ، وجعلهم ، باسم فرديناند وإيزابلة ، إسبانيين فاتحين مستعمرين .

ومع ذلك فقد كان للتغلب أسباب غير التحزب والتخاذل فى المغلوبين ، وغير المكائد والأحقاد .

كان الإيمان قوة العرب الغالبة فى بداية أمرهم . وكانت الحركة الدائمة — الغزو والحروب — تدعم الإيمان تارة ، وطوراً تغذى العصبية وتهيجها — فيتغلب باسمها وقوتها عبد الرحمن الأموى مثلا على يوسف بن عبد الرحمن الفهدى ، وتتأسس الخلافة الأموية فى الأندلس . ويتغلب باسم الإيمان وقوته المنصور ابن أبى عامر مثلا فى غزواته كلها — وعلى الخليفة نفسه .

هذه الحقيقة تصح كذلك فى عكسها ، أو بالحرى فى من حاربوا العرب . فقد كانت قوة الإسبان تظهر حيناً فى العصبية الناهضة ، وحيناً فى ما تجدد من إيمان . هذا فى الجنوب ، وفى قلب إسبانيا ، أى فى قشتالة وأراغون .

أما فى الشمال ، فى جليقيا وأشتوريا كما فى فرنسا ، فلم يكن الإيمان المسيحى عدو العرب الغالب ، ولم تكن العصبية . بل كان عدوهم ، فى الشمال ، الشمال نفسه : البرد ورطوبة الهواء والأوحال والرياح والثلوج .

---

(١) بينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيس الذين كانوا فى حرب مستمرة مع مسلمى الأندلس — « الأمير شكيب أرسلان » : تاريخ غزوات العرب . صفحة ١١٦ .

فلا رجال أفريقيا، ولا عرب الجزيرة يتحملون برد الجبال والأصقاع الشمالية[١].

إن بلد الوليد مثلا تعلو عن البحر سبعمئة متر ، وليون ثمانمئة . وإن ميزان الزئبق فى ذلك الإقليم يسقط إلى الدرجة الخامسة عشرة (فرنهيت) تحت الصفر . فما هذه بأرض تصلح للنبت العربى ، إن كان بذره من شبه الجزيرة ، أو من المغرب .

وإن قلت : تلك جبال اليمن ، وفيها أعلى مما ذكرت من البلدان . ذكرتك بالحقيقة الجغرافية الأخرى ، وهى أن اليمن العالى — ذمار وصبعاء ومناخة — هو على اثنتى عشرة درجة من خط الاستواء ، وإسبانيا الشمالية ، فى مقاطعة برغوس مثلا ، هى فى الدرجة الثالثة والأربعين من خطوط العرض .

فاليمنى ابن ذمار أو صنعاء ، الذى يبرد فى فصل الشتاء ، يموت برداً فى بلد الوليد ، فضلا عن جليقيا وأشتوريا .

وقد خبر ذلك العرب أنفسهم يوم زحفوا من الأندلس شمالا بنغرب ، ووصلوا إلى أشتوريا وجليقيا . فما عتموا أن انكفأوا عنهما ، وساروا شرقاً إلى وادى أبيره ، ومنها عادوا إلى قلب إسبانيا ، فاستقروا فى طليطلة وماردا ، حيث البرد شتاءً لا يجاوز الحد الذى يتحملون .

---

(١) قال أحد شعرائهم بعد غزوة فى الجبال العالية :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم ... وشرب الحميا وهو شىء محرم

فراراً إلى نار الجحيم فإنهـا ... أرق علينا من شتير وأرحم



بيوت الجرحى والمشوهين المغاربة

الفصل السادس

الجنرال فرنكو

كانت برغوس من المدن التى انضمت إلى الثورة فى شهرها الأول . وقد اتخذها الجنرال فرنكو مركزاً للقيادة العليا ، لا لذكرياتها التاريخية القديمة فقط ، بل لأنها كذلك فى موضع حصين من الأرض وعند ملتقى الطرق العامة المسهلة للمواصلات بين الشمال الغربى والجنوب .

وقد أسس فيها مجلس الدفاع الوطنى ، الذى شرع يصدر جريدة الوقائع الرسمية ، وأنشأ الملجأ الذى اشتهر بضيافته السابقة لأهل القتلى من الجند وللجرحى والمحاويج .

ثم عين برغوس يوم وصولنا إلى السراى القديم لاستقبال أعضاء مجلس الشورى الأعلى العام ، الذى انعقد فى اليوم التالى ، لأول مرة بعد النصر برياسة الجنرال فرنكو . فحضره الزعماء والحكام ، والمدنيون والعسكريون ، من جميع ولايات إسبانيا ، وبينهم آنستان تمثلان نساء الأمة ، هما السنيوريتا بيلار بريمو ده ريڤيرا . والسنيوريتا مرسيدس بتشيلار[1] .

وقد تناول المجلس البحث فى جميع المسائل والمشاكل التى أورثتها الثورة الأمة ، وخصوصاً مسائل التنظيم السياسى والاقتصادى ، والترميم للمدن

(١) السنيوريتا بيلار (Pilar Primo de Rivera) هى ابنة الجنرال الدكتاتور بريمو ده ريڤيرا وشقيقة خوسة أنطونيو مؤسس الكتائب الإسبانية ، ورئيسة الفرع النسائى للكتائب ، والسنيوريتا مرسيدس (Mercedes Sanz Bachiller) هى مؤسسة الفرع الاجتماعى فى الكتائب النسائية ورئيسته .

والأماكن المدمرة . ولكن الترميم لا يتم بدون المال . وقد كان ذهب إسبانيا ، الذى أودعه الجمهوريون فى فرنسا ، لا يزال محفوظاً هناك ، والحكومة الفرنسية تسوف فى إعادته إلى الحكومة الوطنية . فذكرها الجنرال فرنكو فى خطبته تذكيراً معززاً للحقوق الإسبانية ، وللعلاقات الولائية فى الوقت ذاته بين البلدين والحكومتين . مما دل على أنه فى السياسة ، كما أنه فى الحرب ، يقرن الحزم بالحكمة ، والشجاعة بالحصافة ، شأن السياسيين المحنكين .

إنى مردد ما قالته الجرائد الإسبانية وبعض الفرنسية فى تلك الخطبة ، ولست باحثاً فى الشؤون الداخلية والخارجية التى تناولتها ، إذ ليس ذلك من أغراض هذا الكتاب .

جئت برغوس لأقابل الجنرال فرنكو فى مسألة واحدة من مسائل حكومته الخارجية ، هى مسألة المغرب الأقصى وعلاقته بإسبانيا ، فانتظرت إلى أن ختم المجلس اجتماعاته فى اليوم الثانى ، وكان لى فى برغوس من ماضيها ما شغلنى ثلاثة أيام بالطريق المفيد من آثارها وذكرياتها .

وجاءنى فى اليوم الرابع السنيور طوباو يقول : الجنراليسيمو يستقبلكم اليوم بعد الظهر .

الطريق إلى البيت ، مقر رئيس الحكومة ومسكنه ، يمتد بين صفين من أشجار الكستناء الزاهرة الوارفة الظلال . والبيت ، على هامش المدينة ، هو بيت وديع غير ذى فخامة ، قدمه صاحبه للجنرال فرنكو أيام الثورة ، فجعل الطابق الأول مكتبه والطابق الثانى سكناً له ولعائلته .

دخلنا حديقة يتصدرها البيت ، ومررنا بين حارسين من الجنود المغاربة عند الباب ، فإذا نحن فى غرفة كاتب السر حيث انتظرنا بضع دقائق . فاستدعى أولا رفيقنا السنيور طوباو ، ومعه نسخة من السؤالات التى كتبتها

وترجمها هو إلى الإسبانية ، فاختلى الجنرال به بضع دقائق ثم خرج طوباو ويدعونى والبستانى للدخول .

مررنا خلال ستائر من المخمل تحت صورة ألفونس العاشر المعلقة فوق الباب ، فمشى الجنرال من وراء مكتبه لاستقبالنا ، وهو مرتد ثوباً عسكرياً بسيطاً أصفر اللون ، من نسيج الـ « كاكى » وطوق قميصه مبسوط فوق طوق جاكتته على الطريقة الإسبانية . صافحته محنيّ الرأس ساكتاً ، وهو يقول بالإسبانية ما معناه أهلا وسهلا . وبعد أن جلست إلى جنبه على الديوان وجلس البستانى وطوباو على كرسيين أمامنا ، شكرته باللغة العربية على تفضله فى الإذن بمقابلتى وهنأته بالنصر فى ساحة الحرب ، ورجوت أن تكون انتصاراته فى ساحة السلم أعظم . فترجم طوباو كلامى وكلمة الشكر التى فاه بها .

ثم أشرت إلى السؤالات التى كان قد اطلع عليها . وبما أنه فى جوابه تناولها كلها إجمالا ، دون أن يتقيد بكل سؤال إفراداً ، أرى أن أثبتها هاهنا مترجمة عن الأصل الإنكليزى . ثم ألحقها بالجواب الذى هو شبه بيان .

السؤالات

١ — يكثر التودد من ساسة أوربا فى هذا الزمان للعرب والإسلام . وأكثره لا يتعدى الكلام . ولكن إسبانيا فى المغرب اليوم تقرن القول بالعمل ، وقد أطلقت حريات الفكر والنشر ، والاجتماع من قيودها . فهل لسعادة الجنراليسيمو أن يؤكد للعالم العربى والإسلامى أن السياسة والأعمال التى باشرتها حكومة إسبانيا لخير العرب والإسلام ستزداد وتدوم ، وأنها لا تتقيد بالسياسات الدولية ، ولا تتأثر بتطوراتها ؟

٢ ــ بنيتم المساجد ، وساعدتم فى تأسيس المعاهد الدينية الإسلامية فى منطقة حمايتكم ، وباشرتم تأسيس المعاهد التعليمية والثقافية . فهل لكم أن تطمئنوا أهالى المنطقة الشمالية بأنكم مستمرون فى نشر التعليم والثقافة ، على الطراز الحديث ، وستزيدون اهتمامكم ببناء معاهد لها ، ليس فى المدن فقط ، بل فى القبائل أيضاً ؟

٣ ــ الزراعة ، كما لا يخفى على سعادتكم ، هى قوام الحياة المغربية . وفيها مجال واسع للتحسين والإنشاء . فهل تفكر سعادتكم فى اتخاذ الأساليب العملية لتحسين الزراعة ، وتشجير الجبال والأراضى الواسعة الخالية اليوم من الأشجار ؟

٤ ــ الاقتصاديات فى المنطقة ضعيفة . وأكثر الشركات التجارية والمالية والاقتصادية هى اليوم على قلتها أجنبية . فهل تسعون لتمهيد السبل لمشاركة الوطنيين فيها ، وتشجيعهم على ذلك ؟

٥ ــ باشرت حكومتكم فى منطقة الحماية الإسبانية تأسيس معاهد صحية عصرية مجهزة بكل الأدوات والأسباب العلمية الحديثة . ولقد شاهدت أنا منها ما يدعو للإعجاب والثناء . ولكن كثيرين من القبائل لا يزالون محرومين هذا الإحسان . فهل يؤمل أن يكون لها ما لأهالى المدن من الملاجىء الصحية ؟

الجواب

« ترغب إسبانيا فى أن تتعاون والعرب لخير الأمتين معاونة شريفة مبنية على أسس متينة . فقد حدث فى تاريخ الأمتين حروب فى الماضى ، تبعها التآخى والسلم . ونحن الآن نجدد هذا الإخاء بجهود متواصلة .

« الثقافة العربية الإسبانية منبعثة من مصدر واحد ، كان يحتل المركز

الأول فى عالم الثقافة . فطرأ عليه إهمال حقبة من الدهر ، ونحن اليوم نجتهد أن نجدد تلك النهضة القديمة ونزيد فى أسبابها .

« كانت قرطبة قاعدة العلم العالمى . وهى التى أنارت بنور العلم أوربا بأسرها . فنحن نستمد من ذلك الماضى المجيد لتجديد العمل . وذلك على الأخص فى إنشاء مكتبة عربية فى إحدى عواصم الأندلس ، تجتمع فيها تلك المخطوطات النفيسة لتكون محجة أعلام الثقافة ورجال العلم فى المشرق والمغرب .

« كان قصدنا أن نهيئ فى المغرب وسائل ذلك العمران وتلك الثقافة فكان الجو مضطرباً . كانت الحروب ، ولكننا اليوم عاملون ما كانت تحول دونه الحروب والتنازع بين القبائل . هذه هى الأسباب فى تأخير النهضة . أما اليوم وقد زالت الأسباب فقد باشرنا العمل بجد متواصل ، وهو يزداد يوماً فيوماً .

« دخلنا المغرب مضطرين . دخلناه بالقوة . وقد دافعنا فى البدء عن حقوق السلطان والمغاربة نيفاً وخمسين عاماً . فعندما شاهدنا الدول الأوربية تتآمر عليه ، ابتغاء استعماره ، اضطررنا أن نحفظ منزلتنا فيه . ولكننا لم ندخل المغرب كالمستعمر المستثمر . وما قصدنا المنفعة المادية ، بل إن جل قصدنا هو خير المغاربة ، والتعاون وإياهم على تعزيز شؤونهم .

« جئنا المغرب بأموال إسبانية فقط ، ومن خطتنا أن نساعد المغاربة ، ونشجعهم على المشاركة والمساهمة فى الأعمال الاقتصادية ، ولا نسمح لرؤوس أموال أجنبية أن تدخل المغرب .

« نحن نعمل اليوم فى جلب المياه وحصرها للرى ، لإحياء الأراضى الميتة ، ونعمل كذلك ليتم التشجير والتحريج فى كل الأمكنة الصالحة لذلك . وبكلمة عامة إننا نعمل لرفع المستوى الزراعى فى المغرب ، فيتمكن الفلاح المغربى أن يعيش وعائلته عيشاً هنيئاً .

« يوم كنت فى المغرب فى المرة الأخيرة نبهت السلطة إلى إنشاء المواصلات الحديثة بين القبائل فلا يحرم أحد منها خير الملاجئ الصحية والمدارس ، يجب أن يصل الدولاب (السيارة) إلى أصغر مدشر من مداشر المنطقة »

كان السيد طوباو يترجم كلامه فقرة فقرة فيكتبها البستانى . وكنت أنا أثناء ذلك أتأمل محيا محدثى ، وأسلوبه فى الحديث .

سألته بعد أن انتهى من كلامه إذا كانت تلك المخطوطات العربية لا تزال فى مكتبة « الأسكوريال » .

فقال : « قدتشتت بعضها ، وأخذ الحمر بعضها الآخر . ولكننا ساعون لإعادتها ، وقد توفقنا فى جمع كثير منها . وهى محفوظة . أتأسف أنك لا تستطيع أن تشاهدها الآن ، فعسى ألا تكون زيارتك هذه هى الزيارة الأخيرة لإسبانيا . بل أتمنى أن تعيد الزيارة فتشاهد تلك الكنوز الثمينة » .

ثم قال ، وقد أبت العاطفة منه أن تبقى كامنة : « وأتمنى أن ترى تلك المخطوطات وتلمسها بيدك لمس المحب المعجب » .

تلا ذلك حديث ارتجالى خرج الجنرال فيه من المغرب إلى أميركا الجنوبية ، ومن المخطوطات إلى الاقتصاديات وتحسين أحوال العمال .

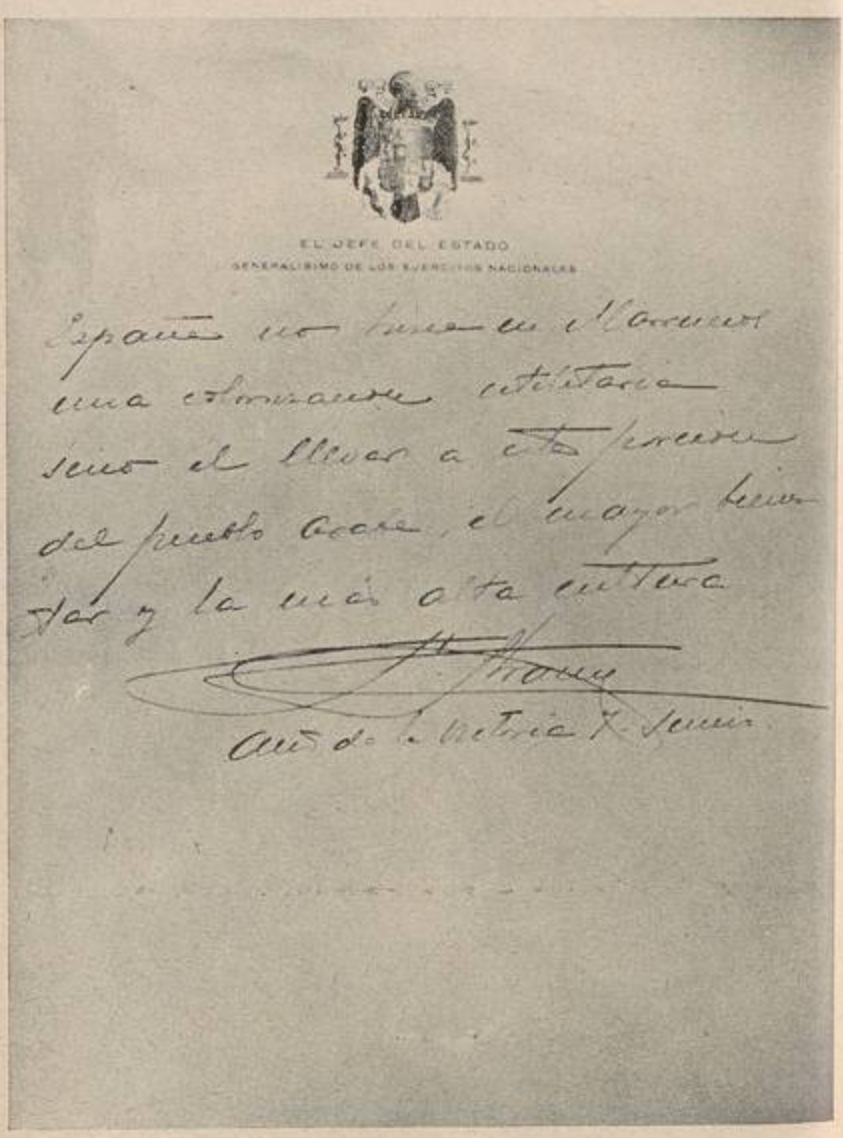
ثم سألته : وهل تفضلون إرسال كلمة بخطكم إلى العالم العربى والإسلامى بواسطتى تفصحون فيها إجمالا عن سياستكم الإسلامية العربية الدائمة فى منطقة حمايتكم وخارجها ؟

فأجاب إنه سيفعل ذلك مسروراً .

فقلت : ورسمكم ؟ فأجاب كذلك بالإيجاب .

وفى مساء ذلك اليوم جاء الرسول من قبل الجنراليسيمو يحمل الرسم والبيان المنشور فى الصفحة ٤٨٥ من هذا الكتاب .

° ° °


EL JEFE DEL ESTADO
GENERALISIMO DE LOS EJERCITOS NACIONALES

España no tiene en el corazón
una ambición territorial
sino el llevar a esta hermana
del pueblo árabe, el mayor bien
dar y la más alta cultura

رسالة الجنرال فرنكو إلى الشعب العربي

ليس فى محيا الجنرال فرنكو ما يحول دون الثقة والاطمئنان . وليس فيه من مكنونات الخطوط ، تحت العين ، أو حول الفم ، أو فوق الجبين ، ما يستوجب إقران الاطمئنان بالحذر ، والثقة بالتحفظ .

هو وجه مستدير وسيم نضير ، أصغر مما يظهر فى صوره المنتشرة . ذو جفن ساج ، وعين لا يبهرك ولا ينفرك نورها . وله فم كفم الأطفال إنما قليل الحركة والابتسام . ليس فى مثل هذا الوجه سيماء العبقرية والزعامة .

ولكن هناك عبقرية ، وهناك زعامة ، برهنت الحرب ، وبرهنت الأيام قبل الحرب عليها . فأين هى فى وجه الرجل ؟ هل هو مقنع ؟ أو هل هى سجية أهل الشمال ؟ قال أحد الكتاب إن وجهه لاتينى أو رومانى الطابع والمعنى . وعندى أنه رومانى الشكل ، سامى المعنى يوحى إليك قبل كل شىء بالاطمئنان والمحبة .

قيل لى إنه خطيب فصيح . ولا عجب . فالإسبان مثل العرب فصحاء على الإجمال . إنما الفصاحة ليست بالبرهان على العبقرية . فأين البرهان ؟

يتكلم الجنرال فرنكو بصوت ناعم هادئ منخفض سوىّ . لا طلوع فيه ولا نزول — لا نبرة ولا شاذة . ولقد تكلم أكثر من نصف ساعة وما تغيرت لهجته . فكان السنيور طوباو يترجم وأنا أثناء كلام الجنرال أتأمل ذلك الوجه الساجى فى كل قسماته ، المشرق إشراقاً هادئاً ، لا يتحول ولا يزول .

وعندما وصل فى حديثه إلى قوله : دخلنا المغرب بالقوة ، قالها كما قال غيرها ، بذلك الصوت الذى يمثل وجهه أصدق تمثيل . وكان الترجمان يتحمس فى بعض المواقف ، فيلبس الكلام ما يستحقه من التوكيد إشارة أو لفظاً ، ولا يبدو شىء من ذلك فى صاحبه . فهو يضع الحقيقة أمامك بارزة واضحة بدون تنميق . وهو يكره على ما يلوح لى ، التفاصح والتنطع ، فلا يحاول أن يسبى القلوب بزخرف القول .

ولقد ذكرنى صوته بعكسه من أصوات الدكتاتوريين . وبوقفاتهم السينمائية المشهورة وبشقشقة هواهم ، ولقد ذكرنى وجهه بعكسه من الخدود المصعَّرة ، والعيون الجاحظة ، وبأصحابها الذين يحاولون أن يقنعوا بها العالم ، بل يسحروه ، ويسودوه .

قال فرنكو فى إحدى خطبه : أريد أن أقنع كما أريد أن أنتصر .

وليس لديه من أسباب الإقناع شىء مما ذكرت . لا سينمائيات ، ولا دعايات ، فى الصورة وفى الخبر . ومع ذلك فقد أقنعنى ، أفحمنى ، فقطع علىّ خط النقد والريب والتردد . ولا أغالى إن قلت إنى كنت أشعر فى بعض الأحايين بما يعبر عنه بالسحر . وذلك عندما أصل فى تأملى إلى ما وراء تلك العين الساجية ، وذلك الفم الطفلى .

إن فى فرنكو مصدر قوة بعيد القرار ، يوحى إليه الثقة بالنفس ، ويمده بقوة الإرادة . فلا يرى من حاجة إلى العوامل المألوفة فى الفصاحة والبيان .

إنما فصاحة الرجل فى إخلاصه ، وإن بلاغته لفى ثقته بنفسه ، وثقته بالله . وإن صوت فرنكو ليخرج من فمه كما يخرج الماء من سفح الجبل ويجرى بين نفنفين منه — فتراه هادئاً فى أعماق الوادى ، وهو فى الحقيقة نافذاً غلاباً ، بالغاً محجته إلى البحر .

هوذا السر فى قوة فرنكو . فإن كان ذلك لا يقنعك فلا حرج عليه أو عليك . لقد فاتتك تلك الروح الجاثمة وراء ذلك السكون . وقد تسرع لذلك فتحكم لدى وقوفك عند حجابها ، حكماً ناقصاً أو بعيداً عن الصواب . فما هو بالملوم ، ولا أنت . إن القوى الروحية لا تدرك إلا بالقوى الروحية .

لست من أنصار الدكتاتورية فى العالم . ولا أنا ممن يعجبون كل الإعجاب بالدكتاتوريين . فضلا عن ذلك فإن للجنرال فرنكو مبادئ دينية بل كنسية ، طالما حملت عليها وعلى الخطل والشر فيها وفى رجالها . ولكنى مع ذلك مقتنع

بإخلاص الرجل الإسبانى الأول ، معجب بعبقريته ، ومحترم كل الاحترام لذلك المصدر الروحى البعيد القرار والمدى ، الذى يمده بما ظهر وبما سيظهر من القوة والحكمة ، والأعمال الوطنية فى شكلها ، الإنسانية (human) فى معناها .

وإنى مقرر حقيقة أخرى من حقائق الزعامة والنصر . لقد اقتنعت الأمة الإسبانية بما قال لها فرنكو ، ووثقت وآمنت به ؟ فكان فى اقتناعها وثقتها وإيمانها سر نجاحه وفوزه . قال الجنرال غرنت (Grant) للرئيس لنكولن (Lincoln) : « لقد فزت لأنك آمنت بى » فما أصدقها كلمة يقولها فرنكو اليوم للأمة الإسبانية التى آمنت به .

° ° °

فرنسيسكو فرنكو هو ابن ضابط فى البحرية ، من المقاطعة الشمالية الغربية ، الكائنة على طرف شبه الجزيرة الإسبانية ، بين جون بِسْكاى والبحر الأطلنتيق ، المشهورة بمعادن الحديد وتجارته . تلك المقاطعة هى غاليسيا (جليقيا العرب) وعلى رأسها عند ملتقى شاطئ البحر والجون ، بلدة الفرُّول (El Ferrol) التى ولد فيها فرنسيسكو فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٢ .

ومنها فى الخامسة عشرة ، جاء طليطلة ، فدخل المدرسة العسكرية فيها ، وكان فى نشأته وتحصيله من الممتازين بذكائهم واجتهادهم .

ثم جاء المغرب ، وهو فى سن العشرين ، وشارك فى جميع الحروب المغربية الإسبانية . فكان منقطع النظير فى عدد المعارك التى خاض عبابها خلال سبع سنوات ، وهى سبع وأربعون معركة !

وقد كان ارتقاء فرنكو فى الجندية فريداً من وجهتى السرعة والسن . فرنكو الشاب : قومندان فى الثالثة والعشرين من سنه ، وليوتنانت فى الثلاثين ، وكلونيل فى السنة التى تلتها ، وجنرال — أصغر جنرال — فى الجيش الإسبانى ،

لأنه لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره .

وقد ساعد فرنكو فى تأسيس الكتائب الأجنبية التى تدعى بالإسبانية (Tercio) وتعين مديراً للمدرسة الحربية بسرقسطة ، فشغل المنصب بما اتصف به من علم وغيرة على الجيش ، إلى أن أعلنت الجمهورية ، فحُمل على الاستعفاء .

كان فرنكو من المعجبين بالدكتاتور بريمو ده ريفيرا (Primo De Rivera) ولم يكن يخشى فى الجمهوريين غير شراذم الأحزاب التى انتمت إليهم ، وتسلطت بعد حين عليهم . فبلغت الخشية بينه وبينهم حد العداء ، وما شاءوا يومذاك معاداته . فعينته الحكومة الجمهورية استرضاء له حاكماً عسكرياً لجزائر البليار — ثم عينته ، لتبعده ، حاكماً عسكرياً لجزائر الكنارى . فكانت هذه منها الضربة الهادمة للحاجز الأخير بينها وبين الثورة . فأضرمت نارها فى المغرب ، فى شهر يوليو من سنة ١٩٣٦ ، كما تقدم[1] .

* * *

أخبرنى أحد رفقاء فرنكو فى الجيش ، يوم كان فى مستهل ارتقائه ، أنه لم يكن يشارك إخوانه فى ألعابهم وسمرهم ، بل كان يفضل المطالعة فى ساعات الفراغ . ولم يكن يشرب الخمر ولا يدخن إلا قليلا .

ولقد أيد هذا القول غيره فى الجيش قائلا : كان فرنكو محباً للمطالعة ، راغباً فى العلم . ولا يزال .

أما مطالعته لتاريخ إسبانيا فلم تكن على ما يظهر مطالعة راغب فى العلم ، طالب للحقيقة ، فهو ولا غرو مشغوف بوطنه ، وبأمجاد وطنه فى الماضى ، ولا يتجرد فى مطالعته من هذا الشغف ، ليستطيع أن يحكم حكماً صائباً قاسياً ، شأنه فى ذلك شأن إخواننا العرب المسلمين الذين يزورون الأندلس مثلا ولا يرون من تاريخه العربى غير آيات العظمة والمجد . أما الحقيقة المجردة من

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الأول

ذلك الشغف والإكبار — حقيقة العرب فى حروبهم الأهلية وتخاذلهم وشقاقهم وأنانياتهم الأثيمة — فهم لا يرون ولا يريدون أن يروا شيئاً منها .

قال لى الجنرال فرنكو فى أثناء الحديث عن المغرب ، إن إسبانيا كانت دائماً تؤثر على خيرها خير أهل البلاد التى تدخلها . وقدم على ذلك برهاناً تاريخيًّا ، بحسب نظره ، أو قلبه ، فقال : تلك أميركا الجنوبية وقد تركناها لأهلها . وهم أهلنا . وفيها اليوم سبع عشرة جمهورية .

فهل ننسى حروب الاستقلال التى أقامها الأهالى هناك لينقذوا أنفسهم من الحكم الإسبانى وفساد الحكام ؟ وإن أحدث الأمثال لذلك هو فى جزيرة كوبا . فإن صح القول إن الجمهوريين فى إسبانيا فضلوا أن يسلموا البلاد إلى الوطنيين من أن يفادوا بها فى سبيل الشيوعية ، فكلمة الجنرال فرنكو فى أمريكا الجنوبية هى الحق . ولكنى لا أظن أنه يحارب الظلم فى زمانه ، ويغض النظر عنه فى ما مضى من تاريخ بلاده .

وإنى لأذكر تلك الحملات التى كانت تحملها الجرائد الأمريكية . الشمالية والجنوبية ، الإنكليزية والإسبانية على الجنرال ويلر (Weyler) وحكمه — ويلر الجزار كما كانت تلقبه . على أن للصحافة فى كل زمان ومكان أغراضاً فى حملاتها السياسية تتنوع وتتلون ، فتبعد فى الغالب عن الحقيقة والإنصاف ، حتى فى أخبارها .

قبيح بنا التعميم ، وهناك جريدة « التيمس » الإنكليزية ، وأختيها الأمريكية والفرنسية المشهورة برصانتها وبما يوجب على الناس تصديق روايتها واحترام اسمها . وأنا من الناس الذين يريدون أن يصدقوا ويحترموا ، ولكنى ، وأنا أعرض أمرى ، أترك الحكم للقارئ .

كتب مراسل جريدة « التيمس » الإنكليزية ، بعد انتصار الجنرال فرنكو وإعلان الحكم الوطنى فى البلاد . يصف خرائب الحرب ، فقال إن ثلث مدينة

مدريد خراب يباب ، وثلثاً منهدماً معطلا . وقد مررنا بمدريد ، وزرنا أماكن الخراب فى جهاتها الأربع ، وهى كما هى ، وقدر ما هى ، مفجعة مفجعة . ولكن تقدير مراسل جريدة « التيمس » بعيد جداً عن الحقيقة . فإذا جمعنا الأسواق المتهدمة كلها فى الجهات الأربع ، وأضفنا إليها مدينة الكليات ، فهى تبلغ جزءاً من العشرة الأجزاء السالمة .

ونشرت جريدة « التيمس » بنويورك خارطة تمثل وقائع الحرب الأهلية تحت عنوان : سقوط الأمة الإسبانية . هذا بعد النصر النهائى أو قبيله . وفى التعليقات على تلك الخارطة ما يلى : فقدت إسبانيا مليون رجل فى حربها — صرفت بليونين — مليارس — من الريالات — مدنها المجيدة خراب — حقولها مزروعة بالقنابل ، مناجمها مقفلة — مصانعها معطلة ... وهلم جرًّا .

قطعنا الطريق من إشبيلية إلى مدريد ، ومن مدريد إلى برغوس ، فإلى طليطلة فإلى قرطبة ، وما رأينا فى نطاق النظر أثراً يذكر للخراب . بل كان جل الطريق معبداً أحسن تعبيد ومفروشاً بالزفت ، ومزدانة جوانبه بالأشجار الوارفة الظلال .

وقد قال لى من أدار فرعاً من فروع العمل فى الثورة إن المدينة الوحيدة التى خربت كلها ، إلا عشرة بيوت منها — عشرة بيوت من ألفى بيت — هى أوڤيدو عاصمة غليسيا . وما رأينا فى نواحى الأندلس التى مررنا بها ، ولا فى المدن الأندلسية التى زرناها ، أثراً للخراب .

هذا لا ينفى أن فى البلاد مدناً ، كمدريد وأوڤيدو وبرسالونا ، تستوجب الترميم ، وأن فى البلاد مجالا واسعاً للإصلاحات الاقتصادية . وقد باشرت حكومة الجنرال فرنكو العملين ، بعد أن مهدت لها ، حتى فى أيام الثورة ، فى ما بنته من البيوت الرخيصة للعمال وللفقراء[1] .

---

(١) فى قرطبة ٣٠٠ بيت ، وفى مدريد ٧٠٠ ، وفى غرناطة ٢٠٠ وفى إشبيلية ١٢٠٠ بيت ، وفى مدن المغرب أسواق من هذه البيوت ذكرت فى الفصول السابقة .

قال فرنكو : « يجب أن تنفذ مبادئ ثورتنا الوطنية بتحسين أحوال العيش لطبقتى المتوسطين والعمال » .

البيوت الرخيصة ، لقد ذكرتها مراراً فى كلامى على المغرب . وقد كان رجال الحكومة الجديدة ، حتى فى أيام الثورة يتعاونون على هذه الأعمال ويتنافسون بها.

أذكر منهم قائد جيش الجنوب الجنرال كيب ده لانو (Queipe de Llaan) صاحب الأيادى البيضاء ، خصوصاً فى إشبيلية ، وقد أراد أهلها أن يظهروا بعض ماله فى قلوبهم من الحب والاحترام ، فقدموا له هدية مالية ، بلغت مليونى بسيطة . فقبل الجنرال ده لانو الهدية ، واشترى بالمال أرضاً فى جوار المدينة ، وباشر العمل فى بناء بيوت جديدة رخيصة هناك تأوى من الثلاثمائة إلى الأربعمائة عائلة .

مهما يكن شكل الحكومة فى هذا الزمان — ملكيًّا دستوريًّا ، أو ديمقراطيًّا اشتراكيًّا ، أو فاشستيًّا نازيًّا ، فالإصلاح الذى تقوم به هو على الإجمال إصلاح اشتراكى ، مبنى على تعاليم اشتراكية ، إن كانت لكارل ماركس أو لغيره من الاشتراكيين .

لا إصلاح يدوم بدون إصلاح أسباب العيش للعمال . وحكومة فرنكو هى من هذا القبيل فى مقدمة الحكومات الديمقراطية الاشتراكية . اسمها الرسمى هو الحكومة السنديكالية (Syndicalist) الاشتراكية الوطنية . والجنرال فرنكو هو رئيس هذه الحكومة .

فإن استنكرنا من الاشتراكية بعض ألوانها وأشكالها ، كالشيوعية والنازية (هما واحدة أساساً وإن كانتا ظاهراً على طرفى نقيض) فلا يجوز أن ننكر الحقيقة فيها ، وهى التى توحى إلى رؤساء الحكومات والزعماء المصلحين ، ما يقومون به من الأعمال الاقتصادية ، التى من شأنها أن تضمن الخير للعدد الأكبر من الناس . وهذى هى الاشتراكية الحقة .

ومن أقوال الجنرال فرانكو : لا وجود فى إسبانيا الجديدة لبيت بلا نار ولا لإسبانى بلا خبز . هى الكلمة التى يرددها فى أشكال وأحوال شتى . أجل ، « ستضمن الثورة العدل والخبز لكل إسبانى » .

على أن ذلك موكول بتحقيق الأهداف الوطنية الأخرى — كلها جمعاء — وهى أن تكون إسبانيا الجديدة عظيمة حرة .

ولا عظمة بدون اتحاد ، ولا اتحاد بدون حرية .

فهل يستطيع الجنرال فرنكو أن يثبّت التوحيد الذى قدسته الثورة ، وباشرت الحكومة العمل به ، فى تعطيل كل الأحزاب السياسية ، إلا حزب الكتائب الإسبانية ؟ .

قلت إن البحث فى سياسته الداخلية لا يدخل ضمن نطاق الكتاب . ولكنى ، فى ذكرى لبعض كلماته السديدة ، أقف عندها لأقول كلمة لا تعدو الهامش .

إن فى أسبانيا اليوم حزبين كبيرين ، حزب الإكليروس ، وحزب الكتائب . والحزبان — ظاهراً فى بعض الأحوال الداخلية — متحدان اليوم . فللكتائب برنامج إصلاح طويل عريض ، اختلطت فيه النظريات والمبادئ العملية ، ومنها ما يتعلق بالتعليم المدنى الوطنى .

وللإكليروس خطة فى التعليم قديمة لا تصلح فى أمة تنزع إلى التجدد . وللإكليروس مطامع فى السيادة قديمة لا تتفق ومطامع أمة تريد التصعيد إلى ذروات الحرية والعظمة . فهل تصطدم السلطتان ، سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة ، فى المستقبل ؟ يقول العارفون إنه لابد من ذلك الاصطدام . ولكن اللاإكليريكية فى إسبانيا لا تعنى اللادينية .

إسبانيا أمة متدينة . لا غبار على دينها ، ولا على صليبها الرومانى . فهى من هذا القبيل غير ألمانيا ، وغير إيطاليا ، فالصليب فى ألمانيا من خشب ،

وفى إيطاليا من نحاس ، وهو فى إسبانيا من الحديد المموَّه بالذهب .

فلا خوف على الحكومة إذا هى قاومت الإكليروس ، وبيدها ذلك الصليب ، إذا حاول الإكليروس أن يسيطر على التعليم .

وإن فى الكتائب نفسها ما يضمن للبلاد حريتها فى تعليم أبنائها . فلا يكونون أبناء الماضى ، كما أنه يضمن للحكومة نظامها فى تعميم التعليم وتجديده فلا يكون إكليريكيًّا رجعيًّا .

لقد اغتال الجمهوريون مؤسس الكتائب خوسة أنطونيو — وخوسة اليوم ، سيد الأمة ، صورته منشورة على أبواب كنائس إسبانيا ، بأمر الحكومة .

ومع ذلك فإن فى الكتائب عنصراً لا إكليريكيًّا قويًّا ، لا يزدريه الجنرال فرنكو . فإذا اصطدمت الحكومة السنديكالية الوطنية بالسلطة الإكليريكية فما لا ريب فيه أن الكتائب تهب لنصرة فرنكو ومبادئ ثورته ، ومنها تعميم التعليم المدنى الحر الحديث .

الفصل السابع

معرض فنى فى دير

كان أسير الحرب فى الماضى شبيهاً بالرقيق ، تتداوله أيدى الفاتحين ، فينتقل كسلعة من بلاد إلى بلاد ، ويسوء أو يحسن حاله ، بحسب ما يكون من أحوال سادته الخلقية والمادية .

وكان العرب ، فى غالب أمرهم هذا ، من السادة الكرام ، يتاجرون بالرقيق تجارة شريفة ، لا غبن ولا ظلم فيها ، ويشغلون الأسرى بالأعمال العمرانية ، وعلى الأخص بالتى يحسنونها ، إلى أن يفديهم أهلهم أو أصحابهم أو دولهم .

وكان من حظ بعض الأسرى أنهم دخلوا فى خدمة العرب الخاصة ، دخلوا بيوت المسلمين ، فصاروا من أهلها ، بعد أن تعلموا الدين ، وأصبحوا إخواناً للمؤمنين . ولا حرج إن قلنا إن أولئك الأسرى كانوا يرفعون إلى منزلة الموالى والعبيد المقربين .

ومنهم فى المغرب وفى الأندلس الصقالبة ، وهم أصلا من قبائل « سلاف » (Slavs) أسرهم الألمان فى حروبهم ، ثم باعوهم إلى العرب تمادياً فى إذلالهم ، كما كانوا يظنون ، باعوهم إلى الـ « ساراسين » فأحسن الـ « ساراسين » معاملتهم ، كما كانوا يفعلون بغيرهم ممن ملكت أيمانهم ، وصاروا يسمون كل من يأسرون من الشعوب الأخرى باسمهم أى صقالبة .

وكثر الصقالبة فى الديار العربية الإسلامية ، فصار الولد الصقلبى فى

الحريم ، والحاجب الصقلبى فى مشور الخليفة ، والمولى الصقلبى فى خدمة الوجهاء والأئمة . والجندى الصقلبى فى الجيش أو بالحرى فى الحرس الملكى . بل كان فى بلاط أمير المؤمنين بقرطبة ، وخصوصاً فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، « جيش » منهم ، وفيهم من كل نواحى بلاد الفرنجة ، حتى من البلدان التى على شواطئ البحر الأسود ، وكلهم يدعون صقالبة .

ومنهم من كانوا ، مثل الموالى فى العهد العباسى ، أدباء وشعراء وأصحاب صناعات ، فنعموا فى كنف العرب ، ومارسوا المهن التى كانت تلذ لهم ممارستها . كانوا أسرى أو أرقاء أحراراً ! .

ولكنهم فى انتقالهم إلى غير العرب من السادة الفاتحين ، أو المفتدين ، أو الشارين ، كانوا يعودون أسرى وأرقاء ، ويعاملون كذلك . هذا إذا عدل فيهم سادتهم الجدد .

وكانت حوادث الانتقال ، على أنواعه ، تتلو كل حرب من الحروب ، وكل غزوة من الغزوات . وما كان العرب فيها ، غير أصوليين بل كانوا مثل أعدائهم فى السلب والنهب والأسر والتدمير .

وهاك مثلهم الأعلى حاجب الخليفة هشام ، ابن عامر محمداً الملقب بالمنصور ، وقد غزا فى حياته خمسين غزوة موفقة كلها . وهاك مثالا من غزواته . فقد وصل مرة إلى أقصى بلاد الشمال ، إلى جليقيا ، إلى بلدة شنتياقب (Santiago) هناك ، فاكتسحها ، وأسر الأسرى من أهلها ، وجرد كنيسة قديسها ساجاكوب من تحفها وأجراسها — وحمل الأسرى تلك الأجراس إلى قرطبة .

ودالت الأيام بأهلها ، فسقطت خلافة قرطبة بعد عشرين سنة من وفاة المنصور ، فدخل النصارى الفاتحون المدينة ، وكانت تلك الأجراس لاتزال محفوظة ، فأعادوها ، على ظهور الأسرى المسلمين ، إلى كنيستها فى شنتياقب بجليقيا .

ولقد خص المنصور الناحية التى نحن الآن فيها بغزوة من غزواته ، فاكتسح الأديرة الغنية بالتحف ومنها دير سان بدرو ، قبل أن دُفن فيه السيد رُوى بيبار وزوجته وحصانه .

توفى الحاجب المنصور سنة ١١٠٢ بعد وفاة السيد بثلاث سنوات ، وكان مثله فى خاتمة حياته مدحوراً محزوناً . توفى السيد بعد أن كسره المرابطون ، وتوفى المنصور بعيد وقعة نهر الدويرة ، التى قاد ابنه فيها جيوش العرب على ملوك النصارى الثلاثة ، أى ملوك لبون ونبارة وقشتالة . وكان فيها مدحوراً .

وعاد الظافرون من الأندلس يحملون الغنائم ، ويسوقون الأسرى من عرب وصقالبة — فأنزلوهم فى الأديرة التى اكتسحها المسلمون سابقاً ، ليقوموا بالأعمال فى الحقول والمصانع ، ومن تلك الأديرة دير سيلوس (Silos) على نحو ستين كيلومتراً من برغوس ، فقد كان فيه زهاء مئة أسير .

وسيلوس دير قديم ، أقدم من العرب فى الأندلس ، بناه أحد ملوك القوط فى القرن السادس للميلاد ، وكان مشهوراً فى أوربا خصوصاً عندما كان الأب دومينيق — القديس دومينيق بعدئذ — يدير شؤونه . هو دير للرهبنة الدومينيقية . وقدعاد إليه الدومينيقيون الفرنسيون يوم طردوا من فرنسا فى سنة ١٨٨٠ .

كذلك يقول دليل بيديكر . ويقول أيضاً ما يدهش السائح فى هذا الزمان . فمنذ ربع قرن لم تكن الطرقات فى إسبانيا كلها صالحة للعربات . وما كانت تصل إلى كل الأماكن التاريخية فى البلاد . فكان على السائح الراغب فى زيارة دير سيلوس مثلا أن يسافر بال « ديليجانس » أى عربة البريد ، إلى قرية بربادِيُّو (Barbadillo) ومنها على الخيل أو البغال إلى الدير فى الجبل — فتستغرق الرحلة يومين .

أما اليوم — وأما نحن — فقد خرجنا من برغوس فى السيارة بعد الغداء ، فوصلنا إلى الدير بعد ساعة ، وأقمنا فيه ، نطوف فى ربوعه ، ثلاث ساعات

ثم عدنا إلى النزل مساء للعشاء .

* * *

الطريق بهيج ، يزين جانبيه الحور الباسق ، ويمتد اخضرار السهول إلى الآفاق المشرقة ، إلا ما هناك من القرى . وقد مررنا بثلاثة منها دكناء سمراء لاصقة بالأرض ، مثل التى شاهدنا فى الطريق من إشبيلية إلى مدريد ، لا شامخ فيها من بناء غير الكنيسة .

استقبلنا عند باب الدير أحد الرهبان ، ورافقنا دليلا ، فمشينا فى خطواته توًّا إلى بيت القصيد فيه ، وهو الصحن بأروقته الأربعة ، المسقوفة كلها بالخشب المحفور ، الشبيه فى ألوانه فقط بالروافد العربية الأندلسية .

هذا الصحن بأروقته الأربعة وعُمُدها وأقواسها ، هو أجمل مثال فى إسبانيا للفن الرومانى (Romanesque) فالأروقة تقوم على عمد مزدوجة ، بأقواس مستديرة ، وتيجان بتماثيل هى بيت قصيدها ، كما أن الصحن بمجمله هو بيت قصيد الدير .

عند تلك التيجان ينتهى ، فى نظرى ، الفن الرومانى . وبتلك التيجان يقوم المعرض الفنى الذى أشرت إليه فى عنوان هذا الفصل . ومنها نستمد البرهان على أن إدارة الدير كانت بأيدى رهبان أفاضل ، يحسنون معاملة الأسرى ، فيطلقون حريتهم فى الأعمال التى يحسنونها ، لأنهم أى أولئك الرهبان كانوا يقدرون الأعمال الفنية قدرها .

قلت إنه عند التيجان ينتهى الفن الرومانى ، لأن التماثيل الصغيرة التى تزينها هى جامعة فى أساليبها ومواضيعها سائر الفنون . فكل عمرد يختلف فى نقش تاجه وتماثيله عن الآخر . من تلك النقوش ما هو رومانى ، ومنها ما هو شرقى فارسى ، وشرقى هندى ، ومنها ما هو غوطى ومنها العربى الأندلسى ، والبيزنطى العربى — فمن الرموز الحيوانية ، إلى الأشكال الهندسية ، إلى التوريق

والتخريم ، إلى الوجوه الساحرة ، والساخرة والمروعة المصنوعة بشتى الأساليب وبدرجات من الإتقان ، فيها الجيد والوسط والدون — هاك معرض الأسرى الفنانين فى ذلك الزمان ، وبينهم المقلد والطالب والأستاذ والعبقرى .

قال الراهب الدليل : فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان المسيحيون والمسلمون فى حروب مستمرة . فيأسر المسلمون الأسرى ، ويستخدمونهم فى بيوتهم ، وفى تعمير مدنهم . وكذلك كان يفعل المسيحيون بأسرى المسلمين . وقد كان منهم فى هذا الدير كثيرون وبينهم الصناع الحاذقون بالنقش والتصوير فصنعوا العمد والتيجان لهذه الأروقة ونحتوا التماثيل التى زينت العمد بها بعدئذ .

إن أولئك الأسرى الفنانين قد تعلموا واقتبسوا فنون من تقدمهم فى المشرق والمغرب . فنقل الواحد منهم عن البيزنطيين ، والآخر عن رسوم فارسية شاهدها ، وغيره عن الغوط والعرب ، وكان هذا الفنان قرأ فى بعض الكتب عن التقمص الهندى فصور رؤوساً بشرية فوق مناكب حيوانات رهيبة أو قبيحة أو داجنة . وذاك كان يحسن النقش العربى فجاء عمله الممثل لخطوط الرواشن والرقم أبدع تمثيل .

إن فى الأورقة الأربعة . فى الطابق الأول ، ستين زوجاً من تلك العُمد ، وفى الطابق الثانى مثلها ، وكلها بتيجان منقوشة بالنقوش المختلفة ، ومزينة بالتماثيل المتنوعة ، التى ذكرت . هو ذا معرض أولئك الأسرى الفنانين العرب والصقالبة ، الذين نعموا فى أسرهم هاهنا ، بدير سيلوس ، وليس ما يدل على الحقيقة وعليهم غير كلمة من خبرهم تناقلتها الأجيال ، وهذه الآثار الفنية الطريفة . فإن فى الدير مكتبة تحتوى على خمسة عشر ألف كتاب ، وليس فيها كتاب واحد ، على ما علمت ، يذكر فى فقرة أو حاشية أولئك الأسرى الفنانين ، رحمهم الله .

ومن آثار دير سيلوس متحف طبيعى صغير ، معروضة فيه أمثلة من

معادن تلك الناحية ، وطبقاتها الجيولوجية ، ومن طيورها وحيواناتها ، وبينها الصقر والهدهد ، والذئب والخنزير البرى .

ومن مآثر رهبان الدير الأساتذة ، إنهم يعلمون اللاهوت فى مدرسته اللاهوتية ، ويصنعون الخمر ، لا للتجارة ، بل لأنفسهم ، وللطلبة — عوناً على اللاهوت .

كان الرئيس قد علم بالزائر العربى ، فجاء إلى غرفة الاستقبال يرحب بنا ، وقد حدثنا عن زعيم البلاد الجنرال فرنكو حديث معجب به فقال : هو من الشمال — من غليسيا وعباقرة الإسبان كلهم من الشمال !

لا أظن أن حضرة المحترم أراد أن يغمط الأندلس حقها ، أو أن ينكر شهرة أبنائها العباقرة من عرب وإسبان . إنما هى كلمة قالها . ولكنه استفزنى ، وما شئت أن أذكر العرب تأدباً ، فقلت : وهل ننسى أن فلاسكيز ولد بإشبيلية ، وأن الدكتاتور الجنرال بريمو ده ريفيرا من شريش ؟

كان أحد الرهبان قد جاء بشىء من خمر الدير ، فى كؤوس لا عيب فيها إلا أنها صغيرة ، فشربت كأسى قبل أن ذكرت فلاسكيز ، فقال الرئيس الظريف الخفيف الروح ، بعد جوابى على كلمته : تستحق كأساً أخرى .

وكنت قد كتبت فى كتاب الدير الذهبى هذه الكلمة : فى العزلة نجد الله . فقلت لحضرته بمناسبتها وإنى مسيحى ثالوثى . فابتسم — دامت ابتسامته ، وأمر بالكأس الثالثة ، له ولى ، فأثلثنا على ذكر الحبيب ، سبحانه وتعالى .

الفصل الثامن

بطولة الأولين

مثل لنفسك نجداً من الأرض ثمانمئة متر فوق سطح البحر ، فيه ضلوع وتجاويف هى منازل المياه ومجاريها ، وبطاح شاسعة بينها مزروعة قمحاً ، مغروسة زيتوناً ، يحيط بها عند الأفق هلال من الجبال العالية . ثم مثل فى وسط ذلك النجد رابية صخرية تعلو مئة متر عن مستواه ، يجرى عند سفحها ويكتنفها نهر نشيط ضحّاك ، هو الطاخوس ، فتتصل صخور ضفتيه العاليتين بالصف الأول من الحجارة المرصوفة المتراصة على تلك الرابية ، وقد تخللها خطوط وحروف رفيعة معوجة كالظلال الممدودة المتقطعة — هى ذى طليطلة بأسواقها وساحاتها وبيوتها المزدحمة ، وهى ذى طليطلة فى بيئتها الجغرافية .

ثم عد معى إلى الزمان الغابر البعيد ، الذى كان ينطق بلسان الرومان ، نجتمع بمؤرخ اسمه ليڤى (Levy) فيقول لنا : طليطُم ؟ نعم . طليطُم (Toletum) هى ضيعة فى شبه جزيرة إيبيروس ، ضيعة صغيرة فى مركز من الأرض حصين ، استولى عليها أبناء بلادنا فى السنة الثانية والتسعين والمئة (ق . م .) فأقاموا فيها حصناً صار مستعمرة عسكرية ، ثم مستعمرة مدنية ، وبعد ذلك أمست من البلدان التابعة لولاية كنتيريه . ويقول غير ليڤى من المؤرخين إن ابن طُليطُم كان يدفع الخراج لروما ، ويحمل السلاح ليحارب فى الجيش الرومانى من أجل روما ، ويستجير بآلهة روما على حكامها فيجيرونه — بعد موته !

وجاء بعد الرومان إلى طليطُم قوم من الغوط النصارى ، المتشعثة شعورهم ، الناعمة نظراتهم ، فحولوا المعابد إلى كنائس ، وسرت إليهم من الشرق نزعات لاهوتية فى طبيعة المسيح ومشيئته الإلهية والبشرية ، فعقدوا المجتمعات لتمحيص تلك النزعات فازدادت شعورهم تشعثاً ورؤوسهم وجعاً . فقال فريق منهم : الحق مع آريوس . فضجّ الفريق الآخر وهو يقسم بروما المستقيمة الرأى . واستمروا متنازعين متخاصمين حتى انتصرت الآريوسية فى بلدهم — انتصرت إلى حين . ثم قام أحد ملوك الغوط يطهر البلد من تلك الهرطقة الخبيثة ، فطهرها تطهيراً ، وغسلها بالدم ، وأعادها إلى حضن الكنيسة ، الرومانية الكاثوليكية المقدسة (٥٨٩ م) .

وأولئك الغوط النصارى المتشعثة شعورهم الساجية عيونهم اللطيفة اللحاظ . كانوا يتسلون بتعذيب اليهود ويتقربون من الله وقديسيه بأموال يبتزونها من « شعب الله الخاص » . فلما جاء طارق بن زياد من جنوبى المضيق ، ووضع السيف فى رقبة مليكهم ردريق ، ومشى بجيشه المظفر فى البلاد ، فاتحاً غانماً باسم الإسلام والعرب ، كان يمشى أمامه أبناء إسرائيل أدلاء أولياء فيصدقونه الخبر فى ما كان عامراً من البلاد وخصباً من الأرض .

ووصل طارق إلى طليطُم ففتحها ، وغنم الغنائم ، وخيَّر الغوط أهلها فى واحدة من ثلاث نعم . فمنهم من فادوا بآريوس وروما ودخلوا فى الإسلام ، ومنهم من فروا هاربين ، ومنهم من دفعوا الجزية ، وأقاموا والمسلمين فى طليطلة — طليطلة الآن — آمنين مطمئنين .

وثبتت قدم العرب فى طليطلة ، فبنوا المساجد ، وأنشأوا المدارس والمعاهد الصحية ، لهم ولإخوانهم الجدد والذمّيين ، ثم قالوا لأولئك الذمّيين قولا صريحاً أيدوه بالسيف الناطق فى غمده : أنتم فى ذمة الإسلام ، وهؤلاء اليهود فى ذمتكم أبناء بلدكم — إخوانكم فأحسنوا إليهم نحسن إليكم .

تنفس بنو إسرائيل الصعداء ، ورفعوا الصلوات إلى ربهم يهوه ليكلأ الإسلام والمسلمين . وشرعوا بعد ذلك يصلون بلغة الفاتحين — سبحان رب العالمين .

ونشأ فى طليطلة جيل من الناس يتكلمون باللسان العربى ، ويكتب النابغون منهم الكتب وينظمون القصائد باللغة العربية . فآكلوا المسلمين وشاربوهم ، وشهدوا أنهم من خير الناس . وبما أنهم لم يشهدوا غير ذلك سموا موزاراب (Mozarab) أى مستعربين .

انعقدت عرى الولاء والإخاء بين جميع سكان طليطلة فى ذلك العهد العربى السعيد ، الذى دام ثلاثمئة وخمس وسبعين سنة — منقطعاً طبعاً فى سعده ، تقطّع حبل الخير فى الإنسان .

ومما لا ريب فيه أنه كان أسعد زمان من أزمنة هذه المدينة ، فازدهرت فيها الثقافة العربية العبرية وشيد فيها صروح للعمران — فتعددت أنوال النسيج ، وتجددت مصانع الحديد والسلاح ، فازداد عمران طليطلة ، وبلغ عدد سكانها مئتى ألف نفس . طليطلة السعيدة ، بنت قرطبة السُّعدى ، وبعد ذلك ؟ لكل شىء إذا ما تم نقصان !

وما أسرع ما كان نقصانه فى العرب وما أشده وأعمّه ، العرب ... ليس فى الفاتحين شعب يضاهيهم اقتداراً وانتصاراً وليس فى المتقهقرين من يستطيع أن يشق غبارهم ، سقطت قرطبة . فتعددت القرطبات الساقطات . بل تعددت الإمارات المستقلات ، والألقاب والسخريات ، والضغائن والمذلات . إنما لطيطلة فى عهد بنى ذى النون يوم آخر من أيام النعيم ، يوم مقداره خمسون سنة .

ثم دالت بهم الأيام . فجاء ملك البلدين المتحدين ، قشتالة وليون ، الملك ألفونس السادس ، (١١٨٥) يساعده ذلك البطل الصنديد زيد السروجى — السيد ابن بيبار — فتغلب على أصحابها العرب ، ودخل المدينة ظافراً ،

وصلى كهانه صلاتهم الأولى فى مسجد من مساجدها . وبعد سنتين نقل عاصمته من برغوس إليها، فتغيرت روح طليطلة ، تغيرت وما تطورت . بل عادت إلى الوراء ، إلى عهد الغوطيين — وعادت إليها الشعور المشعثة ، دون العيون الناعمة اللحاظ .

بل كانت العيون فى الزمان الجديد حمراء جاحظة باسم الدين الصحيح ، دين المسيح فتركزت السيادة ، وانحصر خيرها وشرها ، كما انحصر صولها وطولها ، فى طغمة واحدة من الناس ، هى طغمة الإكليروس ، وأمست طليطلة تدعى « روما إسبانيا » فاشتهر فيها أصحاب الأرجوان ذوو القلنسوة منهم وذوو العراقية الحمراء — الأساقفة والكرادلة ، أولو الأمر والنهى ، فكانوا دولة ضمن دولة . أنشأوا المدارس ، وأسسوا المستشفيات ، وعمروا الجسور والحصون ، وجددوا فى الناس النعرة الدينية الخبيثة ، نعرة التعصب والاضطهاد . فكان اليهود أول المضطهدين . أجل ، قد عاد الناس إلى تقليد أجدادهم الغوط — إلى تعذيب اليهود فيسخّرون ويُبلصون ويسامون أنواع الذل والعذاب ، باسم « الدين الصحيح ، دين المسيح » .

قال المؤرخون إنه ليس من حادث فى تاريخ إسبانيا فى القرون الوسطى إلا ولأساقفة طليطلة يد فيه ، إن خيراً أو شراً .

وهذا الكردينال مندوسه (Pedro Gouzalez de Mendoza) عدو العرب عموماً ، وعدو بنى الأحمر على الأخص. صليبه سيف على غرناطة وسيفه صليب فيها . وما مات سيادة الضون بدرو قبل أن رأت عيناه آخر ملوك العرب يخرج مدحوراً من الحمراء .

وهذا الكردينال سزنروس (Ximenez de Cisneros) يفرض مشيئته على صاحب الجلالة نفسه . وعندما يسأل عن مصدر سيادته يطل من طنف قصره بمدريد

على جيشه المحشود فى ساحة القصر[1] . أيذكرك هو وأخوه ده مندوسه بكردينال فرنسا الشهير ريشيليو ؟ .

لقد كانت قرطبة مهد أمثال ريشيليو . فكانوا يعدون بالعشرات ، فكسفت عظمتهم عظمة الملك . وقد أبى فيليب الثانى أن يستظل بظلهم ، فنقل بلاطه إلى مدريد التى صارت بعد ذلك عاصمة إسبانيا الوحيدة .

منذ ذلك الحين بدأت طليطلة مرحلتها الأولى فى التقهقر ، وما طال أمرها هذا حتى أمست من الدرجة الرابعة أو الخامسة فى مدن إسبانيا — وأمست المئتا ألف من سكانها عشرين أو خمسة وعشرين ألفاً فقط .

وطليطلة اليوم هى المدينة الإسبانية الوحيدة التى لا يزال طابعها العربى سليما فى شكله القديم . لا جديد فى بناء طليطلة ، ولا تجدد فى حياتها . بيوتها عالية واجمة ، ذات أبواب ضخمة ، مصفحة بالحديد ، بخوخات تذكر بأبواب القلاع والقصور ، وبحلقات — دقاقات — طريفة الأشكال ، وبنوافذ تفتح على الصحن لا على الجادة . وأكثر تلك الجادات لا تأذن لغير الأرجل البشرية أن تطأ حجارتها — وأرجل أشباح الماضى كذلك — فيسود فيها على ازدحامها ، سكون رهيب . هو الماضى يحييك صامتاً . وقد يهمس فى قلبك باللسان العربى كلمة حنين وأسى ، من وراء خوخة مفتوحة تنيرها عين نجلاء ، أو من خلال الدقات لحلقة صقلتها أيدى الطوارق والطراق .

أسواق طليطلة وجاداتها إنها فى ضيقها والتفافها واعوجاجها لكالسراديب ، تضيع فيها ، وإن كنت لا تضيع فى لندن أو باريس . وإنك لتفرحن بالجادة إن كنت من أولئك الذين تروقهم الاكتشافات التاريخية والمعنوية فى غابر

---

(١) لما سئل الخليفة المعز لدين الله كيف يثبت نسبه الفاطمى أجاب مشيراً إلى سيفه : بهذا . ثم نثر حفنة من الذهب فى مجلسه قائلا : وبهذا .

الأحقاب والأجيال . تلك الجادات تنقلك روحاً وجسما إلى عهد العرب فى القرن الثالث للهجرة .

وإن فى طليطلة ، كما فى كل مدينة إسبانية كبيرة كاتدرائية غوطية ، وأبراجاً عربية وصروحاً متداعية تدعى « ألكَزار » وبيوتاً تاريخية هى متاحف فنية وأثرية ، منها بيت الفنان المشهور الإغريقى الإسبانى (El Greco) .

أما قصر طليطلة . فهو مثل صورةٍ من صور ذلك الفنان العظيم . عثر عليها فى خرائب الزمان ، محروقة الأطراف بالية ممزقة . فيلوح خلال الحروق فيها والحروق ، شىء من جمال عتيق ، فى بقية من الألوان الرائعة . ولقد شاهدته فى مثل هذه القرون الغابرة ، فهو كثير النكبات ، دمر ثلاث مرات ، وذهب مرتين فريسة النيران ، فأعيد بناؤه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأسس فيه سنة ١٨٨٢ مدرسة عسكرية .

فالقصر قصور بحصون وأبراج — فى قلبه صحن بأروقة إغريقية الهندسة ، وفى وسط الصحن تمثال لكارلوس الخامس ممتطياً حصانه .

هذا قبل الثورة الأهلية الأخيرة . وأما بعدها فالقصر عاد إلى ما ألفه فى الماضى من الدمار . تدخل إليه من بين الردوم — وتقف فى صحنه أمام قاعدة التمثال ، والحصان مطروح على الأرض والفارس — كارلوس الخامس — لا يزال على الصهوة ، كأنه جزء متمم لها ! ضربه بقنبلة طيارة من طيارات الحكومة الجمهورية رمت الحصان وما رمت راكبه ! . قال الدليل التقى : هى ذى أعجوبة من أعاجيب الحصار . بل من أعاجيب إسبانيا الخالدة — يسقط حصانها ولا تسقط هى .

والحق يقال إن حصار القصر فى الشهرين الأول والثانى من الثورة لمن أروع مظاهر البطولة البشرية . فقد كاد العالم ينسى طليطلة . وكادت طليطلة تتوارى فى خمول ذكرها عن عين الشهرة والتاريخ . فأعادها ذلك الحصار

إليهما . بل عاد بها إلى أيامها الأول ، العربية والغوطية المشهورة بالبسالة والبطولة فوقف العالم صباح مساء من شهرى أوغسطس وسبتمبر (١٩٣٦) يستمع إلى حديث ذلك الحصار وأهله الفدائيين .

كان الجنرال خوسه مُسكَرْدو (Jose Moscardo) مدير الفرع الرياضى فى المدرسة العسكرية يوم أعلنت الثورة . وكان فى طليطلة كما فى القصر بضع مئات من الجند والدرك والكتائب الإسبانية ناقمون على الجمهوريين ناهدون مثله لمقاومتهم . فلما أعلنت الثورة هبوا للانضمام تحت لوائها . وقد دخل القصر مع ستمئة من الدرك نحو ثلاثمئة من المدنيين ، نساء الجنود وأولادهم ، فبلغ عدد المتحصنين فيه ألف وثمانمئة نفس ، منهم ألف ومئتان يستطيعون أن يحملوا السلاح للدفاع .

وقد انتخب الضباط كبيرهم الجنرال مسكردو قائداً ، فأمر فى ٢١ يوليو بأن تقفل كل أبواب القصر ، وأعلن فيه الحكم العرفى .

منذ ذاك اليوم بدأ الحصار ، فطار فوق القصر طائرات الحكومة ورمت بعض القنابل فقتل اثنان ، وجرح أحد عشر . ثم رمت المناشير وفيها بيان وإنذار ، ذهبا مع الريح . بل كانت القنابل والإنذارات تزيد المتحصنين رغبة فى الدفاع وشدة فى المقاومة .

وكان للجنرال مسكردو ابن فى السادسة عشرة من سنه ، قبضت عليه الحكومة فى مظاهرات ضدها فخطر لقائد المركز بمدريد خاطر نفذه فى الحال . أمر بأن يحضر ابن الجنرال إلى مكتبه ثم تناول التليفون وطلب القصر بطليطلة فدار بينه وبين الجنرال مسكردو الحوار التالى[1] :

القائد بمدريد — إلى جنبى الآن ابنك لويس المتهم بالاشتراك فى مؤامرة

---

(١) هذا الحوار مكتوب على لوحة معروضة فى مكتب القائد مسكردو وقد كان ذلك المكتب يوم زرنا القصر لا يزال كما كان فى أيام الحصار .

على سلامة الدولة . فإن سلمت عُفى عنك وعنه . وإن لم تسلم ذهبت حياته جزاء خيانتك . إننا نعطيك عشر دقائق لتقرر ما تريد وها هو ذا ابنك لويس يكلمك .

الابن — ألو بابا . كيف أنت .

الأب — فى حالة حسنة يا ولدى . ماذا تريد ؟

الابن — لا شىء ، لا شىء . يقولون إنهم سيعدمونى بالرصاص إن لم تسلم القصر فلا تهتم لأمرى .

الأب — اسمع يا ولدى . إن كان صحيحاً ما يقولون فسلم نفسك إلى الله واهتف ليحى السيد المسيح ، ولتحى إسبانيا ومت ميتة الأبطال والشهداء .

الابن — أقبلك يا أبى قبلة الوداع .

الأب — أقبلك يا ولدى وأستودعك الله .

القائد — سأنتظر عشر دقائق لتجاوب الجواب الأخير .

الجنرال مسكردو : لا حاجة إلى الانتظار . اعملوا ما تشاؤون . فالقصر لا يسلم قطعاً .

أعدم ابن الجنرال مسكردو بالرصاص فى ذلك اليوم ، واستمر الحصار . فازداد المتحصنون نشاطاً وعزماً .

ثم حاولت الحكومة أن تخلص النساء والأولاد قبل أن تضرب الضربة القاضية . فقالت فى منشور رمته إحدى طائراتها إنها ستعفو عنهن وعن أولادهن إن استسلموا وأخلدوا بعد ذلك إلى السكينة . فقالت النساء للجنرال ليبلغ الحكومة أنهن يفضلن الموت مع رجالهن على هذا الأمان .

هى بطولة المسيحيين الأولين ، فرائس السباع بروما . هى البطولة التى تتجاوز حد الشجاعة الجسمانية ، لأن منشأها العقيدة والإيمان . وقد تجلت فى أولئك الإسبان وفى ذلك المكان التاريخى ، وفى تلك المدينة القديمة الجليلة .

كأن أرواح شهداء الماضى وأبطاله قد تجسمت فيهم ، فكانوا جميعاً قلباً واحداً وروحاً واحدة مع زعيمهم وقائدهم مسكردو ، ذلك الأب الرومانى وابن هذا الزمان العجيب ، الشامل لكل ما مضى ، الخصب فى كل شىء .

استمر الحصار شهراً ، وتلا الشهر شهر آخر ، والحكومة ترمى القصر بالقنابل من مدافعها الضخمة ، وبالقذائف من الطائرات . ثم فى ٩ سبتمبر طلبت من القيادة أن ترسل إليهم رسولا حاملا قراراً فيه خيرهم . فجاء الرسول فأدخل القصر بعد أن شدت العصابة على عينيه ثم حلت فى مكتب الجنرال مسكردو . فكان حديث وكان سكوت . أخرج الرسول من القصر كما أدخل إليه ، فعاد يحمل جواب مسكردو بل جواب عائلته المحصورة جميعاً : تفضل الموت على التسليم . إنما تطلب من الحكومة طلباً واحداً فقط وهو أن ترسل إلينا كاهناً يعرفنا ويعطينا القربان المقدس .

أبطال طليطلة ! لقد سار اسمهم سير البرق فى العالم . وكتبت الجرائد المقالات فى تمجيد البطولة الروحية — التى لا يزال لها صوت وأثر فى مدنيتنا المادية . بل إن هؤلاء الإسبان فاقوا ببطولتهم بطولة أجدادهم الأقدمين فى حصار نومنسيه(١) .

أجابت الحكومة طلبهم بأن أرسلت كاهناً إلى القصر ، فقام بواجبه ، فسمع المحاصرون القداس واعترفوا وتناولوا القربان المقدس وعمّدت أمٌّ طفلها ابن شهر — ولد فى ذلك الحصار — وهى تقول — فدية لمن فدانا بدمه على الصليب وفدية لإسبانيا !

ثم مضت الحكومة فى عملها وقد كانت حفرت لغما تحت القصر من الجهة الجنوبية الغربية ، وحشت الصخور فى الأساس بالديناميت .

---

(١) نومسية Numentia فى مقاطعة أراغون حاصرها القائد الرومانى سبيو فى سنة ١٣٨ ق . م حصاراً طويلا ثم دمرها .

وفى صباح اليوم الثامن عشر من سبتمبر أشعلت النار فى الأسلاك الممتدة إلى تلك الألغام فحدث الانفجار الذى ملأ السماء دخاناً ودوياً ، وترددت أصداؤه فى أسس المدينة ، وفى اضطراب أمواج النهر الذى يحيط بها .

وقد تلا ذلك الانفجار هجوم على المحاصرين ، فصمدوا للعدو فى الأروقة والسراديب واحتدمت المعركة فى دخان ذلك الانفجار ، وبين الجدران المتهدمة . فكتب النصر لرجال الجنرال مسكردو .

رجع جيش الحكومة مدحوراً واستأنف العمل فى الحفر تحت القصر ووراء جدرانه فكان المحاصرون يسمعون وقع أصوات الحديد على الصخور ، ولا ينتظرون هذه المرة هجوماً من الجنود بل من حجارة القصر نفسه وقد دمر تدميراً — سنموت جميعاً تحت الردم وبين الأنقاض .

وما مات غير قليل منهم فى كل مدة الحصار[1] وقد شوهد فى ذلك ، بعد الانفجار الهائل ، عساكر قادمين إلى المدينة . من غير جهة مدريد . هى النجدة ، نجدة الثوار ، وصلت الطليعة قبل الغروب ، وكان أول من دخل القصر ، من كوة جدار مهدوم ، مغربى من الجنود المغاربة يحمل بشائر الخلاص .

وفى اليوم التالى وصل جيش الإنقاذ بقيادة الجنرال فاليرا (Valera) فانكفأ جيش الحكومة عن المدينة ، ودخل المنقذون القصر فى عاصفة من الفرح تتخللها إشراقات من الدموع .

---

(١) استمر الحصار شهراً وثمانية وعشرين يوماً . فات ثمانون من ألف وثمانمئة نفس ، وكان عدد الجرحى والمرضى يوم الإنقاذ نحو خمسمئة .

الفصل التاسع

طبائع الأرض وأهلها

عدنا من طليطلة إلى مدريد، لنسلك طريقاً ملكيًّا آخر إلى قرطبة . فسرنا جنوباً بشرق إلى أرَنْخُويس (Aranjuez) المدينة الإسبانية التى ليس فيها أثر عربى أو غوطى . فقد أسست فى القرن الرابع عشر لأخوية من الأخويات الدينية ، ثم صارت مصيفاً للملكة إيزابلا ، ثم محطة صيد للملوك قشتالة ، فشيدت فيها القصور وغرست الحدائق بكل نادر من الشجر والزهور . وهى لا تزال مشهورة بحديقتها الغناء ، وبطيورها الغريدة ، خصوصاً القبَّرة ، وبحرِّها فى الصيف ، وحمَّياتها ! فهل كانت كذلك عندما اختارتها الملكة التقية النقية مصيفاً لها ؟

مررنا بها مر الجاهل السعيد، فما شممنا نفح طيبها ، ولا سمعنا عندليبها، ولا وقفنا لنتحقق ما يقوله الدليل عنها . وإنه لعجيب هذا التغير فى المناخ ، والأرض واحدة فى طبيعتها وعلوها . ليس بين أرنخويس وطليطلة مثلا غير خمسة وثلاثين كيلومتراً ولا تفاضل فى العلو ، ولا فى جمال المكان . فنهر الطاخوس يجرى فى سهول المدينتين ويطوقهما بذراعيه . ومع ذلك فإن أرنخويس تنفرد بالحر والحمى ، كما تنفرد بالقبرة التى تغرد على أفنان أشجارها المجلوبة من إنكلترا . وبالهليون الذى ينبت فى أرضها .

إننا لا نزال فى نجد إسبانيا ، على تلك المائدة المربعة من الأرض ، الممتدة شرقاً بغرب وشمالا بجنوب لتصل فى منحدراتها العنيفة إلى البحر الأبيض والأوقيانوس . وقد قامت فى شمالها الغربى جبال الرحمة بين القشتالتين الجديدة والقديمة ، وفى جنوبها جبال مورينة بين قستالة الجديدة والأندلس ،

تتنوع التربة فيهـا ، فتخصب وتجدب وتبور ، كما يتغير وجهها ومناخها ، وفيها التناقض الذى نجده أحياناً فى أسماء ضياعها . كقصر القديس حنا مثلا ، فمن أين جاء القصر للقديس ؟ أو كيف اتصل القديس بالقصر ؟ قد لا نجد فى غير إسبانيا مثل هذه المناقضات فى الاسم الواحد .

ولذلك أسباب طبيعية تاريخية ولغوية فالقصر (Alcazar) بناه العرب طبعاً ، واللفظة تعشقها الإسبان، فزرعوها فى كل مكان . أما السبب التاريخى فهو أن ذلك القصر بعد أن آل إلى النصارى جعل مقرًّا للقديس حنا وإخوانه — لأخوية القديس حنا — التى كان من شأنها أن تجاهد العرب ، وتستأصل شأفتهم . ثم خمدت نار تقواها ، وما بقى من خبرها غير « قصر القديس حنا » الذى اشتهر بعد ذلك بنبيذه شفاعةً بنصف اسمه ، وبمعامل صابونه شفاعةً بالنصف الآخر . ليس كل حصن أو قصر كان للعرب ، ثم صار للإسبان، ينعم بمثل هذا التحول أو التطور . فقصر الجعفرية بسرقسطة أمسى بعد عزه وفضله مركزاً لديوان التفتيش (Inquisition) وفى الطريق الذى سلكه موسى ابن نصير وأدلته اليهود إلى أشتوريا قريةٌ ولد فيها من لا تزال تحمل اسمه تُركويمادا (Torquemada) أكبر عدو للذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين . رحم الله فرائسه جميعاً .

إن نجد إسبانيا ليختلف عن نجد البلاد العربية فى علوه المستمر المستوى على مسافة بضع مئات من الكيلومترات كيفما كان الاتجاه . فى حين أن نجد العرب الذى يبدأ فى الحجاز عند حضَن — من رأى حضناً فقد أنجد — يأخذ فى الانحدار المتواصل غير المحسوس فيصل تدريجاً إلى مستوى البحر فى الأحساء. وهو فى طبيعته الجغرافية والجوية واحد ، فلا تتغير التربة ، ولا يتغير المناخ ، إلا فى بعض الواحات ، مثل العارض . أما فى نجد إسبانيا فإن العلو، بعد أن اجتزنا مئة وخمسين متراً من مدريد هو واحد ، نيف وستمئة متر فوق البحر ،

ولكن طبيعة الأرض بعد « قصر القديس حنا » هى غيرها فى طليطلة وجوارها.

فبعد القصر ندخل فى الناحية العليا من مقاطعة لامنشا (La Mancha) العربية الاسم أطلقه عليها العرب ليبسها[1] ومحلها . وهى الكلمة التى حفظها الإسبان فى جغرافيتهم وفى آدابهم . بل هى اللفظة التى خلدها سرفنتس فى بطل كتابه ضون كيخوته ده لامنشا .

وهاهنا . فى جوار القديس حنا وقصره قرية طبوزو (Tobaso) مسقط رأس تلك الدرة اليتيمة والخريدة الكريمة ، أميرة الحسن والبهاء وربة الحب والوفاء ، دُلشنية الطوبزية ، عروس أحلام الضون كيخوته .

وهاهنا كذلك أرغماسية (Argamasilla) التى يقال إنها الباب الذى أطل منه على العالم رأس ذلك البطل العظيم. ولكن المؤلف سرفنتس يشك فى ذلك. وماحقق حضرته فى الأمر لكى لا تنفرد بلدة من البلدان الإسبانية بفخر المولد الكيخوتى.

لامنشا، هى بلاد ضون كيخوته ، وليس لمسقط رأسه بلد معروف ليتنافس به المتنافسون. لامنشا ، وكفى . ليت شعرى ! لِمَ اختار المؤلف هذه الأرض اليابسة العابسة ليمثل فيها أعظم أدوار العبقرية خصباً وإشراقاً ؟ أليُتم غرضه فى تصوير زمانه اليابس العابس ، وأبناء زمانه الماحلة أيامهم وأحلامهم بريشة السحر والسخرية؟ إنى أجنح إلى هذا الظن . وكأنى به يقول : هاكم العوسج ينبت تيناً، وهاكم التين وقد استحال عوسجاً — إيه يا أشراف إسبانيا، ويا أبناء إسبانيا المقلدين للأشراف — أنتم اليوم العوسج ، وقد كنتم التين ، وأنت يا لامنشا ، يا عوسجة إسبانيا ستصبحين تينة مثمرة ثماراً طيبة للعالم أجمع ، هذى هى ، فى نظرى ، رسالة سرفنتس فى ضون كيخوته . وما سوى ذلك فى الكتاب تفكهة وتطريب .

ليحارب إذن دواليب الهواء فى هذه الصحراء وفى صحراء إسبانيا الاجتماعية .

---

(١) النشاة الشجرة اليابسة جمع نشأ . (القاموس) . والمنشا اسم مكان .

هى هاهنا حقيقة ورمز — وما هى عالية . كأن الهواء يعصف ، مثل عبقرية سرفنتس ، من تحت إلى فوق فيقتصد الفلاح المنشاوى بصنع دواليبه ، فيجعلها من ثمانية إلى عشرة أقدام فقط فوق الأرض . لذلك يستطيع الفارس أن يجرد عليها سيفه أو يذيقها طعن رمحه ، كما فعل ضون كيخوته ، ومزقها شر ممزق ، أتقول إنها هى التى مزّقت ، وما وقّرت ؟ لست أذكر ما فعلت بالبطل المغوار ، أو ما فعل هو بها ، لأن عهدى بالقصة قديم .

وفى هذه الجبال تاب ضون كيخوته إلى الله . تنسك وتعبد وتقشف ، وجلد نفسه كفارة عن ذنوبه من الفروسية . وتزلفاً إلى مليكة قلبه دلشنية الطوبزية . وفيها كذلك اجتمع بالساحر منتيسينوس ، بكهفه المثير الشهير ، الذى كان منجم نحاس فى عهد الرومان .

لندع الغابر من تواريخ وأساطير . ونأخذ بالحياة فى حاضر خبرها وخيرها . فإن فى هذه الأرض قرى كثيرة ، تبدو كالبثور فى وجه المجدور ، وليس فيها صرح قائم غير الكنيسة ، أو شىء متحرك غير دواليب الهواء . وفى هذه الأرض حياة زراعية اجتماعية قديمة العهد — رأينا النساء يحملن على رؤوسهن الجرة وقد ملأنها ماء من العين كأنهن لبنانيات ، أو فلسطينيات .

ورأينا العجلة الكبيرة المتقلقة ، ذات الدولابين الضخمين المقرقرين ، يجرها بغل أو ثور ، أو اثنان من البغال أو الثيران — رأينا هذه العجلات تتقلقل وسمعناها تقرقر فى القرى وفى المدن .

وهاك فلاح لبنان أو فلسطين ، بل فلاح بابل وآشور ، يحرث أرضه — يدغدغها — بمحراث ما بلى . وقد يكون محراث اللبنانى أطول وأمتن ظفراً من محراث الفلاح المنشاوى ، الذى يجره بغل فى الغالب أو بغلان .

عجبت لهذا القديم العاصى على أدوات الزراعة الحديثة فى أرض مثل إسبانيا كثيرة السهول . ولا عجب أن ظل مستعصياً فى جبال لبنان ومنحدراتها

الكثيرة الدكات ، حيث يستحيل استعمال المحراث التجارى أو آلة الحصاد الميكانيكية .

ورأينا النساء فى ساعة الغروب يحصدن بالمناجل قمح السنة ، ويذكرنك بصورة ميليه (Millet) المشهورة .

إن الإسبان متشبثون بالتقاليد ، مقيمون على ما ورثوه من عادة وعقيدة ، إن كان فى الزراعة أم فى الدين ، أو فى البطولة — كما قدمت — أو فى المعاملات التجارية . وإنهم لمثل العرب لا يحسنون الإعلان لأنفسهم ، بل يستنكرونه . ولا يرغبون كثيراً فى الدعاية ، دين حكومات وأمم هذا الزمان . هم قانعون قنوعنا ، متوقرون توقُّرَنا ، ومؤجلون إلى الغد ما يستطيعون أن يعملوه فى الحال . هذه الآفة تجمع بيننا ، كما تجمع القناعة والوقار بين المزارعين والتجار .

ولقد قدمت مثلا من عجيب قناعتهم وصدقهم فى المعاملة إذ قصصت عليك قصة ساعتى فى برغوس . وعندى من الأمثلة غير ذلك . وقفنا مرة فى إحدى القرى ، رغبة بفنجان من القهوة . فجاء صاحب المقهى يخدمنا ، ولكنه عندما علم برغبتنا وبأننا أبناء مدينة ، أو من أهل الأمصار كما يقول عرب البادية ، قال لنا : قهوتنا غير صالحة لكم ، إن مشيتم إلى ساحة القرية — وهى قريبة — تجدوا ما يسركم .

وكنا ندخل المخزن بمدريد فنسأل عن حاجة ما فتحضرها البائعة باسمة ، أو البائع ساكتاً ، دون أن يفوها بغير كلمة السعر . وإن كانت غير موجودة فالكلمة التى تسمع لا تجاوز الحقيقة ، فلا يحاول صاحب المخزن أن يبيعك شيئاً آخر ، أو يلفت نظرك إلى ما هو قريب مما تبتغيه أو شبيه به . غير موجود ، سنيور . وقد تتبع هذه الجملة فى بعض الأحايين كلمة أخرى : قد تجد ما تريد فى المخزن الفلانى فى الجادة الفلانية .

قلت إن الإسبان متشبثون بالتقاليد مقيمون على ما ورثوا من عقيدة وعادة . فيجب علىّ أن أقول كذلك إتماماً للحقيقة فى جميع نواحى الحياة، إن فى إسبانيا روحاً جديدة ، وخصوصاً فى المدن الكبرى وفى السياسة والاجتماع . كنت فى إسبانيا منذ ربع قرن ، فى السنة الثانية من الحرب العظمى . وكنت فى ارتيادى المقاهى أعجب لوجهها المذكّر ولجوها العريق فى التذكير . ما كنت أشاهد امرأة فى مقهى ، وقلما كانت ترى ماشية فى الشارع دون خادمة أو وصيفة لها ، اللهم إلا إذا لم تكن من إحدى الطبقتين الوسطى أو العليا . كانت المرأة إسبانية عربية .

أما اليوم فالمرأة الإسبانية أمست أوربية ، وهى تشارك فى الأعمال الاجتماعية والسياسية كالرجال . ومع ذلك فهى لا تزال على شىء كثير من حشمة المرأة العربية ، وهذا ما يزيد فى فضلها وفتنتها . المرأة الإسبانية مهما يكن اهتمامها بشؤون بلادها السياسية والاجتماعية ، لا تنطلق فى زهوها ومرحها مثلا ، انطلاق الأمريكية أو الفرنسية . ولا تسترسل فى حريتها الفكرية والنفسية استرسال الإنكليزيات .

ولا يزال فى الرجل الإسبانى أشياء من طبيعة العربى ، من رجولته وخشونته . فهو فى معاملته للمرأة لا يخنع خنوع الأمريكى ، ولا يتصلب تصلب الألمانى ، ولا يجامل مجاملة الفرنسى أو الإنكليزى . بل هو يجرى على الطريقة الجامعة بين التقييد والتسريح ، بين المعروف والعدل ، فلا يحبس المرأة بالبيت ، فى هذا الزمان ، ولا يبالغ فى احترامها ، كما يفعل الأمريكيون خصوصاً فى الأماكن العمومية .

أعود إلى الأرض والتاريخ وأحوال الناس . لقد كان الإسبان فى جهادهم العرب يتركون بوراً كل أرض يخرجونهم منها ، ليحشدوا فيها الجيوش ، ويواصلوا الجهاد ، لذلك نرى فى البلاد الكائنة بين الأندلس وقشتالة ، أى فى لامنشا

وإسترمادوره كثيراً من الأراضى غير المشجرة ، وقل اليابسة الماحلة . فبعد أن أخرجوا العرب منها ، أو بالحرى بعد أن انتزعوا قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية من أيديهم ، بقيت الأراضى المجاورة لتلك المدن والمقاطعات جدباء مدة من الزمن . وقد شغلتهم الاضطرابات الداخلية ، والحروب الأهلية ، بعد ذلك عن حراثتها فاكتسبت طبيعة الجدب والبوار .

على أن للوضع الطبيعى الجغرافى مفعوله فى خصب الأرض وجدبها ، وما كل هذه الفيافى تشكو إهمال الإنسان لها . بل فيها ما يشكو إهمال الطبيعة نفسها فتبعد عنها النهرين : وادى يانا ووادى النهر الكبير وتحرمها المياه . كذلك كانت عندما رآها العرب للمرة الأولى وأطلقوا عليها الاسم المعروفة به اليوم . إنما قُسمت بعد ذلك إلى قسمين : الأعلى والأسفل . والاسم والمسمى فى القسم الأعلى . أما فى الأسفل عند بلدة ألبيناس (Valdepenas) ودونها جنوباً فلا يبقى غير الاسم ، فتخضوضر الأرض ، وتكثر الكروم بين مزروعاتها .

ولا نزال مع ذلك فى نجد إسبانيا ، المتعدد الوجوه فى سهله وجبله . وها نحن أولاء ندنو من أعلاه فى جبال قطعناها من الغرب فى الطريق إلى مدريد ، ونجتاز الآن طرفها الشرقى . هى جبال مورينة (Sierra Morena) القائمة بين نهر وادى يانا والوادى الكبير . وفيها ممر خشن الجوانب والطلعة ، رفيع رائع مهيب ، وواد ذكرنى بوادى اليرموك ، نصعد فيه بين نفنفين من الصخور الدكناء ، ترافقنا سكة الحديد بالوادى تحتنا ، فتظهر وتتوارى فى بضعة أنفاق ، كما يظهر ويتوارى بين الصخور رفيقها النهر الصغير . الماء والبخار والبترين فى الممر الواحد !

ذلك الممر أو المضيق — بل هو الاثنان معاً — يدعى بالإسبانية (Puerto de Despenaperros — ويدعى كذلك « قمة الكلاب » ، هو الباب بين الأندلس وقشتالة . كان قديماً طريق الفاتحين فى زحفهم من الجنوب إلى الشمال ، إلى

قلب إسبانيا ثم إلى رأسها فى أشتوريا .

بلغنا من علو الممر ثمانمئة متر ، ثم أخذنا فى الهبوط فأطللنا بعد قليل على السهول الفيح المتموجة اخضراراً وعلى الجبال المكللة بالثلج هناك فى الأفق الجنوبى البعيد — هناك الـ « سيرا ده ناڤادا » (Sierra de Navada) .

وهاك أول محطة لسكة الحديد فى الأندلس ، اسمها القديسة هيلانة (Santa Elena) وخبرها خبر تلك الجزيرة الحاملة اسمها ، المشرفة بذكر أكبر الفاتحين . فمن واترلو (Water Loa) إلى جزيرة القديسة هيلانة ، ومن هيلانة الأندلس هذه إلى واترلو العرب ، « إلى لاس ناباس ده طلوزا » (Las Navas de Tolosa) — القريبة منهـا . هناك نكبوا نكبتهم الكبرى . هناك وقف لهم ملوك النصارى يمدهم جيش من الصليبيين الفرنسيين والإسبان الذين حاربوا فى الشرق .

وكان العرب الموحدون قد جددوا الجهاد يقودهم الخليفة يعقوب المنصور ، فانتصروا على الملك ألفونس الثامن فى وقعة العرّاقة (١١٩٥) وحاولوا بعد ذلك أن يجددوا استيلاءهم على البلدان التى وراء جبال مورينة ، فى قلب إسبانيا ، أى على طليطلة وسرقسطة وتوابعهما فقام بانبارة وما . بعد انكسار الصليبيين للمرة الأخيرة فى فلسطين ، يدعو ملوك النصارى لجهاد المسلمين فى الأندلس . فلبى الدعوة ملوك قشتالة والبرتغال وأرغون ونبارة . وجاءهم فزعاً أولئك الصليبيون العائدون مكسورين من الشرق — جاءوا يبغون الانتقام . فزحف جيش الحلفاء الجرار إلى الأندلس ووقف بعد أن اجتاز ممر دسبنيا بوروس ، بالقرب من سانتا إلبينا .

وخرج العرب والبربر بقيادة الخليفة الناصر خلف المنصور يعقوب ، فالتقوا فى هذا الجوار بجيوش الحلفاء . ووقعت بينهم الوقعة الكبرى ،

وقعة العقاب (يوليو ١٢١٢) التى تدعى فى التواريخ الإسبانية Las Navas (da Tolasa — تلك الوقعة التى قضت على دولة الموحدين بقرطبة — ما عاشت بعدها غير خمس وعشرين سنة — وردت العرب إلى الجنوب — إلى غرناطة — إلى الشواطىء البحرية ، فما تشوّقوا بعد ذلك إلى ما وراء جبال مورينة .

الفصل العاشر

قرطبة[1]

من آفات عرب الفتح الأول أنهم كانوا مستأثرين بالحكم ، وغير عادلين فى توزيع الغنائم بين المجاهدين. ومن آفات إخوانهم البربر ، الذين رافقوا طارق ابن زياد وموسى بن نصير ، أنهم كانوا متقلبين فى نزعاتهم السياسية ، وأشد رغبة بالغنائم منهم بالنعيم الدائم . بل كان فى العرب أنفسهم كثيرون من هؤلاء المجاهدين فى سبيل الدنيا وحطامها .

ومن آفات أولئك العرب الحزبيات الإقليمية — اليمنية والقيسية ، والدولية — الأموية والعباسية ، والمذهبية — الأفريقية الشيعية والأندلسيّة السنية .

وقد كانت الضغائن الحزبية متأصلة فى صدورهم إلى حد منكر مخيف . قال أحد زعماء القيسيين : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها ». بل كان بغض القيسى لليمنى ، وبغض اليمنى للقيسى ، أشد من بغض العرب للأعاجم .

وما اختلف البربر عن العرب فى ضغائنهم وأهوائهم . فكانوا ينحازون

---

(١) عبد الرحمن بن معاوية الأموى الملقب بالداخل أسس الدولة الأموية فى الأندلس، سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) وجعل عاصمتها قرطبة . وقد دامت تلك الدولة حتى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ثم تفككت ، فأمست دويلات عدة فى عهد ملوك الطوائف . أما قرطبة فقد انضمت إلى إمارة إشبيلية فى سنة ١٠٧٠ م ، وفى سنة ١٠٩١ م استولى عليها المرابطون ، فالموحدون فى سنة ١١٤٨ ثم انتزعها من الموحدين فى ٢٢ يوليو سنة ١٢٣٦ الملك القديس فرديناند فانتهى حكم العرب فيها .

حيناً إلى هذا الحزب وحيناً إلى الآخر ، فيستلون على القيسية مثلا سيفاً كان يقطر بدماء اليمنية .

ومن آفات العرب والبربر على السواء أنهم يؤثرون الأشخاص فى الأحكام على الوطنية ، والقوة القاهرة على الحق المشروع ، فينفرون مع كل مستنفر ، ولا يحسبون للمستقبل ، ولا لنتائج الأمور ، حساباً .

ومن آفات الحكم العربى الإسلامى القديم أنه كان مبنيًّا على أوضاع دينية — تعد منزلة — وشخصيات تنفذها وتحافظ عليها ، بدل أن يكون مؤسساً على أنظمة مدنية ، ودستور يحدد نطاقها ويحافظ عليها ، فيتعلم الناس احترام الدستور احترامهم فى الأقل للشخص الحاكم به ويذبون عن النظام والقانون ذبَّهم عن هذا المعز لدين الله ، أو ذلك المعتصم بالله تعالى .

لست أنكر أن الأحكام الأوربية فى ذلك الزمان كانت على الإجمال من هذا النمط العربى الشخصى الارتجالى ، ولكنها تطورت إلى ما هو فوقها ، أى إلى وطنية بأنظمة ، ودولة بدستور فنشأ من الفوضى الإسبانية مثلا نظام سياسىّ مدنىّ شمل قشتالة وليون ، ثم قشتالة وأرغون ، فأصبح بعد ذلك إسبانيًّا دوليًّا ، ثابت الأركان ، وذا مرونة مع ذلك تقبل التطور .

أما الأحكام العربية والدول الإسلامية صاحبة الصول والطول فى المشرق والمغرب ، فما كان فيها ثابتًا إلا الجمود ، والتقيد بأوضاع جامدة ، لا لا تقبل التطور ألبتة . أو بالحرى لا تقبل التطور ما دامت تعد منزلة . فإما أن تلغى بأجمعها ، وإما أن تبقى دائماً على جمودها . هذا فى الماضى وفى كل الدول الإسلامية العربية وغير العربية . ولكن ناموس النشوء والارتقاء فى زماننا تغلب على « المنزلات » فى الأوضاع السياسية ، فتطورت فى العراق وفى مصر تطوراً أوروبيًّا ، إذ أنشئت فى البلدان حكومة مدنية دستورية .

فلو أن هذا التطور حدث فى إسبانيا الإسلامية قبل حدوثه فى إسبانيا المسيحية ، فتكللت الخلافة بدستور يُرفع على الخليفة والرعية ، ويُحترم احترام الكتب الدينية ، وبكلمة أخرى صريحة صحيحة ، لو كان العرب متحدين فى وطنيتهم اتحادهم الدينى فى العهد الأول للإسلام ، ولو أنهم نبذوا الأوضاع الجامدة فى الحكم نبذهم لها فى الفلسفة وفى الشعر ، ولو أنهم أدركوا معنى التضامن والوطنية فقدموا الضمان العام على الضمان الخاص الحزبى أو الشخصى ، وعدلوا عن الاستظهار بالأعاجم على إخوان لهم من دينهم وجلدتهم ، لقامت الدولة العربية المتحدة على أسس متينة وطيدة ثابتة ، ولدامت فى إسبانيا حتى هذه الأيام .

وهناك أسباب أخرى لضعف العرب وفساد أمرهم . منها التسرى وما يخلفه فى الحريم ، وفى الأمة ، وفى الملك ، من مشاكل واضطرابات وفتن . ومنها فى ذلك الزمان تزوج المسلمين بالمسيحيات ، وقد شاع شيوعاً ذريعاً خصوصاً فى قشتالة وأرغون ، فنشأ فى البلاد صنف من الناس سُمُّوا المولَّدين وهم المولَّدون لكل ما فيه اضطراب وفساد فى الهيئة الاجتماعية ، وفى السياسية والدين . ما كان أولئك المولدين من الذين آمنوا ، ولا من الذين كفروا . بل كانوا إمّعات ، حطابين فى كل واد ، معفرين فى كل كرمة وحصاد .

وشر المولَّدين على الأمة مولَّد فى البيت المالك ، فإن تقلد الحكم كان ضعيف الهمة والرأى ، مراوغاً متذبذباً ، وإن تقلده أخ له أو ابن عم كان مثيراً عليه الفتن طمعاً بمنصبه .

وقد مُنيت الخلافة الأموية الأندلسية بمثل هذا الرجل ، وهى فى إبان مجدها وعمرانها ، فكان ذلك من الأسباب التى عجلت بالطور الأخير من تاريخها ، طور التقهقر والفساد ، طور الفوضى والفتن ، طـور الاضمحلال .

قبل ذلك كانت تنعم بحكم فريد فى القوة والعدل وحسن التدبير ، هو حكم ذلك الأموى العظيم عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر ، وقد دام خمسين سنة . كانت الأندلس فيها مطلعاً لأنوار العلم والمدنية والعمران ، وكان الخليفة الناصر فى مقدمة عواهل زمانه عظمة وحكمة واقتداراً . فهو جدير إذن بكل ما صاغه له مؤرخو العرب وشعرائهم من المديح على غلوه[1] .

وقد دام ازدهار الملك ، ورونق الحضارة فى عهد ابنه الحكم الثانى ، الذى اقتفى أثر والده ، وكان إلى ذلك محبًّا للعلم والعلماء مشجعاً على الأعمال الثقافية والعمرانية . ولكنه أساء إلى الإرث الأموى الملكى فى ما أدخل عليه من دم أعجمى . فقد تزوج الحكم بامرأة من شعب آل « باسك » (Basque) الإسبانى الديار ، اسمها أورورا (Aurora) فدعيت بالعربية صبحاً فولدت ابناً كان وحيد أبيه هو هشام الذى خلفه (٩٧٦) على العرش .

هشام بن الحكم من صبح الباسكية — هشام الثانى — هو من أشرت إليه كسبب من أسباب التقهقر فى الملك والأمة ، خلال عشرين سنة ، أى بعد وفاة حاجبه ابن عامر ، وإلى أن احتدمت الحروب الأهلية فأدت إلى الفوضى والاضمحلال . وإليك البيان .

بعد وفاة الحكم الثانى خلفه ابنه هشام القاصر فتولت الحكم أمه الباسيكية ، بمشاركة غالب عم الحاجب ابن عامر وأكبر القادة فى الجيش .

وكان الحاجب مزاحمهما ومناوئاً لهما ، فحجر على الخليفة ، فانتصر

---

(١) وغلو العرب فى المديح أو فى الذم يبلغ بعض الأحايين حد السخرية والاستهجان . فما يحكى عن هذا الخليفة العربى العظيم أنه أراد الفصد يوماً . فقعد فى البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك ، فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر ، فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور فصعد على إناء من ذهب فى المجلس ، وأنشد هذا البيت من الشعر :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا إنما تفصد عرقاً فيه حيى العالمينا !

له غالب وكان وُصبحاً حلفاً عليه . فقامت الحرب بينهما ، أى بين غالب والحاجب صهره ، فاستظهر غالب بنصارى ليون ، وما كان منتصراً . فقد قتل فى المعركة التى كتب فيها النصر لصهره ، فدخل قرطبة مظفراً ، واستقل بالحكم .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن عامر أحب وُصبحاً فى صباها وعندما تلاشى ذلك الحب غدت خصما للحبيب لا دفاعاً عن حقوق ابنها فقط ، بل تشفياً وكيداً . فقد حرضت الحكام ورجال الدولة عليه ، ولا سيما زيرى بن عطية ، عامل الخليفة فى أفريقيا الذى كان يخشاه ابن عامر ، وقلما يخشى سواه .

كان ابن عامر محمد بن عبد الله حاجباً للخليفة الحكم الثانى — حاجباً يعرف حدود وظيفته فلا يتعداها[1] لأن صاحب السلطة كان كذلك صاحب الأمر والنهى . أما فى خلافة ابنه هشام فقد صار الحاجب الحاكم بأمره ، بل الطامع بالعرش . ها هو ذا النقص فى الوطنية والدين . وها هى ذى إحدى آفات الحكم العربى الشخصى الارتجالى .

فمهما يكن المرء عظيما فهو لا يطمع ، إن كان سليم الوطنية ، باغتصاب الملك ، فيزج بالبلاد فى غمرة من الفوضى تفضى إلى الانحلال والاضمحلال . مما لا ريب فيه أن الحاجب ابن عامر كان شجاعاً وكان تقيًّا ، وكان غيوراً على الإسلام . بل كان بطلا من كبار أبطال الجهاد . غزا فى سبع وعشرين سنة ستًّا وخمسين غزوة — غزوتين كل عام ، فى الربيع وفى الصيف — وكان فيها كلها موفقاً .

أجل ، كان موفقاً . كذلك يقول المؤرخون العرب والشعراء ويقولونها مبتهجين . مفتخرين . فما هو ذلك التوفيق ؟ إن من حوادث التاريخ وأعمال رجاله

(١) وقد كان الحاجب فى تلك الأيام شبه وزير للخليفة .

الأقدمين ما هو خير على الدوام ومنها ما هو شر فى كل زمان ومكان . ومنها بين الاثنين ما هو خير وشر فى زمانه . أما غزوات الحاجب ابن عامر الملقب بالمنصور (١) فما هى من الصنف الأول ولا من الصنف الثانى ، ليست شرًّا وخيراً فى كل زمان ومكان . ولا نستطيع أن نقول فى هذا الزمان ، ونحن نعيد النظر فى التاريخ لنمحص ما فيه من حقائق وأوهام ، إنها كانت فى زمانها ومكانها من الخير الذى يرضى الله تعالى .

— وغزا بنبلونة ، ودوخ أرضها ، وفتح معاقلها ، وخرَّب حصونها .

— وغزا لشبونة فدوخ البسائط ، وفتح المعاقل ، وخرَّب الحصون ، وأفسد العمائر ، وغنم الغنائم وسبى السبايا ، وعاد مظفراً .

— وجاء شنتياقب فهدم مصانعها وأسوارها ، وكنيستها ، وعفى آثارها فعادت هشيما كأن لم تغن بالأمس .

— وكانت جيوشه تذبح الرجال من النصارى ، وتسبى النساء والأولاد ، فيباعون أرقاء فى أسواق قرطبة وإشبيلية وغرناطة .

ومع ذلك أقول إن الغزو غزو ، إن كان من المسلمين أم من النصارى ، وقد كان فى الماضى فى كل مكان ، نهباً وسلباً وقتلا وتدميراً . ليس من أجل ذلك إذن أقف متردداً فى إعجابى بابن عامر الحاجب المنصور . ولكن هذا الغازى العظيم فى تقواه ، الحامل علم الإسلام وسيفه ، والحامل تابوته معه فى غزواته ، الجامع من غبارها اللاصق بأثوابه لتصنع منه لبنة توضع تحت رأسه فى ذلك التابوت — هذا الغازى العظيم لم يترك أثراً من آثار العمران والرقى فى البلدان التى غزاها ، ودوخ أرضها ، وخرَّب حصونها . لا ، يا سيدى . ليس فى كل بلاد الأندلس العربية أثر واحد من

---

(١) المنصور لقب اتخذه غير واحد من الخلفاء والملوك ، منهم بل أولهم المنصور العباسى ومنهم الذهبى السعدى سلطان المغرب . ويعقوب المنصور الخليفة الموحدى .

آثار المنصور الحميدة ، وقد كان مع ذلك طامعاً بالعرش ، وغير مبال بنتيجة عمله .

فلو لم يكن الخليفة هشام القاصر ما كان الحاجب المتطاول . ولو لم تكن المرأة الأعجمية النصرانية فى حريم الحكم الثانى ما كان هشام ، وما كان حاجبه .

وقد اتخذ فى الاغتصاب أسلوباً دقيقاً . فالحاكم بأمره عشرين سنة أراد أن يكون الحاكم بأمر الله . ولكنه صانع الأمة فقال فى الأول : إنى الحاجب ولقبى المنصور . فلا أريد أن أسمى بغير الحاجب المنصور ثم أضاف إليه (سنة ٩٩١ م) لقب المؤيد : المنصـــور المؤيد . وقلد ابنه عبد الملك الحجابة . وفى سنة ٩٩٦ أمر بأن يدعى وحده فى المملكة بالسيد : السيد المنصور المؤيد .

ومع كل ذلك لم يكن الخليفة . فاستمر فى مساعيه حتى حمل الخليفة على أن يوقع صك التنازل له عن العرش .

السيد المنصور المؤيد ، وابنه عبد الملك حاجبه ، وهشام مجرد من الخلافة سجين فى قصره . إذن لقد كان ابن عامر مدمراً ، وكان مغتصباً ، وكان إلى ذلك السبب الأول فى اتحاد ملوك النصارى على المسلمين .

ست وخمسون غزوة موفقة ، وهذه الغزوة الأخيرة تذهب بمجد غزواته كلها . تألب ملوك النصارى على المنصور ، والتقت جيوشهم الجرارة بجيوشه المؤلفة من العرب والبربر والصقالبة عند نهر الدويرة فدارت المعركة بينهم (٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م) واستمرت من الفجر حتى الغروب . وعندما طلب المنصور قواده فى المساء ليشاور معهم فى الأمر قيل له إنهم سقطوا صرعى فى القتال . وقد سقط ألوف غيرهم من المسلمين ومن النصارى . ولكنه الغلبة لم تكن للمسلمين . هى المعركة الأخيرة التى خاض عبابها

وكان منهزماً مدحوراً فما عاش بعدها غير سنتين وبضعة أشهر .

مئة سنة من التين والمجد ، تبدأ بخلافة عبد الرحمن الثالث ، وتستمر فى عهد الحكم الثانى ، فيعتريها فى الربع الأخير حماسة دينية من الطراز الأول ، جددها الحاجب المنصور فى غزواته ، فنبهت ملوك النصارى إلى وجوب الاتحاد لمقاومتها ، وتجديد الحملات على العرب .

وقد تلا هذه الحقبة من الزمن ثلاثون سنة سوداء ، بدأت بعهد عبد الملك المظفر ، ابن الحاجب المنصور ، الذى حكم سبع سنوات حكم أبيه ، فاشتعلت نار الفتنة فى قرطبة ، فأخمدها المظفر ، وقتل رجالها ، وما غيّر شيئاً فى سياسة الحاجب تجاه الخليفة المسجون . فاستمرت أمه الباسيكية تقاوم بنى عامر بشتى الأساليب الظاهرة والخفية ، دون أن تؤثر فى عزمهم وخيانتهم .

فبعد وفاة عبد الملك قام بالأمر أخوه عبد الرحمن المقلب بشنجول(١) . ويظهر أن أبناء الحاجب المنصور كانوا مثله فى حبهم للألقاب . فبعد أن انتصر المظفر على أعدائه انتحل لقباً آخر هو سيف الدولة . وعندما خلفه أخوه عبد الرحمن لقب نفسه بالناصر لدين الله — شنجول الناصر لدين الله ! هى حقاً من المهزلات المفجعات . وقد اقتدى شنجول بأبيه فى تشديد العسر على الخليفة الأموى ، والاستبداد والاستقلال بالملك . إنما كان دون أخيه شجاعة ، وما كان على شىء من دهاء أبيه . شنجول المولّد السخيف العقل طلب من الخليفة هشام أن يجعله ولى عهده ، ففعل ذلك قانونياً بشهادة القضاة ، فأثار عليه وعلى شنجول أكابر المسلمين . وفيهم القرشيون والأمويون . فبايعوا محمد بن هشام ، ولقبوه بالمهدى بالله . ثم قبض

(١) كان ابن المنصور من أم ولد نصرانية هى ابنة الملك شنجة (Sancha) ملك ليون فدعته شنجول تذكراً باسم أبيها .

على شنجول ، واحتزوا رقبته ، وحملوا رأسه إلى الخليفة الجديد .

وجاء رؤساء البربر ينصرون هذا الخليفة المهدى فانقلب عليه فريق من الأمويين ، نكاية بأولئك البربر أعدائهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر . ولكن السواد كانوا مع المهدى ، فقبضوا على هشام وأخيه أبى بكر ، وأحضروهما بين يديه ، فأمر بضرب عنقيهما .

وفر سليمان ابن أخيهما (ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن) فاجتمع خارج قرطبة بالبربر فبايعوه على الخلافة ولقبوه بالمستعين .

هذان الخليفتان ، المستعين والمهدى ، كملا العمل المنكر الذى باشره الحاجب المنصور وأبناؤه فقد نصر كليهما فريق من البربر ، وآخر من العرب ، فقامت الحرب الأهلية بينهم ، وكانت أشد ويلا على البلاد مما تقدمها من الفتن العامرية . ذلك لأنهما استعانا بالنصارى الواحد على الآخر .

راح المستعين يستعين « بابن أذفونس »[1] فأعانه على المهدى .

وجاء المهدى يدعو « ابن أذفونس » للتحالف ، فلبى الدعوة مسروراً ولسان حاله يقول : أحارب الواحد منهما بالآخر ، فأفنى الاثنين .

— ودخل المستعين قرطبة ظافراً ثم طرد منها .

— ودخل المهدى العاصمة منتصراً ، ثم خرج منها مدحوراً مذموماً .

— وأعاد المستعين الكرة ، بمساعدة النصارى ، فدخل المدينة ظافراً للمرة الثانية .

— وكرر المهدى الإعادات ، بمساعدة النصارى كذلك ، فاحتل قرطبة ثانية — احتلالا قصير الأجل ، فكانت النهاية للخليفتين كما تشتهى العواذل .

---

(١) أى ابن الملك ألفونس المعروف بابن البربرية .

وما استطاع من خلفهما من الأمويين ، فى السنوات القليلة التالية ، أن ينقذوا السفينة من الغرق . فحكم المرتضى (عبد الرحمن الرابع) ست سنوات حكماً متزعزعاً (١٠١٤ — ١٠٢٠) . وما كمل المستظهر السنة فخلفه ابنه المستكفى ، فحكم أربع سنوات حكماً مرقعاً ، وكان لهشام الثالث ، آخر الأمويين أربع سنوات من الصداع انتهت (١٠٢٧) بدور التفكك الذى تبطّل فيه العرب والبربر ، فاستقلوا بالأعمال ، كل فى ناحيته ، باديس فى غرناطة ، والغزنى فى روندة ، والبرزالى فى قرمونة ، والهراون فى شريش ، وهلمّ جرًّا . ثم تقمص الزعماء ملوكاً بألقاب ضخمة ، قال فيها الشاعر قولة الحق فكان بنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، وبنو هود فى سرقسطة ، وبنوا أبى عامر فى بلنسية ، وبنو جهور فى قرطبة وهلمّ جرًّا مرة أخرى .

فرح ملوك النصارى بملوك الطوائف . ولكنهم كانوا مثلهم فى تلك الحقبة من الزمن ، مشتتى الكلمة ، متخاذلين متحاربين . فمرت خمسون سنة وهذه الحال شاملة بضرباتها المسلمين والنصارى . إلا أنه تخللها فى تاريخ المسيحيين إشعاعات من اليقظة والنشاط ، فحملوا حملات موفقة على أعدائهم فكانت طليطلة أول مدينة انتزعوها منهم . ثم استولى السيد ابن بيبار على بلنسية ووصل ألفونس السادس إلى طرف الجزيرة ، إلى طريفة ، فقضى على السيادة العربية فيها ، وعول على مواصلة الجهاد ليخرج العرب جميعاً من البلاد .

فكتب بعض ملوك الطوائف إلى بطل المغرب يومئذ يوسف بن تاشفين يستظهرونه على العدو ، وقصده المعتمد بن عباد بنفسه ، مؤيداً لزملائه ، فجاز يوسف بجيشه المضيق ، وراح يطلب ألفونس فالتقى به بالقرب من باداخوس ، وهناك التحم الجيشان فى المعركة التى تدعى الزلاّقة (١٠٧٧)

فهزم النصارى شر هزيمة فيها، واضطر بعد ذلك ابن تاشفين أن يعود إلى أفريقية ليقمع فتنة شبت هناك نارها . فعاودت الاضطرابات الأندلس بعد عودته فكتب إليه العلماء يدعونه لحكم البلاد .

وقد كان يوسف ، على ما يظهر ، قانونيًّا ، فاستفتى علماءه فى فتح الأندلس والاستيلاء عليها لإنقاذ المسلمين فيها من فساد ملوكهم ، فقال العلماء إن ذلك جائز بل واجب ، فأرسل إذ ذاك جيشاً بقيادة ابن أبى بكر فاستولى على تلك الدويلات كلها ، ونقل أصحابها إلى أفريقية ، وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد ، الذى أنزل وعائلته فى أغمات ، بالقرب من مراكش ، حيث قضى بضع سنوات تحقق صحة كلمة قالها ، وهى حرز الجمال فى أفريقية ولا رعاية الخنازير فى قشتالة . والشاعر فى كلماته ، مثله فى خياله .

أمير لا يبالى بحقائق الوجود ، فيموت — وقد مات المعتمد فى سنة ١٠٩٦ متمما واجباته الشعرية !

* * *

قام المرابطون[1] بدعوة دينية ، تطهيراً ، كما كانوا يقولون ، لما اعترى الإسلام من الفساد ، وشره ما تفشى فى الأندلس . فأفتى علماء المغرب بفتحها ، وانتزاعها من يد العرب ، « المتساهلين فى دينهم » . وما كان الفتح متعسراً ، لأن العرب أنفسهم عاونوا الفاتح ، بل استظهروا به على الأعداء النصارى ، كما تقدم ، فظهرهم ، وكمّل عمله فنبذهم ظهريًّا .

وكان مذهب المرابطين قائماً بالتفسير اللفظى الحرفى للقرآن ، فيقفون عند ظواهر المعانى ولا يتعدونها ، فاتهموا بالتجسيم ، أى أن الله جسم على

---

(١) المرابط الملازم ثغر العدو . ومنها مجازاً المرابطون أى الملازمون ثغور أعداء الدين . والمربوط ويقول الفرنجة مارابو (Marabu) الزاهد الحكيم المنزه نفسه عن الدنيا .

صورة الإنسان ، وهو نظرياً عين الكفر . وأما عملياً فقد كان المرابطون من غلاة الدين ، بل التدين ، فعدوا تساهل الأمويين من المفاسد التى جاءوا يصلحونها .

ولو لم يقم عليهم أصحاب دعوة أخرى من المسلمين فى المغرب ، لتألب عليهم ملوك النصارى لشدة ما كان من غلوهم الدينى . ولكن حكمهم فى الأندلس لم يدم غير ست وخمسين سنة . ففى أواسط القرن الثانى عشر قام الموحدون يتهمون المرابطين بما كان المرابطون يتهمون به ملوك الطوائف .

ومن هم الموحدون ؟ هم التابعون لاثنين من كبار المغاربة العرب — كبار النفوس والهمة والكلمة ، درجا من كوخ الضعة ، وتدرجا إلى ذروات السيادة والمجد . أحد هؤلاء الاثنين هو محمد بن تومرت السوسى ، من قبيلة مصمودة ، ابن خادم القناديل فى مسجد قريته . وقد اشتهر منذ صباه بالتقوى والتعبد ، ثم ادعى أنه شريف علوى ، ولقب نفسه بالمهدى . فشاع أنه صاحب كرامات وقيامات يؤوها بالقيام بأمر الله . فمن عجائبه أنه شرب البحر مرتين ، وأمر الجبل فجثا معه لله تعالى ! ومن أخباره التاريخية أنه حج وهو فى الثامنة والعشرين من سنه ، ولما عاد من الحجاز باشر الدعوة للتوحيد ولتطهير الإسلام من الأرجاس . والآخر هو عبد المؤمن بن على الفخارى (كان أبوه يصنع الفخار) ، الذى هام على وجهه منذ صباه طالباً للعلم ، فاجتمع بابن تومرت ، فتآلفا وتآخيا — النفوس جنود مجنَّدة — ثم اشتركا فى الدعوة .

كان ابن تومرت فى البدء الأستاذ ، وعبد المؤمن الطالب . ثم صار الأستاذ المهدى ، والطالب قائداً لجيشه . وقد خرجا من ضواحى وهران ومعهما بعض الأتباع فى أول أمرهما ، فمروا بتلمسان ، واستمروا سائرين إلى فاس ، فمراكش ، قاعدة المرابطين ، حيث أعلنوا الدعوة ، وبدأوا ببثها

فى البادية والحضر ، فاضطهدوا وازدادوا قوة وعدداً . ومن أعمال ابن تومرت فى جهاده المرابطين أنه أنشأ مجلس شورى يمثل القبائل التى والته ، فساعد المجلس فى حشد جيش للجهاد ، وكان عبد المؤمن قائداً لذلك الجيش ، فكتب له النصر فى المعارك والتوفيق فى الفتوحات .

وبعد أن توفى ابن تومرت (١١٢٨) تمشى عبد المؤمن على الخطة التى اختطها له فوصل فى فتوحاته إلى وهران ثم إلى تونس ودونها إلى برقة فحدود مصر . خلال ذلك جاز المضيق إلى الأندلس فحمل على المرابطين هناك حملات متوالية ، (١١٤٦ – ١١٥٦) ، فانتصر عليهم فى كل مكان واستأصل شأفتهم ثم أسس على أنقاض الدولة الأموية دولة الموحدين التى دامت مئة سنة ، وكان هو أول من جلس منهم على عرش عبد الرحمن الأموى الكبير .

أما مذهب عبد المؤمن فهو جامع لأشياء من شتى المذاهب الإسلامية ، منها الأشعرية ، والمعتزلة ، ومنها الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة ، مع ترك الرأى والقياس . وقد عاد إلى تأويل ما اشتبه من الآيات والأحاديث ، دون التفسير اللفظى ، لأن الاعتقاد بظاهر الآية قد يبعث إلى التجسيم وهذا ينافى صفات الكمال اللازمة للربوبية . لذلك كفّر المرابطين ودعاهم بالمجسمة .

ثم تخلص من هذا التناقض كله إلى الدعوة المبهمة ، أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأضاف إليها فى الإمامة النظرية الشيعية الاثنى عشرية ، فجاء مذهبه مركباً ، كما ترى ، من شراذم المذاهب المتناقضة .

ومع ذلك قد كانت دولة الموحدين على قصر عهدها من أعظم الدول الإسلامية ، فعادت الحضارة فى الأندلس إلى الازدهار بعد أن كادت تضمحل فى عهد ملوك الطوائف وفى آخر عهد المرابطين .

قال أحد كتاب المغرب فى المؤمن إنه « بسط الحضارة العربية الأندلسية فى المغرب ، فحافظ عليها حتى بعد زوالها من الأندلس[1] .

دخل الإسلام إسبانيا من الجنوب ، وزحف فاتحاً إلى بلاد الشمال ، فعاد منها مدحوراً ، وألقى بجرانه فى الأرض الدافئة الساكنة الخصبة ، أى الأندلس .

ثم جاء الإسلام الأفريقى من البادية ، ومن جبال الأطلس ، بروح جديدة نشيطة عنيفة فجدد للعرب مجداً ، تخللته فترات دامسة .

ولكن روح النشاط والعنف سرت من أولئك المغاربة إلى المسيحيين أنفسهم ، فجددت فى الشمال ، بين صخوره ، وفى خشونة جوانبه ، روح الفتح والجهاد .

أى أن نصارى الشمال حملوا على المسلمين فى الجنوب بالروح الصحراوية الجبلية التى كانت للإسلام الأفريقى ، فكتب النصر النهائى لأهل البلاد .

قلت النصر النهائى ، والأصح أن أضيف إليها النسبى — النصر النهائى النسبى . فبعد وقعة العقاب ، التى ينتهى عندها الدور التوحيدى المجيد ، استمر الموحدون فى الحكم نحو خمسين سنة ، فأخذت خلالها سيادتهم فى الانحطاط فخسروا قرطبة (١٢٣٦) وإشبيلية (١٢٤٨) وملحقاتهما .

ولأمر ما توقفت بعد ذلك حركات ملوك النصارى . سكنت قشتالة ،

---

(١) وكان عبد المؤمن أديباً ينظم الشعر ، وله وزير شاعر مثل ابن عمار وزير المعتمد ابن عباد ، هو أبو جعفر بن عطية . قال الراوى : مر عبد المؤمن ببعض طرق مراكش ، ومعه وزيره ابن عطية ، فأطلت من الشباك جارية بارعة الجمال ، فقال :

أسرت فؤادى من الشباك إذ نظرت

وسأل وزيره أن يجيز فقال : حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

عبد المؤمن : كأنما لحظها فى قلب عاشقها

ابن عطية : سيف المؤيد عبد المؤمن بن على .

تقاعدت أرغون ، نامت ليون . ومر عليها كلها ، وهى فى هذه الحال ، مئتان وخمسون من السنين !

وما نامت أمة العرب ، ولا تقاعدت ، ولا سكنت ريحها ، بالرغم عن كل ما خسرته من البلدان فقد قامت ، بعد دولة الموحدين ، دولة جديدة ، أخت الدولة الأموية فى العظمة والمجد . والحضارة والعمران ، هى الدولة العربية الثالثة فى الأندلس ، دولة غرناطة لبنى نصر ، تلك الدولة التى أسسها محمد بن يوسف بن الأحمر[1] ودامت عزيزة عامرة مئتين وخمسين سنة .

(١) بنو الأحمر من قبيلة بنى نصر التى تمت برحم ماتّة إلى سعد بن عبادة الخزرجى الصحابى .

لائحة تاريخية

بالدول الإسلامية وحكامها العرب والبربر فى الأندلس
منذ الفتح (٧١٢ م) إلى سقوط غرناطة (١٤٩٢)

العمال[١]، عددهم اثنان وعشرون ، أولهم طارق بن زياد (٩٢ هـ — ٧١٢م) وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٣٨ — هـ ٧٥٦ م) .

الأمويون ، عددهم عشرون ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل ، وآخرهم هشام الثالث بن عبد الرحمن الرابع (من ١٣٨ هـ إلى ٤٢٢ هـ أى ٧٥٦ م إلى ١٠٣١) .

ملوك الطوائف ، عددهم خمس وعشرون ، وأجدر تلك الإمارات بالذكر إشبيلية بنى عباد ، وعدد أمرائها ثلاثة لا غير ، القاضى المؤسس وابنه المعتضد ، وحفيده المعتمد (من ٤١٤ هـ إلى ٤٨٤ أى من ١٠٢٤ م إلى ١٠٩٢) .

المرابطون ، عددهم ستة ، أولهم يوسف بن تاشفين وآخرهم يحيى بن غافية (من ٤٨٣ هـ إلى ٥٤٣ أى من ١٠٩١ م إلى ١١٤٩) .

الموحدون ، عددهم ثلاثة عشر ، أولهم عبد المؤمن بن على وآخرهم أبو العلاء الواثق (من ٥٤١ هـ إلى ٦٦٧ أى من ١١٤٧ إلى ١٢٦٩) .

النصريون ، عددهم واحد وعشرون ، أولهم يوسف بن الأحمر بن نصر الملقب بالغالب وآخرهم محمد الحادى عشر أبو عبد الله (من ٦٢٩ هـ إلى ٨٩٧ أى من ١٢٣٢ م إلى ١٤٩٢) .

---

(١) كان عامل أفريقية من قبل الخليفة بدمشق يعين العمال على الأندلس فى بدء الأمر — ثم صار الخليفة نفسه يعينهم فأصبحوا مثل عمال أفريقية مرتبطين بديوانه الملكى .

* * *

مدة الحكم العربى		مدة حكم البربر	
	سنة		سنة
العمال من ٧١٢ إلى ٧٥٦	٤٤	المرابطون من ١٠٩١ إلى ١١٤٩	٥٨
الأمويون من ٧٥٦ إلى ١٠٣١	٢٧٥	الموحدون من ١١٤٧ إلى ١٢٦٩	١٢٢
بنو عباد من ١٠٢٤ إلى ١٠٩٢	٦٨		١٨٠
بنو نصر من ١٢٣٢ إلى ١٤٩٢	٢٦٠		
	٦٤٧		

فالحكم الغالب والنفوذ الأغلب هو للعرب لا للبربر. ومن العدل أن تصحح كلمة تردد فى تواريخ الفرنجة ، وهى الموروس أو المورز (Moros, Moors) والأصح أن يقال : العرب .

الفصل الحادى عشر

الأندلس

يقول علماء الجيولوجية إن الأرض التى تدعى اليوم الأندلس هى الجزء الأخير من شبه الجزيرة الإيبرية الذى قُذف به من جوف البحر إلى ما فوق المياه فى الدور الجيولوجى الثالث (Tertiary period) وبعده[1].

وإن شبه الجزيرة هذه ، التى كانت مغمورة بالمياه حتى ما وراء جبال أفريقية الشمالية ، كانت فى شكل ساعة رملية ، يصل طرفيها الكرويين عنق دقيق ، فدُق هذا العنق — انكسر — فى صعود « الساعة » من البحر ، خلال انفجارات بركانية ، وتفتت صخور نارية فى قعره ، فتكوّن بين البحرين ، الممر الذى يدعى اليوم مضيق جبل طارق .

وإن الضغط الناشئ عن ذلك التفتت وتلك الانفجارات كان يختلف قوة ودفعاً ، عملا بمدى التفتت وعنف الانفجار ، فتبرز الأرض فوق المياه بسائط منخفضة فى بعض الأحايين ، وربى وتلالا وجبالا فى بعضها الآخر . فتبدو متدرجة ، وتبدو متقطعة ، بأنجاد وأغوار ، وأودية وبطاح ، كهذه الأرض التى نحن الآن فيها الكائنة بين جبال مورينة اللاصقة بها شمالا ، وجبال إسبانيا الجنوبية العالية ، أى جبال ناڤادا (Sierra de Navada) ، وفيها القنة العليا التى تبلغ ثلاثة آلاف ومئتى متر فوق البحر .

---

(١) « بعد الدور الثالث ارتفع فوق البحر ثلاثة أرباع القارة الأوربية » — درابر (Draper) فى كتابه : التطور العقلى فى أوربا .

وهذه البلاد ، الأندلس ، تقسم جغرافيًّا إلى قسمين : الأندلس العليا والأندلس السفلى . فالعليا هى شمالى الوادى الكبير ، والسفلى جنوبيّه . وهى وأفريقية الشمالية ، كما أنهما وسوريا ، فى الإقليم الواحد ، فتتشابه فى الجفاف الصيفى ، وفى الاعتدال كل فصول السنة ، وفى النباتات والأطيار .

هذه الأرض الخصبة الناعمة الجوانب والربى يشقها النهر الذى أسماه العرب الوادى الكبير ، وهو ووادياه آخر ما برز فوق المياه ، إذ كان الضغط تحتها قليلا . لذلك لا يعلو عن البحر فى أعلى مكان منه أكثر من مئة وخمسين متراً .

وإن الوادى الكبير هذا لأكبر نهر فى إسبانيا بعد نهر إبرة ، فهو ينبع فى جبال قزرلا (Casorla) ويجتمع إليه أنهر عدة صغيرة ، تجرى من سفوح جبال مورينة ، أعاليه هائجة صاخبة ، ولكنه يصل إلى قرطبة هادئاً ، ويجرى فى البسائط متسعاً مرتاحاً ، فيصلح للملاحة الشراعية إلى إشبيلية ، حيث السفن التجارية المعتدلة الحجم تبحر منها إلى خليج قادش فالبحر الأطلنتيق . وهذا النهر عرضة للفيضان المفاجىء السريع ، من ذوب الثلوج على الجبال ، فيبلغ علوه ، على ما يقال ، ثمانية أمتار . شاهدته مرة فى إشبيلية ، فى ربيع سنة ١٩١٧ ، يوم بلغ ارتفاع المياه خمسة أمتار ، فاستحالت أسواق المدينة أنهراً ، وساحاتها بحيرات .

كانت الأندلس أيام العرب تنحصر فى إشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة وملحقاتها . وهى تقسم اليوم إداريًّا إلى ثمانى ولايات[1] أما اسمها فقد اختُلف فى تفسيره ، فقيل إنه محرف من وندليسيا (Vandalicia) نسبة إلى شعب الوندال ، أو إلى اسم الميناء الذى عبروا منه البحر إلى أفريقية ؟ وقد قال بعض علماء الفرنجة إنها عربية الأصل معناها أرض المغرب . وهذا مستغرب ،

(١) هى المرية وقادش وقرطبة وغرناطة وحلفة ومالقة وإشبيلية وجيان .

إلا أن فى القاموس ، مادة دلس ، أدلست الأرض أى اخضرت بالأدلاس ، جمع دلس ، وهو نبت يورق آخر الصيف . فهل يصح الافتراض أن العرب اشتقوا من أدلس فعلا للمطاوعة أندلس ، ثم قالو الأندلس ؟ إن لاخضرار الأرض فى آخر الصيف ، بعد جفاف بضعة أشهر ، بهجة تؤهلها لاسم خاص بها . ولكن بهجة الاخضرار دائمة فى الفصول الأربعة ، لأن أكثر هذه الأرض مغروسة بالزيتون .

قال أحد علماء المسلمين إن النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا أى الأندلس . فلا ريب فى النصف الأخير من هذه الكلمة ، ولا عيب فى النصف الأول إن كان الحارم الله .

فبعد أن خرجنا من المضيق المشهور فى الطرف الشرقى من جبال مورينة ، وشرعنا نهبط إلى السهول تغير كل شىء ، الأرض والهواء والنبات وطبائع الناس .

مررنا بقصور متداعية كانت للعرب ، وبأبراج بنيت فى عهد الأمويين ، فوصلنا إلى القرية (El Carpio) التى هى على الحدود بين الأندلس العليا والأندلس السفلى ، بعد أن هبطنا من علو ثمانية آلاف متر عند سنتالينة (Santa Elena) إلى نيف ومئة متر فوق البحر عند قرطبة . وقبل أن ندخل العاصمة نمر بالمدينة الجديدة ، التى تدعى باسم أختها العربية القديمة ، أى الزاهراء (Mediva Azahra) ، مررنا بها ساعة كانت الشمس ترشقها بسهام الهجيرة ، فكادت أسواقها تخلو من الناس .

وقفنا فى قرطبة للزيارة . وفى قولى قرطبة أقول الجامع الكبير ، ذلك الأثر التاريخى الدينى الفنى النادر النظير فى العالم[1] .

---

(١) كان فى عهد الرومانيين معبد الجانوس (Janus) فتحول فى العهد المسيحى إلى كنيسة كبرى ، فأقام المسلمون مسجداً فيها ، وتركوا نصفها للمسيحيين . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٨م) اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الذى كانت الكنيسة فيه ، ثم هدم البناء بأجمعه ، =

زرت الجامع فى سنة ١٩١٧ ، فكانت دهشتى فى هذه الزيارة الثانية عظيمة . فى زيارتى الأولى كان الجامع كنيسة بأجمعه أو كنيسة تكتنفها من الجهات الثلاث مجموعة من الكنائس الصغيرة ، مثل الكاتدرائيات الغوطية . وكان السقف بروافده محجوباً بسقف من الجص مبيض ، وكانت قواعد العمد مدفونة تحت البلاط . عظمة تُذَل بالفأس والمعول ، جمال يشوّه باسم الدين . روعة تكفّن بالجص ، وتقبّح بتماثيل تافهة من الجفصين .

روى أن الملك شارلس الخامس قال يوم زار الجامع بعد أن استولى المسيحيون عليه : لو كنت عالماً بما عزموا على عمله لما أذنت به ، لأن ما بنيتم موجود فى كل مكان ، أما ما هدمتم فمنقطع النظير فى العالم .

وبعد ستمئة سنة قامت الحكومة الإسبانية تصلح ما أفسده النصارى الأقدمون . فقد أخرجت من وراء الجص أمثلة من الروافد المنقوشة الملونة ، وقد كادت تبلى من ظلمات الجهل والتعصب ، وراء ذلك السقف السمج . إلا أنه لا يزال للفن ، شكلا ولوناً ، أثر فيها ، فباشر الصناع عمل الروافد الجديدة الشبيهة بها بالنقوش والألوان الأصلية . وكانوا قد أنجزوا جزءاً من ذلك السقف ، فأعادوا إليه جماله القديم ، وهو إلى جنب ما بقى من السقف الأمسح المبيض ، آية من الحسن والبهاء .

ومما عملوه لإتمام المنبر الفنى أنهم حفروا حول قسم من العمد ، نحو نصف ذراع ، فبدت قواعده الجميلة وأعادوا التبليط فى مستوى الأرض الجديد .

وأهم من كل ذلك أنهم نزعوا من جوانب الجامع تلك المذابح ، أو الكنائس الصغيرة ، التى كانت تزيد فى تشويهه .

= وبنى موضعه مسجداً هو نواة الجامع الحالى . فزيد بمساحته فى عهد الحكم الثانى ، وأضيفت إليه الزيادة الكبرى فى عهد عبد الرحمن الثانى ثم فى أيام الحاجب المنصور بعده أى فى النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد .

أما القناديل ، تلك المئات التى تنور الجامع فتزيد بروعته وجلاله ، فلم يبق منها غير قنديل واحد كبير من النحاس المطرق ، يزين اليوم القسم الذى لا يزال كنيسة تقام فيها الصلاة .

وكان أناس ساعة زيارتنا يصلون ، وأناس من العمال فى ناحية أخرى من الجامع يعملون فى تجديده . وقد قيل لنا إن العمل سيتم بنقل هذه الكنيسة ، فيغدو الجامع أثراً من الآثار العربية الخالدة ، أثراً للزيارة والعلم فقط ، كالحمراء فى غرناطة ، والصومعة فى إشبيلية .

إن أجمل بقعة فى الأندلس هى هذه التى بين قرطبة وإشبيلية ، كنا نرسل النظر فى الآفاق البعيدة المشرقة ، والأرض بيننا وبينها تتموج ألواناً بما فى حقولها ورباها من البقع المزروعة والمحصودة ، البقع الخضراء والحمراء والذهبية والبنيّة . وهناك الأراضى التى تهبط وتعلو برفق ورشاقة ، فتبدو كالأراجيح وقد غرست بالزيتون ، صفوفاً كأنها صفوف العمد فى الجامع الكبير ، أو صفوف من الجنود ، جنود السلام .

هى ذى الطبيعة فى مجدها — فى لطفها وحسنها وسكوتها وثمارها .

وهاك الوادى الكبير يجتمع بنهر غرناطة ، نهر الشنيل ، بالقرب من بلما دل ريو (Palma del Rio) . وفى بينا فلور (Pena Flor) شلالات تدير مياهها طواحين حديثة وقديمة ، وبين القديمة طاحون من عهد العرب لا تزال عامرة .

وهذه قرمونة قائمة على رأس الرابية . هى البلدة التى احتلها موسى بن نصير بعد احتلاله لإشبيلية ، يمر الطريق من أسفلها إلى أعلاها فينكشف منه الطرف الغربى من جبال مورينة ، التى قطعناها فى ذهابنا إلى مدريد .

وهى ذى قلعة وادى الغار (Alcala de Guadaira) فرن إشبيلية ومورد خبزها ، وزاوية من زوايا القلب الشارد فى الرحلة الأندلسية الأولى . فقد طالما فر هارباً إليها من الحب ، وعاد منها إلى العاصمة والحب رائده .

ومن إشبيلية نصل بعد قليل إلى قرية حُسن الفرج على ضفة النهر . ولا بد من قديس تدخل القداسة الإسبانية رقبته فى النير العربى . فقرية حُسْن الفرج التى كان يؤمها أهل إشبيلية العرب للتنزة ، تدعى اليوم (San Juan de Aznalfarache) أى القديس حنا حسن الفرج !

وفى سيرنا جنوباً نمر بقرية الأختين (Das Hermanas) حيث قضينا فى ربيع سنة ١٩١٧ يوماً سعيداً نقوم بعمل غير سعيد وهو التفتيش فى الريف على بيت نسكنه . إنما كان معنا مفتاح لبيت هو قُصير منمنم ، كثير الغرف والأروقة ، وإلى جانبه مستودع مفتوح بابه ، فدخلناه فإذا هناك مئات من البراميل الكبيرة ملأى بالزيتون الأخضر الفاخر المكبوس بالماء والملح . الزيتون ! وكانت منا هجمة عليه ، ذهبت بقيمة الغذاء الذى حملناه معنا من المدينة .

وهذه الكروم التى تطبق الآفاق تذكرنى بكروم زحلة ، وهذه مدينة شريش المشهورة بخمورها . إننا الآن فى الطرف الجنوبى الغربى من الأندلس السفلى ، حيث تكثر كذلك المناجم . والمرافئ التاريخية . ففى جوار شريش ، فى شمالها الغربى ، سان لوكار ده باراميدا (Saulucar de Barameda) التى يصب الوادى الكبير فى برزخها المتصل بالبحر . فقد كان ميناؤها عامراً فى الماضى ، يجارى ميناء قادش ، ومنه سافر كولمبوس سفرته الثالثة إلى أمريكا . ومنها أبحر ماجلان (Magellan) ليرحل رحلته (١٥١٩) حول الأرض .

وفى ذلك الجوار اليوم أكبر معادن النحاس فى العالم . فمعادن النهر الأحمر (Rio Tinto) شمالا من ميناء حلفة (Huelva) شغلها قديماً الفينيقيون ، واليوم تشغلها شركة إنكليزية فتستخرج منها مليون طن فى السنة .

وبالقرب من حلفا كذلك ، على أربعين كيلومتراً منها مناجم ترشيش – ترشيش التوراة والفينيقيين – ترشيش الذهب . فمنها كانت ثروة مدينة صور .

ولا تزال قادش ميناء إسبانيا على الشاطئ الجنوبى من البحر الأطلنتيق . مررنا بها ، أو بالحرى بالقرب من خلخانها ، وانتهينا فى طريقنا الجنوبية إلى رأس برّ دونها ، فجنحنا منه إلى الشرق الجنوبى ، وبعد أربعين أو خمسين كيلومتراً دخلنا فى غابات الصنوبر والسنديان ، التى تكلل الربى بجوار طريفة .

وهانحن أولاء على رأس برّ آخر نطل على الثلاثة الأبحر : الأوقيانوس والخليج والبحر المتوسط ، وبعد أن نطوى بضعة أكواع من الطريق ، ونحن نهبط إلى مستوى البحر ، ونشرف على جبل طارق ، نصل إلى نهر العسل الذى يشرّف مدينة الجزيرة .

الفصل الثانى عشر

الشريف الطوباوى

قلت إن الرحلة الإسبانية المغربية قد انتهت عندما وصلنا إلى الجزيرة . فلم يبق غير بضعة كيلومترات أقطعها إلى جبل طارق . ثم النزهة فى باخرة مشرِّقة ، ثم الحبس بالفريكة فى لبنان .

ولكن الرفيقين أصلحا ظنى . فقال السنيور طوباو : النهاية بيد الخليفة ، فأردف البستانى قائلا : والمقيم العام .

وعندما وصلنا إلى نزل كرستينة ، رأينا فى الساحة سيارة الخليفة ، فوجم طوباو ، لأنه كان عالماً بعزم سموه على زيارة غرناطة ، فخشى أن تُراد منه المرافقة ، وهو تعب لا يرغب فى المزيد من الأسفار على أنه عاد بعد المقابلة مشرق الجبين ، فقال لى : أنتم أسيرىّ إلى أن نصل إلى تطوان ، فأسلمكم إلى المقيم العام . فتنتهى مهمتى ، وتبدأ مهمتكم الجديدة .

فقلت : أوَظيفة بعد رحلة ؟

فقال : قد تكون الوظيفة تنتظركم ، وقد يكون السجن ، أو المشنقة ، أو ما هو مثلها — خطبة تخطبونها .

فقلت : وما ذنبى ؟

فقال : ذنبكم أنكم من العلماء الفضوليين . العفو ، الأفاضل . فقد سألتم السؤالات ، وسجلتم المعلومات وحدقتم كثيراً إلى كل ذو ساق أنيق ، العفو ، كل ذى ساق . .

فقلت : لا ذو ولا ذى . بل كل ذات ساق أنيقة ، لا أنيق . وأنتم الشريك فى التحديق .

فقال : صحيح ، مليح . والآن إلى تطوان ، يا ابن لبنان .

فقلت : أسوأ خبر وتسجيع ؟

فقال : فى السجع الخير إن شاء الله . ومن الخير أن تسلموا أولا على سمو الخليفة .

وقد تلا السلام على سموه سلامات على المشيعين له ، والمرحبين به ، العرب والإسبان ، وأكثرهم من أصحاب الألقاب ، والرتب التى لا أعرف ألقابها ، ولا طمعت مرة بأن أكون من أبنائها .

فبعد كلمات أحد أولئك النبلاء ، همست فى أذن صديقى همسة واحدة ، فقال ، وهو اللبيب : سننقذكم . يجب أن تصلوا إلى تطوان سالمين للمشنقة أو للخطبة .

عدنا إلى المدينة فتناولنا الغداء فى أحد فنادقها ، ونزلنا بعد الظهر إلى المرفأ فأشرفنا على سيارتنا وهى تُنقل بالسلاسل والحبال إلى الباخرة الصغيرة ، التى تصل سبتة بالجزيرة .

وبينا نحن نجوز بحر الزقاق إلى أرض العدوة ، كما كان يقول العرب الأقدمون ، قال الصديق طوباو : لا شريف ، فى نظرى ، غير العلم . والأشراف الحقيقيون هم العلماء .

فقلت : إذن أنت شريف .

فقال : بل أنتم الشريف .

فقلت : لقد منحتك اللقب ومنحتنيه . فعلينا أن نمنحه رفيقنا وأخانا البستانى .

فقال : والبستانى شريف .

فقلت : ونحن الثلاثة الشرفاء نحمل ألقاباً أخرى توازيها ، إن لم تكن تفوقها شرفاً ، فأنت الشريف الفارس — اسمه الثانى بالإسبانية (Alvarez) .

فقال البستانى مؤيداً ومزيداً : الشريف الفارس الطوباوى .

فقلت : طوبى للشريف الفارس ، وطوبى للشريف الأمين ، وللشريف البستانى ألفريد . وإن فينا نحن الثلاثة ، يتمثل الشريف الأكبر — الشريف الفارس الأمين الفريد — ضون كيخوته ده لا منشا .

عدنا إلى تطوان ، ونحن نمثل هذا الشرف الأكبر الأوحد . وقد مثلناه فى حياتنا الفانية ، كما نمثله الآن فى هذا الكتاب الخالد ، ونحمل لقبه ، ونخلص له ، فكراً وقولا وعملا .

عدنا إلى تطوان نحن الثلاثة الأقانيم للشريف الواحد ، الشريف الفارس الأمين الفريد !

ولكن أقنومنا الأول هو الشريف الطوباوى ، مستشار الخليفة الحسن بن على ، ودائرة معارف السياسة المغربية لفخامة المقيم العام ، ومفتش معهد الدروس المغربية ، والترجمان الأول للإقامة العليا ، ورئيس التشريفات والقصر وتوابعهما .

وهناك وظيفة أخرى ما كنت أدرى ما هى . فهو يؤم دار السعادة الدولية ، طنجة ، كل يوم خلا الأعياد والآحاد . فسألته مرة : وما هى وظيفتكم فى العاصمة المكرمة ؟ فأجاب قائلا : يجيئنى أصحاب الأوجاع ، هذا يشكو صداعاً ، وذاك تخمة ، وهذا يئن من ألم فى ضرسه ، وذاك يصيح كبدى ! أو بطنى ، يجيئنى كل المصابين بالأمراض ، أو الأوهام السياسية فأداويهم . ما الدواء ؟ سألتنى ما هى وظيفتى ؟ فاعلم ، يا أخى الشريف ، أنى مثل كربونات الصودا أصلح كل شىء ، أنفع ولا أضر .

الشريف كربونات الصودا الطوباوى ، قدس الله سره .

نسيت أن أخبرك أنه يحمل كذلك من الأوسمة شيئاً وافراً . فيملأ فى المواقف الرسمية صدره ، يمنة ويسرة ، بالشرائط الحمراء والخضراء والصفراء ، والنجوم المرصعة بالحجارة الكريمة ، وهو فى ثوبة العسكرى — فاتنى أن أخبرك أيضاً أنه ملازم فى الجيش — وأوسمته ، كما هو مجرد منها ، لا تزيد ولا تنقص فى فضله ولطفه واتضاعه ، بل إن له فى الثوب العسكرى والأوسمة غرضاً فوق أغراض الناس .

كان يلبس ذلك الثوب ، ويزين صدره بتلك الأوسمة والشرائط ، فى كل أسفارنا الإسبانية . وكان عندما نصل إلى النزل ، يذهب توًّا إلى غرفته ، ويعود بعد قليل فى الثوب المدنى ، ولا شبه شريط عليه أو وسام .

والسبب فى ذلك ؟ قال ، بارك الله فيه : لا تزال البلاد فى شبه حكم عسكرى — التفتيش والمراقبة فى كل مكان . فسترى إذن ما لهذه البذلة من المنافع فى الطريق .

وما كان فى ما قال مبالغاً . فقد كنا ندخل البلدة ، أو نمر بالمخفر ، فيوقفنا نفر من الدرك . وإذ يرون فى السيارة تلك البذلة العسكرية وعليها صفان من الأوسمة اللألاءة يرفعون أيديهم مسلمين ، ونسير نحن على بركة الله مطمئنين شاكرين ، وبالرفيق الأشرف مفتخرين .

الفصل الثالث عشر

الحذاء والبلغة[1]

فى كل مدينة زرناها ، وكل قرية مررنا بها ، وكل نزل أقمنا فيه ، من تطوان إلى مليلية ، ومن مليلية إلى الأندلس ، إلى مدريد ، إلى برغوس ، كنا نرى الجنود ، عشرات عشرات ، ومئات مئات ، باللباس العسكرى ، المضيِّق للعقلية البشرية ، المبيِّس للشعور الإنسانى ، المقيِّد للأجسام والأحلام .

وكنا نرى الضباط كلهم بالأحذية والمهاميز ، كأنهم صور للقوى المنظمة ، ورموز للحق المادى المؤلَّه كالبعل . والحق حقان . حق فقير وديع يُصلب كل يوم ، وليس من يدافع عنه غير أولئك الذين خفتت أو خُنقت فى هذه الأيام أصواتهم ، وحق غنى متكبر ، ومسلح بكل ما اختُرع من سلاح البر والبحر والجو — الحق الغنى بالسلاح والجيوش ، حق رمزه الحذاء والمهماز ، وحق رمزه الصليب .

والحذاء العسكرى الأنيق الضيق يحبس الدم فى الأطراف السفلى من الأبدان . فيتدفق إلى أعاليها كل فترة من الزمن ، بحكم الناموس الطبيعى الذى يأبى التقييد ، يتدفق إلى الرؤوس فيحدث فيها الهياج العصبى والغضب والتحكم . وأول من يشعر بنتيجته ويتألم به صامتاً خانعاً هو الخادم العسكرى الذى يُلبس الضابط ذلك الحذاء ويساعده فى خلعه .

---

(١) البلغة ، وقد تكون من لغة البربر ، هى الحذاء المغربى الشبيه بالمشاية عندنا ، يلبسه الرجال . أما النساء فحذاؤهن يسمى شربيل .

هو الحذاء الآمر المتحكم . وقد يُلطَّف تأثيره بالاستعراضات العسكرية ، ويسكن بالخطب الحربية ، ينطق بها الدكتاتوريون ، وتنشر بواسطة الآلات المكبرة للأصوات المذيعة لها .

الحذاء الآمر المتحكم الذى يريد أن يكون على رأس هذا الكون ، قد يسأم المناورات والمخاتلات والدعايات والإذعات ، فيبادر إلى الحديد الكاوى — يدوى أمراضه بالكى ، بالاعتداءات على الأمم الضعيفة بالاغتصابات ، بالثورات ، بالحروب — الحروب العظمى ، الحروب الفظيعة !

ولماذا يلبس الدكتاتوريون الأحذية والمهاميز ، خمس عشرة ساعة — وقل عشرين — فى اليوم الواحد فيقلدهم الضباط ، فترتج الأرض تحت نعالهم المسمرة — ترتج أرض القرى . وأرض المدن . وأرض البيوت والأنزال فى ساعات العمل وساعات الفراغ ، وفى ساعات الأكل ، وساعات اللهو والطرب .

أصحاب الأحذية والمهاميز ، وخدمهم ، وصفوف رجالهم ، إنهم ليعملون جميعاً بنظام ويرتاحون بنظام ، ويلهون ويطربون بنظام ، ويسلمون مئات مئات وألوفاً ألوفاً ، بنظام كالآلات يحركها محرك واحد .

ثم يطفرون فيجنُّون ، فيهبون للقتال .

هل هذا هو المثل الأعلى فى الحياة البشرية الحديثة ، ذات الصوت الواحد ، واليد الواحدة ، والحذاء والمهماز ؟ !

* * *

وفى كل مدينة من مدن هذا المغرب زرناها ، وكل جبل وسهل و « مشدر » مررنا به ، وكل نزل وناد يممناه ، وكل زنقة سلكناها ، كنا نرى المغاربة ، رجالا ونساء وأولاداً بالبلغات المغربية ، البيضاء والحمراء والصفراء والخضراء ، يمشون الهوينا يَجُرُّون كالمياه فى البسائط الفيح ، ساكنين هادئين جميعاً — يمشون حيث يشاؤون من الشارع أو الساحة أو الطريق — فى وسطه وإلى

جانبيه ، وكيفما يشاؤون ، بلا أمر يُطاع ، ولا نظام يرعى ، ولا هَمٌّ – ظاهر أو باطن – فى الأرجل ، ولا هَمٌّ ظاهر فى الصدور أو الرؤوس .

ذوو البلغات يطأون الثرى بالنعال الناعمة ، وليس فيها المسمار الواحد ، النعال الساكنة اللطيفة ، أحرار الأرجل والأجسام ، فى الأقل ، فيتمشى الدم ناعماً ساكناً مرتاحاً فى عروقهم ، فتستقيم وتصح الأجسام ، فيحسن أصحابها الأدب فى المعاملة ، وفى السلوك . لا اضطراب ، ولا هياج ، ولا طفرة ولا انفجار . وهم يحسنون فوق كل شىء وفى كل شىء ، الصبر والتؤدة ، ويستشعرون على الدوام السكينة والاطمئنان .

على أن ذلك لا ينفى ما قد يكون كامناً تحت الرماد – وإن لزمنا الاستعارة نقول : تحت « قفحة » البلغة أو بين النعل والفرعة . ولا ينفى ما قد يكون مخزوناً فى النفوس الناعمة الملمس ، الساكنة النظرة ، الهادئة الصوت ، اللطيفة الإشارة والإيجاب .

فإن دعاها داع باسم الوطنية الجديدة ، أو باسم الدين – والاثنان لا يزالان فى هذا المغرب من مترادفات الوطنية – تخرج فى الحال من لطفها وصبرها . وتهبُّ من هدأتها ، فتفعل . وهى بالبلغة والجلباب – لا صوت لها – ما لا تفعله غضبة أولئك الفرنجة الصاخبة ، وهى فى اللباس المزنَّق والحذاء والمهماز . هذا إذا كانت الحرب بين الحذاء والبلغة ، وكان سلاحها السيف ، والبندقية لا غير . وستعود الأمم إليهما ، وتحرِّم ما سواهما من السلاح ، قبل أن تنتهى الحروب .

* * *

وليس من شك فى أن الحذاء والبلغة تؤثران فى النسل . فالمقيدة رجلاه وإرادته ورؤياه ليس كالمطلق الرجلين والإرادة والروح . لا . الدم المحبوس لا يقوم بواجبه ، ساعة الواجب ، كالدم الحر الطليق . وهذا فى نظرى أصل

الخلاف فى مظهرَى النسل فى البلدان الأوربية والشرقية .

فالنسل فى أوربا ينقص ، ليس من الحروب فقط ، بل مما تفسده أيضاً فى الرجال الحياة العسكرية . فإن فى أسبابها ، من الحذاء إلى الخوذة ، وفى قيودها المعنوية والمادية ، ما يضعف جرثومة النسل فى الدم ، فيثقل الإرث العسكرى نفسية الأولاد ، وقد يشوهها تشويهاً منكراً .

أما فى المغرب فالنسل يزداد ازدياداً مستمراً . فلقد رأيت مما مر بك من الإحصاءات أن البنين والبنات الذين هم دون الرابعة عشرة من العمر يضاهون عدد الذكور والإناث فوق تلك السن ، أى أنهم نصف السكان . والأولاد فى أوربا اليوم هم الربع من السكان أو الثلث فى الأكثر .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالاعتبار . وهى أن الحياة فى المغرب تجرى على السنة القديمة فيتناسل المغاربة بالطرق الطبيعية التقليدية ، على ما فيها من نقص فى العلوم الصحية .

وهى فى أوربا ، بالرغم من تلك العلوم المنظمة أسبابها ، تجرى على سنن مستجدة ، هى علمية تقييدية . وقد يصح أن تدعى بدعاً علمية . يوجنيَّة (eugenistic) ، اختيارية ، انتخابية ، وقل بيولوجية حيوانية . وكلها أو جلها ، فى ما يتعلق بالنسل البشرى ، اصطناعية ، تتعزز فيها مشيئة الشخص الفرد فى البلدان الديمقراطية ، ومشيئة الحكومة الفردية ، فى البلدان الدكتاتورية . وفى المشيئتين خروج على السنن الطبيعية ، أو بالحرى المعنوية منها ، وإن كانت قديمة .

قديمه ؟ وما يدريك فقد يكون هذا القديم فى التناسل هو وحده القديم الدائم — القديم الذى لا يزول — القديم المجدَّد كل يوم . وسيقف جديده فى المستقبل على رجليه بالبلغة — بالنعل — لا بالحذاء والمهماز .

الفصل الرابع عشر

فى القصر الخليفى

خليلىّ ! ولا تخيّل ولاتقليد . فهذا الأستاذ طوباو إلى يمينى ، وهذا السنيور أرغون — الحاج الرغونى — إلى يسارى ، على الديوان فى المشْوَر ، يشجعانى ويسهلان علىّ الموقف .

ثم جاء رجل شَمَرْدَلّ بلحية سوداء قوراء ، يرفل فى وفر من الملابس المغربية : جلباب من حرير فوق غلالة من كتان مزرَّرة بأزرار كحب الحمص ، فوق قفطان من الجوخ ، وقد تمنطق بخنجر فضى النصاب طويل رفيع . جاء هذا الشَّمردل يبسم لى ، ويحدثنى بلهجة ريفية ، ساعدنى طوباو فى فهمها ، فعلمت أنه من الذين اشتركوا فى حرب عبد الكريم ، فسألت : أمعه أم عليه ؟ فأجاب وهو يبتسم كالطفل : يوماً معه ، ويوماً عليه .

وقد شاء على ما أظن أن يؤازر خليلىّ فى تشجيعى وتطمينى ، فذكّرنى بالله ، وأنه سبحانه وتعالى « الشفيق الرقيق ، المالك العتيق الوثيق ، لا علو ولا سمو إلا به » .

ثم جاء شمردل آخر هو قائد الحرس الخليفى ، يدعونا لمرافقته ، فمشينا وراءه ، فى رواق طويل مفروش بالسجاد ، وبعد الانعطاف الثالث فيه ، وصلنا إلى المدخل الرهيب ، حيث وقفتْ تستقبلنا مجموعة من البنادق فى شكل هرمى ، فصعدنا بضع درجات ومررنا بمجموعة بنادق أخرى مر الكرام ، فوقف الحارس فى الباب وقال كلمات لم أفهمها .

ثم دخل فدخلنا ، ومشى فمشينا وراءه إلى السدة الخيلفية ، حيث كان سمو الخليفة واقفاً وصدره الأعظم دولة غنمية ، وضابط الارتباط الإسبانى ، وطبيب القصر . فنزل سموه الدرجتين ، من السدة إلى أرض الردهة ، ثم خطا بضع خطوات إلينا ، فرحب بعريس الساعة ترحيباً طيباً ، وعاد يتقدمنا إلى السدة ، فسلمنا ثانية . وتلا السلام تهنئات بالعودة ، منى له إذ كان هو عائداً من غرناطة ، ومنه لى .

ثم ذكر المحاضرة التى ألقيتها فى حفلة جمعية الطالب المغربية وخص بالذكر دعوتى فيها للاتحاد ، اتحاد القبائل وجميع عناصر الأمة ، تحت لواء العروبة . ولا شك فى أن الصدر الأعظم نقل إليه بعض ما جاء فى تلك المحاضرة ، فسررت أنه مكّن الاستحسان للعاطفة العربية الموحدة المفعمة بها .

وبناء على ذلك ، وجزاء على خدماتكم للعرب والعروبة ، ولبلاد المغرب ، نهديكم وسام المهدى من درجة سمو .

ما اضطربت . ولا ابتهجت . بل كنت من ذلك الجو الرسمى وفيه ، واقفاً كسواى بما يستوجبه المقام من جمود .

إنما رمقت طوباو بلحظة علنى أستمد منه شيئاً منعشاً يحرك جمودى فما ظفرت بشىء . بل كان كالتمثال ، لو وكزته برمح لما تحرك .

وكذلك الطبيب الإسبانى ، وضابط الارتباط . أما الصدر الأعظم فإن ابتسامته ، أدامها الله وحياه وحياها ، لمطبوعة على وجهه ، بين اللحية البيضاء والوجنتين الورديتين ، طبعة أبدية .

بعد أن قال الخليفة : نهديكم وسام المهدى ، تحرك طوباو ، وما تحرك سواه . فتقدم إلى مائدة عليها صندوق صغير ، ففتحه ، وأخرج منه الوسام بوشاحه ، فألبسنى الخليفة الوشاح ، وعلق طوباو الوسام على صدرى . وبينا هو فى عمله هذا ، رمقته بنظرة استعطاف ، فومضت عيناه بوميض من الحيلة والفهم فشكرت الله .

وهل يشرف امرؤ بوسام من أعلى رتبة فى الدولة ، ولا يفوه بخطبة ؟ قلت على ما أذكر إنه يستحيل علىّ الإفصاح عما يطموفى صدرى من الشكر والفخر والسرور . لذلك أحنو رأسى صامتاً أمام ولى النعمة . وقد دعوت له ، فوق ذلك بالتوفيق فى خدمة البلاد فيسعد هو بها . وتسعد هى به .

فأجاب بكلمة حسنة مسكُ ختامها : لا نريد أن تكون هذه الزيارة منكم الأولى والأخيرة .

فقلت مدعياً ملكية البلاد : هى بلادى كما هى بلادكم وسأعود إليها إن شاء الله : فأمَّن ، بارك الله فيه ، على الثنتين ، الملكية والعودة .

وبعد ذلك شيعنا فخامة الصدر الأعظم إلى الباب . وأنا قلق حائر : أيجب أن أعود إلى النزل لابساً وشاح المهدى أم ماذا ؟

ولكن طوباو أزال قلقى عندما بلغنا الغرفة التى بدأنا هذا الحديث فيها . فمد يده إلى الوشاح قائلا : لا أظنكم تريدون أن تعرضوه فى السوق .

فقبلته بين عينيه . وقبلنى على الكتف قبلة إسبانية مهنئاً مباركاً .

الفصل الخامس عشر

الأكياس والذى يوسوس فى صدور الناس

أقبح ما رأيت فى المغرب أكياس تمشى فى الأسواق . فى الطرف الأسفل من الكيس رجلان ، وفى الطرف الأعلى رأس وعينان ، لبنت من بنات حواء .

وأفظع ما رأيت حجاب شبيه بالكمامة . حجاب هو فوطة بيضاء ، تُطوى عدة طيات وتشد على الوجه من قصبة الأنف إلى الذقن ، ثم تربط كالعصابة من وراء .

ليس فى أشكال الحجاب ، فى البلدان الإسلامية شرقاً وغرباً أفظع من هذا الشكل المغربى . وليس فى كل ما يطلق عليه من اللباس اسم جلباب أو معطف أو إزار أو عباءة ما هو أقبح وأبشع من هذا الذى يغلف النساء فى المغرب الأقصى ، ويدعى بلغة المغاربة حَيْكا .

وما الحيكا غير ذلك الكيس الأبيض المنفوخ ، لا كالمنطاد ، فهو منفوخ فى أماكن منه ، ومميَّد مجوف فى الأخرى . بل هو مقبَّب ومضلَّع ومسنم ومبعَّج ، عنوان الفوضى فى التقسيم ، لا أثر فيه للاتساق والانسجام . ولا يشفع به غير النظافة . هو كيس أبيض نظيف ، سواء كانت فيه الفقيرة من النساء أم الغنية .

شهدت مرة خارج تطوان مشهداً من تلك الأكياس عجيباً . هناك فى الطريق إلى الثكنة العسكرية ، على رأس الرابية ، جبانة يؤمها النساء يوماً فى الأسبوع للنزهة والزيارة والاجتماع — الجبانة نادى النساء ! وقد يكون هناك

قبر ولى من الأولياء، يزرنه ويثرثرن حوله تيمناً وتبركاً . شهدت ذلك المشهد فخلت النساء لأول وهلة شواهد بيضاء فوق القبور !

قال رفيقى يلطف من قباحة الأكياس : هى شراشف بيضاء تلتف المرأة بها فتخالها خارجة من الحمام ولكن المرأة خارجة من الحمام أو داخلة إليه هى مخلوقة مستحبة فى سترها المكشوف . بل هى مغرية ، حتى وإن كانت عجوزاً متسترة . هى هى السر المكنون .

أما المرأة المغربية ، المختبئة فى كيسها ، فليس فيها ، ولا فى هالتها ، ولا فى خيالها ، ما يحث النظر على حسن الظن والتصور .

دخلت ذات يوم امرأة إفرنجية إلى النزل ، امرأة بيضاء من رأسها إلى قدميها ، بيضاء بمنديلها ، بفستانها ، بجواربها ، بحذائها ذى الكعب العالى ، وبمعطفها ذى الشارة الحمراء ، شارة جمعية الصليب الأحمر . تلك المرأة ، ولا حسن فى وجهها يستوقف النظر ، كانت فى أثوابها البيضاء الأنيقة جذابة للعيون والقلوب .

فهل يفضلها الرجل المغربى بزيها يا ترى على زى المرأة المغربية فى حينكها ، فى كيسها المنتفخ ؟ !

ومن أقبح وأنكر ما شاهدت من صنف الأكياس سرب من البنيّات بين الخامسة والعاشرة من العمر ، يخرجن من المدرسة مكيسات كالنساء . على رأسى وعينى الأكياس البيضاء ! وفيهن البنيات الطاهرات النقيات . ولكن الفوطة البيضاء الصفيقة المشدودة على وجوههن — الحجاب ! أستغفر الله . تلك الكمامات تحبس عنهن الهواء ، وتحول دون التنفس الحر الطليق . فالحجاب فى ألطف الأشكال مستنكر على وجوه البنيات فكيف فى أقبح وأفظع أشكاله ؟

* * *

سمعنى أحد الشبان المثقفين أنتقد تلك الأكياس وأسخط عليها وعلى من

فيها، فجاء بعد أيام يدعونى للعشاء فى بيت له خارج المدينة . ثم جاء هو ورفيقاه مساء فركبنا السيارة ، وخرجنا إلى ضاحية لحفلة بالبساتين فسرنا فى طريق مظلم ، بين سياجات من القصب الفارسى والصبير .

قلت لرفقائى : أنتم الآن تخطفون الريحانى ، كما خطف الريسونى القائد الإنكليزى فى قديم الزمان .

فقال التطوانى الظريف : وستبقى عندنا رهينة الأكياس البيضاء .

وقال الآخر : هى الجزية .

فقلت وبى شىء من الخوف : أهو قصاص أم جزاء ؟

فقالوا جميعاً : سترى عما قريب .

وقفت السيارة أمام بوابة معلق فوقها قنديل ضئيل ، فدخلنا فإذا نحن فى حديقة تمشى إلى البيت وقد أنير بالكهربا .

استقبلنا أحد الخدم ، فمشى أمامنا إلى الصحن ، فصعدنا منه إلى الطابق الثانى وفيه بضع غرف بدواوين عريضة منخفضة ، مفروشة بالزرابى .

جلسنا نتحدث فى السياسة ، وننتظر العشاء .

ثم سمعنا فى الحديقة أصواتاً خافتة تتخللها ضربات خفيفة على العود ، فقال صاحب البيت : هو عبد الوهاب . وستسمعه الليلة هاهنا — فى هذا المغرب .

ودخل عبد الوهاب المغربى ، الشبيه فى وجهه وشبابه ونعس ناظرية بعبد وهابنا المصرى .

أما صوته فهو الصوت الذى ملأ الشرق العربى عذوبة وحنيناً . أجل إن عبد الوهاب الفاسى ليقلد فى أغانيه عبد الوهاب المصرى تقليداً صادقاً دقيقاً فى كل أساليبه الفنية والصوتية . حتى إنك لو سمعته ، دون أن تراه ، لقلت : هذه أسطوانة لعبد الوهاب المشهور — أو هو عبد الوهاب بعينه يسوح فى المغرب الأقصى ، أو إن ماردا حمله إلينا فى تلك الساعة من القاهرة إلى تطوان .

والغناء المغربى يا سى عبد الوهاب ؟ أتسمعنا موالا مغربياً ؟

فرفع صوتاً غير الصوت الأول ، صوتاً عريضاً منخفضاً مخشوشنا . وكان الموال خالياً من الـ « يا ليل » ومن التخنث ، ومن الصبابة المفتعلة ، يجرى فيه الصوت على فطرته المذكرة بشىء من التفخيم المذكر بمداته المفتوحة بالتفخيم الفارسى .

فقلت لعبد الوهاب الفاسى : ما لك يا أخى وتقليد عبد الوهاب المصرى . ما لك والتقليد فإن فى ما أسمعتنا أساس الفن العربى المغربى . فما عليك إلا أن تبنى عليه ، وتحسن به . فإذا استعنت بما عندكم من التقاليد المغربية فى الألحان الأندلسية القديمة ، تهتدى إلى الصحيح الوافر منها ، فتكون قد أضفت إلى الموسيقى العربية الشرقية فنّاً هو اليوم مفقود ، هو الفن الأندلسى القديم . ليس من الواجب أن تكون أغانينا وفنوننا الغنائية كلها واحدة فى المشرق والمغرب ، فإن احتفظ كل قطر بفنه وأتقنه يصبح عندنا طاقة أزهار مختلفة من فنون الغناء تجمعها اللغة العربية وتتضوع منها الغالية الشرقية .

أطلت الكلام فاعتذرت ، فلم يقبل الفنان الكريم الاعتذار ، بل شكرنى ووعد بالبحث عما تركه أهل الأندلس من ألحان ، تناقلتها أصوات المغنين متقطعة وما حفظتها القراطيس .

ثم أسمعنا « طقطوقة » مغربية . وبينا هو يردد .

يا ولهان ،

فى البستان

خاتم غصن البان

سمعنا أصواتاً فى الحديقة كصوت ماء الغدير بين الحصى ، فخرجنا إلى الطنف ، فرأينا بين حمائم الورود أشباحاً بيضاء يصحبها إنسيّان اثنان .

وهاهى ذى تلك الأشباح فى الباب . وهاهى ذى فى الدار . وهاهى ذى أمامنا نحن

الرجال . هى ستة من الأكياس — وقل مدققاً ، من الحوائك (جمع حيكا) استقبلهن رب البيت ، فأدخلهن الغرفة المجاورة للمجلس ، إلا واحدة قدمها إلىّ قائلا : ها هوذا كيس من الأكياس، يا أستاذ ، نكلفك فحصه فحصاً جمركيًّا .

ما بدا من الكيس غير عينين نجلاوين .

فقلت : وهذا اللثام ألا يحسر ؟ احسرى ، رعاك الله .

ففكت عقدة الحجاب ، وأسفرت عن وجه أبيض وردىّ الخدين ، قرمزى الشفتين ، ولا خضاب ، إلا الكحل فى العين — وبسم ألطف من نور البنفسج والأقحوان .

— وهذه « الحيكا » ألا تخلعينها ؟

فسبقت اليد منها اللسان منى . وبرزت فى غلالة من الحرير السماوى اللون، تخفى ما تحتها من حسن التكوين والإهاب ، تخفيه عن العين ، فيبدو شيئاً مبهجاً ساحراً .

— وهذه المنطقة المزركشة بالفضة ألا تخلعينها ؟

فكانت الطائعة . وكانت اليد منها أسرع مما هى فى المؤمنات الطائعات ، القانتات الفاتنات ، سبحان من كون ، وتعالى من صوّر .

وبعد قليل برز من الغرفة الحور أخواتها ، حور الجنان ولا مبالغة . وفيهن الشقراء والبيضاء والسمراء ، وواحدة سوداء سبطة الشعر ، فتانة اللحظ جميلة المبسم .

أما البيضاء فكأنها إنكليزية ، وكأن الشقراء أمريكة ، والسمراء إسبانية أندلسية . وكلهن من أرض المغرب وسمائه . فيختلفن عن فاتنات الفرنجة باتضاعهن وحشمتهن ، وخجل فيهن ما لبثت أن عرفت أنه فطرى غير مجلوب .

وهن ، يا مولانا ، من البنات المتعيشات بما وُهبنه من الحسن ومن فضيلتى

الطاعة والإيمان . فالإيمان من الطاعة ، والطاعة من الإيمان . وهن يؤمن بالله — نعم ، يؤمن بالله — أقسمت السوداء ، وهتفت الشقراء : الله أكبر ! — ويطعن عبده ابن آدم !

تباركت الطائعات القانتات ، الفاتنات الوديعات الرفيقات ، الناعسات الطرف ، القابلات الكلام ، القائلات ، بلسان أختهن السوداء : إن شفاه الحسان خلقت للمُقبَل لا للنطق .

جلسنا بينهن . بل جلسن بيننا على الدواوين الواسعة المنخفضة ، فنسينا عبد الوهاب المغربى وعبد الوهاب المصرى ، ونسينا العشاء .

ولكنه كان . وكان كما ينبغى أن يكون فى تلك الساعة ، مختصراً . إلا بالوسكى الإنكليزىّ ، والنبيذ الشريشى الإسبانى .

وقد حاولت أن أفهم الحوراوين اللتين عن يمينى وشمالى شيئاً من اللغة العربية ، فكانت السمراء تلبس الضحك عجزها ، والبيضاء تموه جهلها باللهجة المغربية . ثم شرعتا تعلمانى لغة الذهب .

وما لغة الذهب ؟ الذهب سرُّها ؟ ولكنه غير الذهب الذى يتكالب الناس فى سبيله . حاشا وكلا . على أنى لا أدرى كيف استخرج علماء المغاربة الذهب من الغزل ، أو الغزل من الذهب . فهم يقولون : ذهب اللحظ بالقلب . أو هذه الحربة بالعين كلها ، أو الغمزة منها تعنى كذا وكذا ، فذهبت مثلا — هى لغة فى ذَهَبَ إذن . والله وأعلم .

وهذه اللغة — لغة العيون — تستعمل عند الشراب بين الرجل والمرأة ، فتقدم المرأة الكأس للرجل ، وتميل بعينها ، بحدقة عينها ، إلى اليمين أو اليسار ، أو ترفعها ، أو تخفضها ، أو تسدل عليها الستار . ولكل حركة معناها . والرجل يأتى بحركة تشابهها إن كان إيجاباً ، أو تختلف عنها إن كان سلباً !

لغة العيون ، لغة الذهب ، إنما هى كلغة الأزهار ، أو المنديل ، أو

غيرهما من لغات الغزل الرمزية . وهى على الإجمال صبيانية ، وفى الأغلب مضحكة ، أما فنيًّا فهى تنسجم وساعة الشراب . ولكن ساعة الرقص ، تتعطل لغات الكلام والرمز كلها ، إلا لغة الحب النورانية .

وكان من الرقص أولا الفرنجى على رنات العود . فرقص الحور والشباب المغاربة رقصة الـ « تنغو » وغيرها . ثم الرقص المفرد من كل حوراء — وليس فيه شىء من الخلاعة . الرقص باليدين والصدر والكتف ليس إلا ، الرقص الشرقى الأدبى . ومن أين جاء رقص البطن ؟ يقول الفرنجة : من المغرب . وهذا الطرف من المغرب يكذب قولهم . فقد يكون فى الطرف الآخر الجنوبى أو من الوسط . من بطن المغرب رقص البطن ؟ لست أدرى ، ولا يضر الجهل .

بعد الرقص المفرد الأهلى الأدبى ، رقصنا جميعاً الرقصة التى يحسنها كل مغربى ومغربية . بل يحسنها الصبيان والبنات . فهى فى المغرب مثل رقص الشقيفات فى الأندلس . بنت الأندلس تخلق والشقيفات بيديها . وبنت المغرب وصبيه يخلقان فى حلقة الدراويش — حلقة الذكر .

كل المغرب يحسن الرقصة الدرويشية الدينية الذكرية . وهى فى نظرى أحسن التمرينات الجسدية المعروفة فى المشرق والمغرب .

رقصنا فى حلقة رقصة الدراويش ، فسكرنا بها ، وما سكرنا بالخمرة الإنكليزية أو الإسبانية ... وبعد ذلك ؟

لقد كانت ضيافة إخوانى التطوانيين حقًّا كاملة . فخرجنا من تلك الجنة ساعة الضحى ، بعد أن شيعنا حورها ، وهن فى الأكياس والكمامات ، إلى السيارات .

ملحق

١ ــ خطبة المقيم العام السنيور ضون خوان بايبدر وخطبة المؤلف
في حفلة معهد الدروس المغربية بتطوان
في ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٩ (١١ جمادى الأولى ١٣٥٨)

٢ ــ كتاب « الكليات » لأبي الوليد ابن رشد .

خطبة المقيم العام

نحتفل اليوم فى هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية وهو صديقنا العزيز الأستاذ أمين الريحانى الذى شرفنا بقبول تسميته « مديراً شرفيًّا لمعهد الدروس المغربية » فباسم الجميع أشكر تلطفه بقبول دعوتنا ، فقد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعينى رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها فى العالم العربى ، فقد جاء إلى هذه المنطقة مجرداً من كل حكم سابق ، بشعوره الكيخوتى . ومن خلال نبوغه المتفوق رأى ما أراد .

إننا طيلة الحرب القاسية التى كللها الانتصار قد عملنا ولم نتكلم . . . ولم يكن عملنا سوى إطاعة لفرنكو لا أقل ولا أكثر .

إن حماية فرنكو هى حماية عاطفية لا سياسية ، وحينما يفكر فى الفتح إنما يقصد به فتح القلوب . إننا نترك الأمر لحكم التاريخ ، والآن لشهادة أمين الريحانى .

فالحماية العاطفية التى ترى من خلالها إسبانيا الإمبراطورية لا تبحث عن الفتح النفعى ولا عن المواد الأولية ولا عن استغلال الناس والأشياء ، إنما تتوق إلى ما هو أسمى ، إلى إحياء عالم سام هو اليوم فى انحطاط ، وما ذلك إلا إنهاض الثقافة والعاطفة والآداب العربية وتجديد جزء لا يتجزأ من إسبانيا نفسها . نريد أن تنبعث قرطبة من الرماد الذى بردته الأجيال .

وبما أنى أتكلم عن الثقافة العربية فمن الثابت أن إسبانيا حيثما حلت

أحلت العربية معها وهذا شيء يجرى فى دمنا — الثقافة والمدنية والتعريب هى فى نظرنا شيء واحد . وإنه لفخر عظيم لى أن أكون أصدرت المرسوم الذى يقضى بتعريب التعليم فى هذه المنطقة السعيدة تعريباً تامًّا . تبقى اللغات الهرمة والتعاليم الفوضوية القديمة كمادة لتنقيب الباحثين . ولكنها لن تصلح للثقافة والحضارة ، إذ المركبة التى تسيران عليها هى العربية ، وهكذا تعتقد إسبانيا .

إن ما عمل خلال هذه السنوات الثلاث فى الدفاع عن اللغة والثقافة العربية ظاهر للعيان ، وإنى لأحتفظ بكل حرص بالرسالة التى بعث بها إلىّ المساعد الأول للجنراليسمو فرنكو وفيها يعطينى تعليمات تتعلق بحرية الصحافة العربية . لقد كان فرنكو يهتم بذلك أيام الحرب ، فإن رجل الإلهامات العبقرية قد أحس بالقضية ، ولم يكن تفكيره منحصراً فى جنوده المغاربة المحبوبين فقط ، بل فى حضارة ومستقبل هذه المنطقة السعيدة التى أودعها قلبه .

هكذا طبقاً لأوامر الزعيم أتيح لمؤسسات التعليم أن تنتشر انتشاراً واسعاً لا سابق له ، كما شجعت الصحافة العربية . لقد رأى أمين الريحانى مدارس ذات بناء متين فى أماكن يصعب الوصول إليها وفى نواح لم تتكلم أبداً باللغة العربية . فاقتنع بأن أهم وأمتن بناء هو المدرسة ، ولتسهيل الوصول إليها أنشئت طرق تفوق مصاريفها مصاريف الأبنية نفسها ، وحيث أن حمايتنا عاطفية تقوم على حب الشعب المغربى ، فقد وجد برهاناً على ذلك حين رأى المؤسسات الاجتماعية كالإصلاحيات والبيوت الرخيصة التى أنشأتها الحكومة لإيواء الفقراء لقاء إيجار زهيد ، والنظام الجديد الذى تسير عليه إدارة سجوننا ومنابع المدنية والثقافة أى تلك المراقبات التى يقوم بأعبائها ضباط من الجيش الإسبانى .

فبإمكان الأستاذ الريحانى أن يحكم على صدق نيتنا ووفائنا وولائنا للشعب

المغربى واحترامنا لشخصيته ورغبتنا الحقيقية فى رفاهية الشعب الشقيق الذى تجمعنا وإياه تقاليد وتاريخ وعاطفة ودم مهراق فى سبيل النصر المشترك . فى هذا الاحتفال الرسمى يجب التحدث عن النصر ، إذ أننا نحيا فى حماسة الظفر الإسبانى العربى ونسمع ترديد آيات النصر فى اللغتين .

ومن واجبى أن أعبر عن تقديرى للجندى المغربى المنقطع النظير فهو أكرم أخ للجندى الإسبانى . لقد استفاق المحارب العربى كما استيقظت فى الوقت نفسه الثقافة العربية ، وفى هذه البقعة كان الانبعاث ، وغير ذلك لم يكن ممكناً . وإذا احتفظ لنا المستقبل بنهضة للثقافة العربية فى حوض البحر المتوسط يجب أن تبتدئ هنا ، فالوقت لم يزل متسعاً لهذا ، وإذا كانت روما دمرت (كورينطو) فإنها لم تقو حتى الآن على محو أثينا .

ونحن حينما نفكر فى النهضة نفكر فى أثينا الشرقية ، وإليها نهرع ملتمسين عوناً ومساعدة فى العمل الثقافى ، وإن حضور الأساتذة الشرقيين اللامعين الذين يسمعون كلامى لدليل ساطع على ذلك ، وأود أن أشير إلى مؤازرة الأحزاب الوطنية المغربية فى هذا العمل الشاق ، هذه الأحزاب التى اعترف بشرعيتها منذ اللحظة الأولى لحركتنا الوطنية ، ولقد فهمت الأحزاب المغربية أن رسالتها الكبرى هى عمل الحضارة والثقافة ، وهى تشارك فى هذا العمل الآن الدولة الحامية كما شاركت فرنكو فى حريتنا الظافرة .

شىء جديد فى المغرب ، فالجبهة الشعبية وأخواتها الأخرى لم يمكنها أن تشعر بالروح العربية ، ولا أن تقدر ذلك المستودع العظيم للقوة والنشاط الذى هو الإسلام ، ولا أن تفهم المثل الإسلامى الأعلى ، وهى ليس بوسعها إلا أن تدمر كورينطو وتضع القيود والأغلال .

يا لها من غريزة عجيبة جعلت سكان هذه المنطقة السعيدة يرون أن الطريق الأمين هو السير على أثر فرنكو ، وقد حملهم إلهامهم على محاربة أولئك



بيوت جديدة للفقراء المغاربة شيدتها الحكومة

الذين اختلسوا مخطوطات الأسكوريال العربية إحدى الكنوز الوطنية العظيمة .

المثل الأعلى لكونه أعلى لا ينضب معينه ، فالآفاق غير محدودة ، وأنظارنا وطموحنا لا حد لها ، ولسنا نرغب فقط فى أن تنبعث قرطبة وأن تعود العربية لغة الثقافة العالمية كما كانت فى العصور الوسطى ، بل إننا لنحلم بإيجاد وئام وتضامن وعلاقات وثيقة بين الثقافتين اللاتينية والعربية ، ونفكر فى إحداث تناسب وتناسق بين الإسلام والنصرانية ، فالشعب العربى كان أكثر الشعوب تسامحاً ، وكان تساهل وتفاهم حينما كانت العربية هى التى تحكم فى البحر الأبيض المتوسط ، ولما ظهر غيرها من اللغات الأجنبية ذات اللهجة المغولية ظهر معها عدم التسامح الذى يتكلم التركية ، وحينئذ محت روما اليونان ، وبدأ أسر بابل من جديد . إن كل حبنا متجه نحو الأسير وقلوبنا مفعمة له بالآمال .

لتنبعث اللغة العربية الجميلة ، لغتنا ، لغة الثقافة العالمية فى القرون الوسطى التى كانت أهميتها إذ ذاك تضاهى أهمية اللاتينية والتى كانت ممر الثقافة بين الشرق والغرب . لتعد اللغة العربية إلى اجتذاب النفوس وتحريك القرائح ، وليبعث ريموند ولوليو وأنسلمو دى طورميدا .

لم يكن بالإمكان تحقيق شىء مما حقق فى هذه السنوات الثلاث لولا اندفاع ومساعدة وإرشاد ونشاط أميرنا المحبوب مولاى الحسن الخليفة المعظم الحاكم فى هذه المنطقة السعيدة ، فنشاطه المستمر وعبقريته المشرقة وخياله الملتهب هى عوامل حاسمة فى تحقيق هذه الأعمال الثقافية العظيمة .

فاسمحوا لى بأن أنوه مع الثناء والاحترام بالصفات النادرة التى يتحلى بها صاحب السمو الخليفة المعظم الذى يتجاوز نفوذه الأدبى حدود هذه المنطقة السعيدة . فشخصيته القوية التى تفرض نفسها والكفاية النادرة التى يمارس بها مهمته الشاقة هى صفات نبيلة تكسبه احترام الجميع . وليس من السهل أن يكون المرء حاكماً محمياً ، لأنه زيادة عن مشاغل الحكم ومتاعبه يلزمه أن يكون

ساهراً على الدفاع عن شعبه ، وأن يكون حارساً بغيرة لتقاليده وعاداته ، وأن يوجه تطور رعاياه فى دائرة تقاليدهم ، ثم فى الوقت نفسه يعمل على نشر الثقافة والحضارة ، دون أن يكون وجود حماية أجنبية سبباً فى إضعاف شخصية شعبه الاجتماعية والثقافية والدينية . وليس هذا وحده بكاف ، إذ أن من واجبه أن يبتكر أفكاراً ومشروعات جديدة ، وأن يطلب مساعدة الدولة الحامية على تحقيق مهمتها التمدينية الملقاة على عاتقها فى أسرع وقت ممكن ، تلك المهمة التى هى الشىء الوحيد الذى يبرر وجودنا بين هؤلاء الإخوة المغاربة .

وسأفاجئكم الآن ببشرى لطيفة مع الثقة بأنها ستنال من قلبكم ارتياحاً عاماً ، ذلك أن سمو الخليفة المعظم قد زين صدر الأستاذ الريحانى بالوسام المهدى من درجة السمو .

والآن وأنا أودع الأستاذ الريحانى أتأمل فى نفسى فأرى بين جنبى روحين إحداهما إسبانية والأخرى عربية ، أما صديقى فليس له الآن سوى روح عربية ، ولعله عندما يغادر تطوان يكتشف فجأة أننى أقرضته نصف روحى الإسبانية .

خطبة أمين الريحانى

فخامة المقيم العام ودولة الصدر الأعظم

سادتى الكرام

أحييكم باسمَى العروبة الجديدة وإسبانيا الجديدة ، بل باسمَى النهضتين الإسبانية والعربية ، وأحييكم باسمَى العدل والمساواة ، الرافع علمهما الجنراليسمو فرنكو ، والحامل ميزانهما فى هذا المغرب الأقصى الكلونيل بايبدر ، لا حاجة إلى ترداد الألقاب الرسمية ونحن أمام المثل الأعلى فى الرجال ، وهاهوذا المثل الأعلى مجسما فى هذا الرجل الإسبانى العربى الشريف . فهو شريف فى أعماله وأقواله ، شريف فى عواطفه وآماله ، شريف فى حلمه الذهبى ، المحقق إن شاء الله ، فيسعد به العرب والإسبان معاً .

وما حلمه الذهبى غير حلم الجنراليسمو فرنكو العامل فى تحقيقه لخير بلاده ولخير أبناء هذه المنطقة فى المغرب الأقصى التى هى اليوم فى حماية إسبانيا .

أقول : اليوم ، لأننا نجهل ما يكنه الغد ، ولأن العرب أنفسهم يحلمون كذلك حلما ذهبيًّا ، إنما فى الحلمين موطن ائتلاف واتحاد . فى الحلمين باب لتحقيقهما يدخله اليوم فى هذه المنطقة المباركة الإسبان والمغاربة العرب معاً.

لا أقول المنطقة المباركة جزافاً ، فهى حقًّا مباركة بفضل ما فيها من طلائع النهضة العربية الجديدة ، ومن الجهود التى تبذلها الحكومة الخليفية الإقامية بفضل مولاى الحسن وسيدى بايبدر فى بناء الأسس المتينة ، الروحية والثقافية والاقتصادية ، لتلك النهضة .

وهاهنا يأتلف ويتحد الحلمان الذهبيان الإسبانى والعربى – هاهنا فى ميدان الثقافة والعمران . ولنا أن نقول إن الحلم فى جوهره عندنا وعندكم إنما هو حلم عمران ، وثقافة ، حلم عظمة فى الاثنين تجدد ، لتكون أساس العظمة التى يشيد صروحها فى هذا الزمان العرب والإسبان .

هذه الثقافة ، أيها السادة ، هى الثقافة العربية ، وقد امتزجت فى غابر الزمان وتوطدت بالثقافة اللاتينية ، كما قال الكلونيل بايبدر ، وما الثقافة اللاتينية فى مظاهرها غير ثقافة الإغريق التى حمل العرب أنوارها إلى أوربا ، يوم كانت أوربا تتعثر فى الظلمات .

نعم ، لقد كنا – ولا فخر – أصحاب النفوذ فى نشر الثقافة فى المشرق والمغرب ، وقد كان لهذا المغرب ، كما كان للأندلس ، القسط الوافر فى تلك الأعمال المجيدة التى لا يزال ينور ذكرها فى حدائق التاريخ ، ويتضوع أريجها فى التآليف العلمية والفلسفية والأدبية ، المطبوعة والمخطوطة . وإن عندكم فى إسبانيا وفى المغرب كنوزاً من تلك المخطوطات ، قد باشرتم فى جمعها ونشر النفيس منها ، لتكون مصدر وحى ونشاط فى تشييد صروح النهضة الثقافية الجديدة العربية والإسبانية .

أيها السادة ، ليس من الضرورة أن يعاد الماضى بحذافيره ، بل إن ذلك لا يجوز ، وإنه – وإن جاز – غير ممكن . على أنه من الضرورى الواجب أن نعود نحن إلى الماضى لنستمد من أمجاده ما يساعدنا فى أعمالنا التى نريد أن تكون كذلك مجيدة ، إنما الماضى للاستيحاء لا للتقليد ، للتكملة لا للتكرار ، هذا ما يجب أن نفهمه نحن والإسبان جميعاً ، فإن فى تاريخ الأمتين العربية والإسبانية ما نريد أن ننساه ، كما أن فى تاريخهما ما يجب علينا أن نذكره على الدوام ونجدد نشره وتعزيزه ، فنعتز نحن به ، ونزداد أملا ونشاطاً فى الأعمال التى تؤهلنا لنكون خير خلف لخير سلف .



أمين الريحانى بريشة الفنان الأمريكى المعروف « Oberhart »

ومن هذا القبيل خصوصاً يجب علينا شكر الجنراليسمو فرنكو والكلونيل بايبدر ، لأنهما أدركا هذه الحقيقة وباشرا العمل بها لخيرنا وخير إسبانيا معاً . فقد قال الجنراليسمو يوم تشرفت بمقابلته ومحادثته إنه موطن النفس على تأسيس مكتبة عربية فى إحدى عواصم الأندلس يجمع فيها المخطوطات العربية كلها ، فتكون تلك المكتبة محط رحال العلماء والمؤرخين وكل مشتغل بالعلم والأدب من العرب والإسبان فى كل مكان . ولقد سبق الكلونيل بايبدر الجنراليسمو فى أنه باشرها هنا فى هذه المنطقة المباركة ، ذلك العمل الثقافى المجيد ، وستنشر قريباً باكورة أعماله وهى كتاب الكليات لابن رشد .

أجل ، إن الكلونيل بايبدر لسباق إلى المكرمات ، وإنه لمدهش — كدت أقول مزعج — فى المفاجآت فقد فاجأنى بهذا الشرف الذى يبدو غريباً فى خزانة أدبى البسيطة الحقيرة . أمين الريحانى مدير شرفى لمعهد الدروس المغربية ، ويلى وويل أدبى ، فما أنا بأهل للمديريات والعضويات الشرفية أو غير الشرفية فى المعاهد والكليات . أقولها صادقاً لا متواضعاً ، فلقد قدرّ لى أو على أن أقضى حياتى الأدبية خارج الحظيرة ، على شىء من الفوضى ، وكثير من الاستقلال .

على أنى أقبل هذا الشرف الذى تمنحنيه يا فخامة المقيم . أقبله بكثير من الشكر ، وبشىء أكيد صادق من الفخر والسرور . ولكنى أقرن القبول — لا تؤاخذونى — بما يشبه التحفظات والاحتياطات فى المعاهدات الدولية . فإن أنا قصرت بالواجب الذى تفرضه علىّ هذه النعمة — نعمة المديرية الشرفية لمعهد الدروس المغربية — فلا تعويض يفرض علىّ ، ولا لوم علىّ ولا تثريب .

ولكنى عامل بما لا يخلو من روح الواجب ، سأكتب عن هذه المنطقة المغربية العربية المباركة كتاباً إن شاء الله يحمل بين دفتيه الحقيقة كما علمتها بالمشاهدة والسمع والدرس ، وكما تأكدتها من أحاديثى مع الناس هنا كبيرهم

وصغيرهم من مولاى الحسن وبايبدر والوزراء والزعماء والأساتذة إلى الفلاح والإسكاف والبقال .

ولقد حملت فى كل رحلاتى الاستشكافية أسمى روح إنسانية هى روح دون كيخوته الخالد ، تلك الروح التى أشار إليها فخامة المقيم . هى الروح التى تفتح الأبواب إلى القلوب ، وتمهد السبيل إلى أسمى الحقائق وأشرف الأعمال .

هى الروح التى يتجلى لكم بواسطتها يا سيدى بايبدر ذلك الحلم الذهبى ، هى الروح التى تحملكم على أن تسعوا لتكون تطوان قرطبة ثانية . هى الروح التى أوحت إليكم تعميم اللغة العربية الشريفة فى المنطقة كلها . هى الروح التى تملى عليكم مبادئ الوئام والمحبة بين النصرانية والإسلام . هى الروح التى تحرك قلبكم ويدكم وكل مؤتمر لأوامركم فى تأسيس المعاهد الثقافية والدينية والصحية فى منطقة الحماية الإسبانية من المغرب الأقصى .

وهى كذلك الروح التى تدفع بكم إلى المفاجآت العجيبة ، المبهجة منها والمزعجة لكم ولسواكم من الناس . لقد ذكرت إحدى مفاجآتكم لى ، وفى الخير ما يزعج صاحبه حيناً من الأحيان ، وقد جئتمونى اليوم بمفاجأة أخرى ، وهى أن سمو الخليفة مولاى الحسن شرفنى بوسام المهدى من رتبة لا أفهم معناها . ولا أنا من أصحاب التجلة والكرامة لأستحق هذه النعمة . إنى فى كل حال أقبلها شاكراً لسموه مسروراً فخوراً بتعطفه . وسأجتهد أن يكون سلوكى فى المواقف الرسمية القليلة فى حياتى لائقاً بها .

بقيت كلمة الختام وهى التى ختم بها الكلونيل بايبدر خطبته النفيسة ، فقد قال رحم الله أجداده وأجدادى ، إن نصفه إسبانى ونصفه عربى ، وإنه يرجو أن يكون قد حدث فىّ شىء من هذه القسمة . إن فى هذه الكلمة لقلبى مزيجاً من الغبطة والغم ، ويلى من التقسيم فى بلادى وفى نفسى . فقد قسم بلادى الفرنسيون والإنجليز ، وكادت الهجرات تقسم نفسى .

كيف لا وقد ولدت فى لبنان ، ونشأت فى أمريكا ، ثم فى البلاد العربية . ويصح أن أقول إنى ولدت ثلاث مرات ، فتجاذبت نفسى الثلاثة الأوطان ، فهل يريد سيدى الكلونيل بايبدر أن يقول إنى ، وإن كنت قد تجاوزت الستين من عمرى ، أولد للمرة الرابعة فى إسبانيا ؟ إنا لله يا أخى ، وإنا إليه راجعون — راجعون وفينا الوحدة التى أرادها سبحانه وتعالى لنا جميعاً ، الوحدة السليمة الصافية الخالصة من شوائب التقسيم كلها .

وما هى هذه الوحدة ؟ إنى أقول لكم إنسرفتس عبقريكم الأعظم ، وأبا العلاء المعرى شاعرنا الأكبر — الذى خصه المستشرق الإسبانى الشهير آسين بالاسيو بدرس من دروسه القيمة — إن سرفنتس وأبا العلاء يتحدان فى نفسى ويحفظان فيها تلك الوحدة التى أرادها الله ، وحدة الإنسانية ، والمثل الأعلى فى سبيل الإنسانية .

باسم هذه الوحدة وهذا المثل الأعلى أحييكم ثانية أيها السادة ، وأودعكم الآن على أمل الاجتماع بكم مرة أخرى بعد ألف سنة .

كتاب « الكليات »

لأبى الوليد محمد بن رشد

هى باكورة منشورات معهد الجنرال فرنكو بطنجة المغرب الأقصى ، أو هو الحلقة الأولى من سلسلة المخطوطات العربية التى تعنى بنشرها لجنة المعهد للأبحاث العربية الإسبانية . طبع فى مطبعة الفنون المصورة بالعرائش . والأصح أن المقدمة والفهرس والمعجم العلمى الطبى ، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية مطبوعة كلها طبعاً ، والباقى ، أى كتاب الكليات ، فى مائتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير ، مصور بالتصوير الفوتوغرافى عن النسخة الخطية .

وقد كتب المقدمة ، واستوفى البحث فى حياة ابن رشد وتآليفه وفلسفته ، الأديب اللبنانى ألفريد البستانى ، أستاذ الآداب العربية فى معهد الدروس المغربية بتطوان ، وترجمها إلى اللغة الإسبانية « ضون كريستوبال بيريس بيرا » مراقب أملاك الدولة فى الناحية الغربية من منطقة الحماية الإسبانية فى المغرب .

إن كتاب الكليات هذا لأندر تآليف ابن رشد ، فلا يوجد منه غير نسختين خطيتين ، النسخة التى بين أيدينا صور صفحاتها ، كانت محفوظة فى مكتبة دير الجبل المقدس بأعالى غرناطة وهى أقدمهما وأصحهما ، والثانية التى كانت فى مكتبة سان بطرسبرج قبل الثورة السوفياتية وقد نقلت عنها النسخة غير الكاملة الموجودة اليوم فى مكتبة مدريد الأهلية .

أما تاريخ النسخة المنشورة فى هذا الكتاب فالخاتمة تنبئ به ، وهى كما يلى :

« كمل الكتاب والحمد لله على نعمه التى لا تحصى . صلى الله على محمد رسوله المصطفى وعلى آله وسلم تسليما . وكتبه لنفسه بقرطبة علاها الله عيسى

ابن أحمد بن محمد بن قادر الأموى القرطبى وكان فراغه منه يوم الجمعة فى العشر الوسط من صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، (أى قبل وفاة ابن رشد باثنتى عشرة سنة) . ثم يقول : « طبقت مقابلته بكتاب مؤلفه الشيخ الفقيه القاضى الأروع . . . . الأوحد أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد . . . وذلك فى قرطبة حرسها الله » .

هذه النسخة هى إذن الوحيدة الكاملة السليمة ، المدقق فى نسخها وتحقيقها ، وهى تقسم إلى سبعة أجزاء أو كتب : أولها — تشريح الأعضاء ، ثم ٢ — الصحة ، ٣ — المرض ، ٤ — العلامات ، ٥ — الأدوية والأغذية ، ٦ حفظ الصحة ، ٧ — شفاء الأمراض .

يتلوها فهرسان : فهرس المواضيع ، وفهرس علمى بأسماء النبات ، والأشجار ، والحشائش ، والحيوانات ، والمعادن الطبية . وقد أثبتت أسماؤها كما فى كتاب الدكتور جورج بوست الأميركى « زهور وطيور سورية » باللغتين العربية واللاتينية ثم بالإسبانية فى هذا الكتاب بدل الإنكليزية فى كتاب الدكتور بوست . وإن اللفظ العربى أيضاً مطبوع إلى جنب الاسم بالأحرف الفرنجية فيستطيع تعمله ولفظه من شاء من الإسبان أو غيرهم من الأوربيين .

وقد اعتنت اللجنة بهذه الأسماء المذكورة فى كتاب الكليات اعتناء علمياً فأضافت إلى التعريف والشرح المزية الطبية لكل نبتة أو معدن ، ثم فائدته فى معالجة الأمراض مستعينة على ذلك بكتاب القانون لابن سينا . فجاء — فى صفحاته الستين — فهرساً طريفاً ذا قيمة علمية ، تؤهله لدرس الاختصاصيين علماء النبات والحيوان ، فيمحصون حقائقه ، ويصلحون ما قد يكون من خطأ فيه .

ليس هذا الكاتب من أولئك الاختصاصيين ولكنه من المحبين ، محبى الأشجار والأزهار ، وقد وقف ، على قصر باعه أو لقصر باعه ، فى الموضوع ، موقف الحائر السائل عند بعض التعريفات كالعرعار مثلا وهو (عَرْعَرْ فارسية)

السرو . أما فى الفهرس فهو « برّى السرو » .

لست أعرف للسرو نوعين بريًّا وبستانيًّا . وقد قرأت فى « مقتطف » ديسمبر (كانون أول) الأخير أن الشربين فى الشام هو السرو فى مصر وبلاد الجزائر ، وأن العرعر عندنا هو عندهم الشربين . فهل يريد محرر الفهرس أن يقول إن الشربين هو برى السرو ؟ إن الشربين على ما أعلم هو الـ « جونيبر » بالإنكليزية . والسرو هو الـ « سيبر » بالفرنسية ، والـ « سيبروس » بالإنكليزية . فالعرعر إذن هو غير السرو البرى بل هو السرو المعروف عندنا . والسرو هذا والشربين والأرز هى كلها . فى رأى الثقة الأمير مصطفى الشهابى ، من فصيلة الصنوبر .

وقد جاء فى الفهرس أن ، عصا الراعى نبات شائك . فاسأل الفلاح اللبنانى يقل لك إن عصا الراعى من أجمل النباتات البرية المزهرة ، ولاشوك فيه ، إلا أنه ينبت فى الجبل بين الصخور والأشواك .

حُلبة . . . وفى اليمن يسلقونها ثم يصبونها فوق اللحم والبقول المطبوخة ومعها فتات الخبز . هى ملوخية أهل اليمن .

دلب ، ويقال لها « دلم » ، أما الدلم فى إسبانيا والمغرب فهو شجر الفلين ، وهو شبيه بالسنديان . وأما الدلب فإنه فى قشره الضارب إلى البياض أقرب إلى الحور ، وورقه شبيه بورق العنب ، وهو يكثر مثل الصفصاف على ضفاف الأنهر بلبنان .

* * *

أما موضوع كتاب الكليات فالنظر فيه من اختصاص الأطباء العلماء . ولا أظن أن هذه الطبعة الفوتوغرافية تمكن من ذلك فقد جاءت الصفحات غير متساوية فى الطبع الواضح الجلى ، فيها الكثيف والرقيق ، الغاص بالحبر والظامئ إليه ، المطموس والخفى ، وهى فوق ذلك مكتوبة بالخط المغربى . الذى لا تسهل قراءته لعرب المشرق .

لذلك أقترح على معهد الجنرال فرنكو أن ينشر فى المستقبل إلى جنب المخطوطة نصها المطبوع لتتم الفائدة . أما فى الشكل الحاضر فالفائدة تنحصر فى بعض المعاهد الشرقية والعربية وفريق قليل من الناس هم المستشرقون والمغرمون باقتناء مثل هذه الأعلاق الأدبية والعلمية .

لست أشك فى أن المعهد الجليل يقبل الاقتراح وقد صدر الكتاب بتقدمة منه جميلة أنقلها بالحرف الواحد .

« هذا كتاب كليات ابن رشد يقدمه معهد الجنرال فرنكو إلى نطس أطباء العرب وإلى كافة المعجبين بعبقرية فيلسوف الأندلس وطبيبها المشهور عربون المودة الصادقة بين الأمتين ، وبرهاناً على تجديد الصلة الثقافية بين الشعبين . »

إذن سيتلو هذا الكتاب غيره من كنوز المخطوطات العربية الموجودة فى إسبانيا . وقد قال لى الجنرال فرنكو يوم تشرفت بزيارته فى برغوس فى الربيع الماضى ، وهو يذكر تلك المخطوطات ببهجة الفخر والحماسة : إنه معتزم نشر أكثرها لتكون أساس النهضة الثقافية الجديدة العربية الإسبانية . فعسى ألا يفوت اللجنة طبع نص المخطوطة إلى جانب الأصل أو معها فى الكتاب الواحد ، فمهما يكن حظها من الخط الواضح الجميل فهى فى الطبع بعد التصوير ، لا تخلص من الشوائب الميكانيكية .

بقى أن أقدم للقارئ نموذجاً من مباحث ابن رشد فى « الكليات » وإنى أختار ما لا يتجاوز أفق علمى وفهمى ، فأنقل من كتاب « حفظ الصحة » مثالا من بحثه العلمى . فهو يقول فى الرياضة إنها « بالجملة حركة الأعضاء بإرادة . وذلك أولا للأعضاء التى تحفظ بها الحركة وهى جميع الأعضاء التى لها حركة إرادية . وثانياً : الأعضاء التى تجاوز هذه ، وهى الأوردة وآلات الغذاء ولما كانت الرياضة هى حركات الأعضاء كان منها جزئى وكلى . وذلك أن منها ما هى رياضة لجميع البدن ، وهى الحركة الكلية النقلية لجميع

الحيوان ، ومنها ما هى رياضة مخصوصة بعضو ما مثل أن الصوت رياضة للريق (للرئة؟) والقيام والقعود رياضة للقلب . . . والرياضة منها قوية ومنها ضعيفة . . . ومنها السريعة والبطيئة . . . وربما اجتمعت فى الرياضة السرعة والقوة كالذين يطعنون بالرماح . والرياضة المعتدلة فعلها بالجملة تنمية الروح الغريزى ودفع الفضول عن آلات الغذاء وتحليلها وتطبيب الأعضاء أنفسها . وهى فى هذا المعنى أفضل شىء ننمى به الحرارة . . . »

ثم يحذر من المبالغة فى الرياضة فيقول : « أما الرياضة القوية فأنها تستفرغ من البدن أكثر مما يحتاج إليه » .

فكأن ابن رشد رأى فى زمانه ما أدركه العلم فى زماننا ، وهو أن الفضول فى البدن ، أى السموم ، إما أن تزيد ، وإما أن تنقص ، وفى كلا الحالين تفسد عوامل الصحة إن كانت عددية أو غذائية أو عصبية .

ثم ينصح بالاعتدال ويقول : « وأما أن الرياضة بالجملة نعمة عظيمة ، وأنها أفضل من عدم الرياضة ، فذلك تبين من حال المقصورين فى السجون ، فتصفر وجوههم ، وتختل أعمالهم الطبيعية . وليس يظهر هذا فى الإنسان فقط بل وفى جميع الحيوانات المقصورة كالطيور فى الأقفاص وغير ذلك . »

وله فى التدليك بحث لا يقل فائدة عن بحثه فى الرياضة . فيبدو فيهما عصريًّا كأحد علماء عصرنا غير المتطرفين فى نظرياتهم . فهو عصرى ، ليس فى تفضيل الرياضة على العقاقير فى معالجة الأمراض ، وليس فى الدعوة لتقليل العقاقير فى الاستشفاء ، بل فى رفع الرياضة والتدليك والغذاء إلى مستوى الأدوية فى مفعولها ، إن لم يكن إلى مستوى أعلى من مستواها .

فهل هو عصرى كذلك ، أو قريب من علومنا العصرية فى أبحاثه الطبية ؟

هل لكتاب الكليات قيمة علمية دائمة تضاف إلى علوم زماننا ، أو هو حلقة فى سلسلة علم الطب التاريخية ؟

الجواب عن هذه الأسئلة عند الأطباء العلماء الذين يطالعون كتاب « الكليات » مدققين النظر فيه . فتعرف بعد ذلك قيمته الحقيقية ، ولا تضيع فوائده .

١٩٥٢/٣٤٢٧

DATE DUE

FEB 15 2006

SEP 30 2005

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

964
R44

BOUND
JUN 8 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU56811772
964 R44
Maghrib al-Aq s a :